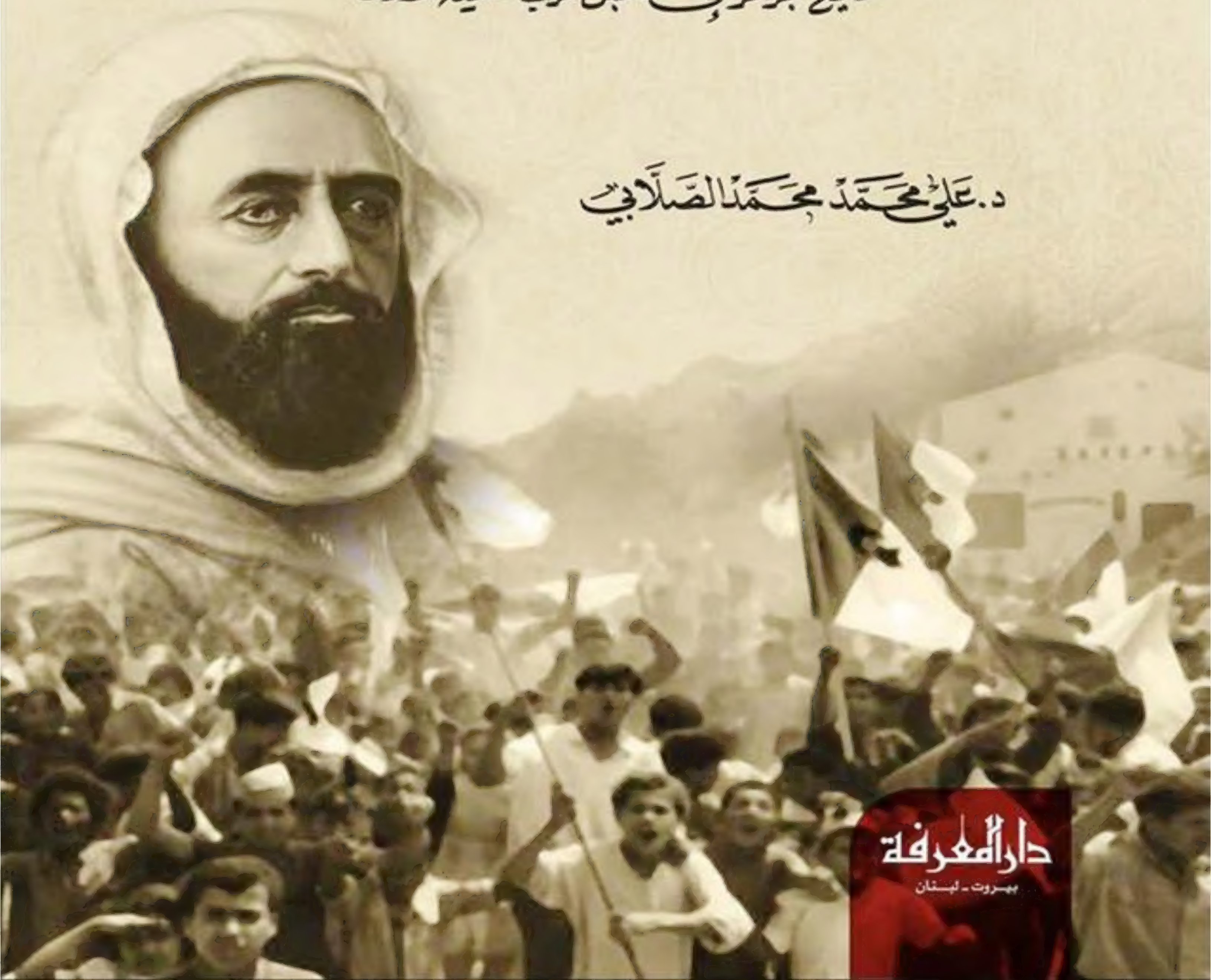
كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الأمير عبد القادر

تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى

د. علي محمد محمد الصلابي



دار المعرفة
بيروت - لبنان

سلسلة كفاح الشعوب

كِفَاحُ الشَّعْبِ الجَزَائِرِيِّ

ضِدَّ الاحتِلال الفرنسي

تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى

تـأليف

د. علي محمّد محمّد الصَّلَّابي

دار المعرفة
DAR EL MAREFAH

الإهداء

إلى الشعب الجزائري الذي رفض الدنيئة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل، وتصدَّى لكلِّ ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

إلى الشعب الذي قدم قوافل الشهداء ودفع الثمن غالياً، وابتُلي بالجوع والخوف، فما وَهَن لما أصابه في سبيل الله، وما ضعُفَ وما استكان للوصول إلى حريته وكرامته وحقوقه واستقلاله.

إلى الشعب الذي سطَّر ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير، وعلَّم الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة، لأن ذلك من سنن الله: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} (فاطر، الآية: ٤٣)

قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (الكهف، آية : ١١٠).

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" (آل عمران ، آية : ١٠٢).

وقال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء ، آية : ١).

وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" (الأحزاب، آية: ٧٠ ـ ٧١).

أمَّا بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

لقد منَّ الله عليَّ بالعيش مع العلم والعلماء، والفكر والمفكرين والثقافة والمثقفين، ودراسة التاريخ الإسلامي، وتاريخ الشعوب والعلوم الإسلامية، فصدرت بحمد الله ومنه وتوفيقه عدة موسوعات منها:

ـ موسوعة السيرة والخلفاء الراشدين والدولة الأموية.

ـ موسوعة الحروب الصليبيَّة.

. موسوعة تاريخ شمال أفريقيا.

. موسوعة أركان الإيمان.

. موسوعة الفكر السياسي الإسلامي.

. موسوعة التفسير الموضوعي في القرآن الكريم: الوسطية في القرآن الكريم، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، المعجزة الخالدة.

وأخذت هذه الدراسات عقوداً من الزمن في البحث والدراسة حتى رأت النور بفضل الله وَمنِّه وتسديده وتوفيقه.

واليوم نتحدث عن موسوعة جديدة.

. موسوعة كفاح الشعوب.

وهذا الكتاب الأول منها: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

فكان على الشكل التالي:

المبحث الأول: الأندلس والشمال الأفريقي بعد سقوط دولة الموحِّدين، وأسباب سقوطها، وعن سقوط غرناطة ووصف حي لتسليمها، ومحاكم التفتيش وفتاوى هامة بخصوص الذين أكرهوا على التنصير وقواعد محاكم التفتيش في معاملة المسلمين وأهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً، وعن دولة بني مرين والدولة الوطاسية، والدولة السعدية بالمغرب الأقصى، وعن الدولة الحفصية ودولة بني عبد الواد.

المبحث الثاني: الاحتلال الإسباني في الجزائر وعن احتلال المرسا الكبير، وتنس ووهران وبجاية ومستغانم، عن أسباب الاحتلال الإسباني لسواحل الساحل الجزائري.

المبحث الثالث: العثمانيون في الجزائر، وقيام الدولة العثمانية: وترجمت لعثمان الأول مؤسس الدولة، وشرحت الدستور الذي سار عليه العثمانيون، وبيّنت أهم السلاطين بعد مؤسس الدولة، ووضحت سيرة الأخوين عروج وخير الدين بربروسة وأصلهما ودورهما بالجهاد في الجزائر والبحر الأبيض المتوسط، وانضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية عام

١٥١٩م، وأسباب ذلك. وتكلمت عن التحديات التي واجهت خير الدين، وعن سفره إلى إسطنبول وأثر جهاده على المغرب الأقصى وعن استيلاء شارل الخامس على تونس وعودة خير الدين إلى الجزائر، وعن حرص الدبلوماسية البرتغالية في تفتيت وحدة الصف في الشمال الأفريقي، وأشرت لسيرة المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي وحملة شارلكان على الجزائر عام ١٥٤١م والنتائج المترتبة عن فشلها، ومصير شارلكان ووفاة حسن آغا الطوشي ووضحت سيرة المجاهد حسن خير الدين بربروسة وآخر أيام والده، وتقويم جهود خير الدين في تثبيت الوجود العثماني في الجزائر.

استفدت كثيراً من كتاب الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الأخوة بربروس للدكتور محمد دراج.

وتوسَّعت في هذه المرحلة المهمة من تاريخ الدولة العثمانية بالجزائر وشمال أفريقيا، ولخّصت سياسة صالح رايس وجهوده للعمل على استرداد الأندلس، ووقوفه مع المسلمين هناك وعن بداية ضعف الدولة العثمانية، وعن هزيمة أسطول الدولة العثمانية، في معركة «ليبانتو» وأثر ذلك على أوروبا، وزوال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط.

لقد كان هذا الانكسار نقطة توقف عصر الازدهار والقوة للدولة العثمانية.

وكانت معركة «ليبانتو» فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي، وأصبح الوجود العثماني بالجزائر في خطر مهدد بالزوال.

وقد مر الحكم العثماني في الجزائر بمراحل، وأهم هذه المراحل:

- عصر الباي: ١٥١٤م - ١٥٨٧م.
- عصر الباشوات: ١٥٨٧م - ١٦٥٩م.
- عصر الأغاوات: ١٦٥٩م - ١٦٧١م.
- عصر الدايات: ١٦٧١م - ١٨٣٠م.

وتحدثت عن التنظيم الإداري والسياسي والقضائي والحياة الاجتماعية في العهد العثماني بالجزائر.

المبحث الرابع: الاحتلال الفرنسي للجزائر. وكان بين يدي هذا المبحث مقدمة مهمة، ثم انصب الحديث عن الأسباب الحقيقية للاحتلال، السياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية والظروف الدولية المواتية، وعن سقوط مدينة الجزائر واستلام الباي حسين، وعن الأخطاء التي وقع فيها كإعدامه لقائد جيشه، وثقته الخاطئة في وزير المالية، وعدم وجود انضباط من رجال أمنه، وعدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الاحتلال.

وتحدثت عن قيام الحكومة الفرنسية بطبع منشور باللغة العربية لكي يتم توزيعه على الجزائريين وأبناء الأتراك قبل دخول الأراضي الجزائرية، وقد جاء هذا البيان بمثابة خطة لخلق البلبلة في صفوف الجزائريين وإعطائهم انطباعاً بأن الفرنسيين جاءوا لتخليص الجزائريين من السيطرة التركية، وبذلك يتضامنون مع فرنسا ولا يتصدرون لها، وقد أحدث هذا البيان وبيانات أخرى ارتباكاً في صفوف وجهاء مدينة الجزائر.

وعلت أصوات بعض رجال التجارة والرأسماليين بالدعوة إلى الاستسلام، لأن الجزائر ضائعة لا محالة، ولو دخل الفرنسيون بالقوة على أثر هجوم مثلاً، فإنهم سينهبون المدينة ويقتلون جميع السكان والنساء والأطفال العزّل، وكان تبريرهم لقبول فكرة تسليم المدينة إلى الفرنسيين وفقاً لمعاهدة "استسلام" هو أن أمة شريفة مثل فرنسا لا تنكث بعهودها، وأننا سنعامَل بكل عدل وبغض النظر عن كون زيد أو عمر هو الذي يحكمنا، فإن المهم هو أن نُحْكَم كما ينبغي وفقاً لمبادئ الحكومة الفرنسية وأن لا تُمَس ديانتنا. ومن جهة أخرى فإن عماد الحضارة هي حقوق الإنسان ولذلك فإننا لا نخشى شيئاً من أمة متحضرة، وهذا هو التفكير الذي أدى في نهاية الأمر إلى عدم مقاومة الجيش الفرنسي[١].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٩.

ولكن الاحتلال الفرنسي نقض العهود والمواثيق، وداهم المنازل والبيوت وجرّد النساء من مصاغهن وملابسهن الثمينة وكذلك الأطفال، فتم الاعتداء على الأعراض وانتُهبت الأموال، وسُفِكَت الدماء، وتم مصادرة الأوقاف والأملاك..الخ.

المبحث الخامس: ظهور المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي وتطورها مع ظهور الشريف محيي الدين الحسني، الذي كان يحظى باحترام ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل. وحقق الجزائريون بقيادته انتصارات عظيمة ضد الاحتلال، ولكن تقدم سن محيي الدين جعله يتأخر في القيادة لصالح ابنه عبد القادر، الذي اشتهر بالشجاعة والذكاء والعلم والحزم والصفات الحميدة والخلال العظيمة، وتمت بيعته من قبل قبائل الجزائر على السمع والطاعة وكان اختياراً شعبياً موفَّقاً.

المبحث السادس: حكم الأمير عبد القادر بعد البيعة الشعبية وامتداد سلطانه حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري.

وبعد أن استقام للأمير الأمر، شَرَع في تنظيم أمور الدولة وتشكيل الكوادر الحكومية، فعيّن الأكفاء من الرجال، واعتمد الفقه الإسلامي، أي: التشريعات المنبثقة من القرآن الكريم والسنة نظاماً لحكمه، وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

وسارع الأمير عبد القادر في تأسيس الجيش النظامي وطوَّر إستراتيجيته العسكرية واهتم بتطوير حرب العصابات وأصبح يتقنها إتقاناً كبيراً، وكان يفاجئ ويُربِك الخصم، وهذا ما جعل الأمير أشهر وألمع رواد هذا النوع من الحرب. وهو بذلك سبق الأمير عبد الكريم الخطابي زعيم حرب الريف بالمغرب، والشيخ عمر المختار بليبيا واستفاد منه الكثير من قادة التحرر الذين جاءوا من بعده.

واهتم الأمير بتفعيل وتقوية الحكومة المركزية في دولته، وقسّم البلاد إلى ثماني ولايات وجعل عليها خلفاء يديرونها من خلال مجلس شورى وادارات محلية فعّالة ووضع معايير في تعيين موظفي الدولة ومناصبهم من ذوي الكفاءات والقدرات والملكات الإدارية

والقيادية، وأعطى رعاية خاصة للمؤسسة القضائية لتسهم في رفع الظلم وإقامة العدل، وأسس مجلس شورى للدولة مكون من أحد عشر عضواً، وكان كثير الاستشارة والاستماع لأصحاب الخبرة والمعرفة والتجارب العملية في الشأن العام.

واهتمت دولة الأمير بالاقتصاد والموارد المالية وترشيد المصروفات، وشجعت حركة التجارة الداخلية والخارجية، وكان لدولة الأمير جهاز دبلوماسي متميز ونشط، ساهم في إنجاح مفاوضات عدة منها معاهدة «ديمشال» ومعاهدة «التافنة».

وبيّنت اهتمام دولة الأمير بجهاز المخابرات ونشر الثقافة من خلال المدارس والمساجد والزوايا والتشجيع على العلم والتعلم والتفقه، وتركيزها على الصناعة الحربية واحتياجاتها نظراً لاهميتها في حركة الجهاد ضد الاحتلال، كما استجلبت من الخارج خبراء وأهل تخصص في ميادين الصناعة وعلم المعادن.

وبيّنت معارك الأمير التي خاضها ضد العدو واضطرار العدو للمعاهدة، فقد توالت الضربات المتتالية على الحاميات الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، وكيف استفاد منها في تطوير وتقوية مؤسسات الدولة الناشئة وفتح مجال للعلاقات الخارجية مع الدول، فقد اعترف به سلطان مراكش، وعمل الأمير على بسط نفوذه وإقرار الأمن والسلام في المناطق الخاضعة لسلطانه.

ووضحت عبقرية الأمير وقيادته الفذة في الحرب والسلم ومحاربته للشعوذة والدجل بين الناس، وتوقفت عند العمل الاستخباراتي الفرنسي الخطير الموجه لاختراق دولة الأمير وأثره في إضعاف حركة الجهاد. ووضحت في هذا الكتاب اهتمام الأمير بالعمل على تنظيم دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو. وأراد أن يحيط علماء المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة، فأرسل بعثة برئاسة عبد الله سقاط تحمل أسئلة موجهة إلى

علماء المغرب الأقصى، طالباً منهم الإجابة عليها وقد أجاب عليها شيخ الإسلام التسولي.

كان قصد الأمير من هذه الاستشارات القانونية من علماء المغرب إبراء ذمته أمام الله وتجنبه من أن يعاقب خارج أحكام الشريعة، وتقوية موقفه أمام الناس الذين سيشعرون بأن الأمير يطبق عليهم ما أمر الله به بشهادة علماء متعمقين في الشريعة وأصول الدين[١].

وتحدثت عن نقض الاحتلال الفرنسي لمعاهدة «التافنة» وحرص الأمير على إطالة أمد الهدنة. ولكن القتال اندلع من جديد وكيف وجه الأمير نداءه للشعب وأوامره إلى خلفائه. وبدأت مرحلة جديدة، من الزحف على معسكرات العدو وحصونه وتكبد الفرنسيون خسائر رهيبة، فقد لخَّص بسيسكا توري معاناة الفرنسيين هذه فقال: إن أفريقيا هي الخراب في السلم والإنهاك في وقت الحرب، ولقد قام الجنرال «بوجو» بردود أفعال عنيفة فدمر الأرياف والقرى وحرق المحاصيل وقطع الأشجار المثمرة وعاقب كل قبيلة وقعت تحت سلطانه ساهمت في دعم الأمير عبد القادر وجرّدها من أراضيها وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، فقد قتل من أبناء الشعب الجزائري عشرات الألوف رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً.

واضطرت فرنسا للنفير العام وواصلت – بلا انقطاع – تزويد الجنرالات الفرنسيين وجيوشهم في الجزائر بالإمدادات والمؤن والعتاد والرجال والسلاح والذخائر. وكانت إحدى هذه الدفعات وصلت يوم ٢٢/ ٢/ ١٨٤١م وكان عدد القوات ٨٨٠٠٠ جندي. علاوة على ما هو موجود بالجزائر، وكان رد الأمير عبد القادر رسالة إلى الجنرال «بوجو» جاء فيها: اعلموا أنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم، لعلمي أنكم لا تضرونني بشيء، إلا أن يضرني الله به، ولا يلحقني منكم إلا ما قدَّره الله علي.

---

[١] المصدر السابق.

وقد استمرت المعارك مع الجيوش الفرنسية، وكانت خطط الأمير عبد القادر متنوعة ومتجددة، وهزم الجنرال «بيجو» في معارك أيالة ووهران ومتيجة على الرغم من كثرة جنوده وحداثة الأسلحة.

وكانت قوة الأمير تكمن في استحالة العثور عليه، إنها في المكان الرحب الواسع في حرارة شمس أفريقيا المحرقة، في مكان ندرة المياه، إنها أيضاً في حياة الترحال التي خطها كأسلوب لمحاربة فرنسا.

لقد اعترف خصومه القادة العسكريون بعبقريته الفذة، وأظهروا إعجابهم بالأمير مثل المارشال «بوجو»، و«لامورسيير» و«شاغارنيه».

لقد قال الجنرال «بوجو» عن الأمير عبد القادر: خصم صنديد نخشى بطشه. وأصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر، ووضع قادة الاحتلال خطة جديدة للزحف الشامل، اعتمدت على تدمير المدن ومطاردة القبائل وارتكاب المجازر.

وفي تلك الفترة الحرجة من تاريخ شعب الجزائر ابتكر الأمير عبد القادر مدينة الخيام المتنقلة لتجنيب المدن الدمار، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وكان الأمير يقوم بزياراته الميدانية مع القادة العسكريين والعلماء والأطباء في المناطق التي لا زالت تحت سلطته، وكان يتواصل مع جنوده وضباطه في الجبهات والثغور، يقدم لهم العون المعنوي والمادي ويرسل إليهم الرسائل والقصائد التي تحثهم على الجهاد والكفاح والنضال.

وتعرضت المدينة المتنقِّلة للهجوم من قبل قوات الاحتلال الفرنسي في إحدى غيبات الأمير واستطاع أن يرد رداً سريعاً على القوات التي هاجمت وأعاد بناء المدينة.

عملت فرنسا على تشديد الخناق على الأمير ودولته ومارست ضغوطاً سياسية وعسكرية على سلطان المغرب لكي ينحاز ضد الأمير، واضطر الأمير، في نهاية المطاف إلى طلب

الأمان للهجرة إلى ديار المسلمين في إسطنبول أو الشام ولكن فرنسا نقضت العهد وغدرت وسجنت الأمير.

وقد تحدثت عن الأيام التي قضاها في سجون فرنسا ثم مغادرتها إلى إسطنبول ثم استقراره في مدينة بورصة بالدولة العثمانية، ثم انتقاله إلى دمشق حيث مقر إقامته الأخير، وتكلمت عن تفرغه للعبادة والعلم والتدريس ومخالطة العلماء وعن جهوده الاجتماعية.

وناقشت الاتهامات التي وجهت إلى الأمير مثل: اتهامه بوحدة الوجود وتأثره بفكر بن عربي ونسبة كتاب المواقف إليه، واثبت بالدليل والبرهان بطلان الكثير مما نسب إليه وبراءته من عقيدة وحدة الوجود والانتساب إلى المحافل الماسونية.

لقد تعرض الأمير عبد القادر لحملات تشويه مركزة ومنظمة واختلقوا له الأكاذيب وزعموا أنه سلم نفسه لفرنسا واستسلم في نهاية المطاف، ونسبوا إليه رسائل ومعاهدات سخيفة ومخزية وزعموا أنها بخطه، ثم اختلقوا قصة انتسابه للجمعية الماسونية وزوَّروا عليه رسائل بهذا الخصوص، وكل ذلك كي يسقط اعتباره عند الناس كرجل مخلص لأمته، وحتى لا يكون قدوة للأجيال المتعاقبة في نضاله وكفاحه وجهاده وروحه الثائرة ضد الظلم والجور، ولكن الله أبى إلا أن يخرج الحق للناس بفضله ومَنِّه، ثم جهود الباحثين المخلصين.

إن الأمير عبد القادر اشتهر بين الناس بنزعته الإسلامية، واهتمامه بالقرآن والسنة والتصوف السني الرشيد على نهج الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي أثنى عليه علماء السلف من أمثال ابن تيمية وابن القيم وغيرهم كثير.

وقد درَّس الأمير عبد القادر بالجامع الأموي صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك ورسالة أبي زيد القيرواني وأشاد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة، وكل هذه الكتب تخالف تماماً العقائد الموجودة في كتاب "المواقف" المنسوب إليه بالباطل والبهتان والافتراء.

إن الأمير عبد القادر الجزائري لم يعتقد يوماً من الأيام لا بوحدة الوجود ولا الحلول ولا الاتحاد، بل كانت عقيدته سنية صافية من البدع، اشتهر بالتقوى والخوف من الله عز وجل والإيمان به وباليوم الآخر وحفظ القرآن في سن مبكرة من حياته، مالكي المذهب، متقيد بشرع الله في حياته الخاصة وأسرته ومجتمعه ودولته، وما نسب إلى الأمير من الرموز ووحدة الوجود والعقائد الفاسدة ما هي إلا أباطيل واتهامات تمَّ كشفها وبيان بطلانها بالعلم الرصين والحجج الدامغة والأدلة القاطعة في هذا الكتاب.

فالأمير عبد القادر منهجه في الحياة عبّر عنه في أبيات شعرية قال فيها:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

حيثما سار سر وحيثما وقف قف

ومن شعره العذب الجميل قوله:

الحمد لله الذي قد خصني

بصفات كل الناس لا النسناس

الجود والعلم النفيس وإنني

لأنا الصبور لدى اشتداد الباس

وتحدثني شكراً لنعمة خالقي

إذ كان في ضمني جميع الناس

وثّمة أمر مهم ويحدث كثيراً في ما يتعلق بتشابه الأسماء، فهناك غير الأمير عبد القادر من العلماء والأسماء المتطابقة مع اسمه وكتبوا كتباً وألفوا في مواضيع التصوف واختلط الحابل بالنابل على بعض الناس، وقد بينت ذلك في هذا الكتاب، وناقشت في هذا الكتاب أيضاً اتهام الأمير بأنه تعاطف مع الماسونية ثم انتسب إلى محافلهم وتتبعت جذور هذه التهمة وبينت زيفها وبطلانها.

إن الحقيقة التاريخية التي وصلت إليها من خلال الدراسة العميقة والبحث الجاد وتتبع سيرة الأمير يوم بيوم وشهراً بشهر وسنةً بسنة في الجزائر وفي الحج وفي السجون وفي المنافي وفي المهجر، وفي مجالسه العلمية والحربية والسياسية تبين لنا أن الأمير لم يكن يوماً ماسونياً ولا خادماً لفرنسا، والمبادرة التي قام بها الأمير في الدفاع عن المسيحيين في الشام كانت خالصة لوجه الله الكريم، ولم تكن لدنيا يصيبها أو وسام يبتغيه.

لقد حاول تشرشل صاحب كتاب "حياة عبد القادر" ومن سار على طريقته من أمثال جرجي زيدان وغيرهم ربط الأمير عبد القادر بالمحافل الماسونية ولكنهم عجزوا عن تقديم الدليل مما يبطل هذا الخبر المزعوم من أساسه. إن حياة الأمير صفحة مفتوحة للباحثين ناصعة البياض نقية طاهرة، واتهامات أعدائه الباطلة تتساقط أمام الحقائق الراسخة وتتلاشى مع الحجج الدامغة، وتذهب جفاء لأنها زبد، وسيرته العطرة تبقى خالدة في معانيها وقيمها ومبادئها لأنها تنفع الناس.

إن كل الذين ادَّعوا انتساب الأمير عبد القادر إلى هذه الجمعية لم يقدموا أي دليل مادي أو مستند وثائقي يثبت صحة ادعائهم، ومنهم من يعتذر خشية الإطالة عن عدم تقديم الأدلة أو الوثائق، ويكتفي بإبراز صورة الأمير عبد القادر المعروفة وهو يرتدي الأوسمة التي وصلته من ملوك ورؤساء العالم، وعلى صدره وشاح الفروسية الأحمر الذي أهداه إليه ملك إيطاليا فكتور عمانوئيل مع الوسام الذي جاءه بمناسبة إنقاذ أرواح خمسة عشر ألف مسيحي في الفتنة المشهورة في الشام، وهذا من دون أي تعليق سوى عدم الرغبة في الإطالة، والحقيقة أن هذه الحجة هي أيضاً باطلة لأنه لو توافرت الوثيقة مهما كانت لما أحجموا عن ذكرها.

والحقيقة أنه لا يوجد أي مستند سوى أقوال تدخل في القيل والقال نقلاً عن مصدر بريطاني بقصد الدعاية للمحافل الماسونية وخدمة غايات استعمارية مكشوفة، فكثير من المستشرقين كانوا يقدمون خدمات قيّمة لبلادهم تشجعهم عليها حكوماتهم لأغراض

استعمارية غير خافية، ولكن مما يزعج الباحثون عن الحقيقة أن نرى إفكهم واختلاقهم وقد تناقلتها أقلام كتّاب ومؤرخين من أبناء شعوبنا وكأنهم ظفروا بصيد ثمين، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص والتدقيق، فذكروا ما ذكروه نقلاً، لا تحقيقاً وبحثاً بدون أن يقدموا وثائق علمية ومستندات حقيقية وبراهين عملية.

إن اتهام الأمير عبد القادر بالانتساب إلى الماسونية تتهاوى أمام البحث العلمي ولا وجود لها في حقائق التاريخ، وإنما تدخل ضمن الحرب الاستخباراتية في تشويه رموز النضال والكفاح في هذه الأمة، ويأبى الله إلا أن تظهر الحقيقة بأنوارها لتزيل ظلام البهتان والأكاذيب.

وتحدثت في هذا الكتاب عن الأمير الإنسان وعلاقته بأمه وزوجته وأولاده وأقاربه وأصحابه وأصدقائه وأبناء شعبه، وعن مواهبه الأدبية والشعرية ونشرتها حسب المواقف والمناسبات.

ودوَّنت في هذا الكتاب أيامه الأخيرة ومرضه ووفاته ودفنه، ونقل رفات الأمير بعد تحرير الجزائر عام ١٩٦٦م إلى بلاده في احتفال شعبي ورسمي مهيب، وما إن حطت الطائرة بجثمان الأمير في مطار العاصمة وأطل جثمانه الملفوف بالعلم الجزائري حتى امتدت أيادي رئيس الجمهورية "هواري بومدين" والوزراء لتحمله، وفي تلك اللحظات علت أصوات عشرات الألوف من الجزائريين والجزائريات "الله أكبر" تشق عنان السماء، وكانت ترافق الهتافات زغاريد النساء، وكانت دموع الفرح تملأ مآقي الجميع وتسيل مدراراً.

وقد نظم الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي قصيدة عصماء بمناسبة هذا الحدث التاريخي الكبير حيًّا بها دمشق الفيحاء، جاء فيها:

يا دمشق الفيحاء ألف تحية

قد عرفناك في الندى أُموية

أي بُشرى حَملْتِها لبلادي

برُفات الأمير أي هدية

وخاطب في قصيدته الجيش الجزائري فقال:

من عُلاها استمدَّ جيش بلادي

ذلك العزم يوم خاض المنايا

هي ليست كما سمعتم رُفاتاً

بل تُراثاً مقدَّساً وعطايا

وقال مخاطباً روح الأمير:

ذهب الغاصبون لا دوميشيل

ولادورليان، ولا صليل السلاح

مات بيجو وألف بيجو وأودى

كل جيش رمته هُوجُ الرياح

أنت في كل ثائر كنت تحيا

عبقريّاً محنكاً في الكفاح

إنَّ الله عز وجل أعلى ذكر الأمير في تاريخ البشرية المعاصر وأصبح من رموز النضال وأحرار العالم الذين ناضلوا وكافحوا وجاهدوا لتنال شعوبهم الحرية والكرامة، لقد أثار كفاحه البطولي ضد فرنسا الغازية إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء العالم والدول الأوروبية، كما كان له صدى كبير حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، ففي سنة ١٨٤٦م أُسِّست في مدينة صغيرة بولاية إيوا "iowa" من طرف ثلاثة رواد أمريكيين يسمون جون تومسون، وتيموثي ديفيس وتشنز سايج أطلق عليها اسم «**القادر على شرف الأمير**».

إن الذين كانوا يتجاهلون الوزن الكبير لمكانة الأمير العالمية هم الذين اندهشوا لتعدي سيرته المحيطات والبحار والفيافي والصحاري والقفار والقارات، في زمن كادت به

الاتصالات أن تنعدم، فقد كانت شعوب أوروبا وحكوماتها تتابع بإعجاب ملحمة الأمير وقتاله البطولي وعبقريته التنظيمية ووطنيته الفياضة وقيمه الإنسانية.

وفي هذا الكتاب يجد القارىء ما حدث في الجزائر من ثورات بعد رحيل الأمير عبد القادر عن وطنه، كثورة الزعاطشة وبو بغلة ولالّة فاطمة والشريف محمد بن عبد الله بورْقلة وثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة، وثورة الصادق بالحاج ومحمد بوخنتاش الباركتي، وثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة بوشوشة وثورة المقراني والشيخ الحداد وبو مزراق، وثورة واحة العمري وانتفاضة الأوراس وثورة أبو عمامة.

وذكرت طبيعة الحكم العسكري بالجزائر وسياسة نابليون الثالث بها، وتغير طبيعة الحكم بعد هزيمة الإمبراطور وأسره لدى الألمان، وسيطرة الحكم المدني في العصر الجمهوري على الجزائر بواسطة المستوطنين الفرنسيين وسياستهم القمعية والدموية والإجرامية وتشريعهم لقانون الأنديجينا الجائر، واستغلال الفرنسيين لإمكانات الجزائر.
وسجَّلتُ في هذا الكتاب جهود المبشرين بالنصرانية في الجزائر وتعاونهم مع المستعمر، ودور لافيجري في دعم حركة التبشير وتعصبه ضد الإسلام والمسلمين وعمله على تنصير شمال أفريقيا والقارة السمراء، ووسائله وبرامجه ومنظماته التي ساهمت في دعم مشروعاته في الجزائر وأفريقيا، ووضحت فلسفة التبشير لدى الكاردينال لافيجري وأُسُسها ومنطلقاتها وأهدافها.

وكشفت للقارىء الكريم ما قام به الاحتلال الفرنسي من محاولات لتزوير تاريخ الجزائر، وما قام به أيضاً من دعم دراسات تخدم مخططات المستعمرين ومنها ما يتعلق بتاريخ أفريقيا، وعملوا على قلب الحقائق وصوروا الفتوحات الإسلامية على أنها فرضت على الأمازيغ الإسلام بالإكراه والسيف، وقد حاولت مراكز الأبحاث والدراسات التابعة للفرنسيين أن تربط ماضي شمال أفريقيا بالحضارة الغربية التي عادت بالوجود الفرنسي

بالجزائر. وكان القصد منها إظهار امتداد المدينة اللاتينية بالمغرب الإسلامي، مؤكدة بأن هذه البلاد طبعت منذ العهد الروماني بالطابع المسيحي.

ومن هذا المنطلق اهتم الفرنسيون بالكتابة التاريخية بتوجه يخدم نفوذهم، ويؤكد شرعية احتلال البلاد، وادعوا حتمية إرجاع الجزائريين إلى حظيرة الدين المسيحي باعتباره دين الأغلبية منهم في الجزائر.

ولهذا الغرض تعددت هذه الكتابات بعد الاحتلال، وساهم فيها العسكريون ورجال الدين والرحالة وبعض الكتاب، وكلهم أشادوا بالغزو، خصوصاً أنصار الكنيسة الذين كان شعارهم أفريقيا لاتينية والجزائر فرنسية مسيحية.

لقد بُذلت جهوداً ضخمة وأُنْفقت الأموال الطائلة على دراسات وبحوث هدفها تزوير التاريخ ومحو الكيان الجزائري بهويته وتاريخه وحضارته للوصول إلى السيطرة الكاملة، إلا أن تمسك أبناء الشعب الجزائري في بلاد القبائل والمدن والأرياف والجبال والسهول بالإسلام وتعاليم القرآن أربك مخططاتهم وجعلها غثاء لا أثر له في حياة الناس.

وإن الإنسان ليرى من خلال دراسته وبحثه العميق اعتزاز الجزائري والجزائرية بدينهم وقرآنهم وسنة نبيهم وتاريخهم وحضارتهم وهويتهم، وصدق الزعيم عبد الحميد بن باديس عندما قال:

شعب الجزائر مسلم

وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله

أو قد مات فقد كذب

أو رام إدماجاً له

رام المحال من الطلب

يا نشىءُ أنت رجاؤنا

وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها

وخض الخطوب ولا تهب

فإذا هلكت فصيحتي

تحيا الجزائر والعرب

لقد فشلت مساعي المبشرين وقاوم الجزائريون نشاط هذه البعثات بكل أنواع المقاومة المشروعة، وانتصرت إرادتهم على إرادة المحتلين وثقافتهم على ثقافة الغزاة الظالمين.

لقد تعاون وتناصر المبشرون والمستشرقون والاستعمار على محو الهوية والثقافة الجزائرية، ولكنهم جميعاً هُزموا في معركة الأفكار والعقائد والثقافة، وانتصرت عقيدة الشعب الجزائري وثقافته، وكانت دافعة لأبناء الجزائر في معركة الحرية والثقافة والكرامة والحقوق جيلاً بعد جيل.

فقد كان الشعب عصيًّا على مناهج المستعمرين واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابته في الحضارة الغربية، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً. لقد كتب أحد الجزائريين رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم وهو يعبر عن حقيقة الشخصية الوطنية الجزائرية فقال له: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

وهذا الكتاب يؤرخ لتاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، ويليه الجزء الثاني بإذن الله تعالى تتمة له من الحرب العالمية الأولى إلى ثورة نوفمبر ١٩٦٢م.

مع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث، وبدأت الحركات السياسية والمنظمات الشبابية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي والدعوة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء وعلى رأسهم الزعيم عبد الحميد بن باديس تشق طريقها

في وسط الظلام الدامس والظلم المنتشر في البلاد لتمهيد الطريق لوعي شعبي ونضال مرير، وكفاح شاق وجهاد أسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال، توجت بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وهذا ما نسوق تفاصيله **بإذن الله تعالى في الكتاب القادم:**

"كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي"

للحقبة من الحرب العالمية الأولى إلى ثورة نوفمبر ١٩٦٢م.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ، ١٧ إبريل ٢٠١٥م الساعة الخامسة بعد صلاة العصر بالدوحة، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً وأن يكرمنا برفقة النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: " مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (فاطر ، آية : ٢).

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل وربي الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلَّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف ولتحجرت المشاعر ولعجز القلم عن البيان.

اللهم بصرني بما يرضيك، واشرح صدري، وجنِّبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك باسمائك الحسنة وصفاتك العلا أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على

إتمام هذا الجهد الذي لولا أنت ثم هم ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

. قال تعالى: " رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" (النمل ، آية : ١٩).

وأختتم هذه المقدمة بقول الله تعالى: "وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ" (الحشر ، آية : ١٠).

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته
ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبِيّ
غفر الله له ولوالديه ولجميع
المسلمين

المبحث الأول

الأندلس والشمال الأفريقي بعد سقوط دولة الموَحِدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين، ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام ٨٩٧هـ، ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين، وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الأفريقي بعد سقوط الموحدين فانقسم إلى دول، لا تجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولا تجاوز في أحيان أخرى إطار القبيلة، واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزاعات الداخلية وتتابعت الهجمات الخارجية وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها. ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة، وخرج من ذلك المخاض الطويل دول من أهمها: دولة بني حفص في أفريقيا، ودولة بني زيان في المغرب الأوسط، دولة بني مرين ثم بني وطاس في المغرب الأقصى[١]

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصلابي، ص: ٤٢٣.

أولاً: أسباب سقوط دولة الموحدين

ذكر المؤرخون أسباب وعوامل سقوط دولة الموحدين ومن أهمها:

. ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتدائهم على الأموال وسبيهم للنساء بدون وجه حق ، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم، ولذلك كفروهم، واستحلوا دمائهم وأموالهم وسبوا نسائهم، فأفنوا أعداداً كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحياناً واهية أو أن ليس لها ما يبررها، فمضت فيهم سنة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سنة الله في الظلم والظالمين، يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير، ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه، وحيث إن دعوة المظلوم مستجابة لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه رسول الله إلى اليمن: **(واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب)** .

ومن سنته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا، وإن مآلهم إلى الخسران والهلاك كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود[1].

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجّل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدَّره الله لها بموجب سنته العامة التي وضعها لأجل الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله٢.

---

[1] المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة، ص: ١١٩.

[2] السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص: ١٢١.

قال تعالى: "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ" (الأعراف، آية : ٣٤).

قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية: " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ" (الأعراف، آية : ٣٤).

أي: لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي: وقت معين مضروب لاستئصالهم١.

ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهولاً لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين ، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[٢].

إن سنة الله مطَّردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى:"ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ" (هود، آية : ١٠٠ ـ ١٠٢)

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[٣]

قال تعالى:"وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" (هود ، آية : ١١٧)

---

[١] تفسير الألوسي (٨ / ١١٢).

[٢] السنن الإلهية في الأمم، ص: ١٢١.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٢٢.

قال الإمام الرازي في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك، والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أمل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح وعدم الفساد[1].

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى:"بِظُلْمٍ" أي: بشرك وكفر، "وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" (**هود: ١٧**) أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق: ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[2].

إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها من خلاق – أي في الآخرة – . وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة[3] .

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال، وسار خليفته عبد المؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال.

١. ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين: حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة، وأعلنت انتماءها وولاءها للخلافة العباسية

---

[1] تفسير الرازي (١٨ / ٧٦) .

[2] تفسير القرطبي (٩ / ١١٤).

[3] رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإبن تيمية، ص: ٤٠

السنية، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم، واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

٢. ثورات الأعراب المتتالية حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت أفريقيا والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحياناً تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوي ضد الموحدين، وأحياناً تخضع لدولة الموحدين، ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين. لقد قدم الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدي عام ٥٨٤هـ. ومنذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠هـ أصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين، ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل، وبنو جابر: ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر، وبالاحتكاك بهم[١].

٣. ثورات الأندلس ضد الموحدين، ومن أشهر هذه الثورات: ثورة محمد بن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليها إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ولم يبال ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفوذ الموحدين في الأندلس، ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة وقتل في تلك المعارك خيرة رجالهم، وثورة ابن هود، وعامل بالنسبة الذي التجأ إلى ملك ليون.

وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتهم، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب[٢]

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصلابي، ص: ٤١٣.

[٢] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر، ص: ٨٣.

٤. النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً لتولي الخلافة عندهم:

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل، الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين، بل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة مما ساعد على اضمحلالها وزوالها، ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختبار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثة مظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف[1].

. ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م السيد أبو محمد عبد الله العباسي، وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون ابن المنصور، فلما خشي الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر، وظل كل منهما مدعياً للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طول خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤هـ /٦٣٣هـ) ١٢٢٦ ـ ١٢٢٧م، وفي عام ٦٢٩هـ / ١٢٣١م ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور بسبتة وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس، ولاريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة وانتشرت الفتن، وقلت المجابي، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضاربة بين بني عبد المؤمن[2]

---

[1] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤١٣

[2] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص: ٨٤.

٥ . **صراع الأمراء وتحالفاتهم**، دخل زعماء الموحدين، من البيت الحاكم في تحالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم، وهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن بعض أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة.

. إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدي الشيوخ أو باحثين عن ملذاتهم[١].

إن ضعف الخلفاء يسَّر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها، وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدراية أم قبلية أم عسكرية[٢].

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور فرفعوا للخلافة من شاءوا وخلعوا من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس[٣].

إن أشياخ الموحدين الذين إحتلوا المراكز الأساسية في الدولة أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانوا دائماً يبسطون نفوذهم لكي لا يفلت ذمام الحكم من أيديهم ولهذا استبدوا، ولما كانت مصالحهم متقاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ[٤].

---

[١] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص: ٨٥.

[٢] المصدر السابق، ص: ٨٦.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٨٧.

[٤] المصدر نفسه، ص: ٨٩.

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبد المؤمن وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم أشياخ الموحدين في العاصمة، ونشوب الفتن فيها، جعل ولاة الأقاليم يستبدون بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائياً عن مراكش، لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري، وحسن ضبطه، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بأنفسهم، وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ، ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة[١].

٦. الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحدي:

لاشك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة، ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي، ولذلك حقَّقوا انتصارات هائلة على خصومهم، وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها، إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعاً صحيحاً وتنفيذاً أكيداً.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي إنهزم فيها جيش الموحدين وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطع بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب أن يغدو جيشاً قادراً على تحقيق انتصارات بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى[٢].

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

---

[١] المصدر السابق، ص: ٩١ ، ٩٢.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤١٥.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش، فبدلاً من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين تحوّل إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم.

لقد كان إدخال العربان في الجيش الموحدي كافة على أهدافه ونظامه، إذ لا همَّ لهم سوى السلب والتسلط من مراكز القوة. وجد هؤلاء العربان سوقاً رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع كان لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل حفنة من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة[١].

٧. الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير مهتمين بشؤون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جَلَّ أو صَغُر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعاً بانتجاع البقر والخيل في رياضته وتوفي من طعنة بقرة شرود، والمرتضى كان ميالاً للدعة والمسالمة، ومولعاً بالسماع ليلاً ونهاراً[٢] وكذلك المقربون منهم.

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لايهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك، ولا يهمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولاينهون عنها، لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها، قال تعالى:" فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ" (هود، آية: ١١٦).

---

[١] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

[٢] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد:ص: ١٨٦، عبد الكريم زيدان.

وقوله تعالى:" وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ".

أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة، والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[1].

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب قال تعالى:" وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ" (الأنبياء ، آية : ١١ ـ ١٢).

ومن سُنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى:" وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" (الإسراء ، آية : ١٦).

وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أي: متنعّميها وجبّاريها وملوكها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[2]

٨. **تقلص أراضي الدولة في أفريقيا** والمغرب والأندلس فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها أفريقيا وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين. ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق

---

[1] المصدر السابق.

[2] تفسير الألوسي (١٥ / ١٢) .

الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في رجب ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر ابن هود على معظم الأندلس وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين: (وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم)[١]

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م زيان بن مردنيش، وفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة، ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م إلا وسيطر على غرب الأندلس[٢].

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، فسقطت قرطبة عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م، وبلنسية في عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م، ومرسية ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م، وإشبيلية ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م وكان هذا السقوط المريع مدة قصيرة جداً. وانفصلت أفريقيا سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، و اتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعات[٣]

---

[١] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص: ١٠٨.

[٢] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص: ١٠٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس وأفريقيا وبدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل[1].

فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بنو عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس، فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية[2].

٩. فتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين، بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومرتكزه على المهدية الهادفة للتجديد وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في أجهزة حزب الموحدين، والذين توصّلوا من خلاله إلى الدولة، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسّرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة. يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: {ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء}[3].

ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل في مفهومه الأساسي، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة، فكان انحراف في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين، لأن دولة الفكرة والمبادئ تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادىء التي قامت عليها ويلتزمها، وتبعد من يحيد عنها.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٤١٨ .

[2] المصدر نفسه، ص: ٤١٨.

[3] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ص:١٩١.

ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبِّت أقدامها، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقوياً بهم، وولاهم المناصب في الدولة، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فإن كثيراً ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها، ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الإيمان في القلوب فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة، فالمنصور يصرّح بذلك لخاصته والمأمون يمحو آثارها ويزيل رسومها، ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة، فتجسّد ذلك عملياً في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولا ريب أن الفكر إن لم يداوم أصحابه عليه يتحجَّر ويغدو آفة عليهم[١].

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتي الذي فُرِض على الناس بالسيف والقوة مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم، فجعلت الناس تنسل من المنظومة التومرتيه التي أسست عليها دولة الموحدين في بداية أمرها، محاولين البحث عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام.

كانت هذه بعض الأسباب التي ساهمت في سقوط دولة الموحدين[٢].

- **خلفاء الموحدين:**

- عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ ـ ٥٥٨ هـ / ١١٢٠ ـ ١١٦٣ م.

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين صـ٤١٩.

[٢] المصدر نفسه صـ٤٢٠.

- أبو يعقوب يوسف ٥٥٨ . ٥٨٠ هـ / ١١٣٦ . ١١٨٤ م.
- أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠ . ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ . ١١٩٩ م.
- أبو محمد عبد الله الناصر ٥٩٥ . ٦١٠ هـ / ١١٩٩ . ١٢١٣ م.
- أبو يعقوب يوسف المستنصر ٦١١ . ٦٢٠ هـ / ١٢١٣ . ١٢٢٤ م.
- عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٢٠ . ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م.
- أبو عبد الله بن يعقوب المنصور "العادل" ٦٢١ . ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٤ . ١٢٢٧ م.
- يحيى بن الناصر ٦٢٤ . ٦٢٧ هـ / ١٢٢٧ . ١٢٣٠ م.
- المأمون بن المنصور ٦٢٧ . ٦٣٠ هـ / ١٢٣١ . ١٢٣٢ م.
- الرشيد بن المأمون بن المنصور ٦٣٠ . ٦٤٠ هـ / ١٢٣٢ . ١٢٤٢ م.
- السعيد علي أبو الحسن ٦٤٠ . ٦٤٦ هـ / ١٢٤٢ . ١٢٤٨ م.
- أبو حفص عمر المرتضى ٦٤٦ . ٦٦٥ هـ / ١٢٤٨ . ١٢٦٦ م.
- أبو دبوس الواثق بالله ٦٦٥ . ٦٦٨ هـ / ١٢٦٦ . ١٢٧٠[1] م.

ثانياً: سقوط غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرنيين في المغرب الأقصى، وملك محمد بن يوسف بن هود قواعد الأندلس وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ودخلوا في قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم بعضاً.

واستطاعت مملكة قشتالة النصرانية احتلال قرطبة في ٢٣ شوال ٦٣٣هـ / ٢٩ حزيران (يونيو) ١٢٣٦م، وكان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثام والابتعاد عن منهج الله

---

[1] المصدر نفسه ص٤٢٠.

العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف فقادهم ذلك إلى فقدان الأوطان والأرض، ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام، وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م، ثم شاطبة ودانية وفي عام ٦٤٦ هـ. سقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين، ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت لفرديناند الثالث على أن يخيّر المسلمون بين البقاء في إشبيلية أو يهاجروا وفي الحال حُوِّل مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلها في الحواضر الإسلامية الباقية. لقد كان سقوط إشبيلية إيذانا بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على: شريش، شذونة، قادس، شلوقة، غليانة، روضة، ثغر شنتمرية، وغيرها...

وتحالف ابن الأحمر ـ ملك غرناطة ـ مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس، وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأرض الإسلامية في غربي الأندلس، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة[١].

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرُّندي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس، ووضَّح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم لعوامل القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والترف، لقد عبّرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حلّ بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وإشبيلية

---

[١] المصدر نفسه .٤٢٥.

ومرسية بيد النصارى. لقد صوَّر الشاعر المسلم أبو البقاء الرُّندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألما وحزنا، فلله دره، فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات.

قال الشاعر:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان
فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دُولٌ
من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذوو التيجان من يَمَنٍ
وأين منهم أكاليل وتيجان
أتى على الكل أمر لا مردّ له
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
فجائع الدهر أنواع منوعة
وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهّلها
وما لما حل بالإسلام سلوان
وهي الجزيرة أمرٌ لا عزاء له
هوى له أحُدُ وانهدّ ثهلان[1]
أصابها العين في الإسلام فامتحنت
حتى خلت منه أقطار وبلدان

[1] أحد وثهلان: جيلان.

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نُزهٍ
ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كُن أركان البلاد فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية
قد أقفرت ولهما بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة
إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يُلهيه موطنه
أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
وما لها مع طول الدهر نسيان

يا أيها البيضاء رايته
أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
كأنها في مجال السبّق عُقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة
كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة
لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها همم
أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم
أحال حالهم كفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهم ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رُبَّ أمٍّ وطفل حيل بينهما

كما تفرَّق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت

كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مُكرهة

والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إذ كان في القلب إسلام وإيمان[1]

وكان لابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذّاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ـ قد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام في الأندلس ـ يهرعون إلى احتذاء أمثاله، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة[2].

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر فغزوا أراضيه وشنّوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً وأسى[3].

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس، حاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى، وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى

---

[1] نفح الطيب (٤/ ٤٨٦ ، ٤٨٧، ٤٨٨).

[2] نهاية الأندلس، ص: ٣٣.

[3] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٢٧.

الحرب عليه في عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م، فردَّهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين، وفي عام ٦٦٢ هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش التي اضطر ابن الأحمر في عام ٦٦٥ هـ أن يتنازل عنها إلى جانب أكثر من مائة موضع غربي الأندلس منها المدينة والقلعة[١].

وفي عام ٦٦٨ هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث، وذلك في ٢٩ جمادى الثانية ٦٧١ هـ (كانون الأول ديسمبر ١٢٧٢ م) وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن وطد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى[٢].

ثالثاً : وصفٌ حي لتسليم غرناطة

وفي الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ، كانون الثاني "يناير" سنة ١٤٩٢ م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما إن تقدم النصارى الإسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار، وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع: (هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور ـ قصوري ـ باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين)[٣].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٢٧.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٢٨.

[٣] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٤).

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة، وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً كبيراً فضياً وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب، وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه، وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قائم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين، وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها، يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء وتحرك نحو منطقة البشرات، وفي شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبد الله الصغير مودعاً لمدينته وملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: "ابك مثل النساء مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال".

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم.

يقول الأستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة: ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي وتساقطت الدموع من عيني أسىً وخشوعاً وتهيباً من عظمتها، لأنها أصبحت كلمة تاريخية، لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة[١].

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها:

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع

مجداً ثوى وعاراً أقاما

---

[١] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٦ ، ١٢٧).

هدّني فوق خطبنا أنك ابني

يا لأمٍّ تسقى العذاب تؤاما

لم تصن كالرجال ملكاً فأمسى

ركنه اندك فابكه كالأيامى[1]

يقول المؤرخ عنان: وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير الإعجاب والاحترام ومن الأسى والشجى قدر ما يثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية[2].

إن لبعض النساء مواقف مشرفة في تاريخ الأندلس الجهادي تصلح نبراساً لفتياتنا وأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وما قصة عائشة الحرة مع ابنها إلا واحدة منها[3].

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى الغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فاس[4]، مستجيراً بالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه، ونظم هذا الاعتذار بشعر أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ومنها في مطلعها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم

رعياً لما مثله يُرعى من الذمم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن

جار الزمان عليه جور منتقم

---

[1] تاريخ دولة المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٣.

[2] نهاية الأندلس بتصرف، ص: ١٩٧.

[3] نفح الطيب (٦/ ٢٧٨).

[4] نفح الطيب قلا عن سقوط غرناطة، ص: ٩٦.

حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً

وأفظع الحظ ما يأتي على الرغم

حكم من الله حتى لا مردّ له

وهل مرد لحكم منه منحتم

وهي الليالي وقاك الله صولتها

تصول حتى على الآساد في الأجم

كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول

نمنا بها تحت أفنان من النعم

فأيقظتنا سهامٌ للردى صبب

يرمي بأفجع حتف من بهن رُمي

فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا

وأي ملك يظل الملك لم ينم

يبكي عليه الذي قد كان يعرضه

بأدمع مزجت أمواهها بدم[١]

ومرَّت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً من نفوس المسلمين، وأسدل ستار من النسيان عليه، ولكن مأساة المسلمين المتنصرين " أو الموريسكيين " لم تقف وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردينال "كمينس" على ذلك، فأمر

[١] نفح الطيب (٦/ ٦١٨ إلى ٦٨٨).

بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني، وتمّ حرقها[1].

لقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضى على الإسلام في إسبانيا وأنَّى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور، وإن للإسلام جوله وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح "وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا".

رابعاً : محاكم التفتيش

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكَنَسِّية وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة، وفي تموز "يوليو" ١٥٠١م، أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته: "أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال".

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغص بالحشرات

---

[1] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص٤٥٤.

والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم لتدفع نفقات سجنهم: ومن أنواع التعذيب إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الأرجل وفسخ الفك، ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه[١].

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق[٢].

ومما يذكر: أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً[٣].

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها

---

[١] محاكم التفتيش، ص: ٩١ نقلاً عن سقوط غرناطة، صد: ١٠٠.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٦.

[٣] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٦.

من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنازير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرَّها، ومصيبة ما أعظمها، وطامة ما أكبرها[١] .

. وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون،كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً[٢].

. لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

.كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام. لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى أنهم كانوا يكشفون عورة من يشكّون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت نهايته هو وأسرته[٣].

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء، فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب (الأوتودافي) وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة[٤].

---

[١] نهاية الأندلس، ص: ٣٢١.

[٢] سقوط الأندلس، ص: ٧٢ .

[٣] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٦.

[٤] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٦.

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتَّعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة، وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء إستعمال السلطة والقبض على الأبرياء، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد، هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولا يستطيع دفعاً لها، ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد، وظلّت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة: وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف، وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم، وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون، وإذا عُمِّد أطفالهم عادوا فغسلوهم سرّاً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية، وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية[1].

---

[1] . المصدر نفسه، ص: ٤٥٨. أي الأحكام.

وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم، كيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفيةً ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم[1].

خامساً: فتاوى هامة بخصوص الذين أكرهوا على التنصير

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أكرهوا على التنصير، حيث قدم لهم بعض النصائح التي يُعين أتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة، وكانت تاريخ هذه الرسالة سنة ٩١٠هـ / ٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م. وهذا نص الفتاوى:

الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً:

إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وأرثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيداً لله تعالى أحمد بن بو جمعة المغراوي ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم

---

[1] ـ الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣ / ٢٢٣) .

إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع ،وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد وماكان معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعتكم فالصلاة فضاءً بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فأقصدوا بالإيماء نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم: «**فأتوا منه ما استطعتم**».

وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرّم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل كتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه.

وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقي إن تبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والالغاز فافعلوا وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا: اشتموا محمداً فإنهم يقولون لهم مُمَدْ، فأشتموا مُمَداً، ناوين أنه الشيطان أو مُمَدْ اليهود، فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية الكمال

والتشريف من هذه وإماتته وصلبه، وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وإنه استوفاه الله برفعه إلى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسن ما تكتبون به.

وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتكم الله ورضيتم به، ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره "يصل إلى الغرباء إن شاء الله"[١].

سادساً: قواعد محاكم التفتيش في معاملة مَن أُكرهوا على النصرانية

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرون في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة[٢].

يعتبر الموريسكي: وهو المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية، أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام:

إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يُبلّغ عن ذلك، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلاً باسم

[١] ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين.

[٢] ـ الموسوعة العامة لتاريخ المغرب الإسلامي (٣ / ٢٢٦) .

الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح أو ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن، أو يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية، أو ينشد الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية، أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة، منعتاً إياه بالنبي ورسول الله، أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله أو يقول إنه لم يُنصَّر إيماناً بالدين المقدس، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله، لأنهم ماتوا مسلمين[1].

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شؤون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2].

---

[1] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٠١ .

[2] المصدر نفسه.

سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً

١. تفتت كيان الشمال الأفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

٢. سعي ممالك إسبانيا نحو الاتحاد وتم ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تمَّ بين (فرناندو) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد، ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس[١].

٣. الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات[٢].

أما شوقي أبو خليل فيقول: والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرسوا على الحياة الخشنة الجافية، وغدا التهتك والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ.

---

١ . مصرع غرناطة، ص: ٩٤، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٦٤ .

٢ المصدر نفسه.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبُّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكون منهم جيش قوي، كفوء للحرب والمصاولة[1].

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سُنة متبعة بينهم، ووقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخون أن وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم[2]؟ دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عند ما كان نشيد طارق بن زياد في العبور(الله أكبر) وبقينا فيها زمناً، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه[3].

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل في الأندلس: كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم، أُشربت نفوسهم حُبه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم.

وضاعت ممالك الأندلس من أيدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

دوزن العود وهات القدحا

راقت الخمرة والورد صحا

[1] المصدر نفسه.

[2] . النصر والهزيمة، توفي خليل، ص: ١٢٣.

[3] . سقوط الأندلس، ص: ٢٧ .

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة، فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلى:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم
حلل الحرير عليكم ألوانا
ماكان أقبحهم وأحسنكم بها
لو لم يكن ببطرنة ماكانا

٤. الإختلاف والتفرق بين المسلمين: ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولتي بني مرين وبني عبد الواد والدولة الحفصية لوجدت أمراً فظيعاً، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين، بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف، بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف، حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:

ما بال شمل المسلمين مبدد
فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم
وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في دينكم
وتركتموه للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف
لكفى الحيا من وجه ذاك السيد[1]

[1] سقوط الأندلس ص٣٣.

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تحامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: "**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**". **وفي رواية "فأهلكوا"**"[1].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود:"**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**"[2].

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحضّ على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[3]. والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد بطلان ما عند الطرف الآخر وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً «**وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة**» كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة، لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرىء العدو عليها فيطمع فيهاجمها ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها[4].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها.

٥ . موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة، واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله، بل هذه المعاني كادت تندثر.

---

[1] صحيح البخاري بشرح ابن حجر (/ ١٠١، ١٠٢).

[2] المصدر السابق (٩/ ١٠٢).

[3] المصدر السابق.

[4] تاريخولي المرابطين والموحدين ص٤٦٦.

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

- قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " (المائدة، آية: ٥٧).
- وقال تعالى:" لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ " (آل عمران، آية: ٢٨).
- وقال تعالى:" لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ........" (المجادلة، آية: ٢٢).

وقد أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الأمة في الولاء والبراء فقال: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله**»[١].

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ـ: «**من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب**»[٢].

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة، ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة وللإسلام وأهله، ولكنك لا تجني من الشوك العنب.

---

[١] مسند أحمد (٤/ ٢٨٦).

[٢] البخاري مع الفتح، ك الرقائق رقم ٦٥٠١.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام فهل يؤمن الذئب على الغنم[١].

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الإسبان يعتذر فيها عما فعله أبو عبد الله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح، ولما سقطت مالقة وحوّل مسجدها الأعظم إلى كنيسة ـ ردّه الله إلى أصله ـ أرسل أبو عبد الله الصغير إلى ملك النصارى يهنئه في ذلك، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قُدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناء يذكر.

وهل شكر النصارى لهذا المتخاذل خذلانه؟ لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب، وفي ذلك يقول المقري ـ رحمه الله ـ ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس حرسها الله ـ وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز والمذل المانع المانح لا إله إلا هو[٢].

٦ ـ التخاذل عن نصرة من يحتاج النصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**»[٣].

وقوله صلى الله عليه وسلم: "**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**"[٤].

---

[١] سقوط الأندلس صـ٢٤.

[٢] المصدر نفسه صـ٦٧، ٦٨.

[٣] البخاري مع الفتح، ك المظالم رقم ٢٤٤٢ (٥/ ١١٦).

[٤] المصدر السابق، ك المظالم (٥/ ١١٧) رقم ٢٤٤٦.

لقد تخاذل ملوك الشمال الأفريقي عن نصرة ما تبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم، وأنهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة وإليك ما حدث في طليطلة:

قاد. عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد[١].

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي ٦٢٧ هـ ـ ٦٥٥ هـ وكانت سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً، تنقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عبّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرضاً نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك من أجل سحقه ومحوه من الوجود.

يقول المقري في نفح الطيب واصفاً استعداد النصارى لإحدى المعارك: وجاء الطاغية دون بطء في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب إلى طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له تضرعاً وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك[٢].

---

[١] التاريخ الأندلسي، صـ: ٣٣٢.

[٢] نفح الطيب (١/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

ويقول جوستاف لوبون في "حضارة العرب" إن الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقية[١].

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كنيسة
فأهلك عليه أسىً ولا تتجلد
أسفاً عليها أقفرت صلواتها
من قانتين وراكعين وسُجد
كم من أسير عندهم وأسيرة
فكلاهما يبغي الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة
فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقيٍّ بالسلاسل موثق
يبكي لآخر في الكبول مقيّد
ضجّت ملائكة السماء لحالهم
وبكي لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم أخواننا
مما دهانا من ردى أو من ردي[٢]
أفلا تراعون الأذمة بيننا
من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم

[١] عوامل النصر والهزيمة، ص: ١٢١.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٧٠.

وسيوفكم للثأر تتقلد

يا حسرتى لحمية الإسلام قد

خمدت وكانت قبل ذلك توقد[1]

٧. غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر، فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[2].

قال تعالى:" وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ " (المائدة، آية : ١٤).

لقد سطّر النصارى في الأندلس تاريخا مليئاً بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء، قال تعالى:

- " لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ " (التوبة، آية: ١٠).
- "وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ " (البقرة، آية: ١٢٠).

لقد استمات النصارى في حروبهم مع المسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية، ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً، وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة واستطاعوا أن يوحّدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصاً في مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس.

---

[1] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٦٣).

[2] اريخ دولتي المرابطين والموحدين ص: ٤٧٠.

٨ . إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على إثر ذلك عهد السنوات الصعاب، وكانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحداً وأصبحتَ الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[١]

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه[٢].

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة أصبحت أسر الطوائف سبعاً وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها[٣].

يقول د. عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُّلطة ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيّعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسئولون عن النهج الحنيف الذي كانت عليه الأندلس وحضارته[٤].

---

[١] سقوط الأندلس، ص: ٣١.، ناصر العمر.

[٢] مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٦).

[٣] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص٤٧١.

[٤] التاريخ الأندلسي ص٣٢٥.

٩ . عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: فرفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية، لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته وما كان أفطن الفقيه رحمه بأمورهم وأعلمهم بتدبيرهم، لكنه يرجو حالا تثوب، ومذنباً يتوب[١].

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوّا عن واجبهم المقدس، وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ودخلوا في معارك فرعية وبالغوا فيها، فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة[٢]بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها، وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم ـ رحمه الله ـ : ولا يغرنك الفُساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم، والناصرون لهم على فسقهم[٣].

١٠ . الرضا بالخضوع والذل، تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

ففي عام ٦٤٣ هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن

---

[١] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الثاني صـ٩٥، ٩٦.

[٢] سقوط الأندلس صـ٣٥.

[٣] مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٣).

يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلّم ابن الأحمر جيّان وأرجونة، وبركونة، وبيغ والحجاز وقلعة جابر للنصارى[1].

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادى الأول عام ٦٤٥ هـ قدّم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها، وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهراً اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم، وفي أوائل رمضان ٦٤٦ هـ دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة[2].

ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال:

حشوا رواحلكم يا أهل أندلس

فما المقام بها إلا من الغلط

السلك يُنشر من أطرافه وأرى

سلك الجزيرة منشوراً من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه

كيف النجاة مع الحيات في سفط[3]

١١. سوء سياسة الولاة وإرهاق الناس بالجبايات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس منها: تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة، ومنها: الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها

---

[1] هاية الأندلس صـ٤٣.

[2] سقوط الأندلس صـ٢٢.

[3] التاريخ الأندلسي صـ٣٦٨.

تخوين الأمين، وتأمين الخئون، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها: إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والأتاوات والمكوس التي ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول الدكتور الحجي: ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاء لأنانيته ورغبة في البقاء في مركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر[1].

وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام ٦٣٥ هـ / وعام ٨٩٣ هـ من قبل تسعة وعشرين حاكماً، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أو سنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدماً عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين، ولذلك غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادى والمثل والقيم[2].

١٢ . الثورات الداخلية في الأندلس:

وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم الولاة، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحيَّتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتّصلوا بممالك النصارى ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس، وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي، ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى، ثم اتصل بالعباسيين في العراق

---

[1] نفح الطيب (٤/ ٣٥٢) نقلاً عن سقوط الأندلس صـ٤٩.

[2] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين صـ٤٧٤.

والأغالبة في أفريقية، ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصرانية عام ٨٩٩ م، واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية، وأعلن عداءه للإسلام والمسلمين وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين، إلى أن جاء الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث ـ الناصر وكان شجاعاً حازماً، فواصل الفتوحات وطالت مدته في الحكم "نصف قرن" فكانت أول مدينة استسلمت له إستجة ثم لحقت بها مدينة ألبيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت "أرخدونة" أن تدفع الجزية، ورضخت إشبيلية لقوات عبد الرحمن في ٩١٣ م وأخضع "ريه" التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عدائية ضد الإسلام في الأندلس ٣٧ عاماً، وحاصر طليطلة سنة ٩٣٢ م واستسلمت له، وكان الأعداء يتربَّصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لا يكلّون ولا يملّون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين من أجل القضاء على الإسلام، والدولة العبيدية الفاطمية الرافضية في أفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس وأرسلت الدعاة وأسسوا حزباً عبيدياً رافضياً في الأندلس وتستروا بالطرق الصوفية، وقاومهم عبد الرحمن الثالث واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس ولكن لله في خلقه شؤون[١].

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتسترت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها[٢].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٧٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٧٥.

ثامناً: دولة بني مرين والدولة الوطاسية والدولة السعدية

١ . دولة بني مرين بالمغرب الأقصى:

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وهم يتفرعون من قبائل "زناتة" مثل "مغراوة" وبني "يفرن" وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة، وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتُّقى وسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومترية المنحرفة. ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة:

- **. عبد الحق بن محيو المريني:**

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقى، وسلامة العقيدة، والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة والتزم بالمذهب المالكي في سيرته[1].

وقد مات عبد الحق سنة ٦١٤ هـ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة: أبو سعيد عثمان، مات سنة "٦٤٢ هـ"، وأبو بكر عبد الحق، مات سنة "٦٥٦ هـ"، ويعقوب بن عبد الحق وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار أمير المغرب سنة ٦٦٨ هـ "١٢٦٩ م" وكانت له سيرة جهادية مشرقة في الأندلس.

- **. المنهج الذي قامت عليه الدولة المرينية:**

لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام، ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة الإسلام والمسلمين، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك، إلا أن صدامهم مع الموحدين

[1] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٥٥).

وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين[1] أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية، وأنهم لم يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية.

ومن هنا كسبوا محبة الناس، إلا أن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب سواء من المنظور الشرعي أو السياسي. واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم، وبذلك حققوا مكاسب متعددة منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير تحالف بني زيان مع الموحدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م، ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص[2].

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم، واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة فاستطاع أن يضبط الأمن، ويرعى مصالح العباد، وعمل على توحيد المغرب الأقصى، وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين.

---

[1] من أمثال عبد الفتاح الغنيمي والدكتور أحمد مختار العبادي.

[2] موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٠٧).

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة، واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه، وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس، وضم إقليم سلجماسة للدولة في صفر ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة، وفي عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م أمر السلطان المريني ببناء عاصمة للدولة المرينية وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم[١].

- . **حركة التوحيد للشمال الأفريقي:**

حاولت دولة بني مرين أن توحِّد الشمال الأفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبد الواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى.

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني "٧٣١ هـ - ٧٥٢ هـ / ١٣٣١ - ١٣٥١م" وولده أبي عنان فارس (٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م) أن يوحدوا الشمال الأفريقي بالقوة وعادت وحدة الشمال الأفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس، وعادت حركة التوسع في الشمال الأفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس، ودخل تونس في عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م لتمتد مملكته من مصراتة في ليبيا إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس.

---

[١] المصدر نفسه (٣/ ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١).

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال، والإحسان إليها، ففجَّروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان.
وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه واضطر أبو الحسن أن يتخلّى عن السلطة في سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م ثم مات بعد شهور.

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الأفريقي وأزال دولة بني زيان سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م وتابع سيره إلى أفريقية، ودخل تونس في سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصاً في فاس وطمع بعض أقربائه في السلطة جعله يعود إلى عاصمته، فوافاه الأجل في العام التالي[١].

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من أجل توحيد الشمال الأفريقي وتقلص النفوذ المريني في المغربين الأوسط والأدنى، ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم. وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ففقدوا المغربين الأدنى والأوسط، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب، واحتلوا طنجة سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م واقتصرت الدولة المرينية على فاس[٢].

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا همَّ لهم إلا مصالحهم الشخصية، وفي عهد آخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (٨٢٣ هـ ـ ٨٦٩ هـ / إلى ١٣٢٠. ١٤٦٥ م)

---
[١] المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب د. عبادة كحيلة صـ١٤١.
[٢] تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى العاشر صـ١٤٢.

قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت الثورة التي عمت أحياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان "٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م" وبذلك انتهت دولة بني مرين[١].

- . **أسباب سقوط بني مرين:**

. دسائس ملوك الإسبان ضدها، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبد الواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.

. دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات المغرب الأوسط والأدنى، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الأفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين.

. ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في إضعافها وتسلط الوزراء وزعماء العرب في شؤونها، وتنازعت الأهواء والمصالح فتولدت انفجارات داخلية ونزاع الأبناء والآباء والأعمام عجل بسقوط الدولة.

. المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارى والذين شنوا حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الأندلس، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبتة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار[٢].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصَّلاَّبي صـ٤٨٢.

[٢] اريخ دولتي المرابطين صـ٤٨٣.

. تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين، ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب، فكان ذلك سبباً في قيام الشعب بثورة ضد دولة بني مرين وإزالتها من الوجود.

. أجل الله في هذه الدولة، لأن الدول لها آجال لا تتعداها. وغير ذلك من الأسباب.

٢ . الدولة الوطاسية:

ترجع الدولة الوطاسية في نسبتها إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين، وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية، وأنزل بهم السلطان عبد الحق – آخر سلطان للدولة المرينية – نكبة عظيمة ونكَّل بهم أشد التنكيل، واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه. وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام ٨٦٨ هـ ، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ودخل في حروب طاحنة واحتل فاس عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده.

واستغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس، فأرسلوا ٤٧٧ سفينة محملة بـ"٣٠ ألف مقاتل" في زمن ملك البرتغال الفونس الخامس، ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطسيون عن أراضٍ من المغرب واحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأُطلِق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته[١].

كانت الفتن على أشدها في المغرب عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصارى أن يتوسعوا للاستيلاء على موانىء المغرب مثل سبتة وطنجة

[١] موسوعة المغرب (٣/ ٢٣ ، ٢٤).

وأصيلا، وتوغلت سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين "١٤٩٢ م" وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحو المغرب.

واستمر النفوذ الإسباني والبرتغالي في التوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الإستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، وكانت هذه الموانىء والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والإسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، كما كانت هذه المراكز نقاطاً للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية، لكنها رفعت لواء الجهاد، ودعت إلى الوحدة المغربية، وتدرَّجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ودّ الطرق الصوفية وزعماء القبائل، وتخوض حرباً جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين وحرّروا الأراضي المحتلة، وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام ٩٥٦ هـ.

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذي فرّ من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ويهزم السعديين في فاس عام ٩٦١ هـ، وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد وأسقط الدولة الوطاسية في نفس العام ٩٦١ هـ[١].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص٤٨٤.

- . **أسباب سقوط الدولة الوطاسية:**

. دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبرتغاليين من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم.

. عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمي الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

. ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

. الضعف الاقتصادي الذي أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانئ.

. التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة بين المغاربة[١].

٣ . السعديون:

يرجع أصل السعديين إلى الجزيرة العربية ويرجعون نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢]، ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرجف به خصومها من الطعن في نسبها[٣]، وهي لم تعتمد في قيامها إلى "مهدوية" كاذبة أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعديين، فيرى الاستاذ شوقي أبو خليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم إنما

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص: ٤٨٥.

[٢] وادي المخازن لشوقي أبي خليل، ص: ٣١

[٣] قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٢).

يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر ابن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وكثير من العامة يعتقدون أنهم سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم، ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي:"وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة، فصار كالعلم الصرف المرتجل، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف[2].

وأما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال: هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد ابن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[3].

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودحر المعتدين، ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الإسبان والبرتغال فأرشدوا إلى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وكان مقيماً في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية، وشرع في حركة الجهاد ووفقه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى، وزحزح أقدام الغزاة النصارى من أراضي المغرب وأصاب هيبتهم، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعة وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٣ هـ وخلف ولدين، وكان أبو العباس أحمد

---

[1] الظئر: المرضعة والعاطفة على غير ولدها.
[2] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٨٥.
[3] موسوعة المغرب العربي (٣/ ١١٤، ١١٥)

الأعرج أكبرهم، فبايعه الناس بعد والده، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وفي سنة (٩٣٠ هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين. وفي سنة (٩٤٠ هـ) اتفق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون نصيب الأشراف السعديين من "تادلة"[١] إلى "السوس"، وللوطاسيين من "تادلة" إلى المغرب الأوسط.

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ -الأخ الأصغر- الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة "٩٦١ هـ" ودخل مدينة فاس، فصفا له ملك المغرب، ولكنه قتل سنة "٩٦٤هـ" وتولى زمام الأمور من بعده ابنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة "٩٨١ هـ"[٢]، فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظاً غليظاً مستبداً ظالماً، قتل اثنين من إخوته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسجن آخر فكرهته الرعية[٣]، وصفه السلاوي بقوله: وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبراً تياهاً غير مبال بأحد، ولا متوقف في الدماء، إلا أن هذا المتعجرف السفاك للدماء لم يهنأ بملكه حيث استطاع عمه أبو مروان عبد الملك، وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته، إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا واستطاعت أن تحرّر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني، وكان أبو مروان عبد الملك في تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسناً، ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم[٤].

---

[١] انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤).

[٢] المصدر نفسه.

[٣] وادي المخازن، ص: ٢٣.

[٤] قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤).

وما إن وصل جيش عبد الملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله واستطاع عبد الملك أن يستميل القوّاد والوزراء فانقادوا إليه جميعاً وبايع أهل المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ سنة "٩٨٣ هـ".

- **. من إصلاحات عبد الملك وأعماله:**

. أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

. اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان التجاري للدولة.

. أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

. استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

. فرض احترامه على أهل عصره حتى الأوروبيين احترموه وأجلُّوه.

قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة: كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار، فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك[١].

. اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة، أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية وأحوال السكان عامة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدولية وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان

---

[١] وادي المخازن، ص: ٣٧.

أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة[1].

• . معركة وادي المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ ٣٠ جمادى الثانية ٩٨٦ هـ الموافق: ٤ آب "اغسطس" ١٥٧٨ م.

ولقد كانت لتلك المعركة أسباب من أهمها:

. أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزنور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث في آب (١٥٢١ . ١٥٥٧ م).

. أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنهم بين ملوك أوروبا، وزاد غروره بعد ما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جيدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي، يدفعه في ذلك حقده على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، لقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى، فخطط لغزو واحتلال المغرب[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٣٩، ٤٠.

[2] . وادي المخازن، ص: ٤٥ ، ٤٦ .

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارى والوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عمَّيْه عبد الملك المعتصم بالله، وأحمد المنصور، مقابل أن يتنازل له عن موانئ وشواطئ المغرب، فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله ما وراء ذلك[1].

- **. حشود النصارى:**

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الإسبان والبرتغاليين والطليان والألمان وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب[2].

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا في عام ١٥٧٨م

. الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله.

والتفّت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم فكتب إلى أهل المغرب: ما استصرخت بالنصارى٣ حتى عدمت النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء: إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه، وتهددهم قائلاً: "فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ" (البقرة، آية: ٢٧٩).

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها: الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضى عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصروه ولا

---

[1] . وادي المخازن، ص: ٤٦ .

[2] . وادي المخازن، ص: ٤٩ .

[3] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٨٩ .

استنصروا به حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله، وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب، لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب.

وأما قولك: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني: أنك إستعنت بالكفار على المسلمين. قال عليه الصلاة والسلام: "**إني لا أستعين بمشرك**..." الاستعانة بهم ـ بالمشركين ـ على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه ... وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله؟

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لادين إلا دين محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: "وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ" (العنكبوت، آية: ١١) .

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعوّلت على بلوغ الملك بحشودهم وأنى لك هذا مع قول الله تعالى:" وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"(التوبة، آية : ٣٢).[1]

[1] ـ الاستقصاء نقلا عن وادي المخازن، ص: ٥٣ .

ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطؤوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس، وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت إلى أن تتقدم عليك فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب ابن كلب[1]. فليس من الشجاعة، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين. وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشة الذين[2] أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر. وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

- **. قوات الطرفين (البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي):**

. الجيش البرتغالي:

١٢٥,٠٠٠، وما يلزمهم من المعدات، والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب فهي تتحدث عن ١٤,٠٠٠ راجل، و٢٠٠٠ فارس و٣٦ مدفعاً، مقابل: ٥٠,٠٠٠ راجل من الجيش المغربي، و٢٢,٠٠٠ فارس، و١,٥٠٠ من الرماة و٢٠ مدفعاً.

ذكر أبو القاضي في (المنتقى المقصور) : عدد الجيش البرتغالي مائة ألف وخمسة وعشرون ألفاً[3]

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن): إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قتل في عددهم ثمانون ألف مقاتل[1].

---

[1] . وادي المخازن، ص: ٥٣.

[2] . المصدر نفسه، ص: ٥٤.

[3] . الإستقصاء (٥ / ٦٩) نقلاً عن وادي المخازن، ص: ٥٦ .

كان مع الجيش البرتغالي: ٢٠,٠٠٠ إسباني ، ٣٠٠٠ ألماني، ٧٠٠٠ إيطالي وغيرهم عدد كبير، مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان. وكان معهم المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين: ٣٠٠ . ٦٠٠ رجل على الأكثر[٢].

. الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠,٠٠٠ مجاهد، يملكون تفوقاً من الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

. أنهم ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة .

. التفاف الشعب حول القيادة، حيث تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب، وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات، وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسي) أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعفَّ عنها، ولم يأخذ منها شيئاً[٣].

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله عبقرية فذة في المعركة، وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي:

لقد حنَّكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة عندما استدرج سبستيان إلى

---

[١] . وادي المخازن، ص: ٥٦.

[٢] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩١.

[٣] . وادي المخازن، ص: ٥٨ .

مكان حدده عبد الملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها[1].

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف للرماة المشاة وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة الفرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقضّ في الوقت المناسب وهي غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر[2].

كان صباح الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام، وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، مُذكّراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر[3].

قال تعالى:" وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " (الحج، آية : ٤٠) .

وقال تعالى:" وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال، آية: ١٠) .

كما ذكّر بوجوب الثبات:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ " (الأنفال، آية : ١٥)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِير لَّعَلَّكُم تُفْلَحُونَ " (الأنفال ، آية : ٤٥).

وبضرورة الانتظام:

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ" (الصف، آية: ٤).

---

[1] . المصدر نفسه، ص: ٦٢ .

[2] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩٢ .

[3] . وادي المخازن، ص: ٦٢ .

وذكر أيضا حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة[1].

ولم يأل القساوسة والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوروبا الذين يقودهم سبستيان، مذكِّرين أن البابا أحلَّ من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي اتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً: ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله؟ وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه المنصور وحاجبه رضوان العلج، وصار حاجبه يقول للجند: السلطان يأمر فلانا أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر[2].

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن وكانت تلك القنطرة أثراً بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر وقتل من قتل، وصرع

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٦٤.

[2] وادي المخازن، ص: ٦٦، ٦٧.

سبستيان وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن. واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين[1]. جاء في "درة السلوك" لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة "مخطوطة بدار الوثائق بالرباط":

وابن أخيه[2] بالنصارى اعتصما
وصار يستنجدهم لمن سما
أجابه اللعين بستيان[3]
بجيشه ومعه الأوثان
وعدد الجيوش الذي جمعا
ينيف عن مائة ألف سُمعا
فقيض الله له المنصورا[4]
ملكاً شجاعاً أسداً هصورا
فخلص الإسلام من يد اللعين
بصبره على لقاء المشركين
ما منهم إلا قتيل وأسير
في ساعة من الزمان ذا شهير
مات بها بستيان اللعين
فما له عن الرّدى معين
ثم محمد الذي أتى به

[1] وادي المخازن، ص: ٦٦، ٦٧.

[2] إشارة إلى المتوكل.

[3] بستيان "لضرورة الوزن" وإلا فهو سبستيان.

[4] أحمد المنصور، أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه وكان جديراً بالشاعر أن يذكر عبد الملك الذي هيأ وخطط للمعركة.

مات غريقا يومه[1] فانتبه

لحكمة الله العظيم القاهر

أفادهم وزيَّن المنابر

بذكر عمّه أبي العباس

الحازم الرأي شديد الباس

نجل الرسول المصطفى المختار

به زها المغربُ على الأقطار[2]

- **. أسباب نصر وادي المخازن:**

. القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور وظهور مجموعة من القادة المحنَّكين من أمثال: أبي علي القوري، والحسين العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

. التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

. رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم في الأندلس.

. اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

---

[1] في نهر وادي المخازن.

[2] برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن.

- الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده، ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.
- القدرة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.
- تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة في الفرار.
- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.
- وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد[١].
- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم وغير ذلك من الأسباب.

- **. نتائج المعركة:**

- أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي، وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمائة للهجرة.
- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية في زمن السلطان مراد خان الثالث، وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورة

---

[١] وادي المخازن، ص: ٧٢ . ٧٥.

للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم، ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

ـ ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوروبا تخطب ودّها، واضطر ملك البرتغال الجديد "الريكي" أن يرسل وفداً إلى المغرب وكذلك ملك الإسبان محملة وفودها بالهدايا الثمينة. ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة[١]، وبعدها رسل ملك فرنسا، وأصبحت الوفود "تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور"[٢].

ـ سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس مارية ـ المؤرخ البرتغالي ـ واصفاً نتائج المعركة:

وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار، العصر الذي لو وصفته ـ كما وصفه غيره من المؤرخين ـ لقلت: هو العصر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب[٣].

ـ مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستيان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد المتوكل، مجاهد شهيد عبد الملك المعتصم بالله.

ـ سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

---

[١] وادي المخازن، ص: ٧٠.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩٧.

[٣] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩٧.

. سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

. حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط على مستوى أوروبا، حيث رأوا أهمية إتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب[1].

- **. السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:**

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م. أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة[2].

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المراكز:"فاس، ومراكش بتارودانت.." ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير[3].

. إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية. وأحدث حروفاً برموز خاصة لكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تُحمى به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية. واهتم بالجهاز القضائي، وفصل السلطة

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٩٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ٤٩٧.

[3] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩٨.

القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في عهد السعديين فقال: في الوقت الذي كانت أوروبا في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم[1].

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش، بجوار قصره، وشكَّل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلومتراً، بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطوَّر عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله، وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلي المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع[2].

وطوَّر السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس، واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك، ومن أهم هذه القيادات: إبراهيم بن محمد السُفياني قائد

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٩٩.

[2] وادي المخازن، ص: ٤٢، ٤٣.

الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد الحداد العمري المعقلي. ودعّم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم، وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصا في ميناءي العرائش وسلا[١].

وامتدّ نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب، وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه، ودخل لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه والخصب لبلاده[٢].

- **. انهيار الدولة السعدية:**

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك آل به الأمر إلى سقوط الدولة السعدية، وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:

. الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التي عجّلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهيارها.

. ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى، وانشغل الأمراء السعديون بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.

. دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود والتوسع، كل إمارة على حساب الأخرى، ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها.

. ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب.

---

[١] تاريخ عصر النهضة، د. نور الدين حسام، ص: ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨.

[٢] تاريخ عصر النهضة، د. نور الدين حسام، ص: ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨.

ـ تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد، وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردي والضعف والانهيار، حيث لا يزال طفلاً صغيراً وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم. انتهى الأمر بأن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م وأزالوا نهائياً معالم الأسرة السعدية لمقتل أبي العباس، واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في البلاد، وبايعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة. وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة، لأنها لم تملك القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسي في هذه المرحلة الحاسمة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية، وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام ١٠٧٥ هـ / ١٤١٢ م وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش، ولا تزال أسرة الأشراف العلويين في حكم البلاد إلى يومنا هذا[١].

٤ ـ الدولة الحفصية في تونس وليبيا:

ـ النشأة:

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص، فمنهم من أرجعهم إلى عمر بن الخطاب كابن نخيل الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية[٢]. ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم.

وموطنها بجبال «درن» القريبة لمراكش ويعتبر أبو حفص من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة عند الموحدين من

[١] اريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠١.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠٧.

غير منازع، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت ما يسمى بالإمام وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ[١]، وبلغ من احترام عبد المؤمن له وحسن تقديره إياه أن كان يأخد برأيه في كل مشاكل الحكم، وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وأفريقية.

وعندما تولى الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور أسند إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أمر أفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها ويقضي على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب. وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدي أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وأفريقية[٢]، ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا عبد الواحد الحفصي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م.

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد الحفصي على الانفصال عنها:

- انهيار دولة عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة ١٢١٢ م.
- رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م لتعاليم ابن تومرت ثم أزال اسمه من السكة والخطبة.
- قتل الخليفة الموحدي إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته ومعظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٥٠٧.

[٢] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي، ص: ١٢١.

فاستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته، واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال عن التمسك بتعاليم ابن تومرت، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة، كما طبّقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة وإن كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان[1].

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسطنطينة وبجاية ودخل تلمسان، وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسلجماسة، كما أتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصى وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرينيين[2].

ودعا له عدد من ولاة الأندلس وبايعه أهل شرق الأندلس و إشبيلية والمرية والى الأمير أبي زكريا عبد الواحد، وجّه أمير بلنسية وفداً برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمير الحفصيين منشداً قصيدته السينية الفريدة التي قال عنها المقري أنها فضحت من باراها وكبا دونها من جارها [3]، وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً

إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست

فلم يزل منك عز النصر مُلتمسا

---

[1] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص: ١٢١.

[2] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصّلاّبي، ص: ٥٠٨.

[3] الموسوعة العامة لتاريخ الأندلس والمغرب (٣/ ٢٠).

وحاشى مما تعانيه حُشاشتها
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أصبح أهلها جزرا
للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة
يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة
تثني الأمان حذراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم
إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة
ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الأشراك مبتسماً
جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادي العائثات بها
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرساً
ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدى بيعا
وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها

مدارسا للمثاني أصبحت دُرُسا

وأربُعاً نمنمت أيدى الربيع لها

ما شئت من خلع موشية وكُسا

كانت حدائق للأحداق مونقة

فصوّح النصر من ادواحها وعسى

وحال ما حولها من منظر عجب

يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا

غيث الدبا في مغانيها التي كسبا

وابتز بزتها مما تحيفها

تحيف الأسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها خضراً

وأين عصر جليناه بها سلسا

محا محاسنها طاغ أتيح لها

ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

ورج أرجاءها لما أحاط بها

فغادر الشم أعلاها خُنسا

خلا له الجو فامتدت يداه إلى

إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا

وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً

ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

صل حبالها أيها المولى الرحيم فما

أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا

إلى أن قال:

طهِّر بلادك منهم إنهم نجس

ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم

حتى يطأطئ رأساً كل من رأسا

وانصر عبداً بأقصى شرقها شرقت

عيونهم أدمعاً تهمي زكاً وخسا

هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت

داءً ما لم تباشر حسمه انتكسا

فاملأ هنئاً لك التأييد ساحتها

جرداً سلاهب أو خطيئة دعسا

واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه

لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى[1]

ولقد لبَّى السلطان الحفصي النداء وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة، إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين[2].

---

[1] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (٣/ ١٢٠ ـ ١٢٢).

[2] المصدر نفسه (٣/ ١٢٢).

وفتح أبو زكريا أبواب أفريقية للهجرة الأندلسية وبلغ التأثير الأندلسي في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى، وكان أعظم حكام دولة الحفصيين وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره.

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبد الواحد السياسية حققت أهدافها حيث استطاع أن يمكن لبني حفص الحكم في أفريقية وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقاً إلى مدينة الجزائر غرباً، وبدا كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب[1].

- **. ولاية العهد:**

سلك الحفصيون في ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة. وفي عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م عَّين الأمير أبو زكريا ابنه على ولاية بجاية وحول له معظم الصلاحيات في سائر أعمالها.

وتميَّز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد.

وكانت وصية أبي زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد ومما جعل وفي وصيته قبل موته في عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م:

. المحافظة على إقامة شعائر الإسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.

. تفقده للجيش وحسن معاملته لأفراده حسب درجاتهم، فلا يلحق السفيه بالكبير، فيجرئ السفيه عليه، ويفسد نية الكبير، فيكون إحسانه مفسدة له في كلا الوجهين.

. أوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات، لأن الجزع يؤدي إلى القلق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.

---

[1] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥١٠.

. أن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص في العمل، وأن لا يقتصر في استشارتهم على أحد منهم دون الآخر، بل يأخذ بآرائهم جمعيّاً، فإن تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.

. عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاة وعن أحكامهم ومهما دعي للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراع من حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته.

. أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات، لأنهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.

. أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متمادٍ في غيِّه في فساد صلاحهم وأحوالهم ومثل هذا ليس له إلا السيف.

. أما الحسود فعليه أن لا يقيل عثرته، لأن في إقالته ما يشجعه على القول والقول يدفعه إلى العمل، ووبال عمله يضر غيره، فليحسم داءه قبل انتشاره وبتدارك أمره قبل إظهاره.

. عليه أن يزهد في الدنيا، فلا ينشغل بلهوها وزينتها بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا وينال بها مرضاة الله في الآخرة[1].

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام ٦٥٦ هـ وكان إعلانه كأمير المؤمنين للمسلمين ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وبايعه شريف مكة بالخلافة[2].

[1] تاريخ الدول لابن خلدون (١/ ٤٠٦ . ٤٠٨).

[2] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي، ص: ١٢٣.

وحاول الحفصيُّون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة كالأصل العربي، والنسب النبوي، إلى جانب قرابتهم للموحدين، فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب[1]، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته حفصة، فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة[2]. وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل، وإعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية، وذكر نسبهم الذي يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم يقول:

قوم أبو حفص أب لهم

وما أدراك والفاروق هو أول[3]

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية، وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الأقصى بقول السلاوي الناصري: ولما بلغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تاليفاً لأهل المغرب، واستجلاباً لمرضاتهم وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم، إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم[4]، واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة.

---

[1] تاريخ المرابطين والموحدين، ص: ٥١٢.

[2] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٥١٢.

[3] مصدر السابق.

[4] السلاوي، الاستقصا (٣/٢٨ ـ ٢٩) نقلا عن العبادي دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الأفريقي عاصمتها تونس، وبسطت نفوذها في بلاد الأندلس والمغرب والحجاز، وشعر حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة الحفصية وكانت السياسة المغربية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية. ومن أهم تلك الأهداف: السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها كالطولونيين والإخشيديين والفاطميين "العبيديين" قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب "خدام الحرمين"[١].

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر، واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضرباً للأمثال، ورأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء. وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية، وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب...الخ. ثم أدى بيبرس فريضة الحج وظهر منه خشوع وكرم متميز وأزال أنصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي، ووضع مندوباً تابعاً له

---

[١] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: ١٢٧.

بجانب شريف مكة، إلا أن بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها[1].

واستطاع المستنصر بالله أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصداً للعلماء والأدباء وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة بعضها من السودان، والبعض آخر من أوروبا، واهتم بعاصمة الدولة وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقيودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك نفسه[2].

مات المستنصر الموحدي عام (٦٧٥هـ / ١٢٧٧م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبس أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلت بجاية عن تونس وانتهز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات[3].

وأصبح الشمال الأفريقي في دوامة الصراع واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم أفريقيا، لدى انسحاب المرينيين وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر ٧٢٢هـ / ١٣٧٠م . ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م واستطاع أن يصدّ هجوماً من النصارى على المهدية سنة ٧٩٢هـ /١٣٩٠م فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها وتمكن إبنه أبو فارس من الإستيلاء على تلمسان، وضم بعض الإمارات التي إستقلت في حياة أبيه ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م وعلى

---

[1] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: ١٢٧.

[2] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥١٤ .

[3] دراسات في تاريخ المغرب، ص: ١٢٩.

بسكرة سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م، وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحته خاصة ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر، وتوفي أبو فارس سنة ٨٣٨هـ /١٤٣٤م، وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم ١٤ شهر ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان، إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضي على هذه الثورات سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م ويهزم عمه أبا الحسن[١].

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا وسلاطين مصر والأندلس، ثم تمزَّقت وحدة الحفصيين بعد وفاته وهاجم الإسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها، وعبَّر أبو محمد الحفصي عن الحال التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه:

وكنا أسوداً والرجال ثعالبا

فجاء زمان فيه نخشى الأرانبا

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الإسبان بمذبحة في تونس سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م فكانت نهاية الحفصيين، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والاسبان واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان ولذلك دخلت تونس في حكم الدولة العثمانية الإسلامية عام ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م.

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣م.

- **. طرابلس والدولة الحفصية:**

---

[١] المغرب الكبير (٢ / ٨٧٩) .

- اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم وأرسلوا الأمراء إلى طرابلس، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغي، وعبد الله بن إبراهيم بن جامع، ومحمد بن عيسى الهنتاتي، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح، وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبد الله محمد (٦٤٧ ـ ٦٦٥م) فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر.
- لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الإضطراب قد بلغ أشده، وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج إلى طرابلس، فاجتمع الناس حوله وإختاروه أميراً لهم سنة ٧١١هـ ورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها واحتل تونس ثم سار شرقاً حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس[1].

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بأفريقيا حوالي ست سنوات، ثم انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى أبو بكر سنة ٨١٨هـ الذي استطاع أن يحرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر[2].

- **ـ طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص:**

[1] تاريخ الفتح العربي الطاهر الزاوي، ص: ٣٤٢.

[2] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥١٦.

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم، آل إليهم حكم طرابلس من سنة ٧٢٤هـ، وظلوا يحكمونها بدون استقرار ـ حتى قبيل غزو الإسبان لها[١].

ومن ولاة بني ثابت:

ـ ثابت بن محمد (الأول) ٧٢٤هـ.

ـ محمد بن ثابت ٧٣٠هـ.

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة ٧٤٨هـ[٢].

ـ ثابت محمد بن ثابت الثاني ٧٥٠هـ

استطاع تجار جنوى أن يخدعوا الطرابلسيين ويحتلوا المدينة في عام ٧٥٥هـ، وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتاع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوى فتدخل بنو مكي –وهم من البربر، ونسبهم من لواته– بزعامة أحمد بن مكي، وكان حاكماً لقابس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتمْ دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس بعد أن مكث الجنويين فيها حوالي خمسة أشهر.

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فاعتذر عن أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو إخوانه في العقيدة[٣].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٥١٦.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥١٦ .

[٣] تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص: ٣٥٢ .

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميراً عليها إلى أن توفي عام ٧٦٦هـ .

وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيىء المعاملة عاجز الرأي مستبداً في الأمر كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر، فوقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكي، وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء[١].

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة ٧٩٢هـ ولى طرابلس ابن أخيه علي بن عمران بن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين وتعرض لحصار عنيف إستمر لمدة سنة، إلا أنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر واستطاعوا أن يملكوا طرابلس وأسندوا ولايتها إلى يحيى بن أبي بكر ولكن رأى الأمير الحفصي أن يعزله وعيّن عليها رجلاً من قبله يثق فيه، وأصبحت طرابلس تابعة له وانقرض حكم بني ثابت في طرابلس وإمارتهم عليها[٢] بعد أن حكموها نحو ٧٩ سنة [٣].

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام ٨٠٣هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٨٣٣هـ.

ثم تولى ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروطاً:

---

[١] المصدر السابق ، ص: ٣٥٣ .

[٢] المصدر نفسه.

[٣] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٤٦.

. أن يبقى واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي .

. أن يستقلّ بالإدارة ولا يرد أمره في شيء .

. أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد .

وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبد الواحد بن حفص حزماً ورأياً وإرادة ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات وكثرت الأموال، وبقي والياً إلى أن توفي عام ٨٥٨هـ وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة، كانت أيام رغد وهناء على أهل طرابلس[١].

ويرى الشيخ الطاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة ٨٣٣هـ إلى أن احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع الأهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الأفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة ووقعوا في الترف الذي أفسد عزائمهم وأخلاقهم ووضعت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع بهم الأعداء من النصارى وتكالبوا عليهم[٢].

وحانت الفرصة للإسبان فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية انضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين وفي ٨ من ربيع سنة ٩١٦هـ تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصلت أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٩١٦هـ، الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠م وبدأ القتال بين النصارى الإسبان والطليان والمالطيين وبين أهالي طرابلس، ولم تكن القوات متكافئة وسقطت

---

[١] تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص: ٣٥٧ ، ٣٥٩ .

[٢] المصدر نفسه، ص: ٣٦٠ .

المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض وسبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات، واستمر الإفساد الإسباني في البلاد ما يقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة، ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م .

واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨هـ / ١٥٥١م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، ويحرِّروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا[١] .

- **. أسباب سقوط الدولة الحفصية:**

. إعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت، وحرصها على تبنِّي عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الأفريقي فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

. الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي، وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

. استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحياناً الدولة لتجنيد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية.

---

[١] المصدر نفسه.

ـ استُهدفت مدن أفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً، فعملوا على تنصير الشمال الأفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

ـ ظهور قوى إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطة العثمانية والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العباد.

ـ تطلع أهالي الشمال الأفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين.

ـ كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه من التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى[١].

٥ ـ بنو عبد الواد "بنو زيان":

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين، وعندما ضعف أمر الموحدين انفصلوا بالمغرب الأوسط، وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم، وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد[٢].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٢٠.

[٢] تاريخ قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٣٤).

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرُحَّل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلأ والمراعي، ثم ساعدتهم الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريباً. وكان استقرار قبائل عبد الواد في سواحل المغرب الأوسط، واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

وانفصل زعيم بني عبد الواد يغمر اسن بن زيان عن دولة الموحدين وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعلياً، وحكم زعيم بني عبد الواد ما يقارب الخمسين سنة "٦٣٣ هـ / ١٢٣٥م ـ ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م"، كان يغمر اسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الأفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين، لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسر شوكة المرينيين، إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف وقتال مرير مع بني عبد الواد الذين هزموا في عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م أمام الضربات المرينية قرب وجدة، ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كاملٍ، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى[١].

وكان من سعد بني عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس، وتحالف بنو عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر

---

[١] المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ص: ١٣٤.

بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني، وقام بنو عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية، فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبد الواد وألحقوا بهم هزائمهم في عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م.

وكان بنو عبد الواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتد خطبهم وتنكسر حشودهم وتنهزم قواتهم أمام المرينين ، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني فيناصرون فريقاً على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبد الواد درعاً حصيناً بينهم وبين بني مرين، إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض، وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي وتوحِّد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بها.

لقد تعرضت دولة بني عبد الواد للانهيار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون، ويرجع ذلك إلى أسباب منها[١]:

- ظهور الزعيم يغمر اسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن. يقول ابن خلدون عنه: كان يغمر اسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالاً، وأعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠٣.

وبعده، وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة، فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على الخارجين وأصارهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار، واتخذ الآلة ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء[1].

ـ حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.

ـ حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحوهم إقطاعات واسعة وأكرموهم بالأموال والعطاء، فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.

ـ إسناد مرافق الدولة إلى الأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الإسبان وجورهم وتعسفهم، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة وفي الحياة المعمارية، والحياة الثقافية.

ـ اهتمامها بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين أفريقية المدارية وأوروبا، فكان يتم التبادل بين التجار بين ما يحملوه من أفريقيا من تبر ورقيق وجلود وعاج، وبين ما يحمله التجار من أوروبا وأخصها السلاح.

ـ فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفَّضت عنهم الضرائب، واكتفت بما تحصِّله من رسوم فكانت التجارة سبباً في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة.

ـ اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء، حتى أن يحيى بن خلدون "ت ٧٨٠" وهو أخ المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ـ ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م)، وكان هذا الأمير محباً للعلماء والأدباء، وكان هو نفسه أديباً شاعراً

---

[1] تاريخ ابن خلدون (٧/ ٧٩).

وله كتاب اسمه: "نظم السلوك في سياسة الملوك"، ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال[1].

وفي عهد بني زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف "الجواهر الحسان"، والمقري مؤلف "نفح الطيب"، كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق[2].

- **. التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد:**

قسمت السلطات في الدولة إلى:

. السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف.

. السلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم.

. السلطة القضائية ويتولاها قاضي القضاة.

. السلطة المالية ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسؤولي السلطات السابقة شخص يطلق عليه اسم "مزاول" وله حق الإشراف على كل هؤلاء، وهو ما يعرف في زماننا برئيس الوزراء، وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي)، وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب[3].

- **. أسباب السقوط لبني عبد الواد:**

. النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم.

---

[1] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠٤.

[2] موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (٤/ ٢٥٢).

[3] المغرب الكبير (٢/ ٨٧٥).

ـ قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها.

ـ ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

ـ مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجابة سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م، ثم استيلاؤهم على وهران ٩١٤ هـ، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر، وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية[١]. وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم.

ـ ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية، وكان على رأسهم خير الدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الإسبان. وانتهى الأمر بزوال دولتي بني زيان في عام ٩٢٦ هـ / ١٥٥٤ م، ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني والذي استطاع أن يهزم الإسبان[٢]، وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيماً، لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان وهزموهم وخلّصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بنو عبد الدار، فكان ذلك التخاذل والتواكل سبباً في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران، واعتدى الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلآف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة، وفي أواخر رمضان سنة ٩١٥ هـ / ١٥١١ م اقتحم النصارى الإسبان أسوار "بجاية" وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثيراً من معالم المدينة[٣].

---

[١] المغرب الكبير (٢/ ٨٧٥).

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠٥.

[٣] المصدر السابق، ص: ٥٠٦.

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء العثمانيين للدفاع عن الإسلام وأهله وداره، والتصدي للإسبان وغيرهم.

المبحث الثاني

الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

شجع الانحلال الذي كانت تعيشه بلدان الشمال الأفريقي كلًّا من الإسبان والبرتغال على العمل لاحتلال المناطق الساحلية منه، لتحقيق جملة من الأهداف الإستراتيجية التي كانا يطمحان إليها، فقد لاحظ أحد كتاب البلاط الإسباني هذا الانهيار وعبّر عنه بقوله: إن الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حداً من الانهيار يحمل محل الاعتقاد بأن الله أراد أن تكون هذه البلاد في متناول صاحب الجلالة[١].

وهكذا ففي سنة ١٤٩٤ عقدت البرتغال وإسبانيا افاقية لتقسيم مناطق النفوذ بينهما، وقد عرفت هذه الاتفاقية بـ"اتفاقية توردي سلاس"، تمّ بموجبها تقسيم المستعمرات بحيث كانت الأقاليم الشرقية من نصيب البرتغال، والغربية من نصيب أسبانيا، أما بالنسبة لشمال أفريقيا فقد أضيفت لها اتفاقية أخرى سنة ١٥٠٩ م عرفت بمعاهدة "فيلا فرنكا"، تم بمقتضاها جعل المستعمرات البرتغالية في الغرب أي في المغرب[٢].

والجدير بالذكر أن إسبانيا شرعت –منذ عقد اتفاقية "توردي سلاس" في تموز ١٤٩٤م– في العمل على احتلال سواحل الجزائر وتونس وليبيا، حيث تم احتلال ميناء المرسا الكبير، وميناء وهران قبل عقد الاتفاقية المتمِّمة في ١٥٠٩م التي باركها البابا إسكندر بورجيا معطياً بذلك الصبغة الدينية والرسمية لما جاء بعدها من حملات استعمارية لمدن الساحل الشمال الأفريقي[٣].

---

[١] الدخول إلى الجزائر، د. محمد دراج، ص: ٩٩.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

أولاً: احتلال المرسا الكبير، وتنس ووهران وبجاية ومستغانم

١. احتلال المرسا الكبير (١٥٠٥ م):

نظراً للأهمية الاقتصادية الخاصة لهذا الميناء، وقربه من مدينة وهران التي لا يبعد عنها سوى ٨ كيلومترات وكذا قربه من إسبانيا، ولأجل ذلك جعلت المخططات الإسبانية هذا الميناء هدفها الأول لحملاتها، وهكذا وصل الأسطول الإسباني إلى ميناء المرسا الكبير في ١١ سبتمبر ١٥٠٥ م يُقل ٥,٠٠٠ جندياً[١]، بعد أن تأخر، وكان هذا في صالح القوات الإسبانية، لأن القوات الرسمية والشعبية التي جاءت للدفاع عن الميناء عندما بلغها خبر إقلاع الأسطول من ميناء مدينة مالقة الإسبانية في ٢٩ أوت ١٥٠٥ م أسرعت إلى المرسا الكبير، وانتظرت وصوله، لكن عندما طال انتظارها ظنت أن الإسبان تراجعوا عن مهاجمة الميناء، فرجع أكثرهم تاركين حامية لا يزيد عدد أفرادها عن ٥٠٠ رجل وُكِّلت إليها مهمة الاستطلاع والمراقبة[٢].

وعندما وصل الأسطول الإسباني اشتبك مع حامية المرسا في معركة عنيفة غير متكافئة، انتهت باحتلال قلعة المدينة والتحصُّن بها، وبعد ٥٠ يوماً من المقاومة الشعبية العنيفة، قرر أعيان المدينة تسليم المدينة للإسبان مقابل اتفاقية تضمن لهم الحياة، وحرية الانسحاب من دون أذى. فوافق الإسبان على ذلك بشرط أن لا يأخذوا معهم أي شيء من الزاد والمؤن والحيوانات فأخلى الأهالي المدينة، ودخلها الإسبان ورفعوا فوقها أعلامهم، وحولوا في الحال جامعها الأعظم إلى كنيسة[٣].

أرسل الملك الزياني جيشاً بلغ بالإضافة إلى المتطوعين ٢٢,٠٠٠ جندياً من المشاة، و٢,٠٠٠ من الفرسان لتحرير المدينة، لكن الإسبان كانوا قد أحكموا تحصينهم بها،

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

ونصبوا مدافعهم على أسوارها ونشبت معارك عديدة تحت أسوار المدينة، لكنهم لم يتمكنوا من زحزحة الإسبان عن مواقعهم[1].

وما كاد خبر احتلال المرسا الكبير يصل إلى إسبانيا حتى اجتاحتها موجة من الفرح والابتهاج، وأعلن فيها العيد لمدة أسبوع وعملت الحامية الإسبانية من جهتها على فتح سوق تجاري إلى جانب المدينة بهدف تأمين متطلبات الحامية، وإقامة علاقات مع السكان، كما أغدقت الحامية الذهب والفضة على المتعاونين معها من التجار، غير أن الأهالي اعتبروا المتعاونين مع الإسبان خونة مارقين من الدين، وعاملتهم معاملة الأعداء، وأخذت توالي الغارات عليهم[2].

وهكذا فإنه بسقوط هذا الميناء تبدأ مرحلة طويلة من الصراع الدامي بين الجزائر وإسبانيا دام ٣٠٠ سنة وهي الفترة التي استغرقها الوجود العثماني بالجزائر[3].

٢ . خضوع مدينة تنس (١٥٠٧ م):

أدرك الإسبان بسرعة أن استغلال التناقضات الداخلية، والاستعانة بالخونة لتثبيت وجودهم أمر بالغ الأهمية، ومن ثم فقد شرعوا منذ احتلالهم للمرسا الكبير في توطيد علاقاتهم بالأعراب المحيطين بالمرسا الكبير واستمالتهم إليهم، واستعمالهم كأعوان لهم لتثبيت وجودهم، كما راحوا يبثون الشقاق بين أفراد البيت الزياني المتصارع على العرش بغية إنهاكه وإلهائه عن التصدي للاحتلال، فقد سبقت الإشارة إلى أن أبا زيان الثالث الملقب بالمسعود جلس على العرش الزياني سنة ١٥٠٣ م خلفاً لأبيه أبي عبد الله محمد الثالث الذي كان قد توفي في تلك السنة، فثار عليه عمه أبو حمو الثالث واغتصب منه العرش، وسجن السلطان الشرعي المسعود بينما فرَّ أخوه المدعو يحيى الثابتي إلى فاس

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

طالباً مساعدتهم له ضد عمه أبي حمو مغتصب العرش، فلم يلبث الثابتي إلا أن استدعاه أهالي تنس وعينوه ملكاً عليهم[1].

في هذه الفترة المتَّسمة بالفوضى السياسية وعدم الاستقرار نجد الإسبان ينتهزون الفرصة فيقومون ببسط حمايتهم على الأمير الثائر يحيى الثابتي ضد عمه السلطان المغتصب أبي حمو الثالث عقاباً له على إرساله جيشاً كبيراً لصدهم عن المرسا الكبير.

وهكذا أصبحت تنس تابعة للإسبان بدون مقاومة تذكر، فقد جعل أمراء البيت الزياني المتصارعين على العرش الانتصار الشخصي على غرمائهم ومنافسيهم فوق كل اعتبار، وراحوا يضحون بمدنهم ورعاياهم مقابل بقائهم متربعين على عرش متهالك[2].

٣. احتلال وهران (١٥٠٩ م):

في ٢٠ أوت ١٥٠٨ م عين الملك الإسباني فرديناند الكاردينال خيمينيس قائداً عاماً على الحملة الموجهة لاحتلال مدينة وهران إحدى أكبر المدن الواقعة غرب الجزائر، وثاني أهم ميناء ومنفذ تجاري بعد ميناء المرسا الكبير، فقام هذا الأخير بإكمال إعداد الحملة وأبحر الأسطول الإسباني من ميناء قرطاجنة الإسباني يوم ٧ ماي ١٥٠٩ م وكان مكوناً من ١٥,٠٠٠ جندياً، فأقلته ٣٣ باخرة حربية و٥١ زورقاً صغيراً إلى سواحل وهران، فنزلت هذه القوات إلى البر دون عائق بعد أن التحقت بها قوات الأسطول الإسباني الذي كان مرابطاً في المرسا الكبير، كان المسلمون قد استعدوا لمواجهة الإسبان ولذلك فقد خرجوا للقائهم خارج المدينة واشتبكوا معهم في معارك شرسة عند مشارف المدينة، إلا أنه في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها قام حاكم المرسا الكبير بشراء ذمة أحد يهود الأندلس اللاجئين إلى وهران يدعى شطورا[3]، الذي كان يعمل قابضاً عاماً

---

[1] تلمسان عبر العصور محمد الطمار، ص: ٢٢٨.

[2] لدخلو العثماني إلى الجزائر، ص: ١٠٦.

[3] حرب الثلثمائة سنة، ص: ١١١.

للضرائب بالمدينة، واتفقا على أن يقوم اليهودي المذكور وأعوانه بفتح أحد أبواب المدينة المحاصرة للجنود الإسبان، وبالفعل بينما كان المدافعون المسلمون يأخذون أهبتهم للدفاع عن المدينة، إذ قام اليهودي «شطورا» بفتح باب المدينة المتفق عليه، وتدفق الجنود الإسبان كالسيل الجارف داخل المدينة يقتلون كل من يقف أمامهم[١].

فذهل المسلمون لهول المفاجأة، وارتد المدافعون عن الأسوار والحصون إلى داخل المدينة للدفاع عن ديارهم وحريمهم، فاقتحم الإسبان بقية الأبواب ودخلوا المدينة من كل الجهات يقتلون ويحرِّقون، فالتجأ جموع الناجين إلى حرم الجامع الأعظم وتحصنوا به وبمن حوله من الدور للمقاومة، واستمروا في دفاع يائس خمسة أيام، إلى أن انقشعت غيوم المعركة عن مقتل ٤٠٠٠ جزائري، وأسر أكثر من ٨٠٠٠ أُخذوا جميعاً إلى إسبانيا[٢]، وقد قدرت غنائم الإسبان بأكثر من ٢٤ مليون دينار ذهبي[٣]، وغادر خمينيس وهران بعد أن حول مساجدها إلى كنائس[٤]، وترك بها حامية تتولى حمايتها وحماية المرسا الكبير ومملكة تلمسان التي صارت تابعة لهم فيما بعد[٥].

أما نتائج سقوط وهران فنوجزها فيما يلي:

. قام الإسبان بعد سقوط وهران بشن غارات على القبائل المحيطة بالمدينة، فتمكنوا من إخضاعها وصارت هذه القبائل كما يقول الآغا بن عودة الزواوي: ... شيعتهم الذين

---

[١] الدخول العثماني إلى الجزائر، ص: ١٠٩.

[٢] تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس (١/ ١٥٧).

[٣] تاريخ الجزائر للميلي (٣/ ٢٦).

[٤] الدخول العثماني، ص: ١٠٩.

[٥] المصدر نفسه/ ص: ١١٠.

يعتمدون عليهم في جلب الأخبار، والمسير بهم في الطريق في الليل والنهار ، واتخذوا منهم الجواسيس، واشتدت قوتهم، وتعددت غزواتهم[1].

. دفع سقوط وهران الملك الزياني أبا حمو الثالث إلى إعلان تبعيته إلى الإسبان، وتعهد لهم بأن يدفع لهم جزية سنوية قدرت بـ١٢٠٠٠ دوقة ذهبية، و١٢ فرساً من جياد الخيل، و٦ من طيور الباز الجارحة[2].

. تمكن الإسبان من بسط نفوذهم على سائر الغرب الجزائري حيث سارعت مدن أخرى إلى إعلان تبعيتها للإسبان خوفاً من بطشهم، وذلك بعد أن تأكد لها عجزها عن المقاومة، ومن هذه المدن: دلس، ومستغانم وشرشال[3].

ومن ناحية أخرى فإن الإسبان أدركوا الأهمية الإستراتيجية لمدينة وهران، فراحوا يقومون بتحصينها تحصيناً محكماً مكنها من الثبات أمام جميع محاولات تحريرها إلى أن تمكن باشا الجزائر عثمان باشا الكبير من طرد الإسبان منها بشكل نهائي سنة ١٧٩٢ م[4].

٤ . احتلال بجاية (١٥١٠ م):

وصل الأسطول الإسباني المكون من ٢٠ سفينة تحمل ١٠٠٠٠ مقاتل بجاية يوم ٥ جانفي ١٥١٠ م، والتحمت المعركة بين المسلمين والإسبان الذين أخذوا يتسلقون المرتفعات المحيطة بالمدينة من أسفلها ـ أي: من جهة الساحل ـ ووصلت إلى المنطقة التي تم إخلاؤها من الأطفال والنساء، والتقى الفيلقان الإسبانيان في وسط المدينة، وكان المدافعون عن المدينة قد اعتصموا بالبيوت لكن سرعان ما رأوا ضرورة الانسحاب وراء بجاية من أجل استمرار المقاومة وعرقلة الإسبان عن التوغل في داخل البلاد، وهكذا

---

[1] المصدر نفسه/ ص: ١١٠.

[2] المصدر نفسه/ ص: ١١٠.

[3] المصدر نفسه/ ص: ١١٠.

[4] المصدر نفسه/ ص: ١١١.

غادروا المدينة بعد معركة لم يكتب لها النجاح، وكان على رأس المنسحبين: الملك عبد الرحمن الحفصي.

وعندما دخل الإسبان أعملوا السيف في رقاب من وجدوه من أهلها، والمدافعين عنها، وأسرفوا في القتل كما أسرفوا في وهران، وانجلت المعركة عن ٤١٠٠ قتيل، كما أمعنوا في نهب المدينة ونقلوا كنوزها ونفائسها إلى إسبانيا في ٣٠ سفينة، وبعد أن ثبَّت الإسبان وجودهم في بجاية أذنوا لأهالي المدينة في العودة إلى منازلهم، فرجع كثير منهم، لكن خارج المدينة رفض رجال القبائل الاعتراف بسلطة الملك عبد الرحمن عليهم، وبايعوا الأمير أبا بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصيين أميراً عليهم والتف حوله الثوار الذين أخذوا يناوشون الإسبان تحت قيادته.

٥ . خضوع مدينة الجزائر (١٥١١ م):

كانت مدينة الجزائر مستقلة تابعة نظرياً لمملكة بجاية، يتولى إدارتها الشيخ سالم التومي، شيخ قبيلة الثعالبة التي كانت مستوطنة في سهول متيجة ومدينة الجزائر، وعندما سقطت بجاية خشي أهلها أن يصيبهم ما أصاب أهالي وهران وبجاية، لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيكونون الهدف المقبل للإسبان، فاجتمع أعيانها وتشاوروا في الأمر، وفي النهاية استقر رأيهم على إرسال وفد منهم إلى بجاية للتفاوض مع الإسبان للوصول إلى اتفاق يحفظ لهم حياتهم ومدينتهم[1].

وبعد أيام من سقوط بجاية توجه وفد مدينة الجزائر يرأسه الشيخ سالم للاجتماع بقائد الحملة الإسبانية بيدرو نافارو. حيث اتفق الطرفان على:

- عقد سلام بين مدينة بجاية والإسبان.
- تعهد الجزائريين بإطلاق سراح من بأيديهم من الأسرى المسيحيين.
- عدم التعرض للسفن الإسبانية بسوء.

---

[1] المصدر نفسه/ ص: ١١٤.

. يسافر وفد منهم إلى إسبانيا لعقد اتفاق نهائي مع الملك.

. أن يدفع الجزائريون لحاكم بجاية الإسباني نفس المقدار من المال الذي كانوا يدفعونه إلى ملك بجاية اعترافاً بالتبعية، ومقابل ذلك: لا يتعرض الإسبان لمدينة الجزائر بسوء[١].

وفي سنة ١٥١١ م سافر الوفد الجزائري إلى إسبانيا حيث اتفق الطرفان على أن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية للإسبان لكي يقيموا عليها قلعة تحرس سفنهم التجارية، وتضمن حرية مواصلاتهم البحرية، وتجعل في نفس الوقت مدينة الجزائر تحت مراقبتهم[٢].

وهكذا فبمجرد توقيع الاتفاق قام الإسبان ببناء القلعة البحرية في الجزيرة المحاذية لمدينة الجزائر، والتي صارت تعرف من ذلك الحين بصخرة الجزائر، أو قلعة الجزائر[٣].

٦ . خضوع مدينة مستغانم (١٥١١ م):

اتصل أهالي مستغانم بالإسبان، كما اتصل بهم أهالي مدينة الجزائر من قبل إثر احتلال بجاية وعنابة، عارضين تبعيَّتهم لهم مقابل التزامات مالية وأدبية بناءً على اتفاقيات عقدت بينهما، حفظ التاريخ لنا نصها في الأرشيف الإسباني، هذا ملخص ما جاء فيها:

. إعلان تبعية جميع أهالي مستغانم لإسبانيا.

. دفع الرسوم والضرائب والإتاوات التي كانوا يدفعونها من قبل إلى ملك تلمسان إلى إسبانيا.

. إطلاق جميع الأسرى المسيحيين الذين بأيديهم.

. يحق للقائد العام الإسباني بتلمسان احتلال قلاع وحصون المدينة إذا طلب منه صاحب الجلالة ذلك دون أي اعتراض من الأهالي.

---

[١] حرب الثلاثمائة بين الجزائر واسبانيا للمدني، ص: ١٢٨.

[٢] مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث، محمد العربي الزبيري، ص: ٣٢ . ٣٣.

[٣] الدخول العثماني إلى الجزائر، ص: ١١٦.

ـ يلتزم أهالي المدينة بتسليم القائد الإسباني كل ما يحتاج إليه من حيوانات نقل، ومواد بناء بأسعار محدودة.

ـ يلتزم أهالي المدينة بتموين مدينتي وهران والمرسا الكبير، ولا يسمحون مطلقاً بتعمير أو تفريغ أي سفينة بمرسا مستغانم إلا بإذن من الملكين.

ـ على سكان المدينة إعلام القائد العام بكل ما يهم جلالتيهما الاطلاع عليه، وبكل ما يتعلق بسلامة وهران والمرسا الكبير، وعليهم الامتثال لكل أمر يلقى إليهم من أجل الحرب أو السلام.

ـ لا يُلزم أهل المدينة على اعتناق الدين المسيحي وسمح لهم الملكان بأن يستمروا في حكم أنفسهم حسب شريعتهم وتبقى لهم ديارهم وممتلكاتهم[١].

ولم تأت سنة ١٥١٢ م حتى كانت معظم مدن الساحل الجزائري قد وقعت تحت الاحتلال الإسباني إما عن طريق استعمال القوة العسكرية كما حدث في المرسا الكبير ووهران وبجاية وعنابة، أو عن طريق إعلان الخضوع والتبعية للإسبان عندما تبين للزعماء المحليين عجزهم عن المقاومة، كما حدث في تنس والجزائر ومستغانم وشرشال ودلس وغيرها[٢].

ثانياً: أسباب الاحتلال الإسباني لمدن الساحل

هناك عدة أسباب أدت بالإسبان إلى شن تلك الحملات العنيفة والبغيضة لاحتلال سواحل الجزائر وغيرها من مدن ساحل الشمال الأفريقي ترمي إلى تحقيق أهداف إستراتيجية من أهمها:

١ ـ الأسباب الدينية:

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٧.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١١٧.

كانت الحملات الإسبانية ذات صبغة دينية، لأن الدولة الإسبانية ذاتها قامت على أسس دينية صرفة، ونمت وترعرعت بين جدران الكنيسة، فالرهبان والقساوسة كانت لهم الكلمة الأولى في توجيه سياسة الدولة نحو المسلمين، سواء كان ذلك في الأندلس أو في الشمال الأفريقي، فهم الذين كانوا يُلهبون الحماس الديني في الجموع الإسبانية ويثيرون بواعث الكراهية والتعصب ضد المسلمين، كما أن البابا لعب دوراً كبيراً في تسخير جميع الإمكانيات المادية والبشرية لطرد المسلمين من الأندلس أولاً، ثم إخضاع الشمال الأفريقي لإسبانيا تمهيداً لتنصيره ثانياً، ولتحقيق هذين الهدفين الخطيرين أصدر البابا أمره بضرورة الاستمرار في دفع الضريبة الصليبية لملوك أسبانيا باعتبارهم حماة المسيحية، كما أن القساوسة والرهبان أنفقوا أموالاً باهظة لتحقيق هذه الغاية، ولم يترددوا في بيع أموال الكنيسة لتزويد الجيوش المسيحية المغيرة على سواحل الجزائر[١].

أما الملكة الإسبانية إيزابيلا، فإنها قد بذلت جهوداً كبيرة لطرد المسلمين من الأندلس، وملاحقتهم في مدن الشمال الأفريقي التي لجؤوا إليها فراراً بدينهم، فشرعت في تجهيز حملة كبيرة لغزو تلمسان لولا أن الأجل كان قد وافاها قبل تحقيق بغيتها، وبعد وفاتها تركت وصية لمن يتولون الحكم بعدها تطلب فيها منهم أن يحققوا أمنيتها الغالية التي كانت تتمنى تحقيقها بنفسها، ألا وهي فتح أفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار[٢].

ومما يؤيد الطابع الديني للحملات الإسبانية أن الإسبان قاموا عند احتلالهم لمدينة وهران بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة أطلقوا عليها اسم "كنيسة القديس ميكائيل"، ونفس الأمر كانوا قد فعلوه عند احتلالهم للمرسا الكبير، وفعلوه أيضاً في بجاية وفي كل مدينة تمكنوا من احتلالها.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

[٢] مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث الجزائر، ص: ١٥.

لقد كان تنصير المسلمين يعتبر الهدف الأسمى في هذه الحملات، فقد صرح الباحث الفرنسي بيير شونو بأن: تعميد المسلمين أو الهنود الأمريكيين كان يشكل أهم المهام وأنبلها للكنيسة[1]، بل إن إسبانيا وضعت تنصير العالم في نفس مرتبة اكتشاف الذهب[2]، وهكذا كان أمل الإسبان في تحويل بلدان شمال أفريقيا إلى أفريقيا لاتينية – على غرار ما فعلوه في أمريكا اللاتينية – يمثل أعظم أهدافهم التي يصبون إليها [3].

لقد أصدّر البابا قراراً يعلن فيه الحروب الصليبية على الممالك الإسلامية في شمال أفريقيا سنة ١٥١٨ م، وأمر ملوك أوروبا بعقد هدنة لمدة خمس سنوات لكي تتمكن فيها إسبانيا من التفرغ لاحتلال ما تبقى من مدن وسواحلها، ولم تكتف الكنيسة بذلك، بل جنَّدت كل إمكانيات العالم المسيحي لغزو الجزائر بقيادة إسبانيا وأصدرت فتوى دينية تضمنت الوعد بالغفران لكل من يساهم في دعم حملات غزو الجزائر بنفسه، وفرضت ضريبة صليبية على كل مسيحي للمساهمة في غزو الجزائر[4].

٢ . الأسباب الأمنية:

كان مسلمي الأندلس كلما اشتدَّ عليهم الأمر، وضايقهم النصارى لجؤوا إلى ملوك المغرب طالبين منهم العون والمدد سواء كان ذلك في عصر المرابطين أو الموحدين أو المرينيين قبل أن تضعف شوكتهم ويصيبهم الهوان فيشتغلون ببعضهم عن عدوهم، وعلى هذا النهج سار ملوك بني زيان وبني حفص، الذين لم يترددوا في تقديم مختلف أشكال الدعم المادي والمعنوي إلى أن ضعف أمرهم وأصبحوا عاجزين حتى عن حماية ممالكهم، وبعد سقوط غرناطة تعرّض الأندلسيون لشتى صنوف الاضطهاد والتنكيل الأمر الذي دفع الآلاف منهم إلى الهجرة إلى بلدان شمال أفريقيا، وكان للجزائر الحظ الأوفر من هذه

---

[1] الدخول العثماني إلى الجزائر، ص: ١٢١.

[2] الخليفة الدينية للتميمي، ص: ١٣.

[3] الدخول العثماني، ص: ١٢١.

[4] الدخول العثماني، ص: ١٤٧.

الهجرة، فقد استقبلت أعداداً هائلة من هؤلاء المهاجرين لاعتبارات الأخوة والجوار، وحمل هؤلاء المهاجرين معهم قصص التعذيب والاضطهاد الذي لاقوه ويلاقيه إخوانهم الذين لم يتمكنوا من الهجرة، كما راحوا يحرضونهم على نجدة إخوانهم وبذل ما يقدرون عليه لإنقاذهم مما هم فيه من ظلم واضطهاد[1].

وهكذا انطلق المهاجرون الأندلسيون بمساندة إخوانهم من مسلمي الشمال الأفريقي يشنون الغارات المتتالية على السفن والسواحل الإسبانية أو المتحالفة معها، يحرقون وينهبون ويخربون ويأسرون انتقاماً لأنفسهم ولإخوانهم المضطهدين في الأندلس من الإسبان الذين أخرجوهم من بلادهم وآذوهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم وأكرهوهم على التنصر أو مغادرة بلادهم إلى الأبد[2].

فوجد الإسبان في هذه الغارات ذريعة يتعللون بها لغزو المدن الساحلية لبلدان شمال أفريقيا واحتلالها، هذا وقد ذكر الوزان أن أهالي مدينة بجاية كانوا يسلحون مراكب وسفناً حربية، ويرسلونها لغزو سواحل إسبانيا، وهو ما حفَّز الإسبان إلى غزوها واحتلالها[3]، وأما أهالي وهران، فقد كان التجار منهم يجهزون مراكب وسفناً صغيرة مسلحة يغزون بها سواحل قطالونيا وجزر يبيزا ومينورقة حتى صارت المدينة تغصّ بالرقيق النصارى[4]، ونفس الشيء كان يفعله أهالي مدينة الجزائر، وعلى هذا فإن الغارات التي كان يقوم بها البحارة المسلمون انطلاقاً من سواحل الجزائر على إسبانيا وكل من يلوذ بها، إنما كان يندرج ضمن واجب الدفاع عن المستضعفين من المسلمين في الأندلس والضغط على السلطات الإسبانية لإجبارها على تخفيف قبضة الاضطهاد الذي تقوم به ضد المسلمين، وكان

---

[1] المغرب العربي، صلاح العقاد، ص: ١٦.

[2] العلاقات بين الجزائر والمغرب، بن خروف، ص: ٢٠.

[3] وصف أفريقيا للوزان، ص: ٤٢٣.

[4] المصدر نفسه، ص: ٣٩٩.

القادرون من أهالي هذه الموانىء لم يترددوا في الاشتراك فيها رغبة في الجهاد وطلباً للغنيمة، وهو ما حدث مع الكثير من البحارة الأتراك أن يولّوا وجوههم شطر السواحل الغربية للبحر المتوسط للغرض ذاته، والذين كان من أشهرهم الإخوة بربروس الذي سنفصل الحديث عنه بإذن الله لاحقاً.

يقول المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان ملخِّصاً نشاطات هذه الموانيء بقوله:.. وأقامت المراسي في جربة إلى المغرب الأقصى أنواعاً من الجمهوريات، أعدت العدة لممارسة القرصنة، فسلَّحت تونس وبنزرت وبجاية ومدينة الجزائر ووهران وهنِّين، وكلٌ لحسابها سفناً شراعية تجوب البحر المتوسط[1].

ومن خلال ما سلف يتضح لنا بأن أهم الأسباب الأمنية التي دفعت الإسبان إلى احتلال سواحل شمال أفريقيا عامة والجزائر خاصة، هو شلُّ حركة الجهاد البحري التي كانت تنطلق من هذه الموانئ[2].

وإضافة إلى ما سبق فإن الإسبان كانوا يدركون بأن بلدان شمال أفريقيا تمر بمرحلة ضعف صعبة، ملؤها الفتن والحروب الأهلية وانعدام الاستقرار، كما كانوا يعلمون أن هذه الحروب يؤجج أوارها أصحاب السلطان من الطامعين في العرش والمنازعين فيه بحق أو بغير حق، لكنهم كانوا يدركون أيضاً أن هذا الوضع لن يستمر إلى الأبد، من ثم فهم كانوا يخشون أن يتغلب أهل المغرب على مشاكلهم، فتجتمع كلمتهم تحت سلطان قوي، فيعيدون عليهم الكرة، ويمدون المقاومة الإسلامية في الأندلس بالدعم المادي والعسكري ومن ثمّ يتمكّنون من استعادة الأندلس مرة أخرى، ولذلك كان احتلال سواحل شمال أفريقيا يمثل صمام الأمان الذي يمكنه أن يحول دون التفكير في إعادة فتح الأندلس من جديد[3].

---

[1] الدخول العثماني، ص: ١٢٦.

[2] الحروب الصليبية في المشرق والمغرب للمطاري، ص: ٢٦٣.

[3] تاريخ المغرب العربي الحديث، محمود علي عامر، ص: ١٣.

٣ . الأسباب الاقتصادية:

لقد دفعت التغيرات السياسية والاقتصادية التي حدثت في أوروبا في مطلع القرن السادس عشر كلًّا من إسبانيا والبرتغال إلى أن تبحثا عن موارد مالية أخرى خارج حدودهما السياسية المعروفة، وهكذا شرع البرتغال منذ ١٥ م في احتلال المراكز التجارية المطلة على المحيط الأطلسي في المغرب، لينطلق منها عبر السواحل الأفريقية الغربية ومروراً بالمحيط الهندي وصولاً إلى الشرق الأقصى حيث مصدر تجارة التوابل والحرير[١].

وأما إسبانيا فإنها بالإضافة إلى سيطرتها على مناطق الذهب في القارة الأمريكية المكتشفة حديثاً فإنها شرعت تبحث لنفسها عن أسواق جديدة لترويج منتجاتها وموارد مالية لتمويل حروبها في أوروبا وتحقيق طموحاتها التوسعية في شمال أفريقيا، كما أن اكتشاف القارة الأمريكية جعل إسبانيا في حاجة إلى موانئ ساحلية متعددة لحماية أساطيلها المثقلة بالبضائع من غارات البحارة الذين جعلوا موانئ شمال أفريقيا قواعد انطلاق لهم، ولذلك كان احتلال هذه السواحل يعتبر ضرورة اقتصادية لتأمين تجارتها في البحر المتوسط.

ومن جهة أخرى كان احتلال سواحل الشمال الأفريقية يهدف إلى التحكم في التجارة الأفريقية،ذلك لأنه من المعلوم أن الموانئ الجزائرية على وجه الخصوص كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين أفريقيا وأوروبا[٢].

وعليه فإن السيطرة على الموانئ الجزائرية كان سيمكنها من إزاحة الوسطاء الجزائريين والتحكم في التجارة الأفريقية القادمة من الصحراء متجهة إلى أوروبا عبر هذه الموانئ[٣].

٤ . الأسباب السياسية:

---

[١] المغرب الكبير جلال يحيى (٣/ ١١ ـ ١٨).

[٢] الاستقصاء، للناصري (٢ / ٣٧٣).

[٣] الدخول العثماني، ص: ١٢٨.

كانت الرغبة في التوسع بسط النفوذ خارج الحدود التقليدية لدى إسبانيا لبناء إمبراطورية مترامية الأطراف حلماً يراود الملك فرديناند وملكة إسبانيا منذ أن تحقق الزواج السياسي بين مملكتي قشتالة وأراغون وتوحيدهما تحت راية واحدة. فتمكَّنا خلال فترة قصيرة من القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس قبل أن تمتد أطماعهما إلى احتلال الجزائر، يؤيد ذلك الخطوات التي قامت بها الملكة إيزابيلا لاحتلال تلمسان، ثم وصيتها لمن يتولى الحكم بعدها أن لا يتوقف عن تجهيز الجيوش لمحاربة الكفار.

كانت إسبانيا في هذه الفترة تملك الساحل الجنوبي من إيطاليا والجزر القريبة منه مثل: صقلية وبيزا وسردينيا وكوريسكا، بالإضافة إلى الجزر الخاضعة لها في غرب البحر المتوسط كجزر الباليار ومايورقه ومينورقة وغيرها، ولذلك فإنه من الطبيعي أن احتلال سواحل الجزائر وغيرها من سواحل شمال أفريقيا سوف يشكل لها وحدة جغرافية لممتلكاتها، وييسر لها سبل الاتصال المباشر بين جنوب غرب البحر المتوسط وشماله، ولاشك أن سيادة الإسبان على غرب المتوسط لا يمكن أن تتحقق ما لم يتم احتلال سواحل الجزائر، كما أن احتلال السواحل الإسلامية في شمال أفريقيا من شأنه أن يساهم في ترسيخ زعامة إسبانيا السياسية للعالم المسيحي الكاثوليكي، تلك الزعامة التي ما فتئت إسبانيا تفتقر إليها منذ أن بدأت الوحدة الدينية والمذهبية لأوروبا المسيحية تتعرض للاهتزاز، وانعدام الثقة بسبب ظهور حركة الإصلاح الديني[١].

أضف إلى ذلك كله: المصاعب الاجتماعية والأمنية والاقتصادية التي كانت تعيشها إسبانيا منذ ما كان يسمى بحروب الاسترداد التي توجب باحتلال غرناطة، هذه المصاعب التي كانت نتيجة طبيعية للتغيرات السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت تمر بها الدولة والشعب الإسبانيان. الأمر الذي دفع ملوك إسبانيا إلى البحث عن حلول خارج الحدود

---

[١] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، نبيل عبد الحي رضوان، ص: ٢٢٢.

الجغرافية لبلادهم، فقد ذكر شكيب أرسلان أن إسبانيا في ذلك العهد كانت مليئة باللصوص وقطاع الطرق، حتى أنه قلما تخلو محلة من عبثهم وفسادهم[1].

فالمصاعب الاقتصادية الناتجة عن هجرة الصناع والحرفيين والتجار والمزارعين المسلمين واليهود أصاب الاقتصاد الإسباني بالركود، كما أن سيطرة الدولة على الموارد المالية لتغطية نفقات حروبها في أوروبا وشمال أفريقيا، وأجواء الحرب الأهلية ضد بقايا المسلمين في إسبانيا، وثورات البروتستانت في ألمانيا وسويسرا وغير ذلك من الأحداث السياسية التي كانت تعج بها أوروبا عامة، وإسبانيا على وجه الخصوص، جعلت الناس يشعرون بالتذمر وعدم الاستقرار.

مما حدا بالدولة إلى البحث عن سبل لإلهاء الشعب، وتأجيج نار التعصب الديني والمذهبي وإثارة بواعث الرعب من الخطر الإسلامي القادم من الجنوب، وهكذا كان احتلال سواحل الجزائر إحدى المشاجب المهمة التي تعلق عليها إسبانيا مشاكلها وعجزها الداخلي[2] .

ثالثاً: نتائج الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

١ . النتائج الاقتصادية:

[1] خلاصة تاريخ الأندلس، شكيب أرسلان، ص: ١٦٢.

[2] الدخول العثماني، ص: ١٣١.

تترتب على الاحتلال الإسباني نتائج وخيمة على اقتصاد الجزائر أدت بدورها إلى زيادة تدهور أحوال الدويلات التي كانت تشرف على إداراة الموانئ الجزائرية، كما ضاعفت من الضيق المادي للأهالي الذين كانوا يعتمدون على هذه الموانئ في تجارتهم الخارجية مع أوروبا على وجه الخصوص، ومن أهم هذه النتائج:

. بعد أن كانت الموانئ الجزائرية تلعب دوراً في إنعاش الاقتصاد الجزائري نتيجة لقيامها بدور الوسيط التجاري بين أفريقيا وأوروبا، أصيبت بعد سقوطها في يد الإسبان بالشلل التام نظراً لرفض التجار الجزائريين التعاون مع الإسبان، إلا أن تأثير هؤلاء التجار العملاء على سير الأوضاع الاقتصادية في الجزائر بقي محدوداً للغاية، وذلك بسبب العزلة التي فرضها عليهم السكان الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم خونة، ومتعاونون مع الأجنبي المحتل[1].

. ومن جهة أخرى فإن التجار الأجانب لم يعودوا يقصدون الموانيء الجزائرية، خصوصاً الجنويين والبنادقة بسبب خضوعها للإسبان، فطلب منهم السلطان الزياني القدوم إلى ميناء هنين إلا أن هذا الميناء سرعان ما احتله الإسبان ليشهد نفس المصير الذي عرفته بقية الموانئ الجزائرية الأخرى، أخذ الإسبان فور احتلالهم للمدن الجزائرية في إرهاق الأهالي، والتضييق عليهم بفرض الضرائب والغرامات الباهظة، فقد فرضوا على سبيل المثال على أهالي مدينة بجاية أن يؤدوا إليهم سنوياً:

٣٦٠٠ فتيقًا من القمح، و١٠٠ فتيقاً من الشعير، و٥٠ فتيقاً من الفول، و١٠٠ رأساً من الغنم، و٥٠ رأساً من البقر، و١٠٠٠ حملاً من الحطب[2].

. فكان من أثر هذه الإتاوات المالية وما شابهها أن ضاق الناس بها ذرعاً، واضطر الكثير منهم إلى ترك التجارة عبر الموانئ المحتلة فراراً من مضايقات الإسبان، الأمر الذي ساهم بدوره في انهيار تجارة تلك الموانئ [1].

---

[1] الدخول العثماني، ص: ١٣٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٣٨.

٢ . النتائج السياسية:

لقد ترتب على الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر نتائج سياسية بالغة الخطورة على حاضر ومستقبل الجزائر، يمكننا رصدها في العناصر التالية:

. إخضاع الموانئ والمدن الجزائرية المحتلة لإشراف الإدارة الإسبانية المباشرة، الأمر الذي أفقد الأسر الحاكمة، والمجالس المحلية التي كانت تشرف على إدارة المدن الساحلية المحتلة سلطتها السياسية، فأصبحت المدن الجزائرية المحتلة دون قيادة سياسية تتولى قيادة الشعب مؤقتاً إلى حين ظهور قيادة كقوة تسند إليها مهمة إنقاذ البلاد وإدراتها بعد تحريرها، لقد التفّ الشعب حول القيادات الدينية المتمثلة في العلماء وشيوخ الطرق الصوفية الذين لعبوا دوراً كبيراً في تحريض وقيادة الشعب لمقاومة الاحتلال قبل وصول الأتراك إلى سواحل شمال أفريقيا.

. تهافت القوى الزيانية والحفصية في كل من تلمسان وبجاية على التقرب إلى الإسبان، معلنة تبعيّتها وخضوعها لهم بعد تبين عجزها عن مقاومة الاحتلال، فقد سارع السلطان الزياني بعد سقوط وهران إلى السفر إلى إسبانيا مصحوباً بهدايا ثمينة معلناً خضوعه للإسبان[٢].

أما الأميران الحفصيان عبد الرحمن وعبد الله اللذان كانا يتنازعان على عرش بجاية فقد وقَّع كل منهما على انفراد معاهدة خضوع وتبعية للإسبان[٣].

ولم يكتف الأمير عبد الرحمن الحفصي ملك بجاية بذلك، بل اعترف لهم بتملكهم لمدينة بجاية، وصخرة الجزائر التي أسسوا عليها قلعة البنيون وكل المراسي التابعة لمملكة بجاية[٤].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٣٨.

[٢] الدخول العثماني، ص: ١٣٣

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٣٣.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١٣٣.

وعلى أثر سقوط بجاية ساد القسم الشرقي من الجزائر موجة رعب كبيرة خصوصاً في المملكة الحفصية بتونس، فبادر السلطان الحفصي أبو عبد الله باسترضاء الملك الإسباني والتقرب إليه، بل إعلان التبعية له كما فعل ملك تلمسان بعد سقوط وهران وتعهد له بدفع جزية سنوية، مع فرسين من جياد الخيل، وأربعة من طير الباز كدليل على التبعية والخضوع، وأن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين دون قيد أو شرط، وأن يزود بجاية بالمؤن التي تحتاج إليها مجاناً، كما أدى سقوط بجاية أيضاً إلى خضوع مدينة الجزائر للإسبان بعد أن صارت مطوقة من الشرق والغرب "بجاية ووهران".

. لم يقتصر الخضوع للإسبان على السلطات الرسمية من الملوك والأمراء، بل امتد ذلك إلى بعض القبائل العربية المحيطة بوهران التي سارعت إلى إعلان خضوعها لهم خوفاً من بطشهم، ورغبة في الانتفاع بالامتيازات التي كانوا يحلمون بها ولم يتمكنوا من تحقيقها على حساب منافسيهم من القبائل العربية الأخرى.

. انعكس الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر بشكل سلبي على مسلمي الأندلس، إذ لم تعد الموانئ الجزائرية قادرة على إرسال الإمدادات إليهم، والتخفيف عنهم مما يلاقونه من اضطهاد وظلم، نظراً لكون الإسبان كانوا قد فرضوا على أمراء وأعيان الموانئ الجزائرية التعهد بعدم السماح لأي سفينة بالانطلاق للإغارة على السفن المسيحية، واعتبرتهم مسؤولين عن أي إخلال بذلك[١].

. كما أدى الاحتلال الإسباني إلى ظهور المقاومة الشعبية بقيادة الزعماء المحليين، كشيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين، وبعض الأمراء المحليين، وتحريضهم للأهالي وتنظيمهم للثورة على الإسبان وذلك بعد عجز ملوك الدولتين الزيانية والحفصية عن التصدي للإسبان.

إن الأمانة التاريخية تقتضي الاعتراف بالدور الخطير الذي لعبه هؤلاء الزعماء في تعبئة الشعب باسم الدين للدفاع عن البلاد، وعرقلة الإسبان عن النفوذ إلى المناطق الداخلية

---

[١] الدخول العثماني، ص: ١٣٥.

واحتلالها وحصرهم داخل القلاع التي تحصنوا فيها[١]، إلى أن تمكن الأتراك العثمانيون من طردهم منها نهائياً.

- بالرغم من فعالية المقاومة الشعبية التي تمكنت من حصر الاحتلال في المدن الساحلية دون التوغل في داخل البلاد إلا أنها لم تتمكن من تحريرها، الأمر الذي جعل الزعماء المحليين للمدن الجزائرية ضرورة الاستعانة بالبحارين التركيين عروج وخير الدين بربروس طالبين منهما التدخل لتحرير مدنهم ورفع الظلم عنهم، وذلك بعدما بلغتهم انتصاراتهما على الإسبان في عرض البحر المتوسط وتمكنهما من تحرير قلعة جيجل، وفرض حصار شديد على بجاية كما سيتبين لنا ذلك فيما بعد.

- وكان من النتائج المهمة التي غيرت تاريخ المنطقة والتي نتجت هي بدورها عن الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر تدخل الأتراك العثمانيين لحماية هذه السواحل وطرد الإسبان منها أداء لواجب الدفاع عن البلاد الإسلامية من جهة، واستجابة لاستغاثات أهالي المدن الجزائرية الذين ما فتئوا يرسلون إليهم الدعوات المتتالية طالبين منهم الإسراع لإنقاذ الجزائر قبل أن يؤول أمرها إلى ما آل إليه أمر الاندلس، فكان من أثر ذلك أن جعل هؤلاء الأتراك من الموانئ التي تم تحريرها، قواعد ينطلقون منها لشن غاراتهم على السفن والموانئ المسيحية والإسبانية في غرب البحر المتوسط، قبل أن تتطور الأحداث السياسية والعسكرية التي عرفتها الجزائر في تلك المرحلة من تاريخها، فيتم إلحاقها بالدولة العثمانية لتصبح بعد ذلك أهم إيالة عثمانية في غرب البحر المتوسط أسندت إليها مهمة التصدي للإسبان في شمال أفريقيا[٢].

إن الاحتلال الإسباني بقي محصوراً في تلك المناطق غير قادر على التوغل في المناطق الداخلية بسبب اشتداد المقاومة الشعبية التي التفت حول القيادات الدينية من العلماء وشيوخ الطرق كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

[١] تاريخ أفريقيا الشمالية، جوليان (٢/ ٣٢٤).

[٢] الدخول العثماني إلى الجزائر، ص: ١٣٦.

ويعترف المؤرخون الغربيون بأن القوات الإسبانية ظلت حبيسة في القلاع والحصون التي تمكنت من احتلالها وشُدِّد الحصار عليها بمجيء الأتراك العثمانيين إلى الجزائر[1].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٥.

المبحث الثالث

العثمانيون في الجزائر

أولاً: قيام الدولة العثمانية

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت بداية القرن السابع الهجري، الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام ٦١٧ هـ - ١٢٢٠ م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط[١]، ثم بعد وفاته في عام ٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس[٢]، وحين كان أرطغرل والد عثمان فارّاً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية، فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه في الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على النصارى[٣].

وبعد انتهاء المعركة قدر قائد جيش الإسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم أرضاً في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم[٤]، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في

---

[١] أخلاط: مدينة في شرق تركيا الحالية.

[٢] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٤١.

[٣] المصدر نفسه.

[٤] الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمري، ص: ٣٥٣.

الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفي سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم[١].

ثانياً: عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عام ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م ولد لأرطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية[٢]، وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة، يقول ابن كثير: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس من الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا أياماً لا يظهرون، وكانوا يجتمعون إلى الحانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطح، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم[٣].

لقد كان الخطب عظيماً والحدث جللاً والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها، ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار، في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة في التمكين هي

---

[١] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٤٢.

[٢] السلطان محمد الفاتح، ص: ١٢ عبد السلام عبد العزيز.

[٣] البداية والنهاية (١٣/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك هي بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة.

قال تعالى:" إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" (القصص ، آية : ٤).

وقال تعالى:" وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ" (القصص ، آية : ٥ ـ ٦).

ولا شك أن الله تعالى قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بل في طرفة عين قال تعالى:" إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (النحل ، آية : ٤٠).

فلا يستعجل أهل الحق موعد الله عز وجل لهم بالنصر والتمكين، فلا بد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية ولابد من الصبر على دين الله عز وجل: " وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ" (محمد ، آية : ٤).

والله إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة.

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذي ولد في عام سقوط الخلافة العباسية في بغداد.

وعندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصِّلة في شخصه، كقائد عسكري، ورجل سياسي ومن أهم هذه الصفات:

الشجاعة، والحكمة، والإخلاص، والصبر، والجاذبية الإيمانية، وعدله، والوفاء، والتجرد لله في فتوحاته. ولقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب

التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان، فجعل له مكانة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة، ولذلك فتح الله له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية، لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله فقد فتح الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق، والإيمان بالله تعالى، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران[1].

ثالثاً: الدستور الذي عليه العثمانيون

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت، وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد، يقول عثمان في وصيته لابنه:

١ . يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين.

٢ . إذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

٣ . يا بني أوصيك بعلماء الأمة أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم.

٤ . اعلم يا بني أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عنها.

٥ . يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود.

---

[1] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٤٦.

٦ ـ ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك.

٧ ـ وإن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق فتحدث مرضاة الله عز وجل.

٨ ـ من انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

٩ ـ يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت[١].

هذه الوصية الخالدة هي التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم.

وترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها ١٦،٠٠٠ كيلومتر مربع، واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذ على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهي: أزنيق وبورصة[٢].

رابعاً: سلاطين العثمانيين بعد مؤسس الدولة

١ ـ تولى السلطان أورخان الحكم بعد وفاة والده عام ٧٢٦ هـ وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات وحرص على تحقيق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح القسطنطينية، ووضع خطة إستراتيجية تهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آنٍ واحد.

ومن أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان تأسيسه للجيش الإسلامي، وحرصه على إدخال نظام خاص للجيش، فقام بتقسيم الجيش إلى وحدات تتكون كل واحدة من عشرة أشخاص أو مائة شخص أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للإنفاق

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٦٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٦٦.

منها على الجيش، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب وأنشأ له مراكز خاصة.

. واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وانصرف إلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية، ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون، وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة.

٢ . وتولى الحكم بعد السلطان أورخان السلطان مراد الأول عام ٧٦١ هـ، وكان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محباً للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين شكل منهم مجلساً لشورته، وتوسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد.

واستطاع مراد الأول أن يفتح أدرنه في عام ٧٦٢ هـ واتخذ من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية من عام ٧٦٢ هـ، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدنة عاصمة إسلامية، وكان السلطان مراد الأول يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده، ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه، ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية، واستشهد في معركة قوصوه ضد الصرب، وقاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره.

٣ . وتولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام ٧٩١ هـ، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمِّساً للفتوحات الإسلامية. ولذلك اهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية واستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول، وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد مثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية، ولذلك أطلق عليه لقب "الصاعقة".

وانهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه وعجلته وعدم إحسانه لاختيار المكان الذي نزل به جيشه وتعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي ونشبت الحرب الأهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات وكانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثّل في فتح القسطنطينية.

٤ ـ واستطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر، وتغلب على إخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سنين حكمه في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها. ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية، واستطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على حركة الشيخ بدر الدين الذي كان يدعو إلى المساواة في الأموال، والأمتعة والأديان ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم في العقيدة، وكان السلطان محمد جلبي محباً للشعر والأدب والفنون، وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة.

٥ ـ تولى أمر السلطنة مراد الثاني عام ٨٢٤ هـ بعد وفاة أبيه محمد جلبي، وكان محبّاً للجهاد والدعوة إلى الإسلام، وكان شاعراً ومحباً للعلماء والشعراء.

٦ ـ تولى محمد الفاتح حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده عام ٨٥٥ هـ، وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة، وقد تميز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة التاريخ.

وكانت من أهم أعمال السلطان محمد الثاني فتحه للقسطنطينية، وكان لذلك الفتح أثر عظيم على العالم الإسلامي والأوروبي، وكان لفتح القسطنطينية أسباب مادية ومعنوية وشروط أخذ بها، وتحققت بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الفتح العظيم عندما

قال: «**لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[١]، وكان ذلك الفتح في عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م.

لقد حرص العثمانيون الأوائل على تحكيم شرع الله وظهرت آثاره الدنيوية والأخروية على المجتمع العثماني منها: الاستخلاف والتمكين، الأمن والاستقرار، النصر والفتح العز والشرف، انتشار الفضائل وانزواء الرذائل وغير ذلك من الآثار.

وكانت من أهم الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح: الحزم والشجاعة والذكاء والعزيمة والإصرار والعدالة، عدم الاغترار لقوة النفس وكثرة الجند، وسعة السلطان والإخلاص والعلم.

ومن أعمال السلطان محمد الفاتح الحضارية: بناؤه للمدارس والمعاهد، وتكريمه العلماء والشعراء والأدباء والمترجمين، والعمران والبناء وإنشاء المستشفيات واهتمامه بالتجارة والصناعة، والتنظيمات الإدارية والجيش والبحرية والعدل.

وترك محمد الفاتح وصية عبَّرت أصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها[٢]، وهذه الوصية جاء فيها:

ـ خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي واحذُ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو، وأكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك:

ـ كن صالحاً رحيماً.

ـ وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز.

ـ واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض.

---

[١] مسند أحمد (٤/ ٣٣٥).

[٢] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٥٧٩ إلى ٥٨٢.

- قدِّم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبه عليه.
- ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش.
- جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها.
- وسِّع رقعة البلاد بالجهاد.
- واحرس أموال بيت المال من أن تتبدَّد.
- وإياك أن تمدك إلى أموال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام.
- واضمن للمعوزين قوتهم وابذل أكرامك للمستحقين.
- وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة فعظِّم جانبهم وشجعهم وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.
- حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن مجلسك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.
- واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله.
- ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك[١].

٧ . بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثاني ٨٨٦ هـ وكان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب متفقهاً في علوم الشريعة الإسلامية شغوفاً بعلم الفلك، ودخل بايزيد الثاني في صراع مع أخيه جم، واشتبك مع المماليك في معارك على الحدود الشامية وحاول أن يساعد مسلمي الأندلس في محنتهم الشديدة.

---
[١] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ١٦٥ إلى ١٨١.

٨ . تولى الحكم السلطان سليم الأول بعد بايزيد الثاني وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ، ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي.

وكان للسلطان سليم الأول دور في إضعاف النفوذ الشيعي في العراق وبلاد فارس وحقق على الصفويين الشيعة انتصاراً عظيماً في معركة جالديران.

وكانت نتيجة الصراع بين الدولة العثمانية والصفوية ضم شمال العراق، وديار بكر إلى الدولة العثمانية وأمَّن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية، وسيطر المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن قضى على أتباع وأعوان إسماعيل الصفوي، واستفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عامًّا على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب.

ودخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر في زحفها نحو أوروبا.

واستطاع العثمانيون أن يحققوا انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية وأزاحوا دولة المماليك بعد ذلك من الوجود.

. وبعد مقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي بادر شريف مكة "بركات بن محمد" إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة، وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين.

. ودخلت اليمن تحت النفوذ العثماني بعد سقوط دولة المماليك وكانت تمثل بعداً إستراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر، وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز،

واستفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي.

. وبعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر مثل: مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير علي بك على الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة، ومُنِيَت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة وقد تمكن العثمانيون من صد البرتغاليين وإيقافهم بعيداً عن الممالك الإسلامية والحد من نشاطهم، ونجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبني على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الإسلام والمسلمين بطرق مختلفة.

وكانت نتيجة الصراع العثماني البرتغالي: أن احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدسة وطريق الحج، وحماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر، واستمرار الطرق التجارية التي تربط الهند وإندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر.

واهتمت الدولة العثمانية بالشمال الأفريقي ووقفت مع حركة الجهاد البحري وقدمت لهم كافة المساعدات المالية والمعنوية.

ودخلت الجزائر تحت نفوذ الدولة العثمانية منذ السلطان سليم الول وظهر في ساحة الجهاد في الشمال الأفريقي قائدان عظيمان هما الأخوان عروج، وخير الدين بربروسا[١].

---

[١] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٥٨٣ إلى ٥٨٤.

خامساً: الأخوان عروج وخير الدين بربروسا

كان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الأفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي، ولما كان من بين المسلمين النازحين إلى هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة، فكان من الضروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط، ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الدافع الديني بسبب الصراع بين الإسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الإسبان والبرتغال للمسلمين في الشمال الأفريقي، وقد ظلت حركات الجهاد الإسلامي ضد الإسبان والبرتغاليين غير منظمة حتى ظهور الأخوان خير الدين وعروج بربروسا، واستطاعا تجميع القوات الإسلامية في الجزائر وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد أعداء الإسلام عن التوسع في موانىء ومدن الشمال الأفريقي، وقد اعتمدت هذه القوى الإسلامية الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر في البحر بسبب عدم قدرتها على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الإسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق المجاهدون نجاحاً أثار قلق القوى المعادية ثم رأوا بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد البرتغال والإسبان وحلفاؤهم.

وقد حاول المؤرخون الأوربيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة، وكذلك شككوا في أصل قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج الأمر الذي يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما وأثر هذه الحركة على الدور الصليبي في البحر المتوسط في زمن السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني:

١ ـ أصل الأخوين عروج وخير الدين:

يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين، وكان والدهما يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدللي إحدى جزر الأرخبيل[١]، وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين[٢].

وكان لعروج وخير الدين أخوان مجاهدان هما إسحق ومحمد إلياس ولقد استند المؤرخون المسلمون إلى أصلهم الإسلامي إلى الحجج التالية:

ـ ما ذكره المؤرخ الجزائري "أحمد توفيق مدني" مستنداً على أثرين ما زالا موجودين في الجزائر: أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامة الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله "أوروج بن يعقوب" بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين، بعد تسعمائة ١٥١٨ م ونقش على الرخامة الثانية اسم "أوروج بن أبي يوسف يعقوب التركي"، وهناك ثالثة مسجل عليها بعض ما شيده خير الدين في الجزائر سنة ١٥٢٠[٣].

ـ إن اسم "عروج" ـ "أوروج" مأخوذ من حادثة الإسراء والمعراج التي يرجع أنه ولد ليلتها، وأن الترك ينطقونه "أوروج" ثم عرب إلى "عروج"[٤].

ـ إن ما ذكر عن الدور الذي لعبه الأخوان يؤكد حرصهما على الجهاد في سبيل الله ومقاومة أطماع إسبانيا والبرتغال في الممالك الإسلامية في شمال أفريقيا، ولقد أبدع

---

[١] المغرب في بداية العصور الحديثة، د. صلاح العقاد، ص: ٣٧.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: ١٦٠ ـ ١٦١.

[٣] حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: ١٦٠ ـ ١٦١.

[٤] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٢٣٢.

الأخوان في الجهاد البحري ضد النصارى، وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السادس عشر مراكز مهمة في شرشال ووهران والجزائر ودلي وبجاية وغيرها في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين على صناعة السفن[١].

٢ . دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو الصليبي:

اتجه الأخوان عروج وخير الله إلى الجهاد البحري منذ الصغر، ووجها نشاطهما في البداية إلى بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالي سنة ١٥١٠ م، لكن ضراوة الصراع بين المسيحية في بلاد الأندلس وفي شمال أفريقيا بين المسلمين هناك، والذي اشتد ضراوة في مطلع القرن السادس عشر، قد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلى هذه المناطق، وبخاصة بعد أن تمكن الإسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانئ البحرية في شمال أفريقيا[٢].

وقد حقَّق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيين الأمر الذي أثار إعجاب القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان (الحفصي) لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية وهو أمر عرضه لهجوم إسباني متواصل، اضطره لقبول الحماية الإسبانية بالضغط والقوة كما يبدو من خلال استنجاد أهالي هذه البلاد بهما، وتأثيرهما داخل بلادهم، مما أسهم في وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة، ويرى بعض المؤرخين أن دخول (عروج) وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناءً على رغبة السكان، ويستند هؤلاء إلى وجود بعض القوى التي ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، لكن البعض الآخر يرون أن وصول (عروج) وأخيه كان بناء على استدعاء من ساكنها لنجدتهم من الهجوم الإسباني الشرس، وأن القوى البسيطة التي قاومت وجودهما كانت تتمثل في بعض

---

[١] قراءه جديدة في التاريخ العثماني، ص: ٨٠.

[٢] الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص: ٥٣.

الحكام الذين أُبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة في توحيد البلاد، حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين، واشتركت أعداد كبيرة منهم في هذه الحملات، كما ساندهما العديد من الحكام[1] المحليين الذين شعروا بخطورة الغزو الصليبي الإسباني، ويظهر دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الإسباني سنة ١٥١٢م، وقد نقلا لهذا الغرض قاعدة عملياتها ضد القوات الإسبانية في ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حماتها الجنويين سنة ١٥١٤م لكي تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى، ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفاً قوياً نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعودوه ولكن أجبروا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف قتل عروج في إحدى المعارك[2].

٣ . محاولة تحرير تلمسان واستشهاد عروج:

جاء وفد من تلمسان يخبر عروج بالفوضى التي تسودها بسبب النزاع الذي دبَّ بين أمراء العرش الزيني الذي فقد كل مقاومات البقاء الصالح، وصارت تلمسان مهددة بغزو إسباني، طالبين منه نجدة تلمسان، تخليصها من أبي حمو الثالث الذي هو تحت حماية الإسبان، بعد أن أعلن الطاعة بملك إسبانيا في مدينة برغوس وأطاح بالملك الزياني الشرعي أبي زيان وسجنه، وانطلق نتيجة لهذا صراع بين الأمراء الزيانيين واستجاب الأخوان فوراً لنداء تلمسان لأن هدفهما من السيطرة على جزائر بني مزغنة هو تحرير ساحل المغرب الأوسط من الاحتلال الإسباني والشواطئ الغربية أكثر عجلة في التحرير لقربهما من إسبانيا، وقرر عروج التحرك سالكاً طريق الهضاب الداخلية حتى لا يواجه القواعد الإسبانية بوهران، وإتخذ من قلعة بني راشد التي تتوسط بين معسكر ومستغانم

[1] المغرب في بداية العصور الحديثة، ص: ٣٧ ، ٣٨.

[2] الدولة العثمانية، للصلابي، ص: ٢٣٣.

مقراً أقام فيه موقعاً وضع فيه ٦٠٠ جندي تحت قيادة أخيه الثالث إسحاق بن يعقوب لحماية طريق مواصلاته وأمرهم بمناوشة الإسبان حتى يصرف انتباههم عن اكتشاف هدف الحملة نحو تلمسان، ثم تقدم على رأس جيشه ولما وصل سهل أربال وجد أبا حمو على رأس جيش كبير من ٦٠٠٠ فارس و٣٠٠٠ من المشاة فهاجمه، ونظراً لعدم تمتع جيش حمو بمعنويات عالية بسبب أهدافه المشبوهة وطنياً، لم يستطع الصمود أمام عروج، وواصل عروج تقدمه بسرعة نحو تلمسان التي فتحت له أبوابها واستقبله سكانها كمنقذ من السلطان الخائن.

وقام عروج بإخراج السلطان أبي زيان من السجن وأجلسه على العرش، وأما عمه الخائن أبو حمو الثالث فقد هرب إلى فاس ومنها توجه إلى وهران ملتجئاً إلى حاكمها الإسباني. لكن ما أن استقرت الأوضاع قليلاً حتى عادت الفتن بين أمراء بني زيان يغذيها الإسبان وأبو حمو فقرر عروج مغادرة تلمسان والعودة إليها بخطة بعد أن قتل أبا زيان ورؤوس الفتنة، وأمر ملك أسبانيا شارل كوينتو كارلوس الخامس حاكم وهران أن يعيد أبا حمو إلى عرش تلمسان، وأرسل له عشرة آلاف جندي، وخرج أبو حمو من وهران على رأس جنود بدو ومعه فرقة إسبانية فهاجموا قلعة بني راشد، فدافع عنها إسحاق بن يعقوب، وجنده دفاع الأبطال لكنه سقط شهيداً وذلك في شهر يناير ١٥١٨م، وتقدم أبو حمو من الشرق، وقام حاكم وهران بإنزال قوة إسبانية ثانية في بلدة رشقون الساحلية وتوجهت مسرعة نحو تلمسان، وحاصرت القوتان تلمسان، وبالرغم من كثرة القوتين إلا أن عروج قاوم مع سكان المدينة وصمد للحصار ستة أشهر استطاع الإسبان بعدها فتح ثغرة في السور بالمدفعية، وتحولت المقاومة إلى حرب شوارع، وانسحب عروج إلى قلعة المشوار منتظراً النجدة من سلطان فاس التي لم تصل. وقاوم عروج مع جنوده الأتراك الخمسمائة عازمين على الاستشهاد بدل الاستسلام، وتمكن مع عشرة من رجاله مغادرة القلعة عنوة وفتح طريق نحو البحر، وكثر الطوق وتوجه ناحية الغرب، لكن فرقة من الفرسان الإسبان

تعقبته وحاصرته في زاوية سيدي موسى، وقاوم إلى أن استشهد مع الرجال الذين كانوا معه. كان شاهراً سيفه وجهاً لوجه مع قائد الفرقة الإسبانية، ودخلا في مبارزة، وبالرغم من الإعياء الذي سيطر على قوة عروج إلا أن المبارزة انتهت بغرز كل واحد سيفه في جسد الآخر وسقط عروج شهيداً عن عمر خمسين سنة.

وهكذا استشهد هذا المجاهد العظيم والسيف في يده يقاتل دفاعاً عن الإسلام في مواجهة الصليبية الإسبانية وعملائهم، وكما يقول ش أ جوليان: استطاع أن يضع الأسس لدولة إسلامية قوية وسط محيط من المنافسات القبلية والإمارات المغربية، دون أن تتمكن أوروبا من النيل منها[١].

٤ ـ مبايعة خير الدين:

اجتمع وجوه مدينة الجزائر وأبناء الفقيدين عروج وأخاه إسحاق وبايعوا خير الدين خليفة لشقيقه عروج مع قرارهم بضم الإمارة إلى الخلافة العثمانية، وكانت الدولة العثمانية هي أقوى القوى المرشحة لحماية المسلمين في ساحة البحر المتوسط، وكانت الشعوب الإسلامية في شمال أفريقيا متعاطفة معها وتتابع انتصاراتها على الساحة الأوروبية منذ فتح القسطنطينية، وأن الاتجاه للانضواء تحتها سيكسب خير الدين مزيداً من التأييد من قبل هذه الأهالي، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب منها الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها في مزيد من المساعدة لدوره، وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس، ومن منظور ديني أسهم في إكساب دورها تأييداً جماهيرياً وجعل محاولة التقرب منهما أو التحالف معهما عملاً مرغوباً[٢]، وقد اختلف علماء التاريخ حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخويين عروج وخير الدين فتذكر بعض المراجع أن

---

[١] الجزائر في التاريخ، عثمان سعدي، ص: ٣٧٥ .

[٢] الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩٠٢) للشناوي .

السلطان سليماً الأول كان وراء إرسالهم إلى الساحل الأفريقي تلبية لطلب المساعدة من سكان الشمال الأفريقي وعملاً على تعطيل أهداف البرتغاليين والأسبان في منطقة البحر المتوسط، وعلى الرغم من عدم تداول هذه الزاوية بين المؤرخين إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تدور على ساحة المتوسط[١]، ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين إلى سنة ١٥١٤م في أعقاب فتح عروج وخير الدين لميناء "جيجل" حيث أرسل الأخوان إلى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التي إستوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان وردَّ لهما الهدية بإرسال أربع عشرة سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود[٢]، وكان هذا الرد من السلطان العثماني يعكس رغبته في استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه، على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثماني لهذه الحركة كان في أعقاب وفاة "عروج" سنة ١٥١٨م وبعد عودة السلطان العثماني من مصر إلى إسطنبول سنة ١٥١٩م[٣] .

على أن الرأي الأكثر ترجيحاً أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقاً لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع إلى أن الأخوين كانا في أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما في فتح "بجاية"، كما أنهما حوصرا في "جيجل" بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الإسبان وبين "سالم التومي" حاكم الجزائر الذي ارتكز حكمه على دعم الإسبان له هو الآخر، فضلاً عن قوة الإسبان وفرسان القديس يوحنا التي تحاصرهم في البحر، فكان لوصول الدعم العثماني أثره على دعم دورهما وشروعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل، حيث اتفق العثمانيين مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولهما قبل القوات الإسبانية لموقعها الممتاز من ناحية

[١] قراءة جديدة في تتاريخ العثمانيين، ص: ٨٣ .

[٢] قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص: ٨٤.

[٣] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٢٣٥ .

ولكي يسبقوا الإسبان إليها، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانئ الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الإسباني، كبجاية وغيرها من ناحية أخرى.

وقد تمكن عروج من دخول مدينة الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الإسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر في الجزائر وبويع في نفس السنة التي هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية في الشام سنة ١٥١٦م في معركة مرج دابق[١].

ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثماني ودعمه إلى جانب دعم شعوب المنطقة، وقد سبق أن فشلا في دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية[٢].

بعد أن بويع خير الدين في الجزائر في أعقاب ما حققه من انتصارات على الإسبان والزعماء المحليين المتحالفين معهم أصبح محط آمال كثير من الولايات والموانئ التي كانت وما زالت خاضعة سواء للأسبان أو لعملائهم، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان، ومع أن استنجاد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافياً لتدخُّل "خير الدين" إلا أن موقع تلمسان الإستراتيجي الذي كان يجعل وجود "خير الدين" في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجدته، وأن مطالبهم قد دعته للتعجيل بذلك[٣].

وأعد خير الدين جيشاً كبيراً زحف به إلى تلمسان سنة ١٥١٧م، وأمَّن الطريق إليها، وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الإسبان وعملاؤهم من بني حمود من استعادتها، ولقي أحد إخوة خير الدين حتفه وهو "إسحاق" كما قتل عروج ـ كما مرّ معنا ـ وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدين مما دفعه إلى التفكير في ترك الجزائر

---

[١] حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: ١٧٤ ـ ١٧٥ .

[٢] قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص: ٥٨.

[٣] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٢٣٦.

لولا أن أهلها ألحوا عليه بالبقاء وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذل المزيد من الارتباط بالدولة العثمانية وبخاصة بعد أن والت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلى مزيد من الارتباط بالآخر[١].

٥ ـ انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية: ١٥١٩م:

أدرك خير الدين حراجة موقفه بعد استشهاد أخيه، فقد كان مدركاً لمدى الخطر الذي يواجهه سواء من الإسبان الذين لن يكتفوا بقتل عروج، بل سوف يعاودون احتلال كامل سواحل الجزائر من جديد، كما كان على علم أيضاً بمدى هشاشة البناء الذي أقامه بسبب اضطراب ولاءات الزعماء والأهالي على حد سواء، كما أن اتساع رقعة الصراع مع الإسبان ومدى القدرة على بسط النفوذ على بلاد واسعة كالجزائر جعله يفكر في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية قبل الشروع في أي خطوة أخرى[٢].

وهكذا فإنه عندما فرغ من تحصين المدينة دعا علماء الجزائر، وأعيانها إلى اجتماع عام، وذكرهم فيه أنه قد تمكن من حمايتهم من الإسبان، وأنه قد حصن المدينة بشكل يمكنهم من الدفاع عنها دون الحاجة إليه، ولذلك فإن مهمته في الجزائر تكون قد انتهت وعليهم أن يختاروا واحداً منهم يجعلوه أميراً عليهم[٣]، أما هو فقد قرر أن يمضي للجهاد في مكان آخر فناشده العلماء قائلين: بأنه يتعيَّن عليه البقاء في المدينة للدفاع عنها وأنه لا رخصة له في ترك الأهالي عرضة للعدو الكافر، وإذا كان يريد الأجر بالجهاد في بلاد الروم، فإن هناك الكثير ممن يقوم به غيره، والمصلحة التامة تقضي ببقائه في مدينة الجزائر لحمايتها[٤].

---

[١] قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص: ٨٦.

[٢] الدخول العثماني، ص: ٢٢٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٢٢٨.

[٤] تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، ص: ١١٣ ـ ١١٤.

فلما أكثروا عليه ذكّرهم بموقف سلطان تلمسان منه ومن أخيه، وموقف سلطان تونس الذي خذلهم في بجاية حيث منع عنهم البارود في أشد ساعات الحرب حرجاً[1]، وأعلمهم أنه لم يبق له من يستند إليه بعد الله، ولذلك فإنهم إذا أرادوا حماية بلدهم فعليهم أن يعلنوا تبعيتهم للسلطان العثماني، فهو الوحيد القادر على مساندتهم بالمال والرجال وجميع ما يحتاجونه من عتاد، ولا يكون ذلك إلا بالدعاء له في الخطبة، وضرب السكة باسمه، وأشار عليهم أن يكتبوا للسلطان بذلك، فاستحسن أعيان الجزائر ذلك، وكتبوا رسالة باسمهم إلى السلطان، كما كتب خير الدين كتاباً مماثلاً، ثم جهز أربعة سفن وجعل على رأسها الشيخ الفقيه أحمد ابن القاضي[2].

وعندما وصلت السفارة إلى إسطنبول في ١٥١٨م استقبلهم السلطان واحتفى بهم وقَبِل عرض أهالي الجزائر ثم أرسل ٢٠٠٠ من قوات سلاح المدفعية "طوبجولر" و٤٠٠٠ من المتطوعين والانكشارية وجاء معهم كثير من المهاجرين الأتراك، كما أعطى السلطان للجنود الذين يذهبون إلى الجزائر نفس امتيازات الانكشارية تشجيعاً لهم على التطوع للجهاد فيها، أما بالنسبة لخير الدين فقد أرسل السلطان إليه السيف، والخلعة السلطانية، والسنجق وفرماناً يقضي فيه بتعيينه بيلرباي على الجزائر[3].

في الحقيقة كان إعلان خير الدين – ومعه أهالي الجزائر – تبعيتهم الطوعية للدولة العثمانية مبعث سرور كبير للسلطان سليم، الذي كان يطمح إلى أن يمد نفوذ الدولة العثمانية إلى المحيط الأطلسي، فقد نقل أحمد جودت باشا عن بعض كتمة سر السلطان قوله: .. إن البحر المتوسط هو عبارة عن خليج واحد يمتد إلى بوغاز سبتة، فكيف يليق أن تجتمع فيه مدن مختلفة، ثم إنهم لا يكونون تحت حكم الدولة العلية، فعدم الاجتهاد في بلوغ هذه الغاية هو في قصور الهمة المزري بشأن الدولة. إني آليت على نفسي

---

[1] الدخول العثماني، ص: ٢٢٩.

[2] الدخول العثماني، ص: ٢٢٩.

[3] المصدر نفسه، ص: ٢٣١.

وعاهدها إن مد الله في عمري إني أحرمها الراحة والسكون ما لم أنشئ الأساطيل الكافية لنيل المرغوب وأستولي على ثغور البحر المتوسط[1].

بل تذكر بعض المصادر أن السلطان كان يعتزم السير بنفسه إلى المغرب، ولكن الأجل لم يمهله.

وهكذا أثبت خير الدين بقرار ضم الجزائر إلى ممتلكات الدولة العثمانية عبقريته السياسية، بعدما أثبت عبقريته العسكرية في معاركه التي خاضها ضد الممالك الأوروبية عامة وإسبانيا خاصة، وبهذا القرار الحكيم لم يحظ بتأييد الأهالي فحسب، بل حاز على تأييد السلطان نفسه حيث لم يتردد في تقديم دعمه غير المشروط لخير الدين فور وصول الوفد إلى إسطنبول[2].

وقد ترتب على القرارات التي أصدرها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة كان من بينها:

- دخول الجزائر رسميّاً تحت حكم الدولة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩م ودعي للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة باسمه.
- إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم، فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلد.
- إن إقليم الجزائر كان أول أقليم من أقاليم شمال أفريقيا يدخل تحت سيادة الدولة العثمانية، وأصبحت الجزائر ركيزة لحركة جهاد الدولة العثمانية في البحر المتوسط[3]، وكانت حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم الشمال الأفريقي لتوحيده

---

[1] تاريخ جودة، أحمد جودت باشا (١/ ١٤٦).

[2] الدخول العثماني، ص: ٢٣٢.

[3] الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩١٢).

تحت راية الإسلام والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الإسبان النصارى لقد كان زمن السلطان سليم الأول البداية لمد النفوذ العثماني إلى أقاليم شمال أفريقية من أجل حماية الإسلام والمسلمين وواصل ابنه سليمان ذلك المشروع الجهادي، لقد استجاب السلطان العثماني سليم لنداء الجهاد من أخوة الدين، وشرعت الدولة العثمانية في إنشاء أسطول ثابت لهم في شواطئ شمال أفريقيا والذي ارتبط منذ البداية باسم الاخوين عروج وخير الدين بربروسة[١].

٦ ـ التحديات التي واجهت خير الدين:

كان أمام خير الدين بربروسة في وضعه السياسي والعسكري الجديد أن يحارب على جبهتين:

أ ـ الجبهة الإسبانية لطرد الإسبانيين من الجيوب التي أقاموها، فضمَّ إليه عنابة وقالة في شرقي الجزائر وحقق انتصاراً باهراً على الإسبانيين حين استولى عام ١٥٢٩م على حصن بينون الإسباني على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر، وقد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل وأسر قائد الحصن مع كبار ضباطه.

إن استيلاء خير الدين على البينون سنة ١٥٢٩م يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمة كبرى للمغرب الأوسط، بل ولكلِّ شمال أفريقيا العثمانية فيما بعد، وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

ب ـ الجبهة الداخلية وكانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط التي لم تخل من مؤامرات بني زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة، ولكنه استطاع مد منطقة

---

[١] المشرق العربي والمغربي، د. عبد العزيز فائد، ص: ٩٧.

نفوذه باسم الدولة العثمانية ودخلت الإمارات الصغيرة تحت السيادة العثمانية لكي تحتمي بهذه القوة من الأطماع الصليبية الإسبانية ومن قهرها على اعتناق النصرانية، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني إلى بعض المدن الداخلية الهامة مثل القسطنطينية[١].

لقد نجح خير الدين في وضع دعامات قوية لدولة فتية في الجزائر، وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانوني، واستطاع خير الدين أن يصل إسبانيا، فقد قام عام ٩٣٦ هـ ـ ١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبي وغنائم وزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج وما يقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها، أصبحت دولة الجزائر لها قاعدة اقتصادية قوية[٢].

لقد تضررت إسبانيا من نجاح خير الدين في الشمال الأفريقي وكانت إسبانيا يتزعمها شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتي كانت تضم وقتذاك، إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا، وكانت الدولة الرومانية المقدسة تدفع عن أوروبا المسيحية الخطر العثماني نحو شرق ووسط أوروبا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين ببليربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الأفريقي، لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر، بل أرسل مبعوثاً للتجسس في شمال أفريقيا سنة ٦٤٠ هـ ـ ١٥٣٣م وهو الضابط "أوشوا دوسلا" الذي طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذَّر من امتداد النفوذ العثماني على تونس، وذكر أن هذا الاستيلاء

[١] الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩١٣).

[٢] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، نبيل عبد الحي، ص: ٣١١.

سيسهل على العثمانيين السيطرة على أفريقيا، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا ما يخشاه العالم المسيحي.

كانت سياسة المملكة الحفصية في تونس تسير نحو انحطاط مستمر، وكان السلطان الحفصي الحسن بن محمد قد أساء السيرة في البلاد وقتل عدداً من إخوته، فاضطربت الأحوال في تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصي، وكان أخو الحسن المسمى بالأمير الرشيد قد هرب من أخيه خوفاً من القتل ولجأ عند العرب في البادية، ثم ذهب إلى خير الدين في الجزائر، وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه[1].

فمنحه ذلك خير الدين، الذي كان مركّزاً اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين، والخلافات الداخلية التي مزقت الأسرة الحفصية، كما كان لتونس في نظره أهمية إستراتيجية كبيرة لإشرافها على المضيق الصقلي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تحديد وقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي، بالإضافة إلى رغبة خير الدين في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس[2].

سادساً: سفر خير الدين إلى إسطنبول

عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد، السفر بسائر جنوده إلى إسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان، أنه لابد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالماً بأحوالها، فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الأفريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه إليه خطاباً يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر، وإن لم يجد من يصلح لذلك يبعث إليه

---

[1] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، د. نبيل عبد الحي، ص: ٣١١.

[2] المصدر السابق نفسه، ص: ٣١٥.

السلطان نائباً، وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشي، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان إلى خير الدين قبله ووضعه فوق رأسه ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديواناً عظيماً، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان البلاد، وقرأ عليهم خطاب السلطان الذي وجهه إليهم وأعلمهم أنه لا يمكنه التخلف عن أمره، وعندما سمع أندريا دوريا زعيم الأسطول النصراني في البحر المتوسط بما عزم السلطان عليه من فتح إسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك، أراد أن يشغل خير الدين عن سفره إلى حضرة السلطان[1]، وأشاع بين الأسرى المسيحيين في الجزائر، عن عزم الحكومة الإسبانية في الهجوم على الجزائر وتخليصهم من الأسر، ففرح الأسرى الإسبان لذلك الخبر وتمردوا على خير الدين، الذي رأى أن من المصلحة العامة إعدام أولئك الأسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهراً أتم الطاعة للسلطان[2].

عزم خير الدين على السفر إلى إسطنبول ٩٤٠ هـ - ١٥٣٣م، وعيّن مكانه حسن آغا الطوشي، وكان رجلاً عاقلاً وصالحاً، صاحب علم واسع[3].

أبحر خير الدين شرقاً في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعون سفينة وهزم في طريقه فرقة من أسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة[4]، واستمر خير الدين في رحلته ووصل إلى مدينة بيروزان، وفرح أهالي المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم أندريا دوريا، الذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين سفره، ورست مراكبه في قلعة أوارين "أنا وارنيه"، فصادف هنالك أسطولاً للسلطان سليمان القانوني وفرحوا بذلك، ثم خرجوا جميعاً حتى وصلوا إلى قرون، ثم كتب خير الدين إلى السلطان يعلمه بوصوله

---

[1] سيرة خير الدين باشا، عبد القادر عمر، ق٤٨ أ٤٨ب.

[2] حقائق الأخبار عن دول البحار، إسماعيل سر هنك (١/ ٣٦١).

[3] فتوحات خير الدين، محمد أمين ق٢٧٠أ، ٢٧٠ب.

[4] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص: ٣١٦.

ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان خطاباً يستحثه بالقدوم عليه[1]، وأقلع خير الدين من قرون ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى إسطنبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصوره وفوض إليه النظر في دار الصناعة[2]، ومنحه لقب قبودان باشا وزير بحرية . حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر . لتحقيق هدف الدولة في استعادة الأندلس.

كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان، وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين، فوجه خطاباً للسلطان يلتمس منه أن يوجه إليه خير الدين لمقابلته، فأرسل السلطان إلى خير الدين مخبراً عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر خير الدين متوجهاً إلى حلب، واحتفل الصدر الأعظم بمقدم خير الدين في حلب وأنزله في بعض القصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وصول خير الدين وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة واحتفل به احتفالاً مهيباً، وأكرم إكراماً عظيماً لما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين في حوض البحر المتوسط.

ثم رجع خير الدين إلى إسطنبول وأكرمه السلطان سليمان غاية الإكرام، وشرع خير الدين في النظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان[3].

وبعد أن تم إعداد الأسطول العثماني الجديد خرج خير الدين بربروسة بأسطوله القوي من الدردنيل متجهاً نحو سواحل إيطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص: ٣١٦.

[2] المصدر السابق نفسه، ص: ٣١٦.

[3] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣١٧.

مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية، فاسترجع كورون وليبانتو[١]، كان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروسة بأهمية تونس وضرورة دخولها في إطار إستراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس، وتأتي أهمية تونس بالنسبة للدولة من حيث موقعها الجغرافي إذ تقع في منتصف الساحل الشمالي لأفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من إيطاليا التي تعتبر أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بينما يمثل الجناح الآخر إسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس، وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين، ثم الإمكانات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط، وهكذا تضافرت تلك العوامل على إضفاء الأهمية العسكرية على تونس[٢].

كانت المرحلة الثانية بالنسبة لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هي تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة والتي تقتضي تطهير شمال أفريقيا من الإسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس، إذ سبق وأن أشار خير الدين بربروسة على السلطان سليمان القانوني في خطابه للسلطان الذي بعثه قبيل استدعاء السلطان له في ٩٤٠ هـ ـ ١٥٣٣م، إذ قال فيه:«... إن هدفي إذا قدر لي الشرف هو طرد الإسبان في أقصر وقت من أفريقيا، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الإسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجة وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك، إنني لا أبغي من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلا ... لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولاسيما أن حروبك في آسيا أو أفريقيا تعتمد أكثر ما

[١] ليبيا بين الماضي والحاضر، حسن سليمان محمود، ص: ١٦٦.

[٢] الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩١٥ ـ ٩١٦).

تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فإن كل ما أطلبه هو جزء من أسطولك وسيكون ذلك كافياً، لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضاً..."[1].

وصل الأسطول العثماني تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية فعرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الإمدادات، ثم تقدم نحو بنزرت ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة[2]، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس في نفس الوقت وهرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى إسبانيا[3]، ثم عين خير الدين الرشيد أخا الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي[4].

سابعاً: أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى

استفاد السلطان أحمد الأعرج السعدي من الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية والشعب الجزائري بقيادة خير الدين بربروسة، فقام بمحاصرة مدينة آسفي بأزمور وذلك سنة ٩٤١ هـ - ١٥٣٤م، وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجدات التي بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدا وكأن تعاوناً قد حصل بين العثمانيين والقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم في الشمال الأفريقي، وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث بوصول الأسطول العثماني في ٣ ربيع الأول ٩٤١ هـ - ١٣ سبتمبر، بقيادة خير الدين بربروسة إلى الشمال الأفريقي، فكر في الجلاء عن بعض المراكز مثل سبتة وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحين في غرب البحر المتوسط، ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الأيبرية، بعث الملك يوحنا الثالث استفتاء إلى جميع

---

[1] فتح العثمانيين عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي، ص: ١٢٧.

[2] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٢٣٠.

[3] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣١٩.

[4] فتح العثمانيين عدن، ص: ١٢٨.

الوجهاء والأعيان والأساقفة في بلاده يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب، وكان المطلوب الإجابة على الأسئلة الآتية: هل ينبغي ترك آسفي وأزمور للمغاربة؟ هل ينبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات؟ ثم ما هي الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفاداها؟

تلقَّى الملك البرتغالي أجوبة عديدة بين مؤيد في الإبقاء على المناطق الجنوبية في حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت أجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريباً تضمنت: النصح بالتخلي عن المراكز الجنوبية، يحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المركز الشمالي لصد الخطر العثماني بقيادة خير الدين بربروسة، فأسقف ينصح بإخلاء سانتاكروز وأسفي وأزمور لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التي تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة خوفاً من هجوم خير الدين عليها[1].

إن الوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب، إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا والإمبراطور شارل الخامس الذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته[2]، فوصل التهديد العثماني أقصاه فضلاً عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وأفريقيا[3].

---

[1] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص٣٢٠.

[2] مراسلة غرناطة إلى السلطان سليمان، عبد الجليل التميمي عدد (٣) تونس.

[3] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢١.

ثامناً: استيلاء شارل الخامس على تونس

كان الموقف ملائماً بالنسبة لإسبانيا وذلك للقيام برد عنيف فقد انشغلت الدولة العثمانية بالحرب مع الشيعة الروافض في بلاد فارس، وطغى على الصراع في أوروبا. ووعد فرانسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد. تردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه إليه ضربته في شمال أفريقيا: الجزائر أو تونس، ولكن استنجاد السلطان الحفصي الحسن بن محمد والرغبة في عزل إسطنبول دفع شارل الخامس إلى اختيار تونس للهجوم[١]، قاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل إسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين[٢]، الأمر الذي أعاد السيطرة الإسبانية على تونس في ٩٤٢ هـ ـ ١٥٣٥م[٣]، إذ لم تكن قوة خير الدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الإسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس[٤]، ونصب الإسبان الحسن بن محمد حاكماً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمد سيسلم بونة والمهدية إلى شارل الخامس، فاستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين، فإن الحسن لم يستطع الوفاء بعهده فاشترط الإسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا بطرابلس[٥]، وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي إسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الواد، وعاد شارل

---

[١] تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، ص: ٣٤.

[٢] حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٢٠).

[٣] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢١.

[٤] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٢١.

[٥] الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، عزيز سامح، ص: ٣٨.

الخامس إلى إسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الذي كان فيه السلطان يحارب فيه الدولة الصفوية الشيعية الرافضية لبلاد فارس[1].

تاسعاً: عودة خير الدين إلى الجزائر

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس، واستقر أول الأمر بمدينة قسطنطينية، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الإسبان في الجبهات التي يحددها، وكان لزاماً على خير الدين – وقد استقر مؤقتاً بمدينة الجزائر نظراً لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامي العثماني – أن ي،شعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها، فقام بالهجوم على جزر البليار الإسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الإسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، اهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في ٩٤٢هـ ـ ١٩٣٥م[2]، من ناحية أخرى دخلت الدولة العثمانية في تحالف رسمي مع فرنسا في ٩٤٣هـ ـ ١٥٣٦م، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الإسبان على تونس[3]، وبدا وكأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد، كما صارت أهداف إسبانيا والبرتغال واحدة وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الأيبيرية.

---

[1] فتح العثمانيين عدن، ص: ١٣٠.

[2] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢.

[3] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢٣.

عاشراً: الدبلوماسية البرتغالية وتفتيت وحدة الصف في الشمال الأفريقي

تلقَّى الملك أحمد الوطاس هزيمة ٩٤٣هـ - ١٥٣٦م من السعديين في موقعة بير عقبة قرب وادي العبيد، بسبب تخلي قبائل الخلوط التي كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسي، ونشرت الفوضى في سائر الجيش، وإثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسي من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين في حروبهم ضد الإسبان ووقَّع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عاماً[١] تقضي بوضع المغاربة المقيمين في ضواحي أصيلا وطنجة والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسي المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة، وإذا وصلت مراكب عثمانية أو فرنسية أو تابعة لمسيحيين من غير الإسبان ولا البرتغاليين إلى أراضي برتغالية محملة بغنائم أخذت من المغاربة فلن يشترى منها شيء، وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيين ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف لآخر ما لم تسمح قوات العدو في مهاجمتها[٢].

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذي استجاب لذلك، لأنه كان في حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة سيما بعد الانتصارات التي حققها ضد خصومه الوطاسيين في موقعة بير عقبة ٩٤٣هـ - ١٥٣٦م، واتفق البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة بينهما في ٢٥ ذي القعدة ٩٤٤هـ - ٢٥ أبريل ١٥٣٧م لمدة ثلاث سنوات، مع إقامة تبادل تجاري بين رعاية طرفين[٣]، كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون

---

[١] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢٣.

[٢] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢٣.

[٣] المصدر السابق، ص: ٣٢٤.

قيام تعاون حقيقي بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أي تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الأيبيرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف إسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الأيبيرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس[١].

الحادي عشر: المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي

اشتغل خير الدين بربروسة – بحكم منصبه قبودان باشا – بالعمل في الأسطول العثماني وبدأ نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بينما استمر حسن آغا الطوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلربك يعمل على قهر القرصنة الأوروبية، فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه في الجزائر مثالاً بارزاً في البطولة والتضحية الإسلامية في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام في الشمال الأفريقي فاكتسبت الجزائر مهابة وجلالاً، وجعلت الأمم المسيحية تهرع إلى عاهلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس مستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه، وقد حاول شارل الخامس ٩٤٦هـ ـ ١٥٣٩م، عقد هدنة مع خير الدين إلا أنه خاب أمله[٢]، مثل ما خاب في محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سراً الاعتراف به حاكماً لشمال أفريقيا مقابل جزية بسيطة، إذ كان شارل الخامس يأمل في قيام تحالف إسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ويعمل على فصل شمال أفريقيا عن إسطنبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال أفريقيا إبداء مقاومة قوية يكون من السهل سقوطها[٣] .

---

[١] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٢٤.

[٢] تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي (٣ / ٦٢، ٦٣).

[٣] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٣٥.

انهمك حسن آغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية[1]، فأخضع مدينة مستغانم لدولته ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصناً وأقام به حامية.

ركب الجيش العثماني في شهر جمادى الأول ٩٤٩هـ . سبتمبر ١٥٣٩م البحر، وكان قوامه ١٣٠٠ رجلاً، على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا عنها من الإسبان، نزل حسن آغا وجيشه إلى البر فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين، وتوغل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي، وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الإسبان ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان، وعندما أراد الرجوع إلى الجزائر إعترضت طريقه عمارة إسبانية كبيرة العدد، وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ومع ذلك كانت خسائر الإسبان في المعركة عظيمة[2].

الثاني عشر: حملة شارلكان على الجزائر والنتائج المترتبة عن فشلها

أراد شارلكان أن تكون هذه الحملة ضربة قاصمة للوجود العثماني في الشمال الأفريقي كله، وفي الجزائر خاصة. وقد ارتبطت هذه الحملة بعدة عوامل، أهمها:

١ . رغبة شارلكان في الانتقام للشرف الإسباني الذي لُطّخ بسبب الهزيمة العظيمة التي مُني بها الأسطول الإسباني في معركة بروزة سنة ١٥٣٨م[3]. وازدياد العمليات العسكرية التي يقوم بها غزاة الجزائر على السواحل الأوروبية في إيطاليا، وسردونيا، وجزر الباليار،

---

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٢٧٩.

[2] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٢٧٩.

[3] الدخول العثماني، ص: ٣٠٦.

حتى ضاق أهلها ذرعاً، وضجوا إلى ملكهم بالشكوى من غارات بحّارة الجزائر. فبعد انتصار بروزة، وطرد الإسبان من الجزائر فرض البحارة العثمانيون سيطرتهم على شرق وغرب البحر المتوسط، حتى صار شارلكان نفسه يصعب عليه السفر من برشلونة إلى نابولي[١].

٢. الانتصار السياسي الذي أحرزه الإسبان في تلمسان، والغرب الجزائري بفعل استمالتهم سلطان تلمسان، وتمكنهم من إخضاع الدولة الحفصية لسلطانهم بعد احتلالهم لتونس[٢]. فلم تبق لهم سوى مدينة الجزائر التي أصبحت قاعدة لغاراء البحارة العثمانيين. ولذلك فإن احتلال الجزائر كان سيضمن لشارلكان السيطرة على غرب البحر المتوسط، ويؤمن له الطرق البحرية بين شطري إمبراطوريته، ويمكنه من فرض حصار محكم من الشرق والغرب والجنوب على فرنسا، وإخضاعها بشكل نهائي لسلطانه[٣].

٣. وجود خير الدين في إسطنبول، وانشغاله بقيادة الأسطول العثماني، وما ترتب عليه من فراغ عظيم لا يمكن ملؤه في الجزائر[٤].

4. أن الجزائر لم يكن بها في ذلك الوقت من الجيش العثماني سوى العدد القليل – حسب ما جاء في تقارير الجواسيس الإسبان – واعتقادهم أن القوات المحلية غير قادرة على الدفاع عن المدينة.

٥. يرى البعض أن الحملة كانت تهدف إلى تخفيف الضغط العثماني على النمسا وألمانيا. وذلك بفتح جبهة جديدة في الجزائر، حيث ستكون الدولة العثمانية مضطرة إلى إرسال قواتها إلى هناك[١].

---

[١] بلحميسي مولاي، غارة شارلكان الخامس على مدينة الجزائر، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد ٨، السنة ١، ماي، جوان، ١٩٧٢، ص: ٩٥.

[٢] إلتر، ص: ١٥٥.

[٣] Un episode de l'Expedition de 1541 contre Alger, Reveue Africaine 3 – 4 trim. 1931.

[٤] كان خير الدين في هذه الفترة مستقراً في إسطنبول للإشراف عن قرب على الأسطول العثماني الذي صار قائداً عاما له. وقد أناب عنه حسن آغا في إدارة الجزائر حتى هذا التاريخ. أنظر: الدخول العثماني، ص: ٣٠٧.

أوّلاً: استعدادات الطرفين:

- **القوات المرابطة في الجزائر (التركية والمحلية والأندلسية):**

علم حسن آغا بخبر الحملة الإسبانية التي يعدّ لها الإمبراطور لغزو الجزائر. فشرع في إعداد العدّة لردّ العدوان، فقام بتحصين المدينة، وحشد القوات التركية والأندلسية المحلية للدفاع عن المدينة.

أما من الناحية العسكرية، فاستناداً إلى بعض الوثائق التي قام بتصويرها وترجمتها الأستاذ المدني من أرشيف سيمانكاس الإسباني، جاء تقرير سري مُرسل من طرف حاكم بجاية، ومؤرخ في ٢٩ مارس ١٥٣٦م ما يلي:

(إلى صاحبة الجلالة الملكة..

وهذه أنباء وردت علينا من مدينة الجزائر، نقلها لنا ستة من العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم ٢٧ فيفري، وغادروا الجزائر فوق فلك، ووصلوا إلى مدينة بجاية. يوجد الآن في مدينة الجزائر ٢,٠٠٠ من الأتراك، و٧,٠٠٠ أو ٨,٠٠٠ من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر، ومليانة، وبقاع أخرى وضع بها بربروس حاميات. أما حاكم الجزائر اليوم فهو مرتد من سردينيا اسمه حسن آغا. وسكان المدينة في قلق شديد، لأنهم وصلتهم أنباء موثوق بها، تفيد تحرك أسطول جلالتكم.

وأخبرني الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة من ثلاث جهات، وعلى مسافات شاسعة. وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة. لكن العمل لم يتم إلى الآن نظراً لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا أنهم سيستعينون ب١٥٠٠ من البدو المحيطين بالجزائر من أجل إكمال العمل.

---

[١] بلحميسي، ص: ٩٥.

انظر الدخول العثماني للجزائر ودور الأخوة بربروس، د. محمد دراج، ص: ٣٠٨ ـ ٣٢٢.

أما مدينة قسطنطينة، ففيها ١٥٠٠ من الإنكشارية، يقودهم تركي اسمه القائد قلج علي[١] kilic Ali . وبربروس هو الذي أرسل هؤلاء الإنكشارية، وبما أن قلج علي هذا تابع لحكومة الجزائر، فلا ريب أنه سيقدم إلى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتكم)[٢]

من هذا التقرير يتبين لنا أن القوة التي كانت معدة للدفاع عن المدينة كانت تتراوح بين ٩ و ١٠ آلاف جندي من الأتراك والأهالي والأندلسيين[٣].

- **القوات الإسبانية**

يبدو أن شارلكان فكر في غزو الجزائر غداة احتلال تونس سنة ١٥٣٥م. وقد ذكر صاحب الغزوات أنه أرسل إلى المغرب جواسيسه للإطلاع على الطرق المناسبة التي تيسر له احتلال المدينة[٤].

وفي سنة ١٥٣٩م وافق البابا على تقديم إعانة مالية لتجهيز الحملة[٥]، كما بعث شارلكان إلى حاكم جنوة يأمره بتجهيز ما عنده من السفن، وإعدادها للسفر[٦]. فجمع الإمبراطور في ميناء(ماهون) بجزيرة مينورقة أسطولاً ضخماً اختلف المؤرخون في تقدير عدد سفنه ومقاتليه. فذُكِر أنه كان مكوَّناً من ١٦ سفينة شراعية، ٦٥ سفينة نقل عسكرية كبيرة تحمل ١٢٣٣٠ بحاراً، ٢٣٩٠٠ جندياً

[١] تلقّبه المصادر المحلية بالعلج على اعتبار أصله الإيطالي؛ إذ كان المسلمون يلقّبون الأسرى الأوروبيين بالعلوج، وهو لقب احتقار وإهانة؛ لأن العلج في اللغة: الحمار الوحشي. ويعتقد أن قلج علي من أصل إيطالي أسر من طرف البحارة الجزائريين سنة ١٥٢٠م، وبقي في الأسر مدّة ثم أسلم وترقّى في البحرية حتّى صار قائداً للأسطول العثماني. اشتهر بقيادته لوحدات الأسطول العثماني في معركة ليبانت سنة ١٥٧١م، توفي سنة ١٥٨٧م. لمزيد من التفاصيل:

محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل، الجزائر ٢٠٠٩.، ص: ٦٩ ـ ٧٩.

٢ نص الرسالة في المدني، ص: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

٣ ذكر أحمد أسرار عدداً يقارب ما ورد في التقرير الإسباني. لكنه أشار إلى أن عدد الانكشاريين كان ٦,٠٠٠ جندي، وعدد العرب كان حوالي ٢,٠٠٠ / Asfar . age,s.216.

[٤] الغزوات، ص: ١١٦.

[٥] بلحميسي، ص: ٩٨.

[٦] التلمساني، محمد بن عبد الرحمن، الزهرة النيرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، ق ١٥.

بالإضافة إلى مئات القطع البحرية الصغيرة التي كانت ترافق الأسطول. وهي أكبر قوة عسكرية بحرية تشقّ عباب غرب البحر المتوسط في القرن السادس عشر. وقد شارك في هذه الحملة نبلاء من إسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا كجنود متطوعين. كما اشترك فرسان مالطة، حيث كلف ١٤٠ منهم بقيادة فرقة عسكرية مكونة من ٤٠٠ جندي مدربين تدريباً عالياً[١].

كان شارلكان يعلم أن دخول حسن آغا في مواجهة مع القوات الهائلة التي حشدها شارلكان لاحتلال الجزائر، بدون وصول دعم من إسطنبول يعتبر انتحاراً لا شك فيه، ولذلك وقع اختياره للوقت الذي كان فيه خير الدين في إسطنبول بينما خرج السلطان سليمان القانوني في حملته الهامايونية التاسعة لغزو المجر، حيث لا يمكن للعثمانيين أن يخوضوا معركتين كبيرتين في وقت واحد. وجعل ذلك موعداً لحملته الكبيرة على الجزائر.

والحقيقة كان وضع الجزائر إزاء هذه الحملة في غاية الخطورة، وأصبح مصير المدينة متوقفاً على نتيجة هذه المعركة. وكان السلطان القانوني مدركاً لهذا الخطر، ولذلك أرسل من بودين بالمجر فرمانا همايونيا يأمر فيه خير الدين بإرسال الدعم اللازم إلى الجزائر[٢].

بعد أن أنهى الأسطول الإسباني استعداداته انطلق من ميناء قرطاجنة carthegeneفي ١٥ و١٦ أكتوبر ١٥٤١م. فمر على وهران،

---

١ هذا التقدير ذكره إلتر في، ص: ١٥٧؛ وقدر هامر عدد وحدات الأسطول الإسباني ب٢١٦ سفينة حربية، ولم يذكر عدد الجنود الذين خرجوا في هذه الحملة أنظر: Hammer,v.s.233؛ أما كاتب جلبي فقد ذكر أن تعداد الحملة كان ١٠٠ قطعة بحرية، و٤٠٠٠ حصان، و٥٠,٠٠٠ عسكري، أنظر كاتب جلبي، ص١١٦؛ أما المدني، فقد أشار إلى أن الأسطول الإسباني كان مكوناً من ٤٥٠ سفينة نقل و٦٥ سفينة حربية. و٢٠٠٠ فرس، بينما كان عدد البحارة ١٢٠٠٠ بحار. انظر المدني، ص: ٢٨١ ـ ٢٨٢. ويلاحظ أن هذه الأرقام تقريبية لا تعكس العدد الحقيقي للحملة بقدر ما تعكس حجمها. فهي تبين أن الحملة كانت كبيرة جداً بالنظر إلى هدفها الخطير الذي كانت ترمي إليه.

٢ Gokbilgin, T.IA,age,s127.

حيث تزود من هناك بقوات إضافية ثم تابع سيره إلى الجزائر التي وصلها في ١٩ أكتوبر. فرسا الأسطول الإسباني قريباً من رأس ماتيفو في مقابل ميناء الجزائر، وبقي هناك يترقب حتى يوم الجمعة ٢١ أكتوبر.

ثانياً: سير الحملة:

لقد لعب حسن آغا قبل المعركة دوراً رئيساً في تنظيم وإدارة المقاومة، فإستدعى أعيان المدينة، ونظم اجتماعاً كبيراً دعا إليه العلماء والأعيان والقادة، وجعل يسكنهم ويهون عليهم أمر الإسبان، وفي الوقت نفسه كان يستشيرهم في طريقة تنظيم المقاومة[١]. ثم أمر بنصب المدافع على أبراج المدينة، كما أمر بقطع أشجار البساتين كلها كيلا يتستر بها النصارى في أثناء القتال. ثم فتح خزائن السلاح، ووزعه على أهالي المدينة مع ما يحتاجون إليه من البارود والرصاص[٢]، ولما اكتملت الاستعدادات خطب في الناس يشجعهم على الصمود. بينما كان يشرف بنفسه على عمليات تنظيم وقيادة المقاومة[٣].

واشترك في الاستعداد لهذه المعركة المصيرية جميع سكان المدينة، وسكان الريف المحيط بها، والأندلسيون، والأتراك[٤]. كما بقيت قوات أخرى خارج المدينة لكي تقوم بحركات التفافية متوالية حول الجيش الإسباني، مهمتها تنظيم هجمات على أطرافه[٥].

---

[١] التلمساني، الزهرة، ق ١٥.

[٢] الغزوات، ص: ١١٧.

[٣] بالرغم من كل هذه الاستعدادات، والمواقف الشجاعة التي أبداها حسن آغا. لم يتردد المؤرخ التونسي ابن أبي دينار القيرواني من أن يدَّعي بأن حسن آغا حاول الهروب فمنعه شريف بركات شيخ مدينة الجزائر. انظر المؤنس، مصدر سابق، ص١٥١. وقد نسب الأستاذ المدني الادعاء الذي ذكره ابن أبي دينار عن محاولة فرار حسن آغا إلى بعض مؤرخي أوروبا وإسبانيا. ولم نتمكن من التعرف على المؤرخين الذين كان يعنيهم لأنه لم يشر إلى أي منهم باسمه أو باسم الكتاب الذي ورد فيه هذا الاتهام. انظر المدني، ص: ٢٨٢.

[٤] بلحميسي، ص: ١٠٢.

[٥] المدني، ص: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

وفي صبيحة ٢٣ أكتوبر نزل الإسبان بمنطقة الحامة جنوب المدينة، فتصدّى لهم المقاومون لمنعهم من النزول إلى البر، فأطلق عليهم النصارى قذائف المدفعية من البحر فأبعدوهم، وتمكنوا من إنزال الجنود والسلاح. بينما تركوا المؤونة والعتاد في السفن معتقدين أن الاستيلاء على المدينة سوف يتم خلال ساعات. ثم أرسل شارلكان رسالة تهديد يطلب فيها من حسن آغا تسليم المدينة، فرد عليه حسن آغا بجواب شديد اللهجة[١].

وعندما حلّ الظلام فتحت أبواب المدينة، وشنت فرقة من المسلمين هجوماً مفاجئاً على معسكر الجيش الإسباني، وعادت إلى المدينة بعد أن تكبد العدو خسائر كبيرة[٢].

وفي صبيحة اليوم التالي تقدمت القوات الإسبانية على رأسها الإمبراطور شارلكان نحو المدينة. ثم أعطى أوامره بقصف المدينة، فرد عليه المدافعون عن المدينة بقذائف المدفعية التي كانت منصوبة على أسوارها. فاضطر معه الجيش الإسباني إلى الانسحاب إلى "رأس تافورة" قرب باب عزون على الساحل الشمالي الشرقي للمدينة، حيث استأنف القصف من هناك. فبادر المسلمون بالرد عليهم. فشعر الإمبراطور بخيبة أمل كبيرة لعدم قدرته على احتلال المدينة.

ثم شنت فرقة من الأهالي هجوماً خاطفاً على الجناح الأيسر للجيش الإمبراطوري، قرر على إثره الإمبراطور الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على المدينة، للتحصن بها من مثل هذه الهجمات المفاجئة، وحتى يتمكن من مراقبة سير العمليات العسكرية. وبالفعل تمكن من الاستيلاء على المرتفع المعروف

---

[١] الغزوات، ص: ١١٧ ـ ١١٨.

[٢] بلحميسي، ص: ١٠٣.

بـ"كدية الصابون" وجعل منه قاعدة لعملياته[1]. ومن هناك اتجهت القوات الإسبانية في الساحل حيث تمكنت من احتلال التلال المجاورة لكدية الصابون، وهكذا توزع العدو على المناطق الإستراتيجية. تضاعفت المقاومة الجزائرية بقصف السفن الإسبانية بالمدفعية. كما وجَّهوا مدافعهم في الوقت ذاته إلى قواعد الجيش الغازي المعسكر في البر، واستمر تبادل القصف حتى خيم الظلام على ميدان المعركة.

وفي يوم ٢٥ أكتوبر بدأت الأمطار بالهطول، وفي المساء ازداد المطر غزارة، ورافقه هبوب رياح عنيفة هددت الأسطول بالغرق.

وقد وصف صاحب كتاب الغزوات هذه العاصفة بقوله:" هاجت الريح وساقت السحاب أمثال الجبال، وأمطرت السماء كالطوفان، وهاج البحر، واشتدت أمواجه وكثر اضطرابه بما لم يعهد مثله.."[2].

فقطعت هذه العاصفة حبال السفن، وساقت عدداً منها إلى البر حيث ارتطمت بالصخور. فلم تمض سوى ساعات قليلة حتى كانت ١٤٠ سفينة قد تحطمت تماماً، ولم تنج إلا السفن الكبيرة التي تضررت بنسبة قليلة بفضل مهارة قباطنتها، وثقل حجمها[3].

كان ببعض السفن التي ألقتها العاصفة إلى الساحل عدد من الأسرى المسلمين من الأتراك والجزائريين. بعضهم من الجزائر، وبعضهم من تونس، فبلغ عددهم ما يقارب

---

[1] أطلق الغربيون على هذا المكان اسم FORT L'EMPEREUR أي حصن الإمبراطور. انظر بلحميسي، ص: ١٠٣. وأيضا، إلتر، ص: ١٨٥.

[2] الغزوات، ص: ١١٩. لقد كان فصل الشتاء قد حل وبدأ موسم العواصف. وهو الموسم الذي ينتهي فيه الغزو، وتعود فيه السفن إلى الموانئ. ويستمر ذلك إلى منتصف نيسان حيث يستأنف الغزو البحري. انظر: Haedo,p.177.

[3] إلتر، ص: ١٦١. يبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا. يخالف ما أشار إليه المدني من أن عدد السفن التي تحطمت بسبب ارتطامها باليابسة بلغت ١٦ سفينة. المدني، ص: ٢٩٠.

١,٤٠٠ أسيراً. كانت العاصفة سبباً في خلاصهم، إذ تمكّنوا من فك قيودهم، والنجاة بأنفسهم[١]. وفي الوقت ذاته وقع عدد من الجنود الذين تمكنوا من النجاة من الغرق في قبضة الأهالي الذين جاءوا من النواحي. "فاستأصلوهم قتلاً وأسراً". فضاق الأمر بالإسبان، ولم يستطيعوا استعمال أسلحتهم النارية للدفاع عن أنفسهم[٢].

أما الجيش المحاصر للمدينة، فقد كان وضعه أكثر سوءاً. فقد أصبح الجنود يتّقون العاصفة والأمطار بالتفاف بعضهم حول بعض بعدما اقتلعت الرياح خيامهم[٣].

اعتبر أهل الجزائر هذه العاصفة عوناً من الله على أعدائه، فخرجوا من المدينة في هجوم شامل على أطراف القوات الإسبانية التي أربكت العاصفة نظامها، وفقدت القيادة السيطرة على الوضع، وقتل في هذه المعركة أكثر من ٤,٠٠٠ من الإسبان، و٢٠٠ من المسلمين[٤].

وفي صبيحة ٢٦ أكتوبر تيقّن شارلكان أنه لن يستطيع اقتحام المدينة أو إخضاعها، فكان غاية ما يأمله هو أن ينجو من هذه الورطة[٥]. فأمر قواته بالشروع في الانسحاب، بعد أن سبقه قائده أندريا دوريا إلى رأس ماتيفو[٦]. كان الانسحاب في غاية الصعوبة بسبب شدة الأمطار وكثرة الوحل في الطريق، بالإضافة إلى الهجمات التي كان الأهالي يشنونها على أطراف الجيش الإسباني.

---

[١] المرجع نفسه، ص: ١٦٢؛ وأيضا: المدني، ص: ٢٩٠.

[٢] الغزوات، ص: ١٢٠.

[٣] إلتر، ص: ١٥٩.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١٢٠.

[٥] بلحميسي، ص: ١٠٤.

[٦] إلتر، ١٥٩ ـ ١٦٠.

نزل الإسبان في وادي الحراش جنوب شرق مدينة الجزائر. حيث باتوا هناك بعد أن أنهكهم التعب والجوع، فاضطروا إلى أكل ٤٠٠ من الخيل، وفي صبيحة ٢٧ أكتوبر عبروا وادي الحراش بعد أن صنعوا من ألواح سفنهم المحطمة جسراً.

وأثناء انسحاب القوات الإسبانية، لم يتوقف الأهالي عن مهاجمة جانبي الجيش ومؤخرته، فقتل عدد كبير من الجنود الذين كانوا في المؤخرة. ومن تمكن من النجاة حاول الهرب من القتل بالغطس في الوادي فغرق عدد منهم بسبب شدة اندفاع المياه[١].

وهكذا لم يتمكن الجيش الإسباني من الوصول إلى رأس ماتيفو إلا يوم ٢٩ أكتوبر، حيث قضى الإمبراطور هناك يومين للاستراحة، ثم أقلع الأسطول في أول نوفمبر متجهاً إلى إسبانيا.

ذكر كاتب جلبي أن عاصفة أخرى دفعت ما بقي من الأسطول الإسباني إلى بجاية التي كانت حتى ذلك الحين قاعدة إسبانية[٢].

وصل الإسبان إلى بجاية في ٤ نوفمبر ١٥٤١م فوجدوها محاصرة، والجوع يفتك بمن فيها من الجنود، فقام الإسبان بالاعتداء على الجالية اليهودية هناك، واستولوا على أموالهم، وكل ما يملكون[٣].

وبعد أيام غادر شارلكان بجاية، فوصل إلى ميورقة، ومنها إلى قرطاجنة التي دخلها في ٢ ديسمبر ١٥٤١م[٤].

---

[١] كاتب جلبي، ص: ٥٨ ـ ٥٩.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٨ ـ ٥٩.

[٣] بلحميسي، ص: ١٠٥؛ المدني، ص: ٢٩٥.

[٤] نفسه، ص: ١٠ المرجع السابق، ص: ٦.

الثالث عشر: نتائج فشل الحملة

كان لفشل حملة شارلكان على الجزائر في ١٥٤١م نتائج عسكرية وسياسية كبيرة، تركت آثاراً عميقة على المخططات الإسبانية في شمال أفريقيا، ومستقبل الوجود العثماني في الجزائر في هذه المرحلة من تاريخها.

فبالنظر إلى الخسائر المادية التي منيت بها القوات الأوربية، والتي كانت كبيرة جداً. الأمر الذي دفع دي غرامون De Grammont إلى حدّ وصفها بالفادحة. إذ بلغت ١٦ مركباً من نوع غليوت Galyot [١]، و١٤٠ سفينة ناقلة للجنود، ومدفعية ثقيلة وآلات الحصار والزاد والخيام..إلخ[٢]. وبلغ عدد المدافع التي خلفها الإسبان ٢٠٠ مدفعاً، وقيل ١٠٠ استولى عليها المسلمون، وزينوا بها الحصون الحربية، وسائر أسوار المدينة[٣]، حتى أصبح ما غنمه المسلمون يضرب به المثل[٤]. أما المراكب فإن جلها قد عطب على السواحل. وما كان قد غرق من السفن المعدة للحرب ولحمل الزاد والمؤونة فقد بلغت ١٣٠ مركباً[٥]. "وما وصل اللعين إلى بلده إلا باثني غراباً[٦]. وكان عدد السفن عند قدومه سبعمائة وخمسين جفناً، والعسكر سبعين ألفاً"[٧]. إلا أن بعض الغربيين قلّلوا من شأن الخسائر التي مُنيَ بها الإسبان فذكروا أنهم لم يفقدوا سوى ١٤ غليوطة، و١٠٠ مركب صغير[٨].

---

[١] غليوت Galyot: نوع من السفن الحربية التي كانت مستعملة في ذلك العصر تتميز بكونها مدببة الطرفين. انظر: Midhat Sertoglu, Osmanli Tarih Lugti. Istanbbul. 1986. S119.

[٢] ذكر المباني أن عدد السفن التي فقدها الأسطول الإسباني في هذه الحملة بلغ ٢٠٠ سفينة بينها ٣٠ سفينة حربية. المدني، ص: ٢٩٧.

[٣] الغزوات، ص: ١٢٢؛ المدني، ص: ٢٩٧.

[٤] إلتر، ص: ١٦٢؛ Charrier, Negociaion de la Farnce dans le levant, paris. 1920. c. I. S. 522.

[٥] الغزوات، ص: ١٢١ ـ ١٢٢.

[٦] غراب: سفينة.

[٧] التلمساني، ص: ١٨.

[٨] بلحميسي، ص: ١٠٧. نقلا عن: P.AGUADO – BLEYE, Manuel de, Histoiria de Espana, t.II.pp. 454 – 455.

أما الخسائر البشرية، فإن المصادر الغربية إما أنها قد سكتت عنها، أو قدمت أعداداً تافهة. على غرار دي غرامون De Grammont الذي ذكر ـ بعد اعترافه بفداحة الخسائر المادية ـ بأن خسائر الإسبان البشرية كانت ضئيلة جداً[1]. أما المصادر الإسلامية فقد بالغت كثيراً في ذلك. فقد جاء في كتاب الغزوات أن:

"عدد القتلى بسيوف المسلمين في هذا اليوم اثنا عشر ألفاً.. ويقال أن فرائس الكفرة وفرائس خيلهم ملأت ما بين الجزائر دلس شرقاً، وشرشال غرباً"[2].

"وجاء الإسبان بأربعة آلاف من الخيل، فلم يعودوا إلى بلادهم بفرس واحد. فقد مات بعضها برماح المسلمين، والبعض أكلوها من الجوع الذي وقع بهم، وقتلوا بعضها بأيديهم لضيق سفنهم عن حمل رجالهم"[3].

أما النتائج السياسية والتي ربما تكون هي الأهم فلم تقتصر آثارها على الجزائر فحسب بل تعدت ذلك إلى خارجها. فقد عظم شأن حسن آغا عند السلطان سليمان القانوني الذي كافأه بأن أرسل إليه الخلعة السلطانية، وعينه بيلربايا على الجزائر تقديراً لشجاعته[4].

واتسع نفوذ الأتراك داخل البلاد، فالسلطان الزياني أبو محمد الزياني الذي كان قد أعلن تبعيته للإسبان خصوصاً بعد احتلالهم تونس سنة ١٥٣٥م، جعلته هزيمة شارلكان يعيد النظر في سياسته، ويعلن تبعيته للأتراك[5].

---

[1] انظر تعليقه في De Grammont, Relation de l'expedition de Charles Quint contre Alger, s. 84 – 85.

[2] الغزوات، ص: ١٢١؛ إلتر، ص: ١٦٢. وإذا صح ما نسبه المدني إلى أن الجثث وقطع الأسطول المحطمة تناثرت على طول الساحل الممتد من دلس إلى شرشال قد ذكره المؤرخون الأوروبيون الذين دأبوا على التقليل من خسائر هذه الحملة، فإن هذا الادعاء لا يكون مبالغا فيه. المدني، ص: ٢٩٠ ـ ٢٩١.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٢١؛ إلتر، ص: ١٦٣؛ وأيضا: المدني، ص: ٢٩٣.

[4] نفسه، ص: ١٢١ ـ ١٢٢؛ إلتر، ص: ١٦٧ ـ ١٦٨. ومن المفيد التنبيه إلى أن محمد بن عبد القادر ذكر في كتابه تحفة الزائر أن السلطان أرسل إلى خير الدين مع فرمان إمارة الجزائر. والصواب هو أن فرمان الإمارة جاء بتعيين حسن بن خير الدين الذي كان له الفضل في رد الحملة وليس لخير الدين الذي لم يشترك فيها لأنه لم يكن في الجزائر حينها. انظر محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، ص: ٩٤ ـ ٩٥.

[5] محمد بن عبد القادر، ص: ٩٤ ـ ٩٥.

وتوالت انتصارات الأتراك في شمال أفريقيا بعد ١٥٤١م، فقد تم القضاء على دولة بني زيان سنة ١٥٥٥م، وضمت تلمسان إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي، وأُجبر الإسبان على الانسحاب من طرابلس الغرب سنة ١٥٥٢م، وميناء تونس سنة ١٥٥٣م، وبجاية سنة ١٥٥٥م، وحوصروا في وهران مرارا بعد ١٥٥٦م. وأخرجوا من تونس نهائياً سنة ١٥٦٩م. فزادت هيبة العثمانيين في نفوس الأوروبيين، وباتوا يعتقدون أن الجزائر مدينة لا تقهر." وبقيت الجزائر كالعروس، تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار، ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن"[١].

وفشل المخطط الإسباني الرامي إلى احتلال سواحل شمال أفريقيا، وتنصير أهله. ونزلت أخبار الهزيمة على أوروبا نزول الصاعقة، لأن ما حدث في الجزائر يعتبر أعظم هزيمة مُنيَ بها الإمبراطور شارلكان منذ جلوسه على عرش إسبانيا، فاهتز نتيجة لذلك نفوذه في أوروبا ولم يبق له أي حليف سوى هنري الثالث ملك إنكلترا[٢].

وبادر ملك فرنسا فرنسوا الأول إلى عقد معاهدات مع السلطان سليمان القانوني[٣].

١ . مصير شارلكان

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) في حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الإمبراطورية الإسبانية ولا على ملكها شارلكان، وإنما على مستوى الأحداث العالمية.

وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث الذي قيل فيه:

سلوا شارلكان كم رأى من جنودنا

فليس له إلا هُمُ من زواجر

---

[١] المدني، نقلا عن ابن المفتي حسن بن رجب شاوش، تاريخ باشوات وعلماء الجزائر، ص: ٢٩٧؛ والغزوات، ١٢١ ـ ١٢٢؛ فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص: ١٢٠؛ محمد بن عبد القادر، ص: ٩٤ ـ ٩٥.

[٢] الدخول العثماني، ص: ٣٢٣.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٣٢٣.

فجهز أسطولاً وجيشاً عرمرماً

ولكنه قد آب أوبة خاسر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث هناك وهنالك بسرعة. فلم يبق حليف للإمبراطور سوى هنري الثالث ملك إنكلترا، وانضم إلى ملك فرنسا الدوق (دي كليف) وملك الدنمارك وملك إسكندينافيا، وكان فرح الفرنسيين عظيماً لأن سقوط الجزائر كان يؤدي لا محالة إلى سقوط فرنسا، وبادر ملكها فرانسوا الأول لإبرام معاهدات مع السلطان العثماني وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج معنوية داخل الشمال الأفريقي وأما في أوروبا (بقي رعب المسلمين في قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة). ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر، وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح الناس إذا رأوا جفناً عن بعد نسبوه إلى خير الدين، فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم. وإذا حطمت الزوابع مركباً توهم الناس أن خير الدين بربروسة هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه على إغراق سفنهم. وبلغ الخوف من قادة الجزائر أقصى درجة حتى أصبح أهل إسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك[١]، وكانوا يقولون:

بربوشة ... بربوشة

أنت صاحب ... كل شر

ما كان من ... ألم أو عمل

مؤذ وجهنمي ... مدمر

إلا والسبب ... فيه

هذا القرصان ... الذي

---

[١] خير الدين بربروسة، ص: ٢٠٠.

لا نظير له في العالم[1]

٢ . وفاة حسن آغا الطوشي:

استمر حسن آغا في القيام بواجبه المقدس حتى وفاته ٩٥١هـ . ١٥٤٤م فأجمع أهل الديوان في الجزائر على تولية الحاج بكير مكانه، وريثما يعين الباب العالي بإسطنبول الحاكم الجديد، الذي عين حسن ابن خير الدين وقدم في نفس السنة[2].

الرابع عشر: المجاهد حسن خير الدين بربروسة

شرع حسن بن خير الدين حال وصوله يستعد للجهاد ومواجهة المسيحيين، فعمل على تحصين مدينة الجزائر، وذلك في المناطق التي أظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفهما، كما أخذ يعمل على توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشكلة تلمسان، إذ تبين له أن بقاء الأسرة الزيانية ووجود الإسبان في وهران يعيقان حل المشكلة[3].

كان حاكم تلمسان (أبو زيان) أحمد الثاني قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه ما لبث أن خضع لمؤامرات خارجية وإنساق في تيارها وأخذ يتقرب من الإسبان، مما أدى إلى كره الأهالي له وقرروا خلعه عن العرش ومبايعة أحد إخوته (الحسن)؛ فتوجَّه أبو زيان إلى وهران طالباً الدعم من الإسبان، مقدماً لهم التعهدات بأن يحافظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران إنتهاز هذه الفرصة، فجهز جيشاً، وإنضم إليه جموع الخاضعين للإسبان من بني عامر وفليتة وبني راشد وعلى رأسهم القائد المنصور من بو غنام، وتقدموا إلى تلمسان لإبعاد الحسن، وإعادة تنصيب أبي زيان على عرش المدينة، وما أن علم حسن بن خير الدين بتحرك القوى الإسبانية، حتى قاد الجيش الإسلامي في تلمسان ليمنع الإسبان من

---

[1] مجلة تاريخ وحضارة العرب في كلية الآداب في الجزائر ١٩٦٩م العدد ٦، ص: ٥٩٣٤.

[2] تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي (٣ / ٨٤).

[3] تاريخ الجزائر الحديث لمحمد فارس، ص: ٣٨، ٣٩.

الوصول إلى هدفهم، وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك، ودعم حليفه الملك حسن في تلمسان[1]، الذي إعترف بسلطة الدولة العثمانية، كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية بقيادة القائد محمد في قلعة المشوار في تلمسان، إلا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهتزّاً خارج تلمسان، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بوغنام، الذي يرغب في مساندة زوج إبنته الأمير مولاي أحمد، حليف الإسبان[2].

قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدي بنحو عشرين ألف مجاهد، فإلتفوا حوله، ودفعوه إلى بناء مراكب حربية للإستيلاء على إسبانيا، فوافق الشريف السعدي على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم[3].

واستطاع الشريف السعدي أن ينهي الحكم الوطاسي وأصبح الإسبان متخوفين من هجوم عثماني سعدي مشترك، فقاموا بإنهاء إستحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق وقادش وغير ذلك من الإحتياطات.

لقد ظهر السعديون أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحي فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين، إذ إعتبروا ذلك نوعاً من الجهاد، فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع إسترداد الأندلس، إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدي وإنتهاء الحكم الوطاسي، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان، فأرسل جيوشاً كبيرة لإنهاء الحكم العثماني فيها، وعندما شعر العثمانيون بتلك الأطماع وإنحراف الشريف السعدي عن الهدف الإسلامي أرسلت له حملات ليعود إلى بلاده[4].

---

[1] الجزائر والحملات الصليبية، ص: ٢١، ٢٢.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٣٢٩.

[3] جهود العثمانيين، ص: ٣٣٠.

[4] جهود العثمانيين، ص: ٣٣٤.

إستمر المجاهدون شمال أفريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين إسبانيا وإيطاليا، وغض المجاهدون من أهالي الشمال الأفريقي الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الأفريقي، وبذلك إضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر أماناً بالقرب من رأسي كورسيكا ولكن الاحتلال الفرنسي للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا أيضاً الإتصالات بين إسبانيا وإيطاليا، ولم تكن هناك مهلة لشارل الخامس في الدفاع عن الطرق البحرية ضد القسطنطينية التي كانت حلمه منذ سنوات طفولته، كما أنه صار غير قادر على تقديم مصالح مباشرة لإسبانيا[١].

١ ـ آخر أيام خير الدين بربروسة:

إستمر خير الدين في قيادة الأسطول العثماني وحقق إنتصارات رائعة هزت أوروبا كلها، وبعد أن تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا جعل خير الدين من مدينة (مارسيليا) قاعدة لقيادته ومقرّاً لأسطوله وهناك ـ في مارسيليا ـ باع خير الدين ورجال أسطوله الغنائم التي حملوها معهم من إسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الإسبان من الرجال والنساء، فتداولهتم أيدي القوم، وإشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، ثم أخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة إلى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الأرقاء إلى الإمبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وإنضم الأسطول الفرنسي إلى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الأسطول الفرنسي (الأمير فرانسوا دبو بوربون) قواته تحت قيادة (خير الدين) بإعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية ـ الفرنسية) وكان أول عمل قام به (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد حاكمها (دوق سافوا)

---

[١] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٥٦.

وإنتزاعها من الحكم الإسباني وإعادتها لملك فرنسا، ثم إستقر خير الدين بأسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الإسلامي والأسطول الإسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا وتركوها في أيدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسي، وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين. تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الإسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها إلى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم:(إن خير الدين قد إقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنين) وبقي خير الدين والجند الإسلامي بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا وإنهزم تحت جدران (شاتوتييري)[١] ثم إضطر للذهاب إلى ألمانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر . إلى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم ١٨ أيلول / سبتمبر ١٥٤٤م في مدينة كريسبي دي فالوا . ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدين) وقواته عن مدينة (طولون) ورجع إلى العاصمة (إسطنبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين إسبانيا والمسلمين، فقد إستمر (خير الدين) في ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف أمام مدينة جنوى، وإرتاع مجلس شيوخها فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع(خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (ألبا) التي كانت تحت حكم إسبانيا . والتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد . فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينها مدينة (لبياري) ورجع إلى العاصمة بسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ما تستقبل به الأمم أبناءها البررة.

---

[١] خير الدين بربروسة، ص: ١٦٦.

ولم يعمّر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى إلى جوار ربه، وكان قد سبقه رفيق جهاده حسن باشا الطوشي سنة ١٥٤٤م.

وغاب بوفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة.

لقد قاد خير الدين حروب الإيمان وحقّق فوزاً عظيماً واتصف بالوفاء والإخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها، ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له: (يجب ألا تنسى أن الإسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويه إلياس وعروج، وإن تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فإن عاقبته ستكون كعاقبة أخويه).

فأجاب خير الدين: (سترى غداً، وإن غداً ليس ببعيد، إن جنودك ستتطاير أشلاؤهم وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة). وعندما حاصر شارلكان الجزائر بعد وفاة عروج بربروسة خرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى:"إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (محمد ، آية : ٧) وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم: (إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق، لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام)[١].

فصاحوا كلهم الله أكبر، وهاجموا الإسبان فأبادوهم عن آخرهم[٢].

وبعد حياة حافلة بالمغامرات، مكللة بالانتصارات، توفي بطل البحرية العثمانية ومؤسس إيالة الجزائر خير الدين بربروسة في إسطنبول ١٥٤٦م، ودفن في سواحل بشكتاش بإسطنبول[١].

---

[١] خير الدين بربروسة، ص: ١٧٠ ـ ١٧١.

[٢] المصدر السابق نفسه، ص: ١٧١.

٢ . تقويم جهود خير الدين في تثبيت الوجود العثماني في الجزائر:

تميزت الفترة التي تولى فيها خير الدين حكم الجزائر خلفاً لأخيه عروج بعدة خصائص هامة ميزت حكمه عن حكم أخيه، ومن جاء بعده من الولاة الأتراك:

الأولى: كثرة الثورات وحركات التمرد التي لعب زعماء القبائل، والأمراء المحليون دوراً كبيراً في إثارتها لأسباب مختلفة. وقد رأينا كيف اندلعت هذه الثورات فور انتشار خبر استشهاد عروج. فتمردت تنس، وشرشال، وبلاد القبائل، ومدينة الجزائر، وسائر المناطق المحاذية لها. لكن الذي يجب التنويه به، هو موقف خير الدين الذي تميز بالحزم الشديد إزاء هذه الحركات ومن كان سببا فيها. فتمكن نتيجة لذلك من إخماد هذه الثورات بسرعة كبيرةٍ. متّبعا في ذلك مع كل حالة ما يناسبها من شدة ولين، حسب ما يقتضيه حال الثورة، وطبيعة أسبابها، ومن يقف وراءها. فتمكن بحسن سياسته من القضاء على هذه الثورات أو تقليصها، مستعملاً سلاح الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى. وذلك إما باستمالة زعمائها إلى صفه كما فعل ذلك مراراً مع أمراء بني زيان. أو بكسر شوكتهم وتجريدهم من سلطانهم بحيث لم يعودوا يشكلون خطراً يذكر، وإما بالقضاء عليهم نهائياً حينما يرى أن ذلك هو السبيل المناسب لمثل هؤلاء.

ولكن على الرغم من الحزم الذي أبداه خير الدين نحو هذه الثورات ومثيريها، إلا أنه لم يتمكن من اجتثاثها بشكل نهائي. وغاية ما وفق إليه هو إضعاف زعمائها، أو تسكينها مؤقتاً. الأمر الذي أدى إلى اشتعالها مرة أخرى في عصر خليفتيه حسن آغا، وصالح رئيس الذي اقتنع في نهاية الأمر بضرورة القضاء النهائي على مملكة بني زيان سنة ١٥٥٥م. الذين كانت لهم اليد الطولى في إثارة الكثير من هذه الثورات بإيعاز من حلفائهم الإسبان الذين لم يفتؤوا يحلمون بالعودة إلى الجزائر.

---

[١] المرجع السابق ٢١٧، وأيضاً الدخول العثماني في الجزائر، ص: ٣٢٤ . ٣٢٩.

الثانية: إلحاق الجزائر رسمياً بالدولة العثمانية، وما تلا ذلك من ارتباط السياسة الخارجية للجزائر بسياسة الدولة العثمانية، خصوصاً في صراعها مع أوروبا المسيحية. فقد أدرك خير الدين بحكم معرفته العميقة بموازين القوى الدولية في ذلك العصر، أنه مهما كان الدعم المعنوي الذي يلقاه من القوى الدينية والشعبية المحلية المحبة له، والمقدرة لنضاله ونضال أخيه عروج؛ ومهما كانت إمكانياته العسكرية، فإنه لا يستطيع أن يتصدى بمفرده لدولة قوية مثل إسبانيا لمدة طويلة. خصوصاً وأن إسبانيا لم تكن في ذلك العصر مجرد مملكة تنازعه النفوذ على الجزائر، بل كانت تعتبر أكبر وأقوى دولة أوربية. ولذلك فإنه جعل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية هو الضامن الوحيد لحماية ما حققه من إنجازات بمعية أخيه عروج، ولما سيحققه في مستقبل نضاله الطويل ضد إسبانيا. وهي الدولة الإسلامية الوحيدة القادرة على دعم عمليات إنقاذ المسلمين الذين يعانون مختلف أنواع الإرهاب الديني في إسبانيا.

الثالثة: تحرير كافة المناطق التي كانت خاضعة للاحتلال الإسباني. فلم تبق في أيديهم سوى بجاية ووهران. حيث تم في عهد خير الدين تحرير تنس، وشرشال، وجيجل، والجزائر، ودلس، ومستغانم، وهنين، وقلعة سيدي راشد... وغيرها. كما تصدى للحملات الإسبانية الرامية إلى إعادة احتلال مدينة الجزائر، وشرشال، وغيرها من المدن التي طردوا منها. حتى يئسوا من العودة إلى الجزائر. فاقتنعوا أخيراً بالاكتفاء بإثارة الثورات، ودعم المتآمرين على الوجود العثماني في الجزائر من أمراء بني زيان، أو غيرهم من الزعماء المحليين.

الرابعة: بروز الدور الفعال للأسطول العثماني الذي تولى خير الدين قيادته. حيث تمكن من نقل المعركة مع أوروبا من البر إلى البحر، ونشر الرعب في سائر الدول المطلة على ساحل البحر المتوسط واستطاع العثمانيون أن يسيطروا سيطرة كاملة على البحر المتوسط

اعتبارا من معركة بروزة سنة ١٥٣٨م. أما في غرب البحر المتوسط فقد كان البحارة العثمانيون يضربون السواحل الإيطالية والإسبانية بشكل مستمر، ويعترضون السفن الأوروبية في عرض البحر. حتى صار الإمبراطور شارلكان نفسه يجد صعوبة كبيرة في سفره إلى إيطاليا عبر البحر بسبب خطر البحارة العثمانيين الذين كانوا ينطلقون من الجزائر[١].

الخامسة: بروز ما يمكن تسميته بالأهمية السياسية للجزائر. هذه الأهمية التي فقدتها منذ سقوط دولة الموحدين. فتحولت على إثرها إلى رقعة من الأرض يتنازع السيطرة عليها أمراء الدولة الحفصية والمرينية. بينما تحول بنو زيان إلى لاعب وسط الميدان غاية ما يأمله هو المحافظة على التوازن بين القوتين المتنافستين!!.

لقد صنع خير الدين من الجزائر دولة متميزة عن جارتيها، وأقامها على نفس الرقعة الجغرافية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية اليوم تقريباً. ولذلك فإن إعتبار خير الدين المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية الحديثة، لا يمكن وصفه بالأمر المجانب للصواب. لأن وقائع تاريخ الجزائر الحديث شاهدة على ذلك. فبنو زيان في أوسع مراحل نفوذهم لم يتجاوزوا مدينة الشّلِفْ جنوباً، ومدينة الجزائر وما جاورها شمالاً. وبالرغم من إمتداد نفوذ الدولة الزيانية إلى بجاية وقسنطينة شرقاً في إحدى فترات تاريخها. فإن ذلك لم يكن سوى لفترة قصيرة، ثم لم يتكرر ذلك بعد أبداً. أما وسط الجزائر وجنوبها فقد كان خاضعاً لنفوذ شيوخ القبائل، أو الأمراء المحليين الذين نصبوا أنفسهم في غياب سلطة مركزية قوية. وأما الجنوب الغربي للجزائر فقد كان أما تابعاً للمرينيين، أو للزيانيين اسمياً في أغلب الأحيان.

وكما يعود الفضل إلى خير الدين في صنع الكيان السياسي للجزائر كدولة، فإليه يعود الفضل أيضاً في الدور السياسي والعسكري المتميز الذي لعبته الجزائر منذ إلحاقها بالدولة

---

[١] بلحميسي، مرجع سابق، ص: ٩٥.

العثمانية. إذ تحولت إلى جبهة متقدمة في الصراع مع أوروبا المسيحية ممثلة في إمبراطورية شارلكان وحلفائه.

السادسة: إنقاذ عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس ونقلهم إلى الجزائر. ومنحهم إقطاعات كبيرة مكنتهم من أن يجعلوا من بعضها مدناً شكلوا أغلبية سكانها، مثل: البليدة وتنس وشرشال. بينما شكلوا في مدن أخرى جالية فعالة مثل: الجزائر وبجاية والمدية وغيرها. وقد رأينا كيف نظم خير الدين ٣٦ حملة بحرية، نقل خلالها ٧٠,٠٠٠ أندلسي إلى الجزائر. ولم يكتف هؤلاء الأندلسيون بلعب دور كبير في المجال المدني والعمراني والفني فحسب، بل كان لهم دور كبير في مساندة الوجود العثماني ضد خصومهم المحليين. إذ شكلوا السند الشعبي الأكثر إخلاصاً للأتراك العثمانيين[١].

٣ ـ عزل حسن بن خير الدين عن الجزائر:

إنتهج حسن بن خير الدين بربروسة ـ بعد أن هزم السعديين في تلمسان ووطد دعائم الحكم العثماني فيها ٩٥٩هـ ـ ١٥٥١م ـ سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الإمتيازات الاقتصادية التي منحت لها مع إسطنبول والتي شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية، غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك، وأعلن عداءه لفرنسا في مناسبات عديدة، فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد في إسطنبول إلى الجزائر بهدف معرفة المدى الذي سيصل إليه حسن بن خير الدين في عدائه لفرنسا، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبيلربيكية الجزائر.
إجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدين، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية في مهاجمة إسبانيا، ونجدة مسلمي الأندلس،

---

[١] الدخول العثماني، ص: ٣٠٦ إلى ٣٢٩.

لكن حسن بن خير الدين رفض هذا العرض، لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة من الدولة العثمانية نفسها، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين، وبين بأنه لا ينتصر بكافر على كافر، ورجع السفير الفرنسي إلى إسطنبول، حتى أوغر صدر الباب العالي بقوله: (إن السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالإنقسام)[١] خاصة وأن والدته من الأسر الجزائرية المعروفة.

رأت الدولة العثمانية أنه لزاماً عليها من تغيير سياستها في المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفاً قوّياً للإسبان، مما أدى إلى قلب الموازين الإستراتيجية رأساً على عقب فإتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانوني بيلربك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب، كما دعا إلى الوحدة الإسلامية وإلى حسن الجوار[٢].

أسندت الدولة العثمانية بيلربيكية الجزائر إلى صالح رايس في صفر ٩٦٠هـ ـ يناير ١٥٥٢م، بدلاً من حسن بن خير الدين[٣].

٤ ـ رسالة السلطان سليمان القانوني إلى حاكم فاس محمد السعدي:

(... هذا مثالنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني لازال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني والصون الصمداني أصدرناه إلى الجناب العالي الأميري الكبير الأكرمي الأفخمي الأكملي الأرشدي، الأعدلي الهامي الماجد النصيري الذخيري الحسبي النسبي نسل السلالة الهامشية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المخفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصمد حاكم ولاية فاس يومئذ الشرف محمد دام علوه وزاد سموه.

---

[١] الجزائر والحملات الصليبية للعسيلي، ص: ٣٠ ـ ٣٢.

[٢] بداية الحكم المغربي للسودان الغربي، لمحمد الغربي، ص: ٩٠ ، ٩١.

[٣] المغرب في عهد السعدية، عبد الكريم، ص: ٧٩.

أصدرنا هذا المثال الشريف إلى جناب العالي نخصه منا سلام بتكميل صلاة (الصلات) المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلاة المودة بالتسليمات الزكيات. وبعد فإن الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ أقامنا في دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سائدة كالشمس وضحيها، وسعادة ساعية كالقمر إذا تليها، وخصنا خلافة جليلة عضد الإيمان بها منصور ومنحنا سلطة ساعد الإسلام بها مرفوع لا جرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا أدار (شكر) هذا اللطف الجسيم والإحسان العميم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وكان أبداً دأبنا، ودائماً عادتنا الاهتمام بإجراء الشرع المبين وإنقاذ سيد الأولين عليه الصلاة وعلى آله أجمعين والقيام في إطفاء نايرة الكفر والطغيان وطي الظلم والعدوان ونشر العدل والإحسان. ولما بلغ سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين، لذلك بدلناهم غيره، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية وخلاصة خدام أعتابنا الجليلة أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي الجلال والإكرام والإحترام، صاحب الفرد والإحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى صالح باشا دام إقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا إليه تلك الديار وأمرنا بإقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين، وإحياء تواقر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله تعالى، وأن يكون مع أهالي الإسلام على أكمل إتحاد وأجمل إتفاق مجدّاً فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين مثابراً على دفع أعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على أن أقصى مراد حضرتنا العلية إحياء مراسم الإسلام وإطفاء ثائرة الكفرة والمتمردين اللئام وذلك المرام يكون بإتفاق أمراء وإتحاد أمناء شرع سيد الأنام ويتم به النظام ولا ينفي لآثارهم في الشهور والأعوام.

وأمرناه أيضاً أن ينظر إلى أحوال المسلمين بنظر الإشفاق والمراحم، وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم ليكونوا في أيام دولتهم العادلة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولابد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيد الأنبياء، وأحفاد سيد الأصفياء سمعنا عدلكم وإنصافكم وبكمال التقوى وصفات الكمال اتصافكم، ولذلك الشأن كتبنا إليكم منشوراً يوجب مضمونه المصافات ويشفي مكنونه أن تكون المودة في أقصى الغايات ولك أن تنبئوا بأخبار صحتكم الغالية إلى أعتابنا العالية...)[١].

تحريراً في أوائل شهر محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، الموافق يناير ١٥٥٢م بمقام أدرنة كما بعث السلطان سليمان القانوني بخطاب آخر إلى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدي، يمنحه بخلع، والخطاب عبارة عن مرسوم سلطاني قال فيه: (... هذا مثالنا الشريف ..إلخ أصدرنا إلى الجناب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد ... نخصه بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد...

فإن الله جلت قدرته وعظمته منذ أقامنا في دولة هايلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سايدة كالشمس وضحيها.

وإمضاء سنن سيد الأولين والآخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وأنت من أولاد سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله عليه وسلامه وقد سمع سيدتنا العلية حسن إقدامك وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك وصفاء سيرتك وقيامك في الذب عن المسلمين وقمع أعداء الدين ولذلك الشأن حباك إحساننا الشريف العالي السلطاني ورعاك جزيل فضلها السامي الخاقاني فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٣٦٤.

خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسبباً لنسج المودة بيننا، على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي الإسلام وحماة دين النبي صلى الله عليه وسلم في أيام دولتنا العادلة في أكمل الراحة وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إن شاء الله تعالى...)[1].

٥ . مرسوم السلطان العثماني بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية:

بعث السلطان العثماني مرسومه إلى العلماء والفقهاء وسائر رعايا الجزائر يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية وقد جاء في ذلك المرسوم ما يلي: (... هذا مرسومنا.. أرسلناه إلى العلماء والفضلاء والفقهاء والأئمة والخطباء وجميع العلماء والقواد والنقباء وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية، زيد توفيقهم يتضمن إعلامهم أن صدقاتنا الشريفة العالية الخاقانية وعوارضنا السنية السامية السلطانية قد أنعمت على مملوك حضرتنا العالية ومعتمد دولتنا القانية أمير الأمراء الكرام... صالح باشا دام إقبالاً، بولاية الجزائر لفرط شهامته وشجاعته وكمال قوته وصلابته وحسن سيرته وصفاء سريرته فوضنا إليه تلك الأرض وأمرناه بإحياء السنن والفروض والرعايا الذين هم ودائع الله تعالى وحفظ الثغور وسد خارق الأمور، لتكون رعايا أهل الإسلام ثمة في أيام دولتنا العادلة في أكمل الراحة، وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فليكونوا مع أمير الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتفاق مراد حضرتنا قيام قاموس الشرع القويم والصراط المستقيم وإحيائه مراسم الإسلام وطريقة سيد الأنام وحفظ العباد وصون البلاد وقمع الكفرة الفجرة بكل ناد وتقبلوا ذلك وتعتمدونه والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه والعلامة الشريف حجة بمضمونه)[2].

---

[1] جهود العثمانيين، ص: ٣٦٥.

[2] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٦٦.

تحرياً في أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق يناير ١٥٥٢م.

الخامس عشر: سياسة صالح رايس

١ . عمل صالح رايس في سياسته الداخلية على تحقيق أمرين:

أ . تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر.

ب . إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للأندلس، أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمي إلى ثلاثة أهداف:

أولها: إبعاد الإسبان نهائياً عن أراضي الجزائر.

ثانيها: وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التي تقوم بها الدولة المغربية السعدية.

وثالثها: إعلان نفير الجهاد العام والسير برّاً وبحراً على رأس الجيوش الإسلامية إلى بلاد الأندلس[١].

ابتدأ صالح رايس في مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية، واستطاع أن يخضع الإمارات المستقلة لنفوذ الدولة العثمانية وأصبح وضع العثمانيين في الجزائر أقوى مما كان عليه، ثم بدأ صالح رايس في مخططه نحو المغرب الأقصى، واستفاد من الظروف التي تمر بها تلك الديار ووقف مع أحد أفراد أسرة بني وطاس الذي فقد أمله في وقوف الإسبان والبرتغاليين معه.
وتحركت القوات العثمانية للوقوف مع أبي حسون الوطاسي وحصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب باديس التي رسا بها الأسطول

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٣٦٦.

العثماني، إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال أمام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وقبل أن تنتهي سنة ٩٦٣ هـ - ١٥٥٣م، سقطت مدينة تازة في يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين في معارك متواصلة أهمها بكدية المخالي في ساحة فاس، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها أبو حسون نحو فاس التي دخلتها في ٣ صفر سنة ٩٦٤ هـ - ٨ يناير ١٥٥٤م[١].

وأعلن الباب العالي ضم المغرب إلى الدولة العثمانية بعد أن خطب الإمام للسلطان العثماني[٢].

ازداد فزع الإسبان والبرتغال لرؤية الأساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم التي سيطر عليها العثمانيون ومن ثم التوجه للأندلس، وقد جاء في الرسالة اتي بعثها الملك البرتغالي (جان الثالث) إلى الإمبراطور شارل الخامس، ما يدل على هذا الفزع إذ كتب إليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لإقدامهم في هذه البلاد، لأن ذلك يشكل خطراً كبيراً على مصالح الأمتين[٣].

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة أشهر ضمن خلالها استقرار الأمور للدولة العثمانية، وفي خلال تواجده في فاس لم يترك الجهاد ضد الإسبان فأرسل فرقة من جيشه إلى الريف المغربي استرجع من الإسبان معقلهم الكبير باديس أو صخرة فالين كما يدعونها[٤]، كما حاول صالح رايس أن يستبدل الباشا العثماني أبا حسون بالشريف الإدريسي الراشدي مولاي بوبكر، بناء على اقتراح المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثماني، إلا أن ثورة الأهالي اضطرت صالح رايس لإعادة بو حسون إلى حكم فاس،

---

[١] المغرب في عهد الدولة السعدية، ص: ٨٠ - ٨١.

[٢] بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص: ٩١.

[٣] المغرب في عهد الدولة السعدية، ص: ٨١.

[٤] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٤٢.

فأذعن بوحسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثماني وإقامة حامية عثمانية في مقر بلاطه[١].

٢ . تمهيده للعمل المشترك في استرداد الأندلس:

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الإسبان، ولا يهدف من وراء أي عمل إلا جمع القوى الإسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي، كان يرى قبل كل شيء وجوب طرد الإسبان من وهران، من النزول إلى الأندلس، لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بني عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله. ترامت لصالح رايس يومئذ الأنباء عن ضعف القوى الإسبانية بمدينة مجانة، علاوة عن معاناة الحامية بالضيق، فرأى صالح أن يغتنم الفرصة وأن يبدأ بتطهير الشرق من الإسبان قبل أن يطهر الغرب، ولعل إنقاذ بجاية سيكون له أثر في عودة ملك بجاية إلى حظيرة الوحدة الإسلامية تحت ضغط السكان. سار صالح رايس في ربيع أول سنة ٩٦٣ هـ . يناير ١٥٥٥م، نحو مدينة بجاية على رأس قوة كبيرة بنحو ثلاثين ألف رجل عززهم في الطريق بالمجاهدين في إمارة كوكو، فوطدت الجيوش العثمانية وحاصروا المدينة، بينما جاء الأسطول العثماني يحمل الأسلحة والمدافع بجانب الجيش، وصوّب المسلمون قذائفهم على القلعة[٢]، ودارت معركة عنيفة ونجح صالح رايس في انتزاع بجاية من الإسبان في ذي القعدة سنة ٩٦٣ هـ . سبتمبر ١٥٥٥م، ولم يستطع حاكم نابولي من نجدة حاكمها في الوقت المناسب[٣]، كما استسلم الحاكم الإسباني للقوات العثمانية[٤].

٣ . مقتل بوحسون الوطاسي:

---

[١] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، إبراهيم شحاتة، ص: ١٤٧.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٤٣ . ٣٤٤.

[٣] تاريخ الجزائر الحديث محمد خير الدين فارس، ص: ٤١.

[٤] تاريخ الجزائر العام (٣/ ٨٨).

واجه بوحسون منافسة محمد الشيخ السعدي الذي جمع قوات من السوس والحوز، وأتى بجنوده إلى أن وصل رأس الماء من أحواز فاس[1]، وكان بوحسون بعد انسحاب العثمانيين قد أخذ في إعداد الجيوش وآلات الحرب إلى أن مضت ثمانية شهور فأمر بالخروج لمواجهة مولاي محمد الشيخ والوصول إلى مراكش، ولما تقابل الجيشان قام بينهما قتال عظيم، واستطاع بوحسون أن ينزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم، ثم أرسل بوحسون لمولاي محمد الشيخ وقال له: اخرج أنت وأولادك إلى لقائي وأنا أخرج إليكم بنفسي ونترك المسلمين بدون قتال، فتظاهر محمد ورجع إلى والده وإخوته الستة الذين اجتمعوا على بوحسون فجعل يطاردهم حتى طمر به فرسه فسقط فطعنوه فاجتزوا رأسه وأتوا به جيشه، فانهزموا بلا قتال، وأخذ محمد الشيخ فاس[2]. وهكذا مات بوحسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس، وإن كانت قد ضاعت بموته الفرصة الأولى لإعلان السيادة العثمانية على فاس، إلا أن أحداث هذه الوقائع كانت تعني أن الفرصة ما زالت واسعة أمام العثمانيين لتطبيق غزوهم المحلي للمغرب، لاسيما وأن محمداً الشيخ السعدي ـ باسم القضاء على الحزب العثماني بين المغاربة ـ أنزل القتل في أكثر من مائتين من كبار أعيان فاس فضلاً عن الفقيهين والمرينيين إلى محمد عبد الوهاب الزقاق قاضي فاس، وإلى الحسن علي حزوز خطيب فاس[3].

٤ ـ التعاون البرتغالي الإسباني السعدي ضد العثمانيين:

بعد عودة فاس للسعديين ظهر محمد الشيخ كخصم عنيد للعثمانيين، ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في بلاد المغرب، بل والأكثر من ذلك أنه أعلن إثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، فهذا التنافس السعدي العثماني

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، شارل جوليان (١/ ٣٤٤).

[2] تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص: ٢٠، ٢١.

[3] أطوار العلاقات المغربية، ص: ١٤٨.

على شمال أفريقيا، بل وعلى الخلافة الإسلامية كان في صالح الإسبان والبرتغال، ولا عجب إذا رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين[١].

بعث الملك جون الثالث رسالة إلى حاكم مازكان البرتغالي الفارودي كالفولو ردّاً على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ إلى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين، كما حددت الرسالة بعض الشروط التي يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين كتسليم بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس بنيون والعرائش، بالإضافة إلى تموين القوات المسيحية التي سيرسلها لمساعدته، وأخيراً يختتم الملك البرتغالي يوحنا الثالث بضرورة إخبار الإمبراطور الإسباني بذلك للتنسيق في عمل مشترك ضد العثمانيين، ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك في مطلع ٩٦٢ هـ - ١٥٥٥م، وظل مفعول هذه الهدنة زمناً طويلاً.

إذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين، فإن المزوار بوغانم هو الذي كُلِّف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الإسبان، وأول رسالة للمنصور في هذا الصدد تلك التي بعثها إلى حاكم وهران الإسباني الكونت دي الكودين في مطلع ربيع أول ٩٦٣ هـ - يناير ١٥٥٥م، وقد أخبر المزوار الكونت الإسباني بوصول رسائله وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبد الله اللذين أعربا عن سرورهما لقدوم وفد إسباني للتفاوض معه، وقد أرسل حاكم وهران بالفعل إلى فاس وفداً يتألف من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول إعداد حملة مشتركة إسبانية - مغربية ضد العثمانيين[٢].

وقد جاء في التقرير الذي رفعه الوفد للكونت حاكم وهران الإسباني الذي أشرف على سير المحادثات(... بعدما سلمناه الرسائل... طلب إلينا الملك السعدي أن نقول له

[١] تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص: ٨٣.

[٢] تاريخ الدولة السعدية، ص: ٨٣ ، ٨٤.

شفويّاً عن سبب المهمة التي قدموا من أجلها إلى فاس... إننا جئنا استجابة لطلب مولاي عبد الله والقائد منصور بن غانم حيث طلب من حاكم وهران إرسال بعض الرجال للتفاوض في أمر الجزائر.

أجابنا الشريف بأنه لا يزال عند فكرته وأنه يرغب في طرد العثمانيين من بقايا أفريقيا، ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الإمبراطور إمداده بعشرة آلاف مقاتل مسلحين بأسلحة نارية، وأنه (أي الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الإمبراطور بكل ما يلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات، ذلك لأن طرد العثمانيين إنما هو عمل تستفيد منه ممالك الإمبراطور والمسيحية جمعاء... وطالت المذكرات كثيراً. وأخيراً علمني القائد برشميده، بأن الشريف قد ادخر كثيراً من المال لمحاربة العثمانيين، وأنه يسعده أن يعين الإمبراطور على ذلك وأن الأمر مستعجل جدّاً...).

(... جاء ذكر الجزائر ماذا نصنع بها بعد احتلالها، فكان من رأي الملك السعدي تحطيم هذه المدينة وإزالتها تماماً، أما أهلها فتؤخذ أموالهم، وإذا امتنعوا فيقتلوا، ورفض الملك السعدي أن يؤخذ عبيداً للمسيحيين، وذكر الوفد أن الأتراك أجانب عن البلاد وأنهم أعداء له فيجب معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم في حالة استسلامهم دون مقاومة، إلا أن الملك السعدي أوضح أنه لن يسمح أبداً بأن يصبح أي عربي عبداً، لأن هذا مخالف للشريعة)[١].

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدي على العثمانيين، الذي لم يتورع في الاستنجاد بالقوى المسيحية إسبانيا والبرتغال في سبيل تحقيق أهداف شخصية، حتى لو كان على حساب عقيدته الإسلامية ومصالح المسلمين.

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك إلى الأمير فيليب ابن الإمبراطور شارل مشفوعة بخطاب هذا نصه: (... يجب علينا أن نعتبر أنفسنا

---

[١] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٦١، ٦٢.

سعداء جدّاً في الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده للحصول على أسطول السلطان العثماني، حتى يهاجم ممتلكات جلالة الإمبراطور، وكون أمير عربي يعرض علينا نفوذه في مهاجمة العثمانيين في الجزائر ومحاربتهم وإبعادهم عن الأرض التي يحتلونها في أفريقيا وذلك فيما إذا قدمنا له اثني عشر ألفاً من المقاتلين الإسبان على حسابه، كذلك يتعهّد الشريف السعدي في حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائي رهينة لديه، وأن يصنع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة، بما أن هذه الصفقة ستجر خيراً عظيماً على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد في قبول طلب الشريف، وأرسل إليه ابني رهينة حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه، بل إنني وجميع من حولي مستعدين لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيداً...)[1].

٥ . المخابرات العثمانية تكتشف المؤامرة:

اطلع صالح رايس على تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والإسبان، والتي كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر، لأنه طالما أن الدولة في الجزائر معناه خطر على إسبانيا، فبعث صالح رايس للباب العالي يخبره بشأن تلك المحادثات، فكان جواب السلطان سليمان سريعاً وحاسماً بوجوب مهاجمة وهران قبل أن تسفر المحادثات بين الجانبين السعدي والإسباني عن نتيجة عملية، فأرسل السلطان سليمان أربعين سفينة لمساعدته في الاستيلاء على وهران والمرسا الكبير، ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعي من مختلف أنحاء الدولة العثمانية هي التي تغذي الأوجاق، الذي كان تبعاً لذلك يتجدَّد على الدوام[2].

٦ . وفاة صالح رايس:

---

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٦٤ . ٣٦٥.

[2] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٨١.

استعد صالح رايس لفتح وهران، وضم أسطوله إلى جانب أسطول السلطان وصار لديه نحو سبعين سفينة، واجتمع لديه من الجند ما يقارب من أربعين ألف جندي، وكان ينوي من إتمام زحفه هذا بالمسير إلى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات وإخضاعها لسلطانه، ولكن القدر لم يمهله فتوفي صالح رايس بالطاعون في شهر رجب ٩٦٣ هـ ـ ١٥٥٦م عن عمر سبعين سنة[١].

إنَّ الدولة العثمانية سعت إلى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفاً واحداً ضد الهجمات المسيحية، ذلك أن استقراره في قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي، يعني في حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية في اعتراض الطرق البرية للبرتغال أو إسبانيا مع العالم الجديد والشرق، من هنا نرى أن نجاح الفكرة كان يعتمد أساساً على وصول العثمانيين إلى تلك السواحل ليشاركهم في ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت إمرة أمراء البحر العظام، أمثال خير الدين وعروج بربروسة وصالح رايس[٢].

قام القائد يحيى بإكمال خطة صالح رايس فأبحر نحو وهران، وفي الطريق وصلت الأوامر السلطانية بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلرباي، ووصلت الجيوش البرية والبحرية إلى وهران وحوصرت حصاراً شديداً، إلا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة وذلك بسبب النجدات المتواصلة التي كانت تبعثها إسبانيا إلى المدينة المحاصرة[٣].

٧ ـ احتلال محمد الشيخ السعدي لتلمسان:

انتهز الشريف السعدي محمد الشيخ فرصة عودة الأسطول العثماني إلى إسطنبول فأسرع بإرسال جيوشه نحو تلمسان التي كان رجالها قد انضموا إلى صفوف المجاهدين في محاولتهم لاسترجاع وهران، فدخلها الشريف السعدي على غفلة ووضع على رأسها

---

[١] تاريخ الجزائر العام للجيلالي (٣/ ٨٨ ـ ٨٩).

[٢] صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص: ٣٤٣.

[٣] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٦٦ ، ٣٦٧.

القائد ابن غنام زعيم قبائل بني راشد، ووزير آخر ملوك الزيانيين المحتمين بإسبانيا، أما الحامية العثمانية الموجودة في تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود في وجه السعديين حتى احتوت ذلك الهجوم السعدي.

إن السعديين كانوا يرون في ضم تلمسان عاملاً قوياً في توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقي لصد كل تدخل عثماني في المغرب بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيماً لوجودهم في الجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب[١]، باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس. كما أن شواطئ المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسة لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والإسبان[٢].

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين، عندما بعث السلطان سليمان القانوني برسالة إلى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من انتصارات ويعلمه لما كان عليه بنو مرين من الهدايا والرد والخدمة والميل إليه، وأن السلطان في نصرتهم وقد سبق وأن ظهر ذلك في آخر ملوك دولتهم أبي حسون، الذي زوده بأربعة آلاف جندي كان ذلك في محاولة من السلطان لتكوين اتحاد إسلامي كبير يواجه به الأخطار الخارجية، غير أن ذلك قوبل بالرفض من السلطان السعدي محمد الشيخ، الذي رد على مبعوث السلطان بقوله: (سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له: إن سلطان الغرب لابد أن ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام)[٣].

---

[١] صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص: ٣٤٥.

[٢] جهود العثمانيين، ص: ٣٧٨.

[٣] تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص: ٢٦، ٢٧.

يظهر من ذلك استياء محمد الشيخ الذي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما أظهر طموح محمد الشيخ الذي كان يحلم بإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[1].

٨ . مقتل محمد الشيخ:

قتل محمد الشيخ في عام ٩٦٤ هـ . ١٥٥٧م من قبل حرسه الخاص، وتطورت الأحداث بالمغرب وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، إذ لم يعد هناك مجال للشك في أن العثمانيين إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الأفريقي فحسب، بل ولأهميته الإستراتيجية كأقرب نقطة إلى بلاد الإسبان والبرتغال[2].

٩ . عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر:

رأى السلطان العثماني ضرورة إعادة حسن بن خير الدين إلى الجزائر وذلك بعد مصرع حسن قور عام ٩٦٤ هـ ١٥٥٧م بعد انقطاع استمر لعدة أعوام قضاها في الجهاد في مواطن أخرى، واستبشر الناس برجوعه، وشرع في ترتيب أمور الجزائر، فنظم الإدارة، ورتب الجيش ترتيباً أعانه على ضبطه وبدأ في رحلته الجهادية ووضع أمامه هدفين عظيمين: تطهير الشمال الأفريقي من الوجود المسيحي؛ واسترداد الأندلس لحوزة المسلمين[3].

١٠ . الثورات الداخلية في المغرب الأقصى:

اندلعت الثورات المناهضة للإمارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ في تارودانت فقامت ثورة المولى عثمان في السوس بالجنوب في جمادى الأول عام ٩٦٥ هـ . فبراير عام

[1] جهود العثمانيين، ص: ٣٧٩.

[2] تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص: ٨٥.

[3] جهود العثمانيين، ص: ٣٨٠.

١٥٥٨م، وثورة المولى عمر في دبو بالمشرق في رجب عام ٩٦٥ هـ ـ أبريل عام ١٥٥٨م، وثورة المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول عام ٩٦٦ هـ ـ ديسمبر عام ١٥٥٨م، ثم كانت المذبحة الجديدة التي أنزلها عبد الله الغالب بثلاث من إخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل، مما اضطر إخوته للهروب إلى تلمسان والجزائر فهرب المولى عمر والمولى عبد المؤمن وعبد الملك وأحمد المنصور، وذلك خوفاً من القتل[١].

قصد عبد الله الغالب إلى مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من قتلة أبيه، كما قضى على ثورة السوس التي تزعّمها عثمان، ثم عاد سريعاً إلى فاس لإعداد قواته لصد الحملة العسكرية التي يقودها حسن بن خير الدين الذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد[٢]، وقامت بين الطرفين معركة على وادي اللين بالقرب من فاس لم تسفر عن شيء، إلا أن حسن بن خير الدين الذي وصلته أنباء عن تحرك الإسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة، فذهب الجيش العثماني إلى مركز قصاصة في الشمال فركب سفينة وعاد للجزائر، بينما ذهب قائد تلمسان إلى حاميته استعداداً للحوادث المقبلة[٣].

١١ ـ مقتل حاكم وهران الكوديت:

كان دو الكوديت حاكم وهران يدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الإسباني تهديداً خطيراً، فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران، وكان دا الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر[٤]، لذلك أعدَّ قوة كبيرة تتكون من اثني عشر ألف مقاتل وخرج على رأسها فهاجم مدينة

---

[١] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ١٧.

[٢] تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص: ٨٦.

[٣] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٧٢.

[٤] لسان المعرب، لأبي عبد الله السليماني، ص: ٩٤.

مستغانم، إلا أن محاولته باءت بالفشل إذ تكبَّدت القوات الإسبانية في ذي القعدة عام ٩٦٥ هـ ـ أغسطس عام ١٥٥٨م خسائر فادحة، وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى، ورغم فشل الحملة الإسبانية ضد مستغانم فإن العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك في تواطئ المولى عبد الله الغالب بالله مع الإسبان، مما جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر من محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين، فعندما ثار المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول عام ٩٦٦ هـ ـ ديسمبر ١٥٥٨م واستنجد بوالي الجزائر الذي لم يمده بأية مساعدة عسكرية، بل رحَّب به في بلاد الجزائر وزوَّجه بإحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان[١].

١٢ ـ سياسة حسن بن خير الدين في التضييق على الإسبان:

أراد حسن بن خير الدين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الإسباني في وهران، وأخذ يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة إلى جانب الجيش العثماني، فجند عشرة آلاف رجل من زواوة[٢]، كما أنشأ قوة أخرى ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى، وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية، فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضي، وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلي آخر (عبد العزيز بن عباس) الذي أعلن استقلاله في المغرب[٣]، بذلك صار أسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة[٤].

---

[١] تاريخ الدولة السعدية، ص: ٨٧.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٧٧.

[٣] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٤٥.

[٤] حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٣١٩).

عيّن حسن بن خير الدين في عام ٩٦٥ هـ - ١٥٥٨م بويحيى الرايس[1] قائداً على باديس، فقام بتخريب الساحل الإسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء في تقرير إسباني بقلم فرانسكوا دي إيبانير أن يحيى يملك أربع سفن حربية الأولى بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثمانياً مسلحين بالسهام والأقواس والمناجيق، والثانية يقودها قره مامي وعلى ظهرها ٨٠ عثمانيًا مسلحين بنفس الأسلحة. والثالثة بقيادة مراد الرايس بقوة ٧٠ جنديّاً، والرابعة تحمل نفس العدد وبنفس الأسلحة وبالإضافة إلى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان في حوزة بو يحيى سفينتان في باديس ويقوم بصنع سفينة أخرى، ويتصل بنشاط سفن باديس سفن تطوان العرائش وسلا، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان، وفي سلا سفينتان من النوع الآخر، إلا أن السفن الأخيرة لم تتبع قيادة بو يحيى، ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الإسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند، ورفع تجار إشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الإسباني يشكون فيها الفظائع التي تركتها سفن باديس والسفن الإسلامية الأخرى ضد السفن الإسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية[2]، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بو يحيى، فعمَّ الخوف سكان الساحل الإسباني، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالباً ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ[3].

---

[1] جهود العثمانيين، ص: ٣٨١.

[2] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ٢١٩.

[3] تاريخ الدولة السعدية، ص: ٩٠.

١٣ . سياسة المولى عبد الله:

تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية إلى مقاومة الهدف في المغرب والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من إسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم، والمحافظة على أحوال السلم معهم، وقد دفعته سياسة المهادنة مع النصارى إلى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض الدول الأوروبية كفرنسا التي استقبل سفيرها وحمله إلى الأمير أنطونيو دي بربون رسالة يعبر فيها عن استعداد المغرب للاستجابة للمطالب الفرنسية، ثم عقد الأمير الفرنسي معاهدة في شوال ٩٦٦ هـ - يوليو ١٥٥٩م مع المولى عبد الله الذي تنازل عن المرسا الصغير لفرنسا مقابل مده بالأسلحة والعتاد الحربي، وإرسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب، بعد أن فقد ثقته بالحرس التركي الذي سبق وأن اغتال والده محمد الشيخ، كانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتوكمبر سيس في ٢١ جمادى الأولى في سنة ٩٦٦ هـ - ١٣ أبريل ١٥٥٩م مع إسبانيا والتي أنهت الحرب الإيطالية، أخذت تبحث عن أسلوب جديد يمكن الاعتماد عليه في حالة تجدد النزاع مع إسبانيا، خصوصاً وقد صار لفليب الثاني نفوذ قويّ في أوروبا، لأن المعاهدة المذكورة دعمت نفوذ إسبانيا في إيطاليا والأراضي المنخفضة مما يهدد فرنسا، فأخذ في التقرب من المغرب البلد الإسلامي. ومما لاشك فيه أن فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الاعتماد عليه، كما كانت ترى في ميناء القصر الصغير الإستراتيجي الذي لا يبعد إلا بضع كيلومترات عن جبل طارق منطقة هامة يمكن اتخاذها للهجوم على إسبانيا.

ولعل ذلك كان سبباً في عدم قيام الدولة العثمانية بموقف إيجابي تجاه المعاهدة لأنها كانت تأمل في أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين، فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد في مسألة الهجوم على إسبانيا وإن اختلفت من الناحية العقائدية. ففرنسا كانت ترغب في الهجوم على إسبانيا من أجل تحقيق نصر عسكري لتكون سيدة الموقف في غرب البحر المتوسط، بينما الدولة العثمانية تهدف إلى إنقاذ المسلمين من الحكام

الإسبان ثم استرداد الأراضي الإسلامية في الأندلس. حَوَّلَ حسن بن خير الدين أنظاره سنة ٩٦٦ هـ ـ ١٥٥٩م وتحرك بجيوشه نحو النواحي التابعة لأمير قلعة بني عباس عبد العزيز فاستولى على المسيلة وحصنها وبنى برجاً، وذلك لتثبيت الوجود العثماني هناك، ووضع حامية بلغ عددها أربعمائة جندي، ثم عاد حسن بن خير الدين متوجهاً صوب بلاد حمزة في أنحاء بربرة، عندها انقض أمير قلعة بني عباس على الحصن العثماني ونشبت معارك بين الحامية العثمانية لقي فيها الأمير عبد العزيز بن عباس صاحب .... حتفه وخلفه أحمد مقران الذي امتلك نواحي بلاد كوكو فاعترف به حسن بن خير الدين[١].

اشتدت حملة إزعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانئ تونس والجزائر وذلك بالإغارة على السفن المسيحية، كما بعثت تلك الموانئ ببعض القوات العسكرية البرية وجزء من الأسطول، لمساندة السلطان في الشرق[٢].

١٤ ـ الأسطول العثماني يهاجم جربة في تونس:

قام الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا بالهجوم على جزيرة جربة في رمضان ٩٦٧ هـ ـ مايو ١٥٦٠م، ونجح الأسطول في تحقيق أهدافه ضد الإسبان[٣]، الذين لم يجدوا حرجاً من الاستنجاد بفرنسا[٤]، بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالي باشا ببعض الغارات في البحر المتوسط قبيل عودته لقسطنطينية، ولكن درغوث باشا الذي سبق وأن ضايقه الثوار في الداخل، أقنع بيالي باشا بالتوجه إلى طرابلس لمساعدته في القضاء على التمرد قرب تاجوراء، وقد وصل بيالي باشا إلى طرابلس وصول الفاتحين، ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام والشارات التي غنمها من الأعداء، بينما كانت أعلام الأعداء

[١] تاريخ الدولة السعدية، ص: ٨٧ ـ ٨٨.

[٢] تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩١).

[٣] المصدر نفسه.

[٤] المصدر نفسه.

منكسة فوق سواري السفن وقام بيالي باشا بطرابلس أياماً قليلة كافية ... سكان تاجوراء، ثم أقلع بأسطوله صوب عاصمته[١].

١٥ . اعتقال حسن بن خير الدين وإرساله إلى إسطنبول:

استمر حسن بن خير الدين في استعداداته لمهاجمة المغرب، فشرع في تكوين قادة من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالإنكشارية، الذين أحسوا بالخطر فقاموا في صيف ٦٨٦هـ ـ ١٥٦١م بإعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيداً إلى إسطنبول ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التي دفعتهم إلى هذا التصرف، متهمين حسن باشا أنه كان ينوي القضاء على الأوجاق والاعتداء على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان أرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح أحمد باشا في اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم إلى إسطنبول[٢].

١٦ . عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر:

أعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين إلى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة في أواخر سنة ٩٧٠هـ ـ ١٥٦٢م معززاً بعشرة سفن حربية ومزوداً بقوة عسكرية مسلحة[٣] قضى بعدها حسن بن خير الدين خمسة أشهر بعد عودته يهيء العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسا الكبير، وهما كل ما بقي لإسبانيا ببلاد الجزائر[٤].

خرج حسن بن خير الدين في سنة ٩٧١هـ ـ ١٥٦٣م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشاً كبيراً مؤلفاً من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية

---

[١] المصدر نفسه.

[٢] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٤٦.

[٣] تاريخ الجزائر العام (٣ / ٩٣).

[٤] حرب الثلاثمائة، ص: ٣٧٩.

تحت إمرة أحمد مقرن الزواوي، وإثني عشر ألف رجل من زواوة وبني عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثماني إلى مدينة مستغانم التي اتخذها قاعدة للعمليات. وفي ١٣ إبريل وصل حسن خير الدين بكامل قوته أمام مدينة وهران وضرب حصاراً حولها، وكان الإسبان مستعدين لتلقي الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم[١]، بعد أن توالت النجدات الإسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها، ومنذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، وبينهما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما اضطر حسن بن خير الدين إلى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التي اتخذت من مالطة مركزاً لتجمعها[٢]، وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثاني كان قد وضع برنامجاً طموحاً للأسطول الإسباني، والبناء البحري في ترسانات إيطاليا وقطالونيا، كما وردت لخزانة إسبانيا إعانة من البابوية وإجتمعت سلطة قشتالة التشريعية في جلسة غير عادية، وأقرت وجوب إمداد إسبانيا بمعونات مالية، لتساندها في حربها مع العثمانيين، وكانت ثمرة تلك المجهودات إعادة التنظيم لهيكل إسبانيا وهزيمة العثمانيين في وهران سنة ٩٧١هـ - ١٥٦٣م.

بدأ فيليب الثاني يستعد لاحتلال جزيرة باديس وتشجع بذلك النصر الذي حققه في وهران، ووجه لذلك أسطولاً في نفس السنة ٩٧١هـ - ١٥٦٣م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة، اضطر الأسطول إلى التراجع[٣] والجدير بالذكر أن جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق، وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناءً هامّاً[٤]، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضي الإسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذا ما دفع الإسبانيين للهجوم

---

[١] حرب الثلاثمائة، ص: ٣٧٩.

[٢] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ٢١٣.

[٣] جهود العثمانيين، ص: ٣٨٩.

[٤] تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص: ٣٦.

عليها من خلال محاولتهم السابقة، كما كانت جزيرة باديس بالإضافة إلى ذلك مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدي الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثماني من تلك الجزيرة إلى المغرب، فاتفق مع الإسبان أن يخلي لهم الإدالة من حجرة باديس ويبيع لهم البلاد ويخليها من المسلمين، وينقطع أسطول العثمانيين في تلك الناحية[١]، مقابل الدفاع عن شواطىء المغرب إذ هاجمها الأسطول العثماني الذي علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع إلى الجزائر[٢]، كما عزل بو يحيى رايس من منصبه في باديس في أواخر عام ٩٧١هـ . ١٥٦٣م، وانصرف العثمانيون عن الحرب في غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الأسطول الحربي إلى جزير مالطة في الشرق[٣].

١٧ . الصراع على مالطة:

كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة التي كانت أكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، والتي سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثماني أسطوله بقيادة بيالي باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربة، وحسن بن خير الدين أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة في عملية مالطة وإخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل الإسلامية بعد ذلك، فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل، ووصل الأسطول الإسلامي أمام مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقاً شديداً إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، برفقة أسطول تعداده ٢٨ سفينة حربية تحمل عدداً

---

[١] تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص: ٨٩.

[٢] تاريخ المغرب لمحمد بن عبود، ص: ١٧.

[٣] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ١٩٠ . ١٩١.

كبيراً من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الأسطول الإسلامي من الانسحاب في ١٨ ربيع الأول ٩٧٣هـ ـ ٨ ديسمبر ١٥٦٥م[١].

١٨ ـ حسن بن خير الدين بربروسة القائد العام للأسطول العثماني:

خلف السلطان سليمان القانوني السلطان سليماً الثاني، الذي أسند منصب القائد العام للأسطول العثماني إلى حسن بن خير الدين، فترك الجزائر متوجهاً إلى إسطنبول سنة ٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م[٢]، وتولى منصب بيلربي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس، في ذي الحجة ٩٧٤هـ ـ يونيو ١٥٦٧م، وصادف في تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، صحبها تمرد الجند العثماني وأضرب الشعب، فاضطر إلى صرف وقته في مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأت محمد بن صالح رايس ثورة عامل قسطنطينية المتأثرة بولاة تونس الحفصيين فعزله البيلربي وقضى على ثورته، وولى على قسطنطينية القائد رمضان بن تشولاق، وفي ربيع الأول سنة ٩٧٥هـ ـ سبتمبر ١٥٦٧م، هاجم الإسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم، ثم لم تطل ولاية محمد بن صالح رايس، إذ تعيّن نقله إلى ولاية أخرى في أنحاء الدولة[٣].

السادس عشر: قلج على تولى بيلربك الجزائر

أسند منصب بيلربك الجزائر إلى قلج علي في ١٤ صفر سنة ٩٧٦هـ ـ الموافق أغسطس ١٥٦٨م وعرف عنه العزم في تسيير الإدارة والبطولة الحربية والشجاعة[٤].

---

[١] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٨٣.

[٢] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٨٥.

[٣] تاريخ الجزائر العام (٣ / ٩٤ ، ٩٥).

[٤] المصدر السابق نفسه (٣/٩٥)

اتخذ قلج علي خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية وهو إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا وتحرير الشمال الأفريقي من الجيوب الصليبية، فوجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره وصار بعده مبعث قلق ورهبة للأوروبيين[١]، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة[٢].

١ . إعادة تونس للحكم العثماني:

صمم قلج علي على ضرورة تصفية القواعد الإسبانية في تونس، قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجزيرة الأيبيرية[٣]، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر، وكان الإسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر[٤]، لذلك لابد من تأمينها.

كان قلج علي على اتصال بالوزير الحفصي أبي الطيب الخضار، ورأى ذلك الوزير أن فتح تونس قد حان وقته، وأرسل إلى قلج علي يهون عليه أمرها ويتعهد له بتقديم العون[٥].

جهز بيلربك الجزائر قلج علي جيشاً مؤلفاً من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس، فقابل سلطانها أبا العباس أحمد بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصي وتقدم قلج علي بمجموعة نحو تونس وأخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثاني.

ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد إلى مقره بالجزائر[٦]، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الإسبان، وكانت قوات قلج علي لا تكفي وحدها لتطهير البلاد

---

[١] تاريخ أفريقيا الشمالية، شارل جوليان (٣/ ٣٤٦).

[٢] المغرب العربي الكبير، شوقي الجمل، ص: ١٠٠.

[٣] المغرب العربي الكبير، جلال يحيى، ص: ٨٤.

[٤] الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، عزيز سامح، ص: ٨٤.

[٥] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٤٩.

[٦] تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٦).

من الاحتلال الإسباني، لذا فإنه كتب إلى إسطنبول يطلب مده بقوة تكفي لتحرير الموقع[1]، وكان اهتمام قلج علي بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون أسلافه، فكان يرى أنه لابد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس، بعد أن يكون قد أضعف التواجد الإسباني في الشمال الأفريقي[2].

٢. ثورة مسلمي الأندلس:

كانت حركة الجهاد في الشمال الأفريقي قد شجعت مسلمي الأندلس وفجرت طاقاتهم الكامنة وجعلتهم يتغلبون على الحواجز النفسية التي بنيت في نفوسهم على مر السنين. وسادت الأقاليم الإسبانية موجة من الظلم والإرهاب والفظائع، فهذه الحالة المربكة وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمي إسبانيا في الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المنتصرين ظاهرياً، يتأهبون للانقضاض على الحكم الإسباني[3].

سادت إسبانيا إرهاصات ثورة المسلمين في غرناطة، فشكل الملك الإسباني فيليب الثاني نوعاً جديداً من الميلشيات تقيم في كل مدينة من مدن إسبانيا لمواجهة الثورة بين الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم في الولاء لسيادة الأمير السعدي، كما تلقى مسلمو الأندلس مساعدات عثمانية[4]، أصبح الموقف صعباً بالنسبة لإسبانيا خاصة غرناطة، ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة في أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة، خاصة الشواطئ الجنوبية موقع المجاهدين.

---

[1] الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص: ٨٥.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٣٩٥.

[3] حرب الثلاثمائة، ص: ٣٩٢.

[4] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ١٧٩ ـ ٢٠٤.

بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمي الأندلس وتحويلهم للمسيحية لجأوا إلى العنف فحرموا على المسلمين التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين في الشمال الأفريقي وفي بعض أقاليم إسبانيا، كما حرموا على النساء الخروج إلى الشوارع متحجبات وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك فجر الثورة وقاد مسلمي الأندلس إلى حرب البورشارات التي هي أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة كانت هذه الحرب في عام ١٥٦٨م وتزعمها محمد بن أمية[١].

٣. خيانة السلطان السعدي الغالب بالله لمسلمي الأندلس:

بذل السلطان السعدي الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثوار البورشارات ووعدهم بالنصر وتقديم كل ما يحتاجونه من عتاد وسلاح ورجال.. لكن استمر الغالب بالله محافظاً على روابطه الودية مع فيليب الثاني، وعمل على خذلان أهل الأندلس:" وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه ذرة من الإيمان، وأدنى مملكة من الإسلام وذلك أنه لما احتوى عليهم النصراني، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه، بقي المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهروهم بكثرة المكس، فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم يناشدونه الله في الإغاثة. وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله لأنه هو القريب إلى أراضيهم، زمان قد قوي سلطانه وصحت اركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشاً منه بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم ويظهروا فعلهم، فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة وكذب عليهم وغشاً منه لهم ولدين الله جلّ وعلا ومصلحة لملكه الزائل، وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات،

---

[١] محنة المورسيكوس في إسبانيا لمحمد قشتيليو، ص: ٣٣ ـ ٣٥.

وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في صالح ملكه"[1].

تسارعت الأحداث في إسبانيا، وبلغ عدد المجاهدين في أوائل سنة ٩٧٦هـ. ١٥٦٩م أكثر من مائة وخمسين ألف، وصادف تلك الثورة صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الإسبانية، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البابا في الأراضي المنخفضة وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين في الجزائر[2].

٤. قلج علي يقف موقف الأبطال مع مسلمي الأندلس:

كان قلج علي على اتصال مباشر بقيادة مسلمي الأندلس عبر قنوات خاصة أشرف عليه جهاز الاستخبارات العثمانية، واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار في إسبانيا بالرجال والأسلحة والعتاد، وتم الاتفاق مع مسلمي الأندلس على القيام بثورة عارمة في الوقت الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الإسباني[3].

جمع قلج علي جيشاً عظيماً قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستين ألفاً من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد، وأرسلهم إلى مدينتي مستغانم ومازغران استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدد كبير من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق.

وفي اليوم المتفق عليه وصلت أربعون سفينة من الأسطول العثماني أمام مرسى المرية الإسباني، لشد أزر الثورة ساعة نشوبها لكن المخطط أخفق، وذلك بسبب سوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين إذ إنكشف أمره فداهمه الإسبان وضبطوا ما كان يخفيه من

---

[1] مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية، ص: ٣٧ . ٣٨.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٣٩٨.

[3] الدولة العثماني دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩٢٦).

سلاح[1]، بعد أن نجح قلج علي في إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الإسباني[2]، لم تقع الثورة في الموعد المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الإسبان[3].

لقد قام قلج علي في شعبان سنة ٩٧٦هـ ـ يناير سنة ١٥٦٩م ببعث أسطول الجزائر لتأييد الثائرين في محاولتهم الأولى، وحاول إنزال الجند العثماني في الأماكن المتفق عليها، لكن الإسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط، فصدوا قلج علي عن النزول وكانت الثورة في عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية في البحر، فالأسطول الجزائري صار يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب، إلا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من إنزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدون[4].

استمر قلج علي في إمداد مسلمي الأندلس رغم الكارثة التي حلت بقواته، وتمكن ذلك المجاهد الفذ من إنزال أربعة آالاف مجاهد من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين، للعمل في مراكز قيادة جهاد مسلمي الأندلس[5].

وعاد العثمانيون فأرسلوا دعماً جديداً من الرجال والسلاح وإعانة للثورة الأندلسية، فصدرت الأوامر إلى قلج علي بذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧هـ ـ ٣١ مارس ١٥٧٠م: "..عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار غير جائزة .." وكان القائد المجاهد قلج علي قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك، لكن ما شاع عن تجمع

---

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

[2] الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩٢٦).

[3] جهود العثمانيين، ص: ٣٩٩.

[4] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٣.

[5] المصدر نفسه، ص: ٣٩٤.

الأسطول الصليبي للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين وأمر السلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة جعله مضطراً للبقاء في الجزائر منتظراً لأوامر إسطنبول[1].

وفي غمرة الثورة الأندلسية اتهم زعيم الثورة ابن أمية بالتقاعس عن الجهاد وهاجمه المتآمرون وقتل في منزله، واختير مولاي عبد الله بن محمد بن عبو بدلاً منه، وبعث قلج علي تعزيزات له ونجح الزعيم الجديد في حملاته الأولى ضد النصارى الإسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه.

انزعجت الحكومة الإسبانية لهذه التطورات وعينت دون جوان النمساوي على قيادة الأسطول الإسباني "وهو ابن غير شرعي للإمبراطور شارل" فباشر قمع الثورة في سنواتها ٩٧٧هـ . ٩٧٨هـ / ١٥٦٩م . ١٥٧٠م، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوادة. وانتهى الأمر بإذعان مسلمي الأندلس لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاي عبد الله أن أعاد الكرة فاحتال الإسبان عليه، حتى قتلوه غيلة ونصبوا رأسه فوق أحد أبواب غرناطة زمناً طويلاً[2].

٥. المتوكل على الله بن عبد الله الغالب السعدي:

تولى أمر السعديين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذي كان يضمر الشر لعميه عبد الملك ابي مروان وأحمد المنصور، فخرجا من المغرب واتجها إلى السلطان العثماني ليستنجدوا به[3]، وما من شك في أن انتصار العثمانيين في تونس ضد الإسبان واستتباب الأمر فيها قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربي،

---

[1] جهود العثمانيين، ص: ٤٠٠.

[2] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٥.

[3] الحروب الصليبية في المشرق العربي لمحمد العمروسي، ص: ٢٦٥.

لبسط نفوذه على البلاد، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للدولة العثمانية، ويوطد أقدام العثمانيين في مجموع الشمال الأفريقي، علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب في قلوب الإسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في إسطنبول[١]، تابع المتوكل على الله خطة والده في التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين، حيث لم يعد لديه شك في أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية، فعقد اتفاقاً مع إنجلترا، التي كانت ترغب في تجارتها مع المغرب للفوائد التي تعود على التجار الإنجليز من وراء ذلك زيادة على أنها تدرك الأهمية العظمى التي للمغرب خصوصاً وقد كانت إنجلترا في حالة حرب ضد إسبانيا[٢]، وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الإنجليز، يعد العمل الوحيد الذي قام به خلال حكمه القصير، وقد فعل ذلك باعتبار الإنجليز كانوا من بين التجار الأجانب الذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر وأسلحة للمغاربة منذ زمن بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل في هذا الوقت إلى السلاح لصد الخطر العثماني ولمقاومة عمه المطالب بالعرش.

وجدت الدولة العثمانية في انشغال ملك إسبانيا فيليب الثاني بأحداث أوروبا الغربية حيث ثورة الأراضي المنخفضة، فرصة مناسبة للتدخل في المغرب[٣]، فأمدوا المولى عبد الملك بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأحسن الأسلحة ودخل المولى عبد الملك فاس بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً على ابن أخيه المتوكل وعاد الجيش أدراجه إلى الجزائر[٤].

٦. وقام عبد الملك بإصلاحات في دولته من أهمها:

١ ـ أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٣٦٨.

[٢] بداية الحكم المغربي في السودان، ص: ٩٤.

[٣] المغرب في عهد الدولة السعدية عبد الكريم كريم، ص: ٩٧ ، ٩٩.

[٤] بداية الحكم المغربي في السودان، ص: ٩٤.

٢. اهتم بالتجارة البحرية وكانت الأموال التي غنمها من حروبه على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

٣. أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

٤. استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

٥. فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوروبيين احترموه وأجلّوه. قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بين المعاصر لأحداث هذه الفترة: "كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمنية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذه أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل فأحرى للملك"[١].

٦. اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية وأحوال السكان عامة، وعلى دراية بالسياسة الدولية وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية، وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة[٢]، وقد حقق انتصار كبير واستشهد في معركة وادي المخازن التي تحدثنا عنها.

٧. اقتراح عثماني على السعديين:

بدأت القوات الإسبانية في اكتساح الأراضي البرتغالية، ولم يستطع الأمير البرتغالي دون أنطونيو مقاومة تلك القوات الإسبانية التي ضمت أراضيه لسنة ٩٨٨هـ - ١٥٨٠م عند ذلك اقترح السلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكري ضد الإسبان على أساس إمداده بأسطول حربي وقوات عسكرية فبعث في رجب ٩٨٨هـ - سبتمبر ١٥٨٠م رسالة

---

[١] وادي المخازن، ص: ٣٧.

[٢] المصدر السابق، ص: ٣٩ ، ٤٠.

قال فيها: ".. فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الحقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وأنه احتوى على سلطنة برتغالي أو كاد، وأنه جعل أهلها في الأغلال والأصفاد وأنه لكم جار وعدو مضرار حرّكتنا الحمية الإسلامية لإظهار الألفة الأزلية، أن تتخذ عهداً وتؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة.. فإذا تم هذا الشأن نوجه لكم ثلاثمائة غراباً سلطانية وجيش عز ونصر وكماه عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس..".

كان قلج علي بعد استقرار الدولة العثمانية في تونس بدأت أنظاره تتطلع إلى المغرب[1]، وأخذ يعمل في توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي لضمه إلى الدولة، العثمانية[2]، خاصة بعد تذبذب موقف المولى أحمد المنصور الأخير من الدولة صدرت الأوامر إلى قلج علي قائد الأسطول العثماني بالتوجه إلى المغرب لضمه للدولة العثمانية، فوصل قلج علي إلى الجزائر في جمادي الثانية ٩٨٩هـ - يونيو ١٥٨١م بينما كان المنصور يرابط عند نهر تانسيفت، وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثماني، إذ جهز جنوده وتقدم بها حتى حدود بلاده، كما سد مدخل مملكته وحصن الثغور، وإلى جانب تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لإسطنبول وذلك بعد أن توصل إلى شبه اتفاق عسكري مع الملك الإسباني الذي انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة في ٢٧ جمادي الثانية ٩٨٩هـ - ٣١ يوليو ١٥٨١م، على أساس تقديم المساعدة العسكرية للمغرب لمواجهة التدخل العثماني مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات أخرى، وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثماني بداً من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن أمر قلج علي[3] وجعفر باشا نائب قلج علي في الجزائر بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال إلى الشرق حيث اضطربت الأمور بالحجاز

[1] تاريخ الجزائر الحديث محمد خير فارس، ص: ٥٢.

[2] تاريخ الجزائر الحديث للجيلاني، ص: ١٠١.

[3] المغرب في عهد الدولة السعدية، ص: ١١٢.

فتخلى قلج علي عن هدفه الطموح في استرداد الأندلس بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الإسلامي[١].

تردد السفراء بين الأستانة وفاس فتوجّهت سفارات أحمد بن ودة والشاظمي وأبي الحسن علي بن محمد التمكروتي بين عامي ٩٧٩هـ ـ ١٥٨٨م / ٩٩٩هـ ـ ١٥٩٠م، واستقبل أحمد المنصور سفيراً عثمانياً في ٩٩٨هـ ـ ١٥٨٩م[٢].لم تتحقق رغبة السلطان العثماني في التحالف مع السعديين لاسترداد الأندلس، وذلك بسبب انشغال الدول بحروبها المضنية ضد الشيعة الصفوية في إيران والهابسبرج في وسط أوروبا، بالإضافة إلى واجبها نحو حماية مقدسات الأمة الإسلامية في الحجاز وتدعيم حزامه الأمني[٣].

٨. جهاد الوالي الجزائري وتغير الأوضاع:

جهز الوالي العثماني في الجزائر أسطوله في سنة ٩٩٠هـ ـ ١٥٨٢م لمحاربة إسبانيا فوق أرضها، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة فأعملوا فيها تدميراً ثم عبروا مضيق جبل طارق، وهاجموا جزر الكناري التي تحتلها إسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا ما فيها، ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرد التنكيل بالإسبانيين ولتدمير منشآتهم بل كان بالدرجة الأولى لإنقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم أحياناً[٤].

ازداد تطاول الإنكشارية في الجزائر على الأهالي في الوقت الذي انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحري على نطاق واسع[٥]، لذلك حضر حسن فنزيانو من نشاطه البحري الذي بادر إلى عودته إلى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود، فانتصب على الجزائر للمرة الثانية وفرض طاعته على الرعية وذلك في ربيع الثاني سنة

---

[١] تاريخ الجزائر للجيلاني، ص: ١٠١.

[٢] بداية الحكم المغربي بالسودان، ص: ٩٧.

[٣] جهود العثمانيين، ص: ٥٣٢.

[٤] الجزائر والحملات الصليبية، ص: ٥٩.

[٥] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥٩.

٩٩١هـ. أبريل ١٥٨٣م ولم يعارض الباب العالي في توليه لما كان له من العقل في حسم الخلاف وإطفاء نار الفتن واستتباب الأمن بالجزائر، باشر حسن فنزيانو تسيير الإدارة بما عهد منه من نشاط وحزم فإنه لم يترك قيادة الأسطول العثماني بالجزائر لغيره، وكثرت في أيامه المغانم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الإسبانية والجزر الشرقية من نفائس، وبما كان يستولى عليه من الأسرى والمغانم في غزواته.

وفي ٩٩٢هـ. ١٥٨٤م أبحر حسن فنزيانو بأسطوله على ثغر بلنسية، وحمل أعداداً كبيرة من مسلمي الأندلس إذ أنقذهم من اضطهاد الإسبان، كما استطاع في السنة التالية إنقاذ جميع سكان كالوسا، إذ حملهم إلى الجزائر، وفي السنة التي بعدها توغل مراد رايس في المحيط الأطلسي فأغار على جزر الكناري وغنم منها غنائم كثيرة بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر، وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر إلى أن استدعاه السلطان في إسطنبول ليتولى منصب إمارة البحر "قبودان دوريا"[1] وذلك بعد وفاة قلج علي سنة ٩٩٥هـ. ١٥٨٧م.

٩. انتهاء نظام البيلربك في الجزائر:

بوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظم البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السلطة والنفوذ، واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك مثل

تونس وطرابلس[2]، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

وكان الباشا موظفاً ترسله الأستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند أساسي أو سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد[3]، ويكون الباشا

[1] تاريخ الجزائر العام للجيلاني (٣/ ١٠٢ ، ١٠٣).

[2] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٤١٠.

[3] المغرب العربي للعقاد، ص: ٢٨.

في كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلاً للسطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة إسطنبول.

كانت أحداث ما بعد ٩٩٧هـ ـ ١٥٨٨م في النيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطنة فيها على حساب سلطة الباشا، إلا أن طبيعة علاقات السلطة في داخل الولاية مع إمساك السلطنة العثمانية بسلطة إصدار الغرامات، قد ضمنا تحقيق الأهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الأموال سنوياً والمساهمة في حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الاستانة ممثلاً أعلى للسلطان في حكم النيابة وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية[١].

كان ذلك هو التحول الذي جرى في الدولة نحو الشمال الأفريقي إثر معركة ليبانتو سنة ٩٧٨هـ ـ ١٥٧١م، فبعد أن كان الشمال الأفريقي تحت مسؤولية البيلربك الموجود في الجزائر، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات هي: طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات العثمانية الأخرى، لقد كان موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الإنكشاريين من جهة وجبهات المشرق من جهة وغير ذلك من الأسباب أضعف همة الدولة في إرجاع الأندلس.

لقد حالت عدة أسباب دون ضم المغرب الأقصى للدولة العثمانية منها:

١. ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ونعني به المنصور السعدي.

٢. وفاة قلج علي في ١٥٨٧م ومن بعده أدخل الشمال الأفريقي في نظام الولايات.

٣. كان النصر الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سبباً في تقدير السلطات العثمانية للسعديين واحترامهم[٢].

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٤٧٧.

[٢] الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز سليمان، ص: ١٢٣.

لقد كانت الدولة العثمانية في جهودها البحرية في البحر المتوسط أكثر توفيقاً من البحر الأحمر والمحيطات لعدة أسباب منها:

١. قرب الشمال الأفريقي من كل من إسطنبول ومصر يجعل الإمدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لا تصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.

٢. كانت للعثمانيين قواعد قوية في شمال أفريقية تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية في محاربة النصارى، وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.

٣. لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة في شمال أفريقية بل كانت الهيمنة للمذهب السني الذي استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها[١].

١٠. بداية إضمحلال الدولة العثمانية:

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م، وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان، إذ وقع السلطان تحت تأثير زوجته روكسلانا التي تدخلت للتآمر ضد الأمير مصطفى ليتولى ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه، وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، مما أدى إلى سخط الإنكشارية ونشوب ثورة كبرى ضد السلطان وأخمدها السلطان سليمان، وبذلك تم القضاء على مصطفى وابنه الرضيع وكذلك قتل السلطان ابنه بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسة من أحد الوزراء[٢]. ومن مظاهر الضعف في عهد سليمان بدء انسحاب السلطان من جلسات الديوان، وبروز سطوة الحريم والعجز

---

[١] الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز سليمان، ص: ١٢٤.

[٢] أصول التاريخ العثماني، ص: ١٠٢.

عن مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى نشوب القلاقل الشعبية في الروميلي والأناضول[١].

١١. السلطان سليم الثاني:

تولى الحكم في ٩ ربيع الأول سنة ٩٧٤هـ، ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان، ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقللي[٢] لأنهارت الدولة، إذ قام بإعادة هيبتها وزرع الرهبة في قلوب أعدائها وعقد صلحاً مع النمسا وأتم توقيع معاهدة في عام ٩٧٥هـ الموافق ١٥٦٧م احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها في بلاد المجر، ودفعت الجزية السنوية المقررة سابقاً للدولة كما اعترف أمراء تراسلفانيا والأفلاق والبغدان[٣].

أ. تجدد الهدنة مع شارل التاسع ملك فرنسا:

تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وشارل التاسع ملك فرنسا في عام ٩٨٠هـ الموافق ١٥٦٩م كما زادت الامتيازات القنصلية الفرنسية وجرى تعيين هنري دي فالوا ـ وهو ملك فرنسا ـ ملكاً على بولونيا باتفاق مع فرنسا التي أصبحت بذلك ملكة التجارة البحر المتوسط. وطبقاً للمعاهدات السابقة فقد قامت تلك الدولة ـ أي فرنسا ـ بإرسال البعثات الدينية النصرانية إلى كافة أرجاء البلاد العثمانية التي يسكنها نصارى وخاصة بلاد الشام وقامت بزرع محبة فرنسا في نفوس نصارى الشام، مما كان له أثر يذكر في ضعف الدولة، إذ امتد النفوذ الفرنسي بين النصارى وبالتالي ازداد العصيان وتشجعوا على الثورات، فكان من أهم نتئج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسية ولغة الأقليات النصرانية حتى إذا

---

[١] الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص: ٩٤.

[٢] تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص: ١٢٣.

[٣] المصدر السابق، ص: ١٢٤.

ضعفت الدولة العثمانية ثارت تلك الشعوب مطالبة بالاستقلال بدعم وتأييد دول أوروبا النصرانية[1].

إن اقتناع الدول الأوروبية بكون نظام الامتيازات الأجنبية حقاً من حقوق الطبيعة هو الذي دفع فرنسا لإرسال جنودها لمساعدة البندقية التي كان السلطان محمد الرابع "١٦٢٤م . ١٦٤٠م" يحاربها، كما أرسلت سفيرها برفقة عمارة بحرية لإرهاق الدولة العلية ومطالبتها بتحديد الامتيازات، لكن الصدر الأعظم حينئذ والذي كان مازال يمتلك قراره السياسي، أخبر السفير بأن المعاهدات هذه ليست اضطرارية واجبة التنفيذ ذلك لكونها منحة سلطانية فحسب، الأمر الذي جعل فرنسا تتراجع عن تهديداتها وتتحايل لدى السلطان ليوافق من جديد على تجديد نظام الامتيازات عام ١٦٧٣م، مما زاد الطين بلة، وبدلاً من أن تتعظ الدولة العثمانية مما حدث أمر السلطان محمداً الرابع "١٦٤٨م . ١٦٨٧م" بتفويض فرنسا حق حماية بيت المقدس[2] تتابع بتجديد الامتيازات، وفي كل مرة يضاف قيد جديد على السلطنة، ففي تجديد عام ١٧٤٠م أضافت السلطنة امتيازات تجارية جديدة لفرنسا، ولكن الامتيازات تعرضت لتهديد حقيقي عندما احتل نابليون بونابرت مصر، فقد أوقفت السلطنة العمل بها غير أن نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته بالسلطنة وذلك حين عرض انسحاب فرنسا من مصر لقاء تجديد الامتيازات، وقد تم ذلك بالفعل في ٩ تشرين أو أكتوبر ١٨٠١م وأضافت السلطنة امتيازاً جديداً يقضي بمنح فرنسا حرية التجارة والملاحة على البحر الأسود[3].

لقد كانت نتائج هذه الامتيازات وخيمة جداً على السطنة، ولقد بين المؤرخ اليوناني ويمتري كيتسكس :" ..أن الامتيازات حطمت اقتصاد الامبراطورية بتحطيمها النظام

[1] المصدر السابق، ص: ١٢٤.

[2] الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص: ٢٦.

[3] الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص: ٢٦.

الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الأجنبية.."[1] بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السلطنة بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين مادام الأوروبيين لا يخضعون للسلطات العثمانية، فقد أصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية[2].

الخزر "قزوين" عن طريق البحر الأسود لتمكن العثمانيين من وقف التوسع الروسي نحو الجنوب، وتطرد الفرس من القوقاز وأذربيجان بل وغزو فارس من الشمال بدلاً من مرور الجيوش العثمانية بأرض أذربيجان الوعرة، والاتصال بالازبك أعداء الصفويين وتتار القرم، ومن شأن كل ذلك أن يؤدي إلى أحياء طريق القوافل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق إلى الغرب[3].

شرع العثمانيون في تنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولجا وحل شهر جمادى الأولى ٩٧٧هـ ـ أكتوبر ١٥٦٩م حتى كان ثلث القناة قد اكتمل، ولكن موسم الشتاء قد أدى إلى إيقاف العمل، وحينئذ اقترح قائد الحملة استعمال سفن صغيرة محملة بالمدافع والذخيرة لشن الهجوم على استرخان إلا أن الحملة فشلت بسبب الظروف الطبيعية، ومع هذا استطاع صوقللي باشا أن يحقق بعض النجاحات كتشديد قبضة السلطان على أمراء مولدافيا وولاشيا وبولندا، وبذلك اعترضت الدولة العثمانية مرحلياً توسع روسيا شمال وغرب البحر الأسود[4].

ب . فتح قبرص:

---

[1] المصدر السابق، ص: ٢٧.

[2] الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ٧٥).

[3] فتح عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي، ص: ١٤٥.

[4] جهود العثمانيين، ص: ٤٤٧.

كانت إيطاليا وإسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص، وشاع في أوروبا عن تكون حلف ضد السلطان، ولكن لم يُعمل شيئاً في حينه لإنقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوها بقوة كاسحة نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيين بقيادة باحليون وبراجادنيو اللذين واجها القوة العثمانية التي وصلت مائة ألف مقاتل استعمل خلالها العثمانيون جميع وسائل الحصار المعروفة من فر وكر وزرع للألغام ولم ينتج أي تأثير على الحامية، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة لصار العثمانيون في خطر إلا أن المجاعة قامت بعملها واستسلمت المدينة في ربيع الثاني ٩٧٩هـ ـ أغسطس ١٥٧١م.

نقلت الدولة العثمانية بعد فتحها لقبرص عدداً كبيراً من سكان الأناضول الذين لا يزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة، رغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم.

١٢. معركة ليبانتو[١]:

ارتعدت فرائص الأمم المسيحية من الخطر الإسلامي العظيم الذي هدد القارة الأوروبية من جراء تدفق الجيوش العثمانية براً وبحراً، فأخذ البابا بيوس الخامس "١٥٦٦م ـ ١٥٧٢م" يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت راية البابوية[٢]، وقد كتب يقول :" .. إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا[٣]". عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك إسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في أوائل ٩٧٩هـ ـ مايو ١٥٧١م، تعهدوا فيها بالقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين شارك في الحلف كذلك بعض المدن الإيطالية، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف فارتبطت توسكاني وجنوة وسافوي وبعض الإيطاليين في الحلف

[١] تقع في الطرف الشمالي للفم الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٦.

[٣] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٥.

المقدس[1]، وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون: فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين، فاجابه البابا طالباً منه التحلل من مواثيقه هذه ولم تمض سوى أيام قليلة حتى نقض الإمبراطور عهوده ومواثيقه التي أبرمها مع العثمانيين واتجه نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نفير الحرب ووجد تباطؤاً عند ملك بولونيا واختير "دون جوان" النمساوي قائداً للحملة، وجاء في أحد بنود المعاهدة النصرانية :" إن البابا بيوس الخامس وفيليب ملك إسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبت من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس"[2].

سار دون جون إلى البحر الإدرياتيك حتى وصل إلى الجزء الضيق من خليج كورنث بالقرب من باتراس وليس ببعيد عن ليبانتو والتي أعطي اسمها للمعركة.

كان من رأي قادة الأسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالأسطول الصليبي، غير أن القائد العام علي باشا صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه في عدد سفنه، ونظم علي باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال إلى الجنوب، بحيث كانت ميمنتها تستند إلى مرفأ ليبانتو ومسيرتها في عرض البحر وقد قسمها علي باشا إلى جناحين وقلب فكان هو في القلب، وسيروكو في الجناح الأيمن وبقي الجناح الأيسر بقيادة قلج علي.

ومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الإسلامي ووضع جناحه الأيمن بقيادة دوريا مقابل قلج علي، وأسند قيادة جناحه الأيسر إلى بربريجو مقابل سيروكو، وجعل دون نفسه لقيادة القلب وترك أسطولاً احتياطياً بقيادة سانت كروز[3].

---

[1] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٢.

[2] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٥ ـ ١٢٦.

[3] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٦.

أ . احتدام المعركة:

احتدمت المعركة في ١٧ جمادي الأولى سنة ٩٧٩هـ . ١٧ أكتوبر ١٥٧١م، أحاط الأسطول الإسلامي بالأسطول المسيحي وأوغل العثمانيون بين سفن العدو ودارت معركة قاسية أظهر فيها الفريقان بطولة كبيرة وشجاعة نادرة[١]، وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وقيل عشرين ألفاً، وخسروا ٢٠٠ سفينة حربية منها ٩٣ غرقت والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة[٢] وأسر لهم عشرة آلاف رجل[٣]، واستطاع قلج علي إنقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها ومن بينها السفينة التي تحمل عمل البابا، ورجع بها لاسطنبول التي استقبلته استقبال الفاتحين، رغم الشعور بمرارة الهزيمة[٤]، وبادر السلطان سليم الثاني إثر ذلك بترفيع قلج علي إلى رتبة قائد البحرية العثمانية "قبودان باشا" مع الاستمرار في منصبه كبيلر بك للجزائر[٥].

ب . أثر ليبانتو على أوروبا والدولة العثمانية:

احتفلت القارة الأوروبية بنصر ليبانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين[٦]، فهلل الأوروبيون وكبروا لذلك الانتصار وأقيمت معالم الزينات في كل مكان وأفرطت في التسبيح بحمد دون جون أمير الأساطيل المتحدة الذي أحرز هذا الانتصار إلى حد أن البابا لم يتورع عن القول أثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس بمناسبة هذا النصر "إن الإنجيل قد عنى دون جون نفسه حيث بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا" وظل العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحري، حتى أن القواميس

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٤.

[٢] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٦.

[٣] المصدر السابق، ص: ١٢٦.

[٤] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٨ ، ٣٩٩.

[٥] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٤.

[٦] في أصول التاريخ العثماني، ص: ١٤٧.

المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانت إلا وتذكر معه دون جون المشار إليه على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها[1].

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأن عدوه لا يزال عظيماً مرهوب الجانب وحاول إثارة شكوك الشيعة الاثني عشرية الصفوية ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والمشكلات والاختلاف العقائدي فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم ومن جملة ما قال له: ".. لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات.."[2].

وأرسل يستعدي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته[3].

إن نتيجة معركة ليبانتو كانت مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط، ومع زوال الخطر زال الخوف الذي كان قوياً للمحافظة على حلف مقدسي دائم واستعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية[4].

إن أهمية لبيانتو كانت عظيمة وأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعاد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا وإسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لأوروبا، إذ كانت من الحقيقة "أن" القوات العثمانية هائلة في كل المجال البري والمجال البحري[5]، كما أن الانتصار المسيحي في ليبانتو ١٥٧١م كان إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوة البحرية في البحر

---

[1] فلسفة التاريخ العثماني، ص: ١٤٣.

[2] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٦.

[3] المصدر السابق، ص: ١٢٦.

[4] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٥.

[5] المصدر السابق، ص: ٤٤٥.

المتوسط، كما أنه أنهى عصراً من عصور العمليات البحرية الطموحة في البحر المتوسط والتي تكاليفها باهظة[١].

لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية[٢]، إذا كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية[٣].

١٣. ظهور أطماع فرنسا في الشمال الأفريقي:

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني ٩٨٠هـ ـ ١٥٧٢م، وذلك بواسطة سفيره بإسطنبول يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها، وأن فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به، ومع ذلك أوغلت فرنسا طموحها وألحت على طلبها وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة حتى تحصلت على امتيازات خاصة في السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائري وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية[٤].

١٤. إعادة بناء الأسطول العثماني:

أقبل القبودان باشا قلج علي بهمة ونشاط متزايد على تجديد الأسطول العثماني وتعويض ما فقد منه، وما حل صيف ٩٨٠هـ ـ ١٥٧٢م، حتى هيأ مائتين وخمسين سفينة جديدة

---

[١] المصدر السابق، ص: ٤٥٥.

[٢] بد اية الحكم المغربي في السودان، ص: ٩٤.

[٣] فلسفة التاريخ العثماني، ص: ١٤٣.

[٤] تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٧ ـ ٩٨).

وخرج قلج علي بأسطوله في البحر وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحري، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية بشروط مخزية، إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكة[1]، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التي تسبق فترة الاحتضار البحري، ذلك لأن الدولة انصرفت إلى حروب متواصلة نشبت بينها وبين النمسا وحليفتها من جهة، وبينها وبين فاس من جهة أخرى كما أنها انشغلت بإخماد الثورات الداخلية المستمرة[2].

١٥. احتلال تونس:

كان فيليب الثاني قد تشجع لاحتلال تونس بسبب لجوء السلطان الحفصي أبي العباس الثاني الذي حكم تونس ٩٤٢هـ . ٩٨٠هـ / ١٥٣٥م . ١٥٧٢م إليه وطلب منه المساعدة في إخماد الثورات بإعطائهم امتيازات كبيرة، وتتيح لهم سكن جميع أنحاء تونس، وتتنازل عن عناية وبنزرت وحلف الواد[3]، فرفض أبو العباس الشروط ولكن أخاه محمد بن الحسين قبلها[4]، بعد ذلك خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية في رجب ٩٨١هـ أكتوبر ١٥٧٣م، على رأس أسطول مكون من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرين ألف مقاتل ونزل بقلعة حلق الواد التي كانت تحتلها إسبانيا، ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج أهلها بوادي تونس فارين بدينهم من شر الإسبان[5]، كما انسحب الحاكم العثماني إلى القيروان[6]، وكانت أوروبا قد أدركت أنها تستطيع أن تقضي على الدولة ألا مجتمعة[7].

---

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٩.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٦.

[3] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ١٤٣.

[4] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٧.

[5] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٩ . ٤٠٠.

[6] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥٠.

[7] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٧.

١٦. قلج علي واستعداداته الحربية:

اهتم قلج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية الحديثة وقد لفت هذا النشاط البحري أنظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة قلج علي، حتى البابا نصح فيليب الثاني ملك إسبانيا أن يسعى لإغرائه[١]، وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف وإقطاعية من مملكة نابلس أو غيرها من ممتلكات العرش الإسباني ويتوارثها ....من بعده مع لقب كومت أو ماركيز أو دوق، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه[٢]، وكان البابا يدرك أن مثل هذه المحاولة إن لم تنجح فيها على الأقل ستثير شكوك السلطان على قلج علي وهو الشخص الوحيد القادر على.....أمور السلطنة، ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة أنها أثارت غضب قلج علي بدلاً من أن تقربه[٣]، وأنه لا يمكن شراء أمانة المسلم المجاهد إذ إن وجوده في خارج الدولة إنما كان يعني أنه وهب نفسه لسبيل الله، وهذا ما سارت عليه الدولة في سياستها في جميع فتوحاتها، ولعل ذلك كان سبباً مباشراً في سرعة الفتح ونجاحه في كل الأقاليم والميادين التي طرقتها الدولة، وكان العثماني في أي موقع يخدم الدولة بكل إخلاص وما خدمته تلك إلا خدمة للإسلام[٤].

١٧. السلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس:

أصدر السلطان سليم الثاني أوامره إلى وزيره سنان باشا وقبودانه قلج علي بالاستعداد للتوجه إلى تونس لفتحها نهائياً وإعادة نفوذ الدولة العثمانية إليها كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة والمؤن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الأحجام، كما أكد على المكلفين بالخدمة في الأناضولي

---

[١] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥١.

[٢] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ٢٨٠.

[٣] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥١.

[٤] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٨.

والروم يلي بالاشتراك في السفر بحراً، كما أحضر المجدفين اللازمين للأسطول، وأنذر من لا يحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على أن لا يسند إليهم في المستقبل أي عمل، وبينما كان الأسطول يتأهب أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس والذي انسحب للقيروان في حشد المجاهدين من الأهالي الذين التفوا حوله[١].

أبحر الأسطول بقيادة سنان باشا وقلج علي في ٢٣ محرم ٩٨٢هـ ـ ١٤ مايو ١٥٧٤م، فخرج من المضايق ونشر أشرعته في البحر الأبيض، فقاموا بضرب ساحل كالابريا مسينا واستطاع العثمانيون أن يستولوا على سفينة مسيحية، ومن هناك قطعوا عرض البحر في خمسة أيام[٢]. في هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا كما وصل ثمة متطوعين من مصر[٣].

بدأ القتال في ربيع سنة ٩٨١هـ ـ ١٥٧٤م، ونجح العثمانيون في الاستيلاء على حلق الواد بعد أن حوصروا حصاراً محكماً[٤]، وقامت قوات أخرى بمحاصرة مدينة تونس، ففر الإسبان الموجودون فيها ومعهم الملك الحفصي محمد بن الحسن إلى البستيون[٥] التي بالغ الإسبان في تحصينها وجعلوها من أمنع الحصون في الشمال الأفريقي.

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم إلى حصار البستيون وضيق العثمانيون الخناق على أهلها من كل ناحية، وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى أنه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من في البستيون، كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود، فعرفه أحد أمراء الجنود فقال له: ما هذا أيها الوزير؟ نحن إلى رأيك

---

[١] الأتراك العثمانيين في أفريقيا الشمالية، ص: ٢٥١.

[٢] المصدر السابق، ص: ٢٥٠.

[٣] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٤٠٠.

[٤] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥١.

[٥] البستيون : قلعة بناها الإسبان بجانب تونس.

أحوج منا إلى جسمك، فقال له سنان: لا تحرمني من الثواب. وشدد سنان باشا في حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه[1].

لجأ الحفصيون إلى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك إسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم، واتخذهم الإسبان آلات طيعة تخدم بها مربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم وقضى سقوط تونس على الآمال الإسبانية في أفريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير، وتبدد حلم الإسبان نحو إقامة دولة إسبانية في شمال أفريقيا وضاع بين الرمال[2].

١٨. دفاع عن السلطان سليم ووفاته رحمه الله:

وصف المستشرق كارل بروكلمان[3] السلطان سليماً الثاني بأنه اشتهر باسم السكير، وبارتكابه المعاصي والذنوب والكبائر وبمصاحبته صحبة السوء والفسق والعصيان، وتأثر بهذه التهم الدكتور عبد العزيز الشناوي[4] رحمه الله ورد الدكتور جمال عبد الهادي على هذه الاتهامات فقال:

١. شهادة الكافر على المسلم مردودة، فكيف يسمح الكتاب من أبناء المسلمين لأنفسهم بترديد مثل هذه الشهادات والافتراءات على الحكام المسلمين بدون دليل، ألم يتعلموا في مدرسة الإسلام، قال تعالى :" لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا" (النور، آية : ١٢).

ويقول سبحانه :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا" (الحجرات، آية : ٦).

---

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٤٠١.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٤٦٠.

[3] الأتراك العثمانيون، كارل بروكلمان (٣/ ١٣٧).

[4] الدولة العثمانية دولة مفترى عليها (١/ ٦٧٢).

٢. إن المستشرقين ومن سار على نهجهم دأبوا على تصوير الحكام المسلمين المجاهدين بصورة السكارى الذين لا يتورعون عن ارتكاب المحرمات بل دأبوا على النيل من دين الله، والأنبياء والرسل عليهم السلام فكيف نأخذ عنهم مع علمنا بأنهم غير أمناء[1].

ثم ذكر أهم أعمال السلطان سليم الثاني التي تدل على نفي التهم التي ألصقت به وتقدم بنصيحة إلى أساتذة التاريخ الذين لا يتحرون الصدق والأمانة العلمية فقال:" نصيحة إلى أولئك الذين لا يتحرون الحقيقة ويرمون الناس في دينهم وخلقهم دون بينة أو دليل أن يتبينوا وليضعوا في الاعتبار أن القذف جريمة، وعليه تقام الحدود، آمل أن ينتبه أساتذة التاريخ ويتورعوا عن إيراد أي شبهة أو تهمة تتصل بأي شخص دون دليل أو بينة.

وليضعوا في الاعتبار أن الله يزن الحسنات، ويزن السيئات ولا يزن السيئات فقط دون الحسنات، والمؤرخ يجب أن يستشعر هذا ويدرك أن الكلمة أمانة وهي شهادة أمام الله، ومن هنا يلزمه التأكد من الخبر قبل أن يورده في كتابه"[2].

إن الدارس لتاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني يدرك مدى القوة والهيمنة التي كانت عليها الدلوة. طلب نائب البندقية الصليبية في إسطنبول ـ في أعقاب معركة ليبانتو وتحطم الأسطول العثماني ـ مقابلة الصدر الأعظم محمد صوقلو باشا، ليسبر غوره ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً: "إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى اين هي، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا، إن استيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا، وإن اللحية لتنمو بسرعة وكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما في الوجه لأول مرة"[3]، وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفوري الجاد، وإنصافاً للسلطان سليم الثاني فإنه قد

---

[1] أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ص: ٦٤.

[2] أخطاء في التاريخ يجب أن تصحح، جمال عبد الهادي، ص: ٦٥.

[3] الدولة العثمانية دولة إسلامية (١/ ٦٧٨).

أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني، فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبنى فيه أحواض السفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة، واستطاع الأسطول الجديد أن يعاود جولاته في البحر المتوسط[1].

إن هذا الموقف يؤكد أن الإدارة القوية ليست مجرد حماس وإنما لابد وأن يقترن ذلك بالعمل الجاد الذي أثمر إعادة بناء الأسطول في فترة وجيزة وفي هذا دليل أيضاً على الرخاء الذي كانت تعيش فيه الأمة، ما فرضت الضرائب وما صودرت أموال ولا قالوا موتوا جوعاً لأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة، لقد أنفق السلطان سليم من ماله ومال أسرته لأنه تعلم من مدرسة الإسلام[2]، قال تعالى :" وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ" (الأنفال، آية : ٦٠).

إن مؤرخي الغرب ذكروا أن سبب وفاة السلطان سليم الثاني الإفراط الشديد في تناول الخمر، إلا أن المؤرخين المسلمين يذكرون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطة عظيمة مرض منها أياماً ثم توفي عام ٩٨٢هـ[3].

السابع عشر: مراحل الحكم العثماني في الجزائر

مراحل الحكم العثماني بالجزائر قد مرت بأربع فترات مختلفة وكل مرحلة تميزت بأسلوب معين في تسيير شؤون البلاد. وتتمثل هذه المراحل أو العصور فيما يلي:

١. عصر الباي لاربايات ١٥١٤ . ١٥٨٧م "٩٢٠ . ٩٩٥هـ".

٢. عصر الباشوات: ١٥٨٧ . ١٦٥٩م "٩٩٥ . ١٠٦٥هـ".

٣. عصر الأغاوات: ١٦٥٩ . ١٦٧١م "١٠٦٥ . ١٠٨١هـ".

---

[1] المصدر السابق (١/ ٦٧٧ ، ٦٧٨).

[2] الدولة العثمانية، جمال عبد الهادي، ص: ٦٦.

[3] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٨.

٤. عصر الدايات: ١٦٧١ . ١٨٣٠م "١٠٨١ . ١٢٤٦هـ".

١. عصر الباي لاربايات "أمير الأمراء" ١٥١٤ . ١٥٨٧م:

يمثل هذا العصر أزهى عصور الحكم التركي في الجزائر حيث ازدهرت البلاد في هذه الفترة من النواحي التعليمية والاقتصادية والعمرانية وذلك بفضل التعاون بين فئة "الرياس" في القيادة وأبناء الجزائر. وقد ساهم في تنمية البلاد وازدهارها مهاجرو الأندلس الذين وظفوا خبراتهم ومهاراتهم في ترقية المهن والبناء العمراني وتقوية الاقتصاد الجزائري. وقد تميزت هذه الفترة من تارخ الجزائر بحقائق يمكن أن نوجزها فيما يلي:

١. دام عهد الباي لاربايات مدة ٧٠ سنة.

٢. يأتي قرار تعيين الحاكم في الجزائر من طرف السلطان العثماني.

٣. كانت السلطة في يد رياس البحر أو جنود البحرية[١].

٤. تحرير برج فنار عام ١٥٢٩م من الإسبان وتحرير بجاية من الاحتلال الغسباني عام ١٥٥٥م وإنهاء الوجود الإسباني في تونس عام ١٥٧٤م.

٥. إزدهرت الجزائر في هذه الفترة التي تميزت الحياة السياسية فيها بالاستقرار وتحالف الجميع ضد العدو الإسباني.

٢. عصر الباشوات ١٥٨٧ . ١٦٥٩م:

تعتبر هذه الفترة مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر وذلك لأن السلطان العثماني أراد أن يخفف حدة النزاع بين فئة الرياس وفئة اليولداش وخاصة أن الفئة الأخيرة كانت مستاءة من تمتع فئة الرياس أو جنود البحرية بلقب الباي لاربايات أو أمير الأمراء، ولذلك قرر السلطان العثماني إلغاء هذه الرتبة وتعويضها برتبة أخرى هي رتبة الباشا، ونتيجة لهذا التغيير أصبح السلطان العثماني يقوم بتعيين باشا لمدة ٣ سنوات يقوم بإرساله من تركيا ويستدعيه بعد إنتهاء فترة تعيينه، على أن يقوم بإرسال باشا آخر من هناك لكن المشكل

---

[١] أنظر كتاب التاريخ السياسي للجزائر، د. عمار أبو حوش، ص: ٥٧ . ٨٠.

هو أن كل باشا معين في الجزائر لمدة قصيرة لا تتجاوز ٣ سنوات كان ينصرف إلى السلب والنهب وجمع الثروة قبل عودته إلى القسطنطينية، وهذا ما دفع باليولداش أو رجال الجيش البري أن يثوروا على الباشوات ويضعفوا نظام الحكم في الجزائر.

وبإختصار فإن هذه المرحلة من تاريخ الجزائر قد تميزت بما يلي:

١. تعيين باشا تركي في كل من الجزائر وتونس وطرابلس بعد أن كان هناك حاكم واحد للمنطقة يوجد مقر حكمه بالجزائر.

٢. بدأت تظهر الخلافات والتناقضات بين جنود البحرية الجزائرية "الرياس" وبين جنود البحرية العثمانية وخاصة عند ما حاول الأتراك أن يخضعوا المصالح الجزائرية لمصالح الإمبراطورية العثمانية.

٣. برزت قوة "الرياس" أو قوة رجال البحرية الجزائرية إلى درجة أن دول أوروبا أصبحت تخشى الجزائر وتسعى لإقامة علاقات تعاون معها. وعندما تعثرت المفاوضات قامت الدول المسيحية بشن حملة عسكرية على الجزائر في شهر سبتمبر من عام ١٧٠١م.

٤. حصل في هذه الفترة تصادم وتنافر بين جنود البحرية وجنود القوات البرية "اليولداش" وخاصة أن رجال البحرية كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء غاراتهم البحرية الناجحة على أساطيل القوات الأوروبية وهذا الصراع هو الذي تسبب في إضعاف الدولة الجزائرية.

٣. عصر الأغوات ١٦٥٩ . ١٦٧١م:

يعتبر هذا العهد من أقصر العهود وذلك نظراً لإقدام قادة الجيش البري "اليوليداش" على خلع الباشا وتعويض هذا القائد بقائد آخر من فئتهم أطلق عليه اسم "الآغا"، وفي الحقيقة أن هذا الانقلاب قد جاء بمثابة انقلاب على الباشا المعين من طرف الإمبراطورية العثمانية والمدعوم من طرف فئة الرياس ولكي لا يستأثر الآغا بالسلطة فقد تقرر أن يكون الحكم ديمقراطياً، أي يستعين الحاكم بالديوان العالي الذي كان يضم في البداية

أعضاء الفرق العسكرية البرية ثم توسعت العضوية فيه بحيث أصبح يضم ممثلين عن فئة الرياس وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر[1]، وتمشياً مع هذه الخطة فإن الجيش البري هو الذي أصبح يعين الأغا حاكماً للجزائر لمدة سنتين، يترقى بعدها إلى رتبة آغا شرف ويحل محله أغا آخر وهكذا إستفحل الصراع بين الأغوات من جهة، والرياس من جهة أخرى، وكانت النتيجة هي انتشار الفوضى وانعدام الأمن واستياء تركيا من انفصال حكام الجزائر عنها وقطع كل المساعدات عنهم، وفي عام ١٦٧١م إنهار نظام الأغوات وحل محله نظام الدايات، وباختصار فإن هذه الفترة القصيرة من نظم حكم الأغوات في الجزائر قد تميزت بما يلي:

١. إضمحلال نفوذ السلطان العثماني وغياب السيادة العثمانية في الجزائر.

٢. استفحال الصراعات المحلية سواء بين ضباط الجيش البري أو ضابط الجيش البحري، وتذمر أبناء الشعب من الفساد السياسي وانتشار الفوضى في البلاد.

٣. نجح "اليوليداش" في قلب نظام الحكم والإنفصال عن العثمانيين والحد من سلطة الرياس لكنهم فشلوا في إنتشار نظام سياسي ديمقراطي ناجح.

٤. كان الإنقلاب على الباشوات عبارة عن انتقام من طائفة أو فئة الرياس التي كانت كلمتها مسموعة في عهد الباشوات.

٤. عصر الدايات ١٦٧١ . ١٨٣٠م:

لقد استفاد حكام الجزائر من تجارب الحكم السابقة في هذا البلد بحيث حاولوا ترضية السلطان العثماني وتقوية مركز الحاكم "الداي" وذلك عن طريق تعيينه في منصبه مدى الحياة بناء على اقتراح من الديوان العالي وتعيين رسمي من طرف السلطان العثماني، وبكلمة مختصرة فإن الجزائر قد أصبحت دولة مستقلة عن تركيا وخاصة أن الداي أصبح

[1] محمد احسان الهندي، الحوليات الجزائرية، دمشق العربي للأعلان والنشر والطباعة والتوزيع ١٩٧٧م، ص: ٤٣.

ينتخب من طرف الديوان العالي "المجلس" الذي صار بمثابة برلمان في عصرنا الحالي، والسلطان العثماني لا يلعب أي دور في اختيار داي الجزائر وينحصر دوره في إصدار مرسوم أو فرمان لتثبيت اختيار الديوان العالي بالجزائر، وفي حالة شغور المنصب فإن الديوان العالي هو الذي يختار خليفته بنفس الأسلوب الآنف الذكر، وعندما حاول السلطان العثماني في عام ١٧١١م أن يقوم بتعيين حاكم على الجزائر قام داي الجزائر علي شاوس بطرده وتنصيب نفسه لدلاً منه، وعليه فإن تركيا قد احتفظت لنفسها بسلطان شكلية في الجزائر تمثلت بصفة خاصة في الدعاء للسلطان العثماني في صلاة الجمعة، والاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب بحيث تقوم الجزائر بتقديم المساعدة العسكرية للبحرية التركية في حالة تعرض تركيا لاعتداء خارجي "كما حصل في معركة نافارين سنة ١٨٢٧م".

وبدون شك فإن عصر الدايات ١٦٧١ . ١٨٣٠م هو عصر القوة العسكرية والحاكم هو الذي يختار وزراءه بحرية تامة ويشكل مجلس الدولة بأسلوبه الخاص، لكن إنصافاً للحقيقة ينبغي أن نقول بأن نفوذ الجيش البحري الرياس وازدياد نفوذ الدايات لم يخدم أبناء الجزائر الأصليين ولم يستجب لمطالبهم، ولهذا فإن هذه القوات العسكرية والسياسية قد توجهت لخدمة مصالحها وتحقيق الغنائم لقادتها، وبالتالي فإن العناصر الجزائرية الأصل بقيت على الهامش ولم تكن لها مشاركة حقيقية في قيادة البلاد.

ومع كل هذا ينبغي أن نؤكد على حقيقة أساسية وهي أن الدولة الجزائرية في عهد الدايات قد تمتعت بحرية العمل في المجال السياسي وبنت جيشاً قوياً وعندها ميزانية مستقلة لا تقل أهمية عن ميزانيات الدول القوية في تلك الفترة وقد كان الداي يعقد المعاهدات بإسم الجزائر ويبعث بقناصل الجزائر إلى الدول الكبرى ويوافق على اعتماد القناصل في الجزائر بدون مشاورة تركيا، ويعلن الحرب ويستعمل العملة الخاصة بالجزائر وهذه العوامل كلها تبين استقلالية القرار الجزائري.

وبإختصار فإن فترة حكم الدايات قد تميزت بخصائص يمكن إيجازها فيما يلي:

١. في عهد الدايات تحول جنود البحرية من جنود مناضلين ومقاتلين ضد القوات المسيحية المناهضة للإسلام، إلى رجال يبحثون عن الغنائم لأنفسهم وللحكام.

٢. اهتم حكام الجزائر في القرن السابع عشر والثامن عشر بجمع الثروة من العمليات الحربية في البحر، ولم يهتموا بتطور الدخل من الثروة الفلاحية وتوفير الغذاء للسكان.

٣. نتيجة لاعتماد الحكام على الحروب والصراعات الداخلية بين فئات الجيش فقد لقي العديد من الحكام مصرعهم على يد المجموعات المعادية لهم بحيث أصبحت قضية اغتيال المسؤولين عملية عادية.

٤. تمكن حكام الجزائر في هذه المرحلة الأخيرة من القضاء نهائياً على الوجود الإسباني في الجزائر وخاصة في سنة ١٧٩٢م حيث تمكن قادة الجزائر من طرد الجيش الإسباني من وهران والمرسى الكبير.

الثامن عشر: التنظيم الإداري للجزائر في العهد العثماني

عندما يحاول الإنسان دراسة التنظيم الإداري الذي كان سائداً بالجزائر في العهد التركي فإنه يصطدم بحقيقة واضحة للعيان وهي أن تغير الحكام وتغير تسمياتهم واختلاف تصرفاتهم وطرق حكمهم تدفع بالكاتب إلى إبداء آراء عامة يغلب عليها طابع الشمولية في بعض الأحيان ولهذا فإن الأفكار الواردة في هذا التحليل تعبر عن النظام العام الذي تميزت به هذه الفترة الغامضة من تاريخ الجزائر.

وبصفة إجمالية فإن الدولة الجزائرية في العهد العثماني كانت عبارة عن جمهورية عسكرية تربطها بتركيا علاقات دينية واتفاقات شكلية، وقد اعتبر حكام الجزائر أنفسهم حلفاء للسلطان العثماني ويتعاملون مع قادة الدول الأوروبية بصفة مباشرة ويبرمون الاتفاقيات التجارية معهم ويتفاوضون مع جميع الدول إنطلاقاً من مبدأ الدفاع عن مصالح الجزائر

وليس مصلحة تركيا، وتظهر هذه السياسة الجزائرية بوضوح في تجاهل الدول الأوروبية للوجود التركي بالجزائر وتعاملهم مباشرة مع حكام الجزائر، وفي نهاية القرن التاسع عشر اقدمت فرنسا على إقامة علاقات دبلوماسية بينها وبين الجزائر مماثلة لتلك العلاقات الموجودة بينها وبين المغرب الأقصى الذي لم يكن خاضعاً للسيادة العثمانية بحيث أطلقت على ممثلها السياسي بكل من المغرب والجزائر لقب: مكلف بالأعمال[1].

وباختصار فإن السلطة المركزية بالجزائر العاصمة هي التي كانت توجه دفة الأمور السياسية بالبلاد. وحسب التقسيم الإداري الموجود في عهد الدايات، فإن الجزائر كانت مقسمة إلى أربعة مقاطعات إدارية تتمثل في الآتي:

١. دار السلطان:

وهي عبارة عن مقاطعة إدارية توجد في الجزائر العاصمة ونواحيها يوجد بها مقر نائب السلطان العثماني أو الداي، وتمتد هذه المقاطعة من مدينة دلس إلى مدينة شرشال غرباً ويحدها من الجنوب بايليك التيطري.

٢. بايليك الشرق:

ويعتبر من أكبر الولايات الموجودة في الجزائر حيث أنه يمتد من الحدود التونسية شرقاً حتى بلاد القبائل الكبرى غرباً ويحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء وكانت مدينة قسنطينة عاصمة هذه المقاطعة.

٣. بايليك الغرب:

الذي كانت عاصمته مازونا حتى سنة ١٧١٠م ثم مدينة معسكر، وعندما إسترجعت مدينة وهران من الإسبان في سنة ١٧٩٢م صارت هي عاصمة هذه المقاطعة، وكانت هذه المقاطعة تمتد من الحدود المغربية غرباً إلى ولاية التيطري شرقاً، ومن البحر شمالاً إلى الصحراء جنوباً وتأتي في الدرجة الثانية من ناحية المساحة أي بعد ولاية قسنطينة.

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، ص: ٢٢.

٤. بايليك التيطري:

كانت عاصمته مدينة المدية، وهو أصغر ولايات القطر يحده من الشمال سهل المتيجة ومن الجنوب الصحراء.

التاسع عشر: التنظيم السياسي للدولة

إنه لمن الإنصاف أن نقول بأن وحدة التراب الجزائري وبروز قيادة سياسية متمركزة بالجزائر العاصمة قد تدعمت بشكل ملحوظ في العهد التركي، ففي عهد الأتراك قامت القيادة السياسية بتحرير جميع المناطق التي كانت تحتلها قوات الدول المسيحية وتعيين المسؤولين المحليين في جميع المقاطعات الإدارية التي تشتمل عليها الدولة الجزائرية وباختصار فإن التنظيم السياسي للدولة الجزائرية في الفترة الأخيرة من العهد العثماني "عهد الدايات" كان كالتالي:

أولاً الداي: هو رئيس الدولة "الحاكم الأعلى" وهو القائد العام للجيش في البلاد وبصفته المسؤول الأول عن سياسة الجزائر، فقد كان يمارس كل صلاحيات رئيس السلطة السياسية المتمثلة في تطبيق القوانين المدنية والعسكرية، توقيع المعاهدات استقبال السفراء المعتمدين لدى الجزائر اختيار وزراءه وحكام المقاطعات أو الولايات، والإشراف بنفسه على مراقبة إيرادات الدولة وخزينتها[١].

وفي العادة يتم انتخاب الداي من طرف أعضاء الديوان العالي الذي يتكون من رؤساء الوحدات العسكرية وبعض كبار المسؤولين في الدولة، وقد كان عدد أعضاء الديوان العالي يتراوح بين ٨٠ و ٣٠٠ عضو، وحين يختلف أعضاء الديوان العالي يرفعون العلم الأحمر، وإذا اتفقوا على انتخاب داي جديد فإنهم يرفعون العلم الأخضر.

---

[١] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، ص: ٤٩.

وقد جرت العادة أن يتفرغ الداي للحكم بمجرد انتخابه وتنصيبه في عمله في قصر الجنينة ولا يسمح له بالخروج من القصر إلا مرة واحدة في الاسبوع حيث يذهب إلى بيته لقضاء أمسية وليلة واحدة مع عائلته وأولاده ثم يعود إلى القصر لاستئناف عمله، وجرت العادة أن يخصص كل صباح لاستقبال المواطنين والنظر في الشكاوي والمظالم التي تعرض عليه لكي يفصل فيها بالعدل والإنصاف، ثم يتفرغ في كل مساء لتسيير شؤون الدولة والاجتماع بوزرائه واستقبال رؤساء البعثات الأجنبية المعتمدين بالجزائر.

ويلاحظ هنا أن الداي كان يتقاضى راتبه على أساس رتبته العسكرية في الجيش بصفته أغا ولهذا تقرر أن يحصل على أموال إضافية ومساعدات تتمثل في هدايا ثمينة يتلقاها من البايات الثلاث لتغطية نفقاته ورواتب حراسه، كما كان يحصل الداي على هدايا ثمينة من كبار موظفي الدولة عند تنصيبهم في وظائفهم، ومن القناصل الأجانب الذين يعينون بالجزائر ونسبة محدودة من غنائم الغزوات البحرية، وأكثر من ذلك فإن الداي كان يتولى بنفسه الإشراف على تسيير مؤسسات تجارية وذلك بقصد جلب أموال لخزينة الدولة، وفي حالة وفاته أو عزله فإن هذه الأموال التي يحصل عليها الداي تحول إلى خزينة الدولة.

ثانياً الديوان "مجلس الوزراء": كان ديوان الداي هو الساعد الأيمن لرئيس الدولة لأنه يضم الشخصيات المقربة إليه والتي يعتمد عليها في تنفيذ سياسة الحكومة التي يقودها الداي، والديوان في الحقيقة هو بمثابة مجلس الوزراء في يومنا هذا، وقد أشتهر باجتماعاته اليومية لدراسة المسائل العادية المسجلة في جدول أعمال الديوان، أما اجتماع يوم السبت فكان يخصص لدراسة المسائل ذات الأهمية[1]، وحسب بعض الدراسات فإن هذا الديوان يتكون من ٣٥ شخصية مدنية وعسكرية تشرف على تسيير شؤون الدولة في المسائل المالية والعدالة والأمن. وبالإضافة إلى القاضي والمفتي وغيرهما من الشخصيات

---

[1] جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، ص: ١٠٦ ـ ١٠٧.

المرموقة التي كانت تعمل في اطار الديوان فإن الداي كان يستعين بالعناصر القوية التي كانت تساعده في أداء مهامه وتتمثل هذه العناصر في:

١. الخنزناجي: وهو بمثابة وزير المالية حيث كان مسؤولاً عن خزينة الدولة، ولا يمكن أن تفتح إلا بحضوره لأنه هو الوحيد الذي يحتفظ بمفاتيح الخزينة العامة.

٢. الأغا: وهوقائد الجيش البري "بما في ذلك فرق الإنكشارية ووحدات الخيالة العرب والمتطوعون".

٣. خوجة الخيل: هو المشرف على أملاك الدولة حيث يعتبر المسؤول الأول عن جمع الضرائب وصيانة أملاك الدولة وإعادة استثمارها والاتصال بالقبائل عند تعاملها مع الحكومة.

٤. بيت المالجي: هو المسؤول عن جميع المسائل المتعلقة بالوراثة وتحديد نصيب خزينة الدولة من الوراثة أو من الأملاك التي تصادر سواء بسبب عزل الموظفين أو وفاة أصحاب الثروة أو غيابهم عن الجزائر، وفي حالة غياب صاحب الثروة، فإن المسؤول يتولى تسيير العقارات والأموال الموروثة، وعند وفاة المسؤول عن بيت المالجي فإن جميع أمواله والثروات المتوفرة لديه تذهب إلى خزينة الدولة.

٥. وكيل الخرج: وهو المكلف بالشؤون الخارجية مع الدول الأجنبية وعن كل ما له علاقة بالبواخر والتسليح والذخيرة والتحصينات ومواجهة الخصوم في عرض البحر الأبيض المتوسط.

٦. الباش كاتب: هو الأمين العام للحكومة حيث يتولى تسجيل صياغة وجميع القرارات التي يتخذها الديوان في اجتماعاته اليومية تحت إشراف الداي، وفي جميع القرارات التي يتخذها الديوان كان الباش كاتب يبدأ بكتابة العبارة التقليدية التالية "نحن باشا ديوان جند الجزائر المنيع"[١].

---

[١] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، ص: ٥٣.

وبالإضافة إلى كبار هؤلاء المسؤولين في الدولة الذين يعتمد عليهم الداي في تنفيذ سياسته بالبلاد، كان هناك موظفون سامون يقومون بأعمال محددة تدل على حسن التنظيم السياسي الموجود في الدولة الجزائرية، ومن جملة الوظائف المحددة لهؤلاء المسؤولين نخص بالذكر:

. الكاتب الأول: المسؤول عن المراسلات الخارجية والداخلية للداي، والمشرف على ثلاث سجلات خاصة بأموال الدولة، رواتب الجنود رواتب رجال الجمارك وكل سجل يمسكه كاتب خاص.

. الكاتب الثاني: الذي يتمثل دوره في متابعة ومراقبة السجل الخاص بالجنود وهذا السجل عبارة عن نسخة ثانية من السجل الموجود لدى الكاتب الأول.

. الكاتب الثالث: ويتمثل دوره في متابعة ومراقبة كل المعلومات الموجودة بسجل أموال الدولة وذلك انطلاقاً من النسخة الثانية التي يسلمها له الكاتب الأول.

. الكاتب الرابع: ويتمثل دوره في ضبط السجل الثاني من إيرادات الدولة من الجمارك الذي يسلمه له الكاتب الأول.

. رئيس التشريفات أو البروتوكول وهو بمثابة مدير البلاط وينحصر دوره في تسهيل عمليات الاتصال بين الداي والشخصيات التي يستقبلها، وفي العادة يتميز رئيس التشريفات بمعرفة اللغات الأجنبية بالإضافة إلى العربية والتركية.

. الكاخيا وهو المكلف بحراسة خزينة الدولة والاحتفاظ بمفاتيحها.

. الخزنادار وهو الشخص المسؤول عن خزن المال والاحتفاظ به إلى أن يتلقى الأمر بإنفاقه.

. الحكيم باشي والذي هو رئيس أطباء قصر الداي.

. الشاوش وهو الحاجب أو البواب الذي يتولى مراقبة الدخول والخروج إلى قصر الداي.

ثالثاً الباي: هو بمثابة الوالي في يومنا هذا، ويقوم بأعماله في الأقاليم الذي يشرف عليه نيابة عن الداي الذي هو رئيس الدولة ورمز للسيادة الوطنية.

ومثلما ذكرنا سابقاً فإن الجزائر كانت مقسمة إلى ثلاث مقاطعات أو ولايات هي: بايليك الشرق وبايليك الغرب وبايليك التيطري، بالإضافة إلى الجزائر العاصمة ونواحيها التي كانت تسمى دار السلطان.

والنقطة التي ينبغي التأكد عليها هنا هي أن الباي كان يعتبر من كبار موظفي الدولة والداي هو الذي يختاره من بين الشخصيات المرموقة في المجتمع الجزائري التي تلتزم بدفه رسوم مرتفعة وتقديم هدايا قيمة وفي مستوى هذا المنصب، لكنه في واقع الأمر كان الباي يتصرف بحرية تامة في تسيير ولايته، والداي لا يراقبه وكل ما هو مطلوب من الباي هو إظهار الولاء للداي، وإرسال الضرائب السنوية مع نائب الباي "الخليفة" إلى الداي في وقتها المحدد بدون تأخير، وعندما تنتهي فترة تعيينه في المنصب والتي تدوم ٣ سنوات يتعين على الباي أن يحضر إلى الجزائر العاصمة ويحضر معه جميع أنواع الهدايا التي تساعده على استمراره في عمله أو تعيينه في منصبه إذ كان ذلك لأول مرة، وفي العادة تكون هذه الزيارة بمثابة فرصة سانحة للداي لكي يحاسب الباي ويقرر الزج به في السجن إذا كان قد أخطأ وتجاوز صلاحية ممارسته لوظيفته، ويستخلص من بعض الدراسات أن الداي كان يعتمد على البايات في جمع المال الضروري لتغطية نفقاته ودفع رواتب حراسه. ففي سنة ١٦٨١م كان الداي يتقاضى مرتباً يقدر بحوالي مائة وستة قروش في السنة وهو أعلى مرتب يمكن تقاضيه من طرف ضابط قديم في الجيش بينما كان البايات الثلاثة يدفعون للداي ثلاثة آلاف قرش كل سنة[١].

وبالنسبة لكبار الموظفين في كل ولاية فقد كان الباي يستعين بموظفين سامين في إدارته وهم:

---

[١] جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ١٥٠٠ ـ ١٨٣٠، ص: ١٠٦.

١. الخليفة الذي يعتبر نائباً للباي، وهو الذي يحمل الضرائب السنوية إلى الداي ويمثل في بعض المناسبات.

٢. قائد الدار وهو مسؤول عن حراسة المدينة والعناية بها ودفع رواتب الجنود.

٣. أغا الدائرة وهو قائد الفرسان من العرب التابعين للدولة.

٤. الباشكاتب الذي يعتبر مسؤولاً عن كتابة رسائل الباي ومسك دفاتره المالية.

٥. الباش سيار الذي يقوم بمهمة نقل الرسائل بين الباي والداي.

٦. الباش سايس الذي يتولى العناية بخيول البايليك وتربيتها[١].

رابعاً: **الأوطان:** هي الوحدات الإدارية الموجودة بكل بايليك أو ولاية ويرأس كل وطن مسؤول يحمل إسم قايد، يتسلم عند تعيينه ختماً وبرنوس أحمر وذلك دلالة على تفويضه السلطة، واعتماده كمسؤول مدني وعسكري في الوحدة الإدارية التي توضع تحت تصرفه، والقايد في العادة هو الممثل الرسمي في منطقته حيث يتكفل بجمع الضرائب والمحافظة على الأمن العام والاتصال بالسلطات العليا عند الضرورة ويتفرع عن كل وطن مجموعة من اندواوير يرأس كل واحد شخص يحمل إسم شيخ الذي يكون في أغلب الأحيان من أبناء القرية أو الدوار الذي يحكمه.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن القياد كان يتم اختياره بناء على مواصفات معينة بحيث ينتمون إلى الأتراك أو إلى الكوروعلي وهم الأشخاص الذين ولدوا من أباء أتراك وأمهات جزائريات، وهذا يعطينا فكرة عن تمسك حكام الجزائر بمبدأ عدم الاعتماد على أبناء البلد الأصليين وحرمانهم من المشاركة في الحكم.

وفي نفس الإطار يجدر بنا أن نشير إلى أن حكام الجزائر قد دأبوا على انتهاج سياسة قمعية ضد السكان الذين لا يتعاونون مع العثمانيين، فمنذ سنة ١٥٦٣م مارس حكام

---

[١] الهندي مرجع سابق، ص: ٥٧.

الجزائر سياسة تقسيم السكان إلى ثلاث مجموعات، المجموعة الأولى وهي قبائل المخزن التي تتحالف مع الحكام وتتعاون معهم في جمع الضرائب والمحافظة على الأمن، ومقابل ذلك يعفى سكان تلك القبائل من دفع الضرائب.

المجموعة الثانية أطلقوا عليه اسم قبائل الدائرة، وهي القبائل التي تلتزم بتمويل الجيش بالرجال والمال عند الضرورة، ومقابل ذلك يدفع أفرادها ضرائب من حين لآخر وبصفة غير منتظمة.

المجموعة الثالثة هي قبائل الرعية وهي القبائل التي لا يتمتع أفرادها بأية امتيازات، ويدفعون الضرائب بإنتظام وتسلط عليهم العقوابات الصارمة إن هم قصروا في ذلك[١].

وبالنسبة لمدينة الجزائر أو دار السلطان، فإن حكام الجزائر قد قاموا بتقسيم سكان الجزائر العاصمة إلى مجموعات عرقية ومهنية ويتعين على كل مجموعة أن تختار زعيماً لها يطلق عليه اسم شيخ يكون همزة الوصل بين مجموعته وبين شيخ البلد "الذي هو بمثابة رئيس البلدية في يومنا هذا" وعليه فإن كل مجموعة عربية وقبائلية وأندلسية مهاجرة ويهودية، كان لها شيخ يمثلها ويتحكم فيها ويحرص على خلق التأييد والدعم للحكومة، أما بالنسبة لأصحاب المهن فقد كان لكل مهنة رئيس يدعى: الأمين هو الممثل الشرعي لأصحاب مهنته في بلديته ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن شيخ البلد كان يتم اختياره من بين وجهاء مدينة الجزائر ويكون دوماً من أصل عربي.

العشرون: نظام القضاء خلال العهد العثماني

لقد كان الداي في الجزائر مصدر السلطة السياسية والقضائية، وفي إمكانية تفويض هذه السلطات إلى البايات والقضاة، لكن إذا كانت الأحكام التي يصدرها القضاة لا تحظى

---

[١] الهندي مرجع سابق، ص: ٥٨ . ٥٩.

بموافقة الداي في الجزائر العاصمة أو موافقة الباي في إلى مقاطعته، فإنه يكون بإمكان القائد السياسي أن يسحب هذا التفويض من القاضي أو الباي، وبما أن السلطان العثماني كان من المتعلقين بالمذهب الحنفي وسكان الجزائر من المتعلقين بالمذهب المالكي، فقد جرت العادة أن يقوم السلطان العثماني بتعيين المفتي الحنفي ويقوم الداي بتعيين المفتي المالكي، وهذا معناه أنه كانت توجد بالجزائر محاكم خاصة بالمسلمين الذين ينتمون إلى المذهب الحنفي، ومحاكم أخرى خاصة بالسكان الذين ينتمون إلى المذهب المالكي، كما كانت توجد محاكم خاصة بالأسرى المسيحيين، ومحاكم أخرى خاصة باليهود، وفي حالة ما إذا كانت هناك خصومات بين المسيحيين والمسلمين فإن الداي هو الذي يفصل في هذه القضايا.

وفي القضايا المدنية "مثل البيع والشراء والإيجار والزواج والطلاق ...الخ" فقد كان الداي يفوض إلى القضاة لكي ينظروا في القضايا والمنازعات المعروضة عليهم وتنفيذ الأحكام بسرعة، وكل مسلم يحق له أن يعرض نزاعه على القاضي الحنفي أو المالكي سواء كان جزائرياً أو فرنسياً أو مغربياً، وفي العادة يكون القاضي هو صاحب الكلمة الأخيرة في الموضوع ويساعده في عمله أحد أعوانه، بالإضافة إلى كاتبين يقومان بتسجيل الأحكام وتوثيق العقود وكذلك شاوش في المحكمة يتمثل دوره في المحافظة على الأمن خلال جلسات المحكمة والإشراف على تنفيذ الأحكام التي يصدرها القاضي، ولم تكن الدولة هي التي تدفع مرتبات القضاة، وإنما يحصلون على رسوم ومبالغ مالية عن كل عقد يسجلونه ويضعونه ختماً عليه، وفي القرى والمناطق النائية، كان القاضي يقوم بتدريب المساعدين له ويرسلهم إلى القرى الصغيرة لكي ينظروا في القضايا المعروضة عليهم ويصدروا الأحكام نيابة عنه، ويطلق على هذا الشخص اسم الوكيل.

وبالنسبة للطعن في أحكام القضاة، فقد جرت العادة أن ترفع الطعون إلى المجلس الشريف، الذي يضم القاضي المالكي والقاضي الحنفي، والمفتي المالكي والمفتي الحنفي، وفي كل يوم خميس يجتمع أعضاء المجلس في الجامع الكبير بالجزائر العاصمة وينظرون في الطعون المقدمة إليهم داخل المسجد، أما إذا كان المتخاصمون من غير المسلمين، فإن القضاة يخرجون إلى صحن الجامع لكي يستمعوا إلى المشتكين.

أما بالنسبة للمسائل الجنائية "مثل القتل والسرقة والخيانة والتآمر ..الخ" فقد كانت من اختصاص الداي أو الباي، وفي المسائل البسيطة فإن الداي يفوض للقيادة والشيوخ أو الباي لكي يعاقبوا المخالفين، أما القضايا الخطيرة فإن الداي أو الباي هو الذي يصدر الحكم وفي دار السلطان أو العاصمة ونواحيها، فإن الداي يفوض خوجة الخيل لكي يحاكم العرب، والأندلسيون يحاكمون من طرف الكيخيا، والأتراك من طرف الأغا، وفي العادة توجد لدى الداي أو الباي مجموعة من رجال الأمن تتكون من ١١ شاوش يرتدون اللباس الأخضر وهم الذين يقومون بتنفيذ حكم الإعدام في المسلمين غير الأتراك وذلك أمام دار الحكومة، وبالنسبة لعملية الشنق فقد كانت تتم في باب عزون، أما العبيد فكانوا يشنقون أمام السجن الذين كانوا موقوفين فيه، والمسيحيون كانوا يشنقون، أما إعدام اليهود فكان يتم حرقاً في باب الواد، وإذا قام أي شخص بقتل أي تركي فإن العقوبة تكون برمي الفاعل من المرتفعات إلى البحر، وإذا لم يتم التعرف على القاتل فإن سكان الحي الذي توجد فيه الجثة يتعرضون لعقوبة جماعية[١].

وبإختصار فإن الأتراك كانت لهم امتيازات مقارنة بالأهالي حيث كانوا يعاقبون سراً في دار أغا الإنكشارية حتى لا تهان كرامتهم، أما بقية السكان فكانت الأحكام قاسية ومجحفة بالنسبة إليهم، وعند إدانتهم والحكم عليهم بالإعدام تعلق جثثهم أو تحرق حتى يكونوا عبرة لغيرهم من السكان، وبما أن القاضي ومساعديه لم يكونوا يتلقون رواتب

---

[١] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، ص: ٦٥ ـ ٦٧.

حكومية فقد كانت الرشوة متفشية والرسوم مرتفعة والأحكام التي يصدرها القضاة أو الداي أو نوابهم في الأرياف لا رجعة فيها تقريباً.

الحادي والعشرون: الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني

تشير بعض الدراسات إلى أن عدد سكان الجزائر العاصمة قد بلغ خلال القرن السابع عشر حوالي ١٠٠,٠٠٠ نسمة، منهم ٣٠,٠٠٠ أوروبي، وعند احتلال الجزائر من طرف فرنسا عام ١٨٣٠م لم يكن في العاصمة سوى ٣٢,٠٠٠ ساكن، منهم ١٨,٠٠٠ عربي، ٤,٠٠٠ تركي، ١,٠٠٠ قبائلي، ٢,٠٠٠ زنجي، ٢,٠٠٠ كولوغلي "أي ينحدر من أب تركي وأم جزائرية" و٥,٠٠٠ يهودي[١]، ولكن عدد السكان الجزائريين بدأ يتضاءل تدريجياً بسبب الأوبئة والمجاعات والانتقال إلى الريف للتهرب من دفع الضرائب والضغوطات السياسية.

وبالرغم من عدم وجود إحصائيات رسمية عن سكان القطر الجزائري في العهد العثماني، فإن بعض التقديرات تشير إلى أن سكان الجزائر في نهاية العهد العثماني كان يتراوح بين ثلاثة ملايين وثلاثة ونصف مليون نسمة، وأن ٥% من هؤلاء السكان كانوا يعيشون في المدن، و٩٥% من السكان الجزائريين كانوا يعيشون في الريف[٢].

وحسب التنظيم الإجتماعي السائد بالبلاد في نهاية حكم الداي فإن التقسيم الإجتماعي والمهني كان كالتالي:

---

[١] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، ص: ٧٤ ، ٧٥.

[٢] ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، ص: ٤١.

١. الطبقة الأرستقراطية التركية: وهي الفئة المسيطرة على الجزائر حتى نهاية الحكم العثماني بالجزائر في سنة ١٨٣٠م، وبالرغم من قلة عدد أفراد هذه الجالية التي لم يتجاوز عدد أفرادها سنة ١٨٣٠م ٢٠,٠٠٠ نسمة فإنها كانت قوية وذات نفوذ واسع في البلاد، ويحرص أفرادها على إبقاء المناصب الحكومية بين أيديهم، وعزل السكان الأصليين للبلاد عنهم حتى لا ينافسوهم في السلطة والنفوذ وتميز الأتراك عن غيرهم من السكان باتباع تقاليد تركية والافتخار بأعمالهم العسكرية والاعتزاز بلغتهم الأصلية والعزوف عن خدمة الأرض. وكان معظم الأتراك يفضلون كسب عيشهم من المرتبات التي يحصلون عليها من خزينة الدولة أو من إيجار المحلات التي تحمل أسماءهم أو من إيجار البساتين التي يملكونها في المناطق التي يقيمون بها، ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن الأتراك كانوا يفضلون استقدام ابناء وطنهم من منطقة الأناضول في حالة الاحتياج إلى آخرين، ويرفضون باستمرار تشغيل أبناء البلد إلا عند الضرورة.

ولهذا بقيت العلاقة بين الأتراك وسكان الجزائر تتصف بالجفاء والعداء والنفور حتى يوم مغادرة الأتراك لأرض الجزائر. وهذا السلوك يختلف عن سلوك أتراك آخرين في تونس ومصر حيث عملت الأسرة الحسينية في تونس على خلق التقارب والتعاون بين أبناء البلد والحاكمين الأتراك، ونفس الشيء حصل في عهد محمد علي حيث حصل تقارب بين سكان مصر والطائفة التركية بذلك البلد.

٢. جماعة الكراغلة: وهي الجماعة التي برزت إلى الوجود وتميزت عن السكان إلى درجة أن عددهم بلغ في نهاية القرن الثامن عشر بمدينة الجزائر حوالي ٦,٠٠٠ نسمة، كما تزايد عددهم بشكل ملحوظ في مدينة تلمسان وبالرغم من انتمائهم إلى آباء من أصل تركي، فإن الكراغلة لم يحصلوا على امتيازات أو يشاركوا في الحكم، ولم يكن لهم الحق في الانتساب إلى الجيش أو الحصول على مناصب إدارية بحكم أنهم قد يتحالفون مع أبناء

الجزائر الأصليين. وكان الكراغلة يملكون ثروات ويستثمرونها في المزارع ويترفعون عن خدمة الأرض أو القيام بأعمال يدوية.

٣. المهاجرون الأندلسيون: كانوا يشكلون قوة تجارية هائلة بالجزائر حيث ساهموا في تنمية التجارة وإنشاء صناعات رفيعة بالبلاد، وقد ارتفع عددهم بالجزائر بعد أن قامت إسبانيا بطردهم بصفة جماعية سنة ١٦١٠م، وبما أنه لم يكن في إمكانهم الالتحاق بالجيش والوظائف العليا بالدولة، فقد توجه معظمهم إلى التجارة والصناعة حيث أظهروا مهاراتهم وكفاءاتهم بفضل الأموال التي جلبوها معهم من الأندلس وخبرتهم الكبيرة في ميادين صناعة الأسلحة والبارود والنجارة والخياطة وصناعة الخزف، وقد اشتهروا أكثر من غيرهم في تجارة الجملة وتمويل السفن بالبضائع، كما اشتهروا بإنتاج الحرير في مدينة القليعة وزراعة قطن جديد في مستغانم.

أما أبناء البلد الأصليين فقد كان معظمهم يشتغلون بالزراعة والتجارة وتميز بني مزاب بتواجدهم في الحمامات العمومية والمجازر والمطاحن، أما الزنوج فكانوا يشتغلون كغسالين وخبازين وخدم.

٤. فئة اليهود: بالرغم من وجود عدة فئات أجنبية مسيحية فإن الجماعة النشيطة التي إرتفع شأنها في الجزائر هي جماعة اليهود لأن اليهود كانوا يتعاملون مع الداي وقادة الجيش الرياس، ويقومون بشراء وبيع البضائع أو الغنائم التي يحصل عليها رجال الجيش، كما اشتهر اليهود بعمليات السمسرة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية إلى درجة أنه أصبح من الصعب على أي عربي أن يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورة من أحد اليهود[١]، وقد اغتاظ سكان الجزائر من الكسب الفاحش والأموال الهائلة التي تحصل عليها على حساب الدولة الجزائرية وسكانها إلى درجة أن أحد الجنود الإنكشاريين

[١] سعيدوني، مرجع سابق، ص: ٤٦.

غامر بحياته وأقدم يوم ٢٨ جوان ١٨٠٥م على قتل زعيم الجالية اليهودية نفتالي بوشناق عند خروجه من قصر الجنينة حيث خاطبه بعبارته المشهورة "السلام عليك يا ملك الجزائر" ونتج عن هذا الاغتيال نهب الحي اليهودي وقتل الداي مصطفى "١٧٩٨ ـ ١٨٠٥م" المتعامل مع كبار اليهود وذلك يوم ٣٠ أوت ١٨٠٥م[١].

الثاني والعشرون: أسباب التدهور السياسي والاقتصادي بالجزائر

لقد كان حوض البحر الأبيض المتوسط من أكثر المناطق في العالم حيوية ونشاطاً من حيث التجارة والقيام بهجومات عسكرية على المدن الساحلية واحتلالها، وفرض الرسوم المالية عليها لكي يعيش سكانها في سلام، وقد ازدهرت تجارة الرقيق والاستيلاء على البواخر التي تحمل بضائع، والقرصنة خلال الحروب الصليبية، وانتشرت القرصنة بصفة خاصة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط منذ اليوم الذي سقطت فيه غرناطة سنة ١٤٩٢م بيد المسيحيين الإسبان الذين كانوا يلاحقون المسلمين الفارين من بطشهم حتى مدن المغرب العربي الساحلية التي لجأوا إليها، وكان هذا دافعاً قوياً للجزائر لكي تحمي المسلمين وتصد غارات المسيحيين البحرية عليها وتحمي تجارة المسلمين، وفي الحقيقة أن الجزائريين لم يكن هدفهم القيام بالقرصنة وإنما الجهاد والدفاع عن وطنهم وعن بلد هم اسياده، كما أن العمليات الحربية كانت موجهة ضد أساطيل الدول التي تعتدي

---

[١] المصدر السابق، ص: ٤٧.

عليهم وتستولي على بواخرهم ولم تكن الغاية من الهجومات على السفن الأجنبية هي الحصول على الغنائم فقط[1].

وبإختصار فإن قوة الدولة الجزائرية في العهد التركي كانت مستمدة من وجود جيش بحري بلغت قوته في عهد الرايس حميدو ما يقرب ٥٠٠ قطعة بحرية يعمل على متنها ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ بحار، وبفضل هذا الأسطول البحري تمكنت الجزائر من:

١. مساعدة مهاجري الأندلس وحمايتهم من إعتداءات القراصنة المسيحيين.

٢. التصدي للغارات البحرية التي كان يشنها الأوروبيون على مدن المغرب العربي وسفن المسلمين التجارية.

٣. القيام بعمليات تحريرية لطرد الغزاة الإسبان من مدن المغرب العربي التي تمكنوا من النزول بها مثل جيجل عنابة بجاية وهران تونس مراكش.

٤. الاشتراك مع القوات البحرية العثمانية لصد غزوات التحالفات الأوروبية الصليبية ضد الجيوش الإسلامية.

٥. حماية التجارة الوطنية وإغناء الخزينة بعائدات مالية جاءت من الغنائم الحربية[2].

وفي الحقيقة أن مشكلة الرياس أو الجيش البحري الجزائري تنبع من ارتباط القيادة بتركيا حيث أن التعاون بينهما في البداية وخاصة عندما كانت تركيا في أوج عظمتها وعزتها، قد عزز مكانة الجيش البحري في الجزائر الذي كان يحصل على غنائم ويفرض رسوماً مالية على الدول التي تمر بواخرها عبر السواحل الجزائرية، لكن ضعف تركيا أثر سلبياً على حكام الجزائر حيث كان من الصعب عليهم مواجهة الدول الأوروبية التي تحالفت فيما بينها ضد الجزائر والنقطة الثانية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار هي أن فرنسا قد ساهمت إلى حد كبير في إضعاف الجزائر، ففي عام ١٥٧٧م تمكن الفرنسيون من تعيين قنصل لهم في مدينة الجزائر، ثم استطاعوا في السنة التالية أن يحصلوا على إذن بالبحث

---

[1] جلال يحيى، المغرب الكبير في العصور الحديثة وهجوم الإستعمار، ص: ٤٩ ـ ٥٤، وص ٨٧ ـ ١٠٦.

[2] عبد القادر زبادية، الصادق الغولي، صالح السماوي، تاريخ المغرب العربي الحديث، ص: ٣٧ ـ ٣٨

عن المرجان في سواحل الشرق الجزائري وتعهدوا بدفع ضرائب ولكن بشرط أن لا يقيموا أية تحصينات على الشواطئ، وبطبيعة الحال لم يحترم الفرنسيون هذه التعهدات وقاموا بتحصين المركز التجاري الذي أقاموه بالقرب من مدينة عنابة وأطلقوا عليه اسم باستيون، وذلك بالرغم من معارضة السلطان العثماني، وفي سنة ١٦٠٤م أظهر الأتراك إستياءهم من إقدام فرنسا على شراء القمح من الأهالي وبيعه إلى أوروبا في حين أن القحط قد عم بلاد الجزائر، والسكان يعانون من مجاعة، ولذلك قاموا بتهديم المركز التجاري الفرنسي مرتين عام ١٦٠٤ وعام ١٦٣٧م، لكن الباي اضطر إلى بناء الباستيون مرة ثالثة سنة ١٦٤٠م وذلك لتهدئة سكان المنطقة الذين قاموا بالثورة على الباي لأنهم ينتفعون بالاتجار مع الفرنسيين، وبعد نجاح الثورة الفرنسية في عام ١٧٧٩م وفرض الحصار عليها من طرف الدول الأوروبية المناهضة لفرنسا، قامت الجزائر بتأمين الغذاء الضروري من القمح إلى الدولة الفرنسية، وعندما طالب التاجران الإيطاليان سنة ١٧٩٧م بكري وبوشناق "وهما من أصل يهودي ويقيمان في الجزائر" ثمن القموح المصدرة إلى فرنسا أجابت الدولة الفرنسية بأنها ترفض دفع الأموال لليهودين لأن عليهما ديون للفرنسيين الذين التجأوا إلى المحاكم الفرنسية للمطالبة بأموالهم، وهكذا تطور النزاع بين الجزائر وفرنسا لأن الداي حسين لا يستطيع الحصول على الأموال التي توجد في ذمة بكري وبوشناق مادامت فرنسا ترفض دفوع ديونها إلى التاجرين اليهودين.

وفي عام ١٨٢٤م أرسل الداي ثلاثة رسائل إلى الحكومة الفرنسية بشأن الأموال الموجودة في فرنسا ولكنها لم تقدم له أي جواب، وفي تلك الفترة علم حسين باشا بأن فرنسا قد قامت بتسليح مركز الباستيون، وذلك بالرغم من وعد الشرف الذي قطعه قنصل فرنسا دوفال بعدم تحصين المراكز التجارية الفرنسية، فزاد هذا الخبر من غضب الباشا وانتهز فرصة قدوم القنصل الفرنسي دوفال للتهنئة بعيد الفطر يوم ٢٩ أفريل ١٨٢٧م فاستفسر منه عن سبب عدم رد الحكومة على رسائله، وهنا أجابه القنصل دوفال: "أن ملك

فرنسا وشعبها لا يحررون لك ورقة ولا يرسلون رداً حتى على رسائلك المرسلة"، وآنذاك نهض الداي من مكانه محتداً وضرب القنصل بالمروحة التي كانت بيده مرة أو ثلاثة، وكانت نتيجة هذه اللطمة هي إعلان الحرب على الداي يوم ١٦ جوان ١٨٢٧م ومحاصرة مدينة الجزائر بحراً إلى أن تم الاستيلاء عليها ٥ جويلية ١٨٣٠م[١].

والنقطة الثالثة التي ينبغي أن نشير إليها بالنسبة لتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية بالجزائر في مطلع القرن التاسع عشر هي أن التحالف بين الدول الأوروبية ضد الجزائر وإجبارها على عدم مهاجمة السفن الحربية والتجارية للدول الأوروبية التي تمر بالبحر الأبيض المتوسط، قد أثر سلبياً في الوضع المالي والسياسي للجزائر، فبالرغم من التبريرات التي قدمها الداي حسين إلى الدول الكبرى التي قررت في مؤتمر فيينا ومؤتمر إكس لاشابيل سنة ١٨١٨م، أن تعتبر أن كل نيل أو مساس بتجارة إحدى الدول الأوروبية ينتج عنه رد فعل سريع من طرف الدول الأوروبية المتحالفة فإن بريطانيا لم تقتنع بتبريرات الداي وقامت بمحاصرة ميناء الجزائر والهجوم على البواخر الراسية فيه وذلك يوم ١٢ جويلية ١٨٢٤م، وقد حاول الداي حسين أن يقنع الدول الكبرى بأن الجزائر لا تستطيع أن تتخلى عن حقها في التعرف على البواخر الأجنبية لأن هذه الوسيلة الوحيدة للتعرف على البواخر العدوة من الصديقة، لكن بريطانيا وروسيا والنمسا وهولندا، كانت مصممة على تجريد حكومة الجزائر من الدخل المالي الأساسي لخزينتها وبذلك يصعب عليها دفع مرتبات جنودها والمحافظة على ولائهم لها، وهذا ما حصل بالضبط حيث أن قلة المدخول من الغنائم والجمارك جعل خزينة الداي شبه فارغة وهو غير قادر على دفع مرتبات جنوده[٢].

والنقطة الرابعة التي تجدر بنا أن نركز عليها الإلمام بأسباب تدهور الأوضاع في الجزائر في بداية القرن التاسع عشر هي أن سوء تصرفات الداي مع قناصل الدول الأوروبية في

---

[١] أرجمنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ص: ٣٠ . ٣٤.

[٢] عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص: ١٣٤.

الجزائر وتلهفه على المال، ومعاناة خزينة الدولة من غلاء المواد المجهزة المستوردة وبخس أثمان المواد الأولية المصدرة وبالإضافة إلى صعوبة تنمية الموارد الداخلية للبلاد، قد نتج عنها إنهيار الأسطول البحري وانتشار المجاعة والأمراض في البلاد وتعدد الانتفاضات الشعبية والاغتيالات، ولهذه الأسباب تمكن الجيش الفرنسي من محاصرة الجزائر واحتلال سيدي فرج يوم ١٤ جوان، والاستيلاء على العاصمة يوم ٥ جويلية ١٨٣٠م[١].

ونستخلص من ما تقدم أن ضآلة الموارد الخارجية للدولة الجزائرية مثل:

١. الرسوم الجمركية على الواردات.

٢. الغنائم التي كان يحصل عليها الرياس من الغزو.

٣. الفدية التي كانت تدفع لتحرير الأسرى والعبيد.

٤. الهدايا التي كانت تقدم للداي عند تعيين القناصل بالجزائر.

٥. الجزية المفروضة على الدول الأوروبية مقابل عدم التعرض لسفنها، هي التي جعلت حكومة الداي تعيش في ضائقة مالية حادة.

ونتيجة لإضمحلال المدخول المالي للدولة أبدى الداي وحكومته اهتماماً خاصاً بالشؤون الداخلية للبلاد، وصمم على تعويض المداخيل الآتية من الغنائم والجمارك والهدايا بمداخيل محلية يتحمل أعباءها سكان الجزائر وكانت تلك المداخيل تتمثل في:

١. الزكاة التي تفرض على الماشية والحبوب والأموال.

٢. الحكر وهو الإيجار الذي يدفعه الفلاحون مقابل استثمارهم للأراضي التي تملكها الدولة.

٣. الخراج وهي الضريبة التي يدفعها الأجانب من مسيحيين ويهود.

٤. العشور وهي الضرائب على المحصول.

---

[١] سعيدوني، مرجع سابق، ص: ٨٢ـ ٨٤.

٥. اللازمة وهي ضريبة استثنائية تدفع كمساهمة من المواطنين في نفقات الجيش والدفاع عن الوطن[١].

وكانت النتيجة الحتمية لزيادة الضرائب هي تزايد السخط الشعبي على حكم الداي، وتهرب السكان من دفع الضرائب جملة واحدة، وقيام ثورات شعبية في عدة نواحي بالبلاد وهذا ما يفسر الانهيار السريع للنظام التركي بالجزائر[٢].

---

[١] محمود الهندي مرجع سابق، ص: ٦٧ ـ ٦٨.

[٢] عبد الله شريط محمد مبارك الميلي، مختصر تاريخ الجزائر، ص: ١٧٦.

أنظر التاريخ السياسي للجزائر، د. عما أبو حوش، ص: ٥٨ ـ ٨٠.

المبحث الرابع

الاحتلال الإجرامي الفرنسي للجزائر

مقدمة:

إن معظم المؤرخين لا يؤمنون بالإهانة المزعومة المتمثلة في ضربة المروحة التي أصابت قنصل فرنسا "بيار ديفال" من طرف الدّاي حسين "يوم ٢٩ أفريل ١٨٢٧" الذي كان يوم عيد المسلمين.

هناك روايات متعارضة صدرت من القنصل ومن الدّاي: فالدّاي يتحدث عن ضربة حفيفة ناجمة عن محادثات تميزت بالشدة في موضوع العلاقات الجزائرية الفرنسية، في تلك المحادثات أشار الدّاي إلى أنه لم يتلق جواباً من الحكومة الفرنسية في موضوع الدين الذي كان على عاتقها بعد أن زوّدتها شركة بكري بوشناق بالحبوب علماً بأن الخزينة الجزائرية لها حقوق مترتبة على تلك الصفقة، وقد تم بشأن هذه القضية اتفاق صادق عليه الدّاي يوم ٢٣ ديسمبر ١٨١٩م وغرفة النواب الفرنسية يوم ٢٤ جويلية ١٨٢٠م.

وفي تقرير موجه إلى السلطان سليم الثالث، أكد الدّاي أن القنصل أجاب بكلام شاتم الدين الإسلامي ولشخصية السلطان، إن اجابة القنصل كانت تحمل ما معناه: إن الملك الفرنسي والدولة الفرنسية لا يرضيان بالإجابة على رسائلك.

لقد حول القنصل "بيار ديفال" القضية إلى قضية تمس بشرف فرنسا في حين أنه هو الذي أهان بجوابه الإسلام والدولة الجزائرية[1].

كان الدّاي قد سمح ليهوديين من أصل إيطالي هما بكري وبوشناق، وتحت حماية قنصلية فرنسا بتصدير القمح الجزائري إلى فرنسا في سنوات الثورة الفرنسية، كان هذان المرابيان

---

[1] الثورة الجزائرية د. بو علام بن حمودة، ص: ١٥.

يشتريان القمح بثمن منخفض ويبيعانه لفرنسا بثمن غال. كان بوشناق يقيم في مدينة الجزائر، وكان بكري يعيش في فرنسا وكان ثمن هذا القمح يعتبر قرضاً دولياً بسبب دخول الحكومة الفرنسية وداي الجزائر، كطرفين في صفقاته، وكانت التجارة الخارجية يسيطر عليها المرابون اليهود وفرنسا والتجارة الداخلية في عهد الدّاي حسين تحت سيطرة المرابين اليهوديين.

ولم يخف بعض الساسة الفرنسيين النزهاء امتعاضهم من موقف حكومتهم من هذا الدين، فقد قام وزير خارجية فرنسا تاليران بتقديم رأيه في مجلس الوزراء عندما عبر عن اقتناعه بحق الجزائر في هذا الدين، وبضرورة أن تعبر فرنسا عن عرفانها لهذا البلد على موقفه من مد الشعب الفرنسي بالقمح مع تأجيل الدفع في الأوقات الحرجة التي كانت تمر بها خزينة الدولة الفرنسية[١]، لكن لم يسمع إلى نصيحته وتراكم الدين فوصل إلى ثمانية ملايين فرنك، لكن حكومة القنصلية لم تسمح إلا بدفع نصف هذا المبلغ، ولم تنفذ الخزينة الفرنسية أمر الدفع واستمر الوضع على ما هو عليه طوال عهد الإمبراطورية، لأن نابليون يرفض تسديد أي دين ما لم يجبر بالقوة على ذلك وفي سنة ١٨١٩م طالب المرابيان اليهوديان فرنسا بدفع المبلغ الذي ارتفع إلى ٢٤ مليون فرنك كثمن للقمح الجزائري، وشكلت الحكومة الفرنسية لجنة لبحث المسألة وخفضت المبلغ من ٢٤ مليون إلى سبعة ملايين فرنك، ووافق اليهوديان على هذا التخفيض كتسوية نهائية للمسألة وصدر اعتراف رسمي من الحكومة الفرنسية في قرارها الصادر يوم ٢٨ اكتوبر ١٨١٩م، ووافق البرلمان على هذا القرار يوم ٢٤ يوليو ١٨٢٠م، ووافق الدّاي على هذه التسوية وطالب بدفع المبلغ المعترف به في أقرب وقت لحاجة خزينة الدولة الجزائرية للمال.

ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية قررت اقتطاع مبلغ من الدين لليهوديين المرابيين اللذين يتمتعان بالجنسية الجزائرية واللذين قررا عدم العودة للجزائر، وكإمعان في نسج خيوط

---

[١] الجزائر في التاريخ عثمان سعدي، ص: ٤٤٣.

المؤامرة على الدين قررت المحكمة الفرنسية حق المرابين في جزء من الدين الذي هو دين من الدولة الجزائرية على الدولة الفرنسية، واعترض الدّاي على أن تفصل محكمة فرنسية في خلاف بينه وبين يهوديين من رعاياه طالباً من الحكومة الفرنسية إعادتهما له كمجرمين، ولم ترد الحكومة الفرنسية عليه، فاضطر إلى الكتابة إلى ملك فرنسا طالباً منه دفع المبلغ سبعة ملايين فرنك لخزينة الدولة الجزائرية، وسحب القنصل الفرنسي بالجزائر الذي يعمل على عرقلة حل هذه المسألة بين الدولتين، وتسليم اليهوديين وكتعبير على قلة اللياقة الدبلوماسية قررت فرنسا تثبيت القنصل وتكليفه بتبليغ الدّاي أن الملك قرر عدم النظر في مطالبه.

ثم قررت الحكومة الفرنسية عدم الاعتراف بتسديد الدين للدولة الجزائرية وإنما تسديده للمرابين اليهوديين وتجنب القنصل زيارة الدّاي منتظراً وصول الاسطول الفرنسي للجزائر من طولون وفي يوم ٣٠ أفريل ١٨٢٧م حضر القنصل لحفل استقبال بقصر الدّاي، وعندما سأله الدّاي عن الرد الذي تلقاه من حكومته على رسالته التي بعث بها للملك أجابه باستفزاز: "إن حكومتي لن ترد عليك .." فاعتبر الدّاي هذا الجواب إهانة له وطلب من القنصل مغادرة القاعة ملوحاً بمروحة كانت في يده واعتبرت الحكومة الفرنسية أن الدّاي أهانها عندما ضرب قنصلها بالمروحة واعتبرت ضربة المروحة سبباً كافياً لغزو الجزائر[1].

قطعت العلاقات بين البلدين وراحت فرنسا تعد العدة لغزو الجزائر بعد أن انكشفت شواطئها على إثر تدمير اسطولها في معركة نافارين وانقسم المسؤولون الفرنسيون: فريق يخشى من المقاومة الجزائرية فيقترح الاكتفاء بفرض حصار بحري على السواحل الجزائرية كرد على إهانة الدّاي وإجباره على الخضوع للمطالب الفرنسية، أما الفريق الثاني فيرى ضرورة القيام بعملية إنزال واحتلال مدينة الجزائر وهو التيار اليميني الذي يرى في احتلال

---

[1] الجزائر في التاريخ عثمان سعدي، ص: ٤٤٤.

الجزائر عملية تنسي الشعب هزيمة ١٨١٥م وأسرة بوربون متحمسة لهذا الحل من تثبيت عودتها لعرش فرنسا الذي تحقق بفرض قوى خارجية.

فرض الأسطول الفرنسي حصار على السواحل الجزائرية ثلاث سنوات من ١٦/ ٦/ ١٨٢٧م وحتى ١٣/ ٦/ ١٨٣٠م تاريخ الغزو، وكلف الحصار فرنسا مبلغ سبعة ملايين فرنك سنوياً.

. مشروع محمد علي باشا ملك مصر:

وتدخل محمد علي ملك مصر وعرض مشروعه لاحتلال المغرب العربي: ليبيا وتونس والجزائر، وضمهما لمصر، وإسقاط الدّاي عدو فرنسا مقابل دعم فرنسا له، على أن يضمن لها الحصول على امتيازات اقتصادية وعسكرية بالجزائر وقد عبر عن استعداده للتوجه إلى المغرب العربي على رأس جيش قومه ٦٢ ألف جندي.

لكن بريطانيا عارضت تدخل محمد علي وتوسعه غرباً بالرغم من محاولة هذا إقناعها بأن هدفه منع فرنسا من احتلال بلد مسلم وفي يوم ٢٣/ ١/ ١٨٣٠م هددت بريطانيا فرنسا رسمياً بأنها قررت استعمال القوة ضد مشروع محمد علي، وفشل المشروع لا بسبب التهديد البريطاني فقط وإنما بسبب معارضة وزيري الحربية والبحرية الفرنسيين ورفضهما إقحام محمد علي في قضية الجزائر، وإرضاء لوزيريه قدم رئيس الوزراء بولينياك تعديلاً لعرض محمد علي يتمثل في دعم محمد علي للسيطرة على طرابلس وتونس مقابل مساعدته لفرنسا على احتلال الجزائر، ورفض محمد علي المشروع المعدل لأنه لا يريد أن يسجل عليه العمل على مساعدة دولة مسيحية على استعمار بلد مسلم وفي الأخير رفض مجلس الوزراء الفرنسي مشروع محمد علي في جلسة ١٢/ ١٠/ ١٨٢٩م[١].

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٤٦.

. وصف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي لمحمد علي:

وصف المؤرخ الجبرتي محمد علي بأنه مخادع وكذاب يحلف الإيمان الكاذبة ظالم لا عهد له ولا ذمة يضمر السوء، واستخدم العسف والجور في نفس الوقت الذي يعد فيه بالعدل لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ[1]، ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد علي بأنه ميكافللي، أو أنه تعلم على فكر ميكافللي صاحب نظرية "الغاية تبرر الوسيلة" فقيل له مرة ـ أي محمد علي ـ إن ميكافللي ألف كتاباً اسمه "الأمير" فكلف أحد النصارى المحيطين به ـ وقد اعتاد أن يكون أغلب مرافقيه من النصارى واليهود واسمه أرتين ـ بترجمة هذا الكتاب، وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة، فلما وصل إلى الصفحة العاشرة توقف على المواصلة قائلاً بأنه يمتلك من الحيل مالم يخطر لميكافللي على بال[2].

ولقد علق بعض الكتّاب على ذلك بأن هذه الصفات التي رشحت محمد علي لأن يصبح والياً على مصر[3]، وتلك الصفة القذرة من حب الزعامة وإلى حد الجنون وقسوة القلب، والنظر إلى الذات، وعدم المبالاة بالإسلام هي التي تبحث عنها المحافل الماسونية لصناعة الأبطال الذين يدمرون الإسلام ودوله من داخله.

إن محمد علي باشا لم يكن لديه مانعاً أن يقوم بدور الاحتلال للجزائر لصالح فرنسا إلا أن البرلمان الفرنسي رفض ذلك ومواقف بعض الدول الاوروبية اجبرته على التخلي عن تلك الفكرة التوسيعية على حساب شعوب ودول تمر بأضعف مراحلها.

لقد كانت المصالح الفرنسية ترى ضرورة دعم محمد علي ليتحقق لها اطماعها المستقبلية في حفظ وتقوية محافلها الماسونية، وإضعاف الدولة العلية العثمانية وزرع خنجرها المسموم في قلب الدولة العثمانية ولذلك أنشأت لمحمد علي اسطولاً بحرياً متقدماً متطوراً وترسانة

---

[1] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٣٧٣.

[2] المصدر نفسه، ص: ٣٧٤.

[3] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٣٧٤.

بحرية في دمياط والقناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر، وكل ذلك إنما كان لتنفيذ المخطط الصليبي الذي فشلت الحملة الفرنسية بتنفيذه بسبب اضطرارها إلى الخروج[١].

أولاً: الأسباب الحقيقية للاحتلال الفرنسي للجزائر

كانت فرنسا مدفوعة في غزوها للجزائر بأسباب عدة ولكنها ادعت أمام الرأي العام الأوروبي أن هدفها القيام بحملة تأديبية ضد الجزائر، وفي الحقيقة إن فرنسا كانت تخطط لاحتلال الجزائر والاستيلاء عليها منذ ١٧٩٢م، أي سنة إبعاد إسبانيا وتصفية قاعدتها العسكرية في المرسى الكبير بوهران، فقد كانت هناك رغبة قوية للتجار الفرنسيين والقيادة السياسية بتلك البلاد أن تحل فرنسا محل إسبانيا في شمال أفريقيا وتسيطر على هذه المنطقة الغنية بالثروات الطبيعية وبصفتها موقعاً استراتيجياً هاماً من الناحية العسكرية، فإن الجيش الفرنسي كان يسعى باستمرار لتقوية اسطوله وإنهاء السيطرة الإنجليزية على حوض البحر الأبيض المتوسط، كما أن هناك أسباب عديدة سياسية، ودينية واقتصادية وغيرها ويمكن تلخيص أهم الأسباب في الآتي:

١. السياسية:

وتتمثل في اعتبار حكومة الجزائر تابعة للإمبراطورية العثمانية التي بدأت تنهار والدول الأوروبية تتهيأ للاستيلاء على الأراضي التابعة لها وخاصة أن الفرنسيين كانوا يعتقدون أنهم سيحصلون على غنيمة تقدر ١٥٠ مليون فرنك توجد بخزينة الدّاي. كما أن شارل العاشر ملك فرنسا كان يرغب في خلق تعاون وثيق مع روسيا في حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يتغلب على الهيمنة البريطانية في البحر المتوسط والتمركز في ميناء الجزائر الذي كان يعتبر في نظر الملك الفرنسي تابعاً للأمبراطورية العثمانية المنهارة، ثم إن المعارضة سيطرت على مجلس النواب في انتخابات نوفبر ١٨٢٧م خلقت مصاعب

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٣٧٧.

داخلية للملك الفرنسي الذي كان يعتقد أن الحل الوحيد لإسكات المعارضة هو احراز انتصار باهر على دّاي الجزائر، وإذا لم يتمكن من ذلك فإن المعارضة ستحرز انتصاراً آخر في الانتخابات البرلمانية[1].

٢. الأسباب العسكرية:

إن انهزام الجيش الفرنسي في أوروبا وفشله في احتلال مصر والانسحاب منها تحت ضربات القوات الإنجليزية في سنة ١٨٠١م قد دفع نابليون بونابرت أن يبعث بأحد ضباطه إلى الجزائر في الفترة الممتدة من ٢٤ ماي إلى ١٧ جويلية ١٨٠٨م لكي يضع له خطة عسكرية تسمح له بإقامة محميات فرنسية في شمال أفريقيا تمتد من المغرب الاقصى إلى مصر "مثلما عملت روما في الماضي" وفي عام ١٨٠٩م قام هذا الضابط العسكري "بوتان" بتسليم المخطط العسكري لاحتلال الجزائر إلى نابليون واقترح فيه على الامبراطور الفرنسي أن يحتل مدينة الجزائر عن طريق البر، ثم التوسع لاحتلال بقية أراضي الجزائر لأن بقية المقاطعات الجزائرية سوف تتعاون فيما بينها وتطيح بالسلطات الفرنسية في الجزائر العاصمة وعند إنهزام نابليون في معركة واترلو سنة ١٨١٥م وتحالف الدول الكبرى ضد الجيش الفرنسي في اوروبا شعر ملك فرنسا أنه من الأفضل أن يعتمد على سياسة التوسع في أفريقيا ويعمل على انشغال الجيش بمسائل حيوية تتمثل من إمكانية قيام الجيش بإنقلاب ضده في فرنسا، وبالفعل فإن الجيش الفرنسي قد انشغل باحتلال الجزائر واقام سلطة عسكرية متينة بهذا البلد إلى غاية نوفبر ١٩٥٤م يوم قامت الثورة الجزائرية الأخيرة ووضعت نهاية لخرافة الجزائر الفرنسية[2].

٣. الأسباب الاقتصادية:

كانت فرنسا تطمع في خيرات الجزائر وثرواتها الطبيعية الوافرة وتتطلع لتعريف منتجاتها في أسواقها، كما كانت ترغب في التخلص من ديون الجزائر عليها وتتمثل قيمة كميات

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر د. عمار بو حوش، ص: ٨٣ ، ٨٤.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٨٤.

القمح الوفيرة التي استوردتها فرنسا منها، وسبق تأجيل السداد بمساعدة بعض التجار اليهود في الجزائر وقد كشف القنصل التجاري الفرنسي عن هذه الدوافع الاقتصادية في رسالته التي بعث بها إلى حكومته في باريس قبيل غزو الجزائر حيث قال:

أن الفوائد المادية التي تعود على فرنسا من غزو الجزائر بغض النظر عن ملايين الفرنكات الذهبية التي تزخر بها الخزانة الجزائرية، أجدى وأنفع لفرنسا من كل عمليات الغزو الاقتصادي التي قامت به حتى الآن... فهناك سهول طيبة ذات خصب عجيب، ومناجم غنية بالحديد والرصاص وجبال من العناصر المعدنية كلها تنتظر الأيدي التي تستغلها[١].

إن الجانب الاقتصادي قد لعب دوراً قوياً في إقدام فرنسا على احتلال الجزائر، ويظهر هذا بوضوح في الدراسة التي نشرها السيد تاليرات في شهر جويلية من عام ١٧٩٧م والتي كان عنوانها محاولة حول الامتيازات التي يمكن الحصول عليها من جراء إنشاء مستعمرات جديدة في الظروف الحالية، وقد طلبت حكومة فرنسا في عهد نابليون بونابرت من قنصلها في الجزائر أن يجيبها بدقة عن بعض الأسئلة المتعلقة بمشروع احتلال الجزائر.

وقد تعاون الرأسماليون الفرنسيون مع رجال الجيش الفرنسي في دفع الحكومة والدولة لاحتلال الجزائر والاستيلاء على الأرض الخصبة بها وزراعة العنب والبحث عن الذهب في المناجم الجزائرية، واستجابة لهذا المخطط قام الجنرال "كلوزيل" في بداية الاحتلال بإصدار قانون يقضي بتسليم الأراضي الجزائرية الخصبة للمهاجرين الأوربيين وبرزت قوة التجار والنواب الفرنسيين في تكوين كتلة قوية بالبرلمان للدفاع عن مكتسبات الاوربيين في الجزائر وطرد كل من يحاول مراقبتهم أو الحد من سيطرتهم وقد أحرزوا على نجاح هائل إلى درجة أنهم استطاعوا شراء أغلب الاراضي المنتجة في سنوات قليلة، وفي أغلب الحالات

[١] تاريخ العرب الحديث د. حلمي محروس، ص: ٢٢١.

كان التجار المتلهفون على امتلاك خيرات الجزائر يشترون أراضي وهم لم يروها بتاتاً، لأنها تباع لهم من طرف شخص ثالث يكون في العادة يهودي ـ أو متعاون معهم من أجل المال ـ يستحوذ على الدراهم المدفوعة له والأشخاص الذين كانوا يقومون بالوساطة لبيع الأراضي للفرنسيين في معظمهم يهود وهم وحدهم الذين رحبوا بقدوم الجيش الفرنسي إلى الجزائر وبرجال التجارة، وليس هناك جدل بأن مجموعة صغيرة من اليهود الذين كانوا يقومون بالوساطة في كل عملية تجارية قد كانت الفئة المستفيدة من غزو الجزائر، لأن الاحتلال الفرنسي قد حقق للجالية اليهودية بالجزائر امنيتها الكبرى[١] في الثراء السريع بدون حسيب ولا رقيب.

٤. الأسباب الدينية:

فقد رغبة فرنسا في نشر المسيحية في أفريقيا إنطلاقاً من الجزائر وفي هذا الشأن قال وزير الحربية الفرنسية في تقريره الذي قدمه لملك فرنسا "شارل العاشر" :" لقد أرادت العناية الإلهية أن تستأثر جلالتكم في شخص قنصلكم بواسطة ألد أعداء المسيحية، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يدعى ابن لويس التقي لكي ينتقم للدين وللإنسانية ولاها منه الشخصية منه في نفس الوقت ولعل الزمن يسعدنا بأن ننتهز الفرصة لكي ننشر المدينة بين السكان الأصليين وننصرهم"[٢].

لقد كان للجانب الديني أثر كبير في احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م فمن الأسباب التي دعت فرنسا إلى الغزو هو دعواها إنقاذ المسيحية والمسيحيين من أيدي "القراصنة الجزائريين" والقضاء على عش القرصنة ـ الجزائر ـ حسب تعبيرها أيضاً، ففرنسا كانت تعتبر نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية وترى في احتلال الجزائر عملاً هاماً أسدت به إلى العالم المسيحي وشعوب البحر الأبيض المتوسط خدمة كبيرة، فالعامل الديني في الاحتلال نلمسه من الدور الذي لعبه رجال الدين في الحملة بحيث أن قرار شارل العاشر

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٨٥.

[٢] الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، خديجة بقطاش، ص: ١٥.

كان مدفوعاً من الأسقف الكبير وزير الشؤون الدينية فريسوس الذي كانت من ورائه روما، ولا يمكن أن ننسى وزير الحربية في تقرير قدمه للملك شارل العاشر يوم ١٤ أكتوبر ١٨٢٧ عن آماله في تنصير الجزائر بما يلي: يمكن لنا في المستقبل أن نكون سعداء ونحن نمدن الأهالي ونجعلهم مسيحيين. وكليمون تونير يرى أنه ليس من الغريب أن تكون العناية الإلهية مع الملك لأن عمله هذا في سبيل الدين وأكد الملك شارل ذلك حينما خاطب كل أساقفة المملكة قائلاً لهم: إن مردنا أن تقيموا صلوات في جميع الكنائس وتطلبوا من الله أن يحمي الراية ويعطينا النصر[١]، ومما يمكن قوله أن الجانب الحكومي سرّ لما سوف يحققه جيش الملك من انتصار، لأنه انتصار في سبيل البعث الديني المسيحي بأفريقيا الرومانية إلى المسيحية على انقاض القائد الروماني سبيون، وخاصة المدن التي ازدهرت في العهد الروماني اللاتيني[٢].

وأمام هذه النشوة علقت الصحافة اليسارية على هذا الطابع الديني للاحتلال وذكرت إن عمل القنصل دوفال كان بوحي من الفاتيكان وكذلك الحال لعمل بكري وبوشناق اليهوديين، فروما استبشرت خيراً بغزو الجزائر واعتبرته عملاً مقدساً لفائدة المسيحية[٣].

وقد جاء في المعاهدة التي كتبت في ٥ جويلية ١٨٣٠م التي حرّرها قائد الحملة دوبورمون ووقعها الدّاي حسين: أن السلطات الفرنسية ستحترم الأملاك والنساء والديانة لكننا نجد الجنرال دوبرمون يخطو خطوة إلى الوراء يدفعه في ذلك التعصب الديني، فبعد سقوط مدينة الجزائر بأيدي الفرنسيين سارع دوبورمون إلى اقامة صلاة بالقصبة شارك فيها الجيش ورجال الدين وخطب فيهم قائلاً: لقد أعدتم معنا فتح باب المسيحية لأفريقيا ونتمنى في القريب أن نعيد الحضارة التي انطفأت فيها منذ زمن طويل[٤]، ويروي بعضهم

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٦.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٦.

[٣] الحركة التبشيرية في الجزائر، ص: ١٦.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١٧.

قائلاً: إن الاحتفال الذي جرى في العقبة التي بناها أبناء محمد صلى الله عليه وسلم لمواجهة أبناء عيسى عليه السلام قد رتلوا الأناجيل عالية أمام آيات القرآن التي أصبحت ميتة والتي كانت تغطي الجدران[1].

وفي نفس الوقت كان الملك شارل العاشر يحضر قداساً في كنيسة نوتردام دي باري، يحمد الله الذي نصره على الأعداء[2].

إن الجنرال دوبورمون أخذ على نفسه بأن يعمل بالمعاهدة فيحترم الديانة الإسلامية ومقدساتها، وقد نص البند الخامس من المعاهدة على حرية العمل بالدين الإسلامي واحترام كل شيء يرمز إليه، كما نص هذا البند على احترام الممتلكات لكن هذه المعاهدة بقيت حبراً على ورق، لأن الفرنسيين خرقوا هذه المعاهدة باستلائهم على أمكنة العبادة وتحويلها إلى كنائس وثكنات وباستيلائهم على الأوقاف والزوايا، وتجرءوا كذلك على نبش القبور لاستخراج الأجر والأحجار للبناء ولأخذ عظام الموتى لصنع السماد وبيعها في مدينة مرسيليا[3].

ويعترف الفرنسيون بما قام به الجيش حينما دخل مدينة الجزائر فالجنرال لاموريسيير المعروف بتدينه يقول: حللنا بمدينة الجزائر فاتخذنا من المدارس مخازن وثكنات واصطبلات واستحوذنا على أملاك المساجد والمدارس، وكنا نعتقد أننا سنعلم الشعب العربي مبادئ الثورة الفرنسية، ولكن للأسف أن المسلمين رأوا في ذلك ضربة للدين والعقيدة.

إن عودة الكنيسة إلى الحياة السياسية في عهد شارل العاشر قد سمحت بنشاط الإرساليات التبشيرية في فرنسا وخارجها، وساعدت على خلق جو ديني، وانعكست آثاره على احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠م واتضحت هذه الآثار في الطابع الديني الذي اكتسبته هذه الحملة والنزعة الصليبية التي اتصف بها المسؤولون، وبعد الاحتلال لم تعمل

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٧.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٧.

السلطات على احترام الديانة الإسلامية كما جاء في اتفاقية جويلية ١٨٣٠م عند استيلائها على المساجد والمؤسسات وهدمها دون احترام المشاعر الدينية للسكان وكان هذا بمثابة تدخل في شؤونهم الدينية ويمكن أن نعتبره ـ في نظرنا ـ وجهاً من أوجه التبشير التي تتعدد وسائله ومظاهره وسوف يحاول المسؤولون ورجال الدين تنفيذه لتثبيت السلطة الفرنسية في الجزائر ولاسيما بعد تأسيس الأسقفية وتوافد رجال الدين عليها[١].

٥. إدعاء فرنسا أنها احتلت الجزائر لكي تضع حدًّا لأعمال القرصنة البحرية:

في ذلك الوقت كانت القرصنة البحرية عملاً مشاعاً لجميع الدول ومنها فرنسا واسبانيا والبرتغال وهولندا وسردينيا التي كانت أساطيلها تمارس القرصنة البحرية، وكان القراصنة الاوروبيون يمارسون الوحشية في معاملة اسراهم، إذ كانوا يدمغونهم بالحديد المحمي في النار ويقتلون البعض الآخر بدون رحمة أو شفقة، أما البحارة الجزائريون فكانوا يهاجمون السفن التابعة للدول المعادية لبلادهم، وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتبارهم "قراصنة" لشرعية اعمالهم وضرورة تأمين سلامة مياه بلادهم الإقليمية.

فضلاً عن أن الجزائريين كانوا يعاملون اسراهم معاملة إنسانية كأسرى حرب، ومما يذكر أن دول أوروبا البحرية كانت تدفع للجزائر اتاوات معينة مقابل حراسة الأسطول الجزائري لسفنها ومنع القراصنة من التعرض لها، فكانت إنجلترا ترسل مع كل قنصل جديد مبلغ ستمائة جنيه استرليني ذهباً كهدية لحكومة الجزائر، وكانت السويد والدنمارك تدفع اتاوة سنوية قدرها ٦٤٠٠ قرش جزائري، وتدفع صقلية والبرتغال ٢٤٠٠ قرش كل عام وذلك عدا الهدايا التي كان يجلبها معه كل قنصل جديد[٢]، ويظهر ذلك من خلال ذكر أهم الأسباب التي دفعت بفرنسا إلى شن هجوم على الجزائر واحتلالها وأن حادثة المروحة ما هي إلا ذريعة لمحاصرة عاصمة الجزائر وإجبار الدّاي على الاستسلام ويظهر هذا بوضوح

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٣١.

[٢] تاريخ العرب الحديث د. حلمي محروس، ص: ٢٢٣.

في تصرف الكومندان كولي الذي ارسلته فرنسا على رأس قوة بحرية في ١١ جوان ١٨٣٠م لمطالبة الدّاي بتقديم الاعتذارات إلى قنصل فرنسا بالجزائر على ظهر سفينة فرنسية، ويرفع العلم الفرنسي فوق حصون مدينة الجزائر وعلى الأخص فوق قصر الدّاي، وفي مقر البحرية ثم توجيه التحية للعلم الفرنسي بمائة طلقة مدفعية جزائرية وقد أنذر الضابط الفرنسي الدّاي بأن عدم الاستجابة لهذه المطالب في ظرف ٢٤ ساعة يعني إعلان الحرب على الجزائر، وبالفعل فقد رفض الدّاي هذه الشروط المجحفة والمهينة وبذلك أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر يوم ١٦ جوان ١٨٢٧م[١].

٦. الظروف الدولية المواتية:

استغلت فرنسا الجو الدولي، فقد انهزم الاسطول التركي بالقرب من الميناء الاغريقي نافاران في أثناء حرب استقلال اليونان ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م.

. تقبل القيصر نيكولا الأول للحملة ضد الجزائر لأن الضربة قد تضعف السلطة العثمانية وتؤمن حرية الملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

. وقوف ملك بروسيا المواقف نفسها.

. عدم معارضة دول شمال أوروبا.

. قبول ملك نابولي لإبحار سفن رعاياه في خدمة الجيوش الفرنسية من موانئ بلده.

. حياد باي تونس تجاه الخلاف الجزائري الفرنسي منذ سنة ١٨٢٨م خلافاً لتضامن الشعب التونسي مع الجزائر، كما يريد في الحقيقة توسيع أراضيه ويسعى إلى وضع أخيه كدّاي على رأس الجزائر.

تجدر الإشارة إلى أن باشا طرابلس يوسف القرمانلي عبّر في رسالة عن تضامنه مع الدّاي حسين وأن ملك اسبانيا فردينان السابع تحفظ تُجاه الحملة الحربية نظراً إلى معاهدته التجارية مع الدّاي حسين وإلى احترامه لمعارضة بريطانيا لحملة فرنسا على الجزائر

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٠.

ولسعيها لايجاد حل سلمي وكانت قد حثت السلطان العثماني على ارسال شخصية إلى الجزائر قصد إقناع الدّاي حسين بقبول الحل السلمي، ولقد أوفد السلطان السيد طاهر باشا إلا أن السلطات الفرنسية منعته من الاتصال بالدّاي، وفي ٣٠ ماي ١٨٣٠م رفضت فرنسا استقبال مبعوث السلطان العثماني سليم الثالث الدّاي اراد أن يجد حلاً سلمياً للخلاف بين فرنسا والجزائر وقد فسرت السلطات الفرنسية ذلك الموقف بوجود الحصار لميناء الجزائر والحقيقة هي أن القرار السياسي المتعلق باحتلال الجزائر قد اتُّخذ فأعلنه الملك في اليوم الثاني من مارس ١٨٣٠م عند افتتاح دورة غرفة النواب[١].

٧. الخيارات التي عرضت على مجلس الوزراء الفرنسي قبل البدء في غزو الجزائر:

وقد ناقش الوزراء الفرنسيين الخيارات التالية إحداها:

. الإبقاء على الدّاي في حكم الجزائر، على أن تشرف فرنسا عليه من الناحية العسكرية فنجد عدد الجيش والأسطول الذي يستطيع الاحتفاظ به.

. أو إعادة الجزائر إلى الدولة العثمانية مع إقامة حكومة منظمة فيها تضمن احترام الملاحة الأوروبية في البحر المتوسط.

. أو أن تتقاسم فرنسا الجزائر مع الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا.

. أو أن تحتل فرنسا الجزائر بصورة دائمة وتقوم باستغلالها اقتصادياً وقد تم الإتفاق على الرأي الأخير[٢].

ثانياً: كيف تم احتلال الجزائر

كانت عوامل الانهيار واضحة في حكومة الدّاي حسين واضحة المعالم وقدرته على الصمود ضعيفة وبالتالي كان طبيعياً أن ينجح الفرنسيون في احتلال الجزائر، فقد انفرد الدّاي بالسلطة واعتمد على مجموعة صغيرة من الجند والأقرباء الذين كانوا في حاشيته

---

[١] الثورة الجزائرية د. بو علام بن حمودة، ص: ١٧ ، ١٨.

[٢] تاريخ العرب الحديث، ص: ٢٢٤.

وفي خدمته، وحدث تهميش في عهد لابناء الجزائر فقد كانوا يعيشون في عزلة كبيرة ومبعدين عن ادارة الحكم في البلاد كما أن سقوط حكومة الدّاي بسهولة وسرعة فائقة، بسبب عدم وجود جيش قوي وقيادة له حكيمة وواعية على ما كان عليه في عهد خير الدين بربوس ومن بعده كما أن الدّاي كان مهتم بجمع الأموال والثروات، ولم يستعد لمثل هذا اليوم العصيب وكان يعتقد بأن الجزائر محصنة وأن جيشه التقليدي الذي لا يتجاوز ستة آلاف جندي تركي قادر على مواجهة الفرنسيين في حالة هجومهم على موانئ الجزائر[1].

كانت فرنسا قد أعدت العدة وقررت غزو الجزائر منذ يناير ١٨٣٠م وألفت ثلاث لجان للإعداد للحملة التي قررت أن يكون الإنزال في سيدي فرج، وفي ٧ شباط ـ فبراير أصدر الملك شارل العاشر مرسوماً ملكياً يعلن التعبئة العامة، وأعلن في خطاب العرش: أن الحملة انتقام للشرف الفرنسي، وأنها حملة مسيحية على بلاد المسلمين المتوحشين وأنها خدمة للعالم المسيحي.

وصل عدد جنود الحملة ٣٧٠٠٠ جندي، وعدد الخيول ٤٥٠٠٠، و٩١ مدفعاً و٦٠٠ سفينة منها ١٠٣ حربية، كانت السفن شراعية باستثناء عدد لا يتجاوز أصابع اليدين كانت بخارية، وقد نظمت هذه القوات في ثلاث فرق مشاة وكتيبتين من الفرسان، وبطاريات من مدفعية الميدان والحصار، كما نظم الأسطول في ثلاث أساطيل أسطول سفن الإنزال، وثالث يتألف من سفن النقل التي تحمل من الذخيرة ما يكفي الجيش لمدة ثلاثة أشهر.

ثالثاً: الأساطيل الفرنسية

غادرت أساطيل الحملة طولون يوم ٢٥ أيار ـ مايو ١٨٣٠م وبعد أيام وصلت أمام مدينة الجزائر وأما نشاط الرياح قرر أميرال الأسطول عدم الرسو والعودة نحو الشمال وفي ذهنه

---

[1] التاريخ السياسي، ص: ٩٠.

الإفراط في تذكر النكبات التي أصابت الأساطيل الأوروبية أمام هذه المدينة وبخاصة أسطول شارل كوينثو الإسباني . مثلما ذكر المارشال ماكماهون في مذكراته وسخط قائد الحملة الجنرال بورمون وكاد أن يأمر الأميرال بعدم الانسحاب، لكنه خشي إحداث شقاق بين القوات البرية والبحرية وفي أثناء مناورة أسطول الحملة هذه وفي وسط المسافة بين الساحل الجزائري وجزر البليار شوهدت بارجتان حربيتان تركيتان تتجهان نحو سفينة القيادة الفرنسية، وأقتربتا منها وتوقفتا وصعد ضابط تركي واجتمع بالجنرال بورمون حيث عرض عليه رسالة من الخلافة العثمانية تطلب فيها التوقف على غزو الجزائر مقابل التزامها بسحب الدّاي حسين وتقديم التعويضات اللازمة لفرنسا ورفض بورمون هذا العرض التركي، وكانت الخلافة العثمانية في وضع ضعف واقعة تحت رحمة السيطرة الاوروبية بسبب الصراع بينها وبين محمد علي والي مصر[١].

وبعد رسو الأسطول في جزر البليار أيام توجه مرة ثانية للجنوب ووصل الاسطول الفرنسي أمام مدينة الجزائر يوم ١٣ يونيو . حزيران وبعد أن قام بمناورة استعراضية توجه إلى سيدي فرج، وفي الساعة الثانية صباحاً من يوم ١٤ هبطت الفرقة الأولى مشاة وعلى رأسها الجنرال بيرتوزان، وقبل نزول الفرقة قام الاسطول بتوجيه أول طلقات مدفعيته إلى مئذنة مسجد سيدي فرج فدمرتها، وفسر ذلك بأن هذه رسالة موجهة للجزائر وللعالم بأن الغزو هو غزو صليب للهلال وجرى الإنزال بدون مقاومة كبيرة، وقامت هذه القوات باقامة معسكراتها وتحصينها، ثم تقدمت نحو الجزائر، وما كادت هذه القوات تستقر على الأرض حتى هوت عليها قذائف مدفعية السواحل القليلة التي كانت منصوبة في سيدي فرج، فبعثرت قذائفها أشلاء مجموعة من جنود العدو ونشرت أجسادها في الفضاء واستمر قصف المدفعية الجزائرية نصف ساعة دفع قوات الاحتلال إلى التقهقر وبعدها تمكنت القوات الغازية من إخماد هذه البطارية التي قاوم مدفعيوها الشجعان إلى أن

---

[١] الجزائر في التاريخ عثمان سعدي، ص: ٤٤٧.

استشهدوا، وفي ١٨ حزيران ـ يونيو هاجمت قوات الاحتلال الجيش الجزائري الذي كان يرابط في خط دفاع أول بستاويلي، وكانت القوات الجزائرية بقيادة نسيب الدّاي إبراهيم آغا يساعده باي قسنطينة أحمد باي وكان تعداده ستة آلاف جندي متواضعي التسليح والتدريب، وبالرغم من ذلك فقد شن الجيش على قوات الاحتلال هجوماً عاماً يوم ١٩ يونيو ـ حزيران، ودارت معركة شديدة أسفرت عن انهزام الجيش الجزائري الذي كان يعتمد على خفة الحركة والكر والفر، ويستعمل بنادق عتيقة ويعتمد أساساً على استعمال السيوف في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يعتمدون على جيش منظم ونيران كثيفة وتسليح حديث، وطوابير ثابتة تتقدم متلاحمة تصد هجمات الفرسان الجزائريين وتشتت شملهم في خطة محكمة، وانسحب الآغا إبراهيم من ستاويلي وقام بعمل عراقيل لقوات العدو تاركاً في أرض المعركة ٢٧٠٠ خيمة منها خيمته، و٦٠ جملاً نحرها الفرنسيون وأكلوها لحماً.

ويقول حمدان خوجة في كتابه المرآة: دخل إبراهيم آغا الحرب بلا جيش مدرب منظم، وبدون ذخائر وبدون مواد غذائية وبدون شعير للخيل وبدون أي كفاءة للقيام بالحرب، لقد أعطى كل جندي طلقتين اثنتين فقط.

ويقول الجنرال بيرتوزان: إن الرماة الجزائريين يحسنون أفضل منا في الرماية، وكان رأي أحمد باي تجنب حرب المواجهة أمام الجيش الفرنسي القوي والمسلح، وتشكيل المقاتلين الجزائريين في مجموعات وتوزيعها على طول الطريق بين سيدي فرج والجزائر، لكن الآغا إبراهيم البعيد عن الكفاءة لم يستمع إليه كان أكبر خطأ ارتكبه الدّاي عزل الآغا يحيى الكفء من قيادة الجيش وتعيين إبراهيم لا لشيء إلا لأنه صهره[1].

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٤٨.

بعد هزيمة ستاويلي هرب إبراهيم من الميدان واختفى في منزل ريفي، وأرسل له الدّاي حمدان خوجة فأقنعه بالعودة لقيادة الجيش، فعاد لكنه هرب مرة أخرى عندما وصل العدو لسيدي خالف.

وفي يوم ٢٢ تقدمت قوات العدو نحو سيدي خالف وتصورت أنها لا تلاقي مقاومة، لكنها فوجئت بقوة يقودها القائد الشجاع مصطفى بو مزراق والي تيطري تمكنت من إلحاق خسائر مهمة بالعدو قبل أن تنسحب نحو العاصمة.

وأمام هذه المقاومة التي تعتمد على الشجاعة قرر الجنرال بورمون قائد الحملة انتظار تعزيزات وصلت يوم ٢٥ من الشهر، ثم أمر بالتقدم نحو مدينة الجزائر يوم ٢٩ يونيو ـ حزيران قاصداً قلعة السلطان، وفقاً للخريطة التي سبق أن أعدها الجاسوس العقيد بوتان في عهد نابليون، لكن قواته ضلت طريقها، فقد شاهدت بحيرة من الماء تصورت أنها البحر فأمر بورمون سائر القطاعات التوقف والتوجه نحو الماء فاندفعت الفرقة الثانية وفجأة وجدت نفسها تغوص في وهاد صعبة كلف قائد الفرقة الجنرال لوفيردو جهداً وساعات من أجل السيطرة على الموقف والخروج من وهاد ووديان وغابات بوزريعة وإخراج قواته من الفوضى العارمة التي وقعت فيها نتيجة لكونها تاهت عن الطريق وانحرفت شمالاً، ولم يستغلها الجزائريون الذين كانوا فاقدي القيادة العسكرية والكفاءة، ومثلما يقول المارشال ماكماهون في مذكراته: ولو اتيح للجنود الاتراك الذين يعسكرون على طريق الميناء الحقيقي أن يهاجموا الفرقة الثانية أثناء ضلالها لكبدوها خسائر فادحة[١].

وانتظرت قوات الاحتلال التحاق قطع الأسطول من سيدي فرج وقامت قطعة الحربية بقصف مرابطي مدفعية المدينة وتمكنت من فتح ثغرات فيها، وعندها أمر بورمون بالتقدم يوم ٣ تموز ـ يوليو، ووصلت القوات الغازية خط الدفاع الأول المتمثل في برج مولاي

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٤٩.

حسن وحضر الفرنسيون الخنادق وراحوا يهاجمون البرج الذي كان يقوده قائد فاشل أيضاً هو الخزناجي، وقاوم الجزائريون مقاومة شرسة لكن النيران تسربت إلى مخزن البارود الصغير بالبرج فأحدثت انفجاراً مهولاً دمر جزءاً من القلعة استغله الفرنسيون فاحتلوها بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة، تم كل ذلك في ساعات وصاروا يهدون المدينة من هذه القلعة وتحصيناتها المشرفة على القصبة، بعد أن نصبوا عليها مدافعهم ووجهوا فوهاتها للمدينة، ومن البحر كان الأسطول الفرنسي يصوب مدافعه للمدينة واقتنع باي تيطري مصطفى بو مزراق أن لا أمل في المقاومة فانسحب إلى ولايته[١].

١. سقوط مدينة الجزائر واستسلام الدّاي:

لما تأكد نزول الجيش الفرنسي سيدي فرج يوم ١٤ جوان ١٨٣٠م وبدأ يستعد لكي يزحف على الجزائر العاصمة من الغرب، وشعر حاكم الجزائر الدّاي حسين بالخوف على نفسه وعلى سلطته وقرر الدّاي حسين باشا أن يجتمع برؤساء الهيئات المهنية الموجودة في المدينة وأعيان البلاد وشيوخ القبائل والعلماء ورجال القانون واستعرض معهم الوضع الخطير الذي كانت عليه المدينة وطلب منهم إعطاءه رأيهم حتى يمكن التوصل إلى وسيلة تحقيق السلامة وتقضي على الشرور وقال لهم حسب شاهد عيان: أصدقائي لا تتحرجوا وقولوا رأيكم بصراحة، ففي مثل هذه الظروف يجب أن نتداول على أنجع الوسائل ولست إلا واحداً منكم، فماذا ترون؟ هل من الممكن أن نقاوم الفرنسيون مدة أطول؟ أم هل يجب أن نسلم المدينة بمعاهدة تسمى "استسلام". وبما أن كلام الدّاي غامض ولا أحد يعرف ماذا يريد من أعيان المدينة، فقد أجابوه بأسلوب مماثل حيث كان ردهم كالآتي: سنحارب إلى أن نستشهد عن آخرنا ومع ذلك فإذا فضل سموكم وسائل أخرى فإنه حر في أن يعمل ما يراه صالحاً وسيجدنا عند إرادته[٢]، وفي الحقيقة أن إشارة الدّاي إلى قبول الاستسلام للفرنسيين وتسليم المدينة حسب نصوص معاهدة يوقعها

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٥٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٥٠.

معهم تدل دلالة واضحة على قناعته بأنه غير قادر على المقاومة وأن انهيار حكومته هي مسألة وقت فقط، والمؤرخون الذين عايشوا الدّاي وتعرفوا على ما يجري في الأوساط المحيطة به أكدوا بأن الصراع الذي كان يدور بين معاونيه منذ مدة مهد الطريق للاحتلال الفرنسي بسرعة فائقة[١].

وعندما أحس الدّاي حسين أن المدينة صارت في حكم الساقطة، قرر الاتصال بالفرنسيين فأرسل أحد أمناء سره لمفاوضتهم، بعد أن حاول توسيط القنصل البريطاني الذي رفضه الفرنسيون، وأبلغوا الدّاي تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط، وصل شخصان كرسولين وقابلا الجنرال بورمون وعرضا عليه تعويضات سخية تقدم له مع الاعتذار مقابل عودة الجيش الفرنسي، ويروي الفرنسيون أنه عندما رفض طلبهما صاح أحدهما قائلاً: إذا كان يسرك يا جنرال أن ترى رأس الدّاي بين يديك فإنني سأذهب الآن للعودة به إليك في طبق. لكن الجنرال اكتفى بإعادة شروطه على الرسولين والمتمثلة في الاستسلام بلا شرط، وأرسل الجنرال بورمون إلى الدّاي نص المعاهدة الآتية:

. تسلّم قلعة القصبة وكل القلاع الأخرى المتصلة بالمدينة وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي هذا الصباح الساعة العاشرة.

. يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي أمام سعادة باشا الجزائر أن يترك له الحرية وكل أمواله الشخصية.

. يكون الباشا حراً في أن يتوجه هو وأسرته وثروته الخاصة إلى المكان الذي يختاره، وإذا فضل البقاء بالجزائر فله ذلك هو وأسرته تحت حماية القائد العام للجيش الفرنسي الذي سيعين له حرساً لضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته.

. يتعهد القائد العام أن يقدم لكل الجنود الإنكشارية نفس المعاملة ونفس الحماية.

[١] التاريخ السياسي للجزائر د. عمار بو حوش، ص: ٩١.

. سيظل العمل بالدين الإسلامي حراً، كما أن حرية السكان مهما كانت طبقاتهم ودياناتهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم لن يلحقها أي ضرر، وستكون نساؤهم محل احترام، ويلتزم القائد العام على ذلك بشرفه، وسيتم تبادل وثائق هذا الاتفاق قبل الساعة العاشرة من هذا الصباح، وسيدخل الجيش الفرنسي حالاً بعد ذلك إلى القصبة وكل القلاع حول المدينة والميناء. الكونت دي بورمون. ختم حسين باشا داي الجزائر.

قدم بورمون المعاهدة في إطار أمر ينفذ من طرف الدّاي بدون مناقشة بنوده.

وقع الدّاي في أثناء الليل المعاهدة التي هي عبارة عن شروط استسلام وسلمت المدينة فعلاً صباح ٥ تموز ـ يوليو ١٨٣٠م[١].

وفي يوم ٦ جويلية ١٨٣٠م دخل الجنود الفرنسيين مدينة الجزائر من الباب الجديد بأعلى المدينة وأنزلت أعلام دولة الدّاي من جميع القلاع والأبراج، وارتفعت في مكانها رايات الاحتلال الفرنسي، وأقيمت صلاة للمسيحيين وخطب فيها كبير قساوسة الحملة، فقال مخاطباً قائد الحملة الفرنسية: لقد فتحت باباً للمسيحية على شاطئ أفريقيا[٢].

ودخل الجنرال بورمون المدينة وسكن أحد قصورها، وبعد أيام أمر بورمون الجنرال بيرتوزان بإحصاء محتويات خزينة الدولة الجزائرية التي سلم الدّاي مفاتيحها لبورمون مع وثيقة الاستسلام، ويروي المارشال ماكماهون الذي رافق الجنرال للخزنة كضابط صغير: كانت الخزينة عبارة عن حجرة تبلغ مساحتها ستة أمتار في خمسة، في أقصاها سياج من خشب البلوط يبلغ ارتفاعه مترين، كدست بينه وبين جدار الغرفة نقود فضية من كل نوع وعلى اليمين صندوق كبير فيه نقود من الذهب لاسيما النوع الإسباني، وعلى الأرض ثلاثة أقراص صغار أو أربعة من الذهب وقدر هذا الكنز بما يعادل ثمانين مليون فرنك، وهو مبلغ يفوق تكاليف الحملة التي قدرت بـ ٤٣ مليون فرنك، ويبدو أن الخزينة كانت تحتوي

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥١.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠٠.

على مبالغ أكثر نهبها الضباط بعد أن أحرقوا سجلات الخزينة بحيث أن المبلغ الذي سجل نهائياً كان لا يعدو ٤٨ مليون فرنك.

ومن الغريب أن الدّاي لم يتصرف بحكمة فيقوم بتهريب أموال الخزينة نحو قسنطينة حيث ستكون هي عون الباي أحمد الذي قرر المقاومة.

وطلب حسين باشا من بورمون إعطاءه ماله الخاص المتمثل في ثلاثين ألف قطعة ذهبية[١]. وقد أثنى القائد الفرنسي على مشاعر الدّاي الإنسانية لحقن الدماء بإبرامه هذه المعاهدة السلمية لتسليم مدينة الجزائر[٢].

وفي يوم ١٠ جويلية ١٨٣٠م رحل الدّاي عن مدينة الجزائر وتوجه إلى نابولي بايطاليا ثم التحق بفرنسا، وأخيراً توجه إلى الإسكندرية بصحبة حريمه وأتباعه وحمل معه خزينته الخصوصية وكان بها نحو تسع ملايين فرنك، وكميات من المجوهرات، والتقى بمحمد علي باشا حاكم مصر ولم يحسن الترحيب به[٣].

وأقام بمصر حتى وافته المنية بالإسكندرية سنة ١٨٣٤م وبعزل الدّاي من طرف الجيش الفرنسي وجبره على الاستسلام، انتهى العهد التركي بالجزائر الذي دام ٣٢٦ سنة[٤]، واستقبل سكان مدينة الجزائر هذا الاستسلام بحزن وحمل الكثير منهم أمتعتهم وغادروها نحو قسنطينة رافضين الإقامة تحت حكم النصارى.

وأما أحمد باي فبعد سقوط قلعة مولاي حسن وتيقّنه من مصير الدّايوية انسحب مع فرسانه إلى وادي القلعة ثم إلى عين الرباط موقع مستشفى مصطفى باشا الآن ثم تقدم شرقاً نحو قسنطينة وانضم إليه ١٦٠٠ شخصاً هربوا من الجيش، وفي الطريق اتصل به بورمون وعرض عليه أن يبقى كما هو إذا قبل دفع أتاوة لفرنسا، فلم يجب على عرضه

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٣٥٢.

[٢] تاريخ العرب الحديث، ص: ٢٢٩.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٢٢٩.

[٤] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠٠.

وواصل سيره الذي استغرق ٢٢ يوماً إلى أن وصل إلى الحامة ضاحية قسنطينة، ووجد بها أنباء مفادها أن بعض خصومه الأتراك قاموا بحركة وبايعوا بايا مكانه اسمه حمود شاكر، لكن أنصار الحاج أحمد عندما علموا بوصوله قادوا حركة تحت قيادة خليفته ابن عيسى وبعض العلماء، فقام الانقلابيون بقتل مرشحهم وإعلانهم الولاء للحاج أحمد[١].

٢. الأخطاء التي وقع فيها الدّاي حسين حاكم الجزائر:

ارتكب الدّاي حسين أخطاء فادحة كلفته فقدان نفوذه وسلطته في الجزائر ومن أهم هذه الأخطاء:

أ. إعدامه لقائد الجيش:

كانت الغلطة التي ارتكبها الدّاي وكلفته فقدان نفوذه وسلطته في الجزائر هي إقدامه على إعدام قائد جيشه البارع الآغا يحيى الذي شغل هذا المنصب مدة ١٢ سنة في عهد الدّاي حسين، فقد كان هذا القائد من أكفأ القادة العسكريين في عهد الديات، وهو الذي دعم سلطة أحمد باي في شرق البلاد، ويحظى بمحبة الجنود العرب والقبائل، ولكن الخزناجي وزير مالية الدّاي غار من القائد يحيى وخشي أن يكون داياً في يوم من الأيام وقام بتقديم تقارير كاذبة إلى الدّاي اتهم فيها الآغا يحيى بأنه ينوي القيام بانقلاب ضد الدّاي وأنه وعد بعض الأشخاص بإسناد مناصب وزارية إليهم في حالة نجاح خطته الانقلابية، فاغتاظ الدّاي وأمر بنفي قائد الجيش واستبداله بصهره إبراهيم الذي لا يفهم شيئاً في فن الحرب أو قيادة الجيش، وخوفاً من اكتشاف خيوط المؤامرة وعودة الآغا يحيى إلى قيادة الجيش أو إلى الحكم قام المتآمرون بتوجيه تهمة أخرى إلى الآغا يحيى وأخبروا الدّاي بأنه يتصل برؤساء العرب والقبائل الذين يزورونه ليلاً في منفاه بالبليدة. كما أكد الخزناجي وجماعته في تقاريرهم المزيفة للدّاي بأن الآغا يحيى يعقد الاجتماعات في بيته ويعد خطة لمهاجمة الجزائر والاستيلاء على السلطة وتعيين نفسه رئيساً للحكومة، وأقنع

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٣.

الدّاي بأن القائد يحيى خائن فأمر بإعدامه سنة ١٨٢٧م، وابتداء من ذلك اليوم وإلى يوم ٥ جويلية ١٨٣٠م بقي الجيش بدون قائد حقيقي لأن صهر الدّاي إبراهيم الذي أسند إليه هذا المنصب لم يكن يفقه شيئاً في فن الحرب.

ولهذا فإن تعيين الآغا إبراهيم على رأس الجيش قد مهّد الطريق للاحتلال الفرنسي، فالقائد الجديد لم يتخذ أية إجراءات محددة لمواجهة الغزاة الفرنسيين وإنما قام بتصوير خطة تقضي بإعطاء أوامر للقبائل العربية الذين سيكونون بجانبه لكي يطوقوا الجنود الفرنسيين ويقضوا عليهم، ونسي هذا القائد أن مجيء القبائل العربية يتطلب وقتاً طويلاً وأن الخيالة العرب يسكنون في أماكن بعيدة عن العاصمة ومن الصعب الاتصال بهم بسرعة[١].

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا بأن المجموعة القليلة من القبائل العربية التي وصلت إلى الجزائر العاصمة لم تكن لديهم المؤونة والذخيرة، ولم يكن في إمكانهم شراء ذلك على نفقاتهم الخاصة، ولذلك كانوا يعودون من حيث أتوا ويتركون آغا إبراهيم وحده، وبإيجاز فإن الدّاي الذي كان على علم مسبق بخطة الفرنسيين القاضية بالدخول من ميناء سيدي فرج، لم يأمر قائده جيشه بحفر الخنادق أو نصب المدافع هناك والتصدي للأعداء بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض الجزائر. وفي اليوم الذي نزل فيه الجيش الفرنسي من بوارجه الحربية لم يكن بسيدي فرج سوى ١٢ مدفعاً و٣٠٠ فارس تحت تصرف صهره إبراهيم، وعندما وقعت معركة ستاويلي وانهزم فيها إبراهيم آغا وجماعته غادر المعسكر وترك جيشه واختفى في دار ريفية مع ثلاثة أو أربعة من جنوده، وفي هذه الأثناء قرر الدّاي أن يطلب من المفتي "شيخ الإسلام" أن يتولى تجنيد الناس وأن يقوم بجمع الشعب للدفاع عن البلاد، ولكن لسوء الحظ كان الأوان قد فات كما أن شيخ الإسلام رجل عادل وفاضل ولكنه

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٢.

بعيد عن أن يكون محارباً، وفي هذه اللحظة الحرجة لم يكن من الممكن أن يقود جيشاً ويصد عدواً، ونتيجة لكل هذا فلم يبق إلا تسليم مدينة الجزائر للفرنسيين[١].

ب. ثقة الدّاي حسين في وزير المالية:

والخطأ الثاني الذي وقع فيه الدّاي ونتج عنه تسهيل عملية احتلال الجزائر يكمن في ثقته العمياء واعتماده على وزير للمالية "الخزناجي" وإرساله للدفاع عن قلعة مولاي حسن "حصن الإمبراطور" وكان ما يصبو إليه الخزناجي هو أن ينجح في الحصول على تأييد الميليشيا "الإنكشارية" ويتمكن من عزل الدّاي ويستولي على الحكم، ويبدو أن وزير مالية الدّاي كان يهدف إلى التفاوض مع الفرنسيين وإبرام معاهدة حسب شروط فرنسا مقابل الاعتراف بالخزناجي كبديل للدّاي.

وكان الكاتب الخاص للدّاي مصطفى قادري ينتمي إلى جماعة الخزناجي، وعندما أرسله الدّاي حسين لمفاوضة الجنرال بورمون والتفاهم معه بشأن معاهدة الاستسلام كان مصطفى قادري يتفاوض باسم الخزناجي وليس باسم الدّاي، وقد وعد بورمون بأنه سيحمل له رأس الدّاي حسين وأنه مستعد للتفاهم مع فرنسا على ما تشاء، ولكن الجنرال الفرنسي أجاب مصطفى قادري بأنه لم يأت لمساعدة المتآمرين ولكنه جاء لكي يحارب. ونستخلص من هذه الحقائق أن جماعة الدّاي المحيطة به كانت تتآمر عليه في الخفاء وتتواطأ مع أعدائه، ولذلك كان من الصعب عليه أن ينجح في محاربة فرنسا وصد هجوماتها على الجزائر[٢].

ج. عدم وجود انضباط من بعض رجال الأمن:

والخطأ الثالث الذي ارتكبه الدّاي يتمثل في عدم وجود انضباط في صفوف رجال الأمن والسماح لبعض العناصر أن تتصل بالعدو وتنقل معلومات تضليلية من مخابراته وتنشرها في الأوساط الشعبية بالجزائر.

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٣.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر صأ ٩٤.

وعلى سبيل المثال نلاحظ أنه بمجرد إنزال الجنود الفرنسيين بسيدي فرج قام جزائري يدعى أحمد بن شعنان بالاتصال بالمعسكر الفرنسي للتعرف على ما إذا كان الفرنسيون قد جاءوا مستعمرين أو محررين من النفوذ التركي، وانتهز الفرنسيون هذه الفرصة لكي يقنعوه بأنهم جاءوا كمحررين من المستعمرين الأتراك، وزودوه في نفس الوقت بنسخ من البيان الفرنسي الذي حملوه معهم من فرنسا، وهو مطبوع باللغة العربية، وأوضحوا فيه أن الفرنسيين جاءوا إلى الجزائر للانتقام لشرفهم من الباشا أو الدّاي، وأن الفرنسيين سيعاملون الجزائريين كما عاملوا إخوانهم المصريين من قبل، وبطبيعة الحال إن نقل هذه المعلومات المضللة إلى الأوساط الشعبية في الجزائر يعتبر خدمة للعدو الفرنسي وتثبيطاً لعزائم كل الجزائريين الذين كانوا يرغبون في مواصلة النضال والدفاع عن البلاد[١].

د . عدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين:

والخطأ الرابع الذي ارتكبه الدّاي وجماعته أنهم لم يضعوا خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين ولم توجد القيادة التي تستعين بآراء الخبراء ويتفق أعضاؤها على خطة دقيقة، فقد ادعى الدّاي أنه يعرف مكان نزول الفرنسيين بسيدي فرج لأن جواسيسه في فرنسا ومالطة وجبل طارق قد زودوه بكل التفاصيل عن خطة فرنسا، لكن المجلس الذي عقد لتحديد خطة معينة للدفاع عن البلاد وشارك فيه الآغا إبراهيم قائد الجيش وصهر الدّاي، ومصطفى باي التيطري، وخوجة الخيل، وخليفة باي العرب، وحمدان بن عثمان خوجة لم يتمكن من وضع إستراتيجية دقيقة لمواجهة الجيش الفرنسي، واستناداً إلى ما قاله أحد أعضاء هذا المجلس وهو حمدان بن عثمان خوجة، فإن الاجتماع الذي عقد بمكان قرب سيدي فرج تمخض عن بروز آراء متضاربة فقائد الجيش الآغا ابراهيم الذي افتتح الاجتماع كان يرى أنه يجب بناء حصون على شاطئ البحر وتزويدها بمدافع قوية حتى تمنع الفرنسيين من النزول. أما حمدان بن عثمان خوجة قال للآغا إبراهيم بأنه إذا وضعنا

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٤.

كل أملنا في إقامة التراسين والحصون فإنكم لن تنتصروا لأن نيران المراكب الفرنسية ستقضي على هذه المنجزات المقامة بسرعة، وتكون أعمالكم قد ذهبت سدى، ثم إنكم لن تتمكنوا من تسليح الحصون دون تعرية مدينة الجزائر التي ينبغي أن تهتموا كل الاهتمام بالدفاع عنها، ومن جهته لاحظ باي قسنطينة بأنه من الصعب على الجزائريين أن يتمركزوا في موقع واحد ويتغلبوا على الجيش الفرنسي، وحسب رأيه أنه ليس من الحكمة أن تجمع القوات الجزائرية في نقطة واحدة، ومن الأفضل أن توزع بحيث ينقل جزء منها إلى غرب سيدي فرج، ومعنى ذلك فإذا قرر الفرنسيون ملاحقة الجزائريين فإنهم يبتعدون عن هدفهم الذي هو مدينة الجزائر، وسيكون ذلك لصالح الجزائر، لأن الجيش الجزائري سيبدأهم بالهجوم، وإذا قصد الفرنسيون مدينة الجزائر فإن الجيش الجزائري سيهاجم من الخلف ويستطيع الانتصار عليهم.

كما اقترح باي قسنطينة أن يتولى كل قائد الإشراف على وحدة من وحدات الجيش، ويكون مقر القيادة هو مدينة الدار البيضاء، وكانت إجابة الآغا إبراهيم على ملاحظات باي قسنطينة جافة وقاسية حيث قال له: إنكم لا تعرفون التكتيك الأوروبي أنه يتعارض كل المعارضة مع تكتيك العرب.

وهكذا باءت كل مجهودات الجزائريين لوضع خطة دقيقة لمجابهة العدو الفرنسي بالفشل، بالاضافة إلى أن الآغا إبراهيم جاء ليحارب فرنسا بدون جيش منظم وبدون ذخيرة وبدون مؤونة وبدون شعير للخيل وبدون المقدرة الضرورية على مواجهة الحرب[١].
وأما بالنسبة للجانب الفرنسي فإن الأوروبيين قد جاءوا وفي حوزتهم الخطة التي رسمها الضابط الفرنسي "بوتان" لاحتلال الجزائر يوم ٢٤ ماي ١٨٠٨م.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٩٦.

كما أن رئيس مجلس وزراء فرنسا "بولينياك" قام بإعداد خطة وعرضها على مجلس الوزراء قبل أن يرسل الجيش الفرنسي من مدينة طولون إلى الجزائر يوم ٢٥ ماي ١٨٣٠م وتتمثّل خطة "بولينياك" فيما ينبغي أن تكون عليه الجزائر بعد الانتصار عليها، واقترح على مجلس الوزراء حرية الاختيار بين البدائل التالية:

. إبقاء الدّاي في حكم الجزائر على أن تشرف فرنسا عليه من الناحية العسكرية فيحدد له عدد الجيش والأسطول الذي يستطيع الدّاي الاحتفاظ به.

. أو إعادة الجزائر إلى الدولة العثمانية لإنشاء حكومة منظمة فيها تضمن احترام الجزائريين للملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

. أو أن تتقاسم فرنسا الجزائر مع الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا.

. أو أن تحتل فرنسا الجزائر بصورة دائمة وأن تستغلها اقتصادياً.

وطبعاً فإن الحل المقترح في النقطة الرابعة هو الذي وقع عليه الاختيار بعد الانتصار الفرنسي على الدّاي والقضاء على حكومته[1].

٣. الحرب النفسية والإعلامية الفرنسية:

عشية مغادرة الأسطول الفرنسي لميناء طولون لشن الحرب على الجزائر، قامت الحكومة الفرنسية بطبع منشور باللغة العربية لكي يتم توزيعه على الجزائريين وأبناء الأتراك قبل دخول الأراضي الجزائرية وتوضيح وجهة النظر الفرنسية بالنسبة لهذا الغزو الأوروبي لأرض إسلامية.

وقد جاء هذا البيان بمثابة خطة لخلق البلبلة في صفوف الجزائريين وإعطائهم انطباعاً بأن الفرنسيين جاءوا لتخليص الجزائريين من السيطرة التركية، وبذلك يتضامنون مع فرنسا ولا يتصدون لها، وتظهر هذه الحقائق من خلال البيان الذي جاء فيه:

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٦ ، ٩٧.

إننا نحن أصدقاءكم الفرنسيين نتوجه الآن نحو مدينة الجزائر إننا ذاهبون لكي نطرد الأتراك من هناك.

إن الأتراك هم أعداؤكم وطغاتكم الذين يتجبرون عليكم ويضطهدونكم والذين يسرقون أملاككم وإنتاج أراضيكم والذين يهددون حياتكم باستمرار.
إننا لن نأخذ المدينة منهم لكي نكون سادة عليها إننا نقسم على ذلك بدمائنا، وإذا انضممتم إلينا وإذا برهنتم على أنكم جديرون بحمايتنا فسيكون الحكم في أيديكم، كما كان في السابق وستكونون سادة مستقلين في وطنكم.

إن الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا المصريين إخوانكم الأعزاء الذين لم يفتأوا يفكرون فينا ويتأسفون على فراقنا طوال الثلاثين سنة الماضية، منذ خرجونا من بلادهم، والذين ما زالوا يرسلون أبناءهم إلى فرنسا ليتعلموا القراءة والكتابة وكل فن وحرفة مفيدة، ونحن نعدكم باحترام نقودكم وبضائعكم ودينكم المقدس لأن ملك فرنسا المعظم حامي وطننا المحبوب يحمي كل دين فإذا كنتم لا تثقوا في كلمتنا وفي قوة سلاحنا فابتعدوا عن طريقنا ولا تنضموا إلى الأتراك الذين هم أعداؤنا وأعداؤكم، فابقوا هادئين.

إن الفرنسيين ليسوا في حاجة إلى مساعدة لضرب وطرد الأتراك.

إن الفرنسيين لكم وسيظلون أصدقاءكم المخلصون فتعالوا إلينا وسنكون مسرورين بكم، وسيكون ذلك فرصة لكم، وإذا احضرتم إلينا الأطعمة والأغذية والأبقار والأغنام فسندفع ثمن ذلك بسعر السوق وإذا كنتم خائفين من سلاحنا فأشيروا علينا بالمكان الذي يقابلوكم فيه جنودنا المخلصون دون سلاح مزودين بالنقود في مقابل التموين الذي تأتون به وهكذا يحل السلام بينكم وبيننا لمصلحتكم ومصلحتنا[١].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٨.

وكان لهذا البيان وبيانات أخرى وزعت في الجزائر الأثر الكبير في نفوس وجهاء مدينة الجزائر الذين كانوا يقولون: لا ينبغي لنا أن نعرض العاهل ولا سكان المدينة إلى أخطار محققة باستعمالنا وسائل الشدة والعنف[١].

وقد تحطمت معنويات التجار والمحاربين في الجزائر بمجرد استيلاء بورمون على حصن الأمبراطور وتأهبه لكي يزحف على العاصمة بجيوشه الكبيرة.

كان رجال التجارة والرأسماليون يميلون إلى الاستسلام لأن الجزائر ضائعة لا محالة، ولو دخل الفرنسيون بالقوة على أثر هجوم فإنهم سينهبون المدينة ويقتلون جميع السكان والنساء والأطفال العزل، وكان تبريرهم لقبول فكرة تسليم المدينة إلى الفرنسيين وفقًا لمعاهدة "استسلام" هو أن أمة شريفة مثل فرنسا لا تنكث بعهودها وأننا سنتمتع بحريتنا ونعامل بكل عدل وبقطع النظر عن كون زيد أو عمر هو الذي يحكمنا، فإن المهم هو أن نحكم كما ينبغي وفقاً لمبادئ الحكومة الفرنسية، وأن لا تمس ديانتنا ومن جهة أخرى فإن عماد الحضارة هي حقوق الإنسان ولذلك فإننا لا نخشى شيئاً من أمة متحضرة. وهذا هو التفكير الذي أدى في نهاية الأمر إلى عدم مقاومة الجيش الفرنسي[٢].

وهؤلاء المساكين يبدو أنهم لم تكن لهم علاقة بالذاكرة التاريخية وماذا فعلت فرنسا لما دخلت مصر، وكيف التجأ القائد الفرنسي كليبر إلى العنف فدك القاهرة في عام ١٨٠٠م بالمدافع من كل جانب وشدد الضرب على حي بولاق، واندلعت ألسنة النيران في كل مكان منه، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكائل والخانات فلم يجد سكان بولاق مفراً من التسليم وتلاهم سكان الأحياء الأخرى، وتولى مشايخ الأزهر الوساطة وأخذوا من كليبر العفو الشامل والأمان، ولكنه ما لبث أن غدر بالمسلمين بعد أن خمدت الثورة، وكان اقتصاصه منهم رهيباً شديداً فأعدم بعضهم وفرض غرامات فادحة

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٩٨.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٩.

على كثير من العلماء والأعيان، كما فرض المغارم على أهل القاهرة جميعاً، ولم يستثن منهم الطبقات الشعبية الكادحة[1].

وعهد كليبر إلى المعلم "يعقوب" أن يفعل بالمسلمين ما يشاء، ومما يذكر ان بطريك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته، وكثيراً ما بذل له النصح بالعدول عن خطته، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه ولم يزدد إلا إمعاناً في تأييد الفرنسيين[2].

٤. سرقات جيش الاحتلال وتعاون اليهود معه:

أما يهود الجزائر فقد كتب عنهم المؤرخ الفرنسي جوليان: لقد استقبل يهود الجزائر المحتلين بالفرح، وعندما انتشر الجنود الفرنسيون في فوضى ينهبون المنازل كان اليهود يوجهونهم نحو الأماكن التي بها ما ينهب ويقومون بشراء ما نهبوا منهم بأبخس الأثمان[3].

أ. قصة هروب اليهود من الاضطهاد الأوروبي:

هؤلاء اليهود الذين هربوا من الاضطهاد الأوروبي إلى الجزائر هم اليهود "الشيكلين" من جزر البليار في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي واليهود "الكيبوسين" من إسبانيا في نهاية القرن الرابع عشر وبخاصة بعد نهاية دولة بني الأحمر في غرناطة سنة ١٤٩٢م، ومن إيطاليا سنة ١٣٤٢م، وسنة ١٣٥٠م، ومن فرنسا سنة ١٤٠٣م، ومن هولندا سنة ١٣٥٠م، ومن بريطانيا سنة ١٤٢٢م، واستقبلهم الشعب الجزائري بكرم وأنقذهم من الإبادة في أوروبا، لكنهم قابلوا هذا الإحسان بالتنكر للجميل فانضموا منذ دخول الفرنسيين لهم ضد مواطنيهم الجزائريين[4].

---

[1] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٣٦٦.

[2] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٣٦٦.

[3] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٣.

[4] المصدر نفسه، ص: ٤٥٤.

ب. مداهمة البيوت:

كان الجنود يداهمون المنازل فيجرِّدون النساء من مصاغهن وملابسهن الثمينة، وكانوا يجردون حتى الأطفال من ملابسهم ومن السلاسل الذهبية التي كانت مدلاة في صدورهم. وقد شارك النهب ضباط كبار جعل الضابط "لوفيردو" يعلق على ذلك في رسالة لزوجته فيقول: "لم أشاهد في حياتي أحقر مما تم" ورويت نوادر عن هذا النهب، فضابط اسمه ديمية أصيب بإفلاس وخسر كل ممتلكاته قبل ذهابه للجزائر لكنه عاد من الجزائر ثرياً، وعندما سئل من أين أتى بهذا المال؟ أجاب: لقد ورثت زوجتي عن عمها ستة ملايين فرنك. وعلق على ذلك الموسيقار الإيطالي روسيني صاحب أوبرا الإيطالية في الجزائر، فأجابه ساخراً : أنا لا أعلم أن دّاي الجزائر عم زوجتك[١].

ج. صدمة أعيان الجزائر:

عندما دخلت الجيوش الفرنسية مدينة الجزائر قام قائد الحملة الفرنسية بورمون بطمأنة أعيان الجزائر وإعطاؤهم انطباعاً بأن الجيش الفرنسي لن يبقى في الجزائر أكثر من ستة أشهر، وأكد بأن هذه هي نية الحكومة، وبأنه عندما يشرع في الجلاء فإنه سيترك البلاد بين أيدي أعيانها وتحت تصرفهم، وكان يقول كذلك أن الجزائر كانت من ممتلكات الباب العالي، وقد أحاط بعض الناس الذين كانوا يطمحون في الوصول إلى الحكم بالمارشال بورمون، وتقربوا إليه وأظهروا له إخلاصاً لا حدود له لمواصلة مشاريعهم الجنونية آملين أنهم سيخلفون الفرنسيين فيما بعد[٢].

لكن أعيان الجزائر الذين كانوا يشكلون طبقة غنية متحدرة الأصل من أهل البلاد ومن مهاجري الأندلس قد خاب أملهم في الفرنسيين حين أدركوا أن فرنسا جاءت لتبقى، وأن أموالهم وأراضيهم صودرت وأصبحت ملكاً للدولة الجديدة، وأن مساجدهم وزواياهم قد

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٤.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠١.

احتلت من طرف الجيش الفرنسي أو تحولت إلى كنائس، وقد اندهشوا حين اكتشفوا أن السلطات الفرنسية تعطي عهد الأمان وتنقضه، وتقوم بعزل وطرد ونفي أولئك الذين قبلوا التعاون مع فرنسا بدعوى عدم القيام بالواجب، أو التآمر لاستعادة الحكم الإسلامي أو الانضمام إلى الثائرين ضدها[١].

وبطبيعة الحال لم تكن لهم قوة كافية لمجابهة الفرنسيين أو وسائل للضغط عليهم وبالتالي استطاع الفرنسيون أن يشتتوهم بالنفي والمحاكمات وتسليط الطائفة اليهودية عليهم[٢].

د . جشاعة الفرنسيين:

تأكّدت جشاعة الفرنسيين وتهافتهم على الثروة وخيرات الجزائر يوم هرع رجال الجيش الفرنسي إلى ذخائر قصر الدّاي والاستيلاء عليها ثم تهريبها إلى فرنسا، ويستفاد من بعض المصادر التاريخية أن الفرنسيين قد استولوا على:

- ٧ أطنان و٣١٢ كيلو غرام من الذهب "من قصر الدّاي".
- ١٠٨ طناً و٧٠٤ كيلو غرام من الفضة "من قصر الدّاي".
- ٢٤,٧٠٠,٠٠٠ فرنكاً وهي قيمة الذهب الموجود بالخزينة الجزائرية.
- ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي من العملات الأجنبية الموجودة بالخزينة.

ونستخلص من بعض الوثائق أن ضباط الحملة الفرنسية قد اختلسوا لأنفسهم ما قيمته ٥٠ مليون فرنك فرنسي، واكتفوا بتسليم ما يعادل ذلك للحكومة الفرنسية وقد أرسلت هذه الأموال والثروات الجزائرية في صناديق خاصة إلى فرنسا على ظهره بواخر فرنسية وتبلغ قيمة المبلغ الإجمالي لهذه المسروقات ٤,٨٦٨,٧٩٤,٤٥٢ فرنكاً فرنسياً[٣].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠١.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٢.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

هـ . تجريد الجزائريين من أراضيهم:

قرر قادة الجيش الفرنسي انتهاج سياسة احتلال الجزائر وتجريد الجزائريين من أراضيهم وقد قام بهذه العملية الجنرال "كلوزيل" وهو أول جنرال يعين حاكماً عاماً للجزائر من شهر سبتمبر ١٨٣٠م إلى غاية فبراير ١٨٣١م. ففي هذه الفترة تقرر أن يتم تنحية باي التيطري واقترح على باي تونس أن يعين أحد أشقائه باياً على وهران وآخر يعين باياً على قسنطينة، وبذلك يتعاون معه باي تونس على التخلص من أية مقاومة جزائرية في شرق البلاد أو غربها، كما قام هذا الحاكم العام بمحاولة مع التجار والفلاحين الفرنسيين لإقناعهم بالقدوم إلى الجزائر والاستيلاء على الأرض وزرع العنب فيها والبحث عن الذهب في المناجم الجزائرية.

وعندما باءت هذه المحاولة بالفشل قرر أن ينتهج سياسة الاستيلاء على الأراضي الجزائرية الخصبة وتسليمها للمهاجرين الأوروبيين، وبذلك تجد الحكومة الفرنسية نفسها مضطرة لاحتلال الجزائر بصفة نهائية وتقديم المساعدة المالية للمستوطنين الفرنسيين بالأرض المحتلة في الجزائر.

ولهذا قام بإصدار قرار في الشهور الأولى من احتلال الجزائر يقضي بتسليم الاراضي للمعمرين، ونتيجة لذلك أصبحت مرسليا زاخرة بالتجارة والأموال المتدفقة عليها من الجزائر، وباختصار فإن ضعف الحكومة الفرنسية وغموض سياستها في الجزائر قد دفع بالمعمرين أن يلتجؤا إلى الدسائس والمؤامرات وطرد اية شخصية مدنية أو عسكرية تحاول الحد من سلطة المستوطنين الأوروبيين أو تسعى لمراقبتهم أو الحد من سيطرتهم وقد أحرزوا نجاحاً هائلاً في خططهم إلى درجة أنهم استطاعوا شراء أغلب الأراضي المنتجة في سنوات قليلة، كما أن بعض الموظفين الفرنسيين نالوا مراتب عالية في الإدارة في حين أنهم لو بقوا في فرنسا لن يلتفت إليهم أي واحد وكان شعار الغزاة والمستعمرون الجدد، أن العربي في

نظرهم ما هو إلا حيوان مخلوق وهو ممتلئ بالتعصب الإسلامي ولا يمكن وقفه عند حده إلا بالقوة[١].

و. احتلال مصحوب بأعمال تدميرية وإجرامية:

سجل كثير من الضباط فظائع جيش الاحتلال، فبيليسية وصف احتلال مدينة الجزائر بقوله: أكثر احتلال تم في فوضى يفوق ما تم في أكثر القرون بربرية هو احتلال الجزائر[٢].
وفي رسالة وجهها الجنرال بيرتوزان لوزير الدفاع بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٨٣١م قال مشخصاً فظائع الاحتلال: عندما جئت إلى هذه الشواطئ نصف المتمدنة فكرت في أن واجبي أن أشرِّف اسم الفرنسي وحكومة الملك.. إنني أعترف لك بصراحة بأنني أعتقد بأنه لم يحدث في أي زمان من العهد التركي أن مر سكان هذه المناطق بهذا الإنكار للعدالة مثل الذي تحملوه على أيدينا، لم أتمكن من إصلاح هذا الوضع، لأن تفاصيل كثيرة لم أستطع السيطرة عليها بسبب عدم إيجاد بين مرؤوسي شخص واحد له إرادة لجعل العدالة تنتصر، وكم من مرة تملكني الخجل من رؤيتي للأخلاق الفرنسية تتدهور في حضور العالم المتمدن الذي يراقبنا من خلال قناصل دولة، وحتى أمام هؤلاء الأفارقة الذين نحتقرهم والذين يتمتعون بروح رفيعة، لقد كتبت لكم مراراً أننا لم نأت هنا إلا لنهب الثروات العمومية والخاصة.
ويصف الضابط بيليسية دو رينو البؤس الذي صار فيه سكان مدينة الجزائر فيقول: لا يوجد أي واحد يريد أن يتعمق في أسرار هذه الآلام أطفال بؤساء يمدون أيديهم متسولين، وفتيات يائسات في سن الزواج دفعهن الجوع إلى الدعارة، لا أحد يبحث عن أسباب هذه الآلام[٣].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠٣، ١٠٤.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٥.

[٣] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٦.

وقد اعترف "اليكسيس دي طوكفيل" في كتاب عنوانه: دراسة عن الجزائر بتلك السياسة قائلاً: لقد سمعت مرات عديدة في فرنسا أناساً أحترمهم ولا أوافقهم يستنكرون إحراق المحاصيد وإفراغ المطامير والاستيلاء على رجال بدون سلاح، وعلى نساء وعلى أطفال، لكن هذه الأعمال ضرورية لأي شعب يريد محاربة العرب.. إن قانون الحرب يرخص لنا تدمير البلد، ونقوم بذلك عن طريق إتلاف المحاصيد وعن طريق الهجومات التي تسمى غزوات والتي تستهدف إلى الاستيلاء على الأشخاص وعلى القطعان.

إن المقدم "لوسيان فرانسوا دي مونطانياك" يروي في كتابه "رسائل عسكري في الجزائر من عام ١٨٣٧م إلى ١٨٤٥م أن المشير "بيجو" صرّح أمام الضباط المجتمعين «إن الحرب التي سنشنها ليست حرباً بالبنادق لن نستطيع أن نتغلب نهائياً على العرب إلا عندما ننتزع منهم الموارد التي يمنحها إياهم التراب»[١].

أما المشير "سانت أرنو" فإنه يفتخر في رسائله بأنه ترك مروره عبر بلاد القبائل حريقاً واسعاً، بحيث أحرقت كل القرى "وعددها ٢٠٠ تقريباً" أحرقت حدائقها وقُطعت أشجار الزيتون فيها.

وكتب العميد "برتيزان" بعد قيادته جيوش الحملة الحربية يناير ١٨٣١م إلى ٦ ديسمبر ١٨٣١م، ما أكثر الأعمال التدميرية والسرقات، لقد حطمت الجيوش كل شيء في ضواحي الجزائر وأحرقت الأشجار ودمرت الديار، فالمسلمون واجهوا مجموعات تعتبر أرذل الناس في البحر المتوسط وأكثرهم فقراً وأسفلهم أخلاقاً.

قتل المقدم "لوسيان فرانسوا دي مونطانياك" في معركة سيدي إبراهيم في سبتمبر ١٨٤٧م لكنه كاتب قبل موته صديقه قائلاً: هكذا يا صديقي ينبغي أن تقام الحرب ضد العرب، يجب قتل كل الأطفال ونقلهم على متن سفن إلى جزر "ماركيز" أو إلى أماكن أخرى،

---

[١] ثورة الجزائر د. بو علام حمودة، ص: ٤٥٦.

بكلمة واحدة يجب قتل كل من لا يركع أمام أرجلنا مثل الكلاب، هذا معناه إبادة، لم يتورع سانت أرنو عن ذكر الكلمة، فكتب: "هذه هي الحرب في أفريقيا، نتعصب بدورنا فتتحول إلى حرب إبادة"[١].

ولقد تم تقتيل أولاد رياح في جبال الظاهرة شرق مستغانم، لقد فر السكان إلى مغارات خوفاً من وحشية جيوش العقيد "جان جاك بيليسي" إلا أن هذا الأخير أمر بإشعال النار في كل مخارج المغارة حتى مات بالاختناق ألف شخص رجالاً ونساء وأطفالاً. هذه الجريمة النكراء غطاها رئيس مجلس الوزراء المشير "سولت" مصرحاً: إن فعلاً مثل هذا ينتمي إلى الحرب ولم تتخذ عقوبات ضد العقيد بيليسي بل رُقي إلى منصب سفير في بريطانيا العظمى، ثم منصب حاكم عام للجزائر من سنة ١٨٦١م إلى سنة ١٨٦٤م.

إن تقتيل قبيلة أولاد رياح لم يكن منفرداً، فالعقيد بيليسي يُقر للمشير "بيجو" بأنه حذا حذوه ووصف له كيف أشعل النار. وقد فعل "سانت أرنو" في بلاد القبائل مثلما فعل "بيليسي" في جبال الظاهرة، ففي الرسالة المؤرخة في ١٥ أوت ١٨٤٥م يروي أنه كان يحاصر القبيلة ويغلق عليها كل المخارج ثم يشعل النار فتتحول القرية إلى مقبرة تتسع لـ ٥٠٠ لص.

و"الفونس دي لامارتين" الشاعر الذي كان نائباً بالمجلس الوطني تدخل في المداولات قائلاً: من بين ٧,٠٠٠ نسمة "نساء وأطفال وشيوخ وجنود عرب" هل تعلمون عدد الذين وصلوا أحياء إلى الحرّاش ثلاثة الآف، أما الباقي فإنه مات منهوكاً في الطريق، وإنه يضيف في ١٥ ماي ١٨٤٥م. كل الناس الساكنين في قرية بجبال الجرجرة قُتلوا بالسيوف عندما خرجوا للقتال، أما باقي السكان فقد أحرقوا تحت السقوف التي أضرمنا فيها النيران.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٢ ، ٢٣.

ويكتب "دي مونطانياك" يوم ٢٠ ديسمبر ١٨٤٤م: إن رأس عربي مقطوع له تأثير أكثر من موت خمسين شخصاً، ولقد فهمت هذا منذ زمان فقليلاً ما كان يفلت أحد من يدي.

ويذكر "موريس هيريسون": آذان العرب قيمة كل زوج منها ١٠ فرنك، أما النساء فإنهن بقين صيداً مفضلاً.

بالنسبة إلى النساء يفصّل "دي مونطانياك" الموضوع قائلاً: البعض من النساء يبقى كرهائن والبعض يُبدل بها أحصنة، والبعض الآخر يباع بالمزايدة مثل الحيوانات، هكذا نفعل بهذا البلد "الجزائر" بالأزهار التي نجعلها تتفتح لتنوير حياتنا.

وقد ذكر حمدان خوجة في مذكراته منظراً غير إنساني: وهو التفريق بين الأتراك وزوجاتهم الجزائريات وأولادهم، وذلك طبقاً لتعاليم المشير "دي بورمون" يروي حمدان خوجة: إن بعض الجنود الفرنسيين كانوا يحولون أنظارهم تأثراً بمشهد إركاب الأتراك بالقوة لإبعادهم من الجزائر وعن الجزائر وعن أسرهم.

ونقل الشاعر المشهور "فكتور هيغو" كلاماً يقال في الصالونات يوم ١٥ أكتوبر ١٨٥٢م، ذكر العميد لوفلو أنه في المعارك بعض الجنود الفرنسيين كانوا يلقون نحو رفاقهم أجساد أطفال يسقطون على حرابهم، وقد كان المسلمون متابعين حتى في المقابر إذ كانت عظامهم تحرق لصنع فحم العظام أو كانت تستعمل لتصفية السُكّر[١].

٥. مصادرة الأوقاف الإسلامية:

اهتم كلوزيل مدة حكمه بمشاريع الاستعمار والتنظيم الإداري للجزائر في مجالات شتى: الاقتصادية والعمرانية والتوسيعية، وقد اتضح من خلال المشاريع الأولى أن فرنسا جاءت للبقاء والاستعمار وليس لتأديب الدّاي حسين كما كان شائعاً فكان من بين اهتمامات

---

[١] المصدر نفسه

هذا العسكري، إحصاء الملكيات المختلفة ولهذا أصدر يوم ٨ سبتمبر ١٨٣٠م قراراً استهدف حجز أملاك العثمانيين، ثم أوقاف مكة والمدينة وإلحاقها بمصلحة الدومين التي تم إنشاؤها في عهد دي بورمون، وقد حدد هذا القرار التعسفي مهلة ثلاثة أيام لعملية الاستظهار وإثبات الملكية وأن السلطة ستعاقب كل من تحداها بدون انتظار.

وإذا لم يكن لهذا القرار صدى يذكر في العاصمة باريس، ولا ردود فعل من الملك لويس فيليب الذي كان مهتماً بالمشاكل الداخلية التي خلقتها ثورة جويلية، وبالمشاكل الخارجية فإن هناك احتجاجات من سكان المدينة عبّر عنها المفتون والعلماء والوكلاء وبينوا لهذا العسكري أن أملاك مكة والمدينة ليست ملكاً للعثمانيين، وإنما هي من أصول مختلفة وأن الذين يشرفون عليها ـ أي الوكلاء ـ ليسوا عثمانيين بالضرورة وإنما هم من مدن الجزائر المختلفة.

وأمام هذا الاحتجاج تراجع كلوزيل عن القرار المتعلق بالاستيلاء على أوقاف مكة والمدينة وقدَّر بعض القادة العسكريين خطورة بقاء هذه الأوقاف بأيدي أصحابها فهي تساعدهم على القيام بالثورة ضد الاحتلال، وقد ثبت أن معظم الثورات التي كانت ضد المحتل في بداية المحتل وطيلة القرن التاسع عشر قد ساهمت الأوقاف الإسلامية فيها.

وبعد ثلاثة أشهر من إصدار القرار الأول أصدر كلوزيل قراراً آخر يوم ٧ ديسمبر ١٨٣٠م مدفوعاً بنصائح السيدين فوجدوا وفونلاند استهدف به هذه المرة ضم كل الأملاك والأوقاف الدينية "وهي تشمل أوقاف مكة والمدينة والمساجد والزوايا" إلى مصلحة أملاك الدولة ـ الدومين ـ وطلب من المفتين والوكلاء أن يقدموا حساباتهم إلى هذه المصلحة الجديدة.

ويذكر هابار بأن هذا القرار كان ضربة للدين والثقافة الإسلامية لانعكاس آثاره على الحياة الاجتماعية للسكان، فالأوقاف كانت المصدر المالي للتعليم والترقية الاجتماعية.

كانت الأوقاف موجودة في الجزائر كما كانت في بقية البلاد الإسلامية، وهي حبس مال أو أراض ونحو ذلك تصرف منفعته على الفقراء وخدمة الدين والعلم، ولعبت دوراً معتبراً في العهد العثماني وخاصة في مجال التعليم ونشر الثقافة وهي نوعان: "الأوقاف الخاصة أو العائلية والأوقاف العامة، وهي التي تهمنا ويحسبها أهل الخير لأغراض خيرية دينية، مثل التي تخصص للتعليم والعناية بالحج واستصلاح المساجد ومساعدة الأيتام.

وكانت الأوقاف العامة كثيرة بمدينة الجزائر، وقد قدر عددها في الأيام الأولى من الاحتلال ٢٦٠٠ ملكية، وعدد غير قليل في المدن الأخرى كقسنطينة ووهران، ويمكن ترتيب الأوقاف في مدينة الجزائر كما يلي:

- أوقاف مكة والمدينة.
- سبل الخيرات.
- الجامع الكبير.
- الزوايا.
- أوقاف الأندلس.
- الإنكشارية.
- المياه.
- الطرق.

وبمقتضى قرار ٧ ديسمبر ١٨٣٠م أصبحت كل الأوقاف ملكاً للسلطة الاستعمارية أو تابعة لمصلحة الدومين، غير أنه أبقى على الوكلاء الذين كلفوا بجمع دخلها وتسليمه إلى السيد جيرادان الذي عين مديراً لإدارة أملاك الدولة الفرنسية في الجزائر، واختير لهذا المنصب لأنه كان يجيد اللغة العربية، ونظراً لأهمية هذا المنصب وضع إلى جانبه موظفون مدنيون يساعدونه في الوظيفة.

ولم تتمكن السلطة الاستعمارية من تنفيذ هذا القانون الجائر كلياً في مدينة الجزائر ولكنها استطاعت تنفيذه في وهران وعنابة.

ولم تجد السلطات الفرنسية صعوبات في مصادرة أوقاف العيون وتسليمها إلى مهندسين فرنسيين، ونفس الشيء لأوقاف الطرق، سلمت إلى مصلحة الجسور بحجة ضعف وعجز الأمناء الذين لم تكن لهم القدرة الكافية للقيام بهذا.

وأما أملاك الجيش الانكشارية فقد احتجزت لأنها أملاك عثمانية، وإن بقاءها بأيديهم يحرضهم على الثورة في نظر الفرنسيين، وأجبر وكيل أوقاف مكة والمدينة على دفع الدخل للخزينة المالية العامة وتوقف إرسال جزء منه إلى شريف مكة حتى لا يشتغل في إشعال وتموين الثورات.

إن السلطة الفرنسية تصرفت في الأوقاف تصرفاً ينافي وعدها في احترام الديانة الإسلامية، فقد حولت الكثير إلى كنائس وإلى مراكز طبية وإدارية وثكنات عسكرية وحمامات وسلمت بعض العقارات للمستفيدين الأوروبيين ترغيباً في البقاء ومنها ما استأجر لكبار التجار لتخزين بضائعهم ومنها ما بيع وتعرض لهدم من أجل توسيع الطرقات وتكوين الساحات العامة وكان جامع السيدة أول مسجد يعرض لمعاول الهدم، بدعوى إقامة ساحة داخل المدينة ـ هي ساحة الشهداء اليوم ـ تستعمل للدفاع وقمع الاحتجاجات في حالة انتفاضة السكان[١].

ويذكر الوكيل المدني بيشون إن الجيش استولى فيما بين ١٨٣٠م ـ ١٨٣٢م على خمس وخمسين ملكية تابعة لأوقاف مكة والمدينة وعلى إحدى عشرة ملكية تابعة للمسجد الكبير[٢].

ويعتبر قرار ٧ ديسمبر ١٨٣٠م من البوادر الأولى للاستعمار والتدخل السافر في الشؤون الدينية للسكان، كما يعتبر من الخطوات الأولى لمحو التراث العربي الإسلامي بالجزائر،

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ٢٣ ، ٢٤.

[٢] المصدر نفسه.

وهتك ما هو مقدس وقيام السلطة بهذا العمل لقي معارضة شديدة، حتى من بعض الفرنسيين، وعلى هذا يمكن أن نقسم هذه المعارضة إلى نوعين:

النوع الأول: ويشمل طائفة من المسؤولين الفرنسيين الذين رأوا في القرار شيئاً ينافي مبادئ الدولة الفرنسية وينقض عهد الأمان الذي أُعطي للسكان، فالجنرال برتوزين كان قد فكر إبان حكمه في الجزائر فيفري ١٨٣١م وديسمبر ١٨٣١م، في إرجاع أوقاف مكة والمدينة، لأن حجزها مخالف لمعاهدة جويلية ١٨٣٠م وأما الوكيل المدني بيشون فقد اتخذ موقفاً معارضاً للقرار برسالة وجهها إلى رئيس مجلس الوزراء يوم ١١/ ١١/ ١٨٣١م طالباً فيها بفسخ القرار بسرعة حتى يسمح ذلك للسلطة بتمهيد طرق التوفيق مع القبائل القاطنة داخل البلاد، وموقف بيشون فتح الطريق أمام البعض في التعبير عن تذمرهم من القرار، ومن بين هؤلاء السيد الحاج محيي الدين آغا العرب الذي شكا لبيشون وناشده بإرجاع أوقاف مكة والمدينة وإعادة المساجد المختلفة إلى أصلها.

النوع الثاني: من المعارضين للقرار العلماء ورجال الدين والمفتيون والقضاة، من أمثال محمد بن محمود بن العنابي المفتي الحنفي ومصطفى بن الكبابيطي وشخصيات أخرى من أعيان مدينة الجزائر أمثال حمدان بن عثمان خوجة، وأحمد بو ضربة وغيرهم، فبحكم المناصب التي كانوا يحتلونها عند الفرنسيين تمكن هؤلاء من التعبير عن تذمرهم بما حل بالأوقاف والمساجد عن طريق تقديم الشكايات والعرائض إلى السلطة الحاكمة، فالمفتي ابن العنابي هاله ما كان يجري في مدينة الجزائر، ويصفه حمدان خوجة قائلاً: بأنه رجلاً نزيهاً وقاضياً، ذنبه الوحيد أنه كان يكتب دائماً إلى الجنرال كلوزيل يلومه على تصرفاته التي كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام وللقوانين الفرنسية، ولحقوق الإنسان، فاعتبره

كلوزيل عنصراً خطيراً على السلطة بحجة أنه يعمل على تحريض السكان على الثورة، فألقى عليه القبض سجنه ثم نفاه بعد أن أوقع به الفخ[1].

والخلاصة هي: لقد نظر الفرنسيون إلى الأملاك الدينية بمنظار فرنسي استعماري همجي بربري وقد بين حمدان خوجة هذا المعنى عندما قال: إنهم فعلوا ذلك للحصول على وسيلة يكسبون بها ثروة طائلة في أسرع وقت ممكن ولو على حساب الإنسانية وشرف الأمة، وثانياً لافتتان الأنفس وترغيب فرنسا في الاحتفاظ بالأيالة.

إن تدخل السلطات الفرنسية المحتلة للجزائر في شؤون الممتلكات الدينية اعتداء صريح وواضح وعمل ممنهج للقضاء على الديانة الإسلامية أو إضعافها التي وعدت باحترامها واحترام كل ما يرمز إليها، كما يعتبر قيامها بتحويل المساجد إلى كنائس للقيام بشعائرها الدينية نوعاً من التنصير المقنع الذي تتعدد مظاهره وأشكاله[2].

رابعاً: موقف الدولة العثمانية من احتلال فرنسا

كان الاحتلال الفرنسي للجزائر في عهد السلطان محمود الثاني الذي تولى قيادة الدولة من عام ١٨٠٨م إلى عام ١٨٣٩م.

كانت الدولة العثمانية، في وضع لا تحسد عليه ودعمت الدول الأوروبية محمد علي باشا لإضعاف الدولة العثمانية، ولقد ساهم محمد علي في بيان الضعف الذي وصلت إليه الدولة العثمانية، وبالتالي بدأت الدول الأوروبية تتهيأ الظروف السياسية لتقسيم أراضيها، وبينما كانت جيوش محمد علي تمكن النصارى في بلاد الشام وتضعف شوكة المسلمين، كانت جيوش فرنسا في عام ١٨٣٠م تغتصب الجزائر بعدما ضعفت الخلافة العثمانية،

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ٢٥.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٦ ، ٢٧.

وكانت الدول الأوروبية مؤيدة لهذا الاغتصاب السافر، فقد حان توزيع تركة الرجل المريض وحل المسألة الشرقية بالطريقة الأوروبية.

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد علي في الشام وفي الأناضول، اضطرت الدولة العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أن محمد علي يحظى بتأييد بريطانيا وفرنسا، وعقدت معاهدة "نكيار السكلة سي" سنة ١٨٣٣م في أعقاب هدنة كوتاهية وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعي بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدي لمحمد علي خشية المزيد من التدخل الروسي، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م وقد ترتب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح التي حاول السلطان محمود الثاني أن يقوم بها في الدولة العثمانية واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية في مقابل حمايتها من أطماع محمد علي[١].

وهكذا كانت سياسة محمد علي خطوة مدروسة من قبل أعداء الإسلام لتهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية، مازالت آثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم. لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة عميلها محمد علي وهي:

. تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون سداً منيعاً أمام الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً، والمشرق عموماً.

. فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين في محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس كان لها الأثر البارز في بذر بذور التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية.

. إتاحة الفرصة لشركات تجارية أوروبية تتحكم في الاقتصاد.

. منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

---

[١] قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص: ١٨٨.

. خنق التيار الإسلامي الأصيل وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة.

. أصبح محمد علي نموذجاً تحتذى به الدولة الأوروبية في صنع عملائها في داخل ديار المسلمين، كمصطفى كمال وغيره.

وبعد أن حققت الدول الأوروبية أهدافها بواسطة عميلها محمد علي، حان الوقت لإضعاف قواته وتحجيمها، فقد تحققت أهدافهم، ووصلوا إلى مقاصدهم فلا بد من إضعاف قوات محمد علي، ودخل الإنجليز في صراع سافر مع قوات محمد علي، واستطاعت بمساندة أهل الشام من هزيمتها، والاستحواذ على الثغور الشامية. وقتل في هذه المعارك ثلاث أرباع قوات محمد علي من شعب مصر وبلاد الشام، وأجبر محمد علي تحت ضغوط الإنجليز على التوقيع لمعاهدة:

. يتنازل فيها عن حكم بلاد الشام، وأن يظل حكم مصر وراثياً له ولأبنائه.

. أن يحدد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً.

. أن لا تصنع مصر سفناً للأسطول.

. أن لا يعين والي مصر في الجيش ضابطاً أعلى من رتبة ملازم، وأن يدفع للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً[١].

وشرعت فرنسا وبريطانيا تثير الفتن الطائفية بين الأقليات غير المسلمة في لبنان، والهدف هو إنهاك قوة الدولة العثمانية التي أرسلت قوات لإنهاء الفتنة، وكذلك إيجاد المبرر للتدخل الفرنسي والبريطاني في لبنان تمهيداً لتمزيقه واحتلاله[٢].

واحتلت روسيا الأفلاق والبغدان، وتم اتفاق عثماني روسي "بلطة ليمان" قرب إسطنبول عام ١٢٦٥هـ / عام ١٨٤٨م يبقى في الإقليمين جيش عثماني روسي حتى يستقر الوضع وما دخل الروس في ذلك؟

---

[١] الدولة العثمانية د. جمال عبد الهادي، ص: ١٠٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٨.

وبهذا المكر أصبح للنصارى وجود عسكري في ديار الإسلام ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (إبراهيم، آية : ٤٦).

واشتد صراع الدول الأوروبية على تقسيم ولايات الدولة العثمانية، تركة الرجل المريض، وكانت الدول الأكثر اهتماماً بمصير الدولة العثمانية ومصير أملاكها هي:

. بريطانيا التي أرادت تأمين طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى والهند خصوصاً، وتأمين معها سواء عن طريق السويس والبحر الأحمر وعن طريق الخليج العربي ونهري دجلة والفرات.

. روسيا القيصرية التي أرادت أن تجد لها منفذًا من البحر الأسود إلى المياه الدافئة بالبحر المتوسط، أرادت كذلك أن يكون لها النفوذ الأكبر في شبه جزيرة البلقان لتؤسس بها دولة سلافية كبرى.

. فرنسا التي أخذت على عاتقها من زمن مبكر حماية مصالح رعايا النصارى الكاثوليك في بلاد الشام بصفة عامة والمارونيين على الأخص في لبنان، والتي أرادت رعاية مصالحها في هذه المنطقة، ثم استعلاء نفوذها في أملاك الدول الأخرى في الساحل الشمالي الأفريقي وبالتحديد في تونس والجزائر.

. وفيما عدا الدول الثلاث الرئيسة التي ذكرناها، فإن دولاً أخرى مثل النمسا وبروسيا اهتمت بمصير الدولة العثمانية التي بات من المتوقع هلاكها وزوالها، فسميت بذلك برجل أوروبا المريض[1].

لقد تضافرت عدة عوامل ساهمت في إبراز المسألة الشرقية إلى عالم الوجود منها:

. أن الطريق الذي تستطيع روسيا بواسطته الوصول إلى المياه الدافئة، هو الطريق الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، ثم بحر إيجة وأخيراً بالبحر المتوسط أي بالمرور من مضيقي البسفور والدردنيل، وهما في حوزة الأمبراطورية العثمانية.

---

[1] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٤٠٥ ، ٤٠٦.

ـ إن الدول العظمى التي يكون لها قواعد قوية في البحر الأسود، ويتسنى لها السيطرة على المضايق، تصبح ذات مركز ممتاز تتمكن بفضله من بسط سلطانها على بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وعلى طريق المواصلات والتجارة من البحر المتوسط إلى الهند والشرق الأقصى.

ـ إن الدولة التي يمتد تفوذها إلى البلقان، تفرض سيطرتها على الشعوب البلقانية بعد تقلص سلطان العثمانيين على هذه المنطقة وتصبح كذلك ذات مركز ممتاز يمكنها من الاستيلاء على القسطنطينية نفسها ويهدد باحتلال التوازن الدولي في أوروبا[1].

وفي خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانت سياسة الدول ـ باستثناء روسيا وفرنسا ـ تدور حول المحافظة على كيان الأمبراطورية العثمانية لأسباب ناشئة من وجود العوامل التي ذكرناها.

وكانت بريطانيا في مقدمة الدول المتمسكة بمبدأ المحافظة على كيان الأمبراطورية العثمانية وقتئذ[2].

وعندما بات ممكناً ملء الفراغ الذي ينجم من تقلص النفوذ العثماني عن البلقان، وتخلصت بريطانيا وسائر الدول عن مبدأ المحافظة على الدولة العثمانية وسعت الدول الأوروبية بالفعل لتصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان، وكان من بين الدول البلقانية المستقلة حتى نهاية القرن التاسع عشر اليونان، ورومانيا، وبلغاريا، والصرب[3].

تولى الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمود الثاني ابنه عبد المجيد الأول وكان ضعيف البنية شديد الذكاء واقعياً ورحيماً.

---

[1] الدولة العثمانية د. عبد العزيز الشناوي (١ / ١٩٤ ـ ٢٣٢).

[2] الدولة العثمانية د. إسماعيل ياغي، ص: ١٤٣.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٤٤.

وكان السلطان عبد المجيد خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو.

وكانت حركة الإصلاح والتجديد العثماني تدور حول نقاط ثلاثة هامة: الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه في نظم الحكم والإدارة، الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني، الاتجاه نحو مركزية السلطة في إسطنبول والولايات وتكلل خطا كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦م. ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ من الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري، وهي دساتير وضعية علمانية.

ووضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعملت القوانين ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، وقد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين وأصبحت في حالة من الضعف والهوان منعها من الدفاع عن ممتلكاتها والتصدي للمشاريع الغازية.

المبحث الخامس

ظهور المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي

إن الشخصيات البارزة في الجزائر العاصمة أو أعيان المدينة لم تكن لهم قوة يضغطون بها على الجيش الفرنسي، وقد كانت الشخصيات المرموقة معزولة عن أبناء البلد، وينتمي معظم أعيان البلد إلى مهاجري الأندلس أو طبقة غنية تملك الأرض في سهل متيجة وتسيطر على التجارة، ولهذه الأسباب لم يتحالف الفرنسيون المحتلون مع الشخصيات البارزة في الجزائر سواء كانوا أتراكاً أو عرباً، وإنما قاموا بنفي وطرد الأتراك إلى بلدهم الأصلي وذلك بدعوى أنهم يقومون بمؤامرات ضد الفرنسيين في الجزائر، وهذا بالرغم من التزام الفرنسيين في معاهدة الاستسلام بأن الأتراك يعتبرون من سكان المدينة وفي إمكانهم البقاء في الجزائر.

وبالنسبة لغير الأتراك فإن فرنسا قد عمدت إلى انتهاج سياسة تشتيتهم ونفيهم وتسليط الطائفة اليهودية عليهم، والشيء الذي فتح أعينهم على الخطأ الذي وقعوا فيه حين تعاونوا مع قوات الاحتلال هو عزل وطرد ونفي أولئك الأشخاص الذين قبلوا التعاون مع فرنسا وذلك بدعوى عدم القيام بالواجب أو التآمر لاستعادة الحكم الإسلامي أو الانضمام إلى الثائرين ضدها[١].

وحسب بعض المصادر الموثوق بها فإن قائد الجيش في الجزائر "كلوزيل" قد طلب من أعيان مدينة الجزائر قائمة بأسماء العائلات الكبيرة في المدينة، وذلك لكي يختار منها باياً جديداً على ولاية التيطري خلفاً لباي التيطري مصطفى بو مزراق الذي رفض الخضوع لسلطة فرنسا وأعلن نفسه باشا ورئيساً للأيالة.

[١] محاضرات في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، ص: ٦٦.

وبالفعل فتاريخ يوم ٢٣ نوفبر ١٨٣٠م قام الجنرال كلوزيل بتعيين مصطفى بن عمر، وهو ابن خال زوجة حسين باشا باياً على التيطري، وكان هذا الشخص قليل المبادرة ولم تكن له قدرة لا على التنظيم ولا على الحكم، كما أن الجنرال كلوزيل أمره عند تعيينه أن لا يغير شيئاً من الإدارة السابقة، وأن يعمل كأنه باي قديم[١].

ولهذا فقد وجد الباي الجديد نفسه وجهاً لوجه مع السكان ولا يملك أي جيش يساعده على تدعيم سلطته، لكن عليه أن يقوم بجمع الضرائب على الطريقة التي كانت تجمع بها في عهد الأتراك، وبكل بساطة رفض سكان المدينة أن يدفعوا الضرائب ولم يكن لهذا الباي الوسائل لارغامهم على ذلك والمشكل هنا أن الباي قد حاول أن يعتمد على سكان مدينة المدينة[٢]، لكنه فشل في ذلك، وعندما تصاعدت المقاومة ضد فرنسا والباي الجديد في التيطري طلب مصطفى بن عمر النجدة من القائد الفرنسي الجديد الذي قرر إنهاء مهامه وجلبه معه إلى الجزائر حيث حاول أن يبعث به إلى وهران ويعينه باياً عليها، لكن الجنرال "بواي" الذي كان مسؤولاً عن تلك الناحية رفض التعاون مع الباي المخلوع، وهكذا قام الجيش الفرنسي بتعيين حمدان بن أمين السكة ابن مصطفى ابن عمر آغا العرب.

وكان الفرنسيون يتوقعون من آغا العرب أن يكسب ود وصداقة العرب وأن يتعرف على المشاريع التي يفكرون فيها ولكنه لم يفعل فكثرت الثورات وواجه الفرنسيون اضطرابات لم يتوقعوها ونتيجة لذلك قام الجيش الفرنسي بعزله يوم ٧ جانفي ١٨٣١م وإبعاده إلى فرنسا خوفاً أن يشترك في مؤامرة ضد السلطات الفرنسية أو يتعاون مع القبائل العربية ضد قوة الاحتلال الفرنسي، وباختصار فإن الفرنسيين قد استخدموا الباي وابنه ثم تخلوا

---

[١] محاضرات في تاريخ الجزائر، ص: ٦٩.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر د. عمار بو حوش، ص: ١٠٦.

عنهما ثم نفيهما إلى فرنسا والتخلص منهما مثلما تخلصوا من مصطفى بو مزراق عن طريق اسره يوم ٢٣ نوفبر ١٨٣٠م بالجزائر العاصمة.

وما يمكن أن نستخلصه من ما تقدم أن استسلام حسين باشا وتوقيع معاهدة السلام والخضوع لفرنسا يوم ٥ جويلية ١٨٣٠م لم تكن هي نهاية المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، بل بداية لمقاومة شعبية واسعة من أبناء الجزائر المجاهدين[١].

أولاً: بداية المقاومة الشعبية

وكدليل على اقتناع بورمون بأن البلاد دانت له وأنه من السهل فتح المدن قرر التوجه لاحتلال البليدة على رأس جيش قوامه ٢٠٠٠ جندي وبضع مئات من الخيالة ومدافع وذلك يوم ٢٣/ ٧/ ١٨٣٠م ووصل الجيش بالفعل إلى البليدة فقام برحلة استطلاع فيها، وكان رجال القبائل يراقبونه فما إن عاد حتى نصبوا له كميناً ببلدة بوفاريك وقتلوا الكثير من الجيش ولم ينج منه سوى بورمون مع عدد قليل من جنوده تمكنوا به من العودة به لمدينة الجزائر، وقتل العميد فرسيل. بعد هزيمة الفرنسيين ببوفاريك، اضطر الفرنسيون أمام المقاومة الشعبية إلى إخلاء مدينتي وهران وعنابة، وعند ذلك اقتنع المارشال بورمون بأن دولة الدّاي قد سقطت وبدأت مقاومة الشعب وبدأت معها متاعب فرنسا لقد لخص المؤرخ الفرنسي ش أ جوليان عناصر المقاومة فقال: إن القبائل المرتبطة بالأرض هي التي انطلقت تنظم المقاومة وليس المدن والأثرياء[٢]، واجتمع في غربي مدينة الجزائر في برج منفوست "قرب برج البحري" شيوخ الزوايا بالناحية وقرروا مقاومة المحتلين الذين برهنوا خلال أيام من احتلالهم أنهم نهّابون للمتلكات حارقون للزرع، مخربون للمنازل معتدون على النساء مدنسون للمساجد[٣].

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٧.

[٢] الجزائر في التاريخ عثمان سعدي، ص: ٤٥٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٤٥٨.

لقد وضع الفرنسيون أيديهم على المساجد ودور الأوقاف وغيرها من المعاهد وأغلقوا المدارس وصادروا كل ما فيها، ومن ضحايا هذه المصادرات كانت المكتبات الملحقة بها، فاختفت الكتب والمخطوطات التي كانت تعد بالآلاف ومنها مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة الجزائر ومكتبات بقية المدن الجزائرية، فعمد السكان إلى إخفاء مخطوطاتهم وكتبهم في أسطونات معدنية طمروها في الأرض، ومنهم من حمل معه مخطوطاته الثمينة إلى حيث يرتحل كالأمير عبد القادر الذي جمع في مدينته آلاف الكتب والمخطوطات النادرة فحُرقت أثناء الهجوم على هذه المدينة وسُرق أكثرها[١].

ويروي الضابط المرافق للجنرال بيرتوزان البارون بارشو دي بانهوين: أن جمهورهم كان ضخماً يلوح بالسلاح يقفز فرسانه على الخيل، ويصفق بحرارة لتحريض الشيوخ على القتال، كان المجتمعون من الشعب ومجلس الكبار واضعين تحت تأثير حادثة انتصار المقاومين بالبليدة فارتفعت هتافاتهم بالحرب أعلن هذه المقاومة المبكرة ابن زعموم رئيس قبيلة فيلسية القوية التي تقع منازلها في مدخل القبائل الكبرى قرب تيزي ونيف وكذلك المرابط الحاج سيدي السعدي، بالإضافة إلى إعلان والي تيطري مصطفى بو مزراق المقاومة[٢].

١. ثورة في فرنسا:

وصلت يوم ١١ أغسطس ـ آب أنباء اندلاع ثورة في فرنسا، فحاول بورمون وضع الجيش الفرنسي المتواجد بالجزائر في خدمة الملك شارل العاشر، لكن قائد الأسطول رفض التعاون معه وأيده عدد كبير من الضباط. واضطر بورمون إلى إنزال علم الأسرة المالكة بوربون الأبيض ورفع العلم المثلث الألوان، ثم جاء الجنرال كلوزيل قائداً عاماً في الجزائر، فعاد المرشال بورمون لفرنسا يحمل معه قلب ابنه الضابط الذي قتل أثناء الحملة.

[١] الأمير عبد القادر الجزائري، بديعة الحسني، ص: ٣٤.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٩.

غيرت ثورة يوليو علاقات فرنسا مع الدول الأوروبية بالرغم من أنها أتت بلويس فيليب ملكاً، لكن هذه الملكية كانت مدعومة بالبورجوازية الليبرالية، وترتكز على مبادئ الثورة الفرنسية فقد تخلت عن علم أسرة بوربون الملكية، ورفعت علم الثورة المثلث الألوان، ولهذا فقد عاد التحالف الأوروبي ضد الملك الفرنسي الجديد المعروف عنه إيمانه بمبادئ الثورة، وخشية المملكات والإمارات الأوروبية من عودة فرنسا إلى عهد نشر الثورة في أوروبا على غرار حروب نابليون. ورفض نيقولا قيصر روسيا الاعتراف بلويس فيليب، كما أعلن ميتيرنيخ في النمسا تضامن ملوك أوروبا ضد الروح الثورية الفرنسية التي جاء بها لويس فيليب، ولو كانت أوضاع المقاومة الجزائرية منظمة ولها رأس لاستغلت هذا التناقض الأوروبي مع فرنسا وسخرته لصالحها وجلبت دعماً أوروبياً يمكنها من طرد الاحتلال الفرنسي.

كان الكثير من الدول ينظر لاحتلال فرنسا لمدينة الجزائر على أنه مؤقت، فعندما أعلنت فرنسا سنة ١٨٣٢م أنها ستستمر في احتلال الجزائر طلبت منها بريطانيا تفسيرات رسمية عن ذلك، وحينما أعلن المارشال مسول سنة ١٨٣٣م أن فرنسا غير ملزمة بأي تعهد دولي إزاء الجزائر، وأنها تفعل فيها ما تريد وليس لها نية الجلاء عنها، لفت اللورد جراي نظر السفير الفرنسي في لندن تاليران إلى هذه التصريحات وطلب منه تبليغ الحكومة الفرنسية ضرورة الاحتراس. وفي سنة ١٨٣٤م صرح وزير المستعمرات البريطاني: بأن بريطانيا لم توافق على احتلال فرنسا لمدينة الجزائر كما تحدث اللورد بلمرستون سنة ١٨٣٨م عن حقوق الباب العالي في نيابة الجزائر وأن وجود فرنسا هناك لا يعدو كونه احتلالاً عسكرياً، لكن معارضة بريطانيا لفرنسا هذه عندما لم تجد من يستغلها بالجزائر ضعفت أمام إصرار فرنسا على خلق الأمر الواقع، ولم تعترف بريطانيا رسمياً بالوجود الفرنسي وتقدم أوراق اعتماد قنصلها بالجزائر للإدارة الفرنسية هناك إلا سنة ١٨٥١م عندما أرسل كما بينا كلوزيل خلفاء لبورمون، وكلوزيل له خبرة طويلة لا في الجيش فقط

وإنما في الزراعة، فعمره كان ستين سنة، قضى سنوات منفياً بأمريكا وأول ما فعله تثبيت الوجود الفرنسي بمدينة الجزائر، فقام بإنشاء إدارة لتسييرها، وشجع الاستيطان، كما حارب الفوضى التي وجدها في تواجد الجيش بالمدينة، فقد لاحظ أن الجنود احتلوا المساكن الجزائرية الجميلة واستخدموا أثاثها وخشبها الثري المنقوش كحطب للتدفئة وطبخ الطعام، فقرر إخراجهم من هذه المنازل وأقام لهم نقاطاً ومعسكرات خارج المدينة وعلى الطرق التي قرر إقامتها نحو سهل المتيجة[١].

٢. هزيمة كلوزيل في البليدة والمدية:

تقرر إرسال هذا الجيش المتواجد بمدينة الجزائر لاحتلال مدن أخرى، ففي ١٧/ ١١/ ١٨٣٠م قاد المارشال كلوزيل جيشاً هاماً من عشرة الآف جندي يساعده ثلاث جنرالات، فاحتل البليدة وأقام بها حامية وتوجه الجيش لاحتلال مدية ومليانة، وعسكر في الشفة ومن هناك شاهد تجمعاً كبيراً من فرسان القبائل على المرتفعات، فقرر عدم اتباع طريق وادي الشفة وقرر اتباع طريق موازية، وترصد له المجاهدون بقيادة بو مزراق فدحرجوا عليهم من فوق الممر الضيق صخوراً ضخمة قتلت العديد منهم وعندما وصل الجيش غابة الزيتون اصطدموا بمقاومة خلفت في صفوفهم خسائر كبيرة ووصل جيش العدو مدية واحتلها لكن بخسائر كبيرة وذلك في ٢٢/ ١١/ ١٨٣٠م، واستسلم له مصطفى بو مزراق، وتصور أن الأمور دانت له، وصرف النظر عن التقدم لمليانة ثم عاد إلى الجزائر بعد أن ترك بها حامية قوية من ثلاثة الآف جندي وعين عليها باياً باسم فرنسا العميل مصطفى بن عمر. لكن المجاهدين هاجموا الحامية وجعلوا استمرارها بالمدينة مكلفاً الأمر الذي جعل كلوزيل يأمر بإخلائها فأخليت في ١/ ١/ ١٨٣١م، ولدى عودته من البليدة هاجمه المجاهدون بقيادة ابن زعموم، هاجموا الحامية وهي معركة ضارية معهم منذ ثلاثة أيام، وأن المجاهدين قد احتلوا معظم أحيائها وأن قائد الحامية الكولونيل

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٦٠.

روليير لا يحتل سوى جامع كبير جعله مستشفى لجرحاه وعدداً قليلاً من المنازل القريبة من باب الجزائر، ووصل كلوزيل البليدة بجيشه وأنقذ ما تبقى من حاميته، كما علم بأن وحدة كانت متوجهة إلى الجزائر كَمِنَ لها المجاهدون في بوفاريك وأبادوها عن آخر رجل، ووصل لبوفاريك يوم ٢٨ فوجد المدفعيين الخمسين الذي أرسلهم لإحضار الذخائر مقتولين شر قتلة، وأمام هذه المقاومة الجبارة قرر كلوزيل إخلاء مدينتي مدية وبليدة وسحب حاميتهما إلى مدينة الجزائر[١].

٣. تجنيد الجزائريين:

عندما عجز كلوزيل عن الحصول على إمدادات كبيرة من فرنسا طلب من حكومته السماح له بتجنيد جزائريين من قبائل زواوة، فأذنت له، فكون وحدات يقودها ضباط فرنسيون منح لهم مراتب أعلى من المراتب التي تعطى لضباط الجيش، وصرف لهؤلاء الجنود أجوراً مغرية قصد منها إغراء الجزائريين على التطوع في هذه الوحدات التي اتخذت لها زياًّ خاصاً مستمداً من الزي التركي والمملوكي، وسمي هذا الجيش "بالزواف" نسبة إلى قبائل زواوة، واصطدمت هذه الوحدات في البداية بهروب جنودها وعودتهم إلى قبائلهم، بسبب عدم تأقلمهم مع القيود التي يفرضها عليهم نظام هذا الجيش الغريب، بحيث لم يتجاوز حجمها كتيبتين، لكن كلوزيل اعتبرها بداية مشجعة وأمام مقاطعة الشعب لجنود الزواف، بل ومقاطعة أسرهم لهم، صار الكثير منهم يهرب سلاحه، بل واتخذ المقاومون هذه الوحدات وسيلة لجلب السلاح فكانوا يرسلون متطوعين يقيمون فترة في الثكنات والمعسكرات ويهربون بالأسلحة بعد أن يكونوا قد تدربوا، ففي ٢٤/ ١٠/ ١٨٣٠م أعلن الجنرال بويير سرقة ٢٠٦ بندقية و٨ سيوف، وأمام الضغط الشعبي لم يتطوع في صفوف الزواف في السدس الأول لسنة ١٨٣١م سوى ٢٠ مشكوكاً في ولائهم.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٢.

٤. توطين أوروبيين:

جاء كلوزيل بفكرة يبدو أنه كونها نتيجة لعيشه في أمريكا سنوات، فهو يرى أن الأسلوب الوحيد للسيطرة على الجزائر هو توطين أوروبيين بهذا البلد الواسع والغني، وتطبيق ما طبقه الإنسان الأوروبي بالعالم الجديد إما بإبادة الجزائريين أو بطردهم للصحراء. ركز كلوزيل اهتمامه متيجة فاختار المتطوعين للاستيطان من الجنود السابقين وأمر بإعطاء كل واحد منهم ستة أربانتان، والأدوات اللازمة للزراعة والأسلحة للدفاع عن أنفسهم، وأقام مزرعة اعتبرها المزرعة الأولى النموذجية بالحراش وهي "مزرعة حوش حسن باشا" التي تضم ١٠٠٠ هكتار، وخصصت حامية عسكرية لحماية المزرعة كما تقرر تموين الكولون بالمزرعة بسائر المواد التي يحتاجونها من أغذية وأدوات من مخازن الجيش، واشترى كلوزيل لحسابه الخاص ثلاث مزارع ووجه ضابطاً وجنوداً لخدمتها ورفع الجنرال بيرتوزان تقريراً لوزارة الدفاع ذكر فيه: كيف استغل كلوزيل نفوذه فاشترى بأبخس الأثمان مزارع في بابا علي وفي واعلي أدّا وهي تمثل أملاكاً لأطفال أيتام، اشتراها بواسطة المرابيين اليهوديين بوشناق وبكري[١].

في هذا الجو كان الضباط يشترون ممتلكات الجزائريين الهاربين من الحكم النصراني بأبخس الأثمان بواسطة المرابين اليهود، لدرجة أن الجنود سخطوا وقالوا: نحن لم نأت إلى هنا لحماية المضاربين، وبأسلوب السرقة هذا تأسست المزارع الأوروبية بالساحل وسهل المتيجة، وقد وصف الجنرال بيرتوزان هؤلاء الكولون الأوروبيين القادمين في رسالة وجهها لوزير دفاعه بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٨٣١م قال فيها: لا بد من الكف عن الاعتماد على متطوعي باريس الذين التقطوا من أرصفة العاصمة المنغمسين في الحقارة والسكر، لدرجة صار يطلق عليهم هنا "البدو الفرنسيون".. إن الفوضى تزداد بمجيء أفاقي أوروبا الذين تقيأتهم إسبانيا وإيطاليا وبخاصة مالطة[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

ويرفض البارون بيشون الاستيطان في «كتابه مدينة الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي» ١٨٣٣م فيقول: إن الاستيطان يستأصل الجزائريين، فسهل متيجة كل قطعة به لها صاحبها، أن يسكنه الكولون معناه إنفاق عشرات الملايين وتخصيص ٥٠٠٠ جندي لحراستهم، وهذا معناه جلب العار لفرنسا وجعل الجزائريين يقفون ضد فرنسا، سواء كانوا عرباً أو قبائل أو كراغلة. ما يدعيه البعض من إمكانية زراعة محاصيل استوائية خطأ، فأرض الجزائر لا تصلح إلا للحبوب والزيتون والكروم، وكالجنرال بيرتوزان يرفض البارون بيشون استقدام ألمان وسويسريين مثل الذين أحضرهم كلوزيل وأنفق عليهم مبالغ ضخمة من الخزينة وملّكهم أرضاً بعد أن طرد منها أصحابها، فهو يحدد موقفه ضد الأسلوب المستغل والاستئصالي المبيد للجزائريين الذي يستهدف سرقة أرضهم وطردهم للصحراء، ويرى أن القبائل الجزائرية لن تتخلى بسهولة عن أراضيها كما فعلت قبائل العالم الجديد بأمريكا[١].

ويقول: إن أنجع الوسائل هي إدماج الجزائريين في مصالحهم الخاصة وتطوير التعليم عندهم باللغة العربية[٢].

ويقول أرمون فيكتور هين مؤسس الشركة الكولونيالية للجزائر: يستحيل إدماج الأهالي ينبغي طردهم للجنوب وإبادتهم، لابد من معاملتهم كالوحوش ورميهم هناك في رمال الصحراء[٣].

لقد أصدر الفرنسيون قوانين ظالمة صادروا بها أراضي الأهالي، وكل قبيلة تهزم في المقاومة تجرد من أراضيها الخصبة وتطرد إما للجبال أو إلى الصحراء وتملك الأرض للمزارعين الفرنسيين، وكم من أراضٍ أخذت من أصحابها واضطروا إلى أن يعملوا بها كأجراء لدى سارقيها.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

لقد اقترح المارشال كلوزيل على حكومته تشجيع الأوروبيين على الاستيطان بالجزائر، وفتح خط بحري أسبوعي بين مرسيليا والجزائر بالبواخر البخارية التي تقطع المسافة في أربع وخمسين ساعة، لا بالسفن الشراعية التي كانت تقطعها في خمسة أيام وأحياناً أكثر.

وقام القناصلة الفرنسيون بالعواصم الأوروبية بنشر إعلانات تحث الشباب الأوروبي على الهجرة إلى فردوس الجزائر وكانوا يشبهونها بأمريكا، وتوجه المئات منهم إلى مرسيليا فالجزائر بحيث وصل عددهم في الستة أشهر الأولى للاحتلال ثلاثة الآف مهاجر إسبان وإيطاليين ومالطيين، كما أفرغت الحكومة الفرنسية إصلاحيات الأحداث من نزلائها وأرسلتهم إلى الجزائر بحيث بلغت الدفعة الأولى ٤٥٠٠ نزيل.

ولقد فتح المارشال كلوزيل سياسة الاستيطان عندما أحضر أحد وكلاء الهجرة خمسمائة ألماني وسويسري تعاقد معهم على تشغيلهم في أمريكا، لكن ما إن أوصلهم الجزائر حتى تخلى عنهم فالتقطهم كلوزيل وأمر الجيش بنصب خيام لهم خارج مدينة الجزائر ووزع عليهم أرضاً كانت أوقافاً إسلامية[١].

٥. لجنة برلمانية فرنسية للتحقيق في الجزائر:

أرسل البرلمان الفرنسي لجنة للتحقيق في الجزائر قضت فيها شهري سبتمبر ـ أيلول / أكتوبر ـ تشرين أول ١٨٣٣م، ومما ورد في تقريرها: أرسلنا إلى العقوبة أناساً على أساس مجرد شك. قمنا بتجريد ورثة قصّر من ممتلكاتهم، قتلنا ناساً حاملين لأذون مرور وعلى أساس مجرد شكوك ذبحنا جماعات كاملة اكتشف بعدها أنهم أبرياء، قدمنا للمحاكمة أشخاصاً اشتهروا بأنهم مقدسون وأولياء موقرون لا لشيء إلا لأنهم وقفوا يدافعون بشجاعة عن مواطنيهم ووجد قضاة لإدانتهم ورجال متمدنون لإعدامهم، وتسببنا في فوضى عارمة بين قبائل بسبب كرمها عندما قبلت طلب هاربين من جيشنا باللجوء إليها، حولنا المساجد إلى كنائس، واحتللنا منازل دون أي تعويض، صادرنا أملاك

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٧٤.

الأوقاف أي أملاك منشآت دينية، دمرنا المقابر واحتقرنا بذلك أكثر شيء مقدس لدى الشعوب، لقد نُهِب العرب وأُذِلوا وانقض المرابون على الجزائر كفريسة سهلة للنهب فكونوا ثروات ضخمة متجاوزين أبسط مبادئ الشرف، وباختصار لقد أغرقنا في البربرية هؤلاء البرابرة الذين جئنا لتمدينهم، ثم نشكو من أننا فشلنا معهم[١].

٦. أحكام السيطرة على مدينة الجزائر:

وأمام قوة المقاومة الجزائرية وفشل محاولات كلوزيل احتلال مدن أخرى رأى الاحتفاظ بمدينة الجزائر وحولها وإدارتها فرنسياً، وإيجاد أسلوب آخر لإدارة الأقاليم الأخرى بحكم محلي يعترف بالسيادة الفرنسية العليا، فقرر إقامة كيانين بوهران وقسنطينة تحت الحماية، الفرنسية، يداران بمسلمين، وعرض كلوزيل على باي وهران وباي تيطري ابن مصطفى بو مزراق تعيينهما بايين تحت الحماية فرفضا وساعد كلوزيل على تحقيق هذه الفكرة باي تونس حسين الذي صنف على أنه صديق لفرنسا، فقد سبق له أن هنأ فرنسا على احتلالها للجزائر وسمح للجيش الفرنسي بالتزود بما يحتاجه من تونس[٢].

٧. حكام تونس يدعمون الاحتلال:

أرسل كلوزيل وفداً لباي تونس حسين باشا يحمل اتفاقية تنص على تعيين سيدي مصطفى شقيق باي تونس باياً على قسنطينة تحت الحماية الفرنسية ووافق باي تونس على الاتفاقية ووقع عليها حامل أختامه يوم ١٨/ ٨/ ١٨٣٠م وتنص الاتفاقية على: أن يطبق الباي مصطفى كل ما يرسمه له القائد العام الفرنسي بالجزائر كما لو أن هو الذي عينه ويعمل لصالح فرنسا أولاً ولصالح الإقليم ثانياً وأن يقوم بجمع الضرائب من السكان على أن يدفع منها نسبة للدولة الفرنسية، وفي ٦/ ٢/ ١٨٣١م وقع كلوزيل اتفاقية أخرى تنص على تعيين أحمد أحد أقارب باي تونس في منصب باي وهران، لكن عندما أرسل

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٦٥.

كلوزيل، الاتفاقية الأولى إلى باريس عارضها وزير الخارجية بحجة أنها تعطي حقوقاً في قسنطينة لباي تونس، واعتبر كلوزيل قد تجاوز صلاحياته بتوقيعه على هذه الاتفاقية التي تعتبر من صلاحيات وزارة الخارجية وشكا للملك الذي أصدر قراراً يوم ٢٩/ ١/ ١٨٣١م بإلغاء هذه الاتفاقية ونشر هذا القرار قبل أن يعلم به كلوزيل ولعب اليهود دوراً كبيراً في عقد هذه الاتفاقيات مما جعل ش.أ. جوليان يقول: إن اليهود المشهورون بمكرهم برهنوا على أنهم ضروريون كوسطاء ومخبرو أجهزة مخابرات.. إن تقريب اليهود ورفع مستواهم من طرف الفرنسيين بدت للجزائريين على أنها فضيحة اجتماعية[١].

وفي هذه الاثناء وصلت إلى وهران يوم ١١ فبراير ـ شباط ١٨٣١م سفينة تونسية تحمل بضع مئات من الجنود التونسيين بقيادة خير الدين آغا وكيل الباي المتوقع وفقاً لاتفاقية كلوزيل، وقام بإقناع الأتراك بضرورة تأييده حتى يعيد الحكم التركي للبلاد، وانخدع هؤلاء بأقواله وانضم بعضهم إليه لكن الشعب ثار عليه وعليهم وقتلوا الكثير من أتباعه وهرب أتراك تلمسان من انتقام الشعب واعتصموا بقلعة المشوار فاضطر خير الدين آغا إلى طلب سفينة تعيده مع جنده إلى تونس، وعادت الأمور إلى الصفاء بين الشعب والأتراك. وإزاء تصرفات كلوزيل الفردية قررت الحكومة الفرنسية إعادته إلى فرنسا وتعيين خلف له وهو الجنرال بيرتوزان[٢].

٨. ثورة سيدي السعدي وابن أبي مزراق وابن زعموم:

ثار ابن أبي مزراق عندما علم بنفي كلوزيل لوالده مصطفى بو مزراق إلى الإسكندرية وقد سبق لهذا أن سلم نفسه لكوزيل فأمنه، لكنه نكث العهد واعتقله، ثم نفاه، ثار ابن أبي مزراق فجمع الجموع وتمكن من طرد الفرنسيين وعاملهم الخائن مصطفى بن عمر من مدية، فتوجه بيرتوزان على رأس جيش كبير إلى مدينة مدية فوصلها في ٢٩/ ٦/

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٦.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٦٦.

١٨٣١م وانسحب المقاومون من المدينة نحو الجنوب وطاردوهم، ودمر في طريقه حقول الحبوب الناضجة وقطع الاشجار المثمرة، لكن المقاومين قاموا بهجوم مضاد ودفعوا جيش العدو خارج مدية، وأمام ضربات المقاومين اضطر بيرتوزان إلى العودة إلى الجزائر وأخذ معه عميله ابن عمر، وصل الجزائر مهزوماً يوم ٥/ ٧ ولاحق ابن أبي مزراق الفرنسيين وانضم له ابن زعموم الذي اكتسح الحراش ودمر المزرعة الكولونيالية النموذجية والمزارع التي أسسها كلوزيل، وقتل من قتل من الكولون وهرب من هرب داخل أسوار مدينة الجزائر التي وصل المقاومون حتى أبوابها، واستمر ابن أبي مزراق مسيطر على ولاية التيطري إلى أن جاء الأمير عبد القادر فانضم لدولته.

وعاد في هذه الأيام الحاج سيدي السعدي إلى الظهور في جبال زواوة ودعا القبائل إلى الجهاد، وكان الجنرال بيرتوزان بعد طرد الفرنسيين من المدية قد جمع عدداً من أعيان العرب والبربر وطلب منهم ترشيح من يصلح منهم للولاية على العرب والبربر في داخل البلاد بعد تأكده من استحالة السيطرة على الداخل مباشرة، فرشحوا له محيي الدين بن السيد علي مبارك من زاوية القلعية، فعيّنه آغا العرب، وقبل بشرط واضح قاله للجنرال: أقبل بشرط أن يبقى العرب في أماكنهم ويبقى الفرنسيون في أماكنهم. أي يمد الفرنسيون احتلالهم وأن يبقوا في مدينة الجزائر وما جاورها وخرج محيي الدين إلى نواحي القليعة أرسل رسله للقبائل يدعوها للطاعة، ولم يطل وضعه فقد خرج عليه الحاج سيدي السعدي وحاصره مع جيشه العميل فوجد الآغا نفسه مضطراً للرضوخ له وضم جيشه لجيش الثوار وبخاصة بعد إبادة الفرنسيين لقبيلة العوفية في ربيع ١٨٣٢م وتقدم السعدي نحو مدينة الجزائر وراح يقتل الكتائب الفرنسية المتواجدة حولها مع الكولون، وخرج الجنرال بيرتوزان من المدينة والتحم مع الثوار فانهزم الفرنسيون وهربوا نحو مدينة الجزائر والمجاهدون وراءهم يقتلون ويأسرون ويغنمون ودخلوها وأغلقوا أسوارها، ووصل سيدي السعدي حتى باب عزون ووقف أمامه متحدياً وهو مغلق، وعاد المجاهدون إلى مواقعهم

غانمين منتصرين، وكانت تنقصهم الوسائل العصرية للجيوش لتطوير هذا النصر وتحويله إلى اقتحام العاصمة وتطهيرها من المحتل.

واستطاع إبراهيم بك احتلال قصبة عنابة وقام بقتل سائر الضباط والجنود الفرنسيين، وهكذا أضاف المجاهدون هزيمة فرنسية بعنابة إلى الهزيمة التي ألحقوها بهم في مدية وثار الرأي العام الفرنسي على هذه الهزائم المتلاحقة[١].

وأمام تعثر الأمور قررت الحكومة الفرنسية في نهاية ١٨٣١م إعفاء الجنرال بيرتوزان وتعيين الدوق دي روفيجو خلفاً له، وأصيب بيرتوزان بذهول واعتبر عملية إعفائه إهانة له، واحتج ضد ما سماه تدنيساً لشرفه ورفض أي قيادة تسند له.

حضر الدوق دي روفيجو ومعه جيش قوي، وأول ما قام به بناء سلسلة من التحصينات الصغيرة على طول ساحل منطقة الجزائر تبدأ من بوانت بيسكال حتى الحراش، مروراً بمرتفعات الحامة ثم القبة وبير خادم وبوزربعة فدالي ابراهيم، ومدت طريق وربطت بين هذه النقاط، كما فتحت طرق أخرى داخل هذه الدائرة واخترقت هذه الطرق المقابر وعوملت القبور باحتقار وامتهان غريبين، فقد روى الضابط بيلسية دي ربينو: شقت المقابر وحفرت القبور وشاهدنا مشردين يلعبون بازدراء برؤوس الموتى البشرية وعندما سطر المهندسون الطريق وسط المقبرة عملت المعاول والفؤوس عملها فتفتح القبر وتقسمه نصفين وتقسم معه الهيكل العظمي البشري فتنتشر عظامه التي تجمع وتستعمل كحصى في ردم حفر الطريق، وتبقى بعض العظام بارزة للعيان على جانبي الطريق[٢]، وشمل هذا التدنيس مقابر الدايات والوجهاء الكائنة بين باب عزون وبرج باب عزون، لقد أضيف

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٦٨.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٧٠.

هذا العدوان على المقابر إلى العدوان على المساجد جعل أحد الوجهاء يصرح للضابط بيشون: عن قريب سوف لا نعرف أين سنعيش ولا أين سنموت.
وشاع بين الناس أن عظام موتى هذه المقابر شحنت لفرنسا لاستعمالها في صناعة السكر، فقد ذكر ش: أ: جوليان: أن طبيباً فرنسياً بمرسليا صرح أنه شاهد على الباخرة "جوزفين" في مارس ١٨٣٣م وجود شحنة آتية من الجزائر تتكون من عظام بشرية جماجم وفكاك وعظام فخذ وعظام زند وغيرها، وكلها عظام بشرية، ويفصّل الدكتور سيجو ما شاهد فيقول: والعظام تبدو كأنها أخرجت للتو من التراب وأن آثاره بادية عليها.

ويؤكد العالم بير بروجر على استعمال العظام في الصناعة، وشاع أن هذه العظام المستخرجة من المقابر الجزائرية تستعمل في صناعة السكر الأبيض وهذا هو الذي جعل الأمير عبد القادر يصدر قراراً سنة ١٨٣٨م يحرم فيه السكر الأبيض.

أصدر الدوق دي روفيجو أمراً يوم ١٧/ ١٢/ ١٨٣١م بإخلاء جامع كتشاوة وتحويله إلى كنيسة مركزية، وهاجم الجيش ٤٠٠٠ من السكان كانوا معتصمين به احتجاجاً على هذا القرار رافضين تسليمه وأخرجهم الجنود بالقوة، ومات بالمسجد عدد من المعتصمين وكانت مجموعة من المشائخ الضعيفي النفوس قد وافقوا على هذا القرار ومنهم عبد القادر بو دربة الذي وعد بوسام الشرف، وهذا القرار يخالف المعاهدة التي وقع عليها الجنرال بورمون يوم احتلال الجزائر ووضعت الصلبان على الجامع ودشن هذا الجامع كنيسة في يناير سنة ١٨٣٢م وأرسل البابا غريغوار السادس عشر مباركته، وفي أفريل ـ نيسان ١٨٣٢م أباد الجيش الفرنسي قبيلة عوفية بالحراش بنسائها ورجالها وأطفالها، وعاد الجنود لثكناتهم وهم يحملون على سيوفهم رؤوس شيوخ القبيلة، وبيعت بالأسواق عقود وأقراط وأسورة وعليها دم ضحاياها، كانت الأقراط معروضة وقطع من شحمات آذان صاحباتها

لازالت لاصقة بها، دفعت هذه الفظائع شيخ الزاوية سيدي السعدي إلى إعلان الجهاد في اجتماع جماهيري عقده في "سوق علي" قرب بوفاريك وأسندت قيادة الجهاد لابن زعموم وانضم إليهما الباشا محي الدين.

وفجأة سقط الدوق دي روفيجو مريضاً ونقل لباريس فمات بعد أشهر بسرطان الفم، ويعلق الشعب الجزائري على ذلك بأنه انتقام من الله على فظائعه، وكان الدّاي حسين قد استقر في لجهورن بإيطاليا ومن هناك راح يتصل بالجزائريين ويشتري السلاح ويرسله للجزائر، كان يعد العدة لثورة مسلحة يقودها هو، لكن روفيجو الذي عمل وزير شرطة في عهد نابليون تمكن من كشف اتصالاته الأمر الذي جعله يصرف النظر كلياً عن دعمه للمقاومة وينتقل إلى الإسكندرية سنة ١٨٣٣م حيث بقي بها إلى أن توفي سنة ١٨٣٨م.

احتلت القوات الفرنسية عنابة للمرة الثالثة في عهد دي روفيجو لكنها لم تحاول احتلال قسنطينة لمناعتها، وحاول دي روفيجو الدخول مع أحمد باي في مفاوضات وعرض عليه تعيينه باياً مستقلاً بقسنطينة مع ربط علاقة فرنسا بوضع شبيه بالوضع الذي عرض على بكوات تونس، لكن أحمد باي رفض العرض، وأصر على مقاومة الاحتلال الفرنسي وأعلن نفسه باشا الجزائر، واعترف به سلطان الدولة العثمانية، وعندما فشل دي روفيجو مع أحمد باي بث جواسيسه بمنطقة قسنطينة وحاول إقناع بعض شيوخ القبائل على التمرد عليه مقدماً لهم سائر الإغراءات، وسقط الشيخ فرحات شيخ بسكرة في إغراء الدوق وأرسل وفداً للدوق يعلن ولاءه فحمَّله هدايا ثمينة للشيخ فرحات وعادوا إلى البسكرة بالهدايا، لكن المجاهدين ترصدوا لهم في متيجة وجردوهم من الهدايا، وعاد الوفد للدوق فأرسل جيشاً لمعاقبة المجاهدين، فتحرك سيدي السعدي وشنها حرباً على الدوق

وجيشه، حرب كر وفر متجنباً المواجهة، وكانت نهاية دي روفيجو العودة إلى فرنسا مريضاً كما سبق أن بيّنا.

وبضغط من الثائر سيدي السعدي انسحب محيي الدين ابن السيد علي مبارك الذي عاد الفرنسيون وعينوه آغا العرب في القليعة يحكم القبائل باسمهم، وانسحب إلى جبال مناد، وبقي بها إلى أن ظهر الأمير عبد القادر فانضم له، وأحس الحاج سيدي السعدي بتقدم سنه وعلم بمبايعة الأمير فانتقل لمعسكره بعد أن أمر اتباعه باتباع الأمير، وبقي متعبداً في المعسكر إلى أن وافته المنية[١].

٩. أصوات فرنسية ضد الاحتلال:

وأمام الخسائر التي تكبدتها الخزينة الفرنسية من جراء مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال ارتفعت أصوات فرنسية ضد الاستعمار، وهاجم عدد من النواب في جلسة مناقشة الميزانية المصروفات الاستثنائية للاحتلال وطلبوا من الحكومة في هذه السنة الإسراع في تحرير فرنسا من عبء الجزائر الذي لن تقوى على تحمله فترة طويلة، ووقف وزير الحربية المارشال سول واجماً أمام هذا النقاش لكن الشاعر لامارتين أنقذه وهب لنجدته فصاح: إن للسياسة وللشرف الوطني وزناً مثل وزن الذهب، وإخلاء مدينة الجزائر سيبقى لطخة في تاريخ فرنسا، وفي تاريخ هذا المجلس. فحتى الشعراء تحول بعضهم إلى مردة وشياطين للاستعمار.

وفي يوم ٢٢/ ٧/ ١٨٣٤م صدر أمر ملكي بتحويل الجزائر من منطقة تخضع للاحتلال العسكري لقوات فرنسية إلى احدى الممتلكات الفرنسية وأن يتولاها حاكم عام للممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا وفي ١٩/ ٨/ ١٨٣٤م صدر أمر ملكي يقضي بتنظيم القضاء في الجزائر[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٧٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٧٥.

١٠. ظهور الشريف محيي الدين الحسني:

استمرت المقاومة وبقي الاحتلال محصوراً في مدن الجزائر ووهران وعنابة، وحاول الفرنسيون تعيين شيوخ قبائل على الأقاليم الداخلية يحكمون حكماً محلياً مع تسليمهم بالسيادة الفرنسية، فلم يجدوا من يتعاون معهم، وبقيت المقاومة مشتتة محلية إلى أن ظهر الأمير عبد القادر فحول هذه المقاومة من محلية إلى وطنية.

وبدأ هذه الملحمة العظيمة والد الأمير عبد القادر الشريف الهاشمي محيي الدين شيخ الطريقة القادرية، وينسب إلى بني هاشم أرومة الرسول صلى الله ليه وسلم[١].

كان محيي الدين بن مصطفى الحسني ذا مكانة ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل، حتى إن الولاة العثمانيين كانوا يحسبون له حساباً، ويحترمون نفوذه بين القبائل ويخشونه، فازدادت خبرات سيدي محيي الدين القتالية وبالدعوة إلى الجهاد وتنظيم صفوف المقاومة خلال سنتين من الاحتلال ولكن بشكل غير منظم، وفي أواخر شهر أيار من عام ١٨٣٢م عقد اجتماعاً في مزرعة القيطنة التي ورثها عن اجداده الأدارسة دعا إليها جميع رؤساء القبائل المجاورة والمدن المحتلة ووقف خطيباً قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى :" وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ" (الأنفال، آية : ٦٠). ودعاهم إلى الجهاد فساعدوه على تدريب وتنظيم قوة جهادية، وتلا عليهم الآيات القرآنية التي تحث على مقاومة الشر والظلم وقتال المعتدين من هذه الآيات قوله تعالى :" وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة، آية : ١٩٠).

وقال سبحانه :" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا" (الصف، آية : ٤).

وكان يرتل هذه الآيات بصوت أدخل الخشوع على القلوب الثائرة، وعندما تم تدريب تلك القوة على استعمال السلاح ورمي السهام كلّف أحد المجاهدين وهو السيد عبد

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٧٥.

القادر بن زيان باستكشاف مراكز المحتلين بوهران فتسلل متخفياً في جوف الليل، ولما قرب من المدينة شاهد قوات العدو معسكرة في ساحة المدينة في مكان يسمى خنق النطاح فرجع بهذا الخبر إلى سيدي محيي الدين وبعد وضع خطة الهجوم نادى بالجهاد فاجتمع حوله في مزرعة القيطنة الرجال واستقبلهم بصيحة مدوية "الله أكبر" وأسرع الناس إلى المقاومة فتقدمهم إلى وادي سيك وخيم في المرتفعات المطلة على معسكرات العدو، وانتظر حتى غطى ظلام الليل تلك المناطق فأمر بإشعال النيران بأعالي التلال، وقبل بزوغ الفجر انقض الفرسان على القوات المتمركزة في الساحة من أربع جهات ودارت معركة دامية بين الفريقين بالبنادق والسهام ثم التحموا بالسلاح الأبيض وكان الأمير عبد القادر على متن جواده الأشقر يصول ويجول بين الصفوف ويحرض المجاهدين على الثبات والصبر بقوله "دافعوا عن كرامتكم ودينكم أيها المجاهدون" فبادره أحد جنود العدو برمية من رمحه تحت إبطه الأيسر، فالتفت إليه وهوى بسيفه على الجندي المعتدي فقدّه نصفين، وجاء آخر فرماه بحربة فأصابت جواده بجرح وعدد من الطعنات فسقط الحصان فقفز على غيره بسرعة البرق وتابع المعركة، وانتصف النهار والمعركة على أشدها وانتهت بهزيمة المعتدين فانسحب من بقي منهم حياً تاركين قتلاهم في ساحة المدينة فتبعهم الفرسان المجاهدون حتى أجهزوا عليهم قبل وصول النجدة إليهم[1].

وقد سجل الأمير عبد القادر هذه المعركة في قصيدة طويلة من ٤٤ بيتاً منها:

ألم تر في خنق النطاح نطاحنا

غداة التقينا كم شجاع له لوى

وكم هامة ذاك النهار قددتها

بحد حسامي والقنا طعنة شوى

وأشقر تحتي كلمته رماحهم

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، بديعة الحسني الجزائري، ص: ١٩.

ثمان ولم يشك الجوى بل وما التوى

بيوم قضى نحبا أخي فارتقى إلى

جنان له فيها نبي الرضا أوى

فما ارتد من وقع السهام عنانه

إلى أن أتاه الفوز راغم من عوى

ويوم قضى تحتي جواد برمية

وبي أحدقوا لولا أولو البأس والقوى

ولما بدا قرني بيمناه حربة

وكفّي بها نار بها الكبش قد شوى

فأيقن أني قابض الروح فانكفا

يولي فوافاه حسامي مذ هوى

شددت عليه شدة هاشمية

وقد وردوا ورد المنايا على الغوى[1]

وعاد الشيخ محيي الدين مع ابنه الفارس بعد أن حقق هذا الانتصار في أول معركة يخوضها ضد العدو. عاد إلى وادي سيق حيث أقام هناك أياماً اتصل فيها بشيوخ قبائل الناحية، ثم توجه إلى القيطنة، بعد أن أذن للمجاهدين بالعودة إلى عشائرهم وانتظار أوامره مرة ثانية.

وبعد أيام دارت معركة خندق النطاح الثانية، فبعد أن استراح الشيخ محيي الدين أرسل للمجاهدين فتجمعوا من كل صوب وتوجه بهم إلى وهران، وما أنتقدم مسافة حتى شعر بوعكة صحية فعاد إلى بيته وسلم قيادة الجيش لابنه عبد القادر وانتقل الأمير إلى وادي سبق، وانتظر هناك إلى أن التحق به فرسان القبائل ثم توجه إلى عين الكرمة القريبة من

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٧٧.

وهران، وعلم الجنرال بويه بتحرك الجيش المسلم فخرج من المدينة على رأس جيش عززه بفرق حضرت من فرنسا حديثاً، وعسكر في خنق النطاح، وكأنه صمم على الانتقام لهزيمة جيوشه في المكان نفسه قبل أيام، قسم الجنرال جيشه إلى ثلاث فرق اثنتان للقتال وواحدة تركت احتياطياً وعسكر الأمير في مواجهة العدو، وقسم قواته إلى خمس وحدات وحدتان تقاتلان ووحدتان للدفاع، ووحدة من الفرسان الخفاف كلفت بتطويق العدو من الخلف ودارت المعركة، وهزم فيها جيش الجنرال فانسحب نحو اسوار المدينة، وما كاد يتقدم حتى فاجأته وحدة التطويق وألتحمت بقواته وقتلت العديد منهم، ولم ينج سوى الجنرال مع عدد قليل من ضباطه وجنده، وقتل مائة مجاهد في هذه المعركة منهم الفارس ذو الخامس عشرة سنة أحمد ابن أخ الأمير، محمد السعيد وقد كان فارساً شجاعاً، شاهده الأمير وفرسه يسقط ميتاً فهجم الأمير مع ثلة من فرسانه على المكان وراحوا يحيطون به، وتقدم من الفارس الشاب وحمله على جواده وسط ذهول جنود العدو وعاد الأمير منتصراً إلى ولده الذي أمر المجاهدين بالتوجه لأسرهم وانتظار النداء القادم وأدرك الجنرال بويه قوة خصمه ومهارته فاستنجد بالقيادة العامة بمدينة الجزائر التي أرسلت له تعزيزات هامة، فقرر خوض معركة ثالثة وفي نيته هزم المسلمين هذه المرة وضرب معسكره في برج رأس العين غربي المدينة، ونقلت عيون المسلمين تفاصيل تحركات العدو للشيخ محي الدين، فأمر بجمع الجموع، وخرج من حاضرته القبطينة وتوجه إلى وادي سيق، فعسكر هناك إلى أن تجمعت جموع المجاهدين، فعقد قيادتهم للأمير عبد القادر، وتقدم الجيش المسلم إلى أن أطل على معسكر العدو، وبات على مشارف وهران وجنوده يهللون ويكبرون ويهزجون بأناشيد الجهاد التي اهتزت لها قلوب الأعداء، عبأ الأمير جيشه إلى وحدات كل قبيلة لها مقاتلوها وعلى رأسهم اختار ابناً من أبنائها.

ومع طلوع النهار بدأت المعركة فاستعمل العدو مدفعيته فقذف بقنابلها المجاهدين الذين كانوا متحصنين وراء تلال وخنادق وكان الأمير يقاتل وينتقل كالبرق بين المقاتلين يحثهم

ويوجههم، وقتل في هذا اليوم أيضاً فرسه فركب فرساً آخر واستمر يقاتل إلى أن سقط الليل فتوقف القتال، وعندما شعر الجنرال بويه بقوة المسلمين استغل سقوط الليل وانسل مع جنده إلى ما وراء أسوار المدينة وفي الصباح أصدر الأمير أوامره بالعودة إلى حاضرته.

واستمر الشيخ محيي الدين مع ابنه عبد القادر يخوضون سلسلة من المعارك من شهر ايار . مايو وحتى شهر تشرين الثاني . نوفبر وعند ذلك تأكد للناس من قدرة الشيخ على جمع الصفوف وتوجيه الجهاد ضد العدو١، وتوجهت وفود من مناطق الجزائر إلى محيي الدين بعد أن اجتمعت في سهل غريس وقرّر هؤلاء الزعماء بالاجماع انتخاب سيدي محيي الدين لحكم البلاد وقيادة كفاحها وانطلقوا مجتمعين إلى مزرعته في القيطنة، حيث كان قد وصلها لزيارة قصيرة، وما زال منتصباً على صهوة جواده ببرنسة الأبيض وقامته المهيبة وسيفه على يمينه، هادئاً محتفظاً بتلك النظرة التي عرف بها، والتي لا تُرى إلا في أعين كبار القادة المجاهدين تلك النظرة التي تنحني لها الجباه وتخفق لها القلوب احتراماً ورهبة ومحبة، فنزل من على جواده ورحب بالقادمين، ثم دعاهم إلى قاعة واسعة مفروشة بالسجاد العجمي والمقاعد الأنيقة داخل منزله الريفي الذي شيد من الحجر يعلو سقفه القرميد الأحمر، يتقدمهم العلماء وكبار السن وامتلأت القاعة ولم يفاجأ هذا الشيخ الوقور بقدوم هؤلاء القوم، وظنهم جاؤوا للتشاور وتبادل الآراء، ولكن عندما وقف أحد الزعماء قائلاً: لقد ادلهم الخطب وعمت الفوضى في البلاد والعدو دخل المساجد، وأحرقت الكتب وهدم الدور على أصحابها، ولابد للبلاد من سلطان له سلطة شرعية، وقد اخترناك لتحمل هذه المسؤولية، شكر السيد محيي الدين الجميع قائلاً: أشكر ثقتكم ولكن أعتذر عن قبول هذا المنصب، فأنا الآن أقوم بواجبي الديني والوطني مجاهداً في سبيل الله، كأي واحد منكم فوقف زعيم آخر وأخذ يحاوره قائلاً: إن هذا المنصب يزيدك قوة وهذا المنصب من سمات الجهاد لجمع الكلمة وإدارة شؤون العباد، ونحن هنا جميعاً

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٧٨ ، ٤٧٩.

جئنا لنشد على يدك الطاهرة مبايعين على الطاعة والجهاد، فلا تخذلنا فالبلاد كما ترى بحاجة إلى رأس كحاجة البخارة إلى قبطان.

وألتفت السيد محيي الدين إلى الجميع مخاطباً وقال: إن كان رأيكم وثقتكم بولدي عبد القادر كرأيكم بي فأنا متنازل له عن هذه البيعة، فتشاوروا فيما بينكم وإذا عقدتم العزم فموعدنا في سهل غريس تحت شجرة الدردارة صباح الاثنين يوم الثالث من شهر رجب ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م[1]، وهذا ما تم وجاء الناس من كل حدب وصوب لمبايعة الأمير عبد القادر.

١١. الأسباب التي ساهمت في التفاف الناس حول محيي الدين:

كان لمحيي الدين مكانه في قومه لوفور فضله وحسن خلقه وسعة علمه وشدة تدينه، كما أن للنسب الشريف ولزعامته للطريقة القادرية أثر في التفاف الناس حوله.

أ. فبالنسبة للنسب: فقد هاجر أحد أجداده إلى المغرب الأقصى وهو ادريس ابن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط لن علي وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، فلما وصل التفت حوله القبائل وبايعوه أماماً عليهم وبعد في نهاية القرن الثامن بويع ولده إدريس الأصغر ومن بعده أولاده وأحفاده ودامت دولة الأدارسة في المغرب والأندلس حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر رغم أن دولة الأدارسة زالت منذ زمن إلا أن الأسرة الإدريسية ولشرف نسبهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بقي عزها واحترامها، واجلالها دائماً محفوظاً عند المغاربة عموماً وبعد أن تخلت الدولة العثمانية بسبب ضعفها على الإشراف السياسي على شؤون البلاد، وتخلى المغرب عن مساعدة الجزائر، لم يبق أهلها مكتوفي الأيدي أمام المحتل الفرنسي، فالتفت القبائل حول السيد محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار الحسين الهاشمي القرشي ففضلاً عن أن

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٣.

أسرته من الأشراف الأدارسة بالمغرب الأوسط أي الجزائر، فقد كانت له منزلته الرفيعة ومكانته العظيمة في نفوس الأهالي[1].

ب . الطريقة القادرية:

كان التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية صفات ذلك العصر، والسيد محيي الدين الذي عاش بين عامي ١٧٧٦م إلى ١٨٣٣م كان منتمياً إلى الطريقة القادرية وممثليها في المغرب الأوسط ولم يكن لهذا الانتماء مزية في ذلك العصر لأن معظم الناس والعلماء خاصة في مصر والمغرب العربي كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية التي كانت منتشرة آنذاك وذات أتباع كُثُر كالطريقة الشاذلية والدرقاوية والطيبية والزيانية والخلوتية والناصرية والرحمانية وغيرها وكان الذين التفوا حول السيد محيي الدين وساروا معه على درب الجهاد ونصرة الإسلام وجمع الكلمة وتوحيد الجزائريين تحت راية المقاومة والجهاد من مختلف الطرق وألوان الطيف الشعبي[2]، والطريقة القادرية تنسب إلى الشيخ عبد القادر بن أبي صالح بن أبي عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب[3]، وتكاد تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته: أبو محمد ونسبته الجيلاني وأما الألقاب التي أطلقت عليه فكثيرة منها الإمام وإمام الحنابلة وشيخهم في عصره نقله عنه ابن رجب ومنها لقب شيخ الإسلام أطلقه عليه الذهبي[4].

ولد الشيخ عبد القادر في بلدة جيلان وراء طبرستان وذلك سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة وقيل إنه ولد سنة سبعين وأربعمائة هجرية[5].

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر د. عبد الكريم منصور، ص: ٧٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ٧٣.

[3] الشيخ عبد القادر د. سعيد القحطاني، ص: ٢٨.

[4] سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٤٣٩)

[5] المصدر نفسه (٢٠ / ٤٣٩).

ويكفي في معرفة الشيخ عبد القادر الجيلاني العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه، فقد شهد ابن تيمية للشيخ عبد القادر بأنه من الشيوخ الكبار[1]، ثم شهد له أنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء، فيقول: والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية[2].

وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي قال: سمعت شيخاً موفق الدين ابن قدامة يقول: دخلنا بغداد سنة ٥٦١هـ فإذا الشيخ الإمام محيي الدين عبد القادر ممن مثله انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وإفتاءً وكان يكفي طالب العلم عن قصده غيره من كثر ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر وكان ملء العين وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة، وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء[3].

وقال ابن الجوزي عنه: تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير[4].

. منهج الشيخ عبد القادر في توضيح العقيدة:

بيّن رحمه الله عقيدته بوضوح كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[5]، ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبد

[1] الإمام عبد القادر الجيلاني للصلابي، ص: ١٠.
[2] المصدر نفسه، ص: ١٠.
[3] الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١ / ٢٩٤).
[4] الإمام عبد القادر الجيلاني للصلابي، ص: ١٧.
[5] سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٤٤٢).

القادر الجيلاني يلاحظ الباحث أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها خصوصاً قضايا العقيدة ويمكن تلخيصه:

. **تعريفه للإيمان:**

ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالاركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وبالتوفيق يقع[1].

. **حرصه على عدم الخروج** عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إثبات الأسماء والصفات لله عز وجل: يدل على ذلك قوله ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيها ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله[2].

. **الإمساك عما لم يرد** ذكره في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إثبات أو نفي، وهذا واضح جلي في قوله: ونعوذ بالله من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله صلى الله عليه وسلم[3].

. **شروط قبول العبادة** وقد قرر الشيخ عبد القادر الجيلاني ضرورة توفر الإخلاص والمتابعة في العبادة وبيّن أن مجرد النطق بالشهادتين وأداء الأعمال التي تقتضيها لا يكفي إلا بعد تحقق الشرطين[4].

يقول: إذا عملت هذه الأعمال . يعني الإتيان بالأوامر وترك النواهي، لا تقبل منك إلا بالإخلاص فلا يقبل قول بلا عمل ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة.

ويقول في موضوع آخر: وجميع ما ذكرناه من صيام الأشهر والأضحية والعبادات من الصلاة والأذكار وغير ذلك لا يقبل إلا بعد التوبة وطهارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة[5].

---

[1] الغنية للجيلاني (١ / ٦٢).

[2] الشيخ عبد القادر للقحطاني، ص: ٧٢.

[3] الإمام عبد القادر الجيلاني، ص: ١٩.

[4] المصدر نفسه، ص: ٢٥.

[5] المصدر نفسه، ص: ٢٥.

وحذر كثيراً من الرياء والعجب وذلك لخطورته على دين العبد ولسهولة وقوع الإنسان فيه فقال: ينبغي لكل متعبد عارف أن يحذر من جميع أحواله من الرياء ورؤية الخلق والعُجب فإن النفس خبيثة وهي منشأ الأهواء المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحق عز وجل[1].

. القضاء والقدر:

يقول الشيخ عبد القادر: ينبغي أن يؤمن بخير القدر وشره وحلوه القضاء ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب وأن جميع ما كان من سالف الدهور والأزمان، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور، وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور[2].

. أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة:

يقول الشيخ عبد القادر: لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فلا تفلح أبداً[3].

. ذم البدع والتحذير منها:

حذر الشيخ عبد القادر من الابتداع في الدين وأوصى بالاتباع ويقرن ذلك بوصيته بالتوحيد وضرورة مجانبة الشرك، حيث يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا وأطيعوا ولا تمرقوا ووحدوا ولا تشركوا[4].

وبيّن أن أساس الخير في متابعة النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: أساس الخير في متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله[5].

---

[1] الغنية للجيلاني (٢ / ٦٧).

[2] الغنية (١ / ٦٥).

[3] الإمام عبد القادر، ص: ٤١.

[4] المصدر نفسه، ص: ٤١.

[5] الغنية للجيلاني (١ / ٧٩).

. مفهوم التصوف عند الشيخ عبد القادر:

رسم الشيخ عبد القادر الجيلاني منهجاً متكاملاً للتصوف يجمع بين العلم الشرعي المؤسس على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبين التطبيق العملي والالتزام بالشرع، فقد قال: انظر لنفسك نظر رحمة وشفقة واجعل الكتاب والسنة أمامك وانظر فيها وأعمل بهما ولا تغتر بالقيل والقال والهوس، قال تعالى :" فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ" (الحشر، آية : ١٧). ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به ولا تخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال الله عز وجل في حق قوم ضلوا سواء السبيل " وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ" (الحديد، آية : ٢٧)[١].

وقال: يا قوم انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة عليكم بالإيمان به صدقوا بقلوبكم وأعملوا بقلوبكم وأعملوا بجوارحكم واشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية[٢].

. تعريف التصوف:

قال الشيخ عبد القادر: التصوف هو الصدق الحق وحسن الخُلقُ مع الخَلْق[٣]. وقال: هو تقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى، وتحمل الأذى والفقر وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة والإرفاق وملازمة الإيثار ومجانية الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا، وبيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التصوف يقوم على خصال منها:

. السخاء: ويجعل القدوة في ذلك خليل الرحمن إبراهيم الذي اشتهر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بذلك.

---

[١] الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر، ص: ٤١.

[٢] فتوح الغيب للجيلاني المقالة السابعة والخمسون، ص: ١٦٦.

[٣] زاد المعاد في هدى خير العباد (١ / ٧١).

. **الصبر**: والقدوة في التخلق بهذا الخلق العظيم أيوب عليه السلام فقد أثنى الله عليه بقوله :" وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" (ص، آية : ٤٤).

وذلك لما تحلى به من الصبر لمواجهة تلك الابتلاءات العظيمة التي لا يكاد يطيقها بشر في جسده وماله وولده.

. **الإشارة**: ويذكر أن القدوة فيها هو زكريا عليه السلام وكأنه يشير بهذا إلى سرعة بديهته وشدة فهمه وذكائه عليه السلام، فإنه لما رأى أن الله يرزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أدرك بفطنته مدى قدرة الله عز وجل وعدم ارتباطها بالاسباب وأن الله قادر على أن يرزقه ولداً ولو كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه واشتغل بالشيب راسه مع كبر امرأته فدعا الله وناداه وقال :" رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء" (آل عمران، آية : ٣٨)[١].

. **السياحة**: ويذكر أن القدوة فيها هو عيسى ابن مريم عليه السلام.

. **الفقر**: ولاشك أن أعظم الناس اتصافاً بهذا الوصف هو الافتقار إلى الله وصدق اللجوء والاعتماد عليه هو خير البشر وسيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم والشواهد على هذا كثيرة جداً في سيرته العظيمة[٢].

ووضع الشيخ عبد القادر الجيلاني ضابطاً دقيقاً للصوفي فيقول: الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[٣].

ويقول الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سواه مولاه عز وجل وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخُلق وتعفير الوجوه وجمع الاكتاف ولقلقة اللسان وحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد

---

[١] فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الخامسة والسبعون، ص: ١٦٦.

[٢] الغنية للجيلاني (٢ / ١٦٠).

[٣] الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الخامس والعشرون، ص: ٩٠.

في الدنيا وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل[1]، وقد تأثر الشيخ عبد القادر الجيلاني بالإمام الغزالي الذي اشتهر أمره وذاع صيته في بداية نشأة عبد القادر، ويظهر تأثر الشيخ عبد القادر به في كتابه "الغنية" حيث التشابه بينه وبين كتاب الإحياء للغزالي[2].

وفي نظري أن الشيخ عبد القادر بسط تعاليم الغزالي ونقحها وزاد عليها كوّن تياراً إسلامياً متماسكاً وحوّل هذا التيار إلى عمل جماعي منظم منضبط واستطاع تكوين صف قيادي مساعد له، ساهموا في تشكيل التيار الإسلامي العريض[3] الذي دفع بحركة الجهاد في عهد السلطان نور الدين زنكي.

. إصلاح التصوف:

أعطى الشيخ عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف وإعادته إلى مفهوم "الزهد" ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان:

تنقية التصوف مما طرأ عليه: من انحرافات في الفكر والممارسة ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية هدفها الاساسي في غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح ويمثل كتاباه "الغنية لطالبي طريق الحق" "فتح الغيب" خلاصة أفكاره في هذا المجال ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى "كتاب السلوك" وقدمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث الوعظي وإنما طبقه في ميدان التربية العملية في مدرسته ورباطه[4].

---

[1] الإمام عبد القادر الجيلاني، ص: ٤٧.

[2] الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: ٥١٨.

[3] الإمام عبد القادر الجيلاني، ص: ٤٩.

[4] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ماجد عرسان الكيلاني، ص: ٢٠٩.

. الحملة على المتطرفين من الصوفية:

حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على تلبّسوا بالتصوف أو شوّهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان بتغيير الخرق وتصفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجردهما عما سوى مولاه عز وجل[1]، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألحان والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة وقرر أن المريد الصادق لا يهيجه كلام غير كلام الله، وهو في غنى عن الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدّعين وشركاء الشياطين ركاب الأهوية مطايا النفوس والطباع أتباع كل ناعق وزاعق[2].

. محاولة التنسيق بين الطرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها:

في الفترة الواقعة بين عامي ٥٤٦هـ . ٥٥٠هـ / ١١٥١م . ١١٥٥م جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ولتحقيق هذا الهدف عقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة على المستوى التنظيمي والمستوى النظري وتصدر الشيخ عبد القادر الزعامة وكان أول الاجتماعات استهدفت توحيد القيادة اجتماع عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني خلال موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء:

. الشيخ عبد القادر الجيلاني من العراق.

. والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر.

. والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب في ذاك العصر.

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٠٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٠٩.

. كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم[1].

وفي نفس الفترة جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ رسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام[2].

ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره جمع كبير من الشيوخ الذين يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار هامة من أهمها:

. خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف واسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي، فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحرّان وجبال هكار ودمشق ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين وصلاح الدين، واستمر هذا التعاون حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد وساطتهما وبنيا لها فروعاً جديدة وأوقفا عليها الأوقاف، في المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعالة[3].

إن الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني من المدارس السنية والتي كانت تؤمن بالجهاد في سبيل الله تعالى واشتهر من علمائها أفاضل وأكابر في العالم الإسلامي وفي بلاد المغرب وتوارثتها الأجيال واستفادت من تعاليمها ومنهاجها التربوية، وكان من المتقدمين فيها السيد محيي الدين بن مصطفى الحسني والد الأمير عبد القادر الجيلاني، ولقد دلت الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٤٥.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٤٥.

[3] المصدر نفسه، ص: ٢٤٧.

القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل لمواجهة الخطر الصليبي في البلاد الشامية[1]، وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصر الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدو مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي:

. الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي:

قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة ولقد كان هؤلاء الطلاب يُعرفون باسم "المقداسة" نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد من ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه الأول: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين.

والثاني: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر والسلطان المجاهد الكبير نور الدين محمود زنكي، فكان نور الدين يرسل أبناء المقدسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية[2].

وكانت المدرسة القادرية والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تأتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا طريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية[3].

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٧٥.

[2] الشيخ عبد القادر الإمام الزاهد القدوة، ص: ٢٧٥.

[3] الإمام عبد القادر للصلابي، ص: ١١٤.

. المشاركة في ميادين سياسية:

اشتغل نفر من تلاميذ المدرسة القادرية مع نور الدين ثم صلاح الدين في السياسة ولعب بعضهم أدواراً في غاية الخطورة ومن الأمثلة على ذلك: أسعد ابن المنجا بن بركات، فقد أشار ابن رجب بالإضافة إلى عمله في التدريس والقضاء أنه كان له اتصال بالملوك وخدمة السلاطين[1]، وكذلك زين الدين علي ابن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي وصف لقاءه بالشيخ عبد القادر فقال: فاشتغلت عليه بالعلم ففتح الله عليّ في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد[2].

ولقد قُدّر لابن نجا هذا أن يكون من رجال صلاح الدين ومستشاريه، وقد ارسله الشيخ عبد القادر الجيلاني للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السنية بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية في مصر وقد قام ابن نجا بدور خطير وهام في زحف جيش نور الدين محمود زنكي إلى مصر أنتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام وتخليص الأمة من الدولة الفاطمية الشيعية، فلو تتبعنا مسيرة ابن نجا هذا بعد أن استأذن عبد القادر بالرحيل إلى مصر لوجدناه يتوجه إلى دمشق، ويستقر بها مدة ليست قصيرة حيث اشتغل بالوعظ والتدريس، ثم وفد إلى بغداد عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م رسولاً لنور الدين حيث خلع عليه الخليفة، وبعد ذلك مباشرة يدخل مصر ويتصل بالخلافة الفاطمية وينال الحظوة عند حكام الدولة الفاطمية[3]، ويذكر ابن رجب أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس لعبد القادر وسأله عن إمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر، فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة وكل محاولة سريعة لابد وأن تفشل فجرى الأمر كما ذكر[4].

---

[1] طبقات الحنابلة (٢ / ٤٩) ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٧٩.

[2] قلائد الجواهر، ص: ٣٣ للتادفي.

[3] مرآة الزمان (٨ / ٥١٥) سبط ابن الجوزي.

[4] طبقات الحنابلة (١ / ٣٠٨).

وكان الشيخ عثمان يرى أن يسبق غزو أسد الدين شيركوه أحد قادة نور الدين محمود زنكي وعمّ صلاح الدين الأيوبي لمصر مزيد من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله، بما يشيعه زعماء التصوف السني والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه وأما عن حظوة ابن نجا في بلاط الفاطميين، فكانت من ضمن الخطة التي استهدفت اختراق البلاط الفاطمي لمعرفة مواطن الضعف والقوة عندهم، ودعم التعبئة الفكرية التي كان يقودها أمثال الشيخ بن مرزوق، لأن ابن نجا قد قام بنفس الدور الاستطلاعي في مناسبة تالية[١].

وتبدو أهمية الدور الذي لعبه زين الدين بن نجا في كشفه لمؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م[٢].

. وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني:

أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قد توفي عام ٥٦١هـ[٣]، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة[٤].

وقيل أنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط[٥]، وقد سأله ابنه عن مرضه فقال له: لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلب في علم الله عز وجل، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وسأله ابنه الشيخ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال: جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهومع الله وكان يقول رحمه الله تعالى: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت، وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: استعنت بلا إله إلا الله سبحان من تعزز بالقدرة وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله وقد تعزر عليه التلفظ بكلمة تعزز فظل يرددها حتى تلفظ

---

[١] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٨٢.

[٢] الإمام عبد القادر، ص: ١١٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٢١.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١٢١.

[٥] المصدر نفسه، ص: ١٢١.

بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه ثم خرجت روحه الكريمة[1].

قال عنه الإمام الذهبي: ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، لكن كثيراً منهم لا يصح وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة[2].

وقال الحافظ المفسر ابن كثير: وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات ولاتباعه وأصحابه فيه مقالات ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً وقد صنّف كتابه "الغنية" "وفتوح الغيب" وفيها أشياء حسنة ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار قدّس روحه ونوّر ضريحه[3].

هذه ملامح ومعالم عن الطريقة القادرية التي سار عليها قادة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي من أمثال الشيخ الشريف محيي الدين وابنه الأمير عبد القادر الجزائري.

---

[1] الإمام عبد القادر، ص: ١٢١.

[2] سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٤٥٠).

[3] البداية والنهاية (١٦ / ٤٢٠).

المبحث السادس

الأمير عبد القادر الجزائري

أولاً: نسبه ونشأته

١ . نسبه:

هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن مختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خده بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن ادريس الأصغر ابن ادريس الأكبر بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

فقد كانت اسرة الأمير عبد القادر تعتز بامتداد حلقاتها إلى هذا المعدن الشريف ففي القرن الثامن هاجر إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المغرب، هارباً من بطش العباسيين، وأنشأ دولة الأدارسة وعاصمتها فاس، ودام حكمها حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر وبعد أن سكنت بعض سلالات العائلة الكبيرة الأندلس انتقل أحد اجداده عبد القوي الأول في نهاية القرن الخامس عشر بعد سقوطها عام ١٤٩٢م واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف[٢].

وذكر محمد محمد الجوزي أن عبد القادر بن أحمد المعروف بابن خده وهي مرضعته كان حاكماً لمناطق غريس، عالماً مهيباً فقهياً تولى الرئاسة بعد موت من خلفهم من أجداده

---

[١] الأمير عبد القادر الجزائري، بديعة الحسني، ص: ٣٣.

[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٩.

الأدارسة وألف كتباً كثيرة، وتوفي رحمه الله في القرن العاشر للهجرة[١]، وأما جده مصطفى فقد أسس الزاوية القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد أن زار مدينة بغداد عام ١٧٩١م واشتهرت أسرته بالورع وكانت قدوة للناس في الجهاد والعلم وتوفي جده مصطفى بعين غزالة قرب مدينة درنة في إقليم برقة شرق ليبيا عام ١٧٩٧م عند عودته من الحج، ودفن في نفس المكان وما يزال قبره معروفاً حتى الآن.

ولد والده محيي الدين بقرية القيطنة عام ١٧٧٦م ودرس على يد أبيه مصطفى وورث عنه مشيخة الزاوية القادرية، وأشتهر والده بسداد الرأي وغزارة العلم وقاوم ظلم بايات الغرب الجزائري منذ عهد علي قارة الذي حكم من عام ١٨١٢م إلى ١٨١٧م وآخرهم حسن بن موسى الذي حكم من ١٨٢٧م حتى ١٨٣٠م.

٢. مولده ونشأته:

ولد في ٢٥ سبتمبر ١٨٠٧م في قرية القيطنة، وأمه السيدة بنت عبد القادر بن خدة وهي تنحدر من بيت علم وتقوى من أولاد سيدي عمر بن دوحة[٢]، تلقى دروسه الابتدائية في مسقط راسه تحت اشراف والده الذي بذل قصارى جهده ولم يدخر جهداً في سبيل ذلك، فأخذ منه القراءة والكتابة واتقنها في سن مبكرة جداً ولفت نظر والده ذكائه ونبوغه وختم القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشر، وأصبح فارساً يشار إليه وبرع في تلقي العلوم التاريخية والفلسفية والفقهية وتعلم مبادئ شتى العلوم اللغوية والشرعية ونال درجة الطالب وكلف بتحفيظ القرآن للأطفال وإلقاء الدروس والتفسير في الزاوية، ومن أجل إتمام دراسته سافر عام ١٨٢١م إلى مدينة أرزيو الساحلية التي تقع شمال مدينة معسكر على بعد حوالي سبعين كيلو متر، وذلك على يد القاضي الشيخ أحمد ابن الطاهر البطيوي الذي كان مشهوراً بغزارة العلم وسعة الاطلاع وبعدها رحل

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٥٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٠.

إلى مدينة وهران إلى مدرسة العالم الفقيه أحمد بن خوجة، صاحب رائعة در الأعيان في أخيار وهران، وتوسيع في المعارف اللغوية والفقهية والنحو والبيان والفلسفة والمنطق وصقل ملكاته الأدبية والشعرية واجتهد في حضور حلقات العلم لعلماء وهران مثل الشيخ مصطفى الهاشمي والشيخ بن نقريد وقضى عامين كاملين في هذه الرحلة العلمية وعاد إلى مسقط رأسه وتزوج بابنة عمه الآنسة خيرة بنت أبي طالب عام ١٨٢٣م وأقام في القيطنة معلماً[١].

وكانت له رحلات علمية للقرويين والزنيونة[٢]، وكانت البيئة التي عاش فيها بيئة إسلامية وتربوية إيمانية واجتماعية متماسكة وفي ظلها تكونت شخصية وهي التي أثرت في تكوينه النفسي والجسماني والفكري والاجتماعي والسياسي وهذا التكوين يعود إلى عوامل منها:

ـ العامل الوراثي والبيولوجي والعقلي للأمير.

ـ البيئة الثقافية والاجتماعية التي نشأ في ظلها وعاش فيها.

لقد سمع الأمير عن ذلك التصرف من والده الذي لاشك قد حُفر في ذاكرته وهو محاربة والده لأصحاب الطرق الصوفية الشاذة.

فقد جاء في كتاب تحفة الزائر: أصل ابن الشريف من الكسانة قبيلة بوادي العبد قرب غريس، أخذ العلم في صغره عن سيدي محيي الدين في مدرسة القيطنة ثم رحل إلى المغرب الأقصى ولقي الشيخ العربي الدرقاوي وسلك طريقته وقفل راجعاً إلى وطنه وجاء إلى حضرة سيدي محيي الدين زائراً، وفي بعض الأيام تكلم بحضرته بما يوجب تأديبه شرعاً فأدبه سيدي الجد بالسياط واستتابه[٣].

فهذا الحادث التاريخي ليس دليلاً فقط على منزلة والد الأمير عبد القادر ومكانته الاجتماعية والدينية إنما هو دليل على الوقوف في وجه أصحاب الطرق المنحرفة ومحاربة

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٩٢.

[٢] فكر الأمير عبد القادر للأميرة الجزائري، بديعة الحسني ، ص: ٦٩.

[٣] تحفة الزائر محمد باشا (١ / ٧٥ ـ ٧٦).

البدع ومحاربة الابتعاد عن الشرع والسنة والاجماع، والأمير عبد القادر أيضاً أثناء حكمه وفي عهد دولته حارب اصحاب الطرق المنحرفة، ووقف في وجه نشر دعوتهم وفضح أمرها[1].

فالطرق الصوفية في شمال أفريقيا أحد الروافد الثقافية والفكرية وقد تعامل معها العلماء وفق المعايير العلمية القائمة على العلم والانصاف في الافراد والمناهج، لقد كان السيد محيي الدين والد الأمير عبد القادر من الشخصيات المهمة في التأثير على ابنه الأمير وكان رجلاً مهاباً محترماً، ليس لكونه قادرياً كما تردده أقلام الدعاية فقط . وإنما لكونه عالماً فقيهاً وحكيماً وشجاعاً، امتاز بالأخلاق الإسلامية والصفات الحميدة والنبل الكريم وعلو منزلته العلمية وهيبة قبيلته بني هاشم التي يمتد نسبها إلى الادارية وحتى عند ولاة العثمانيين كانت له منزلة خاصة وكان مرهوب الجانب من قبلهم جميعاً بدافع تقدير ومحبة، فأمر طبيعي ظهور هذه الآثار الوراثية على أولاده ومنهم الأمير عبد القادر، فقد برزه هذه الآثار على الأمير في سن مبكرة من ذكاء ومواهب فكرية وسرعة بديهة وشجاعة ومهارة بفنون الفروسية من ركوب الخيل والسباحة واستعمال السيف إلى جانب نفس أبية وإيمان قوي ومحبة وجدانية وعقلية لخالق هذا الكون ومبدع تلك الطبيعة الغناء التي نشأ في احضانها، فالحياة البسيطة في هذه المزرعة والمناخ السياسي الذي نشأ فيه، كان صحياً ومتماسكاً في جزء من دولة كبرى أمنت الاستقرار والازدهار للجزائر وحاربت البدع وأصحابها[2].

٣. الأوصاف المعنوية:

لقد وصف العديد من المؤرخين الأذواق والعادات والسلوك الاجتماعي لعبد القادر منها: كان يزدري الترف في الملبس، فكانت كسوته بسيطة ولكنها نظيفة، كان غاية في التدين ويحمل دوماً مسبحة لا يقف عن التسبيح بها ذاكراً اسم الله وكان باستطاعته امتطاء

---

[1] فكر الأمير عبد القادر، ص: ٦٨.

[2] المصدر نفسه، ص: ٧٢.

الفرس لمدة يوم أو يومين، وكان زاهداً مثالياً، كان الأكل عنده ـ على الأكثر ـ "الروينة" وهي نوع من العصيدة مصنوعة من طحين وحليب في كمية صغيرة، فلم يكن يقبل الطعام إلا لقوته وليس لذاته، في قلة الأكل وفرة للصحة هذا ما كان يقوله وكان عفيفاً عن الأموال وكان يمتنع من اقتطاع أي شيء من الخزينة العامة لأغراضه الشخصية، وكان يراقب موظفيه ويمنعهم من الإسراف، كما كان يحب الكتب ويهتم بجمع المخطوطات، وكان يشجع الشعراء والكتاب الذين كانت أناشيدهم الملحمية تغذي إيمان المقاتلين وكان يتذوق الشعر وله ملكة شعرية تدلنا أشعاره عليها وتسجل أشعاره فترة تجديد في الشعر الجزائري، يكمن طابعها الجذاب دائماً في كونها ذات علاقة بالفعل والعمل وأنها تحمل إيمانه الوطني، اللغة، الصورة المجازية، تراكيب الأسلوب.. كلها مهدت لتجديد أدبي ينسجم مع مرحلة النضال والكفاح والجهاد والبناء.

لم يكن قاسياً بطبعه وخيرات الأرض لم تسيطر على قلبه وقتاله للمسيحيين لكونهم معتدين غاصبين لا لدينهم، كان يؤم جنوده للصلاة يومياً وكان يتأمل ويتدبر في معاني القرآن الكريم الذي كان زاده الروحي ومرجعه الكبير في خطبه ومواعظه وكان يستلهم الصلابة والثبات والصمود من إيمانه العميق والمنهج الرباني في العسر واليسر والمنشط والمكره والرخاء والشدة[١].

٤. الحج:

قال تعالى:" وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ" (الحج، آية : ٢٧ ـ ٢٩).

---

[١] الأمير عبد القادر وبناء الأمة، عبد القادر بو طالب، ص: ٥٣ ، ٥٤.

كانت قافلة الحجيج هي أهم قافلة دينية وتجارية في نفس الوقت تنطلق من شمال أفريقيا إلى المشرق وكان هناك عدة طرق للحج، يذهب الحجيج المغاربة كل سنة إلى البقاع المقدسة مصحوبين بعدد كبير من الإبل المحملة بالبضائع من الأقمشة الصوفية والأحذية المغربية، كالبلغة والشواشي بل حتى العبيد السود أحياناً، فبعد أن يتجمع الحجيج في مدينة فاس وتازة بالمغرب الأقصى، ويكونون الركب الفاسي تنطلق القافلة، فمنهم من يأتي سائراً على قدميه، والبعض الآخر يمتطي الخيل أو البغال أو الحمير أو الإبل وتعبر الجزائر سواء عن طريق الجريد عبر عين ماضي والأغواط وقرية أولاد جلال وبسكرة لتصل إلى مدينة قابس التونسية، أو عبر الطريق الساحلي مروراً على وادي الشلف وقسنطينة ومدينة تونس، وخلال مسار الطريق يتضخم الركب بحجيج كل بلد، ثم تصل القافلة إلى طريق بعد رحلة تدوم أكثر من شهرين وفي طرابلس يستجمع الحجيج قواهم ثم يستأنفون رحلتهم إلى أن يصلوا إلى القاهرة بعد أربعين أو خمسين يوماً أخرى من السفر و بعدما ينظموا للركب المصري يتوجهون مباشرة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج بعد أن يكونوا قد قطعوامسافة أربعة الآف وسبعمائة كلم تقريباً وفي البقاع المقدسة تتم مقايضة السلع المحملة من المغرب العربي بالأقمشة الموصلية الحريرية الشرقية والأنسجة الفارسية والهندية الثمينة والعنبر والتوابل، وبعد أداء فريضة الحج ينصرف الحجاج عائدين أدراجهم، وفي القاهرة يتزود الحجيج المغاربة بما تبقى لهم من أموال بالحرير الخام والقطن وعند رجوع الحاج إلى بلده يكون قد ضاعف عدة مرات قيمة البضائع التي حملها معه بعدما اجتاز ذهاباً وإياباً، حوالي عشرة الآف كلم، متحصناً بالاعتماد على الله، واحتسابه الأجر والمثوبة منه ومستعينين بالله للتغلب على مخاطر ومهالك أثناء الطريق من وباء أو اغتيال من طرق قطاع الطرق، وعند الوصول كل إلى بلده يتوجه التجار الحجيج مصحوبين ببضاعتهم مباشرة إلى إحدى الأسواق الكبيرة لبيعها[١].

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٥٣ ، ٥٤.

٥. رحلة الأمير عبد القادر مع والده للحج:

تحرك السيد محيي الدين مع ابنه عبد القادر إلى الحج عن طريق البر والبحر، فكانت بدايتهم من وهران مروراً بوادي الشلف وبرج حمزة فمدينة قسنطينة ثم محطة الكاف ومنها إلى مدينة تونس وكنا في كل محطة نزل عند إخواننا وأحبائنا الذين فرحوا بمقدمنا ومقامنا عندهم ومن تونس ركبنا البحر متجهين إلى الأسكندرية زرنا معالمها ووقفنا عند باب البحر عند مقامي الشيخ أبي العباس المرسي وأبي الحسين وانتقلوا بعدها إلى القاهرة وزاروا بالمقطم مقام مرشد السالكين الشيخ ابن عطاء الله السكندري أحد شيوخ الطريقة الشاذلية كما زاروا مساجدها العريقة وتعرفوا على أعيان المدينة وكبراءها وجالسوا علماءها من أمثال الشيخ علي بن محمد الميلي، والشيخ المعروف بابن الأمير، وأعجبوا شديداً بما وصلت إليه الحياة في مصر من تقدم وازدهار في شتى المجالات العلمية والاقتصادية والصناعية وكان ذلك في عهد محمد علي باشا وقد تحدثنا عنه سابقاً وبعد هذه الاستراحة في مصر سافرنا مع الركب المصري ووصلوا قناة السويس فركبوا البحر الأحمر نحو جدة ثم مكة المكرمة وبعد أداء فريضة الحج زاروا المدينة المنورة وصلوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أمام قبره وترحموا على الصحابة والتابعين المدفونين بالبقيع ومن المدينة وحلوا إلى دمشق بصحبة الركب الشامي ومكثوا فيها عدة أشهر وتعرفوا على مشاهير الصلحاء والعلماء والأعلام وكانوا يقضون جل وقتهم في الجامع الأموي دائبين على القراءات وحضور حلقات الدرس العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء، وقرأوا الحديث وصحيح البخاري بالجامع الأموي على الإمام المحدث عبد الرحمن بن محمد الكزبري الشافعي الدمشقي محدث الديار الشامية والمشهور بتدريس البخاري الشريف وكانت عامة العلماء تحضره للأخذ عنه وأخذوا العلم على يد غيره من علماء الشام ثم توجهوا إلى مدينة بغداد واستقر بهم المقام فيها وزاروا مقام عبد القادر الجيلاني وجددوا العهد مع نقيب الأشراف وشيخ الجادة القادرية الشيخ محمود القادري الجيلاني وبعد

مقام عدة أشهر غادروا بغداد نحو الشام من جديد ولم يتجهوا غرباً مباشرة لخطورة الطريق وانتشار قطاع الطرق ومن الشام توجهوا إلى المدينة المنورة ثم مكة وأدوا مناسك الحج للمرة الثانية، وبعد أيام التشريق انصرفوا نحو القاهرة مع الركب الحجازي الذي قدم من المغرب العربي للحج في رحلة صيفية حارة عام ١٨٢٨م ومن القاهرة اتجهوا صوب إقليم برقة وزاروا قبر والد محيي الدين بعين غزالة قرب قرية درنة وبعد اجتيازنا للجبل الأخضر واصلوا طريق الساحلي ووصلوا إلى مدينة بنغازي البحرية ومنها وصلوا الطريق غرباً وتوقفوا بمصراتة على مقام سيدي أحمد بن عيسى البرنوسي الفاسي المشهور باسم الزروق، ثم اتجهوا إلى تاجورة طرابلس الغرب وواصلوا السير حتى وصلوا إلى بن قردان بالجنوب الشرقي الساحلي لتونس ثم اتجهوا شمالاً إلى مدينة قابس، بعدها انحرفوا إلى القيروان، ثم شمالاً إلى الكاف على الحدود الغربية لتونس ومنها دخلوا إلى الجزائر ووصلوا قسنطينة ثم قلعة بني حماد ثم برج حمزة بالقرب من مدينة البويرة حالياً فوادي الشلف مروراً على المدية ومليانة وأخيراً وصلوا إلى أهلهم بمعسكر سالمين غانمين[1].

٦. نداؤه إلى سلطان المغرب ليأخذ بزمام المقاومة:

سبقت العودة من الاراضي المقدسة سقوط العاصمة بقليل وكان رد الفعل تجاه الغزو الفرنسي في القطينة كمثيله في كافة أرجاء البلاد وظن الناس في البداية أن الاحتلال لن يكون إلا مؤقتاً لأنه سبقت حالات أخرى مماثلة له ولم تدم بل مرت كسحابة صيف، غير أن القلق قد بلغ معظم الجزائريين عندما ظهر جلياً أن فرنسا كانت تنوي البقاء نهائياً في الجزائر ومد غزوهم إلى كافة البلاد وقد أدى ذهاباً الأتراك إلى فوضى واضطراب في الأرجاء الداخلية للبلاد وحاول الشيخ محيي الدين وابنه عبد القادر أن يعيد اقرار السلام.

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٥٥ ، ٥٦.

كما كان الحال في كل الأرباع الأخرى من البلاد، وكان الشيخ محيي الدين قد ترأس العديد من اجتماعات الأعيان المرابطين حول هذا الموضوع بالذات، لقد سادت الفوضى كل الارجاء واقترح الشيخ أن يلجأ إلى سلطان المغرب الأقصى ليقود المقاومة ذلك لأن قوة منظمة هي الوحيدة الكفيلة بالوقوف في وجه الغزو قبلت القبائل هذا المقترح وبعثت بوفد إلى السلطان مولاي عبد الرحمن، ليقترح عليه قيادة المقاومة ضد الغزاة وقبل السلطان ذلك، وبعث ابنه الذي أتى على رأس جيش صغير مكون من ٥٠٠ فارس ودخل تلمسان بموكب ضخم، فكانت البشرى والفرح العارم وكان أهالي الجزائر مع التضامن المغاربي لدحر فرنسا المعتدية الغازية لديار المسلمين.

كانت سمة السلطان كبيرة في أرجاء الجزائر وكانت تؤدي صلاة الجمعة باسمه كما كانت تؤدى في مملكته نفسها ولكن هذا الأمر لم يدم ودخل السلطان المغربي مع فرنسا في اتفاقية مكناس بتاريخ ٢٢ مارس ١٨٣٢م التي جرت بين السلطان وممثل المارشال وهكذا فإن الوصاية المغربية على الجزائر لم تدم أكثر من سنة بقليل وكان على الوفد الجزائري وأن يغادر العاصمة المغربية دون الحصول على المساعدة المرغوب فيها ماعدا اعتراف سيدي محيي الدين بالسيادة ولو الاسمية للسلطان[١].

ثانياً: بيعته

بعد الجهود العظيمة التي بذلها السيد محيي الدين للتصدي للغزاة وقيادة القبائل للجهاد في سبيل الله رأى الناس أهمية مبايعته ولكنه اعتذر بكبر سنه ودفع المواطنين للتفكير في مبايعة ابنه عبد القادر لقناعته بقدرته على ذلك واتفق مع الأهالي على موعد لعقد البيعة صباح الأثنين يوم الثالث من شهر رجب ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م وفي ذلك الصباح المشرق لم يفاجأ سكان مناطق غريس بقدوم زعماء مناطق بعيدة إذ كثيراً ما كانوا يأتون

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر.

للاجتماع بالشريف محيي الدين في هذا المكان، ويجلسون تحت الدردارة للتشاور معه أو لعقد ندوات فقهية أو لحل مشكلة اجتماعية ولكن هذه المرة لاحظ السكان أن العدو أكبر من المعتاد بكثير، ولابد أن الأمر جلل، وأخذوا يتهامسون فيما بينهم وعندما علموا أن نجل الشريف محيي الدين مرشح سلطاناً على البلاد كبروا بأعلى أصواتهم "الله أكبر" ولم لا يكون وهو شاب قوي على درجة عالية من العلم وفارس شجاع، وسيم الطلعة، شريف النسب، كريم ومتواضع، ومعظم القبائل تكن لسيدي محيي الدين وأولاده محبة واحتراماً، وبعد ساعات غصّ المكان بوفود زعماء القبائل وأعيان المدن والأشراف والعلماء وزعماء القبائل الشرقية والغربية، عطاف وسنجاس وبنوالقصير ومرابطوا بيجاية وجميع بنو خديد وبنو العباس وعكرمة وفليتة والمطاملية ومجاهر والبرجية والدوائر والزمالة والغرابة واليعقوبية وخيموا في مناطق أريحة من مناطق غريس حول شجرة الدردار وكان يجلس في ظلها بصدر المكان الشريف محيي الدين بطلعته القور ولباسه الجزائري وحوله جميع أفراد عائلته من إخوة وأولاد عم وأبناء هذه الشجرة الموغلة في القدم كانت حتى الماضي البعيد مركزاً للاجتماعات والتشاور[١].

جلس عبد القادر إلى جانب والده وإخوته الذين علت وجوههم ابتسامة الرضا لأن كلاً منهم كان يدرك أن شقيقهم عبد القادر كان أكثرهم شجاعة وقوة تحمل وكانوا يحبونه ويفخرون به، ولم يبد أي منهم اعتراضاً على اختيار أبيهم له وعندما اكتمل هذا الاجتماع التاريخي تقدم الوالد من عبد القادر مبايعاً وشد على يده قائلاً: كيف ستحكم البلاد يا ولدي،؟ أجاب عبد القادر: بالعدل والحق الذي أمر به رب العالمين، سأحمل القرآن بيد وعصا من حديد بيد أخرى، وسأسير على هدي كتاب الله وسنة رسوله، ثم التفت الوالد سيدي محيي الدين مخاطباً الجموع قائلاً لهم: إنه ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين لقب ليس سلطاناً ولا ملكاً وإنما أميراً عليكم أيها الأخوة المؤمنون، ثم

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٤.

تقدمت عائلته تشد على يده مبايعة وتلاهم الأعيان ورؤساء القبائل حسب مراكزهم والعلماء والأشراف وكل من حضر ذلك الاجتماع التاريخي العظيم وكان جميع زعماء القبائل يرتدون اللباس الجزائري القومي المهيب والأنيق وكأنهم في عيد[1].

١. مكان التوقيع على نص المبايعة:

قبل مغادرة تلك الجموع المكان وقف الشريف محيي الدين فيهم إماماً وصلى صلاة العصر وبعد أن صلى ركعتين صلاة الاستخارة اقترح أن يكون التوقيع على نص المبايعة في مسجد الحسن في عين البيضاء، فوافق الجميع لما لهذا المسجد من مكانة تاريخية حافلة بالأمجاد، لقد كان منبراً علمياً ومنطلقاً للمجاهدين عام ١٧٩٧م ضد الغزو الإسباني، وشيد الباي محمد بن عثمان في محازاته معهداً علمياً تخرج فيه أعداد كبيرة من الطلبة شاركوا في تحرير وهران من قبضة الإسبان، واختاروا موعداً ليوم التوقيع على المبايعة الثالث عشر من رمضان ١٢٤٨هـ والرابع من شباط ـ فبراير عام ١٨٣٣م وكان الشريف قد كلف منذ فترة أخاه العلامة علي بن أبي طالب بن مصطفى بن المختار بكتابة نص البيعة بمساعدة بعض العلماء والأشراف كالسيد محمد بن حوا، والعالم محمد الثعالبي، والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي وإخوته العلماء والسيد محمد بن عبد الله المشرفي، وعبد القادر بن محمد بو طالب، وفي هذه المناسبة رأى ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين وقبل توقيع المبايعة أن من واجبه إرسال رسالة إلى الخليفة العثماني السلطان محمود يخبره فيها بالأحداث وما آلت إليه البلاد بعد استسلام الدّاي حسين، والفوضى التي حدثت وعن مقاومة الغزو واستبسال أبناء الشعب بالدفاع عن دينهم وكرامتهم ودورهم ومساجدهم[2]، كان الأمير يكن كل الاحترام والتقدير للدولة العثمانية وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في محله وسرى خبر مبايعة عبد القادر بن محيي الدين بين القبائل فأخذت الوفود تترى على دار الشريف محيي الدين في القيطنة راغبة بالطاعة والمبايعة

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٥.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٧.

على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى الجهاد وفي الموعد المحدد وبعد صلاة الفجر انطلقت عائلة الشريف محيي الدين من القيطنة على متن الجياد نحو جنوب مدينة معسكر في ضاحية العين البيضاء حيث يقع المسجد المذكور الذي اشتهر أيضاً بجمال بنائه وحدائقه العالية الرشيقة التي غطى نصفها الضباب، وفور وصولهم قفزوا عن جيادهم وسلموها للسياسي ثم خلعوا أحذيتهم ووضعوها في المكان المخصص ودخلوا قاعة المسجد الواسعة المفروشة بالسجاد الفاخر ولفّوا حول أجسادهم برانسهم البيضاء، ثم جلس الشريف محيي الدين وإلى جانبه أولاده وعندما دخل رؤساء القبائل الجزائرية وقف عبد القادر بن محيي الدين وفي عينيه بريق العزم والإخلاص والإيمان وقد تزمّل برداء الهيبة التي اشتهر بها ووسامة المحيا وبياض البشرة وتناسق الجسم[1].

٢. خطبة الأمير عبد القادر للجموع ونص البيعة:

خاطب زعماء القبائل والأعيان وممثلي العشائر والعلماء فقال: بعد ذكر اسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على رسوله بادرهم بقوله: إنني لست أفضلكم خلقاً وشجاعة وحكمة، ولم يخطر لي هذا المنصب يوماً ولكنني أجبرت عليه كما تعلمون فهو مسؤولية أمام الله وأمامكم، أرجو منه تعالى التوفيق والعون لتطهير البلاد من الغزاة ورفع راية الإسلام عالية في سماء بلادنا، فالإسلام هو الذي وحدّ قبائلنا بعد شتات وجعلها قوة لا تقهر، تدفعنا ميادين المجد والشرف وجعلنا إخوة يحب أحدنا لأخيه ما يحب لنفسه ولا فرق بين عربي وأعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى وأمرنا بالعدل والمساواة وإذا عدنا إلى التاريخ نجد كل من دخل هذه البلاد غازياً من رومان وفاندال وإسبان هزمتهم قوة بأس وشجاعة الأجداد، وكان هدف غزوهم لبلادنا إخضاع شعوبنا وإذلالها ونهب خيرات بلادنا لزيادة رفاهية شعوبهم والذين حالف النصر أعلامهم من الفاتحين حملوا إلى هذه البلاد حضارة إلهية، وشيدوا صروحاً من القيم باقية إلى الأبد لا ينضب معينها ودخلوا هذه البلاد

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٨.

لتكون دعوة الإسلام حرة فيها، قال تعالى :" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (الأنبياء، آية : ١٠٧). ومدينة راقية لا تزال آثارها تشهد عليها في مدننا في فاس، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، وفي وهران، وقسنطينة، إخوتي في الإسلام، أيها السادة زعماء القبائل والعلماء أيها المجاهدون من أبناء هذا الوطن العظيم سنكون أقوياء سندافع عن الراية والرسالة التي حملها لنا طارق بن زياد وموسى بن نصير وسيظل ارتباطنا وثيقاً بدولة الخلافة العثمانية ارتباطاً روحياً بنظامها الإسلامي، ولن نكون جاحدين لأعمال الأخيار من الولاة في خدمة الإسلام ومحاربتهم لقوى الشر في بلادنا ولن تخرج دولتنا عن طاعة الخليفة، ولن نكون عوناً لأعدائها عليها، وكما قال والدي: هذا المنصب الذي اخترتموني له لن يكون متوارثاً وأرفض لقب سلطان أو ملك " حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" (التوبة، آية : ١٢٩). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

فلاقت هذه الخطبة حماساً منقطع النظير من جموع الحاضرين، وضج المسجد بأصوات الرجال "الله أكبر" ثم نهض العالم الفقيه محمد بن حوا وكان يرتدي الثوب الجزائري وفوقه البرنس الأبيض وعلى رأسه العمامة البيضاء، وقرأ نص المبايعة:

(بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين، بعد مبايعة الإمام الجليل الشريف محيي الدين وتنازله عنها لولده عبد القادر بن محيي الدين أحيا الله بهما الدين وأعانهما على القيام بإعلاء كلمته وأهلك بدولتهما أهل البغي والفساد والغزاة المعتدين، نحن جميعاً علماء غريس وأشرافها وما جاورها وزعماء قبائل العباس والخالدي والإبراهيمي والحساني والعوفي والجعفري والبرجي والشقراني والزلامطة ومغراوة وبني السيد وحق الخلوية والمشارف وكافة أهل وادي الحمام وزعماء الدوائر والزمالة وبني خويدم وعكرمة وفلقية والمفاحلية والغراية والحساسة وأولاد الشريف وصدامه وكل من حضر هذه

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٩.

البيعة، نبايع أبا المكارم ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين صاحب الفضل المجاهد الشجاع ذا النسب الشريف قامع أعداء الله الظالمين أيده الله بنصره، نبايعه على الجهاد والحكم بكتاب الله وسنة رسوله وعلى الطاعة، ونصره الله في السراء والضراء ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه وخسر يومه وأمسه والله الموفق.)

وخرجت الجموع متفائلة مستبشرة يهنئ بعضهم بعضاً[1].

٣. رسالة من الأمير عبد القادر إلى سائر القبائل في أنحاء البلاد:

الحمد لله، إلى قبيلة كذا.. خصوصاً أشرافها وعلماؤها وأعيانها وفقكم الله وسدد أموركم، وبعد فإن أهل معسكر وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم قد أجمعوا على مبايعتي وبايعوني على أن أكون أميراً عليهم وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله، وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما أنني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق نحو القوي والضعيف فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعاً وأعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر الأحمدية وعلى الله اتكالي في ذلك كله فأحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم وتؤدوا بيعتكم وفقكم الله وأرشدكم، حرر عن أمر ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين، بمعسكر في الثالث من رجب سنة ١٢٤٨هـ الموافق ٢٧/ ١١/ ١٨٣٢م.

ما إن تمت للأمير البيعة حتى قصد منزله وقال لأم أولاده: إن أردت أن تبقي معي من دون التفات إلى طلب حق فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأني

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٣٠.

قد تحملت ما يشغلني عنك. وبطبيعة الحال عبرت له زوجته عن استمرارها في العيش معه وأن تتقاسم معه أعباء المسؤولية[1].

٤. تجربة جديدة في الحكم:

جاء الأمير عبد القادر بتجربة جديدة في الحكم، جديدة على العصر الذي عاش فيه وليست جديدة في التاريخ، عندما رشحه والده للولاية عام ١٨٣٢م كان أمامه نماذج من الحكام المسلمين، سلطان آل عثمان، وشاه إيران وملك أفغانستان، ثم ولاة من أمثال باي تونس وباشا مصر وإمام اليمن وقد كان يمكنه أن يقلد هؤلاء أو حتى يقلد الداي حسين المخلوع ولكن الأميررفض أن يكون نموذجه أحد هؤلاء جميعا، وأختار نموذجاً جديداً يؤصّل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في عهده الذهبي.

وإن الدارس يتبين له هذا النهج الجديد القديم في عدة سلوكيات وإعلانات من قبل الأمير، فقد اتخذ علماً مخلفاً لعلم آل عثمان، استوحاه فيما يبدو من التقاليد الشعبية وهو قطعة من القماش الأبيض تتوسطها يد مفتوحة والبياض رمز الطهارة والجدة والصفاء واليد الخماسية ترمز إلى نفي الغريب والتعوذ من الحسود والشرير والغالب على الظن أن هذه اليد كانت صفراء اللون، وعندما يرجع المرء إلى ظروف المبايعة يلاحظ أننا أمام بعث لتقاليد كاد حكام المسلمين أن ينسوه وهو الخضوع لإرادة المحكومين ودعوتهم للتعبير عن اختيارهم بمحض الحرية، وكأننا هنا أمام الظرف الذي بويع فيه الخليفة أبو بكر الصديق أو الخليفة عمر بن الخطاب فهنا أيضاً كانت المبايعة الخاصة ثم العامة ففي مدينة معسكر كانت طقوس المبايعة تذكرنا بما جرى في المدينة المنورة.

لقد شملت مراسيم البيعة على درس من القرآن الكريم والمصحف باليد، مركزه على عقاب الله الذي يحل بمن تقاعس عن الجهاد والدفاع عن عرضه وأرضه ومقدساته، وكان الأمير قد تطور في لهجته حتى بلغ درجة من الحماس حولت القعود إلى قيام يتعاهدون على

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٠.

الجهاد وذلك عندما التزم للحضور وقال لهم: أنني لن أعمل بقانون غير قانون القرآن، ولن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لنفذت فيه الحكم، وقد أكد على ذلك بقوله لهم: عليكم واجب الخضوع في كل الأعمال إلى نصوص كتاب الله وتعاليمه والحكم بالعدل طبقاً للسنة النبوية[1].

ولنقرأ في أول منشور للأمير إلى قومه: إن قبيلة كذا وقبيلة كذا قد وافقوا بالإجماع على تعيين وبناء عليه انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا وقد تعهدوا أن يطيعوني في السراء والضراء وفي الرخاء والشدة، وأن يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة "الجهاد" من أجل ذلك إذن تولينا هذه المسؤولية الخطيرة على مضض شديد، آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين ومنع الفرقة بينهم وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد ووقف كل الأعمال غير القانونية التي يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين، وصد وطرد العدو الذي اعتدى على بلادنا مريداً أن يغل أعناقنا بقيوده ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا أن عليهم دائماً واجب الخضوع، في كل أعمالهم إلى نصوص وتعاليم كتاب الله وإلى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم طبقاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وبالإضافة إلى ذلك كان عبد القادر هو الذي يقود المعارك الجهادية وهو الذي يؤم الناس في الصلاة وكان في مراسلاته وأوامره يستشهد بالقرآن الكريم وكان عند كل غروب ـ بعد العصر ـ يقف أمام خيمته يلقى درساً في الوعظ على قومه ولم يكن من الضروري حضور أي كان، ولكن لم يكن يتخلف أحد، إذا أمكن عن حضور هذه الخطبة الوعظية، وبذلك كان الجميع يجددون يومياً حرارة الغيرة الحربية والدينية التي كانت تتقد داخل صدورهم، فكان عبد القادر بذلك كأنه منبع رئيسي من الضوء والحرارة لقومه.

---

[1] حياة الأمير عبد القادر مقدمة أبو القاسم سعد الله، ص: ٨.

وقد كان عبد القادر هو الذي يجلس شخصياً للفصل في المظالم، وهو القاضي الأعلى في الدولة وأما الولايات فقد فوض لخلفائه "ولاته" القيام بنفس الدور الذي كان يتولاه هو، وكان الأمير لا يفصل في القضايا الخطيرة كالصلح أو الحرب إلا بعقد مجلس الشورى وعرض القضية أمامه وأخذ رأيه وتنفيذ ما يتفق عليه الحاضرون.

إن هذا النموذج الذي سلكه الأمير في الحكم كان جديداً . قديماً، كما قلنا لأنه لا أحد من حكام المسلمين عندئذ كان يسلك هذا الطريق، ويبدو أن الأمير لو طال به العمر واستمر في الحكم لاختار نظام الخلفاء الراشدين أو النظام الجمهوري ولكن بمفهوم ذلك الوقت، وما نظن أنه كان سيورث الحكم لأحد من أبنائه أو اقاربه، كما فعل الأمويون ومن جاء بعدهم من حكام المسلمين[1]، وقد نص على ذلك: هذا المنصب الذي اخترتموني له لن يكون متوارثاً وأرفض لقب "سلطان أو ملك"[2].

بعد هذه البيعة الشعبية حمل الأمير عبد القادر مسئولية الحكم وامتد سلطانه إثر معارك دامية حتى شمل ثلاثة ارباع القطر الجزائري، وبعد أن استقام له الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة النواة وتشكيل الكوادر الحكومية فعين الأكفاء من الرجال واعتمد الفقه الإسلامي أي التشريعات المنبثقة من القرآن الكريم والسنة، نظاماً لحكمه وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

بهذه المرجعية الإسلامية المتكاملة التي أثبتت قدرتها على حلّ جميع مشكلات الحياة في جميع الأزمنة والأمكنة التي دخلها الإسلام وغمرها بسلطانه بدءاً من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ويهدي هذا النظام الإلهي العظيم أراد الأمير عبد القادر السير في حكمه لأنه كان يؤمن أن هذا النظام وحده يمكنه

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٩.

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٩.

من مواجهة المشكلات المعقدة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والعسكرية ومن الوقوف أمام تحديات الأعداء وتوسع المجتمعات وتطورها مع الزمن[1].

٥. مفهوم البيعة:

عرّف العلماء البيعات بتعريفات عدة منها تعريف ابن خلدون: العهد على الطاعة لولي الأمر[2]، وعرفها بعضهم بقوله: البيعة على التعاقد على الإسلام[3].

وعرّفت كذلك بأنها أخذ العهد والميثاق والمعاقدة على إحياء ما أحياه الكتاب والسنة وإقامة ما أقامه، وكان المسلمون إذا بايعوا الأمير جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد والولاء، فأشبه هذا الفعل البائع والمشتري فسمي هذا الفعل بيعة.

إن البيعة بمعناها الخاص هو إعطاء الولاء والسمع والطاعة للأمير مقابل الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنها في جوهرها وأصلها عقد وميثاق بين الطرفين، الأمير من جهة وهو الطرف الأول والشعب من جهة ثانية وهو الطرف الثاني، فالأمير يبايع على الحكم بالكتاب والسنة والخضوع التام للشريعة، عقيدة وشريعة ونظام حياة والشعب يباع على الخضوع والسمع والطاعة للأمير أو الرئيس في حدود الشريعة.

فالبيعة خصيصة من خصائص نظام الحكم في الإسلام تفرد به عن غيره من النظم الأخرى في القديم والحديث، ومفهومه أن الحاكم والمحكوم كليهما مقيد بما جاء به الإسلام من الأحكام الشرعية، ولا يحق لأحدهما سواء كان الحاكم أو الشعب ممثل بأهل الحل والعقد الخروج على أحكام الشريعة، أو تشريع الأحكام التي تصادم الكتاب والسنة، أو القواعد العامة في الشريعة ويعد ذلك فعل مثل ذلك خروجاً على الإسلام،

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر، ص: ٣٨.

[2] المقدمة لابن خلدون، ص: ٢٠٩.

[3] التداول على السلطة التنفيذية للصلابي، ص: ٧٤.

بل إعلان الحرب على النظام العام للدولة، بل أبعد من هذا نجد أن القرآن الكريم ينفي عنهم صفة الإيمان[1].

قال تعالى :" فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا" (النساء، آية : ٦٥).

. والبيعة عقد لا يحتمل الإكراه.

. ويحتمل الشروط المسبقة.

. ولا أمامه إلا بعد عقد البيعة.

. وأنه لا عقد بيعة إلا برضا الأمة واختيارها.

. ولا رضا بلا شورى بين المسلمين في أمر الإمامة وشؤون الأمة.

. وأنه لا شورى بلا حرية.

. وأنه السيادة والطاعة المطلقة لله ورسوله[2].

إن الإمارة عقد بين الأمة والحاكم يلتزم فيها الحاكم إنفاذ الشريعة والفصح للأمة ومشاورتها، وتلتزم له إن هو وفي بذلك السمع والطاعة وينتج من ذلك، أن الأمة هي مصدر كل سلطاته وأن لها عليه السيادة، كل ذلك في إطار الدستور "الشريعة"[3].

٦. وضعية البلاد عند مبايعة الأمير عبد القادر:

بينما كانت فرنسا تثبت وتدعم موقفها في الجزائر وضواحيها والمتيجة حيث نهبت المدية من طرف البارون دي روفيفو فإن هذا الأخير قد أخذ على عاتقه، مذبحة قبيلة الأوفياء بالقرب من الحراش وهذا ما أثار غضب قادة القبائل الذين عينوا بن زعموم قائداً لهم، لقد اضطر هذا الأخير إلى التراجع نهائياً حينما تبين له ضعف المتمردين أثر السحق السريع لتمردهم كان بايلك الجزائر واقعاً تحت السلطة الفعلية للمحتل الذي كان يثبت

[1] المصدر نفسه، ص: ٧٦.

[2] الحرية أو الطوفان د. حاكم المطيري، ص: ٢١ ـ ٤٥.

[3] الحريات العامة راشد الغنوشي (١ / ٢٦٢).

وجوده في البليدة التي كان ينوي انطلاقاً منها وصنع حد لهجومات قبيلة حجوط، وبفضل مد الطرق التي تربط بين المراكز المتعددة في المنطقة والتي كانت تحت تصرف "المكاتب العربية" المكونة حديثاً، كان الفرنسيون هكذا يظنون أنهم سيتمكنون من بسط الغزو على كافة أرجاء البلاد، وقد قام المحتل أيضاً بإدماج قوات السبايسية كأعوان يرافقون الجنود في مهماتهم، كذلك ظهرت بعد ذلك فرقة القناصة تولي قيادها ابتداء من ١٨٣١م قاطع طريق حقيقي ذي أصول مشكوك في أمرها قدم للاحتلال خدمات عظيمة، غير أن ثمنها تمثل في العديد من أعمال النهب والتقتيل خاصة في منطقة القبائل وعنابة، وقد عرف باسم يوسف وقد حمل شارع كبير في أعالي الجزائر اسمه هذا طوال الفترة الاستعمارية وكان لفرنسا نية مبيتة ثابتة في غزو كامل البلاد على الرغم من الصعوبات التي اعترضته في التيتري وفي الشرق من طرف أحمد باي، وكذلك الاختلاف في وجهات النظر بين حكامه والتي ترجع أساساً إلى اعتبارات خاصة بالسياسة الداخلية. غير أن ما واجهه من عداء من طرف السكان اضطر فرنسا إلى التصرف بمرونة والبحث عن وسطاء من بين القادة المؤثرين ولو اضطره ذلك إلى اخضاعهم بعد تقوية نفوذه عليهم، باستعمال الرشوة والخديعة والقوة، هكذا كانت خطة الغزو على مراحلوالتي يبينها وزير الحرب "سولت" في التعليمات التي أخطاها إلى جنرالاً في الميدان. الجزائر حيث يأمرهم بتقديم بطيء انطلاقاً من القواعد العسكرية في الساحل بقية السعي وراء استبطال بحظوظ وافرة في تحقيق نجاح دائم وثابت، وذلك عن طريق مؤسسات زراعية يقوم الأوروبيون بانجازها.

وهكذا فالوضعية كانت مقلقة للغاية ذلك أن الفرنسيين وهم يحتلون كل الساحل من وهران إلى عنابة كانوا قد بدأوا. بكل جراءة. في سياسة للتوطين في المناطق المحتلة كما شرعوا بتصلب في صنم القبائل إلى صفوفهم أو تحييدها وشلها إذا ما تعذر ذلك.

بهذا فإن المهمة المناطة بالأمير الشاب كانت من الصعوبة بمكان بالرغم من الحماسة التي تلت بيعته، فكان عليه أن يحسب حساب قادة القبائل الذين أبدوا له عداءهم كما كان عليه أيضاً أن يتحكم في اندفاع مناصريه لأجل هذا تقيد بتكوين جيش نظامي وكانت مدينة معسكر التي جعل منها عاصمته المؤقتة مكان التحضير لتدريب جيشه وبهذا فإن هذه العاصمة القديمة لبايلك الغرب اخذت مكانة كبيرة في دولة الأمير عبد القادر.

لقد ترك انهيار الإدارة التركية خلافة هذه الأخيرة إلى قادة قبائل المخزن الذين لم يكتفوا برفض الاستجابة إلى نداء الأمير الشاب الذي لم يكن ينتمي إلى طبقتهم الاجتماعية وإنما تقربوا إلى المحتل الفرنسي ليحافظوا على امتيازاتهم.

والأمير عبد القادر الذي لم يكن يجهل شيئاً عن مساوماتهم كان ينتظر الوقت المناسب لينتهي من أمرهم وكان مكتفياً في هذا الوقت باثبات مكانته عند القبائل الموالية له، كمدافع عن القضية الوطنية مكلف بمهمة طرد المحتلين الفرنسيين من الأراضي المغتصبة، فكان ينظم حكمه طبقاً لهذا المفهوم[١].

ثالثاً: بناء الدولة

١. تأسيس الجيش النظامي:

بعد معارك طاحنة خاضها الأمير ضد الجيوش النظامية الفرنسية أدرك ضرورة خلق جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، فاتجه إلى انشاء جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، واهتم بتدريبه على احدث الفنون العسكرية، وزوده بالاسلحة المتقدمة وقبل أن يباشر بتحقيق هذه الفكرة عقد مجلساً عاماً من رجال الدولة وأعيانها وأخذ موافقتهم على هذا الاجراء، ثم عمم بلاغاً على الأهالي جاء فيه: ليُبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين بتجنيد

---

[١] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٦٢ ، ٦٣.

الأجناد وتنظيم العساكر في البلاد كافة فمن أراد أن يدخل تحت اللواء المحمدي ويشمله هذا النظام فليسارع إلى دار الإمارة في مدينة معسكر لتسجيل اسمه في الدفاتر الأميرية[1]. تلقى الشعب الجزائري هذا البلاغ بارتياح كبير، وسارع الشباب وتسابقوا للالتحاق بالجيش النظامي الفتى، حتى بلغ عداد أفراده عام ١٨٣٩م ثلاثة وستين ألف مقاتل وقد قسم هذا الجيش إلى ثلاثة فرق:

أولاً: فرقة المشاة وليّ على قيادتها من مشاهير الأبطال قدور بن بحر.

ثانياً: فرقة من الخيّالة وليّ على قيادتها عبد القادر بن عز الدين.

ثالثاً: فرقة من المدفعية وليّ على قيادتها محمد السنوسي ولقد اختار الأمير جميع رؤساء الجند من ذوي الشجاعة والبأس والذكاء من الذين يتحلون بالإيمان والصبر وانتقامهم من أشراف البيوتات وزعماء القبائل مثل محمد القوشامة وسالم الزنجي وأحمد القدور وغيرهم. ثم وضع قوانين في كتاب سماه "وشاح الكتائب" ضم أربعة وعشرين قانوناً لها أصول ولها فروع وقد وضعت جميعاً لمصلحة هذا الجيش المحمدي، ولسلامة تكوينه العسكري ولضمان قدرته على القتال وتحمل المكاره وللتدريب على الجهاد والصبر، وتمكن الأمير عبد القادر من الصمود بهذا الجيش الناشىء في وجه أكبر امبراطوريات العالم الاستعماري القديم، وعلى الرغم من إمكانات فرنسا الضخمة تمكن الأمير من محاربتها سبعة عشر عاماً استولى خلالها على أكثر من ثلثي مساحة الجزائر حالياً، وانتصر عليها في الكثير من المعارك الطاحنة التي بقي ذكرها يتردد حتى الآن على ألسنة الفرنسيين قبل الجزائريين لما وجدوه من معاملة شريفة لبطل مسلم عظيم، حتى غزت أخباره بيوتهم في فرنسا نفسها، لأن الأمير عبد القادر جسّد جميل المروءات ومحاسن الفضائل في معاملة الأسرى والجرحى من جيش أعدائه[2].

---

[1] فارس الجزائر العماد مصطفى طلاس، ص: ١٣٩.

[2] الأمير عبد القادر بديعة الحسني، ص: ٤٨.

وشكَّل الأمير عبد القادر بجانب الجيش الرسمي قوى غير نظامية تعمل على حماية مناطقها، غير أنها كانت تستطيع عند الضرورة أن تنخرط في الجيش النظامي، وذلك فقط لتلبية نداء الأمير أو خلفائه في الولايات وهذه القوى غير النظامية كانت تتكون غالباً من المتطوعين وكان عليها أن تتجهز على حسابها الخاص وكان عددها بالألوف تزيد وتنقص.

وفيما يخص تسليح جيشه النظامي يعطي الأمير نفسه التوضيحات التالية:

كل جنودي النظاميين كانوا مسلحين ببنادق فرنسية أو إنجليزية تحصلت عليها خلال معاركنا وعند الفارين من الجيش أو بشرائها في المغرب.. وكان الكبريت يأتي من فرنسا أما ملح البارود فكنت أجده في كل مكان خلال زمن السلم وكانت المدن الساحلية الفرنسية تزودني بالرصاص وقد أعطاني المغرب منه كمية معتبرة، كما أنني تمكنت من استغلال منجم للرصاص في الونشريس[١].

وقد كان الأمير يسهر شخصياً على كيفية استعمال الذخائر ويعطي أوامر صارمة لخلفائه كي يشحوا في عملية صرفها[٢].

أ. هيكلة الجيش النظامي:

كانت المشاة مقسمة إلى كتائب تضم كل منها ١٠٠٠ رجل يقودهم آغا، وكانت هذه مقسمة إلى سرايا من ١٠٠ جندي يقودها قايد، وكان يقود كل نصفيها سياف وكل عشرين رجل كان يقودهم ضابط صف، وكل عشرة يقودهم عريف يسمى جاويش.

كان على قادة كل هذه التشكيلات أن يتفقدها الآغا يوم السبت، والسياف يوم الخميس والسبت اما الجاويش فكان عليه أن يتفقد رجاله كل يوم صباحاً ومساء.

وقد كان الانضباط جد صارم، وكان يراعى تطبيقه بمنتهى الدقة، وكانت مواده مجموعة في شكل قانون عام أقامه وكتبه الأمير نفسه.

---

[١] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٨٦.

[٢] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٨٧.

كما كان سلم الرتب محترماً بمعنى الكلمة وكانت كل مخالفة يعاقب عليها عقاباً شديداً، وكان على الجندي أن يحافظ على نظافة سترته التي كان مسؤولاً عنها، وكذا كانت الحال بالنسبة للسلاح الذي في حوزته، كانت العقوبات على الإخلال بهذه القوانين تتراوح ما بين السجن إلى الحكم بالإعدام ـ وهذا الأخير كان يقام في حالة الخيانة أو الفرار في زمن الحرب ـ ومروراً بنزع الرتب والعقوبات الجسدية.

كان للجندي الحق في راتب، وكان الخيالة يتلقون ضعفه وكان يتلقى غذاءه عيناً ووفيراً في زمن السلم، ولكنه كان يخفض في زمن الحرب إلى بعض الكعك أو الروينة المصنوعة من طحين القمح المقلي، وكان على كل شارة علامة مكتوبة.

ـ الآغا كان يحمل: الصبر مفتاح النصر.

ـ وبالنسبة للسياف: لا أضر من المخالفة وعدم الطاعة.

ـ أما لرئيس المدفعية فكانت: وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى.

وكان اللباس العسكري يختلف بحسب الرتب، فكان من الجوخ بالنسبة للضباط ومن الكتاب بالنسبة للجنود، أما الأسلحة فكانت تشتمل على المدفع والهاون "مهراز" والبندقية "مكحلة" والسيف والحربة.

وكانت الألبسة والأسلحة والذخائر كلها تضع في ورشات الدولة بتاكدمت، معسكر، تازة، بوغار، مليانة..الخ، أو كانت تستورد من أوروبا عن طريق المغرب.

وكان موظفون سامون يدبرون هذه الورشات وكان المعلمون خاصة من الأجانب يدرّسون المهنة العسكرية للشباب المجندين وكانت هناك مكافآت مخصصة للذين يلمعون، كما كانت تدفع معاشات للمصابين ولعائلات الذين قتلوا في المعارك، كما كان هناك وسام لمكافآت الأعمال البطولية ويتشكل من صفيحة معدنية ينقش ٣ أو ٥ أو ٧ ريشات حسب أهميتها ولهذا كانت تسمى "ريشة"، كانت الشمسية الرمز المميز للسيادة، وهي التمييز الوحيد الذي حظي به الأمير نفسه وكان يحملها فارس عندما يكون الأمير راكباً

أو أحد من المشاة عندما يكون مترجلاً، وكان في الحالتين محاطاً بالحامية السوداء. وكان العلم يحتوي على لونين الأخضر والأبيض وكان هذا اللون الأخير يشكل دائرة طرزت في وسطها يد مفتوحة، وقد استوحي منه العلم الجزائري الحالي والفرق الوحيد يأتي في استبدال اليد بهلال أحمر ما بين اللونين الأبيض والأخضر اللذين بقيا.

ولكي تثبت روح التضحية والانضباط في هذا الجيش فقد كان قانونه العام يقرأ لكل الوحدات مرتين وأحياناً ثلاث مرات في الشهر، كما كانت الشعارات التي يتضمنها تخاط على أكمام الجنود والضباط على حد سواء نذكر من بينها: لا أنفع من التقوى والشجاعة على الكتف اليمنى للآغا وعلى اليسرى: لا أضر من المخالفة وعدم الانضباط.

وكان الأمير عبد القادر نموذجاً ومثالاً للخصائل الأخلاقية الرفيعة والقتالية المحترفة فقد أثار في نفوس جنوده وضباطه ومواطنيه صوراً رائعة للتفاني والإخلاص في خدمة القيم والمبادئ والحرص على تحرير الوطن من المحتلين الغزاة، ويقر كل كتاب سيرته بما فيهم الفرنسيون أنه كان نزيهاً، وأنه كان يملك أقصى درجات الشعور بمكانة وقيمة الأموال العامة، وأنه لم يعرف سوى خدمة القضية التي كان يعلم أنها عادلة ضارباً بذلك أسمى مثال للتفاني والشجاعة الخارقة وكل ميزاته كانت مدونة في القانون العام لكي يتخذ منه مثالاً يحتذى وعلى هذا المنوال فقد كان يذكر خصوصاً أنه لم يسحب أبداً من الأموال للانفاق على شؤونه الخاصة وأنه كان دائماً يرجع إلى الخزينة العامة كل الهدايا التي كانت تقدم له لأنه كان خادماً وفياً للدولة وليس لمصالحه الخاصة[١].

ب ـ إستراتيجية الأمير والدفاع عن الأقاليم:

اهتم الأمير عبد القادر بإنشاء خط دفاعي كبير بين التل والصحراء، وقد أقامه في وسط العديد من الصعوبات لأنه كان مقيداً بالمدة الزمنية، ولم تكن هذه المناطق المحصنة

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٨٨ ، ٨٩.

مخصصة للصمود أكبر وقت ممكن أمام الهجومات الفرنسية بل كانت بالخصوص لأجل تمتين سلطته بالقبائل المنضمة إليه.

لقد شيد من الغرب إلى الشرق سبدو لحماية تلمسان، تاكدمت للدفاع عن معسكر تازة للتحكم في منطقة الجزائر العاصمة وبوغار على الحد بين التنقل والصحراء وبسكرة في جنوب قسنطينة، غير أنه قد ركز أكبر قدر من جهوده على تاكدمت لأنها كانت قريبة من تيهرت العاصمة القديمة للرستميين، وكان يعلق على تاكدمت آمالاً عريضة كشف عنها في حديث أجراه مع سجين فرنسي: مازال عندي الأمل في أن أعيد تاكدمت إلى مجدها القديم هنا سأجمع القبائل، فنحن في مأمن من هجومات الفرنسيين ومن هذه الصخرة المرتفعة سأنقض كما ينقض الصقر من على عشه فوق المسيحيين فأطردهم من الجزائر ومن عنابة ووهران[١].

وكان الأمير قد عمل على أن يجعل من تاكدمت مركزاً للثقافة وأن يبني لها جامعة، غير أنه لم يسعفه الوقت لذلك، كانت تاكدمت تبعد عن حاميات العدو الذي لا يستطيع بلوغها إلا بعد قطع التل والهضاب العليا، وهذا الموقع كان يعطي الأمير ميزة لمعرفة تحركات العدو في وقتها وتدارك خطر أي هجوم.

زيادة على ذلك فإن موقعها بين التل والصحراء جعل من السهل على البدو أن يقصدوها لشراء بضائع التل مقابل ماشيتهم وهو ما كان يسمح للأمير بمراقبتهم عن قرب لأنهم يكوّنون مورداً مهماً للزكاة، وقوة لا يستهان بها في الحرب. وبفضل عزلتها فقد كانت أحسن من أية مدينة أخرى لتشكيل المركز الضروري للصناعة الحربية وهنا كذلك أنشأ بيت العملة الوطنية[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٩٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٩٠ ، ٩١.

ج. الإستراتيجية العسكرية:

أما عن الإستراتيجية العسكرية للأمير فهي تتلخص في كلمة واحدة وهي الحركية، فقد تميز في قدرته على استعمالها عملياً حتى خصومه وفي مقدمتهم "بيجو" يشهد بعبقريته العسكرية، فقد كانت خططه العسكرية تتغير حسب الظروف، فكانت غالباً على شكل اشتباكات بكميات صغيرة، وفي بعض المرات كانت على صورة حرب مواقع غير أن طبيعة النضال الذي كان يقوده الأمير فرضت عليه حرب العصابات التي كان يجيدها إجادة خارقة للعادة، فكانت تفاجئ وتربك الخصم، وهي التي جعلت الأمير أشهر وألمع رواد هذا النوع من الحرب.

وإذا كانت حرب العصابات تأتي دائماً بثمارها المتمثلة في تكبيد العدو خسائر ثقيلة، فإن رد فعل هذا الأخير ضد القبيلة المشتبهة في تبليغها المعلومات يكون وحشياً ولا يعرف الرحمة. ولهذا فإن الأمير لم يكن يستعملها إلا بأقصى قدر من الحيطة، وأكبر الحظوظ في النجاح، وكانت معرفة الأمير الجيدة للميدان تمنحه هو وجيشه تفوقاً ملحوظاً على القوات الفرنسية، فكانت تسمح له بفضل حركيته ومصالح استخباراته باستدراج العدو إلى الأماكن الأكثر ملاءمة، وقد كان الجيش الفرنسي على العكس من ذلك يبحث عن حرب المواقع، ويرغم الأمير على الاشتباك في المعارك، فكان في هذه الحالة يصاب بخسائر إلا أنه كان أيضاً يكبد العدو مثلها وكان دائماً يتمكن من التحرز في ظروف حسنة.

وبالمقابل فإنه كان يحدث للأمير أحياناً عندما يرى الظروف مواتية أن يتسبب في نشوب معارك كانت تنتهي بخسائر كبيرة في صفوف العدو[1].

وقد تحدث بعض الباحثين عن الفن العسكري لدى الأمير عبد القادر، منهم ضابط قديم في الجيش اللبناني وهو السيد أديب حرب وعنوانه "الحياة العسكرية للأمير عبد القادر"

---

[1] المصدر السابق، ص: ٩١.

وهو موضوع أطروحته لنيل شهادة الدكتوراة من جامعة القديس يوسف ويوضح المؤلف في كتابه العبقرية العسكرية للأمير على ضوء التقنيات العصرية التي كان الأمير قد طبق بعضها، بل وأثراها حسب المؤلف الذي يرجع إلى المعارك الكبرى التي قادها الأمير خلال كفاحه من أجل استقلال بلاده[1].

٢. الحكومة المركزية:

كان الأمير يرى أن تنظيم الجبهة الداخلية وتوطيدها هما الأساس الأول الذي ينبغي أن تقوم عليه حرب التحرير وكان هدفه قبول التفاوض والتساهل مع العدو وكسب الوقت لاستكمال أسباب هذا التنظيم وكان الأمير دائم الحرص على إبعاد الطابع الفردي عن سلطته بإشراك ممثلين عن العلماء والأشراف ورؤساء القبائل يقل عددهم أو يكثر حسب أهمية المسائل أو القرارات وكان الأمير يدرك مدى عمق الروح الاستقلالية لدى القبائل وزعماء الطرق الصوفية ومدى تأثير ذلك على عملية التوحيد مما يجعلها أكثر صعوبة، كما كان يدرك مدى كره هؤلاء للغزاة وبربطه بين التوحيد والمقاومة وكان يأمل أن يساعده كره الأجنبي على تذليل صعوبات التوحيد ولكن الأمر لم يكن سهلاً[2]، وقد حرص الأمير على أن تكون حكومته من ذوي الخبرات الذين اشتهروا بالكفاءة والقدرة والخبرة والعلم والفضل والتقوى، وكان الأمير يطلب منهم القسم على التقيد بالعدل وخدمة الوطن والإخلاص، وكان هناك منادي في الأسواق يطلب من كل من له حاجة أو شكوى على خليفة أو قائد أو زعيم فليرفعها إلى ديوان الأمير من غير واسطة وكان الأمير ينصف الجميع، ومن لا يرفع ظلامته إليه فلا يلومنّ إلا نفسه[3].

وقد أسس الأمير الديوان الذي كان مقره في معسكر أو المدية أو ينقل إبان الظروف العدوانية إلى تلك الأماكن التي يرتئي أنها الأكثر ملاءمة لظروف الحرب، وكان مطبوعاً

---

[1] المصدر السابق، ص: ٩٢.

[2] فارس الجزائر، ص: ٢٣٣.

[3] فكر الأمير عبد القادر، بديعة الحسني، ص: ٥٥.

بمركزية شديدة في القرار بالرغم من اللامركزية الإدارية الواسعة وكان على رأس الحكومة وزير أول بمساعدة ثلاث كتّاب، كاتبان للدولة إحداهما للحبوس نصب عليها الحاج طاهر أبو زيد، والأخرى للشؤون الخارجية، عهد بمهامها إلى الرجل المشهور ميلود بن عراش وكانت هناك خزينتان احداهما عامة والأخرى خاصة، وأخيراً مجلس استشاري أو مجلس الشورى يتكون من أحد عشر عضواً ويترأسه قاضي القضاة الذي كان على علم بكل شؤون الدولة[1].

لقد شرع الأمير عبد القادر في تكوين جيش وطني وفي إنشاء المؤسسات، وفي وضع قوانين جديدة مستمدة من الشريعة الإسلامية وصك عملة باسمه واستطاع تأسيس دولة ذات طابع جزائري خاص على قاعدة شعبية وحدد الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها من خلال تنظيم المقاومة الجزائرية والتي من أهمها:

. نشر الأمن وتأديب الخونة العصاة.

. توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.

. مقاومة الفرنسيين بكل الوسائل.

. دفع الفرنسيين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة وبعبد القادر أميراً للبلاد[2].

٣. تقسيم البلاد إلى ثماني ولايات:

قام التنظيم الإداري لدولة عبد القادر على أسس فدرالية يتمثل في وجود ٨ مقاطعات إدارية يرأس كل مقاطعة خليفة للأمير، ويتواجد هؤلاء الخلفاء في:

. تلمسان، محمد البو حميدي الوهاصي.

. معسكر، محمد بن فريحة المهاجي، ثم مصطفى بن أحمد التهامي.

. مليانة، محيي الدين بن علال القليعي ثم محمد بن علال.

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٤.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١١٠.

ـ التيطري، مصطفى بن محيي الدين ثم محمد البركاني.

ـ مجانة، محمد بن عبد السلام المقراني، ثم محمد الخروبي.

ـ بسكرة، فرحات بن سعيد ثم الحسين بن عزوز.

ـ برج حمزة، أحمد بن سالم الدبنيسي.

ـ المنطقة الغربية من الصحراء، قدور بن عبد الباقي.

وبعد استيلائه على إقليم التيطري والسيطرة عليه وسط الترحيب العام قسمه إلى أربع مناطق أتبعها بمدينة المدية، وولى عليها أخاه السيد الشريف مصطفى بن محي الدين، ثم أنشأ ديوان الإنشاء والتعمير وولى عليه السيد الحاج مصطفى بن أحمد التهامي وقسم الولايات إلى دوائر، ووضع على كل دائرة رئيساً، وهذه الدوائر عبارة عن قبائل تتشكل كل منها من بطون وعشائر، فجعل لكل قبيلة قائداً وعلى كل بطن أو عشيرة شيخاً يرأسها فكانت الأوامر تصدر إلى كل هذه المراتب عن طريق التسلسل وكان المشايخ يرفعون القضايا المهمة إلى القيادة العليا، وهذه بدورها ترفعها تسلسلاً حتى تصل إلى ديوان الأمير.

ونجح الأمير في ربط البلاد بإدارة شرعية تتمتع بالكفاءة والنزاهة والاستقامة فأبعد أكثر الرؤساء الذين اشتهروا بالبطش إبان الحكم العثماني واختار معاونية من ذوي الأخلاق الحميدة، وأخذ يعتمد على كل من يتمتع بالعلم والشرف والفضيلة ولم يولّ أحداً محاباة ولا سلمهم زمام الأمور إلا بعد أداء القسم المقدس.

وكان يتم تعيين العاملين في الدولة وفق مراسيم خاصة تُحرر بقلم كاتب الديوان الخاص، ويوضع عليها خاتم الدولة وهو خاتم كبير نقش عليه في الوسط هذا البيت:

من تكن برسول الله نصرته

إن تلقه الأسد في أكامها نجمُ

ونقش على الجوانب: الله، محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي، وفي دائرة صغيرة داخل الخاتم نقش "ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين" والتاريخ الهجري ١٢٤٨هـ لم يعتمد الأمير على تقاليد في الحكم نقلاً عمّن سبقه، بل أقام حكومة ذات طابع جزائري جديد وتمكن من وضع تنظيمات إدارية وقضائية وعسكرية واقتصادية لدولته الفتية، وعلى الرغم من أن القبائل التي تتكون منها دولته كانت تتنافس فيما بينها إلا أنه كون منها ما يشبه "فيدرالية ذات ثماني ولايات" يحكمها قانون موحد وتخضع لنظام واحد ولسيادة واحدة وقد وضع نظاماً عملياً يتلاءم مع حقائق القرن التاسع عشر وظروفه التي تقضي بإيجاد دولة حديثة وأهم المبادئ التي تسلحت بها دولة الأمير العدل والمساواة وحقوق الإنسان واحترام الكرامة الإنسانية وسيادة القانون، واحترام النظام وحب الجهاد وكراهية المستعمر وقد استمدت مفاهيم هذه القيم من الإسلام.

واهتم الأمير بمفهوم دولة المواطنة وتسلحت دولته بمبدأ المساواة حتى بينه وبين مواطنيه أو بين المواطنين والحكام، وكان للقضاة وحدهم حق إصدار الأحكام، والسكان جميعاً لهم الحق في التقاضي وطبقت المساواة حتى بين أفراد القبيلة ورئيسها ونجح الأمير في جعل الشعب يتجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الشعور بالوحدة الوطنية[١].

لقد استطاع الأمير عبد القادر أن يثير الجزائريين بخطابه الوطني الذي ترددت فيه عبارات: بلادكم، أرضكم، دينكم، نساؤكم، وحذر من هذا العدو الفرنسي الذي يريد أن يغل الأعناق وأن يعتدي على الشرف وتوجه إلى كل القبائل وكل الزوايا وكل الجهات وتجاوز خطابه بني فلان وبني فلان إلى الشعب إلى المواطنين حيثما كانوا ومهما كان انتماؤهم القبلي أو الصوفي أو الجهوي وربما لم تعرف الجزائر قائداً من أبنائها استعمل هذا الخطاب من قبل، فقد كان تحرك الأمير عبد القادر كرجل دولة وطنية لا كرجل طريقة أو

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر، ص: ٤١.

قبيلة أو جهة، لقد بذل جهوداً عظيمة في جمع كلمة الجزائريين لمواجهة العدو المشترك من خلال ادارة منظمة وحكومة رشيدة، وجيش مجهز وتعبئة عامة لكل مواطنيه وكان يهتم بالمواطن المعطي الفاعل في بناء الدولة والتصدي للغزاة وكان يقول لا تسألوا عن أصل الرجل بل اسألوا عن حياته وأعماله وشجاعته ومؤهلاته وستعرفون من هو، فإذا كانت مياه النهر طاهرة مقبولة فلأنها جاءت من نبع صاف[1].

لقد امتدت سلطة الأمير عبد القادر منذ ١٨٣٨م لتشمل الأغلبية العظمى من البلاد، وإذا كان الفرنسيون مازالوا يحتلون جزءاً من التراب الوطني، فإن العمل الذي أنجزه الأمير في بضع سنين قد كان عظيماً ويبدو وشيكاً على بلوغ غايته، لم يصبح الأمير السيد بلا منازع ولا شريك على الجزء الأكبر والأوفر ثروة وسكناً في البلاد فحسب، لكن القبائل التي كانت مشتتة متنافرة سابقاً قد أصبحت الآن موحدة تحت ظل لواء واحد، وسلطة قوية ومركزية لم يسبق لها مثيل تضمن أمن الأشخاص والممتلكات في كل مكان، بفضل قضاء فعال ومنصف بالنسبة للجميع وفي وجود جيش عصري يضمن حماية التراب ومستعد لمواجهة كافة الاحتمالات وقد توجت كل الجهود الرامية إلى عصرنة البلاد وتوحيد الشعب الذي خرج من الفوضى التي تركته فيها القرون العقود الماضية وكللت بنجاح بفضل عبقرية الأمير، وتفانيه في خدمة المصلحة العامة، هو ومن معه من الرجال الذين أحسن اختيارهم صحيح أن العمل لم يكن قد اكتمل لكن قوامه وأساسه كان قد أنجز[2]، وقد كانت تلك الجهود المباركة نواة قوية للدولة الجزائرية الحديثة.

٤. معايير تعيين موظفي الدولة ومناصبهم:

كان يتم اختيار موظفي الدولة من أبناء الشعب الجزائري وزعماء القبائل، والأعيان، والعلماء، وأصحاب المكانة المرموقة من ذوي الكفاءات والقدرات والملكات الإدارية والقيادية، كان كل موظف في الدولة ابتداءً من أسمى موظف وهو الخليفة إلى أبسط

[1] فارس الجزائر، ص: ٢٣٦.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١١١.

الشيوخ، يملك في نطاقه كامل السلطة الإدارية والعسكرية والمالية على قمة السلم كان الخليفة بتفويض من الأمير الذي كان يمثله ويملك السلطة المطلقة في ولايته التي يقود جيشها في وقت الحرب ويتحكم في آغاتها وقيادتها وشيوخها، وكان يحكم في القضايا التي تتعلق بالدولة وقضايا الاستئناف ضد أحكام وقرارات الآغات، وقد كانت تتجمع عنده الضرائب التي يرفعها الآغات والقيادة والشيوخ ومدة خدمته غير محددة لأنه كان يختار لكفاءته وإخلاصه وقد تبين أنهم جميعاً أهل لثقة الأمير، فلم يخن أي منهم هذه الثقة على الرغم من محاولات العدو رشوتهم.

من الجهة الأخرى نجد أن انتداب الآغا كان قابلاً للفسخ، لكنه قابل للتجديد، وتدوم مدته النظرية سنتين، وكان الآغا مسؤولاً عن الأمن في نطاق اختصاصه كما كان يجند المحاربين، ويرفع محصلة الضرائب التي كان يجمعها القادة والشيوخ في منطقته وكان هو القاضي في المسائل الخارجة عن نطاق الشريعة بشرط الامتثال للاستئناف في قراراته أمام الخليفة، وأخيراً فقد كان يراقب قرار القيادة في حدود مسؤوليته، كانت مدة انتداب القائد تقدر سنة مع قابليتها هي الأخرى للتجديد وقد كان يمارس مهامه في نطاق قبيلته، وعلاوة على دوره كمقسط للضريبة المقدرة على منطقته الذي يساعده على القيام به الشيوخ، فقد كان القائد يمارس سلطة دركية وفي زمن الحرب كان يقود كتيبة تشكل بالخصوص من الجنود غير النظاميين[1].

أخيراً في القادة يوجد الشيخ وهو على العكس من رؤسائه يجب أن يكون منحدراً من نفس القبيلة ومن نفس الجزء المنوط به قيادته، وهو يستمد سلطته من ثقة مواطنيه فيه، ومن هنا تأتي أهميته الاجتماعية بالرغم من تواضع مهمته.

ويجمع هو الآخر في نطاقه الخاص وظائف الشرطة ومحصل الضرائب وضابط الحالة المدينة، غير أنه كان مسؤولاً بوجه خاص على الأمن العام في قبيلته وهي مهمة صعبة

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٦.

ومرهقة لأنه لم يكن يملك الحق في إصدار العقوبات على الجانحين فهذا امتياز خاص بالآغا.

كان الأمير يختار القيادة من الأشياخ الأكثر أهلية واستحقاقاً ولأجل تفادي الرشوة كان الموظفون يعينون من الطبقة الميسورة بالإضافة إلى معاشاتهم فإنهم كانوا يتقاضون حصة من الضرائب والمخالفات "الخطايا" التي كانوا يجبونها[1].

٥. السلطة القضائية:

كانت السلطة القضائية في دولة الأمير عبد القادر منفصلة عن السلطة التنفيذية بقدر ما كان من يمارسها منفذاً للقانون وليس ممثلاً للأمير مع أن هذا الأخير هو الذي يعينه وقد كانت صلاحيته واسعة: نظام الأحوال الشخصية والميراثية، والشؤون العقارية، وكان أيضاً يصادق على العقود المحررة من طرف الكاتب الشرعي أو الموثق الذي كان يزاول وظائفه في مقر القضاء، كما كانت صلاحية القاضي تمتد حتى إلى القضايا الجنائية.

كان القاضي بطبيعة منصبه شخصية مهمة وكان يتم اختياره لثقافته وخصاله الفاضلة وكان يُعيّن إما من بين العلماء المشهورين، أو عند تعذر ذلك فبامتحان ولم تكن تخرج عن دائرة اختصاصه إلا القضايا المتعلقة بالأمن العام التي كانت من اختصاص الخليفة أو الآغا، وكان القاضي كغيره من الموظفين يقبض راتباً محترماً وكان فوق ذلك يتبع الأرتال في تحركاتها وهو مرفوق باثنين من المعاونين أحدهما مكلفاً بتنفيذ الحكم.

وكان الأمير: لا يسمح إلا بالأحكام المطابقة لشريعة الله التي ما كان يعتبر نفسه إلا منفذاً لها[2].

فالمرجعية الدستورية العليا في دولة الأمير عبد القادر: القرآن الكريم والسنة النبوية والاسترشاد باجتهاد العلماء والفقهاء المجتهدين، وللمذهب المالكي مكانة متميزة في دول الشمال الأفريقي وإن كانت أمور الدول لا تعتمد عليه فقط، وإنما تحتاج إلى الانفتاح

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٧.

[2] المصدر نفسه.

على المذاهب السنية الأخرى واجتهادات فقهاء كل عصر الذين فهموا النصوص وأدركوا حكمتها وغاياتها ولديهم من الملكات الفقهية والتربية الإيمانية الربانية التي تجعلهم يتحرون المصلحة العامة في المواضيع الطارئة التي لا يوجد فيها نصّ ملزم صريح مع قدرة فائقة في حساب تطور الأزمان.

ومن أشهر قضاة دولة الأمير عبد القادر: العلّامة قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراحي، والسيد عبد بن المصطفى المشرفي.

وكان الأمير عبد القادر حازماً في منع شرب الخمر ولعب الميسر وبصورة خاصة بين صفوف المقاتلين، كما حظر التدخين لكونه إسرافاً، ونهى الرجال عن إستعمال الذهب والفضة إلا في الأسلحة.

كان عبد القادر حريصاً على رفع الظلم وإقامة العدل وتقوية المؤسسة القضائية ويرى أن ذلك من أسباب قوة الشعب وصلابة الدول وعوامل النصر على الغزاة الفرنسيين، لقد واجه الاستعمار الفرنسي زعيم فذ، وشعب يتكون ودولة تبنى على أسس راسخة بزعامته.

٦. مجلس الشورى:

اتخذ الأمير في كل مقاطعة داراً للشورى لبحث الأمور الهامة في الدولة وجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس "مجالس الشورى" من قبل النّواب الذين كانوا يُدعون بالخلفاء وربط هذه المجالس بالمجلس الأعلى للبلاد المؤلف من أحد عشر عالماً وبمجالس الإستئناف، وأما العلماء الأحد عشر فمنهم السادة: أحمد المحفوظي، أحمد بن طاهر بن الشيخ المشرفي، ومحمد بن مختار الورغي، ومختار بن مكي الحاج، عبد القادر بن روكس، وإبراهيم ابن القاضي، وأحمد ابن الهاشمي، وأما نفقات هذه المجالس فكانت تصرف من بيت المال

كباقي كوادر الدولة وأما أصحاب الوظائف الدينية وما يتعلق بها فكانت رواتبهم تصرف من خزينة وزارة الأوقاف[1].

كان مجلس الشورى الأعلى في الدولة الفتية ينعقد والأمير في وسطه، وكان يتفحص الطعون في قرارات القضاة، ويشكل هذا المجلس علماء أجلاء كانوا يتمادون في التدقيق عندما تعارضهم مشاكل عويصة إلى أن يطلبوا باسم الأمير رأي العلماء المعروفين بتعمقهم في علوم الشريعة، في الغالب كانوا يستشيرون علماء جامعة القرويين بفاس، كذلك كان يستشار علماء الأزهر في بعض الأحيان، غير أنه نظراً لبعد المسافة فإن الأمير لم يكن يلجأ إليهم إلا في الحالات الإستثنائية.

والأمير لم يكن أبداً يتخذ القرار ببساطة، كان دوماً يستشير المجلس الذي يترأسه في أغلب اجتماعاته والذي كان في معظم الحالات يعكس صدى الرأي العام[2].

٧. الاقتصاد والمالية العامة:

لقد أنشأ الأمير نظاماً اقتصادياً تشرف عليه الدولة الهدف منه جعل اقتصاد البلاد في خدمة الغايات القتالية بصورة خاصة، مصلحة الفقراء والشعب بصورة عامة، فكان الجباة يخرجون مرتين في السنة بجباية الزكاة والأعشار بعد أن يقسموا على القرآن الكريم بألا يظلموا أحداً وألا يعتدوا على أحد، وأنشأ ديوان الأوقاف وأوكل أمره إلى أبي الحاج عبد الله الجيلاني بن فريحة وأوكل أمور ديوان الأوقاف إلى السيد عبد الرحمن الحاج طاهر أبي زيد كما أنشأ ديوان صناعة العملة ومعاملة الأسلحة وكل ما يتعلق بأدوات الحرب وأوكل أموره إلى السيد أبي البركات محمد الجيلاني، وأسند الأمور الداخلية إلى أبي محمد السيد الجيلاني بن الهادية، أما كتّاب الديوان فكانوا من السادة الأشراف، السيد أحمد بن أبي طالب والسيد مصطفى التهامي. وكان حاجبا الخزينة هما: السيدين محمد بن

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٥.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٨.

الحاج علي الريحاوي والحاج النجادي الريحاوي، وكان السيد محيي الدين بن عبد الله ناظر الإسطبلات[1].

كانت إيرادات الدولة الفتية تستعمل في نفقات الإدارة والجيش على الأغلب ويجدر التوضيح هاهنا بأن كل الرواتب والمعاشات كانت تدفع نقداً وعيناً بالسلع الغذائية على وجه الخصوص وأنها كانت تتم بانتظام.

لقد بقيت عملة الأمير متداولة حتى بعد استسلامه واستمرت كذلك إلى أن أخذت السلطة الاحتلالية سنة ١٨٤٩م إجراءات خاصة ليسحبها من التداول.

وكانت الخزينة العامة قيمة معتبرة بالنسبة لذلك العصر وتقوم بالعملة الصعبة، وقطع الذهب بما يعادل أربعة ملايين من الفرنكات الحالية وهي نتاج الصادرات إلى إسبانيا وفرنسا من الحبوب والماشية والأصواف الآتية من الضرائب، وزيادة على ذلك فكان يوجد لحاجيات الحرب كميات ضخمة من البارود والكبريت وملح البارود والمعادن وكانت الحبوب مخزنة في مطامير موزعة على كامل إقليم الدولة[2].

٨. التجارة:

كانت التجارة مزدهرة بفضل الأمن الذي كان مستتباً تماماً في كل الأقاليم الواقعة تحت سلطة الأمير وكان الأمير صارماً فيما يخص قضية أمن الطرق والأسواق وكانت العقوبات قاسية بالنسبة لمن كانوا يعترضون القوافل المحملة بالبضائع[3]، وكان سلطان فاس معجباً بجهود الأمير ونجاعتها، وذلك أن القوافل القادمة من المغرب كانت تهاجم خلال الفترة

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٤.
[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٠٢.
[3] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

التي قبل مجيء الأمير عبد القادر للسلطة وبيعته مما كان يجعل المبادلات التجارية بين البلدين نادرة للغاية[1].

وكان الأمير يعين محتساباً وهو ما يشبه المفتشين وكان في نفس الوقت يعمل على التحكم في أسعار ونوعية البضائع في الأسواق ويراقب الأخلاق التي كانت سليمة ومحترمة، ومنذ اتفاقية دي ميشال أصبح الفرنسيون الذين كانوا يحتلون الموانئ لا يستلمون أية بضاعة أساسية من دولة الأمير، من حبوب وماشية وأصواف إلا بترخيص منه. كان الإقليم الخاضع للأمير أكثر أمناً كما كان النظام به أكثر استتباباً، مما هو عليه في مناطق النفوذ الفرنسية وفي المغرب، وكانت الشرطة الفعّالة لدولة الأمير تهتم بالأخلاق الحميدة وتحارب الذميمة، وتحارب الكحول والتدخين والمقامرة[2]... الخ.

٩. الدبلوماسية:

إن المعاهدة الأولى المسماة "دي ميشال" الموقعة بين الحكومة الفرنسية والأمير تختص بشروط التعيين المتبادل للممثلين، مع أنه قد كان هناك جدل بين الفرنسيين والأمير حوَّل عبارة ممثل بالنسبة للطرف الأول وقنصل بالنسبة للثاني.

مهما كانت العبارة، فإن الأمر كان يتعلق بدبلوماسيين معتمدين عند كلًّا من الطرفين، ذلك أنه قد اعترف ضمنياً في هذا الاتفاق، ولو على جزء من الإقليم بالسيادة الزمنية والروحية لعبد القادر "أمير المؤمنين" كان الأمير بفضل اختيار هؤلاء الوكلاء الدبلوماسيين من بين اليهود، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من رعاياه مثلهم مثل غيرهم من الجزائريين، وذلك لمهارتهم الدبلوماسية وكذلك لمعرفتهم لكلتا اللغتين، وككل الدبلوماسيين فقد كان هناك ثلاثة مهمتهم تتمثل في السهر على التطبيق الدقيق للمعاهدة وتبادل أصحاب الجنح والجنايات والفارين من الجيش، وتطبيق الأحكام الصادرة في كلتا المنطقتين.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

كانت فرنسا في هذه الفترة تحتل مدن الجزائر وهران، أرزيو، ومستغانم، وكان قناصلة الأمير حسب بن أشنهو هم على التوالي مادوخاي "مردوش" وبن دوران والحاج حبيب، ومحمد بن يخو وخالفه بن حمود.

وقد كان هناك أوروبيون يمثلون الأمير في الجزائر مثل كارافيني غير أنه قد اعتبر من قبل فرنسا شخصية غير مرغوب فيها وذلك تمهيداً لأزمة ١٨٣٩م وهذا ما زاد في حدة التوتر بين فرنسا والأمير وهو ما أدى إلى استئناف الأعمال العدوانية، على الرغم من الروابط الوثيقة التي كانت تجمع الأمير بسلطان فاس، فإنه لم يكن بين الدولتين علاقات دبلوماسية بالمعنى المعروف وإنما تبادل للوفود في فاس، ومكلف واحد بالأعمال هو الحاج بن جلون في فرنسا كان غالباً مبعوث الأمير إلى باريس هو ميلود بن عراش الذي يمكن اعتباره آنذاك كسفير معتمد لدى الحكومة الفرنسية.

وأخيراً، فإذا كانت هناك علاقات تجارية لهذه الدولة الفتية مع إسبانيا وخصوصاً مع إنجلترا، هذه الأخيرة التي كانت تحابي الأمير، وكانت في نفس الوقت تعمل على التقرب من فرنسا، فإنه لم يوجد أي تمثيل بين هذه البلدان والأمير، وعلى العكس من ذلك فإن الأمير كان منذ توليه وحتى الشهور الأخيرة من كفاحه على علم تام بما كان يجري ليس في فرنسا فقط، وإنما كذلك في الدول الأوروبية الأخرى[1].

١٠. المخابرات:

لقد كان له مصلحة أخبار حقيقية ويرجع الفضل في ذلك إلى مبعوثيه الذين كانوا مركزاً كبيراً للمبادلات، وكانت له بمثابة قاعدة للإمداد ليس لتوريد الأسلحة والذخيرة فقط، بل وكذلك لنشر وجمع الأخبار وكان يتابع ما يصدر من جرائد أوروبية ويكلف من يقوم بترجمتها، وحسب ميلود بن عراش سفيره فوق العادة في باريس، فإن الأمير كان له ابتداء

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

من ١٨٣٨م عميل يتجسس لصالحه، وهو جنرال فرنسي متقاعد يقيم في باريس حيث كان يتمتع بنفوذ كبير وكان يخبره بكل ما قد يهمه[١]، وكان هذا الجهاد المرتبط بالأمير يتابع تحركات الفرنسيين وعملاءهم داخل القطر الجزائري بحرفية عالية.

١١. الثقافة:

قبل الاحتلال الفرنسي كان التعليم ينشر عن طريق الزوايا وكان كل من العلماء والفقهاء ومثلهم الطلبة أو المدرسون هؤلاء وأولئك يجودون بعلومهم ومعارفهم كل منهم في القبيلة الخاصة به وقد كان تعليم المواطنين من بين انشغالات الأمير منذ توليته، وهذا ليس بغريب من قبل زعيم يعترف بقيمة العلم والمعرفة والثقافة.

وهكذا فقد كانت جهوده التوحيدية تتماشى بالتوازي مع إقامة نظام تربوي عام، وقد أقيمت في الأرياف مثلها مثل المدن المدارس، حيث لم يكن التلاميذ يدرسون القرآن فقط، وإنما القراءة والكتابة والحساب وكان هذا التعليم مجانياً، مثلما كان التعليم ذو المستوى الأعلى الملقن في الزوايا والمساجد، هاهو ذا ما كتبه الأمير حول هذا الموضوع: "كان أولئك الذين يبتغون قدراً أكبر من التقدم في دراستهم يرسلون مجاناً إلى الزوايا والجوامع فكانوا يجدون فيها طلبة قادرين على تكوينهم في التاريخ وعلوم الدين، كنت أخصص للطلبة راتباً منتظماً كانت قيمته تتفاوت حسب علمهم وجدارتهم، وكانت أهمية تشجيع التعليم تبدو لي من الضرورة بمكان، بحيث أنني أكثر من مرة عفيت عن حكم الإعدام على مجرم لسبب وحيد هو كونه طالباً"[٢].

كان الأمير يحرص بنفسه على صيانة الكتب والمحفوظات، وكان يعطي القبائل أوامر دقيقة من أجل صيانة الكتب، ويأمر بعقوبة صارمة في حق كل من يمسك متلبساً بإتلافها أو تمزيقها، هكذا فقد أنشئت مكتبة كبيرة لتجميع المؤلفات والمخطوطات ذات

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

القيمة، كان الكثير منها يؤخذ إثر المعارك أو يشترى أو يسلم من قبل الجنود الذين كانوا يجزون على ذلك.

لقد أتلفت هذه المكتبة ذات الأهمية البالغة من قبل القوات الفرنسية عند سقوط الزمالة في ١٨٤٣م وقد كان لهذا تأثير بالغ في نفس الأمير[١].

١٢. الصناعة:

لم يكن بحث الأمير وتخزينه للمعادن الخالصة ضرورياً فقط لصنع عملته، بل كذلك من أجل تكوين صناعة قادرة على جعله مستقلاً عن الخارج، وقد استطاع في سنة ١٨٣٩م أن يجمع بين ألفي قنطار من الحديد ومئتين من النحاس وقد تمخضت أبحاثه عن اكتشاف منجم للكبريت قام مباشرة باستغلاله، ومنجم آخر للرصاص، وقد جعل من مدنه قواعد صناعية بإنشاء مصانع ومخازن للبارود في معسكر مليانة، المدية، وتاكدمت، ومعامل للسلاح في مليانة بفضل استخراج الحديد الخام من جبل زكار المطل على المدينة، كما أنه قد أنشأ مسابك المدافع في تلمسان، ولم تكن هذه المراكز مخصصة لصنع الأسلحة فقط، كذلك كانت تصنع الملابس للعسكريين والمدنيين على حد سواء.

كان الأمير دائم الانشغال بعدم الارتباط والتبعية للخارج، ونظراً لمحدودية إمكانياته وموارده فقد كان يعوضها بالشراء من المغرب عن طريق المكلف بأعماله في فاس، ومن وهران ومن مدينة الجزائر لكميات كبيرة من الحديد والصلب وصفائح الفولاذ والأقمشة والجوخ المخصصة بالدرجة الأولى لتجهيز جيشه، لقد كانت جبارة تلك الجهود التي قام بها الأمير بغية تعزيز البلاد بصناعة تمكنه على قدر المستطاع من تجهيز بلاده حتى يتحرر من التبعية للخارج[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

يكتب الكونت دي سيفري في كتابه: «عبد القادر ومساجين الحرب»: كانت المشاغل والمخازن والمعامل والصناعات الحربية والسلمية والحصون والأسواق والمدن كلها تنبعث وكأنها نتاج أعمال سحرية[١].

غير أنه كان يلزمه التقنيون كذلك: وقد وجد تقنيين لصناعة النقد خاصة من الفرنسيين الذين كانوا في مجملهم من الفارين المعتنقين الإسلام.

وكان حريصاً على الاستفادة من فرنسا في جانب التقنية من خلال إرسال مواطنين إليها ولكن محاولاته باءت بالفشل من جراء التردد والتحفظ التي ظهر من جانب فرنسا.

وكان يحرص على الاستفادة من الخبراء وأهل التخصص في ميادين الصناعة وعلم المعادن واستفاد من خبير فرنسي كان مهتماً بالأبحاث المنجمية بعث به سلطان المغرب إليه ليقدم خدماته للأمير، وفعلاً بدأ التنقيب في جبل زكار واكتشف أن خام الحديد متوافر بكثرة وقد استوردت من إسبانيا عجلة مائية ومسقط مياه يستعمل كقوة دافعة وذلك لاستخدامها في إنشاء مصنع ذي فرن عال، ولإعطاء المشروع كامل أهميته كان الأمير يصر على معاينته بموكب من القادة السياسيين والعسكريين وقد حضر الأمير كل مراحل العملية بكل اهتمام وقلق، وعندما صُبَّ قضيب الحديد قام الأمير أمام الملأ بتقبيل المهندس، وعندما برد الحديد أخذه الأمير بين يديه وتفحص كل أوجهه ثم عرضه على كل مرافقيه وأنصاره[٢].

لقد كان الأمير يهتم بالتطور والرقي وبالرغم من أن الأمير كان ابن بيئة محافظة وأسرة متصوفة ومنطقة ريفية منعزلة، إلا أنه كان قريباً من مدينة معسكر التي كانت مقراً لسلطة باي الغرب، ثم إنه قضى بعض الوقت في التعليم بوهران التي كانت قبل فتحها ١٧٩٢م مدينة ذات طابع إسباني. وكان الأمير عميق التمسك بالدين وتعاليمه وبنصوص القرآن والسنة ومتمكناً من التراث العربي والحضارة الإسلامية: يحفظ الشعر والأمثال والخطب

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٦.

والحكم، ويعرف حياة الفلاسفة والرياضيين والأطباء ومع ذلك وجد نفسه بحكم ظروف بلاده على قمة هرم السلطة، فكان عليه أن يوائم بين التقليد والتجديد بين التراث التليد والحضارة الغربية الغازية.

وقد استجاب الأمير لضغط هذه الحضارة في عدة مجالات دون التضحية بمقدساته، فأدخل نظماً ومصانع وأجهزة لا عهد لقومه بها، وقد عرفنا ذلك عنه، وفي بعض مراسلاته مع الفرنسيين سيما مع ملك فرنسا لويس فيليب، وردت عبارات تدل على أنه كان ينتظر أن يتعاون مع الفرنسيين على إدخال المفيد من الحضارة الأوروبية على شعبه[1].

لقد كان الهدف الأسمى والأشمل لعبد القادر هو جعل عرب وأمازيغ الجزائر شعباً واحداً ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم، وإيقاظ كل قدراتهم الهامدة سواء للحرب أو للتجارة أو للزراعة أو للأخلاق والتعليم.

كان الأمير ينشد توحيد الشعب وتوعيته وإلحاقه بركب العالم المتقدم وبناء دولة تجمع بين الإسلام وحاجات العصر[2].

كل المؤرخين الفرنسيين يذكرون رسالته المؤثرة التي بعث بها إلى الملكة أميلي في هذا المضمار: عوض أن تبعثي إلي بجبنائك الأمجاد كي يقاتلوني، فليأتوا ليساعدوني على أن أضع في بلادي أسس حضارة تكونين قد أسهمت فيها، فتكونين قد حققت هدفين اثنين تنزلين السكينة على قلبك النابض بالأمومة وتسعدين كلًّا من رعاياك ورعايانا، وعسى الله أن يحفظ لك كل ما هو عليك عزيز وغال.

لم يكن هناك رد عملي وفعلي فروح الغزو والسيطرة التي كانت المحرك الدائم لفرنسا، لم تكن تطيق أن ترى أمة إسلامية عصرية على وجه الأرض[3].

---

[1] حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٦.

[2] حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٦.

[3] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٠٦.

١٣. إنشاء المشافي:

اجتهد الأمير عبد القادر في تطوير دولته وأحدث أموراً كثيرة، ومن أهمها إنشاء المشافي العامة والخاصة، فكان في كل مقاطعة عدة مستوصفات ومشافٍ خاصة بالمقاتلين تصحبهم في كل موقعة ومعركة، وعيّن لكل مشفى أربعة أطباء أكفاء يرأسهم طبيب مشهور ومن مشاهير الأطباء في دولة الأمير: الحكيم أبو عبد الله الزراوالي، وكان عالماً بخصوص الأعشاب على اختلاف أنواعها، ومن اختصاصاته إخراج الرصاصة من العضو المصاب بوضع نوع من الأعشاب على الجرح فتخرج الرصاصة من دون الحاجة إلى جراحة بعد وقت قصير وبسهولة ومن دون ألم. وكان إنشاء هذه المستشفيات أحد أهم المنجزات التي كان له فيها فضل كبير[١].

واستعان الأمير بالعلماء وفقهاء الإسلام في الجزائر والمغرب لكي يكون على ثقة عن عدم تجاوز دولته أحكام الشرع في قراراتها ودفعته الظروف الجديدة إلى طلب التطوع من السكان لخدمة مزارع الدولة وأملاكها التابعة لبيت المال بشكل نظام تعاوني عرف "بالتدويرة"[٢].

رابعاً: معاركه ومعاهداته

١. إخضاع القبائل:

كان أول عمل قام به الأمير حملات إخضاع القبائل التي رفضت البيعة، فخرج مباشرة بعد البيعة وقام بحملة واسعة بين القبائل العربية والبربرية، فأخضع القبائل التي لم تعترف بالبيعة وفرض عليها أن تعترف بقرار الجماعة وعفا عمّن يستحق العفو، وعاقب من يستحق العقاب، وعاد سالكاً طريق الساحل حتى وصل إلى مرفأ أرزيو وكان قاضيها أحمد بن طاهر قد دخل في محادثات مع حاكم وهران الفرنسي وطلب منه احتلال المرفأ،

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٦.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨١.

فقبض عليه الأمير وساقه إلى معسكر حيث أمر باعتقاله، بعد أن عين من يسير أمور الميناء.

وبعد عودته من أرزيو قرر تأديب القبائل التي تنشر الفوضى بين المواطنين وكانت تقوم بالسلب والنهب[1]، وكانت قبيلته فليتة تشتمل على بطون وعشائر، وكان من عادتها السلب والنهب وقطع الطرق والتعرض للسابلة وبقي هذا شأنها منذ عهود موغلة في القدم، فكم روّعت من قبائل مجاورة لها وسَطَتْ على أموالها، وعندما بويع الأمير طلب الشعب منه وضع حد لعدوان هذه القبيلة فاستجاب له وتوجه بالجيش وحط بالبطحاء في منطقة تعرف باسم "بهيرة" ومنها أرسل إلى قبيلة فليتة وما جاورها من القبائل رسُلاً يطلب إليهم الالتزام بالشرعية ويبلغهم قرار الشعب الجزائري الذي أصبح بموجبه أميراً للبلاد، فكان جوابهم العصيان ورفض الطاعة، فأسرع بجيشه قاصداً قبائل فليتة فهاجمها وكان أوامره إلى الجند: ألا يحرقوا بيتاً ولا يقتلوا طفلاً أو شيخاً أو امرأة ولا يهلكوا غرساً ولا شجرة، وبعد انتصاره عليهم استأمنوا فآمنهم وردّ عليهم أموالهم وولىّ عليهم عمالاً "أي حكاماً بالمعنى الحديث" يثق بهم[2].

٢. الهجوم على وهران:

تناهت إلى مسامع الأمير أن حاكم وهران الفرنسي قد أغار على قرية الدبة جنوبي قلعة هوارة، ونكّل بأهلها، وأخذ القضية السيد قدور الدمجي أسيراً، فسارع إلى قطع الطريق على العدو ومنعه من تحقيق هدفه، وما إن اقترب العدو من "الدار البيضاء" حتى أدركه الأمير واندفعت سيول فرسان الجيش المحمدي تسابق الريح نحو القوات الفرنسية، وكانت أهازيج الحرب تخرج من صدور هزتها الحماسية وملأها الإيمان وانهال المقاتلون من الأودية والمرتفعات واستشهد في ذلك اليوم من القادة المسلمين علي بن حبيب الرحاوي والميلود المغراوي، أما العدو فقد كانت خسائره كبيرة فادحة.

---

[1] المصدر نفسه.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٩.

كانت هذه أول معركة للأمير داخل البلاد، وحملت رياح النصر أنباء انتصارات الأمير إلى القيادة في مدينة الجزائر، وفي الخامس عشر من نيسان عام ١٨٣٣م عُزل الجنرال "بويه" حاكم وهران المهزوم وعُيّن الجنرال "دي ميشيل" مكانه حاكماً على المدينة، فسار إليها بقوة كبيرة فوجدها تحت حصار جيش الأمير مغلقة الأبواب وبلغه أن الأمير قبل رجوعه إلى "معسكر" كلّف بعض القبائل بمراقبة حصون المدينة ومساعدة الجيش المحمدي على متابعة حصار وقتال الفرنسيين، وعندما لم يستطيع الدخول إلى المدينة ابتنى حصناً بالقرب منها في منطقة تدعى "بنفور" وأخذ يشتري ضمائر ضعيفي الإيمان من أفراد القبائل المجاورة والدوائر لمساعدته[١].

٣. الإصلاح بين القبائل:

عندما وصل الأمير عبد القادر إلى ناحية نهر "مينة" تناهى إلى مسامعه أن قتالاً نشب بين قبائل البربر فوصل في الوقت المناسب وأصلح بينهم وعاقب مثيري الفتنة وعقد صلح بينهم وقعه رؤساؤهم نصه كما يأتي: قد أبرمنا بحول الله وقوته، الصلح المبرم بين أولاد الأكراد وقبيلة أولاد شريف، وقبائل يسلم وقبائل الشرقية ومحونا أثر ما كان بينهم من بقايا حميّة الجاهلية وألزمنا كل فريق منهم بالانضباط وطاعة الأنظمة المرعية في الدولة، وبرفع كل قضاياهم إلى من ولّيناه أمرهم، وجعلنا عقوبات شديدة على من يخالف الأنظمة أو ينقض أمر هذه المصالحة أو يتسبب بإفسادها فيكون قد عرّض نفسه لسخط الله وغضبه[٢].

كان الأمير يؤكد أن الغاية الوحيدة لقبوله هذا المنصب وهذه القيادة هي أمن البلاد واطمئنان الشعب على نفسه وأمواله وأعراضه وتمتعه بحقوقه الدينية، ثم طرد الغزاة الفرنسيين ولا يمكنه ذلك إلا بمساعدة أبناء هذا الشعب بالمال والرجال، وإن المكاسب التي تحصل عليها الدولة هي عائدة إلى الشعب، وكان في أكثر خطبه التي يضطر إليها

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٠.

يقول: لا أظن أنه يخطر في بال أحدكم أن الأموال التي تدفعونها للجباة أبتغيها لنفسي أو لنفقاتي الشخصية ولعلكم تعلمون بأني من سلالة عريقة وأن عائلتي مليئة، وكان الشعراء والوعّاظ ورجال القوافل والمنشدون في الأسواق يؤكدون هذه المعاني وقد جاء في بعض الأناشيد الشعبية في بلاد القبائل أن الأمير لا يطمح أبداً إلى العرش والعظمة، وأن رغبته فقط هي أن يخضع الناس لأوامره كإخوة ليدخل معهم مدينة الجزائر ويطرد الفرنسيين منها وعندما لا ينفع الإقناع كان الأمير يلجأ إلى الحزم والقوة وعندما ينتصر كان الحزم ينقلب حلماً، والقوة عفواً، ولكنه لم يكن يرحم الذين يتعاونون مع الفرنسيين ويثبت عليهم ذلك، وكان يستشهد بالآية الكريمة " وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا" (النساء، آية : ١٠٦).

ولدى عودة الأمير عبد القادر لمدينة معسكر بلغه خلع ابن نونة قائد الحضر في مدينة تلمسان للطاعة، فسار إليه وهزمه ففر ولجأ بضريح الولي أبي مدين فلحق به ودخل الضريح وأمّن ابن نونة وعاد لمعسكر بعد أن رتب شؤون تلمسان[١].

٤. وفاة والده واستمرار المعارك:

وفي طريق عودته من تلمسان بلغه نبأ وفاة والده وذلك في ٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٩هـ الموافق تموز ١٨٣٣م، وبعد قيامه بمراسيم دفن والده العظيم علم أن الفرنسيين المتحصنين على البحر في منطقة مهاجر، راحوا يتعاملون مع بعض قبائل الناحية بالبيع والشراء فباغت جنود الحامية وهم خارج الحصن يرعون قطعانهم فأمعن فيهم قتلاً، فلاذوا بالفرار وعادوا للحصن فأسر بعضهم وغنم سائر قطعان مواشيهم وكان أمام المرسى عدد من المراكب وصلت للتو فتوجه لها وغنم ما فيها من مؤونة وذخائر. وعندما وصل الخبر للقائد العام الفرنسي بالجزائر قام بعزل الجنرال بويه وعيّن مكانه الجنرال دي ميشيل حاكماً على وهران في ١٥ نيسان، أفريل ١٨٣٣م، ووصل وهران فوجدها محاصرة من

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٢.

طرف المسلمين وبعد أيام علم بحضور الأمير نفسه، فخرج بقوات ضخمة لنجدة حصن عقور الذي هاجمه الأمير وتصدى الأمير للقوة الفرنسية التي كانت بقيادة الجنرال بوبريص فهزمها وشتت شملها وهرب عساكر العدو نحو سور المدينة وعلم بعد هذه المعركة أن قبائل أرزيو جددوا علاقاتهم مع الفرنسيين بإيعاز من رئيسهم المعتقل في معسكر، وعلم من عيونه المبثوثة في المنطقة أن شخصاً اسمه طوبال يخرج كل يوم مع ضباط فرنسيين في رحلات صيد، فترصد لهم الأمير وهاجمهم وجردهم من سلاحهم وأسرهم وعندما علم جنود حامية أرزيو الفرنسية بالهجوم ركبوا المراكب وهربوا إلى وهران، ودخل الأمير أرزيو فقبض على رؤوس القبائل التي تعاونت مع العدو، وأصلح بين سكانها وترك حامية تحمي المدينة وعاد لمعسكر فكون مجلس قضاء حاكم القاضي أحمد بن الطاهر البطيوي وحكم عليه بالإعدام.

وعندما لاحظ الفرنسيون نجاح الأمير في تجميع الشعب حوله وكبح القبائل التي أبدت تعاوناً معهم، قاموا بعمل يمس هيبة الأمير فغزو مستغانم مباغتة ودخلوها، ففر أكثر سكانها إلى الريف المحيط بها، وعلم الأمير بذلك فتوجه بجيش ضم الكثير من القبائل التي هبت لندائه بالجهاد وكان العدو قد قام منذ دخوله المدينة بتحصين سورها ونصب المدافع عليها وحاول الأمير تدمير السور بالمعاول والفؤوس فلم تفلح محاولته، فانسحب بجيشه إلى مخيمه وأمر بأن يحفر نفق من المخيم إلى السور ووصل النفق السور فحفر تحت أسسه وملئ بالبارود وأضرمت النار فانفجر لكن الانفجار لم يكن كافياً فقد فتح فتحة صغيرة لا تكفي لدخول الجيش للمدينة وعندما تأكد الأمير أن الجيش الفرنسي تحصن بالمدينة ويرفض الخروج لمنازلته وأن اقتحامها غير ممكن، عاد إلى مدينة معسكر.

وما إن اقتنع القائد الفرنسي دي ميشيل من رفع الأمير للحصار حتى خرج من مستغانم وتوجه إلى أرزيو فاحتلها وترك حامية في حصنها ثم عاد إلى وهران وفي طريقه أغار على قبيلتي الدوائر والزمالة فأسر عدداً من رجالهم ونسائهم، وعندما طلبوا رد أبنائهم الأسرى

اشترط عليهم الانتقال إلى ضاحية وهران والإقامة بها وقبول الخضوع للسلطة الفرنسية، وفي نيته استعمالهم كوسيلة تضمن موارد التموين لجيشه بالحبوب والمواشي فقبلوا وانتقلوا إلى حيث أراد العدو، وعلم الأمير بذلك، فأرسل وفداً حاور رؤساء القبيلتين وبيّن لهم أن رضوخهم لإرادة العدو خروج عن الإسلام فتراجعوا، وعادوا إلى منازلهم الأولى وأفسد بذلك خطة القائد الفرنسي الذي فشل في فك عزلته.

واتبع الأمير خطة تتمثل في إرسال كوكبات من الفرسان خفيفة تغير على القبائل التي تتعامل تجارياً مع العدو وتعاقبها وتفرض عليها تطبيق أوامره بصرامة بعدم التعامل مع جيش العدو، وتغير على حاميات العدو بعد أن ترصد خروج جنودها خارج الأسوار فتعمل فيهم قتلاً وأسراً وغنيمة، فاشتد الحصار على العدو الذي صار يأتي بتموينه عن طريق البحر من خارج منطقة وهران[١].

وأمر الأمير القبائل بعدم التعامل مع الفرنسيين وعدم بيعهم أي شيء، وكانوا يعتمدون في تموينهم على حبوب ومواشي هذه القبائل. وأحس الجنرال دي ميشيل بالخطر الذي يتهدد قواته التي صارت محاصرة بلا غذاء، ونظراً لعدم استطاعة قواته الخروج من وهران ومحاربة الأمير فقد قرر فتح مفاوضات معه، وأرسل للأمير عدة رسائل تجاهلها في بداية الأمر ظناً منه بأنها مجرد حيلة القصد منها تهدئة المعارك ريثما تصله إمدادات جديدة، لكن عندما اقتنع الأمير بجدية الطرف الفرنسي في البحث عن التوصل إلى اتفاق رد على الجنرال بعد أن استشار مجلس شورته، وأرسل وفداً من وزير خارجيته الميلود بن عراش والآغا خليفة بن محمود وتقابل الوفدان خارج مدينة وهران في ٢٥ رمضان سنة ١٢٤٩هـ الموافق ٤ /٢ /١٨٣٤م وبعد مفاوضات طويلة برهن فيها الوفد المفاوض الجزائري مقدرة التفاوض، اتفق الطرفان على صيغة الاتفاق وتحرك الوفد الجزائري نحو معسكر تعرض مسودة الاتفاق على الأمير[٢].

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٤.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٥.

ولقد بقي الأمير بعيداً عن أهله وعائلته طيلة اربعة عشر شهراً متصلة في تلك الفترة من حياته حيث نظم قصيدته المشهورة التي جاء فيها:

تسألني أم البنين وإنها
لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني
أجلي هموم القوم في يوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت لا متهيباً
وأحمي نساء الحي في يوم تهوال
يثقن النساء بي حيثما كنت حاضراً
ولا تثقن في زوجها ذات خلخال
أمير إذا ما كان جيشي مقبلاً
وموقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخيل إني لأول
وإن جال أصحابي فإني لها تال
أدافع عنهم ما يخافون من ردى

فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي
وأورد رايات الطعان صحيحة
وأصدرها بالرمي تمثال غربالي
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي
وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي

وبي تتقي يوم الطعان فوارس
تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحما
أقول لها صبراً كصبري وإجمالي
وأبذل في الروع نفساً كريمة
على أنها في السلم أغلى من الغالي
وعني سلي جيش الفرنسيين تعلمي
بأن مناياهم بسيفي وعسالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه
على ضامر الجنبين معتدل عال
سلي البيد عني والمفاوز والربا
وسهلاً وحزناً كم طويت بترحالي
فما همتي إلا مقارعة العدا
وهزمي أبطالاً شداد بأبطالي
فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي
أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي[١]

٥. معاهدة ديمشال:

توالت الضربات المتتالية على الحاميات الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، فاستنكر عدد من البرلمانيين الفرنسيين الاحتلال المنظم للجزائر بسبب الثمن المالي والبشري الباهظ الذي دفعه الشعب الفرنسي، ولما طرحت الميزانية المخصصة

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٢٠٤.

لمواصلة الحرب في الجزائر أمام البرلمان الفرنسي للمناقشة تم إقرار تكوين لجنة من طرف الملك لويس فيليب في ٧ جويلية ١٨٣٣م عرفت فيما بعد باللجنة الأفريقية مهمتها تقصي الأوضاع وجمع المعلومات والحقائق وتقديم اقتراحات وجاءت اللجنة إلى الجزائر ومكثت مدة ثلاثة أشهر، من ٢ سبتمبر ١٨٣٣م إلى ٩ نوفمبر ١٨٣٣م، خلصت إلى نتيجة مفادها ضرورة احتفاظ فرنسا بالنقاط الرئيسية التي تم احتلالها وهي مدن الجزائر ووهران وبجاية وعنابة والجهات المحاذية لها فقط، باعتبارها ممتلكات فرنسية بأفريقيا دون الدخول في عمق التراب الجزائري، وذلك لإنقاذ الشرف القومي الفرنسي، كما عللوا ذلك، فوافق البرلمان على هذه المقترحات، غير أن الجنرال فوارول لم يكن ينتظر نتائج اللجنة وراح يأمر الجنرال تريزل للهجوم على ميناء مدينة بجاية ويحتله في ٦ أكتوبر من نفس العام وخلال تلك الفترة استطاع الأمير عبد القادر أن يضرب حصاراً اقتصادياً على المدن المحتلة بعدما أصدر قراراً بمنع المبادلات التجارية مع المحتلين وأصبحت الحاميات الفرنسية في مأزق خطيراً أمام هذا الحصار لأنها كانت تعتمد على القبائل الجزائرية في تموينها بضرورات الحياة وأمام هذا الوضع راح الجنرال ديمشال يستغل كل حادثة ليكتب إلى الأمير رسائل من أجل فتح مفاوضات لعقد اتفاق سلمي معه، منها الطلب الخاص بإطلاق سراح الجنود الفرنسيين الذين اعتقلوا بعد أن هاجمتهم قوات المجاهدين وقتلت منهم وطلب من الأمير يرجوه فيه العفو عن الأسرى المنكودو الحظ ويذكره بأنه شخصياً قد سبق له أن أطلق سراح أسرى من العرب من دون شرط عندما سقطوا أسرى في يده بعدما هجم عليهم في ٨ ماي ١٨٣٣م وكان نص رسالته كالتالي: إنني لا أتردد في أن أكون البادئ في إتخاذ هذه الخطوة إن وضعي كما هو، لا يسمح لي أن أفعل ذلك، ولكن شعوري الإنساني يحملني على الكتابة إليك، لذلك فإنني أطلب حرية أولئك الفرنسيين الذين سقطوا في كمين بينما كانوا يحمون عربياً. إنني لا أتوقع أن تجعل إطلاق سراحهم مرهوناً بشروط معينة، مادمت أنا قد أطلقت في الحال سراح بعض

أفراد قبائل الزمالة وقبائل الغرابة عندما سقطوا في يدي نتيجة الحرب، ومن دون شروط، بل قد عاملتهم أحسن معاملة، فإذا كنت تود أن تكون رجلاً عظيماً فإني أرجو أن لا تتأخر في الكرم وأن تطلق سراح أولئك الفرنسيين الذين هم الآن رهن يدك[١].

وقد رد الأمير عبد القادر على رسالة الجنرال ديمشال بتحرير مختصر يُظهر دقّة أفكار الأمير وحسن سياسته، فقد جعل اللوم على فرنسا التي أرسلت قواتها وجيشها عبر البحار لمحاربة الجنرال[٢]، فأرسل الجنرال ثانية يطلب الأسرى، ولما لم يستجيب له الأمير أيضاً أرسل للمرة الثالثة كتاب تهديد، فأجابه الأمير برسالة يقول فيها: أنتم لا تُقدِّرون قوة الإسلام، مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على هذه القوة، وانتصارات الإسلام معروفة لديكم ونحن وإن كنا ضعفاء كما تزعمون، فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو والحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، غير أن الشهادة في سبيل الله هي ما نصبو إليه، ودويّ القنابل وأزيز الرصاص وصهيل الخيول هي أطرب إلينا من صوت الغواني، فإن كنتم جادّين في الوصول لاتفاقية وعقد صلات وديّة بيننا وبينكم فأفيدونا لنرسل لكم رجلين من كبار قومنا للمفاوضة حيث أننا لاحظنا من رسائلكم المتعددة رغبتكم في الجنوح إلى السلم[٣].
وكان في نيّة الأمير من هذه الخطوة مناورة سياسية يحقق بها هدفه للاستعداد والبناء وليس معاهدة ترمي إلى الصلح الدائم.
وفور تسلم الجنرال ديمشال رسالة الأمير أوفد مردخاي موسوي لتسليمه رسالة جديدة عدّل فيها من لهجته يقول فيها: إلى سمو الأمير عبد القادر أيها الأمير لم يكن بعيداً أبداً عن فعل أي أمر حسن، فإن كان سموكم يقبل أن يتفاوض في أمر معاهدة بيننا، نوقف

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٧٥.
[٢] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥٦.
[٣] المصدر نفسه، ص: ٥٦.

بما سفك دم أمتين اقتضت الإرادة الإلهية ألا تكونا تحت سلطة واحدة، سيكون لي أمل كبير في الحصول على نجاح اتفاقية المفاوضة بيننا[١].

وكان تاريخ رسالة الجنرال هذه في كانون الأول من عام ١٨٣٣م، وعندما تسلّم الأمير هذه الرسالة وقرأها أيقن أن عدوه وقف موقف المستغيث، فعقد اجتماعاً حضره جميع أفراد مجلس الشورى والأعيان وأطلعهم على مضمون رسالة الجنرال دو ميشيل، وبعد تدارس الموضوع الذي كان يحتاج لأكثر من اجتماع قرروا بالإجماع تأجيل الردّ على الرسالة بشكل رسمي، واكتفوا بإبلاغ الرسول رأيهم هذا: أي تأجيل الردّ على الرسالة.

وصلت الرسالة الشفوية إلى الجنرال، ثم أخذت رسائل الجنرال تتوالى في طلب الهدنة وفي الرابع من فبراير ـ شباط عام ١٨٣٤م أرسل الأمير وزير خارجيته الميلود بن عراش والآغا خليفة بن محمود للتداول في أمر الهدنة مع الجنرال ديمشال وكانت المقابلة بين القادة الفرنسيين ومندوبي الأمير خارج مدينة وهران على بعد فرسخين منها، وجرت المباحثات بشكل ودّي.

وقد كان في ذهن مندوبي الأمير صورة كاملة لما يجب القبول به وما لا يجب الاتفاق عليه، لذلك جاء صك الاتفاقية وفق إرادة الشعب الجزائري ومصالحه في تلك الفترة من التاريخ، وفي يوم السابع عشر من شهر شوال عام ١٢٤٦هـ الموافق السادس والعشرين من شهر فبراير ـ شباط عام ١٨٣٤م وقَّع الاتفاقية الجنرال ديمشال وبعد ذلك عرض ابن عراش الإتفاقية المذكورة على الأمير فوقعّها بدوره وقال المؤرخ الفرنسي لويس دونلوت: إن الميلود بن عرش وزير السلطان عبد القادر ومعتمده الخاص في عقد المعاهدة، استُقبل استقبالاً رسمياً فيه كل معاني الاحترام، وكان أمراء الجيش الفرنسي مصطفين كلّ على حسب رتبته العسكرية يستمعون لما جاء في صك الاتفاقية وبعد تلاوتها وقعّها الجنرال ديمشال[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٥٧.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٨.

كانت بالأمير حاجة ماسّة جداً إلى الهدنة لتقوية الجبهة الداخلية، وتنظيم جيشه الفتيّ واعتبر هذه الهدنة مناورة عسكرية يتفرغ فيها لبناء الدولة الإسلامية وتقوية الوحدة الوطنية، ذلك أن عصيان بعض القبائل ووقوف البعض الآخر مع الفرنسيين أربك قواته وأرهق قدراته على الاستمرار في الكفاح ضد المستعمر الغاصب ومن جهة ثانية تمكن بهذه الهدنة من التركيز على جبهة واحدة مهمة، لأن الحرب على عدة جبهات كانت خطيرة وقاسية لذلك لابد من تحييد إحداها.

ولم ترتح الحكومة الفرنسية لهذه الاتفاقية، على الرغم من توقيع الملك عليها، وكانت ترى فيها مكاسب كبيرة للعرب، ومع الأيام أخذت تفكر بشكل جدّي في نقضها.

قال المؤرخ الفرنسي لويس دونلوت: إن دولة فرنسا قد حاولت أن تنقض هذه الاتفاقية، واستعملت الكثير من المكائد، لكن ذكاء الأمير هذا الشاب الحديث السنّ ودهاءه السياسي عرقلا مساعيها وأطالا مدة الهدنة[1].

. نص معاهدة ديمشال:

تمكن الأمير عبد القادر في المرحلة الأولى من مواجهة الجيش الفرنسي وإجباره على التمسك والاكتفاء بالبقاء في مدن مستغانم، أرزو، ووهران، واضطر الجنرال الفرنسي ديمشال أن يبرم معاهدة مع الأمير عبد القادر في سنة ١٨٣٣م والتزم فيها الطرفان بما يلي:

. يعين الأمير وكلاء له في مدن مستغانم ووهران، أرزو، كما تعيِّن فرنسا وكيلاً لها في معسكر.

. احترام الديانة الإسلامية.

. التزام الفريقان برد الأسرى.

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٨.

. إعطاء الحرية الكاملة للتجارة.

. التزام كل طرف بإرجاع كل من يفر إلى الطرف الآخر.

. لا يسمح لأي أوروبي أن يسافر داخل البلاد إلا إذا كان يحمل رخصة من وكلاء الأمير وموافقة الجنرال الفرنسي[١].

كانت شروط الجنرال مكتوبة بالفرنسية وموقعة من الأمير وشروط الأمير مكتوبة بالعربية وموقعة من الجنرال، وهذا يؤكد أهمية اللغة في تجسيد السيادة الوطنية في دولة الأمير عبد القادر.

وبعد تبادل الوثائق جرى حديث طريف بين الجنرال والوزير الميلود نورده في شكل حوار:

.كنت عازماً قبل عقد المعاهدة أن أطلب من دولتي عشرة الآف جندي زيادة على ما عندي، وأخرج من هذه المدينة وأتابع محاربتكم مدة شهر، وما يدريك يا ميلود أن حملة كهذه من شأنها أن تلحق الضعف بسلطانكم؟

. يا سيادة الجنرال إننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب، ولكن محاربة هجوم وإقدام ولو فعلت ما قلت وخرجت بهذه القوة كنا نتقهقر أمامكم متوغلين في الصحراء بأهلنا وأثقالنا وفي حال هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا، ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء قلبنا الكرة عليكم وأحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم تعبت، فحينئذ ماذا كنت تصنع أيها الجنرال؟

وتملك الجنرال العجب من بلاغة هذا الجزائري الذي رد على صلفه وغروره في تواضع وإيجاز مبرزاً تكتيكاً عسكرياً لم يكن يخطر على بال.

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١١١.

وبعد المعاهدة عيّن الأمير سفراءه سماهم وكلاء في مدن الجزائر ووهران وأرزيو متجنباً إعطاءهم لقب سفراء حتى لا يعترف بملكية هذه المدن لفرنسا، ويوحي بأنها جزائرية وأن ممثليه فيها مجرد وكلاء له يقيمون في أرض جزائرية وهذا يبرهن على رقي دبلوماسية دولة الأمير، وعيّن الفرنسيون سفيراً لهم في معسكر الكومندان عبد الله ويسون وهو من مماليك مصر الذي انخرط في صفوف الجيش الفرنسي.

اعتبرت المعاهدة نصراً للأمير، فقد إعترفت رسمياً باستقلال الأمير الذي فاوض الجنرال الفرنسي عن طريق مندوب عنه وفوضه بالتوقيع عليها، واحتفظ لنفسه بالمصادقة عليها مثله مثل ملك فرنسا، وكتأكيد على سيادة دولة الأمير فقد نصت المعاهدة على تبادل التمثيل القنصلي وتبادل المجرمين بين الطرفين، وناقش وزير الدفاع الفرنسي الشروط التي فرضها الأمير في هذه الاتفاقية، لكنه وافق عليها في النهاية بهدف كسب الوقت ريثما تعد العدة للسيطرة الكاملة على سائر البلاد الجزائرية، وصادق الملك على المعاهدة من ضمن الشروط التي فرضها الأمير على المفاوض الفرنسي احتكاره لتجارة الحبوب، وألا تشتري فرنسا الحبوب الجزائرية إلا عن طريقه وضمن هذا الشرط في ملحق خاص بالمعاهدة، وبالرغم من أن الطرف الفرنسي وقع على هذا الملحق، إلا أن فرنسا تراجعت فيما يتعلق بهذا الشرط بدعوى أن الملحق كتب بالعربية[١] والحقيقة إنه لم يكن ملحقاً، إنما كان بنداً داخلاً في صلب المعاهدة، كشروط الأمير[٢].

٦. اعتراف سلطان مراكش وبسط الأمير لنفوذه:

في العاشر من شهر تموز عام ١٨٣٤م وصل وفد السلطان عبد الرحمن بن هشام أمير المغرب الأقصى لتهنئة الأمير عبد القادر بالانتصارات الباهرة، حاملاً إليه الهدايا الثمينة

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٧.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٧.

مع كميات وافرة من الأسلحة والذخائر وعدد من الجنود الفرنسيين الذين فروا إلى المغرب الأقصى وألقي القبض عليهم هناك وقد أرسلهم السلطان إلى الأمير عبد القادر ليرى رأيه فيهم، فسلمهم الأمير إلى السلطات الفرنسية حسب مضمون المعاهدة ونصوصها[١].

وبعد المعاهدة شرع الأمير عبد القادر يطبق خطته التوحيدية، فقام على الفور بمهاجمة القبائل الرافضة لمبايعته قرب تلمسان وأخضعها وذلك يوم ١٢/ ٧/ ١٨٣٤م، وكان لهذا الانتصار أكبر الأثر في بسط نفوذه على غرب البلاد باستثناء مدينتي وهران ومستغانم وقلعة تلمسان.

بعد أن دان الغرب للأمير توجه إلى ناحية مدينة الجزائر وحاول إخضاع القبائل هناك، لكن ديمشال أبلغه أن هذا العمل سيسيئ إلى علاقاته مع فرنسا، وطلب منه عدم الاقتراب من مدينة الجزائر وشجعه على السيطرة على قسنطينة والأقاليم الداخلية وظل الوجود الفرنسي مقتصراً على مدن الجزائر ووهران وبجاية وعنابة.

وانطلق الأمير في توحيد القُطر تحت سلطته والحد من توغل الفرنسيين داخل البلاد، فقام بضم تيطري إلى دولته بالرغم من احتجاج ديمشال وانتهز فرصة قيام أتباع الطريقة الدرقاوية بثورة دينية فهاجم مليانة ومدية واحتلهما، وتمكن بذلك من الإقتراب من مدينة الجزائر شعر الفرنسيون بأن الأمير يبسط نفوذاً من شأنه أن يجمع الشعب كله تحت دولته، فبدأوا يحيكون المؤامرات ضده فدفعوا بعض القبائل القريبة من مدينة وهران أن تتمرد عليه ولكن الأمير هزمهم وطلبوا منه الأمان واستجاب لهم.

وعاد الأمير إلى مدينة معسكر بعد أن أعاد القبائل المتمردة إلى سلطته في مساحة واسعة من الوطن. وتوجه إلى مدينة تلمسان فدخلها واستقبله سكانها استقبالاً حافلاً وأقام فيها زمناً قام بإصلاح أمورها وعلم وهو في تلمسان أن بعض عشائر الدوائر والزمالة تحركت نحو وهران للاحتماء بالمحتل، فسارع إليها ورد بعضها، ونزل بوادي الكحيل فحضر له

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٩.

رؤساء عشائر الدوائر فأمرهم أن يتركوا المنطقة وينتقلوا إلى ناحية معسكرهم وعيّن لهم محلة العرقوب ليقيموا فيها منازلهم.

قام الأمير بحثِّ الناس على العمل المجدي من زرع ورعي وتجارة، تحسيناً لأحوال الرعية، وسرعان ما عم الأمن واختفى الشقاق بين القبائل بسبب قيام خلفاء الأمير بحل النزاعات وفقاً لشريعة الله، وتمكن هذا الأمير الشاب خلال عشرين شهراً من تاريخ بيعته من بسط سلطته على مناطق واسعة بواسطة الترغيب والترهيب مع رجحان كفة الترغيب، وكان المواطنون يستجيبون للأمير طواعية اقتناعاً منهم بأن حكمه مبني على أحكام الشريعة الإسلامية، ولم تشذ سوى عشائر الدوائر والزمالة لتعودها منذ عشرات السنين على العيش على استغلال الشعب واكتساب المال من الناس بدون حق، مستغلين التفويض الذي منحه لهم الحاكم في عهد الأتراك[١].

وقد تمكن الأمير بفرض شرط في معاهدة دي ميشيل تبين عن فهمه لأمور الاقتصاد. وينص هذا الشرط على أن العمليات التجارية التي يقوم بها الفرنسيون لشراء المواد التموينية لابد وأن تتم في ميناء أرزيو تحت نظر ومراقبة موظفي إمارته وأن كل البضائع التي تأتي من الداخل تدخل هذا الميناء ومنه تصدر لفرنسا وأوروبا، وترسل منها المواد التموينية إلى مدينتي وهران ومستغانم اللتين يحتلهما الفرنسيون بالقدر الذي يكفي أهلها.

كان موظفو الإمارة يشترون البضائع من الناس ويقومون بشحنها إلى أوروبا، وسخط التجار الفرنسيون على هذه المعاملات التجارية التي جمدت سائر نشاطهم، وغضبوا على الجنرال دي ميشيل الذي قبل هذا الشرط التجاري المدمر لهم وشكوا للجنرال الذي أجرى اتصالاً مع الأمير الذي أمر بتخفيف هذه الإجراءات التجارية، علم الأمير أن

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٠.

سكان وهران ومستغانم المحتلتين يعودون لمنازلهم، فأمر الأمير وكلاءه بمنعهم من العودة حتى لا يستغلوا من المحتل، وحتى يبقى هذا معزولاً عن الأهالي[1].

٧. استبدال الجنرال ديمشال:

استبدلت الحكومة الفرنسية الجنرال ديمشال الذي فشل في نظرهم، وذلك بإعطائه للأمير قوة بالمعاهدة التي وقعها معه وعيّن بديلاً له كحاكم لوهران الجنرال تريزل، كما عيّن الكونت دوروان دورلون والياً على الجزائر، مع تكليفه بالمحافظة على المعاهدة لكن الجنرال ما إن وصل وهران حتى راح يبيت الدسائس ضد المعاهدة التي لم يكن يؤمن بها.

واتفق أن توافق وصول تريزل وهران مع اتصال سكان تيطري بالأمير وإرسالهم بيعتهم له، وفكر الأمير في ذلك ملياً، ثم قرر عدم اتخاذ قرار فيها إلا بعد الاتصال بالوالي الفرنسي، فأرسل وزير خارجيته الميلود بن عراش رسالة إلى الكونت يهنئه فيها بتوليه الولاية ورد فيها: إن معتمدي ابن عراش وجهته إلى حضرتكم ليبلغكم التهنئة والتبريك من قبلي على الجزائر، وقيامي بالمحافظة على أمور المعاهدة وأوعزت إليه أن يفاوضكم في أمور تعين على إجراؤها، لتوطيد الراحة في جميع المقاطعات الداخلية في السهول والجبال والمناطق التي على ساحل الجزائر وجوارها ووهران والمدية، وخشيت أن يكون ذلك سبباً مكدراً لما بيننا من المصافاة.

وقد أوحى الأمير برسالته أن يده ينبغي أن تكون طليقة في جميع الأقاليم ماعدا المدن الأربع التي بيد الفرنسيين، وكان يريد أن يرتكز على جواب الكونت لتبرير ضم التيطري إلى إمارته.

وبعد أن أكرم وفادة مبعوث الأمير رد الكونت بالرسالة التالية: وصلني كتابكم وبلغني معتمدكم ما تعلقت به إرادتكم في الجهة الشرقية، وحيث إن جعل مقاصد سموكم توطيد

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩١.

الراحة العامة كما هو المطلوب والمرغوب فيه عند دولة فرنسا ورجالها وإني آمل نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة البلاد، ولك أن تعتقد بأنك لا تقوم في كل أرض تقصد الاستيلاء عليها، بشرط أن تكون لك قوة على أخذها[1]. وكان الكونت يضع بين عينيه وصية حكومته: بأن لا يغضب الأمير عبد القادر، وأن يعمل على كل ما من شأنه تجنب طلب قوات عسكرية من باريس، وشعر الأمير بأن يديه طليقتان فقرر التوجه إلى تيطري، وعندما تأهب للسفر كتب إلى حاكم الجزائر يخبره بذلك فكان جواب الكونت ما يلي: فهمت ما تضمنه تحرير سموكم والذي أرى أن هذا العزم خال من الصواب، ليكن في علمكم أن الجنرال ديمشال لم تكن له سلطة ولا حكم إلا على إيالة وهران، ولذلك لم يتعرض لما يتعلق بباقي الولايات، ومهما توسعت دائرة التأويل فيما جرى في معاهدة الثامن والعشرين من فبراير، فلا يكون لكم طلب إلا على إيالة وهران، وبناء على ذلك فلا نسمح لكم أن تدخلوا إيالة تيطري، ولا أن تتجاوزوا وادي الشلف شرقاً ونهر أرهيو إلى كوجيلة، وعلى العموم فلكم أن تحكموا في البلاد التي هي لكم الآن بحسب شريعة الإسلام، وبذلك نكون أصدقاء ولا أقدر أن أرضخ لعساكركم أن يدخلوا ولاية تيطري، لأن كل ما يجري هناك يخصني وإني مستمر مع ساكني الأقاليم على السلم، ومرتكز على تعيين مراكز فرنسية في البليدة وبوفاريك متى رأيت ذلك مناسباً، ورد الأمير على مراسلة الكونت برسالة قال فيها: لقد وصلني تحريركم وتعجبت مما ذكرتموه فيه. إن مرمى أفكار حضرتكم بعيد عن الإصابة، لأن محافظتي على السلم لا يجهلها أحد، ولولا ذلك ما احتجت إلى مذاكرتكم فيما أجريه في وطني وقصارى الأمر أنه لا يبعد أن يكون بغض أهل الفساد القى في ذهن حضرتكم من أوجب أن يكون جوابكم على هذا الأسلوب وعلى كل حال فإني عدلت الآن عن النهوض إلى تيطري، إبقاء للسلم ورعاية له[2].

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٣.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٤.

٨. محاربة الأمير للشعوذة والدجل:

كانت الوفود تتسابق مقدمة الطاعة للأمير عبد القادر مثل رئيس قبيلة أنكاد حليف الدوائر، وابن عربي رئيس قبيلة أولاد خويدم وغيرهما.

وقف الأمير متأملاً في رسالة الكونت ولم يتابع السير ورأى التريث وعدم الذهاب إلى تيطري، إذ كان لا يريد أن يأتي حصاد مكاسب المعاهدة قبل الأوان وهو لم يستكمل بعد بناء الدولة والجيش ولا يزال أمامه الكثير من المصاعب لتحقيق الوحدة الوطنية داخل البلاد، فجمع المجلس العسكري لدراسة الأمر وفي هذه الأثناء كان سكان إيالة تيطري يقيمون الزينات ويستعدون لاستقبال أمير البلاد ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين، وعندما طال انتظارهم له، ظهر بينهم رجل اسمه الحاج موسى بن حسن ويُعرف بأبي حمارة، جاء هذا الرجل منذ زمن من مصر، فاستوطن بلاد أولاد نائل وأظهر النسك والصلاح وعندما تأخر الأمير في دخول إيالة تيطري جمع أبو حمارة حوله بعض المريدين وخطب في الناس طالباً منهم الطاعة له فقاوموه وأطلقوا عليه وعلى جماعته النار من مدفع كان في حوزتهم من أيام الحكومة العثمانية، فانفجر هذا المدفع فأوهمهم هذا الرجل أن تلك معجزة من معجزاته وكرامة له، فحدث شغب كبير وبلبلة وسادت الاضطرابات إيالة تيطري ووصلت أخبار تلك الاضطرابات إلى القوات الفرنسية[١].

وانتظر الأمير عبد القادر ماذا يفعل الفرنسيون مع أبي حمارة وعندما تأكد أنهم صمتوا عن ذلك قرر التحرك نحو تيطري وبخاصة بعد علمه أن عشائر الدوائر والزمالة بدأت تتحرك ضده متشجعة بحركة أبي حمار وأوعز لأخيه الكبير محمد سعيد أن يراقب الفرنسيين من ناحية مستغانم وأرزيو، وإلى البوحمدي وإلى تلمسان أن ينحدر بجيشه نواحي وهران ليشغل حاكمها وتوجه هو إلى تيطري بعد أن وافق المجلس العسكري

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٤.

بالإجماع. ولما علم أبو حمارة جمع جموعه وخطب الناس وواعدهم بالنصر، وقال لهم: آية نصرنا ستكون أن مدفع ابن محيي الدين لن يعمل فينا، وأن باروده عند المواجهة سيصير ماء. ثم كتب إلى الأمير يدعوه إلى الجهاد.

وقرر الأمير مواجهة أبي حمارة واتخذ هذه المواجهة عملاً تربوياً للقضاء على الخزعبلات التي تشوه الإسلام والبدع والتقى الجمعان في بلاد وامري وكان قد شاع بين الجنود تخوفهم من كرامة الدجال المزعومة فألقى الأمير فيهم الخطاب التالي الذي برهن فيه عن سخطه على الخزعبلات والدجل والبدع وحرصه على تحرير أبناء بلاده من ظلمات الجهل ليدخل بهم بوابة الحضارة والعصور النيّرة، فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه، أما بعد فاعلموا أن الحق تعالى قلدني هذا الأمر للمدافعة والذب عن الدين والوطن وقد بلغكم خبر هذا الرجل فإن تركته وشأنه أخاف على الوطن أن تغتاله غوائل الفرنسيين على حين غفلة، وينشأ عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا إصلاحه، هذا وإني أختبر أمره الذي كاد أن يوقع في قلوبكم ما يؤول بكم إلى تشتيت الشمل وتبديد الجمع، وذلك إني أطلق عليه مدافعي فإن كان الأمر كما زعم، فأنا أول مطيع له بعد اختبار أحواله من جهة الشرع وإن كان الأمر يخالف زعمه فهو دجال من دجالي هذا الوقت[1]، ثم أمر بالزحف وإطلاق المدافع على أبي حماره، فلما نزلت القذائف على جموعه انهزموا بعد أن تصوروا أن كرامة قائدهم ستجمد القذائف في مدفعها، وتفرقوا في الجبال والأودية، وفر الدجال تاركاً نساءه وأولاده وسائر سلاحه وعتاده في مخيمه، وانطلق جنود الأمير يطاردون فلول الضالين، وشعر الأمير بانخداع القبائل التي تحارب مع الدجال، وفتح لرؤوسائها المجال للاتصال به عندما علم برغبتهم فتقدموا منه وطلبوا منه العفو، وبينوا له أنهم كانوا واقعين تحت سحر كراماته المزعومة، فعفا عنهم، وجاء الطلب من أبي حماره برد نسائه وأولاده له، فاستجاب الأمير لطلبه، ثم

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٩٥.

توجه الأمير إلى المدية فدخلها وجاءته الوفود من سائر أنحاء الولاية فبايعته، وبعد أن قام بإصلاح شؤونهم عيّن خليفة على الولاية وهو السيد محمد البركاني.

وشاع خبر هذا النصر العظيم وحاول الجنرال تريزل أن يتخذ من سيطرة الأمير على ولاية تيطري نقضاً للمعاهدة وطالب بشن حرب على الأمير، لكن الحاكم العام رفض مقترحه قائلاً: لست مأموراً من الدولة بنقض المعاهدة وغير مستعد الآن لفتح باب الحرب ويجب علينا أن نتعامل مع الأمير بالحكمة، ونسعى معه لتجديد المعاهدة مادام في المدينة التي استولى عليها وعلى إيالتها ونتغاضى عما فعله ونتجنب الصدام به، فوافق أعضاء قيادته على ذلك[1].

٩. الحكومة الفرنسية تسعى لتعديل بنود المعاهدة:

في الرابع من يوليو عام ١٨٣٦م وصل وفد من الحكومة الفرنسية برئاسة سنت أيبوليت وبندران يحملان هدايا فاخرة إلى جانب صورة عن تعديل بنود في معاهدة دي ميشيل حررها مستشارون سياسيون وعسكريون ونص هذه الشروط:

. يعترف الأمير برئاسة ملك فرنسا على أفريقيا.

. تكون سلطة الأمير عبد القادر محصورة في إيالة وهران المحدودة بنهر الشلف ونهر أرهيو إلى كوجيلة.

. تعطى الرخصة العامة للإفراج للسفر في سائر جهات البلاد.

. إعطاء الحرية التامة للتجارة الداخلية.

. لا يصير تسليم ولا استلام شيء من الغلال والبضائع إلا في الأساكل التي بيد الفرنسيين.

. يدفع الأمير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن للأمن على ذلك.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٩٦.

ومعنى هذه الشروط تجريد الأمير من أي نوع من أنواع السيادة وجعله مجرد موظف في الإدارة الفرنسية[1].

استقبل الأمير الوفد ثم أمر بإكرام قادتهم بتقديم واجب الضيافة، وتركهم للاستراحة وطلب اجتماع المجلس الاستشاري المكون من اثني عشر رجلاً بما فيهم الأمير، وبعد جلوسهم قرأ عليهم رسالة التعديل، فكان رأي كل منهم مطابق للآخر، وهو أن الجنرال تريزيل لم يعد أمامه سوى خيار واحد وهو الخضوع لسلطة الدولة الجزائرية في كل ما يتعلق بداخل البلاد، وأن الأمير يستطيع فعل ما يشاء لذلك يريد الآن تعديل المعاهدة بشكل تصبح فيه لاغية، وقال الأمير عبد القادر مخاطباً أعضاء المجلس: نحن الآن في مكانة ممتازة بفضل جهادنا، أما طلب اعترافنا بسيادة فرنسا في البند الأول فهذا أمر مستحيل[2]. ثم جلس وراء مكتبه الخشبي وأمسك بريشته وكتب بخط يده جواباً على المقترحات واحتجاجه بشدة على تعديل بنود المعاهدة وأنه يراه خرقاً صارخاً لمعاهدة ديمشال وكتب: لقد أعطينا أمراً لوكيلنا ميلود بن عراش ليؤكد لكم عن أفضل الطرق لإقامة الهدوء بيننا وبينكم ونطلب:

. أولاً: الاستمرار بالوضع الراهن.

. ثانياً: رفضنا طلبكم باعتبار ملك فرنسا ملكاً على أفريقيا.

. ثالثاً: إن البند الأول في المعاهدة ينص على التوقف على الحرب بيننا وبينكم فقط، ولا ينص على الاعتراف بسلطة فرنسا.

وختم الرسالة ولم يسلمها إلى الوفد إلا بعد أن اصطحبه برحلة استعراضية إلى إقليم تيطري ووهران، وظهر الضابط سانت هيوليت، وعند دخول موكب الأمير إيالة تيطري كانت أشعة الشمس في طريقها إلى المغيب وراء الأفق، ولكنها أضفت على هذا الموكب الكثير من المهابة وأخذت زغاريد النساء تسمع من بعيد، وطلقات البنادق تختلط

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٧.

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٦.

بأصوات الرجال "الله أكبر" تعلن عن قدوم موكب أمير البلاد الرسمي، تتقدمه كوكبة من الفرسان حاملة راية الجهاد، ثم ظهر أمير البلاد ببرنسه الأبيض ممتطياً صهوة جواده الأسود وقد مرّ وسط الزحام الشديد وكان الناس يسأل بعضهم بعضاً: ما هذه القوة الإلهية والسياسية الحكيمة التي جعلت أميرنا يتخذ من أعدائه أتباعاً له، وليس ببعيد عنه يجعلهم يستسلمون له ويعتقدون أن أي مقاومة له تعتبر مجرد جنون.

عاد الوفد إلى مدينة الجزائر مبهوراً بقوة أمير البلاد وشعبيته التي تفوق الوصف، وسلموا الرسالة الجوابية إلى الكونت وبعد قراءتها كتب فوراً رسالة جوابية قال فيها: بعد التحية والتعظيم، قد وصلني من سموكم بيد رسولي السنت أيبوليت ومن الأفضل إجراء مباحثات معكم شخصياً عن قرب ويمكن أن يكون في مدينة وهران، لقد أراد الحاكم بعد هذه الرسالة الاجتماع بالأمير في مقره ولكن تريزيل أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة لأنها خطوة تفسر بضعف الدولة الفرنسية، عدا عن التزلف للأمير عبد القادر وهذا فعل في غير مصلحة فرنسا، فاقتنع الكونت وترك الأمر للجنرال تريزيل[١].

١٠. حاكم وهران تريزيل ينقض معاهدة ديمشال:

وما إن غادر الكونت وهران حتى راح تريزيل يطبق خطة تآمرية مستفزة للأمير عبد القادر، وفكر فوجد في عشائر الدوائر والزمالة ضالته فأخذ يغريهم بالأموال والحماية، فأذعنوا والتحقوا بالسلطة الفرنسية، وكتبوا وثيقة استسلموا فيها إلى القوات الفرنسية، وأصبحوا بموجبها رعايا فرنسيين، وبعد توقيع الاتفاق عيّن الجنرال تريزيل مصطفى بن

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٨.

إسماعيل قائداً عليهم ومحمد المرازي نائباً له، وجندهم جميعاً وسلحهم بأحدث الأسلحة ووهبهم الرتب العالية والميزات المغرية ودخل على الأمير في أحد الأيام أربعة رجال من مخابرات دولته وأعلموه بأمر تلك القبائل وذلك الاتفاق الخطير، فأرسل على الفور كتاباً إلى مصطفى بن إسماعيل زعيم قبيلة الزمالة يذكره بالقسم الذي أقسمه على مبايعته عام ١٨٣٢م ويذكره أيضاً بأنه مسلم جزائري عربي، وقول الله تعالى :" الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا" (النساء، آية : ١٣٩).

وقوله تعالى:" وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (المائدة، آية : ٢).

ثم طلب منه الرجوع إلى منازل القبائل قرب تلمسان[١]، ولم يكتف الأمير بإرسال هذا الكتاب إلى الزعيم مصطفى بن إسماعيل والزعيم المرازي، وإنما بعث خطاباً إلى شيوخ تلك القبائل وعممه جاء فيه: أما بعد، فليكن في علمكم جميعاً أنه طالما قد نصحناكم ووعظناكم وبيّنا لكم ما يجب عليكم شرعاً أن تفعلوه أو تتركوه فلم تقبلوا ذلك ولم تلتفتوا إليه، والآن بلغ السيل الزبى، فلابد أن ترجعوا عن غيكم وتسلكوا جادة الإسلام التي مضى عليها آباؤكم، وتتركوا منازلكم التي أنتم فيها الآن وترجعوا إلى منازلكم الأولى بقرب تلمسان، وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم لما يحل بكم من الانتقام بحول الله وقوته[٢].

ورفض هؤلاء عرض الأمير فاتصلوا بالجنرال تريزيل طالبين الدعم المادي والعسكري والدعم الفرنسي وبعث بمطالبهم إلى الحاكم العام للموافقة على ما تم الاتفاق عليه بين القبائل المتمردة والجنرال تريزيل، وعبَّر الحاكم العام عن تحفظه للجنرال وأرسل مبعوثاً خاصاً للأمير يفاوضه حول هذه المسألة، لكن تريزيل أخبره غاضباً بأن يعتبره مستقيلاً من منصبه في حال إصراره على رفض التعهد بحماية القبائل المتمردة على دولة الأمير عبد

[١] المصدر نفسه، ص: ٧٨.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٩.

القادر، فاضطر الحاكم العام للموافقة على اقتراحه، وجاء رد الأمير حاسماً في رسالة أرسلها للحاكم العام جاء فيها: إن ما قام به حاكم وهران مخالف لنصوص معاهدة ديمشال، التي تنص على أن هروب رعية أحد الطرفين يرده للآخر. إن الحكومة الفرنسية ملزمة بأن ترد إليَّ كل مذنب هارب ولو كان رجلاً واحداً فكيف بالعشيرة والقبيلة وعلى هذا فإن قبائل الدوائر والزمالة من جملة رعيتي التي أحكم فيها بموجب شريعتي والآن أبلغك البلاغ الأخير إنك إن رفعت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التي وقع عليها الاتفاق قديماً، وإلا فإني لا أستطيع مخالفة شريعتي في التخلي عنهم حتى أنهم لو أدخلتهم إلى وهران لقلة دينهم فلابد أن ألاحقهم وأطالبهم بالرجوع عن خطئهم فإن كنت لابد مصرّاً على موقفكم فاطلب وكيلكم من عندي واختر لنفسك ما يحلو، وميادين المعامع تقضي بيننا، ومسؤولية إهراق الدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك والله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد[١].

كان للغة المادة والمكاسب الدنيوية والمراكز الفانية والمغريات التي قدمها الجنرال تريزيل لزعماء القبائل المتمردة أثرها، وجمع مصطفى بن إسماعيل الناس في إحدى الساحات وخطب فيهم قائلاً: إن الفرنسيين سيقدمون لنا كل ما اتفقنا عليه من الهبات والأموال والمواشي والحماية أيضاً والسلاح وإنني اعترفت خطياً برئاسة ملك فرنسا على البلاد ومحاربة كل من يقف في طريق ذلك[٢].

١١. إعلان الحرب:

دعا الأمير عبد القادر مجلس الشورى والمجلس العسكري لاجتماع طارئ فور التأكد من هذه الأخبار، وبعد مناقشة هذا الوضع المستجد، أقر الجميع الخروج إلى المساجد وكان يوم جمعة وبعد الصلاة اعتلى أمير البلاد المنبر، وخاطب الناس قائلاً: كلكم تعلمون أن الله قال :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ" (الأنفال، آية : ١٢٣).

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٩.

[٢] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٩.

إن هؤلاء المحتلين لا عهد لهم ولا ذمة عاهدناهم فنكثوا، وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا وهدموا هذا الصرح الإسلامي العريق من أساسه على حين غفلة، وها هم قد خدعوا قبائل الدوائر والزمالة من ضعيفي الإيمان والنفوس وفقدان الشعور بالكرامة.

أيها المسلمون قد قررنا العودة إلى المقاومة المسلحة فهلم جميعاً إلى الجهاد، ومن قتل منا قضى شهيداً، ومن بقي حياً نال العز وثواب الجهاد.

ثم رفع سيفه وهزه ثلاث مرات وقال: إن كل حفنة تراب من أرض الجزائر هي أرض محتلة، فصاح الرجال بصوت واحد: "الله أكبر" وصاحوا: إننا نعاهدك يا ناصر الدين على الشهادة أو النصر.

خرج نداء الحرب من المسجد مدوياً وعلا نشيد المقاومة يملأ الآفاق، وأسرع الكثير من الرجال لتسجيل أسمائهم في الديوان العسكري، وتقدموا شيوخاً وشباباً تمهيداً للإنضمام للجيش النظامي[1].

أ. معركة المقطع وانهزام الجنرال تريزيل:

في الأول من أيام سنة ١٨٣٦م سار الأمير على رأس جيش من ألفي فارس وألف من المشاة لملاقاة الجنرال تريزيل الذي بدوره خرج من وهران بفرقة من الخيّالة وخمسة الآف جندي وأربعة مدافع جبلية وعدد كبير من المركبات الاحتياطية، تتقدمهم مجموعات من الدوائر والزمالة، هذه المعلومات نقلت إليه عن طريق جهاز مخابرات دولة الأمير وأكدت له أيضاً أن قوات العدو وصلت إلى تلال مدينة وهران نظَّم الأمير قواته بأن جعل البوحميدي قائداً للمشاة في الميمنة وبو شقور قائداً للميسرة، وجعل مكانه هو في الوسط وخيّم السكون برهة من الزمن، ثم نودي الله أكبر، وملأت أصداء هذه الصيحة الروابي

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٨٠.

والأحراش وإذ بهدير مدافع الفرنسيين يصمّ الآذان، وبدأت معركة حامية الوطيس، كان الفرسان المجاهدون من مهرة الرماة، فحاصروا العدو من كل الجهات وتغلبوا عليه.

وأخذ الفرنسيون المنهزمون يتسارعون إلى داخل الأحراش من دون تنظيم تاركين وراءهم أسلحتهم ومعداتهم الحربية وقتل منهم عدد كبير وكما ذكر المؤرخون أمثال الدوق أرليون: كان من القتلى الكمندان أودينو بن المارشال دون دي تريجو، مما أثر سلبياً في معنويات الجنود الفرنسيين واحتل الأمير منطقة سيلة، وسيطرت قواته على جميع تلك النواحي، وقد قام القتال يومين متتالين دون توقف وقد أجهد العطش المجاهدين، إذ طال عليهم القتال، لكن الله أكرمهم بالنصر، واستمر العدو منهزماً إلى وهران عن طريق أرزيو، فخطط الأمير لملاقاته عند نهر هبرة المعروف بالمقطع، واختار عدداً من الفرسان الأشداء وبينهم عمه علي بو طالب، ففاجأوا الجنرال تريزيل مع من تبقى معه من قواته قرب النهر، فدبّ الذعر في القوات الفرنسية المنهزمة، وأخذ بعضهم يرمي نفسه في الماء لدى سماعهم صهيل خيول المجاهدين، وخاض الأمير ومن معه لججاً من الدماء تحت وابل من الرصاص، وأسرع عدد كبير من جنود العدو الغازي واستولى على سائر العجلات وما فيها من ذخائر، وهكذا استمر المجاهدون على الرغم من التعب الشديد من تمشيط المنطقة.

ولم يجد الجنرال تريزيل مسلكاً يسلكه هارباً منهم فاندفع مع من تبقى معه من القوات إلى ساحل البحر يرجو الخلاص، ولكن وعورة المنطقة والجهل بطبيعتها حالت بينه وبين الانسحاب المنظم، ودبّت الفوضى بين جنوده، وغرقت أكثر العجلات بمدافعها في تلك المخاضات الخطرة، واقتحم أكثرهم سبيل النهر تاركين وراءهم قتلى وجرحى كثيرين، وبدأ الليل يجيش بالعتمة وأخذ الظلام المرعب الممزوج بهدير المياه وأصوات الرصاص يملأ الفضاء الرحب، وفي سرعة الوميض، بعد قليل من الراحة، عادت للمجاهدين حماستهم للقضاء على فلول العدو المنهزم، وكان الأمير في المقدمة وتكللت جميع خططه بالنجاح،

وتمت هزيمة الجنرال الذي وصل مدينة وهران ليلاً بأسوأ حال متخفياً مع قليل من الجنود المجاهدين الذين استشهدوا في هذه المعركة "المقطع" الآغا قدور بن بحر، ومن أعيان الجيش العربي خليفة بن محمود الذي كان وكيلاً في مدينة أرزيو، والسيد محمد بن الجيلاني الورغي والسيد محمد المشرفي الذي كان أيضاً من قادة المجاهدين طلب ناصر الدين الأمير عبد القادر أن يتم دفن هؤلاء المجاهدين وفق الشعائر الإسلامية وبعد ذلك اتجه إلى نواحي سيك وبعث بالأسرى والغنائم إلى العاصمة "معسكر" ثم كتب إلى نوّابه في مليانة والمدية يبشرهم بما تحقق من الانتصار وبهذه المناسبة نظم له ابن عمه علي بو طالب الذي رافقه في هذه المعركة، وكان إلى جانبه قصيدة مطلعها:

رميت يا كهف الأنام للعُلى

وكل باغ سُقته للردى

بُشرى لك الفتح الذي أحرزته

هنئت بالنصر وإدراك المنى[1]

ولما بلغ حاكم مدينة الجزائر المحتلة خبر هذه المعركة أصدر فوراً أمره إلى الجنرال تريزيل بالتخلي عن منصبه كحاكم لمدينة وهران، وعيّن مكانه الجنرال دو لورانج وقال أحد المؤرخين إثر هذه المعارك التي خسر فيها الفرنسيون الآفاً من الجنود بين قتيل وجريح: إن بعض نواب المجلس في باريس أعلن أن احتلال الفرنسيين للجزائر هو من الأعمال الشائنة التي تُضر بسمعة فرنسا[2].

وقال تيري رئيس الحكومة: إن غزونا الجزائر عملية خاسرة إلى الآن لم تنجح، ولا أقول ذلك انتقاداً لمقدرة قواتنا العسكرية ...الخ

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٢.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٢.

وبعد انتهائه من الكلام علا ضجيج النواب في المجلس، واختل نظامه، ثم اجتمعوا مرة أخرى بعد استراحة واتخذوا قرارات منها عزل الكونت دو رولان حاكم مدينة الجزائر وتولية المارشال كلوزيل مكانه، والهجوم على عاصمة الأمير معسكر واحتلالها[1].

ب . الأمير يفرض حصاراً على المستعمر ويهاجم مدينة الجزائر:

أرسل الأمير من عاصمته لخليفته بمليانة السيد محيي الدين بن علال وأمره بأن يجمع جيوشه ويهاجم مدينة الجزائر، فانطلق على رأس خمسة الآف مقاتل فقاموا بتدمير قرى ومزارع الكولون بمتيجة وقتلوا منهم الكثير ووصلوا حتى أبواب مدينة الجزائر، ثم عادوا محملين بالغنائم والأسرى، كما أمر خليفته في تلمسان البوحميدي أن يتحرك بجيشه ويشاغل وهران، وفي أيام استطاع الأمير أن يفرض على المدن التي يحتلها الفرنسيون حصاراً خانقاً[2]، وشارك بنفسه في حصار مدينة الجزائر وكان الأمير يعمل على تحقيق مقولته بأنه لن يسمح للطير بالتسرب إلى المدن التي يحتلها الفرنسيون، حتى أضحى هؤلاء الغزاة مغلولي الأيدي وفي أشد الضيق كأنهم أسرى داخل حصونهم يحاولون التخلص من الحصار بشتى الوسائل[3].

ج . معركة مدينة "معسكر" عاصمة الأمير:

وصل الجزائر الجنرال كلوزيل مصحوباً بالدوق دورليان ولي العهد الفرنسي، وأحضر معه إمداداً عسكرياً هاماً وفي الحال قرر التوجه لوهران واحتلال عاصمة الأمير، وعلم الأمير في الوقت المناسب بتوجه العدو[4]، وجمع الأمير المجلس العسكري ومجلس الشورى وعقد جلسة عمل قال فيها: لقد بلغني أن المارشال الجديد يستعد لاحتلال هذه المدينة ظناً منه أنه بذلك يكسر شوكة قدراتنا ويضعف معنوياتنا، وباعتبار أن مدننا من أجمل مدن

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٧٣.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠١.

[3] الأمير عبد القادر سيرة مجيدة، ص: ٧٥.

[4] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠١.

العالم، وبصورة خاصة تلمسان ومعسكر هذه المدينة الرائعة التي تحتل موقعاً جغرافياً مميزاً، فإذا أراد العدو الوصول إليها سيصل منها بعد قطع مسافات واسعة من السهوب المتعرجة والوعرة المسالك. وكما علمت أن إمدادات ضخمة وصلت كلوزيل، وأنه مصمم على دخول عاصمتنا، وأنا لا أريد حرباً تقوم بداخلها تزهق فيها أرواح السكان الآمنين وحامية حصن سعيدة لا تستطيع الصمود أمام اثني عشر ألف جندي مدرب، لذا أقترح ترك كلوزيل بداخلها ولكن قبل ذلك نخليها من السكان، فإذا دخلها وجدها خالية وإذا طال احتلاله لها قال أحد أعضاء المجلس مجيباً الأمير: حينذاك نعد هجوماً كبيراً على مدينة الجزائر لنخرجهم منها ونستنسخ فرصة ابتعاد عشرات الآلآف من الجنود الذين كانوا يحمونها مع قادتهم سأل آخر: ما الغاية من هذه الخطة أجاب الأمير:

أولاً: المحافظة على السكان من شيوخ وأطفال.

ثانياً: إنقاذ هؤلاء السكان من ويلات الحرب داخل المدينة، والتي ستكون حرب شوارع تهدم أثناءها الدور وتخترق المتاجر ومن لم يمت بقنابل المحتلين سيموت فزعاً ورعباً من أصواتها التي تسبب الأذى لآذان الأطفال وربما تصيبها بالصمم، هذا إذا نجوا من الحرائق والقتل برصاص المحتلين.

ثالثاً: إذا جمعنا قواتنا وحاولنا منعهم من الوصول إلى هذه المدينة فشلنا لا سمح الله، بهذه الحالة ألا يخرج كل مسؤول منا أهله وعائلته منها قبل دخول الأعداء، ويبعدهم عن ساحات القتال إلى أمكنة آمنة؟ كما هي العادة في مثل ظروف كهذه الحالات، فأنا شخصياً أشعر بأن كل أم مؤمنة من هذا الشعب هي أمي، وكل أخت هي أختي، وكل أب هو أبي وأخي، فالذي أريده لعائلتي أريده لكل عائلة في هذا الوطن.

رابعاً: إذا جهزنا أنفسنا للدفاع عن المدينة والوقوف في وجه اثني عشر ألف جندي مهاجمين، واستطعنا الانتصار عليهم وإجبارهم على الانسحاب بعد أيام، أو ربما أسابيع،

ولاشك أن كلوزيل سيعيد الكرّة للمرّة الرابعة وكم ستكون أعداد الخسائر من الشهداء، وما سيكون حجم التدمير لمدينتنا، وبحال فشلنا في إنقاذ مدينتنا ودخلها كلوزيل منتصراً بعد تكبيدنا خسائر فادحة ماذا نكون قد ربحنا؟ فخيم الصمت على المجلس ثم بعد دقائق رفع أكثر الرجال من أعضاء المجلس أيديهم بالموافقة على الخطة.

وبسرية تامة تم نشر الأوامر بإخلاء المدينة وبطريقة نظام البريد المتحرك، يعني كل جار يخبر جاره، وكل زميل يخبر زميله وأمسك الأمير بيد والدته يساعدها العربة التي كانت أمام داره، فسارت بجميع أفراد عائلته ليلاً نحو قصر كاشرو، وهو قصر قديم شيد في غابة. وهي أرض ملكاً لعائلة الأمير منذ غابر الأزمان وتقع على بعد أميال من مدينة معسكر بناه أجداد سيدي محيي الدين والد الأمير منذ قرون، كان بناؤه على الطراز الأندلسي عدد غرفه ثلاثة وأربعون غرفة، وعدد من الحمامات، وخارجه إسطبلات واسعة للخيول، وبئر ماء وكان لا زال صالحاً وماؤه عذب، واستضافت عائلة الأمير في هذا القصر عدداً كبيراً من الأقرباء والجيران وصل كلوزيل إلى مشارف مدينة معسكر بعد ثلاثة أيام من السير، ولم يصادف أي كائن في طريقه أو صعوبات كبيرة ودخلت قواته المدينة فوجدتها خالية من الحركة، وكأنها مدينة أشباح، كانت المتاجر مغلقة وعندما فتحت بالقوة وجدت فارغة، لا أسواق لبيع الخضار والفواكه ولا مخابز ولا مطاحن تعمل، والمخافر خالية من الحرس، حتى المياه كانت مقطوعة وكانت قوات كلوزيل تكاد تسقط من الإعياء والعطش والجوع وكان يأمل ويمنيّ جنوده بغزو المخابز وحوانيت الأطعمة فور وصولهم المدينة، وقبل دخولهم في معارك لاحتلال المدينة وإجبار الأمير عبد القادر على الاستسلام وخروجه من عاصمته إما أسيراً أو قتيلاً، ولكن كلوزيل لم يجد أحداً يقاتله في المدينة، وكما يذكر المؤرخون أن اليهود فقط من سكان المدينة رفضوا تركها، وعندما دخل كلوزيل أسرعوا بالمثول بين يديه وقدموا الطاعة ولكن لم يقدروا أن يفيدوه بشيء، ولم يتمكنوا من تهدئة روعه من هول المفاجأة لأنهم كانوا أعجز من معرفة

فكر الأمير وما كان يخطط له، فشاركوا كلوزيل في شكوكه الذي لم يأمر جنوده بدخول أي دار خوفاً من مفاجأة قاتلة تنتظرهم بداخلها، ولم ينم كلوزيل تلك الليلة وهو يذرع أرض غرفة أحد المخافر التي اختارها وهو يفكر ويتساءل عن سر فراغ المدينة من السكان وظن أن هناك مخططاً لإفناء قواته، فأخذت الشكوك والهواجس تملأ رأسه، وفي صباح اليوم التالي أمر جنوده بالانسحاب من المدينة والعودة بما بقي معهم من المؤن الغذائية التي كانوا يحملونها من وهران، واعتبرها كافية حتى وصولهم إلى المقرّ، انسحب آخر جندي من معسكر يجرّ أذيال الخيبة ويرتجف من البرد وغزارة الأمطار[1].

وصل الأمير أخبار عودة قوات كلوزيل من حيث جاءت وعلى نفس الطريق وكان مختبئاً داخل الأدغال على المرتفعات المحيطة بالطريق، ولم يكن باستطاعة كلوزيل اكتشافها، وعندما شاهد الأمير بمنظاره الحربي جيش العدو يسير ببطء يجر عرباته وخيوله المثقلة بالعتاد وانتظر حتى وصل أمامه آخر جندي، وأمر القائد مصطفى بن التهامي باصطحاب كوكبة من الفرسان ليخبروا سكان مدينة معسكر بزوال الخطر ويساعدهم على العودة إليها حذّر الأمير المجاهدين من إطلاق أي رصاصة على جيش العدو، ثم أمر بالتحرك داخل الأدغال بهدوء، والتخفي بأغصان الأشجار، كان جيش العدو يسير على الطريق وفوقه على المرتفعات، الآف المقاتلين يسيرون بسرعة أكبر لقطع الطريق عليه، ولم يأمر أمير البلاد بالهجوم إلا بعد أن عمّ الظلام، حينذاك انهال الفرسان على الجند الذين فوجئوا بالهجوم فأخذوا يضعون المتاريس يختبئون وراءها ويطلقون النار على غير هدى، فدبت الفوضى بينهم، فوصلت أخبار الهجوم إلى كلوزيل الذي كان يسير في مقدمة جيشه، فعاد ونظم صفوفه، ولكن قوات الأمير كانت أسرع بالهجوم عليه من مواقعها في أعالي الهضاب غير مبالين بقنابل المدفعية وأصوات الرصاص، فهجموا على عربات المدفعية واستولوا عليها والتحم الفريقان حتى منتصف النهار وكثر عدد القتلى في

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٩٦.

جيش كلوزيل فأمر بالانسحاب، فكان جنوده يفرغون العربات من العتاد والذخيرة ويضعون مكانها جرحاهم، ويفرون نحو طرق وعرة، واكتفى الأمير بهذا الانتصار والدرس الذي كبَّد فيه كلوزيل خسائر فادحة، وكانت قواته بأشد الحاجة إلى الراحة، فعاد بها إلى المخيم، فوصله ليلاً، وكعادته قبل دخول خيمته توضأ وصلى جماعة صلاة العشاء بعد سماعه صوت مؤذن المعسكر، وسجد شكراً لله.

وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر أمر بالاستعداد للرحيل والعودة إلى العاصمة، فأطلقت المدفعية كالعادة ثلاث طلقات إشارة للرحيل والعودة إلى العاصمة، ولبث الأمير بينهم برهة من الوقت ترفع أثناءها أعمدة الخيام وتحمل الذخائر ويمتطي الفرسان صهوات جيادهم، وعادة الأمير دوماً بعد هذه الاستعدادات الخروج من خيمته والقفز على جواده ثم يثب به وثبتين، ثم يتقدم الجيش بالمسير، عمت الأفراح بالمدينة عندما وصلت أخبار بقدوم طلائع الجيش الجزائري، وظهر الفارس المنتصر إنه ناصر الدين الأمير عبد القادر ابن محيي الدين على أبوابها، فعلت أصوات النساء بالزغاريد والرجال بصوت واحد "الله أكبر" واصطف رجال المراسم بألبستهم العسكرية بعودة أمير البلاد إلى عاصمته[١].

د . توالي المعارك بين الأمير والمارشال كلوزيل:

علم الأمير عبد القادر بواسطة عيونه أن المارشال كلوزيل قرر الهجوم على تلمسان وأنه أرسل عملاءه من قبائل الدوائر والزمالة لفتح الطريق له، فقرر الأمير تطبيق نفس الخطة التي طبقها في مدينة معسكر، وذلك بإخلائها من سكانها الذين غادروها بما خف وزنه من الأثاث والمتاع، ووصل كلوزيل تلمسان يوم ١٣/ ١/ ١٨٣٦م على رأس جيش ضخم من ١١٠٠٠ جندي فوجد الأمير في استقباله ودارت المعركة من الفجر إلى الزوال، وخرج الذين كانوا متحصنين بالقلعة وفتحوا أبوابها للعدو يوم ١٢ يناير فمكنوه من احتلال المدينة، وفرض كلوزيل ضريبة باهظة على السكان حتى على عملائه وذلك

---

[١] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٩٧.

قصد تغطية نفقات الحرب واضطر الناس لبيع مجوهرات نسائهم لدفع الضريبة وكان المرابي اليهودي لازاري وسيطاً يشتري المجوهرات بأبخس الأثمان وكانت خسارة العائلات مضاعفة وشارك في هذا النهب الضابط المملوكي التركي العميل يوسف، فضج الناس من ذلك، وقد كتب الضابط بيلسييه دي ريينو على ذلك فقال: كل هذا تم باسم فرنسا، لقد كان الجيش يشعر بالعار والخذلان[١]، وبقي الأمير يترصد خروج كلوزيل من تلمسان، وخرج بعد أن ترك حامية بها قاصداً وهران ووجد جيش الأمير أمامه ودارت معارك بين الطرفين لمدة عشرة أيام وهزم كلوزيل ولم يتمكن من الوصول إلى وهران فعاد إلى تلمسان وتحصن بقلعتها وبقي بها أياماً، ثم حاول الخروج منها فالتقى به الأمير وحاربه وألحق بقواته خسائر كبيرة وصمم كلوزيل على التقدم سالكاً طريقاً آخر عبر الساحل فوصل مرسى رشكون وتحصن بها فحاصره الأمير مدة شهرين كاملين قضاها في مناوشات قتالية وعندما يئس من التقدم بقواته براً استنجد بنائبه فأرسل له مراكب نقلته مع جيشه بحراً بعد أن حمل ما أمكن حمله من العتاد.

غادر كلوزيل وهران إلى الجزائر بعد أن نصَّب الجنرال دار لانج والياً عليها والجنرال بيريجو قائداً على الجيش.

كانت قبائل حجوط مستمرة في حملاتها على الكولون والمراكز العسكرية في المتيجة، والباي العميل ابن عمر هرب من مليانة وهو يعيش بالجزائر، والعميل محمد بن حسين الذي عيّنه الحاكم العام بابا التيطري ثار عليه المواطنون فهرب وتخفى في مطامير للحبوب، فأرسل كلوزيل قوة إلى المدية ضمن حملة دامت ١٢ يوما من ٢٩/ ٣ إلى ٩/ ٤/ ١٨٣٦م، فاحتلها وترك عليها العميل الباي بن عمر وتركت له كمية من السلاح والعتاد لكن هذه الحملة فشلت فما إن عاد الجيش للعاصمة حتى ثار سكان مدية على الباي العميل واعتقلوه وساقوه مكبلاً إلى الأمير، خرج الجنرال بيريجو من وهران على رأس

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٢.

٣٠٠٠ جندي نحو تلمسان وتمكن من ربط الصلة بهذه القوات بين المدينتين، وعلم الأمير فانتقل إلى ندرومة ليتمكن من مراقبة تحركات العدو، واتصل بالقبائل التي كانت تقيم بوادي تافنة ورتب قواتها ووزعها على مواقع اختارها، ثم هاجم العدو بغتة يوم ٧ نيسان ـ أبريل وألحق به خسائر كبيرة اضطره إلى أن يتخذ خطة دفاعية على شكل مربعات متجهاً إلى وهران[1]، وكان الأمير يقوم بالهجوم على أطرافها يقتل ويأسر ولم يصمد المدفعيون الفرنسيون للهجوم فتخلوا عن بطارياتهم التي غنمها المجاهدون وبعد عناء كبير تمكن الجنرال من الوصول إلى وهران ولكن بعد خسائر كبيرة في الجنود والعتاد.

بعد هزيمة الجنرال بيريجو قررت الحكومة الفرنسية إرسال ٣٠٠٠ جندياً وعلى رأسهم بوجو إلى وهران لمحاربة الأمير وفي ١/ ٧/ ١٨٣٦م توجه إلى تلمسان لفك الحصار عن حاميتهم المحاصرة من الأمير، وعندما التقى بالأمير دارت معركة في واد سكاك غير متكافئة يوم ٦/ ٧/ ١٨٣٦م هزمت فيها قوات المسلمين، وتمكن بوجو من فك حصار تلمسان وربطها بوهران، وعاد لها فأخبر باريس بانتصاره.

قام الأمير بجمع جموعه وفرض حصاراً طويلاً على تلمسان دام تسعة أشهر، لدرجة أن كافينياك قائد الحامية الفرنسية بها قال: كنت أشتري القط الواحد للأكل بأربعين فرنكاً. ويُروى أن الأمير قرأ صحيح البخاري في هذا الحصار أربع مرات وفي أثناء الحصار علم أن الأتراك بالمدية قد تمردوا وأثاروا الفتنة، فترك قيادة الحصار لابن عمته مصطفى بن التهامي، وتوجه على رأس كوكبة من فرسانه إلى المدية فأنزل العقاب على رؤوس الفتنة وأعاد النظام لها وولى عليها أخاه مصطفى بن محيي الدين ثم عاد إلى تلمسان وهكذا تمكن الأمير بعبقرية عسكرية وتنظيمية فذة من ومواجهة كل هذه المشاكل وإيجاد الحلول

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٣.

لها، كان يقطع مئات الكيلومترات حاثاً القبائل على الصمود والتنظيم، ويقيم تحت الخيمة أشهراً محاصراً للعدو دون كلل[1].

وقد لخص المؤرخ الفرنسي ألكسندر بالمار هذا كله فقال: لقد تمكن الأمير عبد القادر من إعادة بناء قوته التي اعتراها التفكك والتلاشي ثلاث مرات:

الأولى: عندما استولى الجيش الفرنسي على عاصمته.

الثانية: عندما غزا تلمسان.

الثالثة: بعد معركة سكاك. وكل حادثة من هذه الحوادث كانت كافية لإسقاط أعظم سلطان، ومع ذلك فإنها لم تؤثر في أمره، ولم تحصل منه فرنسا على طائل. ولهذا فإني أقول: لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة لا تفارق ذاته طرفة عين، ومن هنا نعلم أنه كان في أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوة[2].

كان الأمير عبد القادر في حروبه يهتم بأخلاق الفرسان ويأمر جنوده بعدم التمثيل واحترام الأسرى، فقد كانت العادة عند القبائل في تلك الأصقاع قطع رأس العدو وتقديمه على حربة للزعيم أو القائد، وكان لكل رأس مكافأة، ولكن أوامر الأمير عبد القادر منذ توليه قيادة حكم البلاد كانت تقضي بأن يجلد كل مقاتل يحمل رأساً، وبتقديم مكافأة مجزية لكل من يأتي بأسير حياً وهذا قرار اتخذه منذ اليوم الأول ووضعه ضمن قوانين الجيش وكانت تعليماته إلى كل مقاتل يأسر جندياً فرنسياً أن يحسن معاملته وكان هذا القرار من طرف واحد.

أما العدو فقد كان يقوم بأعمال يندي لها جبين الإنسانية بالنسبة للأسرى والمواطنين على حد سواء، من هذه الأعمال قطع رأس الأسير أو جذع أذُنه وكانت تُعطى علاوات للجيش، منها علاوة ١٠ فرنكات لكل جندي فرنسي عن كل أذن لأسير جزائري. ولم

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٤.

[2] المصدر نفسه، ص: ٥٠٤.

يبطل هذا القانون إلا في عهد نابليون الثالث. كتب أحد الجنود الفرنسيين رسالة إلى قائده الجنرال مونتياب جاء فيها: قطعت رأسه وعصمه الأيسر وجئت إلى المعسكر أحمل رأسه على حربتي ومعصمه معلق بسوار بندقيتي تلك هي الطريقة التي يجب أن نحارب بها العرب، يجب ترحيل جميع العرب من هنا إلى جزر الماركيز، يجب سحق من لا يركع تحت أقدامنا[١].

١٢. مقاومة أحمد باي بنواحي قسنطينة:

عندما استقر الأمر لأحمد باي في مدينة قسنطينة جمع أعضاء الديوان وتباحث معهم في المسألة المتعلقة باعتراف فرنسا باياً على أن يواصل دفع الجزية إليها، فكان رد جميع أعضاء الديوان هو الرفض لأن قسنطينة تابعة لباشا الجزائر وتمتثل لأوامره وهي بدورها تتمثل لأوامر إسطنبول ولهذا لابد من الكتابة إلى السلطان محمود الثاني والحصول على موافقته، وفي هذه الأثناء علم أحمد باي أن القائد الفرنسي في الجزائر قد عزله من منصبه وعيّن في مكانه سي مصطفى شقيق باي تونس، وبذلك صارت قسنطينة تابعة لتونس حسب رأي الجنرال كلوزيل الذي كان يحكم الجزائر وهذا هو الذي دفع بالباي أحمد أن يعيّن بن عيسى خزناجياً أي أمين الخزينة، ويضرب النقود باسمه.

وعندما تمكنت فرنسا من ميناء عنابة بدأت تهدد أحمد باي بالإطاحة به وأرسلت جيشاً قوياً بقيادة كلوزيل للقضاء عليه ولذلك جند أحمد باي ١٥٠٠ رجل من المشاة و ٥٠٠٠ من الفرسان واستعد لمواجهة الجيش الفرنسي في وواد الكلاب واد الأحد الذي يوجد تحت سيدي مبروك، لكنه انسحب إلى مدينة قسنطينة عندما شعر أنه غير قادر على محاربتهم لأن جيشهم كان أقوى، وبناء على ذلك استدرجهم الباي أحمد إلى المدينة ثم هاجمهم من الخلف ومن داخل المدينة وألحق هزيمة بالفرنسيين الذين قهرتهم الطبيعة حيث إن الأمطار الغزيرة التي تهاطلت في تلك الأيام قد ساهمت في التأثير سلبياً على

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٨.

خطط الفرنسيين واعترف الحاج أحمد باي أنه كان على استعداد للتفاوض مع الجيش الفرنسي والاحتفاظ بمرتبه كباي، ولكنني عندما رأيت أنهم جاءوا بباي ليستبدلوني وأكثر ليهينوني إذ اختاروا لهذا الغرض مملوكاً من تونس، ولم أعد أرى شيئاً آخر غير المقاومة النشيطة، وهو ما فعلت وقد كان علي أن أفعله من قبل[1]، وبدون شك فإن هذه الهزيمة الثقيلة التي ألحقها الحاج أحمد باي بالفرنسيين في عام ١٨٣٦م هي التي دفعت الجيش الفرنسي إلى إعداد جيش ضخم يتكون من ١٦٠٠٠ جندي يقودهم كبار جنرالات فرنسا المعرفون بقدراتهم القتالية تحت قيادة دامريمون وفي اليوم الأول من شهر أكتوبر ١٨٣٧م ابتدأ الجنرال دامريموت قائد الحملة الفرنسية ورئيس أركانه بيريقو العمليات العسكرية ضد قوات أحمد باي وذلك انطلاقاً من سطح المنصورة المطلة على مدينة قسنطينة. وقد حاول أحمد باي أن يعتمد نفس الخطة التي ساعدته على الانتصار في المرة الأولى وهي مواجهة الجنود الفرنسيين من داخل المدينة المحصنة وضربهم من الخلف، لكن هذه المرة لم تنجح الخطة لأن عدد جنود الفرنسيين كبير، وتمكنوا في هذه المرة من معرفة فجوة ساعدتهم على التسرب إلى المدينة واحتلال الثكنة الكبيرة التي كانت توجد بالمدينة، وعندما رأى ابن عيسى خليفة أحمد باي والمسؤول عن الدفاع، أن الفرنسيين تسربوا إلى المدينة وأن المقاومة أصبحت غير مجدية أمر السكان أن يخرجوا من المدينة. وقد استشهد في هذه المعارك محمد بن البجاوي قائد الدار، وذلك بالإضافة إلى شخصيات كبيرة في المدينة، ولكن الشيء الذي ينبغي التذكير بة هنا هو أن الجنرال دامريموت ورئيس أركانه بيريقو قد لقيا حتفهما في بداية المعارك حيث أن الباي أحمد قد صوب مدفعه الكبير الموجود في باب الجديد نحو مكان تجمع القادة الفرنسيين وتمكن من إطلاق النار على الفرنسيين وقتل رئيس العمليات العسكرية ورئيس أركانه وقد خلفه في منصب القائد العام للقوات الفرنسية الجنرال فالي الذي استولى على المدينة فيما بعد،

---

[1] المصدر نفسه.

لكن الجنرال كومب مات هو الآخر في معارك قسنطينة وكذلك زميله الجنرال كارامان الذي توفي بعد بضعة أيام.

وبالنسبة للباي أحمد فإن هذا الاحتلال لمدينة قسنطينة سنة ١٨٣٧م ما هو إلا بداية للمقاومة الجزائرية ضد قوة الاحتلال الأجنبية وبالفعل فقد اجتمع بقادة المقاومة وأعد معهم خطة تقضي بقطع جميع الاتصالات مع مركز القوات الفرنسية بمدينة عنابة، لكن أحد مساعديه المقربين بو عزيز بن قانة فقد سلطته في الصحراء لصالح فرحات بن سعيد، اعترض على خطة الباي أحمد واقترح عليه أن لا يبقى الجيش في قسنطينة وإنما يتوجه إلى الصحراء حيث يوجد فرحات بن سعيد الذي أصبح يعمل مع الأمير عبد القادر الذي اعترف به شخصياً على قبائل الصحراء وخوفاً من وقوع انشقاق في صفه وافق الباي أحمد، وأثناء ذهابه إلى الصحراء بعث إليه الفرنسيون رسالة يطلبون فيها منه الاستسلام.

ومع أن فرحات بن سعيد كان يعتبر هو الخليفة المعتمد من طرف الأمير عبد القادر على الصحراء، فإنه كان ينوي الذهاب إلى قسنطينة والتحادث مع أحمد باي أو الفرنسيين، إلا أن ذهاب أحمد باي للصحراء حسب نصائح بن قانه دفع بسعيد بن فرحات أن ينضم إلى الفرنسيين ويتحالف معهم مقابل أن يعترفوا به كشيخ للعرب وأن يمدوه بجيش قوي ليحارب أحمد باي وبن قانه ولكن الفرنسيون رفضوا اقتراحه هذا وطلبوا منه أن يقوم بهجوم على أحمد باي ويأتيهم برأسه وآنذاك يعترفون به وبالفعل دخل مع أحمد باي في معركة حامية الوطيس ضد أعدائه ولكنه انهزم وهرب إلى وادي سوف. ثم إن مرض أحمد باي وعدم قدرته على جمع وتوحيد الصفوف لمحاربة الفرنسيين وتمركز الجيش الفرنسي في كل المناطق، قد أنهكت قواه وأجبرته على التفاوض مع فرنسا والإستسلام لها يوم ٥ جوان ١٨٤٩م. كما هو معروف رفض التوجه إلى فرنسا ومات بمدينة الجزائر سنة ١٨٥٠م وتم دفنه بزاوية سيدي عبد الرحمن.

وباختصار، فإن أحمد باي قد قاوم الفرنسيين لمدة ١٨ سنة وقد ظن الفرنسيون أنه ضعيف نظراً لعدم وجود قبيلة تحميه وتشد أزره لكنه فاجأهم وتحدى جبهة الخونة في الداخل وجبهة باي تونس وقاوم حتى النهاية[١].

وهو صاحب المقولة الشهيرة: لا وطن لي إلا الجزائر، ولا دين لي إلا الإسلام، ولا لغة لي إلا العربية[٢].

وهو صاحب المقولة الأخرى: إذا كان المسيحيون بحاجة إلى بارود سنزوّدهم، وإذا نفذ خبزهم، سنقسم خبزنا معهم، ولكن حتى وإن بقي أحد منا على قيد الحياة لن يدخلوا قسنطينة[٣].

لاشك أن أحمد باي من الشخصيات المتميزة سياسياً وعسكرياً إلا أنه عدم دخوله تحت زعامة الأمير عبد القادر أضعفته وأضعفت موقف المقاومة، وبعد أن توحدت معظم قبائل ومدن الجزائر وأجبرت الدولة الفرنسية على الاعتراف بالأمير عبد القادر، وتبرم معه المعاهدات الرسمية وترسل الدول الأجنبية قناصلها، وعرض الأمير عبد القادر مرات عديدة على أحمد باي بأن ينضم إليه ويتحالف معه كان عليه أن يستجيب لوازع الوحدة وتوحيد الصفوف ضد المحتل الفرنسي.

كان الأمير عبد القادر يحترم أحمد باي ولم يكن له أي خصومة أو بغضاء، وأشاد بجهاد أهالي قسنطينة، والشيخ ابن البجاوي ومن معه من العلماء والأبطال والذين أبوا إلا الموت تحت أسوار بلدتهم على الحياة تحت سلطان فرنسا[٤].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١١٩.

[٢] الحاج أحمد باي د. بو ضرساية بو عزة، ص: ٧.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٣٥٣.

[٤] حوار مع عبد القادر الجزائري، ص: ١٠٤.

١٣. اختراق المخابرات الفرنسية لدولة عبد القادر:

استطاع ليون روش عميل المخابرات الفرنسية أن يخترق دولة عبد القادر وأن يصل إلى مكان مقرب من الأمير ويصبح مترجمه الخاص ولعب دوراً خطيراً تحت قناع الإسلام ويعتبر حلقة من حلقات الاستعمار في اختراقها للجزائر، فمن المعروف أن الحملات الاستعمارية الكبرى، باتجاه العالم الإسلامي، كانت تسبقها حملات مركزة للجوسسة للتعرف على الأرضية التي سيتم احتلالها، وكان من العادة أن يقوم بالمهمة مجند في أجهزة المخابرات لديه خبرة واسعة بالأرضية وأكبر مثال على هذا الجاسوس بوتان الضابط في الهندسة العسكرية الذي أرسله نابليون بونابرت إلى الجزائر عام ١٨٠٨م وقام بإجراء دراسة دقيقة والتي على أساسها تم احتلال الجزائر، لكن بعد الغزو العسكري سرعان ما اكتشف المحتل أن هناك مساحات كبيرة لم يتمكن من غزوها، فاحتلال الشعوب يقتضي التعرف بدقة على جغرافيتهم النفسية وخريطة عقولهم، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حركة الجوسسة الاستعمارية وذلك بإرسال رجال ونساء حتى يتغلغلوا في الشعوب وينفذوا إلى أعماق النسيج الاجتماعي ويقدم التقارير الدقيقة والوافية عن تجربتهم في الداخل وستظل أسماء مثل ليون روش بارزة في مسيرة حافلة لهؤلاء الذين اخترقوا وتغلغلوا إلى أعماق المجتمع، فلم تكن التقارير العسكرية والأمنية كافية للسيطرة على هذه المجتمعات، بل كان من الواجب النفاذ بعمق في ألياف الحياة الإجتماعية والدينية والتجوال في دروسها والدخول إلى عمق أعماقها، فليون روش الجاسوس، كغيره من الجواسيس ندبته الحكومة الفرنسية في بداية غزوها للجزائر ليكون جاسوساً على الأمير عبد القادر وأوعزت إليه أن يتظاهر عنده بالإسلام، وأن يتوصل أن يكون موضع ثقته ومحل أمانته، ففعل ذلك ونجح وأقام معه حوالي سنتين، كان خلالها يبعث بكل تفاصيل دولة الأمير عبد القادر إلى حكومته الفرنسية، ولم يكتف بهذا فقط، بل تخصص في

نشب الفتن بين الأمير عبد القادر والقبائل الأخرى، فكان هدفه إضعاف قوة المسلمين وتشتيتها من حول الأمير[1].

أ . قصة دخول ليون روش الجزائر:

ولد بفرنسا بمدينة غرونوبل في يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٠٩م وبعد وفاة أمه كليمونتين شمبانو ذهب عند عمته وبدأ دراسته الثانوية في ثانوية غرونوبل ثم أكملها في ثانوية تورنون ونال شهادة البكالوريا عام ١٨٢٨م وبعدها بدأ دراسته الجامعية في جامعة غرونوبل في تخصص الحقوق وبقي يدرس لمدة ستة أشهر فقط، ثم رحل إلى مرسيليا بعد أن أرسله أبوه للعمل هناك مع تاجر صديق له، فعمل معه وسافر بين فرنسا وشرق أوروبا، وزار العديد من دول شرق أوروبا وكان عمره آنذاك يقارب العشرين عاماً، كان أبوه الفونس محلقاً بخدمات العتاد العسكري في الجزائر منذ الحملة الفرنسية ١٨٣٠م واهتم بالعمل الفلاحي في ضواحي الجزائر واقتطعت له مزرعة في سهل متيجة مساحتها حوالي ٢٠٠ هكتار وكان يقوم بخدمتها بعض الجزائريين، ونظراً لتعدد مهامه، كتب إلى ابنه يطلبه للحضور ليساعده في الفلاحة بعد أن غاب عنه مدة طويلة وجاء إلى الجزائر بعد انقطاعه عن والده لمدة أربع سنوات وعاش في مدينة الجزائر واختلط بالأهالي، الجزائريين والأتراك والكراغلة والحضر وتعلم اللغة العربية على يد رئيس مجلس قضاء الجزائر الشيخ عبد الرزاق بن بسيط وتمكن من اللغة العربية وتحدث بها بطلاقة وتعرف على العلماء والقضاة وأعيان المجتمع وعرض نفسه كمترجم بين الفرنسيين والأهالي وكان تعلمه للغة أمر مدروس ووسيلة مهمة للاختراق الاستخباراتي[2].

ب . مطية الجوسسة:

جعل من تفانيه في تعلم اللغة العربية والدخول في الإسلام مطية للجوسسة التي كان قد كلف بها من قبل.

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٠٧.

[2] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٠٨.

كانت المخابرات الفرنسية أوكلت إليه أمر مراقبة الأمير عبد القادر ورسمت له الخطط المناسبة واستغلت المخابرات الفرنسية معاهدة التافنا التي جاء في بندها الرابع على السماح للمسلمين بالعيش أينما أرادوا، ولهم الحرية المطلقة في الانتقال من دولة الأمير إلى الأماكن التي يحتلها الفرنسيون وكذلك يباح للفرنسيين أن يسكنوا دولة الأمير فأوعزت المخابرات الفرنسية إلى ليون روش لمهارته في اللغة العربية ومعرفة تقاليد الجزائريين وثقافتهم، للالتحاق بمعسكر الأمير والتظاهر باعتناق الدين الإسلامي والدخول في وسط جيشه والتقرب منه للتعرف على أحواله والقيام بمهمته، غادر ليون روش مقر أبيه بإبراهيم رايس واستقر عند قبيلة بني موسى في منطقة متيجة وقد كانت تربطهم به علاقة سابقة، إذ كان يخرج معهم في رحلات للصيد خلال السنوات الماضية، وأعلن إسلامه ونطق بالشهادة، وسمي بعمر بن عبد الله. وبدأ بإقامة الصلاة وإعلان الشعائر الإسلامية علناً، ومن بني موسى بدأ ينظم اتصالاته مع بعض الفرنسيين والجزائريين بهدف جمع المعلومات الكافية حول أحوال دولة الأمير عبد القادر الفتية ووصل إلى مدينتي بوفاريك والبليدة وأظهر إسلامه أمام الحاكم لجلب نظره، واستبشر به خيراً، وفرح به أشد الفرح لاعتقاده في أن الله قد هدى نصرانياً من الشرك إلى الإيمان، فاستضافه وأكرمه وقدمه لمرابط المدينة سيدي بلقاسم سيدي الكبير، الذي وثق به على حسن نية، فأقام عنده وعمل على إقناع سيدي بلقاسم بتزكيته والتوسط لدى الأمير حتى يلتحق به ويقدم خدماته له وعاد ليون روش إلى أولاد سيدي موسى وحمل متاعه في طريقه إلى مليانة ففتحت له الطريق ووصل إلى مدينة مليانة حيث كان يقيم صديقه عمر باشا الذي كان يعلم أن ليون روش ينافق ويتظاهر باعتناق الإسلام، فاستضافة وقدم له النصح عن كيفية سيرته وأوصاه بالحذر في تحركاته والفطنة في سلوكه لكي لا يجلب شكوك المسلمين حوله وفي هذه الأثناء كان خليفة الأمير محمد بن علال غائباً عن المدية، فاتصل ليون روش بنائبه وكاتبه قدور بن رويلة، وشرح له قصته المزيفة عن دخوله في الإسلام وأنه يريد الالتحاق بالأمير

عبد القادر ليقدم له خدمات جليلة واستبشر قدور بن رويلة ووعده بأن يصطحبه هو بنفسه إلى معسكر الأمير ويطلب من الخليفة محمد بن علال أن يقدمه للأمير شخصياً.

وعندما سار الأمير عبد القادر إلى الشرق وعسكر على ضفاف وادي نوغه جيء به عند الأمير، فاستقبله فصار يخبره ويؤكد له أنه اعتنق الدين الإسلامي بكل إخلاص وطلب منه الدخول في خدمته[1].

وأمر الأمير عبد القادر أحد العلماء بالاعتناء بهذا الشاب وتفقيهه في أمور الدين الحنيف وقراءة القرآن وآداب الشريعة الإسلامية، وفي وقت قصير أتقن ليون روش هذه العلوم وسُرّ الأمير لذلك، واستجاب الأمير لطلبه الزواج من إحدى الفتيات المسلمات، وهكذا أصبح ليون روش مسلماً ومقاتلاً أيضاً إذ كان يشارك في المعارك في تلك الفترة[2].

وشرع ليون روش يرتب أمور عمله لأداء مهمته الحقيقية كجاسوس، وطفق في جمع المعلومات ومراسلة الفرنسيين وتعريفهم بأحوال الأمير العسكرية والسياسية وغيرها، ووصف الأمير في تقاريره وصفاً دقيقاً في شخصه ومناقبه ولباسه وأوصافه الجسمية والخلقية والدينية والثقافية وبين عدله واحترامه لتعاليم الإسلام وهيبته واحترام الجنود والمواطنين له ولم يترك شاردة ولا واردة تتعلق بالأمير ودولته وقع عليها إلا أرسلها في تقاريره، وفي بداية عام ١٨٣٨م أثناء إقامته في مدينة تلمسان حين أوفده الأمير عبد القادر ليتعلم القرآن وتعاليم الإسلام شك فيه أهلها من نواياه الحقيقية وأخبروا الخليفة البوحميدي، ولما أحس ليون روش بالعيون تراقبه فرّ إلى مدينة وهران إلى أن وصل إلى خيام بني عامر قرب عين تموشنت، وفي خيمة الآغا انكشف أمره، فاسترجع أدراجه إلى الخليفة البوحميدي، ودافع ليون روش عن نفسه من تهمة الفرار إلى العدو دون إذن مسبق والخيانة العظمى التي تستحق الإعدام، وفضلاً عن ذلك طلب وثيقة سفر ليتوجه إلى الأمير عبد القادر ويشتكي له من قسوة المعاملة التي لم تكن تليق بمكانته واتخذ موقف

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٣.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٦١.

المهاجم أمام الخليفة البوحميدي وراح يعاتبه على عدم الثقة فيه رغم أنه مبعوث من طرف أمير المؤمنين، وأن قلبه يعمره الحب والرغبة في الإسلام وله الحق كغيره من المسلمين في حسن المعاملة، حينها اعتذر البوحميدي له في أدب ووعده بمنحه رخصة السفر وتوفير الأمان له إن رغب في ذلك، ولكنه حذره من العودة إلى مثل ما قام به من عملية الفرار وفي شهر فيفري ١٨٣٨م، بعث ليون روش برسالة مطولة إلى جهاز المخابرات فصّل فيها النظام الإداري والعرفي الذي كانت تسير عليه قبائل غرب الجزائر وشرح لهم ما عرفه عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والدينية التي كان يمارسها الأهالي.

وفي أوائل شهر أفريل ١٨٣٨م وصل إلى مدينة المدية فجثا أمام الأمير عبد القادر راكعاً باكياً واشتكى إليه من ظلم وجور الخليفة البوحميدي ورجاله، وسوء معاملتهم له وأنهم اعتبروه كافراً وليس مسلماً أتى من أجل خدمة الأمير ولنصرة الحق على الباطل، وإظهار النور على الظلام[١]، وبالغ في التضرع والخداع حتى حنّ قلب الأمير عليه، باعتباره مسلماً غريب الديار وصدّقه وأصبح من حاشيته وعيّنه كاتباً ومستشاراً ورفيقاً يقرأ عليه ويترجم له ما يكتب في الصحف الفرنسية، وكان يحضر حتى في مجالسه السرية التي كان يعقدها مع كبار دولته[٢]، وكان اختراقاً هائلاً وعظيماً ساهم في القضاء على دولة الأمير ومن الأسباب التي أدت إلى إضعافها وتكسير مقوماتها ومؤسساتها.

ج. انكشاف أمر الجاسوس:

في نهاية عام ١٨٣٩م سافر الأمير عبد القادر إلى تلمسان لتنظيم شؤون الدولة والجهاد دون أن يترك أية أوامر تخص ليون روش، فانتهز فرصة غيابه وخادع الناس بمهمة مزعومة إلى مدينة مليانة ليتفقد مصانع الأسلحة وأخذ كل ما يحتاجه من وثائق من بينها خريطة جغرافية جزائرية، وجهاز بوصلة وخاتمه بصفته كاتب الأمير ورافقه جاسوس آخر هو

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٤.

[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٥.

ايزدور الذي كان يعرفه منذ أن كان يقيم عند أبيه من قبل، كما أخذ عدداً من الرسائل استعملها في شكل برقيات ليخادع بها كل من اعترض طريقه ويساعده في معرفة المواقع، وتوجه نحو مدينة وهران فاراً نحو الجيش الفرنسي ولما وصل إلى منطقة معسكر أخبر من اعترضه من أهلها أنه ذاهب في مهمة إلى معسكر وتلمسان بأمر من الأمير إلى وكيله في وهران، ووصل ليون روش بصحبة رفيقه إلى مركز الجيش الفرنسي في ناحية الكرمة بالقرب من وهران، ثم انتقل من هناك إلى مقر حاكم الإقليم ونسي الأمير ودولته وطفق يحارب مع الجيش الفرنسي ويطارد قوات المجاهدين حتى سنة ١٨٤٤م فكرمته دولته الفرنسية وعيّنته بأعلى المراكز وكافأته على نجاحه في المهمة التي كلف بها[١].

وذكرت الأميرة بديعة الحسني الجزائري في كتابها القيّم: بأن ليون روش استطاع تزوير رسالة باسم الأمير عبد القادر إلى أمير مكة مقلداً خطّه ووقعها بختمه الخاص وهرب حاملاً الرسالة إلى فرنسا ومتجهاً إلى باريس وأطلع حكومته على الرسالة فحملّته هدية ثمينة، وأمرته بالسفر إلى مكة، فارتدى اللباس الجزائري وأخذ الهدية والرسالة وسافر إلى مكة فوصلها معززاً مكرّماً وهناك قابل الشريف محمد بن عوف أمير مكة وسلمه الرسالة والهدية، فأكرم أمير مكة وفادته وعامله معاملة رسل الملوك، وبعد أيام كما هي العادة وكما كانت تقضي التقاليد العربية سلمه أمير مكة رسالة جوابية، ومعها هدايا ثمينة إلى الأمير عبد القادر، فرجع حاملاً هذه الأشياء إلى فرنسا وسلم إلى حكومته الرسالة التي كان يُفترض تسليمها إلى الأمير، وبعد قراءتهم الرسالة تأكدوا أنه لا علاقة للأمير بأمير مكة، ولم يسبق أن ساعده بشيء وبعد نجاحهم في هذه العملية التجسسية أعادوا الكرّة مرات عديدة، فمرة كانوا يرسلون الجواسيس على أنهم سيّاح ومرة على أنهم تجّار، ولكن جميع تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل، إلا أنه بعد هروب ليون روش وافتضاح أمره أصبح الحذر شديداً لدى المسلمين والأوامر صريحة وواضحة بهذا الخصوص.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٩.

وقد ألّف ليون روش كتاباً تاريخياً بعنوان: "اثنتان وثلاثون سنة في الإسلام" أصبح مرجعاً كبيراً لكثير من المؤرخين والكتّاب، وقد وصف فيه مقابلته الأمير في معسكر عين شلالة فقال: رأيت وسط المعسكر خيمة كبيرة يقف ببابها جمهور كبير إنها خيمة السلطان، وكان جالساً وحده في صدر الخيمة، فغضضت من بصري وتقدمت نحوه ببطء، ثم ركعت ولثمت يده كما هي العادة عندهم، ظننت أنني أحلم عندما رأيت عينين خضراوين تحيط بهما أهداب سوداء كثيفة، كان يحمل بيده مسبحة وتحيط بوجهه لحية سوداء حريرية، ولو بحث فنان عن صورة لعابد من عُبّاد القرون الوسطى يضعها على لوحته فإنه لن يجد حسب رأيي نموذجاً أفضل من الأمير ببرنسه الأبيض وجلسته اللطيفة، وعلى الرغم من مكانته العظيمة التي كانت تسمح له بالتعالي والسمّو، كان طيباً لبقاً، ولم يكن أحد من الحرّاس بجانبه[1].

١٤. معاهدة تافنة:

استغل الأمير توجه كلوزيل إلى قسنطينة فأصدر أمره إلى خليفته مصطفى التهامي والبوحميدي بالتوجه على رأس جيش إلى وهران ومحاربة القبيلتين اللتين تحالفتا مع الفرنسيين وهما قبيلة الغرابة وقبيلة البني عامر والعشائر المتحالفة معهما، فاكتسح الجيش جنودهما واستولى على مواشيها وألحق بها هزيمة قاسية وأمر الأمير خليفته محمد بن علال أن يتوجه إلى الجزائر فانطلق بجيشه إلى متيجة ونواحي الجزائر، يدمر مزارع الكولون ويستولي على مواشيهم ويأسر بعضهم ووصلت قواته إلى أبواب العاصمة التي هرب الفرنسيون وراء أسوارها وأغلقوا أبوابها وعاد إلى حاضرة ولايته وبعث رسولاً يخبر الأمير أنه عُيّن دامريمون حاكماً عاماً خلفاً لكوزيل المعزول يوم ١٢/ ٢/ ١٨٣٧م وانتشرت أقاويل في باريس مفادها: أن الأمير عبد القادر هو المعجب الكبير بالمدينة الغربية، ويعمل من أجل تجديد شباب القومية العربية وتصور الفرنسيون أن بإمكانهم أن يجعلوا

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥١١.

منه أميراً مسلماً بالاحتلال يحكم الداخل لصالح فرنسا وعيّن الجنرال بوجو قائداً للجيش الفرنسي في وهران الذي وصلها على رأس ١٥٠٠٠ جندي بتعليمات صارمة بضرورة عقد صلح جديد مع الأمير ووقف الحرب معه.

وجاء هذا القرار الفرنسي بعد أن تمكن الأمير من فرض حصار صارم على المدن المحتلة من الفرنسيين وأرسل الفرنسيون إلى الأمير عبد القادر ابن دران اليهودي ليفاوض الأمير على الهدنة.

أرسل الجنرال بوجو الرسالة الأولى عارضاً شروطاً شديدة رفضها الأمير الذي أجاب برسالة عرض فيها شروطه، ورد بوجو على الشروط بشروط مخففة وهو يلقبه بسلطان العرب وأرسل الأمير مرة أخرى جواباً على الرسالة بشروط رفضها بوجو وقرر وقف التفاوض والخروج للحرب، فخرج واحتل تافنة، وعلم الأمير فأرسل رجاله يستنفرون القبائل للجهاد، وعندما تأكد بوجو من قوة تحرك الأمير وألا قبل له بمواجهته الآن تراجع وقرر العودة للمفاوضات.

وعاد الجنرال بوجو إلى الجزائر في نيسان ـ أبريل ١٨٣٧م مشترطاً عدم رضوخه للحاكم العام بالجزائر، رابطاً علاقته مباشرة مع وزارة الحربية، واستقر في وهران ودخل في مفاوضات مع الأمير عبد القادر، واشتكت الوزارة بأنه كان يتجاوز تعليماتها وبأنه تنازل كثيراً للأمير وكرر يوجو مع الأمير ما سبق أن فعله ديمشال[١].

انتدب الأمير ممثلاً له يتفاوض مع بوجو، وطلب هذا أن يعترف الأمير صراحة بالسيادة الفرنسية على مناطق محددة وتكون للأمير سيادته.

ورفض الأمير شروط بوجو الذي عرض عليه مناطق أخرى لاسترضائه كولاية تيطري، ومن باب إثارة الحزازات بين بوجو والحاكم العام بالجزائر، كان يفاوض الاثنين، فاندلع

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٢.

جدال بين القائدين الفرنسيين حول اختصاص كل منهما، وتدخلت الحكومة الفرنسية فكلفت بوجو بمفاوضة الأمير.

أرسل الأمير مرة أخرى مبعوثاً هو السيد حمادة السقّال رئيس حضرة تلمسان، وبعد أخذ ورد حررت معاهدة تافنة يوم ٢٠/ ٥/ ١٨٣٧م وشروطها مختصرة كما يأتي:

أولاً: يعترف الأمير بسلطنة فرنسا على مدينة الجزائر ووهران.

ثانياً: يبقى لفرنسا في إقليم وهران ومزغران وموغران وأراضيها ووهران وأرزيو بحدود معينة يصير كل ما بداخلها من الأراضي للفرنسيين.

ثالثاً: على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران وإقليم تيطري والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم الجزائر بحسب التحديد المعين في الشرط الثاني، وألا يمد يده لغير ما ذكر من أرض الجزائر.

رابعاً: ليس للأمير سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا، ويباح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير، كما أنه يباح للمسلمين أن يسكنوا في البلاد التابعة لفرنسا.

خامساً: يمارس العرب الساكنون في أراضي الفرنسيين ديانتهم بحرية.

سادساً: على الأمير أن يدفع للجيش الفرنسي ٣٠٠٠٠ كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران، وخمسة الآف رأس بقر، يؤدي ذلك على ثلاثة أقساط.

سابعاً: يسوغ للأمير أن يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الأسلحة.

ثامناً: على فرنسا أن تتخلى للأمير على أسكلة رشكون ومدينة تلمسان وقلعة المشور مع المدافع القديمة التي كانت فيها.

تاسعاً: تكون التجارة حرة بين العرب والفرنسيين.

عاشراً: يكون رد المجرمين بين الطرفين.

حادي عشر: يتبادل الممثلون بين الطرفين.

بعد التوقيع المعاهدة طلب الجنرال بوجو أن يجتمع بالأمير فعين له هذا مكاناً وتاريخاً، وجاء الجنرال في جيش ضخم قصد التأثير على الأمير، وأعد الأمير عدته وجاء في موكب كبير على رأس جيش يتكون من ١٥٠٠٠ فارس، سائرين بنظام عجيب في سهل يموج بهم وظهر الأمير وقد أحاط به نحو مائتين من رؤساء القبائل ممتطين لخيول عراب، متمنطقين بأسلحة مصقولة والأمير يتقدمهم على جواد عربي أسود من أجمل ما عرف بين جياد عصره، وحوله ستة من السياس. تقدم منه الجنرال فتصافحا ثم ترجلا، ودار الحوار التالي بين الرجلين:

. إنك تكسب أيها الأمير بهذه الهدنة حيث إنني بمدتها لا أخرب المواسم.

. هذا لا يضرنا يا جنرال، حتى إني أعطيك الرخصة بأن تخرب ما تقدر عليه، ولا يمكن لك أن تخرب إلا بمقدار زهيد، ومع ذلك عند العرب حبوب وافرة.

. أظن أن العرب لا يفكرون مثلك فهم يرومون الصلح بعضهم أثنى علي لكوني حافظت على المواسم كما وعدت ومنهم حمادة الصقال.

. فأجاب الأمير مبتسماً: ما هي المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا؟

. لا تكون أقل من أسبوعين.

. حيث إن الأمر كما ذكرت فلا نجدد العلاقات التجارية ولا نحدث شيئاً من مقتضيات المواصلة إلا بعد ورود الجواب من فرنسا.

ثم افترق الرجلان، ويروي ابن رابح أحد ضباط الفرسان الذين كانوا في حرس الأمير: أنه عندما وقف الأمير لوداع الجنرال قرّب إليه فرسه الأدهم الشهير ليركبه، وبعد أن صافح الجنرال ونزع يده من يده التفت إلى الفرس وعلا عليه في أقل من لمحة، وحركه بركابه فمرق بين الخيل مروق السهم، واندفع به ثلاث دفعات متوالية وعلى وتيرة واحدة، فانبهر

الجنرال لذلك، وتعجب من سرعة ركوب الأمير وخفة الفرس وبقي واقفاً برهة من الزمان ينظر نظر المتحير ثم ركب فرسه ومضى، وبعد أن سار الأمير على مسافة بعيدة من موضع الاجتماع، أمر الجنرال أحد ضباطه أن يرجع إلى المحل ويأخذ مساحة ما بين تلك الدفعات الثلاث فكانت مساحة ما بين كل منها تقرب من ثلاثين ذراعاً.

نالت اللغة العربية موقعها السيادي بالمعاهدة وهو موقف ثابت للأمير، فقد ورد في نصها ما يأتي: حرر نص المعاهدة على شطرين عربي وفرنسي، فكتب الأمير اسمه بخطه على الشطر العربي وختم عليه بخاتم الإمارة وكتب الجنرال بوجو اسمه بخطه على الشطر الفرنسي بخاتمه الرسمي وأعطى بوجو ٥٠٠٠ بندقية للأمير وصادق الملك لوي فيليب على المعاهدة بتاريخ ١٥/ ٦/ ١٨٣٧م١، وقد علق عليها رجال السياسة الفرنسيون: على أنها جعلت الأمير الأقوى بدون نصر عسكري، لكن في ذهن الجنرال بوجو فكرة يعمل من أجلها وهي تأمين جانب الأمير والتفرغ للإعداد لاحتلال قسنطينة وهزم أحمد باي، ثم العودة ومحاربة الأمير. وهذا ما لم يفهمه أحمد باي الذي رفض باستعلاء الانضواء تحت راية الأمير الذي يعتبر أقوى قائد عرفته المقاومة، ولو كتب لهذين الرجلين أن اتفقا لأمكن للتاريخ أن يغير مجراه٢.

وبعد المصادقة على المعاهدة أعطى بوجو أمراً للجنرال كافينياك بإخلاء تلمسان التي دخلها الأمير في موكب مبهر، واستقبله الشعراء بقصائدهم وأنشد هو قصيدة حيا فيها تلمسان ورد فيها:

ونادت أعبد القادر المنقذ الذي

أغشت أناساً من بحار هواها

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٥.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٥.

لأنك أعطيت المفاتيح عنوة

فزدني أيا عز الجزائر جاهاً

وما إن وضعت هذه المعاهدة موضع التنفيذ حتى اتجه الأمير لتقوية الأوضاع الداخلية لدولته[1]، فتوجه لمحاربة من شقّوا عصا الطاعة.

أ. محاربة من شقّوا عصا الطاعة:

ما إن وضعت هذه المعاهدة موضع التنفيذ حتى اتجه الأمير لتقوية الأوضاع الداخلية لدولته، فتوجه لمحاربة من شقوا عصا الطاعة، وبدأ بقضية محمد بن عبد الله البغدادي، فقد سبق أن حضر هذا الدعي من بغداد قبل سنوات، وزعم أنه من ذرية الولي عبد القادر الجيلاني، وأكرمه الشيخ محيي الدين والد الأمير، واستغل انشغال الأمير في ترتيب أمور دولته فتوجه إلى قبائل الزناخرة وأولاد نائل، والتقى بأكبر مشاغب ضد الأمير وهو مختار محمد بن عودة الذي قدمه على أنه البديل للأمير ووصفه بأنه محمد بن عبد الله المنتظر، فاجتمع له خلق كثير، فقرر الأمير وضع حد لذلك وتوجه له على رأس ثمانية الآف فارس وألف من مشاة وقطع من المدفعية والتقى بالمنشقين في بلاد أولاد مختار، ودامت المعركة ثلاثة أيام تعب فيها الأمير في كسر شوكتهم، ثم نصره الله عليهم.

توالى عليه شيوخ القبائل بالناحية فشفعوا في العصاة فقبل الأمير شفاعتهم وعقد لمحمد بن عودة رئيساً على قبائل الناحية بعد أن طلب العفو.

أما عن البغدادي ففي أثناء هروبه تمكن بعض أنصار الأمير من أسره وتسليمه للأمير الذي عفا عنه أيضاً، فانتقل للمغرب الأقصى واستقر به.

بعد هذا الانتصار قام الأمير بجولة بالجنوب فقدمت له وفود من الأغواط عرضت عليه طاعتها وطلبت منه تعيين من يسوس أمورهم، فعيّن السيد الحاج العربي بن السيد الحاج

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥١٦.

عيسى الأغواطي، وأقام بالمدية فاستقبل العديد من الوفود التي قدمت له من سائر أنحاء القطر حيث ألقى في الجهاد درساً في التوحيد.

وخرج من المدية على رأس جيشه بهدف تقويم اعوجاج قبائل وادي الزيتون، فهزم جموعهم وأسر رؤساء الفتنة، وجمع العلماء للحكم على هؤلاء الذين سبق لهم أن شقوا عصا الطاعة وشملهم عفو الأمير، فحكم عليهم مجلس العلماء بالإعدام، ومثُل أمامه ١٨ رجلاً منهم لتنفيذ الحكم فيهم فطلب منهم التوبة، فأجاب أحدهم: إن قطع أعناقنا أولى من تقديم الطاعة، فأمر الأمير الجلاد فقطع رأسه، ثم توالى الثاني والثالث فقطعت رؤوسهم إلى أن وصل الدور لشيخ هرم فقدم له وهو يرتعد خوفاً فهجم أطفاله على الأمير ووقفوا يتباكون وبينهم طفلة صغيرة السن خاطبت الأمير بقولها: بحق الله ووالديك وأولادك أن تعفو عن والدي. فلما سمع الأمير كلامها غلبت رحمته على غضبه وأمر بالعفو عن والدها وعن الباقين، واحتضن البنت وقبلها لتسببها في حلمه، وأعلن العفو عمن خالفوه ورد أموالهم لهم، ولما سمعت القبائل المعارضة هرعت إليه وطلبت العفو وعاد إلى المدية بعد أن ثبت كل رئيس قبيلة على قبيلته[1].

ب . التصدي للمتمرد محمد التيجاني:

سبق أن استقبل الأمير وفوداً من قبائل الأغواط الشراقة حيث طلبوا منه قبول انضمام ناحيتهم إلى دولته، فقبل وعيّن على ولايتهم السيد الحاج العربي، لكن محمد الصغير التيجاني رفض الانضواء تحت راية الأمير واستطاع التأثير على بعض القبائل فتبعته، فتوجه له الأمير على رأس جيش يوم ١٢/ ١٨٣٨/٦م قوامه ٦٠٠٠ فارس و٣٠٠٠ من المشاة وثلاثة مدافع وست هاونات ووصل المنطقة بعد عشرة أيام سيراً في الصحراء، وكان التيجاني يتحصن في حصن بعين ماضي، حاول الأمير فتح ثغرة في الحصن، أو نفق يتسلل منه جنوده، لكن المحاولات باءت بالفشل، فقرر فرض حصار منيع عليه دام ستة

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٨.

أشهر، وعندما عض الجوع سكان الحصن، ضغطوا على التيجاني الذي أرسل يوم ١٩ نوفبر ـ تشرين الثاني إلى خليفة الأمير السيد الحاج مصطفى التهامي، يستأمن على نفسه وأهله وسكان الحصن وطلب منه منحه مهلة أربعين يوماً لإخلاء الحصن، فعرض الخليفة الأمر على الأمير، فقبل وأخلى الحصن في التاريخ المحدد وأمر الأمير بتدميره[١].

كان محمد التيجاني يعتقد أن الأمير عبد القادر سينهزم وخطب في مريديه بقصره بعين ماضي قائلاً: إن عبد القادر سيفشل بحربه ضد فرنسا حتى إن انتصر لا يفيدنا بشيء فنحن التيجانية خلفاء الله في أرضه[٢].

بهذه القناعة كان التيجاني يتعامل مع أمير البلاد الذي كان يعتبرهم من المرابطين على الرغم من ملاحظاته على بعض أفكارهم وتصوراتهم ولكنه اعتبرها بينهم وبين رب العالمين، ولكن عندما قرأ رسالة بخط محمد التيجاني مرسلة إلى المارشال فاليه كتب له فيها: اشغل أنت الأمير من جهة البحر، وأنا سأشغله من جهة الصحراء. هذه الرسالة لم تصل إلى فاليه لأنها وقعت بيد فرسان الأمير أثناء أحد المكائن، ومنذ ذلك الحين والأمير يتحين الفرص لإخضاع هذا المتمرد الذي كان يظنه من المتعبدين فخاب ظنه فيه والذي لم يقتصر عمله على عدم دفع الزكاة التي فرضت على أساس شرعي فقهي، وإنما تطال إلى درجة الخيانة[٣].

كان في ذلك المكان من الأغوات جنوب الصحراء نبع ماء منذ أقدم العصور، سمي المكان باسم العين "عين ماضي" شيّد فيه أجداد محمد التيجاني ثلاث مئة بيت وقصراً منيفاً وأبراجاً تحيط بها جدران كثيفة من الحجر، وزاوية تدرس فيها الطريقة التيجانية التي من أهم مبدأ في عقيدتها هو السلام، وهذا ما جعل الأمير وأركان دولته في البداية يظنون بهم الخير والصلاح، ولكن الأيام كشفت حقيقة هذه العقيدة، وأن مفهوم السلام عندهم

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٥٢١.

[٢] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ١١٥.

[٣] المصدر نفسه.

هو القبول بحكم الأقوياء حتى لو كانوا من الغزاة المحتلين وتهيئة النفوس لقبول الاستعمار والاحتلال على شرط عدم المساس بهيئتهم الشخصية ومصالحهم الذاتية البحتة، وأيقن الأمير أن الحرب ليست بينه وبين جنرالات المحتلين، فقط وإنما بين قوى الشر أيضاً في البلاد، ومن خيمته داخل الأدغال أخذ يدير أعماله الإدارية، ويوقع على القرارات التي تستوجب توقيعه[1].

اضطر التيجاني نتيجة الحصار إلى التسليم ونزل على شروط الأمير عبد القادر وهي:

- أن يرسل الشيخ أحد أولاده ليظل رهينة عند الأمير ريثما يتم الجلاء عن الحصن.
- أن يدفع الشيخ مصاريف الحصار للدولة.
- له الحق بأخذ جميع أمواله بلا استثناء[2].

فقبل التيجاني هذه الشروط ووقَّع عليها، وأرسل ابنه فأمنه الأمير وأحسن معاملته، وقبل انتهاء المدة كان الشيخ قد خرج بأهله من الحصن، وبعد ذلك بأيام وقبل عودة قواته إلى مراكزها أمر بتهديم الحصن والسور وسائر الأبراج وسواها بالأرض وغور ماء الآبار، فسارعت أكثر القبائل المحيطة بالحصن إلى دفع الزكاة وكاتب وفد منها أمير البلاد وعندما جلسوا بين يديه قال لهم: أيها المسلمون، لقد نصرنا الله على العصاة أيها الرجال إننا نبني دولة تصون أعراضكم وتحميها وتؤمن لكم العزة والكرامة وتحمي أموالكم ودينكم، إن الله سبحانه وتعالى أراد لي تحمل هذه المسؤولية التي ليست مسؤوليتي وحدي إنها مسؤوليتكم وبناء الدولة والمحافظة على نظامها وقوانينها هي جهاد، لأن الجهاد في سبيل الله ليس فقط قتال العدو وإنما أيضاً البناء وتقوى الله فاتقوا الله في أنفسكم وفي دولتكم الإسلامية ونظامها الإسلامي الإلهي العظيم الذي تجدون فيه حلولاً لجميع المشاكل التي تعترض حياتكم الاجتماعية والزراعية والاقتصادية، قفوا بقوة في وجه تحديات المحتلين

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

وإغراءاتهم فهي مؤقتة وزائفة فعلت أصواتهم "الله أكبر" وخرجوا وألسنتهم تلهج بالدعاء لأمير البلاد[١].

كانت معاملة الأمير للأسرى الذين وقعوا في قبضته من اتباع التيجاني أثناء الحصار متقدمة ومتميزة فقد كان جلّ هؤلاء الأسرى يقيمون مع المقاتلين بنفس الخيام يأكلون معهم ويصلون خمس أوقات في اليوم معهم، وبعد ايام أعادوهم إلى الحصن، فأخبروا ذويهم عما شاهدوه من قوة جيش الأمير ونظامه، وشاعت هذه الأخبار كالنار في الهشيم بين سكان الحصن، فذهب عدد من المريدين لمقابلة شيخهم قائلين: أنظر ما آل إليه حالنا وأنت الذي علمتنا عدم مجابهة بعثة العدو، وإن كان أقوى منا، وهذا العدو مسلم مثلنا يصلي صلاتنا ويتكلم لغتنا ونحن من بايعناه منذ سنوات، ولقد سمعنا أن الفرنسيين المحاصرين في وهران أضطروا لأكل القطط والفئران نتيجة الحصار الذي فرضه الأمير عليهم فهز الشيخ رأسه وأمرهم بالخروج من الحصن رافعين الراية البيضاء طالبين مقابلة الأمير[٢]، وتمّ بعد ذلك ترتيب أمور الاستسلام وفق الشروط التي تمّ ذكرها.

ج ـ مراجعة علماء المغرب الأقصى:

كان الأمير يعمل على إحاطة دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو، وأراد أن يحيط علماء المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة فأرسل جماعة برئاسة عبد الله سقاط تحمل أسئلة موجهه إلى علماء المغرب الأقصى طالباً منهم الإجابة عليها، وقد أجاب عليها شيخ الإسلام الإمام التسولي. وقبل الاتصال بالعلماء قصدت البعثة سلطان المغرب حاملة رسالة من الأمير.

وكانت الأسئلة تدور حول: كيف تعامل القبائل المنهمكة في المحرمات والعصيان؟ كيف يعاقب الجواسيس والنصاب؟ وما هي الأشياء التي لا يجوز بيعها للنصارى؟ كيف يعاقب

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١١٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١١٦.

العاصي بالمال وما فيه من الخلاف وتضارب الأقوال؟ كيفية تحريم ترك الإمام ونواب الرعية على ما هم عليه من المفاسد وارتكاب المظالم؟ وما هو حكم المتخلف عن الاستنفار للجهاد وما العقاب المسلط عليه؟ وما ينبغي أن يفعله الإمام قبل أن يستنفر الناس؟ ما هي الأمور التي تجوز أن يُتصالح حولها مع العدو؟ ما هي المصادر التي يجوز أن يرتزق منها الجيش في حال فراغ بيت المال في الحال والأبدان والمال؟ ما حكم من ساكن العدو الكفور ورضي بالمقام معهم في ما لهم من البلاد والثغور؟

كان قصد الأمير من هذه الاستشارة القانونية من علماء المغرب إبراء ذمته أمام الله وتجنبه من أن يعاقب خارج أحكام الشريعة، وتقوية موقفه أمام الناس الذين سيشعرون بأن الأمير يطبق عليهم ما أمر به الله بشهادة علماء متعمِّقين في الشريعة وأصول الدين[1].

د . التوسع في بناء الحصون ومصانع الأسلحة:

كانت معاهدة التافنة هدنة مؤقتة يلتقط فيها أنفاسه ويزيد فيها من قوته العسكرية والاقتصادية لا غير ولقد ذكر الصحفي البريطاني شارل هنري شرشل بعضاً من نصوص هذه المعاهدة المهمة وبناء على ذلك اعترف سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام بسلطة الأمير مرسلاً إليه الهدايا الثمينة وكتب ليون روش فقال: لقد خلع المبعوث الرسمي للسلطان عبد الرحمن في ٣ يوليو من عام ١٨٣٩م قفطان المبايعة على الأمير عبد القادر، وهذا يعني اعترافه به كملك مع الهدايا النفيسة، وكذلك حذا حذوه أمير الحجاز وغيره من الحكام الذين اعترفوا بهذه الدولة الفتية[2].

وبهذه الهدنة المؤقتة نظم الأمير الكثير من الأمور التي تَهُمُّ الشعب والجيش، وشيّد الكثير من القلاع والحصون: فأمر ببناء حصن من الخط الفاصل بين السواد والصحراء وحصون أخرى منها حصن سعيدة، وحصن سبدو في الجهة الغربية، وحصن تاكمدت الشهير في الجهة الجنوبية والشرقية وحصن بوغاز، وحصون سبأ وعريب وبو خرشفة وحصن طازة،

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٥.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٨١.

وذات جولة مرّ بحصن طازة ورأى المنشآت التي شُيّدت في أقصر زمن وحمد الله وشكره، وارتجل هذه الأبيات وأمر بكتابتها على باب الحصن بخط كبير مقروء:

الله أعلم أن هذا لم يكن
منّي على الأمد الطويل دليلا
كلا وإن منيّتي لقريبة
منّي وأصُّبحُ في التراب جديلا
ورضا الإله هو المنى ويكون
من بعد انتفاعُ الخلق طويلا[1]

كما أن مصانع عديدة أُنشئت في المدن التي كانت تحت سيطرة الأمير وأن مطاحن البارود وإذابة الحديد آخذة بالعمل وهي تنتج قناطير من البارود يومياً وأنشئت مصانع كثيرة في قلعة بني راشد وحصن بلال وحصن شرشال، كما تصنع المدافع في تلمسان وغيرها من المدن والحصون.

هذه المعلومات العسكرية، كانت تصل إلى السلطات الفرنسية بواسطة خبراء من جنسيات مختلفة بسرية تامة ويضيف دولا كروا: وإلى الآن يوجد ثلاثة مدافع في متاحف باريس نُقش على سبطاناتها بالخط العربي الجميل "عُمل في تلمسان وقت إمارة ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين سنة ١٢٥٥ للهجرة".

وقد أُمر حينذاك كلُّ من يحصل على بارودة فرنسية أن يسلمها إلى رئيس معامل السلاح ويأخذ ثمنها اثني عشر ريالاً جزائرياً، وجعل الأمير في الحصون الكثير من الكوادر الصناعية لإصلاح الأسلحة وسروج الخيل، وكان أغلبهم من المسلمين القرداحية

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٨٢.

المشهورين بهذا النوع من العمل ووضع الحاميات المسلحة في المضائق والنقط الهامة في البلاد، كمخافر أمن وجعل ألبستها في الشتاء الجوخ الأحمر[1].

كتب الصحفي شرشل فقال: إن هذا الشاب على الرغم من صغر سنه بنى دولة فيها جميع المؤسسات الرسمية التي لم يسبق لغيره أن أسسها قبلُ في تلك البقاع من العالم، ومنها فتح المدارس والمشافي الحكومية.

هـ . المارشال بيجو يخشى من توسع دولة الأمير:

أصاب بيجو غضب شديد عندما علم بانتصار الأمير على التيجني وهزيمة بني عراش أيضاً وإخضاعه لمعظم القبائل وتوسعه في بناء الحصون والمصانع وتطوير الجيش النظامي، وأنه في طريقه لإنشاء إمبراطورية جزائرية يصعب التفاهم معها، فكيف بالسيطرة عليها وأصبح خطره أكبر على مدينة الجزائر وما زال يعتبرها مدينة محتلة مع اعترافه بسيطرة الفرنسيين عليها، لأنه أمر واقع ولا يستطيع نكرانه ورسائله إلى الملك تدل على ذلك، وعلى مفهومه للمعاهدة، وبهذا المنطق بدأ المارشال بيجو يقنع زملاءه من المارشالات، والوحيد الذي كان يجد أعذاراً للأمير، كان الدوق أرليون الذي اشتهر بذكائه وصرّح ذات يوم للمارشال فاليه برأيه قائلاً: إنني لا أستطيع المشاركة في أمر يهد السلام مع الأمير عبد القادر ولا أريد استفزازه، وهذه قناعتي ولا أوافق على احتلال مليانة والمدية ونسف المعاهدة ولكن بيجو كان مصمماً على التخلص من المعاهدة بأي شكل[2].

بعث المارشال بيجو في رسالة في ٢٤ نوفمبر / تشرين ثاني عام ١٨٤١م إلى وزير الدفاع: هل نستطيع أن نجري في كل مكان..؟ هل نستطيع أن نصدّ جميع الضربات؟ هل نستطيع تجنيد مائة ألف رجل لملاحقة رجل واحد هو عبد القادر؟ من الواضح أننا لا نستطيع ذلك مستحيل لذلك يجب علينا الوصول إلى السكان الذين يمدونه بالعون، لا بد من عمل متواصل لحصاره وتقويض أركان قوته من الداخل.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٨٥.

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢٠.

توهمت فرنسا أن هذه الاتفاقية ستجنبها شروراً كثيرة كانت تتهيب لها، منها دخول قواتها الصحراء واجتياز جبال أوراس الصعبة المسالك والمختلفة المناخ لاحتلال كامل التراب الجزائري، وكما تدل الأحداث كانت تفضلّ بالدرجة الأولى التحالف مع الأمير، ثم تحقيق السيطرة الاقتصادية، ومن ثمّ السيطرة السياسية وهذا أفضل لها من خوض غمار حروب ومعارك دامية طويلة الأمد ترهقها اقتصادياً وعسكرياً ولكن الأمير كان صعب الانضواء مدركاً تمام الإدراك مجريات الأمور[1].

ظل الأمير على هدفه الراسخ وهو أن بقاء الفرنسيين في الجزائر ـ رغم إنتصاراتهم ـ إنما هو بقاء السحابة الصيفية وكان يرفض رفضاً قاطعاً الاعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر في كل المواثيق والمراسلات. وكان على يقين من أن موجة التاريخ وإن تصاعدت مع الفرنسيين في عهده، فإنها ستنحسر وتتراجع لا محالة وتتكشف بعد ذلك عن فظائع ارتكبت في حق الإنسانية تحت غطاء الموجة العاتية، فقد كتب رسالة إلى بوجو سنة ١٨٤١م إن فرنسا ستمضي وسنتراجع نحن، ولكنها بدورها ستضطر إلى التراجع وعندئذ سنعود. وقد شبه الأمير مقاومته وهي في عنفوانها بالموجة التي لا تتأثر بلمسة من جناح طائر: هل تتوقف الموجة عن الصعود والتضخم عندما يلامسها جناح طائر أثناء طيرانه السريع؟ تلك هي صورة مروركم بالجزائر[2]، وبعد ثلاث سنوات من الهدنة وجد كبار السياسيين والعسكريين في فرنسا أن هذه الاتفاقية هي هدنة مؤقتة وليست صلحاً كما أرادوها، وأن الاستمرار فيها ينطوي على أخطار كبيرة على المصالح الفرنسية وتأكدوا أن الأمير عبد القادر بدهائه السياسي وقدراته العسكرية وفريقه المتميز ومجالسه الشورية التي لاحقوها تنمو يوماً بعد يوم، وشعبيته التي تزداد انتشاراً واتساعاً سنة بعد سنة، كان تهديداً لمصالحهم ورأوا ضرورة القضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم في مفهومهم الاستعماري وهكذا بدأت الخطط تحاك في باريس وأخذت الإمدادات العسكرية والمالية

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٨٦.

[2] حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، ص: ١١.

تتواصل بحراً إلى مدينة الجزائر ووصلت أخبار هذه الإمدادات إلى أسماع الأمير بفضل جهاز مخابراته، فبعث إلى خلفائه في الولايات والثغور ينبِّههم ويحذرهم من غدر الأعداء ويأمرهم بالتأهب للقتال إذا دعت الحاجة لذلك.

كان الأمير يريد إطالة أمد الهدنة، فعمد إلى إرسال رسائل إلى ملك فرنسا يشرح له مساوئ بعض بنود المعاهدة ومغبة انتهاك حرمة البلاد من قبل قواته في بلاد ليست له. ويطلب منه ترك المطامع في التراب الجزائري واحتلاله على الرغم من إرادة أهله قائلاً: وإن ما أقام به أوجبته عليَّ شريعة الدين، الذي أؤمن به وإن واجبي القومي والديني يأمرني بعدم التخلي عن شبر من أرض وطني وقواتكم تحتل قسطاً عظيماً من بلادنا، وتحاول التوسع على حساب شرفنا وكرامتنا وهذه كلها أسباب تلزمنا باستنشاق الحرب وبالله المستعان، فاسحبوا وكلاءكم من بلادنا والمسؤولية عليكم وحدكم. كانت هذه آخر رسالة كتبها الأمير قبل إعلان الحرب[1].

خامساً: استئناف الحرب

قام المارشال بيجو بإرسال قوة مسلحة من جنوده دخلت مناطق دولة الأمير من غير إذن من السلطات، وهذا خرق صريح لبند من بنود المعاهدة ومرت بباب الحديد وجاءت الأخبار عن طريق المختصين للأمير، فكتب إلى سلطان المغرب رسالة حدثه فيها عن استفزازات المحتلين، طالباً منه النصح فجاء جواب السلطان ومختصره ما يلي: بعد الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبيه الكريم ابن عمنا، ومحل ولدنا الذي نظم به الله شمل الأمة وجلّى بنور صدقه الشدائد، حامي حمى الإسلام الأمير المجاهد الحاج عبد القادر بن محي الدين، أيدك الله بنصره وتوفيقه وقد وافانا الوفد من جنابكم وعملاً بحسن ظنكم قابلناه بالقبول الحسن، فأنت والحمد لله من دينك على بصيرة، ومن سياستك على أقوم سيرة، فقد مارست أحوال العدل سلماً وحرباً، واطلعت على بعض

---

[1] الأمير عبد القادر، سيرته المجيدة، ص: ٨٨.

دسائس الأعداء فأمرهم كله غدر، فكن على بصيرة وأبدي تحبباً ووداداً وانتظر غدراً وعناداً، ولقد فعل ذلك بالأندلس وأهلها، أعدل شاهد وبرهان، وليس الخبر كالعيان، قال تعالى :" خُذُواْ حِذْرَكُمْ" (النساء، آية : ٧١).

وقال تعالى :" وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ" (آل عمران، آية : ٧٣).

وأي خير يحبه العدو للمسلمين، فإذا كانت النهضة لله والعزيمة لنصرة الدين كللت المطالب، وإنما الأعمال بالنيات أيدكم الله بالتوفيق من عنده، ونسأل الله أن يجدد بك الآثار، ويجعلك من الأئمة المهتدين ويصلح بك وعلى يدك، آمين من الولي عبد الرحمن ابن المولى هشام ابن المولى محمد في أواخر ذي القعدة ١٢٥٤هـ وأرسل مع هذه الرسالة عدداً وافراً من الأبقار والأنعام وهدايا من المفروشات وفهم الأمير عبد القادر من جواب السلطان تأييداً لما سيقرر[١].

١. اجتماع الأمير مع أعيان الدولة:

وفي السادس من شهر كانون الأول عام ١٨٣٩م عقد اجتماعاً دعا إليه كبار زعماء القبائل وأعضاء مجلس الشورى ووزراءه وقادة الجيش وأطلعهم على رسالة السلطان عبد الرحمن ورأيه ومرور الجنود من باب الحديد وأمور أخرى تدل على إمكانية الغدر وعدم الوفاء وقال: إنني أقترح إعلان الحرب لئلا نفاجأ بما لا تحمد عقباه، شكل الأمير فوراً وزراء حرب، ولم يفرض ضرائب على السكان مع أن زعماء القبائل عندما سمعوا نداء الحرب تسابقوا لتقديم أنفسهم وأموالهم ولكن لم يطلب منهم شيئاً سوى عدم تقديم العون للمحتلين، وكانت استطلاعات الرأي وحماس السكان حتى في زمن السلم تقول: إن أمير البلاد إن فرض شيئاً لا يكون لنفسه، لأنه مليء بمزارعه في القيطنة وحول قصر كاشرو تمده بأكثر ما تحتاج إليه عائلته من الأموال، وأنه يعيش حياة بسيطة ليس فيها أثر للأبهة

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢١.

والعظمة وعظمة الملوك، وإن واردات الدولة من المناطق الشاسعة بالإضافة إلى الزكاة يبدو أنها ساهمت في بناء الدولة[1].

٢. معارضة بعض القبائل للحرب:

جاءت المعلومات الاستخباراتية للأمير بأن قبائل أولاد نائل وأولاد مختار وموسى وعبيد شكَّلوا وحدة لمعارضة العودة إلى الحرب وأنهم يستعدون لمقاومة الجيش النظامي للدولة، ويجهزون رجالهم، فعرض الأمر على أركان قادة الجيش، وأخذ القرار بالتصدي لهم وأمر أمير البلاد بن علال بتجهيز قوة من ١٢ ألف فارس وعدد من المدافع لمحاصرة تلك القبائل وإرهابهم وفي الموعد الذي حددوه لابن علال خرج من مدينة معسكر وكان قد مضى عليه أسابيع لم يدخل داره فيها، فأرسلت إليه زوجته للعودة إلى الدار وليوم واحد فأجابها برسالة قصيرة كتب لها فيها: أنتِ منذ اليوم الأول لمبايعتي قبلت عقد زفافي إلى أخرى وهي بلادي وما عليك الآن إلا الصبر الجميل، قال تعالى :" وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" (البقرة، آية : ١٥٥).

دام حصار هؤلاء ثلاثة أيام كانوا خلالها يتحصنون وراء متاريس أقاموها فوق المرتفعات قرب حصن بو غار، وعندما أدركوا أن لا فائدة لهم من تلك التحصينات استسلموا وتقدم ابن المختار شخصياً ورمى سلاحه أمام الأمير وطلب العفو، ولم يكتف الأمير بالعفو عنه وإنما عينه قائداً على تلك القبائل التي هزمت من غير قتال، وهكذا أصبح ابن المختار من أكثر المناصرين إخلاصاً للدولة، وتقدم الزعماء لتقديم الولاء للأمير، والترحيب به وتكونت حول الأمير دائرة واسعة من الرجال فخاطبهم الأمير بقوله: إننا لم نأت إليكم لإخضاعكم بالقوة، وإنما جئت إليكم كمجاهد يقاتل لإعلاء كلمة الله وهزم المحتلين لبلادكم، وإذا قلتم أن أعداءنا أقوى منا فالله سبحانه وتعالى قال :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

[1] المصدر نفسه، ص: ١٢٤.

آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ" (آل عمران، آية : ١٤٩).

. وقال تعالى :" الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا" (النساء، آية : ١٣٩).

. وقال تعالى :" بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (النساء، آية : ١٣٨).

واستمر الأمير بمخاطبتهم بكل ود ومحبة ثم قال: إن الله بشّرنا فذكر في كتابه :" كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ" (البقرة، آية : ٢٤٩).

واعلموا أن الفرنسيين قد تركوا بلادهم وجاؤوا لأخذ أرضنا والاستيلاء على خيرات بلادنا ليزيدوا من رفاهية شعوبهم، غير أننا سنكون الشوكة التي وضعها الله في عيونهم، وإذا وقفتم معي فسنعيدهم إلى بلادهم خاسئين، ولا أطلب منكم سوى المحافظة على قوانين دولتنا الإسلامية، إنني أدعوكم إلى الجهاد في سبيل الله، ولن أولي عليكم إلا من تريدونه وتقبلونه، واقترح بن سالم، ثم طلبوا من الأمير قبول ضيافتهم، ووضعوا أمامه أطباقاً مغطاة باللحوم، من كل قبيلة قصعة، فاضطر الأمير لمجاملة الجميع فتذوق من كل قصعة لقمة وغادروهم ومنذ تلك الزيارة لمناطق جرجرة أصبح اسمه ملهماً لشعرائهم وموضوعاً لأغانيهم الشعبية، وأصبحت قوة الأمن أثناء الهدنة على درجة عالية من اليقظة وبات الناس آمنين في تجوالهم وحياتهم وأصبحت المرأة تستطيع، كما يذكر المؤرخون، أن تخرج وحدها من غير خوف واختفت البدع التي كانت تمارس في الزوايا، وعاد معظم السكان إلى هدي القرآن الذي كانوا مبتعدين عنه، ولم يعد أحد يتجرأ على شرب الخمر أو بيعه، وكذلك الميسر وحرم الغش على التجار وكان رجال الأمن بمثابة المحتسب في فجر الإسلام يتجولون في الأسواق، يراقبون الباعة والأسعار ويمنعون الغش والطغيان والفساد

والمناصب الحكومية لم يكن يشغلها سوى رجال عرفوا بالسمعة الطيبة والنظيفة والشخصية القوية والنسب المعروف، كانوا قدوة يحتذى بهم وحكاماً صالحين[١].

٣. رسائل الأمير إلى ملك فرنسا وقادتها:

عاد الأمير من مناطق جرجرة بعد اطمئنانه على سير الأمور فيها وكلّف لجنة برئاسته بالتحقيق في مرور القوات الفرنسية من باب الحديد ودخولهم مدينة سطيف، وخرجت اللجنة بالتقرير الآتي: عندما شوهدت أعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين تتجه نحو مدينة سطيف، أسرعت القبائل المقيمة في ذلك المكان وطلب شيوخهم مقابلة قادة الجنود، فقابلهم كبار الضباط وأطلعوهم على رخص من الأمير بتوقيعه وختمه تسمح لهذه القوات بالمرور كزوار، وطلبوا من يرشدهم إلى باب الحديد، فرأى الشيوخ أن من واجبهم إكرام الضيوف زوار دولتهم، ولم يكن أحد منهم قد سمع بإلغاء المعاهدة والعودة إلى الحرب فأرسلوا معهم من يرشدهم إلى الطريق وهم سعداء بتسهيل زيارة ودية للضيوف، وعادت تلك القوات بعد يومين إلى مدينة الجزائر وكأنها انتصرت، متخيلة أنها احتلت الجزائر كلها، فأقاموا لهم الزينات وقدمت الأوسمة، من جهة أخرى اعتبر أمير البلاد هذا الفعل غدراً ونقضاً هاماً للمعاهدة فأرسل رسالة غاضبة شديدة اللهجة إلى ملك فرنسا، ورسالة أخرى إلى المارشال فاليه الذي قاد الحملة قال فيها: إن القصد من فعلكم هذا إظهار التعدي على حقوقي وما ناقض للمعاهدة مبطل لها، وبناء عليه أعلن لكم أنني عزمت على استئناف الحرب، وبالله المستعان فارفعوا وكلاءكم من بلادي، وأنذروا قومكم المقيمين فيها والمسئولية عليكم وحدكم، إن خرق المعاهدة جاء منكم، وحتى لا تتهموني بخيانة تعهداتي فإنني أخبركم إنني قررت استئناف الحرب، فاستعدوا إذن واتخذوا كل الاحتياطات التي ترونها[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٢٥.

[٢] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢٦.

٤. نداء للشعب والأوامر إلى خلفاء الأمير:

بينما أمير البلاد كان يرسل رسائل الاحتجاج إلى ملك فرنسا والمارشالات في مدينة الجزائر بنفس الوقت وجه نداء إلى شعبه والأوامر إلى خلفائه في المدن يأمرهم بالاستعداد للحرب وبزيارات للمستشفيات وتفقد أنظمتها وتلبية حاجتها من أطباء وممرضين وأدوية ويكتب رسائل إلى زعماء القبائل الموالية له يطلب منهم الاستعداد للجهاد في سبيل الله وتطهير البلاد من المحتلين والغزاة ومما جاء في ندائه الموجه إلى الشعب: ليكن في علم سائر الخلفاء والأغوات والقواد وكافة المسلمين أهل بلادنا الدائنين بطاعة الله ورسوله ثم طاعتنا وفقكم الله للقيام بفريضة الجهاد وأعانكم بالقوة والإمداد، إن الفرنسيين قد ظهر عدوانهم واتضح اعتداؤهم فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا وبينهم ومروا في بلادنا بين قسنطينة والجزائر بدون إذن منا، فتأهبوا ـ أعانكم الله ـ للعرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضراب، واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم، وأجمعوا أمركم للذب عن موردكم وعيشكم وحيث إن ما في بيت المال من النفوذ لا يفي بنفقات الحرب، فقد تعين عليكم أن تفرضوا على أنفسكم ومن يليكم إعانة جهادية، وسارعوا بالحضور إلى المدية، فإنني أنتظركم فيها. واعلموا أن النجاح موقوف على إخلاص النية فوجهوا قلوبكم إلى الله تعالى واطلبوا منه تأييد كلمته وتشييد أركان دينه بكم والسلام عليكم[1].

وأخذ الأمير عبد القادر يعقد اجتماعات يومية للمجلس الحربي ويصرح في كل مرة قائلاً للقادة: إن الوقت كالسيف إن لم نقطع به الوقت قطعنا، وإنني أشعر بإيقاع الزمن الذي يجب علينا استغلاله لصالح دولتنا يجب استدراج العدو إلى المناطق البعيدة عن المدن لئلا تصبح هذه المدن الرائعة ساحات لمعارك دامية وخرائب تحتضن جثث الأطفال والشيوخ والمرضى وتصبح نساؤنا عرضة للقتل أو الأسر، كان الأمير يتحرك بسرعة هائلة ينظم ويتفقد بنفسه حاميات الحصون والمشافي الميدانية، وكان يقول: إن الحاكم الذي لا يهتم

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٨.

بصحة شعبه يعتبر آثماً، ومن الأنظمة التي وضعها للجيش قانوناً يأمر بدقة اختيار الضباط بمواصفات محددة، أولاً: أن يكون الضابط صحيح البنية، ينحدر من أسرة معروفة أصيلة، لم يتهم بخيانة أو قتل مثقفاً دينياً، يقوم بالفروض المعروفة في الشرع ويمتاز بالشجاعة متخلقاً بالأخلاق الإسلامية ورابط الجأش، ونظام الحاميات في الحصون يلزم الضابط بالعيش مع جنوده يشاطرهم معيشتهم ويشرف على تدريبهم اليومي ومن مهمات هذه الحصون أيضاً حماية المدن ونصب الكمائن للعدو، ويذكر المؤرخون أن هذه الإستراتيجية غطت جوانب عسكرية عديدة هجومية ودفاعية، وبعد استكمال الأمير لهذه الجولات الميدانية والتنظيمات الإدارية والعسكرية والسياسية صدرت أوامره إلى القيادات العسكرية بالزحف إلى معسكرات العدو[١].

٥. الزحف إلى معسكرات العدو وحصونه:

في السادس من شهر كانون الأول سنة ١٨٣٩م عقد الأمير اجتماعاً دعا إليه أعضاء مجلس الشورى وزعماء القبائل والخلفاء وقادة الجيش والعلماء واتخذوا بالإجماع قرار استئناف القتال وصدرت الأوامر إلى القيادات العسكرية بالزحف إلى معسكرات العدو وحصونه وعُيّنت أماكن وخطط وبرنامج مدروس لكل فرقة، وقبل أن تعطي ساعة الصفر تحرك الأمير على رأس فرقة نحو الشعة الذي كان الحد الفاصل في أثناء الهدنة واشتبك هناك أو تلك الأحراش مع القوات الفرنسية وانتصر عليها وأمر بتشديد الحصار على مدينة وهران، وكلّف عدداً من فرسانه النظامية مراقبة جميع الطرق المؤدية إلى وهران واعتقال كلّ من يحاول فك الحصار والتجارة مع الأعداء المحتلين وقد كان أول من دفع حياته ثمناً للخيانة السيد المدني قاضي أرزيو الذي بعث إلى الحامية الفرنسية قطيعاً من الأغنام يبلغ عدده ٣٠٠ غنمة و ٥٠٠ جواد، وحوكم ومن ساعده ونُفذ فيهم حكم

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٨٩.

الإعدام بالرصاص وحاصر "عين مالفي" واحتلها ثم تحرك على رأس قوة من فرسانه المشاة، وهاجم قبائل الدوائر والزمالة في ضواحي وهران واكتسح معسكراتهم، وأسر الكثير من رجالهم[1]، وانطلق ابن سالم بقبائل الحجاجطة وغيرها فاكتسح المتيجة وهدم سائر المزارع والمعسكرات ودمر في أيام ما بناه الفرنسيون في سنوات، وتحولت بوفاريك من قرية كولونيالية نموذجية إلى مقبرة دفنت فيها كل مشاريع الاستيطان.

ولم تكد تنتهي سنة ١٨٣٩م حتى هرب الكولون الناجون من القتل من المتيجة داخل مدينة الجزائر، فقد طاردهم المجاهدون حتى حديقة التجارب ثم عادوا إلى موقعهم بالمغانم والسلاح والذخائر[2].

وقد وصلت هذه الأخبار إلى بيجو الذي استشاط غضباً واستولى عليه الهلع، وجاء في التقرير السري الذي أرسله رجال الاستعمار إلى وزير الدفاع في باريس: إن الأمير عبد القادر يتابع ملاحقة جيشنا الذي هُزم في سيدي إبراهيم والمئات من جنودنا يتسابقون في أثناء الانسحاب إلى نواحي أرزيو وهم في غاية الإنهاك والخوف، ولم يبق إلا عدد قليل لم يقتل أو يؤسر[3].

أ. تحرك المارشال فاليه الحاكم العام:

في فبراير. شباط ١٨٤٠م تحرك المارشال فاليه الحاكم العام على رأس جيش ضخم نحو المدية، فاحتل البليدة، ثم قصد المدية فاعترضه خليفة الأمير بمليانة وناشبه الحرب واتصل القتال يوماً كاملاً، ولحقت أضرار جسيمة بالفريقين ثم عاد المارشال للجزائر وفي ١٥/ ٣/ ١٨٤٠م احتل الجيش الفرنسي شرشال وعلى رأسه المارشال فاليه وكانت عبارة عن قرية صغيرة يسكنها البربر والكراغلة وقبل أن يصل شرشال اعترضته القبائل القريبة منها

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٨٩.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٨.

[3] المصدر نفسه

وأوقفت تحركه أياماً جعلت المارشال يفكر في العودة دون دخول شرشال، وتمكن من التقدم بعد أن كبده المقاومون خسائر جسيمة، ثم عاد المارشال للجزائر بعد أن ترك بها حامية، وكانت الإمدادات تتواصل من فرنسا إلى قواتها بالجزائر وفي أفريل ـ نيسان وصل الجزائر من فرنسا ابنا الملك الدوق دومال والدوق دورليان على رأس جيش ضخم فخرج جيش قوامه ١٢٠٠٠ جندي بقيادة المارشال فاليه إلى المدية يصحبه ابني الملك، وكان الأمير بها فتحرك منها ورابط في مضيق موازية، واصطدم بالعدو ١١/ ٥/ ١٨٤٠م ودامت المعركة حتى سقوط الليل وفي الغد استؤنفت الحرب والتحم الجيشان واستعملت السيوف والحراب والخناجر، وتمكن العدو من اختيار المضيق وتقدم المجاهدون يناوشونه نحو المدية، وكان كلما وصل غابة أو وادياً استقبله المجاهدون بكمين، وعندما أحس الأمير بأن جيش العدو واصل المدية أمر بإخلائها فغادر الناس منازلهم نحو الجبال المحيطة بالمدينة بما خف وزنه ودخل العدو المدية يوم ١٨ مايو ـ أيار وبعد أن ترك بها حامية من ٥٠٠٠ جندي وعلى رأسها الجنرال دوفييه وعاد للجزائر واصطدم بالكمائن والقنص التي كان ينصبها له الأمير من قمم الجبال وأطراف الوديان وغابات الزيتون، واستغرقت عودة الأعداء اياماً قضوها في أهوال، وقرر ابن الملك الدوق دورليان التوجه نحو مليانة فقتل في إحدى المعارك في الطريق فأشاع الفرنسيون أنه وقع من عربته فمات وقد سميت مدينة الأضام فيما بعد باسمه[١].

وعندما علم الأمير بتوجه العدو إلى مليانة تقدم نحوها بسرعة فوصل لها قبل العدو وأمر سكانها بإخلائها، واعترض المجاهدون الجيش الفرنسي على طويل ففرضوا قوته بحيث وصل مليانة منهوكاً وذلك يوم ٥/ ٦/ ١٨٤٠م. وكان المارشال فاليه قد أرسل وهو في الطريق رسائل إلى قبائل الناحية يدعوها فيها لطاعة الدولة الفرنسية، فأجابه شيوخ القبائل المذكورة برسالة جاء فيها: لقد ارتكبتم عظيم الذنب بتعديكم على بلادنا أولاً، ثم

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٠.

سعيكم في تغيير ديننا، أما علمتم أن سائر الأديان والنواميس الأزلية تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم والتعدي على الحقوق، كما هو منصوص عليه في الإنجيل الذي أرسله الله على نبيه ورسوله عيسى على نبينا وعليه السلام، فلو كنتم على دينه كما تدعون ما قطعتم البحر إلينا لتأخذوا بلادنا وتغيروا ديننا[١].

ويعترف الفرنسيون بالخسائر الرهيبة التي تكبدوها وهم يحتلون الجزائر قرية قرية، فقد لخص بيسكا توري الكاتب السابق للجنة الخاصة للتحقيق في معاناة الفرنسيين هذه فقال: إن أفريقيا هي الخراب في السلم، والإنهاك وقت الحرب إن أفريقيا هي الشؤم هي الجنون.. وإذا تقرر الدفع فيها بدون حدود فأنا مع هجرها والتخلي عنها، وفي ١٨٣٩م يكتب الجنرال كفينياك يقول: إن المقاومة الجزائرية في فكر الشعب، تتمثل في مقته للمحتل.

وهكذا احتل فاليه ثلاث مدن بخسائر كبيرة وترك حاميات بها عجزت عن الربط بينها وفرضت عليها كوكبات فرسان الأمير المتحركة سجناً داخل ثكناتهم ينهشهم الجوع والمرض[٢].

وبسبب حرب الجزائر عملت بريطانيا على عرقلة النفوذ الفرنسي، ففي اتفاقية لندن ١٥/ ٧/ ١٨٤٠م أي بعد نقض معاهدة التافنة مباشرة، عزلت فرنسا ولم يسمح لها بالمشاركة فيها بحيث شاركت فيها الدول الكبرى الأربع فقط وهي: بريطانيا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا، وأمام هذه الخسائر الجسيمة التي تكبدها الجيش الفرنسي تحت قيادة الجنرال فاليه لدى احتلاله للمدن الأربع وقتل ابن الملك، قررت الحكومة إعفاء فاليه، وتعيين الجنرال بوجو حاكما عاماً للجزائر يوم ٢٩/ ١٢/ ١٨٤٠م ورأى بوجو تصفية مقاومة الأمير واحتلال الجزائر بالكامل، عسكرياً واستيطانياً تحت راية المسيحية التي جسدتها

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٣١.

البابوية التي ترى ـ كما كتب جوليان ـ ضرورة افتكاك الأرض التي شرفها القديس أوغستين من البرابرة[1].

ب ـ الجنرال بوجو يطبق خطة تدمير الريف وحرقه:

لقد فهم بوجو بعمق أسلوب الأمير في الحرب المتمثل في تجنب المعارك الكبرى المفتوحة، واعتماد الغارات الخاطفة ولهذا فقد غير تكتيك الجيش الفرنسي وجعله يعتمد على المشاة في وحدات خفيفة صغيرة سريعة المناورة والتنقل المرتكزة على أدلة جزائريين بقيادة ضباط المكتب العربي بالجيش الذين يتكلمون العربية ويعرفون تقاليد البلاد، وكان يكره المدفعية ويرى لا فائدة منها في حرب الجزائر المؤسسة لا على المدن وإنما على الريف المزروع بقنابل يدوية فرحل وأمر بالتوقف على استعمال العربات واستبدالها بالبغال والجمال لحمل الأثقال، ويرى أساس كل هذا تدمير البنية الاجتماعية للشعب بتدمير الريف والقبائل بحرق حقول حبوبه في مواسم النضج وقطع اشجاره المثمرة ومعاقبة كل قبيلة مقاومة بتجريدها من أرضها وتمليكها للكولون وطردها للصحراء وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، بحيث يقدر عدد الذين قتلوا من الجزائريين نصف تعداد السكان الذي قدر عدده سي حمدان خوجة سنة ١٨٣٣م بعشرة ملايين نسمة.

كانت سياسة بيجو: دمّر، إحرق، انهب، وعمل على حرمان خصومه من مواردهم وأرزاقهم حتى أن سكان مقاطعة وهران اضطروا ذات ليلة إلى اللجوء مع أطفالهم ومرضاهم إلى ثلوج جبال أطلس وعمدت القوات الفرنسية التي كانت تراقبهم إلى إغلاق منافذ المغاور التي لجأ إليها هؤلاء السكان في أعالي الجبال وذلك بأغصان الأشجار ـ اليابسة ـ ثم أوقدت فيهم النار فمات من بداخلها خنقاً بالدخان وشدد بيجو هجماته

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣١.

على المجاهدين بشكل لم يسبق له مثيل، محاولاً احتلال بعض القلاع وقام بحرائق ومذابح يندي لها جبين الإنسانية[1].

وفي مراسلة للأمير إلى بوجو قال له: عندما يتقدم جيشك ننسحب، وعندما تنسحب نتقدم، نحارب عندما نرى ذلك مناسباً لنا، أنت تعرف أننا لسنا جبناء. إن مواجهة قواتك الضخمة مباشرة جنون ولهذا نقوم بإنهاكها ثم نطاردها ونجهز عليها ويكمل ما تبقى من جيشك المناخ.

ويقول الضابط سانتارنو: إذا طاردناهم يطيرون كالعصافير، وعندما نذهب يتبعوننا.

ج الإمدادات من فرنسا واستمرار بوجو في التدمير:

وصل بوجو للجزائر يوم ٢٢/ ٢/ ١٨٤١م ومعه ٨٨٠٠٠ جندي علاوة على ما هو موجود بالجزائر، وما أن وصل حتى أرسل له الأمير رسالة جاء فيها: أعلموا أنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم لعلمي أنكم لا تضرونني بشيء، إلا أن يضرني الله به، ولا يلحقني منكم إلا ما قدره الله علي وقضاه وإني منذ أقامني الله في هذا الأمر وجعلني ضداً لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثاً من عساكركم التي تكافحونني بها، ومدة ملكي كما لا يخفى ثمان سنين ومدة ملككم يتعدى مئات السنين، وعساكركم كثيرة وآلاتكم الحربية قوية، أنا أعرض عليكم أن يخرج ابن الملك ليبارزني، فإن غلبته تتوجهون بعساكركم إلى بلادكم وتتركون سائر المدن التي في أيديكم الآن بما فيها من الذخائر والمهمات، وإن غلبني فإنكم تستريحون مني ويبقى لكم الوطن من غير منازع استمرت المعارك مع الجيوش الفرنسية وكانت خطط الأمير عبد القادر متنوعة ومتجددة وهزم الجنرال بيجو في معركتا إيالة ووهران ومتيجة على الرغم من كثرة جنوده وحداثة أسلحتهم وفي شهر أيلول جرت معركة مريرة قرب مستغانم خسرها أيضاً

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥٣٢.

العدو الفرنسي وعلى إثر هذه الهزيمة طلب المارشال فالي المزيد من الإمدادات العسكرية من فرنسا، وفي السابع والعشرين من ذي القعدة وصل عشرون ألف جندي مدرب، فسار بهم من مدينة الجزائر ماراً ببليدة ومنها سار نحو المدية فاعترضته حاميتها ونشبت معركة دامت يوماً كاملاً من دون أن يحقق المارشال أي تقدم وخسر في هذه المعركة ما يقارب من ثلاثة الآف جندي بين قتيل وجريح وقد وصف أحد الصحافيين الحربيين هذه المعركة بقوله: مع أن قواتنا كانت أضعاف قوات العرب، تقهقر جنودنا من المشاة النظاميين أمام هجمات قوات الأمير، فقد انقض العرب على القافلة التي كانت في الوسط كالسيل غير آبهين بالرصاص مما اضطر جنودنا لقطع الأحزمة والفرار بينما كان البعض يسقط في الأراضي الموحلة مما جعلهم يسيحون فيها وحتى مؤخرة الجيش أصابها الهلع، إذ لم تتوقع أن تكون ضربات العدو بهذه القوة[1].

ووصف الدوق أرليون أيضاً هذه المعركة فقال: هذه الجموع الكبيرة من قواتنا أصابتها البلبلة ولم تستطع الصمود فلاذت بالفرار، وبقيت تدور حول نفسها في ضياع ولهاث، فقد انتاب هذا الجيش نوع من الهذيان إذ كنا نرى بعضاً منهم عراة مجردين من السلاح يجرون ويصيحون بأعلى أصواتهم أمام الغرب. والبعض الآخر لم يعودوا يبصرون فألقوا بأنفسهم في نهر ليسيحوا فيه وآخرون انحنوا أمام الشمس يلتمسون العون، علَّهم فقدوا شعورهم حتى بغريزة البقاء[2].

كانت قوة الأمير عبد القادر تكمن في استحالة العثور عليه إنها في المكان الرحب الواسع، في حرارة شمس أفريقيا المحرقة، في مكان ندرة المياة، إنها أيضاً في حياة الترحال التي خطّها كأسلوب لمحاربة فرنسا[3].

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٩٥.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٩٦.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٠١

لقد اعترف خصومه القادة العسكريون بعبقريته الفذة وأظهروا إعجابهم بالأمير مثل المارشال بيجو ولامور سبير وشاغارنيه وكانوا يتساءلون: الحرب مستمرة ولكن هل يمكن أن نتساءل عمن يستحق مزيداً من الإعجاب؟ أهم جنودنا المدربون الشجعان المجهزون بأحدث الأسلحة؛ أمام الرجل الذي يقاتل مليوناً وستمائة ألف جندي بأقل من عشرة الآف جندي محارب؟

فارس ينزلق بين كتائبنا ويضرب القبائل المتعاونة معنا في المؤخرة ويدمّر أجنحتنا ويُفلت منا في حالات كثيرة، في الوقت الذي نظن أنه لاشك واقع في أيدينا ويشتت صفوفنا[١]؟

قال الجنرال بيجو عن الأمير عبد القادر: خصم صنديد نخشى بطشه.

ومنذ فترة وقعت في يدي رسالة من جندي قتيل كان يودُّ إرسالها إلى أهله في فرنسا سنة إحدى وأربعين. كتب: إلى والدي وإخوتي أخبركم بأن حياتي في خطر، إننا متجهون من مدينة الجزائر إلى المدية ومليانة ولاشك أننا سنصادف أخطاراً ومهالك ولا أدري هل أعود أم لا. ولا يخفى أن الموت ينتظرنا في كل مكان واحتماله قريب، يوجد عندي ألفا فرنك أريد إعطاءها لوالدي لينفقا منها على أولادي، ولا يتركاهم بلا ألبسة جديدة. ثم أقول لكم إن رصاص العرب يصبُّ علينا كالمطر وسيوفهم تحصد رؤوسنا بقوة، هذه هي حالنا هنا.

هذه هي حال جنودنا ولكن إن استطعنا الوصول إلى جبهة العدو الداخلية وتمكنا من تفتيتها نكون قد حققنا نصراً كبيراً[٢].

بعد الإخفاق الذريع الذي مني به المارشال بيجو بدأ عملياً بإعداد خطة جديدة، تضمنت حملات عسكرية وغير عسكرية الغاية منها تفتيت الوحدة الوطنية ونشر الإشاعات الكاذبة وتضليل السكان ورجال القبائل وخلق معارك جانبية لا صلة لها بالدفاع عن الوطن، وقد استخدم العدو من جهة أخرى طرق التعذيب والترويع إلى

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٨.

جانب الترغيب السخي بالأموال والمراكز ونجح بيجو في هذا المجال بعد أن أخفق عسكرياً مدة خمسة عشر عاماً متوالية[١].

٦. خطة بوجو الجديدة الزحف الشامل:

أصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر وعقد الجنرال بوجو مجلساً عسكرياً وخاطب قواته قائلاً: إن الأمير عبد القادر كما ترون قد نزل بجيوشه من جبال وانشريس وأصبح قرب التلال، وقد استعاد سائر بلاد الشلف ونهر مينة الجنوبية وأصبحت في قبضته وجميع من يحاذيها من عرب وبربر لم يخرجوا عن طاعته: لذا يجب علينا الخروج دفعة واحدة من قواعدنا في مدينة الجزائر واحتلال المدن والحصون مهما كلفنا ذلك من خسائر[٢]، وبعث بيجو بالرسائل إلى زعماء القبائل فجاءه رد من زعماء الشراقة والغرابة كبني ثقران وبني غدوة وهذا نصُّ الجواب:

إلى من اتبع الهدى:

لقد وصلنا تحريرك وفهمنا مرادك وهو دعوتنا إلى طاعتكم على أن تجعلوا بلادنا سعيدة مباركة ونحن نجيبك أن لا سعادة توازي سعادتنا بالجهاد وحماية الوطن والثبات في وجه مخططاتكم وإن ديننا يأمرنا بالدفاع عن البلاد، ويعدنا بالجنة عند الاستشهاد ويجب أن تنظروا إلى سلطاننا كما ننظر له نحن، فهو يقاتلكم بقوات قليلة العدد والعدة، فلا مزية لكم علينا وأنتم تملكون خزائن الذهب ودولتكم قديمة منذ ألف سنة وهي تجمع الأموال وتهيء الجيوش وجئتمونا بأعداد من الجنود بعدد نفوسنا وأشجارنا ومواشينا وجبالنا، فلا مزية لكم ولا فخر بأن تخرجونا من دورنا وتحرقوا أغلالنا وتغتصبوا أراضينا ومهما طال الزمن فالنصر لنا، لأن حربكم ظالمة لا تكافؤ فيها ثم تعدوننا بأموال الدنيا والله سبحانه

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

وتعالى وعدنا بالجنة في الآخرة، هذا جوابنا: حُرر في العشرين من ربيع ثان والحادي عشر من حزيران في سنة ١٨٤١م[١].

وفي منتصف ذلك العام وصلت الحشود الهائلة من فرنسا واجتمع بوجو بهيئة حربه وقال لهم ما خلاصته:

. نستولى على سهولهم التي ترعى فيها ماشيتهم ويزرعونها.

. نختار النقاط الإستراتيجية ونبني فيها مراكز تشرف على الطرق التي تتنقل عبرها.

. نضع وحدات قوية في الحدود الفاصلة بين المناطق.

. لا بد أن يتعلم ضباطنا العربية.

أمر بتقوية التحصينات وبناء تحصينات جديدة حول المناطق التي يحتلونها مثل متيجة، وأمر لامور يسيير في تطبيق الإبادة "الرازية" على القبائل، كان يأخذ من القبائل كل ما تملك: المواشي، النساء، الأطفال، وكان يستخرج من المطامير الحبوب المخزنة ويأخذها أو يتلفها عين المارشال بوجو على الجهة الشرقية الجنرال بركو باي ديلي، والجنرال بارتسمي على منطقة الجزائر، وتوجه بالقسم الأكبر من الجيش إلى مستغانم يرافقه دتيمور والدوق دومال، وبعد إقامته أياماً في مستغانم غادرها نحو قلعة تاكدمت عن طريق مجاهر، فأمر الأمير عبد القادر أهلها بالجلاء عنها حاملين ما خف من الذخيرة الحربية والمؤن، وكانت وحدات فرسان الأمير تناوشه على طول الطريق ودخلها في ٢٥/ ٥/ ١٨٤١م فوجدها خالية، ثم توجه منها إلى معسكر التي أخلاها سكانها أيضاً، ثم عاد إلى مستغانم، وفي عودته ترصد له الأمير عند فج عقبة خده وفج فرقوف ودارت معركة في الفج الأول طوال النهار خسر فيها الطرفان العديد من القتلى والجرحى، واستغل بوجو سقوط الظلام وانسل عبر الفجين.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

أرسل الأمير عبد القادر لبوجو رسالة قال فيها: إني أراك أيها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا، ظناً منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد والحال أن هذا ليس بشيء عندهم، فإن هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والأشربة مثلكم، بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ويقيم أودهم على أنه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية، وما تأخذونه أنتم فهو جزء من جملة أجزاء، ولا أراكم في هذا إلا كمن ملأ قدحه من البحر. وبالجملة فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم، والحروب قد تربينا عليها فنحن أهلها من المهد إلى اللحد، وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها إلى قانون يحصرها، بل نحن فيها مخيرون مطلقون نصرفها كيف ما شئنا، آخر يونيو ـ حزيران ١٨٤١م.

بعد أن قضى بوجو أسابيع بمستغانم إثر عودته من واقعة عقبة خدة خرج بجيوشه بين ١٩/ ٩/ و ١٩/ ١١، إلى شمال ولاية معسكر فتفقد قبائل أولاد خليف وصبح غيرها التي دانت له بالطاعة، ثم قصد قبيلة هاشم بسهل إيغرس فدمر منازلها وأحرق مزارعها ثم قصد سعيدة التي خطها الأمير وأسكن فيها مهاجري مستغانم ودخلها فوجدها خالية فقد أخلاها أهلها، فدمرها وأخضع القبائل القريبة منها كأولاد إبراهيم والحساسنة والجعافرة وحاول فرض باي من طرفه على القبائل لكنه فشل وتجنب الأمير مقاتلة بوجو فتوجه إلى قبائل الدوائر الزمالة قرب وهران العميلة للعدو فحاربها وغنم منها، وعلم بوجو ذلك فعاد إلى وهران وكتب بوجو رسالة إلى رؤوساء قبائل الشراقة والغرابة وبني شقرون وبني غدو يدعوهم إلى الطاعة فأجابوه برسالة طويلة جاء فيها: من القبائل المتمسكين بدينهم الإسلامي الوثيق العرى إلى النصراني بوجو.. قد وصلنا مكتوبك الذي تركته في موضع نزولك من بساتين بني يخلف.. وأما بلدنا فليس لكم في الاستيلاء عليها نتيجة،

وهب أنكم استوليتم عليها وأقمتم فيها ثلاثمائة سنة مثل من ملكها قبلكم، فإنكم لابد وأن تخرجوا منها كما خرجوا وتمسوا كأمس الذاهب في ٢٠/ ٦/ ١٨٤١م[١].

أ. سقوط مدينة تلمسان:

كان عام ١٨٤٢م عاماً ساخناً مليئاً بالأحداث الخطيرة المؤسفة، فقد أخذ ميزان القوى يختلّ بشكل كبير يوماً بعد يوم، بعد ذلك الجسر البحري الذي امتد عبر المتوسط من فرنسا إلى ميناء مدينة الجزائر المحتلة حاملاً الجنود المدربين والعتاد وأجهزة الدمار، وأدرك المجاهدون الخطر الذي يواجههم وعلم الأمير أن المدن وقواعده المحصنة تكاد تصبح مهددة، وفي التاسع من شهر كانون حملت إليه رياح الحرب أخبار حملة يُعدّها المارشال بوجو لاحتلال مدينة تلمسان فأمر بإخلائها لأنها مدينة مفتوحة ولا يمكن الدفاع عنها وأمر أيضاً بتدمير المصانع المتواجدة فيها لئلا يستفيد منها العدو، وتمّ ذلك قبل وصول العدو إليها، وأما السكان الذين بارحوها فلقد عادوا إليها ليلاً وقدموا الطاعة للعدو[٢].

ب. مطاردة القبائل:

وبعد احتلال تلمسان خرج بوجو لسبدو فدخلها ودمرها وجرت بينه وبين القبائل المحيطة بها حروب وتمكن من هزيمتها فعبرت له عن طاعتها ثم عرج على نواحي سعيدة، ثم قصد بلدة القيطنة فأحرقها وهي بلدة عائلة الأمير اختطها جده مصطفى بن المختار سنة ١٢٠٦هـ ووصفها النقيب دي مونرون فقال: تلك البلدة مبنية بوسط واد يانع بالأزهار تندهش منه الأبصار، وكان لا يظن أنه يوجد بأقصى أفريقيا أبنية محكمة البناءة كأبنيتها.

وبعد أن سيطر بوجو في خرجاته على النقاط الإستراتيجية وإخضاع قبائل الجبال بين ندرومة وتافنة وأسس منها "جامعة قبائل ندرومة" تحت شعار "حلفاء لا مهزمون" متبعاً أسلوب الأمير، قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٥.

[٢] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٠٥.

- قسم تحت نظره ومركزه في نواحي الشلف.
- والثاني تحت قيادة الجنرال شانكرني ويكون مركزه البليدة.
- والثالث تحت قيادة الجنرال لاموريسيير ويكون مركزه معسكر.

وفي آخر الشتاء خرج كل إلى المنطقة المحددة له، وراحوا يطاردون القبائل التي تركت منازلها وارتحلت إلى الصحراء: كانوا يستولون على مواشيها ويحرقون أكواخها وخيامها ويفرغون مطاميرها من الحبوب في عمليات إبادية عرفت باسم "الرازيا" تستهدف ضرب مصادر قوت وحياة القبائل وفرض الطاعة عليها، فبوجو مثلاً أرسل تهديداً للقبائل المقيمة بين سفوح الشفة والبحر غرب متيجة بأنه سوف لا يكتفي بحرق حقول الحبوب، بل سيقطع الأشجار المثمرة. ومع هذا فإن القبائل التي تنضم مرغمة للفرنسيين تتمرد عليهم بمجرد أن تسنح الفرصة لذلك[١].

٧. فظائع الجيش الفرنسي:

ارتكب جيش الاحتلال أكثر الفظائع وحشية ضد المدنيين والتي سماها المؤرخون بالرازيا يروي العقيد مونتانياك قائلاً: أخبرني بعض الجنود أن ضباطهم يلحون عليهم ألا يتركوا أحداً حياً بين العرب، كل العسكريين الذين تشرفت بقيادتهم يخافون إذا أحضروا عربياً حياً أن يجلدوه.

ويقول النائب البرلماني طوكفيل: إننا نقوم بحرب أكثر بربرية من العرب أنفسهم، لم نستطع هزم العرب حربياً فهزمناهم بالتدمير والجوع.

ويقول مونتانياك: لقد محا الجنرال لاموريسيير من الوجود خمسة وعشرين قرية في خرجة واحدة، إنه عمل أكثر انعداماً للإنسانية ويروي: فمجرد أن حدد موقع القبيلة انطلق سائر الجنود نحوه ووصلنا الخيام التي صحا سكانها على اقتراب الجنود، فخرجوا هاربين نساء وأطفالاً ورجالاً مع قطعان ماشيتهم في سائر الاتجاهات، هذا جندي يقتل نعجة،

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٦.

بعض الجنود يدخلون الخيام ويخرجون منها حاملين زرابي على أكتافهم، بعضهم يحمل دجاجة تضرم النار في كل شيء يلاحق الناس والحيونات وسط صراخ وثغاء وخوار، إنها ضجة تصم الآذان، شهدت مدينة معسكر يوم ١٩/ ١٢/ ١٨٤١م الفظائع و"الرازيا" كما يسميها الفرنسيون لا تهدف إلى معاقبة المخطئين وإنما صارت مصدراً لتموين الجيش، كان كل ما ينهب يباع ويوزع ثمنه على الضباط والجنود ربع الغنائم للضباط والنصف للجنود[١].

يقول النقيب لافاي: كان الضباط يخيرون الفلاحين بين أن يقدموا لهم الأكل أو الإبادة، كنا نخيم قرب القرية، يعطيهم الجنرال مهلة لإعداد الطعام أو الموت، كنا نوجه سلاحنا نحو القرية وننتظر ثم نراهم يتوجهون لنا ببيضهم الطازج وخرافهم السمينة ودجاجاتهم الجميلة وبعسلهم الحلو جداً للمذاق[٢].

يعلق ش.أ. جوليان: وتنتشر الرازيا فتصير أسلوباً للتدمير المنظم والمنهجي الذي لم يسلم منه إلا لأشخاص ولا الأشياء. إن جنرالات جيش أفريقيا لا يحرقون البلاد خفية، إنهم يستعملون ذلك ويعتبرونه مجداً لهم سواء كانوا ملكيين أم جمهوريين أو بوناباريتيين.
يقول مونتانياك: إن الجنرال لاموريسيير يهاجم العرب ويأخذ منهم كل شيء: النساء والأطفال والمواشي، يخطف النساء، يحتفظ ببعضهن رهائن والبعض الآخر يستبدلهن بالخيول، والباقي تباع في المزاد كالحيوانات، أما الجميلات منهن فنصيب للضباط[٣].
ويروي الضابط المراسل لسانت أرنو: إن بلاد بني مناصر رائعة، لقد أحرقنا كل شيء ودمرنا كل شيء، آه من الحرب، كم من نساء وأطفال هربوا منا إلى ثلوج الأطلس ماتوا بالبرد والجوع.. إننا ندمر، نحرق،ننهب، نخرب البيوت ونحرق الشجر المثمر.

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦١.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٦٢.
[٣] المصدر نفسه، ص: ٥٦٢.

يقول مونتانياك: النساء والأطفال اللاجئون إلى أعشاب كثيفة يسلمون أنفسهم لنا نقتل، نذبح، صراخ الضحايا واللاقطين لأنفاسهم الأخيرة يختلط بأصوات الحيوانات وهي تثغو وتخور، كل هذا آت من سائر الاتجاهات، إنه الجحيم بعينه وسط أكداس من الثلج، إن كل ذلك من العمليات التي قمنا بها تثير الشفقة حتى في الصخور إذا كان عندنا وقت للشفقة، وكنا نتعامل معها بلا مبالاة جافة تثير الرجفة في الأبدان، يقول الجنرال كاروبير: ينفذ جنودنا هذا التدمير بحماس، إن التأثير الكارثي لهذا العمل البربري والتخريب العميق للأخلاق الذي يبث في قلوب جنودنا وهم يذبحون ويغتصبون وينهب كل واحد منهم لصالحه الشخصي[1]، ويقول النقيب لافاي: لقد أحرقنا قرى لخريمس في قبيلة بني سنوس، لم يتراجع جنودنا أمام قتل العجائز والنساء والأطفال. إن أكثر الأعمال وحشية هو أن النساء يقتلن بعد أن يغتصبن، وكان هؤلاء العرب لا يملكون شيئاً يدافعون به عن أنفسهم[2].

٨. شهادات ضباط فرنسيين على صلابة الشعب الجزائري:

اعترف المارشال بوجو بمناقب الأمير وصلابة الشعب الجزائري فقال يوم ١٧/ ٣/ ١٨٤٥م: لم نأخذ من هذا الشعب أي شيء إلا بالقوة، وصرح يوم ١٥/ ٦/ ١٨٤٢م: إن القبائل التي قمعت تبقى مطيعة، أخضعنا العرب بالسلاح ولا يمكن أن نحافظ على هدوئها إلا بالسلاح.

ويصرح بوجو أمام البرلمان الفرنسي: آه لو لم تكن بالجزائر عرب أو لو كان هؤلاء يشبهون تلك الشعوب المخنثة في الهند، لما نصحت بلادي بأن تخصص مبالغ مالية كبيرة للاستيطان، لكن وجود هذه الأمة الصلبة والمعدة جيداً للحرب، أكثر الجماهير الأوروبية التي يمكن لنا أن ندخلها هذا البلد، يفرض علينا أن نغرس وراءها وإلى جانبها وفي وسطها شعباً قوياً قدر الإمكان.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٦٣.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٣.

ويجيب شيوخ القبائل المارشال بوجو: إن تحرق وتدمر مزروعاتنا وتقطع شعيرنا وقمحنا وتنهب مطاميرنا أرسل رجلاً مقابل رجل أو عشرة مقابل عشرة أو مائة مقابل مائة أو ألفاً مقابل ألف، وسترى إن كنا سنتراجع.

ويقول دوق دورليون: إن هؤلاء الرجال يلحقون الضرر بالفرنسيين أكثر مما ألحقته الجيوش الأخرى بهم، إنهم يفرضون على الجيش الفرنسي ألا ينام وأن يكون دائم اليقظة.

ويصرح في ١٧/ ٢/ ١٨٤٣م: إن تنظيم الأمير مبني على معرفة كاملة بالأوضاع المحلية، وبعلاقات القبائل بعضها ببعض وبالمصالح المتنوعة، وباختصار هو مبني على ذكاء كبير للرجال والأشياء، ولابد من الحفاظ على هذا كله في حكمنا.

ويقول الجنرال بودو يوم ٢٧/ ٤/ ١٨٤٧م: كل نساء القبائل أسفوا لاضطرارهم إلى خدمتهم لنا، ويخفون نواياهم الحقيقية إزاءنا، وسوف ينقلبون ضدنا في أية فرصة تسنح لهم وهذا يدخل في طبيعة الأشياء، يجب ألا تكون لنا ثقة كبيرة فيهم، وكأن هذا الجنرال يتنبأ بما سيحدث على يد الباشان مقراني بعد ربع قرن.

كان بوجو يرى أن الاستيطان هو الذي يثبت أقدام الفرنسيين بالجزائر، فيقول: يكون الاحتلال عقيماً بدون استيطان. ويعترف الفرنسيون بصلابة الشعب الجزائري فيلخصها ابن الملك الفرنسي الدوق دومال: لقد كان احتلال الجزائر طويلاً وصعباً، كانت عراقيل النفاذ للداخل من الشمال إلى الجنوب تتمثل في الجغرافية، وفي العداء الشرس لوطنية حربية مؤسسة على إسلام حصين لا يقهر، كلها تطيل التقدم وتزيد من الخسائر.

كان الجيش الفرنسي في الجزائر يزداد عدده كل سنة:

. ففي سنة ١٨٣١م كان عدده ١٨٠٠٠.

. وفي سنة ١٨٣٧م إرتفع إلى ٤٢٠٠٠.

. وفي سنة ١٨٤٤م إرتفع إلى ٩٠٠٠٠.

. وفي سنة ١٨٤٨م إرتفع إلى ١٠٨٠٠٠.

لقد شارك في جيش الاحتلال الفرنسي الكثير من الأوروبيين. ففي سنة ١٨٣٣م كان عدد الفيالق الأوروبية ٣ فيالق ألمان وسويسريان اثنان بالجزائر العاصمة وفيلق واحد إيطالي داخل الجزائر وفيلق واحد إسباني بوهران، وفيلق بلجيكي في عنابة وكل هذه الفيالق كانت منصوبة في إطار اللفيف الأجنبي، قال عنهم الجنرال كاروبير: إن جنود الفيلق الأجنبي هم بقايا جيوش أوروبا، أغلبهم قتلة ولصوص فارون من الجيوش.

ويتغلب الجنود الفرنسيون على أهوال المقاومة بالسكر، يروي بعض الضباط الفرنسيون: كانت الخمر هي الضرورة للبطولة وهي المشجع لاستعمار أفريقيا، تحرك الشجاعة وتمنع الخوف[1].

٩. رسائل الأمير إلى الحكومات العربية والأجنبية:

اقترح بعض كبار القادة العسكريين على الأمير إخلاء الحصون من حُماتها وضمهم إلى قوات الفرسان المتحركة واجتمع المجلس العسكري وأقر الأمر فحرر الأمير رسائل إلى عدد من الحكومات الإسلامية والمجاورة طالباً العون والمساعدة السريعة منها:

. رسالة إلى السلطان عبد المجيد خان في الدولة العثمانية:

يشرح له فيها الأخطار التي تهدد البلاد وهي رسالة مطوّلة فيها صرخة استغاثة.

. ورسالة إلى الحكومة البريطانية: التي كانت على خلاف مع الحكومة الفرنسية بسبب توتر العلاقات بين فرنسا وبريطانيا اتصل بهذه الأخيرة وعرض عليها عقد معاهدة معها، لكن الفرنسيين عملوا على تخفيف التوتر مع البريطانيين، فلم تستجيب لندن للأمير[2].

. وأرسل رسالة إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام حاكم المغرب، ورسالة إلى قاضي فاس الشيخ عبد الهادي يستفتيه في أمور الجهاد، وفيما يتعلق بمهادنة الأعداء ورسالة أخرى إلى علماء فاس والرباط، لم يكن بالأمير حاجة إلى فتاوى فقهية، لكنه أراد من

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٠.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١١٠.

هذه الرسائل إيقاظ الشعوب الإسلامية وحثها على إعلان الحرب على العدو المستعمر[1].

وكانت الدول العربية والإسلامية جميعها تغطّ في سُبات عميق، وليت الأمر اقتصر على هذا فقط، بل أخذ البعض يساعد العدو، بل يقاتل إلى جانبه بكل ما يملك من قوة وعلمت السلطات الفرنسية بهذه المراسلات فطلبت من السلطان عبد الرحمن بن هشام ملك المغرب أن يمنع دخول المساعدات عبر حدوده للأمير، ويضع حداً لنشاطه ولنشاط قواته أيضاً، فأجابها بأن بلاد الريف خارجة عن طاعته وتخضع للأمير عبد القادر، وكان يظن أن ذلك ينجيه ويعفيه من المسؤولية، ولكن الذي حصل العكس[2]، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً بإذن الله.

سادساً: عاصمة الأمير "المدينة المتنقلة"

دعا الأمير ذات صباح في مدينة المدية المجلس العسكري الاستشاري للانعقاد وخاطب الجميع بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وبفضل الله وإحسانه مازالت انتصاراتنا مستمرة ومازالت حصوننا تحرس المدن والمصانع فيها تمدنا بالأسلحة، ولكن بحال هوجمت حصوننا بقوات لم تستطع حمايتها الدفاع عنها وعن المصانع التي كلفتنا الكثير، لماذا لا نخلي الحصون من هذه المصانع وننقلها إلى مكان آمن؟ أما المدن التي لا نريدها ساحات قتال ماذا يضرنا لو تركنا العدو يحتلها مؤقتاً ونقاتله بعيداً عنها كما يفعل الآن؟

هذه المدن لن يستطيع العدو تغيير أي نظام إداري فيها ولا في الخدمات ولا في القضاء ولا في أي أمر إداري وكل ما سيفعله هو وضع ضابط فرنسي في غرفة الوالي وعدداً من الجنود يتجولون في شوارعها، ولكنهم لن يرحموا عائلاتنا من النساء والأطفال، ولنتذكر

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١١٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٢.

ما فعلوه بعائلة ملكهم لويس السادس عشر، وكيف عذبوها وأهانوا أطفالها وكيف سحبوا زوجته ماري أنطوانيت إلى المقصلة بهذا الأسلوب المتوحش تصرفوا مع ملوكهم فكيف تتخيلون سينصرفون مع عائلاتنا إذا وقعوا في أيديهم؟

وقف القائد الكبير بوحميدي بعمامته البيضاء وبرنسه الأحمر وسيفه الذي لا يفارق خاصرته وأجاب قائلاً: ربما سيأخذونهن أسرى يضعوهن في أقبية سجونهم ويساوموننا عليهم كرهائن، ووقف أحد الأعضاء وقال: أقترح أن يبعدوهن إلى قصر كاشروا، أجاب الأمير: وإذا هاجموا قصرنا في كاشروا بقوات هائلة لا قبل لنا بقهرها؟ فوقف القائد بن علال قائلاً: يا مولاي ماذا في ذهنك من حل؟ وما خطتك؟ فلنستمع إليها، وبعد ذلك نعطيك رأينا فيها. كان الأمير في هذه الجلسات يتكلم وهو جالس فقال: فلننشىء مدينة متنقلة، فأخذ أعضاء المجلس ينظر كل منهما إلى الآخر مذهولاً[١]، وشرح الأمير لهم فكرته واقتنعوا بها وشرع في تأسيس عاصمة كبيرة رحالة مؤلفة من خيام كثيرة ومضارب عديدة، فخطط لبنائها، وفي مدة قصيرة ظهرت الوجود على أروع الأساليب وسمي ما يخصه منها الزمالة وما يخص الأعيان والعامة بالدائرة وما يخص الجند منها بالمحلة، واتخذ فيها مضارب لمعامل السلاح، وأخرى لوضع العتاد الحربي، ومثلها للذخائر، وفسطاطاً كبيراً لاجتماع المجلس العام، وآخر اتخذه مسجداً وأعدت مضارب بعيدة عن السكن للباعة والسوق التي كانت تجبى إليها المؤن وسائر ما يلزم وكانت تضم مضارب للحرفيين بمختلف الأنواع من نجارة وحدادة وغيرها، وكان يسودها نظام تسييري متقن وكانت هذه العاصمة تتمتع بمنظر جميل، وقدر عدد سكانها بعشرات الآلاف وبعضهم يرى أنه كان مائتي ألف نسمة[٢].

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٣٠.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٧.

ووجد الأمير عبد القادر صعوبة في إقناع من كان يجب عليهم الحياة في الصحراء والانتقال من بيوت الحجر إلى بيوت الشعر فنظم بهذه المناسبة قصيدة غايتها الترغيب بالحياة الجديدة والقصيدة هي:

ياعاذراً لامرئ قد هام في الحضر
وعاذلاً لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتاً خفّ محملها
وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني
لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً
بساط رمل به الحصباء كالدرر
أو جلت في روضة قد راق منظرها
بكل لون جميل شيّق عطر
تستنشقن نسيماً طاب منتشقاً
يزيد في الروح لم يمرر على قذر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه
علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها
سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبقِ من حزنٍ
في قلب مضن ولا كدّاً لذى ضجر
نبادر الصيد أحياناً فنبغته

فالصيد منا مدى الأوقات في ذُعُر

فكم ظلمنا ظليماً في نعامته

وإن يكن طائراً في الجو كالصقر

يوم الرحيل إذا شدّت هوادجُنا

شقائق عمّها مزن من المطر

فيها العذارى وفيها قد جعلن كُوىً

مرقعات بأحداق من الحَوَر

تمشي الحداة لها من خلفها زجل

أشهى من الناي والسنطير والوتر

ونحن فوق جياد الخيل نُركضها

شليلها زينة الأكفال والخصر

نطارد الوحش والغزلان نلحقها

على البعاد وما تنجو من الضمر

تروح للحي ليلاً بعدما نزلوا

منازلاً ما بها لطخ من الوضر

ترابها المسك بل أنقى وجاد بها

صوت الغمائم بالآصال والبكر

نلقي الخيام وقد صُفّت بها فغدى

مثل السماء زهت بالأنجم الزهر

قال الألى قد مضوا قولاً يصدقه

نقل وعقل وما للحق من غير

الحسن يظهرُ في بيتين رونقه

بيت من الشعر أو بيت من الشّعَر

أنغامنا إن أتت عند العشي تَخَلْ
أصواتها كدوي الرعد بالسحر

سفائن البر بل أنجى لراكبها
سفائن البحر كم فيها من الخطر

لنا المهاري وما للريم سرعتها
بها وبالخيل نلنا كل مفتخر

فخيلنا دائماً للحرب مسرجة
من استغاث بنا بشّرّه بالظفر

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً
وأي عيش لمن قد بات في خفر

لا نحمل الضيم ممن جار نتركه
وأرضه وجميع العز في السفر

وإن أساء علينا الجار عشرته
نبينُ عنه بلا ضُرّ ولا ضرر

وبيت نار القرى تبدو لطارقنا
فيها المداواة من جوع ومن خصّر

عدوُّنا ما له ملجأ ولا وزر
وعندنا عاديات السبق والظفر

شرابها من حليب ما يخالطه
ماء وليس حليب النوق كالبقر

أموال أعدائنا في كل آونة

نقضي بقسمتها بالعدل والقدر

ما في البداوة من عيب تذم به

إلا المروءة والإحسان بالبدر

وصحة الجسم فيها غير خافية

والعيب والداء مقصور على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى

فنحن أطول خلق الله في العُمُر

كان مشهد مدينة الخيام يحرك أفئدة المهاجرين ويستهوي قلوبهم ويشعل مشاعر الحمية والحماسة فيهم، كانت هذه المدينة نشيداً وطنياً يعلو على مناكب الرياح فيصل إلى أسماع الوطن، يخالطه صليل السيوف وأزيز الرصاص وهتاف الرجال "الله أكبر" هذه المدينة خلقت على الروابي والهضاب حُلّة من البهاء، فكانت أينما حلّت حلّ الازدهار وتعطّر الفضاء بنسائم الحرية وما كان المجاهدون يعودون من حملاتهم إلى هذه المدينة المتحركة حتى تنقلب أهازيجهم الحماسية إلى نسائم من الحب والتقوى والعواطف الصادقة ومشاعر الأمل، الأمل بالانتصار والعيش الرغيد بعد تطهير الوطن من الغزاة وتفويض صروح كبريائهم.

١. معركة حصن داكمت:

في صباح الخامس عشر من شهر أيار سنة ١٨٤٢م، سار الجنرال لامور سيير تصحبه قوة كبيرة من الجند إلى حصن داكمت واشتبكوا مع الأمير وكان مخطط العدو احتلال الحصن مرة أخرى، هذا المركز الهام الذي شيده عبد القادر بن محيي الدين وكان أهم حصونه وحاصر لامور سيير الحصن عدة أيام ثم تحصن في مكان قرب الحصن وكان إلى

جانب الجنرال رئيس قبيلة الدوائر مصطفى بن إسماعيل على رأس قوة كبيرة من رجاله، وانتظر الأمير إلى عسعس الليل وفاجأهم بهجوم من عدة اتجاهات، هجوم لم يكونوا يتوقعونه وقد كانت هذه خطته في أكثر المعارك: الهجوم بدل الدفاع، فانهال الفرسان بخيولهم على قوات العدو يدوسون الجموع بحوافرها غير مبالين بالرصاص والقذائف، وقد وصف أحد الصحفيين هذه المواجهة بقوله: إن العرب كانوا يقاتلون بجنون وليس بشجاعة[1]، وقتل في هذه المعركة القائد المتعاون مع فرنسا مصطفى بن إسماعيل عمّ المازري زعيم قبيلة الدوائر، ورآه أحد المجاهدين يتخبط بدمه فقطع رأسه وجاء به على رأس حربه إلى مركز القيادة صائحاً هذا رأس الفتنة الخائن ابن إسماعيل وإنتهت هذه المعركة بنصر المؤمنين وهزيمة الغزاة من دون أن يتمكنوا من دخول الحصن والتمركز فيه[2].

٢. هزيمة المارشال بيجو في مضيق عقبة خده:

شاهد بعض فرسان الأمير شرذمة من جنود العدو بقيادة المارشال بوجو الذي كان يلاحق الأمير، وشاهدوا مؤخرة جيشه تحميها قوات كبيرة فأدركوه ونشبت معركة وهلك أكثر جنده إذ لم تتمكن هذه القوات من الصمود لحين وصول النجدات، وحاصرهم المجاهدون في مضيق من عدة جهات، ثم انقضوا عليهم كالأسود فحاول المارشال النجاة بمن بقي معه من الجنود بعد أن خسر أربعة وخمسين منهم، لكن القتال تواصل عنيفاً حتى بزوغ الفجر، وكان هناك بين الصخور شهيدان صعدت روحهما الطاهرة إلى السماء، الأول القدور بن بحر من كبار قادة الجيش المحمدي والثاني الخليفة محمد بن الجيلاني.

وفي غبش الصباح الباكر هدأ كل شيء ولفّ الصمت ذلك الوادي الموغل في القدم، وأصبح الانضباط على أشده بين المتقاتلين، وأفلح العدو في الانسحاب المنظم حاملاً

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١١٥ ، ١١٦.

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٦.

جرحاه متسللاً بين الصخور والأودية الوعرة والرماة الجزائريون يلاحقونه بسهامهم مما اضطر البعض منه لاتقاء الأخطار بالاختفاء وراء الصخور وتحدث الجنرال دو فيغير الذي كان يرافق تلك الحملة فقال: بعد خروجنا من مضيق الموت سرنا إلى سهل الزيتون فوجدنا حامية من جنودنا أخذت بمساعدتنا على نقل الجرحى والموتى إلى مدينة الجزائر، وفي طريقنا وجدنا مدينة خالية من السكان ولم يبق من عماراتها سوى مساجدها القوية البنيان فاتخذناها مأوى للمرضى من جنودنا ولعدم وجود حطب للتدفئة استعملنا سقوف المنازل لسد العوز، وكان يجب علينا عدم إطالة البقاء في هذه المدينة الجميلة الواقعة على تل زاهر كبير، وكان يضم آثار قلعة قديمة وكان من عادة العرب عدم ترك أي شيء يُستفاد منه، ورأينا أن الإسراع بإخلائها وعدم المكوث فيها طويلاً أمراً يفرضه الواقع المحزن[١].

٣. بر الأمير بوالدته:

وصل موكب الأمير إلى مدينته الجديدة الزمالة، وكان الأمير يسير في مقدمة الفرسان، وعندما وصل إلى مضارب عائلته ترجّل وسلّم جواده إلى السياس، ثم دخل خيمة والدته وقبل أن يزيل عن جسمه غبار المعارك والطريق تقدم من والدته وانحنى يقبّل يديها وجلس عند قدميها وأخذ يحدثها عن آخر معركة وانتصاره فيها، وعمن استشهد من فرسانه، وعمن قتل من الأعداء وهي تستمع إليه بكل اهتمام، ثم سألته عن بقية المجاهدين وأحوالهم قائلة: يا بني أشعر بوشائج قوية وخيوط تربطني بالمجاهدين من أنصارك أصحاب الوفاء وهؤلاء المؤمنين أشعر بخيوط خفية تربطني بهم، خيوطاً قدسية خفية تجعل يدي في جوف الليل وابتهالاتي في التهجد وصلواتي ترتفع لهم بالدعاء.

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١١٨.

أجابها وهو يقبّل يديها بحنان: هذه الجلسات يا أماه تحت قدميك هي من أفضل الأوقات المحببة إلى النفس فهي تزودني بطاقات هائلة من القوة والاطمئنان، وأشكر رب العالمين الذي وهبنا أنا وإخوتي أماً مثلك مجاهدة مثالاً للصبر والتقوى، تستحق الإجلال والاحترام بين يديها الحنونتين[1].

٤. زيارات ميدانية وتوجيهات قيادية:

بعد أيام من الراحة خرج الأمير عبد القادر بصحبة بعض فرسانه من القادة العسكريين والعلماء والأطباء أيضاً للقيام بالزيارات الميدانية التي اعتاد القيام بها قبل انتقاله إلى مدينة الخيام فزار المستشفيات في المناطق التي لازالت تحت سلطته، فوقف أمام أطباء إحدى المشافي وخاطبهم بقوله: عليكم نقل العلوم الطبية في معاهدكم إلى الطلاب المتفوقين في العلوم والاهتمام بعلم النبات وتركيب الأعشاب بشكل طبي لجعلها مفيدة لوضع العقاقير من هذه الأعشاب، لقد دفعت الأموال الطائلة من موارد مزارع عائلتي لشراء كتب طبية لعلماء عرب ومؤلفات نادرة ككتاب "الأدوية المفردة" للطبيب العالم أحمد بن محمد العافقي، ومؤلفات ابن سيناء، وابن البيطار، والصوري، وأبو القاسم الزهراوي. بعد انتهاء الأمير من هذه الجولات عاد إلى الزمالة فوجد رسالة تنتظره من خليفته على مناطق جرجرة أحمد بن سالم فأجابه بالرسالة التالية:

الحمد لله وحده

أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله وشكره في الشدائد كن صبوراً فالصبر مفتاح الفرج، كن شجاعاً واجمع قواتك بين وقت وآخر، واتلُ عليهم الآيات القرآنية، آيات الجهاد، وشدّ من عضدهم، وصارحهم برأيك، واستمع إلى مطالبهم وآرائهم، وخذ بأحسنها ولا تهملها

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٣٥.

وتحمّل هفواتهم، ولكن لا تتهاون مع المتخاذلين منهم فهذه الأحوال الصعبة لن تدوم وإن شاء الله أكون معكم عندما تتاح لي فرصة[1].

وأرفق هذه الرسالة بقصيدة من نظمه ضمنها كل ما يحمله قلبه من محبة لهؤلاء المجاهدين، أقتطف منها هذه الأبيات:

يا أيها الريح الجنوب تحملي
منّي تحية مغرمٍ وتجمَّلي
وأقرِي السلام أُهيل ودِّي وأنثري
من طيب من حُمِّلت ريح قَرنَفُل
أدّي الأمانة يا جنوب وغايتي
في جمع شملي يا نسيم الشمأل
وأهدي إلى من بالرياض حديثهم
أزكى وأحلى من عبير قرنفُل
حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي
مه ذا محالُ ويك عنه تحوَّل
كيف التصبّرُ عنهم وهم هم
أرباب عهدي بالعقود الكمَّل
أيحلُّ ريبُ الدهر ما عقدوا وكم
حلت عقودي بالمنى المتخيَّلِ
تفديهم نفسي وتفدي أرضهم
أزكى المنازل يا لها من منزل
أفدي أناساً ليس يُدعى غيرهم

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٠.

حاشا العصابة والطراز الأوّل

يكفيهم شرفاً وفخراً باقياً

حمل اللواء الهاشميّ الأطول

قد خصّهم وأختصّهم واختارهم

ربٌّ الأنام لذا بغير تعّمل

إن غيرُهم بالمال شحّ وما سخا

جادوا ببذل النفس دون تعلُّل

الباذلون نفوسهم ونفيسهم

في حبّ مالكنا العظيم الأجلل

كم يضحك الرحمن من فعلاتهم

يوم الكريهة نِعمَ فعلُ الكُمَّل

الصادقون الصابرون لدى الوغى

الحاملون لكل ما لم يُحمَل

إن غيرهم نال اللذائذ مسرفاً

هم يبتغون قِراع كتب الجحفل

وألذّ شيء عندهم لحمُ العدا

ودماؤهم كزلال عذب المنهل

النازلون بكل ضنك ضيّقٍ

رغماً على الأعداء بغير تهوُّل

لا يعرف الشكوى صغير منهم

أبداً ولا البلوى إذا ما يصطلى

كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا

من سابق لفضائل وتفضّل
كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا
أقوى العداة بكثرة وتموُّل
كم صابروا كم كابروا كم غادروا
أعتى أعاديهم كعصف مؤكل
كم جاهدوا كم طاردوا وتجلّدوا
للنائبات بصارم وبمقول
كم قاتلوا كم طاولوا كم ما حلوا
من جيش كفر باقتحام الجحفل
كم أدلجوا كم أزعجوا كم أسرجوا
بتسارع للموت لا بتمهل
كم شرّدوا كم بدّدوا وتعوّدوا
تشتيت كل كتيبة بالصّيقَل
يومُ الوغى يوم المسرّة عندهم
عند الصياح له مشوا بتهلّل
فدماؤهم وسيوفهم مسفوحة
ممسوحة بثياب كلّ مجندل
لا يحزنون لهالك بل عندهم
موت الشهادة غبطة المتحوّل
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة
والنقص عندهم بموت الهمّل
يا ربُّ يا رب البرايا زدهم

صبراً ونصراً دائماً بتكمُّل

وافتح لهم مولاي فتحاً بيّنا

وأغفر وسامح يا إلهي عجِّل

يا رب يا مولاي وابقهم قذىً

في عين من هو كافر بالمرسل

وتجاوزنْ مولاي عن هفواتهم

والطُف بهم في كل أمر مُنزل

يا رب واشملهم بعفو دائم

كن راضياً عنهم رضا المتفضل[1]

٥. الهجوم على المدينة المتنقلة:

في عام ١٨٤٣م باتت البلاد مسرحاً للعمليات العسكرية والنشاط الحربي، كان الأمير يصول ويجول بقواته شرقاً وغرباً، والمجاهدون من حوله يحصدون رؤوس المحتلين ويلقون في نفوسهم الرعب واليأس.

ذات يوم جمع المارشال بيجو زملاءه من الضباط وقال لهم: الحرب مستمرة وعبد القادر يقاتل بعشرة الآف، مائة ألف من جنودنا المدربين، إنه فارس شجاع ينزلق بين كتائبنا ويضرب ثم يختفي بلمح البصر، يدمر أجنحتنا القوية، ويفلت منا في الوقت الذي نظن أنه أضعف منا، يشتت صفوفنا، وليس هذا فقط بل إنه يضرب القبائل التي تتعاون معنا بأسلوب آخر عن حربه معنا ولا توجد معركة خسرنا فيها أقل من ٦٠٠ جندي وعشرات الضباط ولكن هل تعلمون أين تكمن قوته الآن؟ هي في المدينة المتنقلة وعلينا اكتشاف مكانها وتدميرها[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٤٣.

بعد مرور سنتين على عمر هذه المدينة الأعجوبة كان على الأمير الهجوم على قوات لامور سيير التي تمركزت في أحراش سرسو، وخرج من الزمالة على رأس ثلاث الآف مقاتل وترك ٥٠٠ كان بينهم جرحى لم تشف كلومهم بعد، كبار السن وإخوة الأمير وأولاد أعمامه. وصل الأمير إلى مشارف أحراث سرسو فشاهد جنود العدو ينصبون الخيام، ويستعدون للراحة، فأمر فرقة من المجاهدين تكمن في تل قريب من الحرش وأعد أخرى جعلها تحاصر العدو، وكعادة الأمير أمر الفرقة الأولى بالهجوم مناوشة من غير أن يعرف العدو مصدر النار، ثم ظهرت وأرخت العنان لجنود لامور سيير باللحاق بها في الغابة وهناك كان الأمير قد وضع الكمائن ونشبت معركة وانهال فرسان الأمير من كل جهة، ودبت الفوضى بين صفوف العدو وشاهد لامور سيير جنوده يتساقطون بين أشجار الغابة بعد أن قاتلوا حتى الرمق الأخير دفاعاً عن أنفسهم، فأمر بالانسحاب يجر أذيال الخيبة وجلس الأمير على إحدى الصخور يداعب سلاحه وشاهده أحد المجاهدين فأقبل عليه يهنئه بالنصر فلم يبتسم كعادته وقال: إن قلبي مقبوض لا أدري لماذا، وسار نحو الغدير فتوضأ وصلى بالمجاهدين، وما إن فرغ من الدعاء حتى أقبل فارس من المدينة المتنقلة وأخبره أن بعض المتعاونين أرشدوا العدو لمكان مدينة الخيام وبالتأكيد لولا هؤلاء المرشدين الخونة لاستحال على العدو معرفة مكانها، وقال الفارس: عندما بدأت الشمس تغيب في كبد السماء بعد مغادرتك يا مولاي بساعات لاحظنا فرساننا بألبستهم البيضاء يظهرون من جديد وكأنكم غيرتم الخطة وعدتم وكانت الشمس تسدد سهامها النارية نحو الرمال فلم نكتشف الخديعة، وأن جنود العدو ارتدوا ملابس فرساننا إلا بعد دخولهم مضاربنا، ففزع كل من في الحي لمقاومتهم حتى النساء ودارت معارك دموية داخل مضاربنا وكانت أصوات الرصاص تتعالى مع أصوات النساء والعدو حرق ودمر كل شيء ونهب، والآن السكان متفرقون بين الشعاب والتلال بعد حرق خيامهم، فنسأل الأمير: هل من شهداء؟ أجاب كثير ولكن الأسرى كانوا أكثر وبينهم محمد بن علال، ومحمد

الخروبي، وقدور بن رويلة على ما أذكر، قفز الأمير فوق جواده وأمر فرسانه بالعودة، ووصل ذلك المكان وهو يسبح في غسق مريع والسكان مبعثرون بين التلال كالنجوم المتناثرة في السماء وتسابق المجاهدون فما من أحد منهم إلا وله أم أو زوجة أو أولاد أو قريب في هذه المدينة وأخذوا يفتشون عن ذويهم بين التلال وراح الأمير يسأل عن والدته وأهله وزوجته فوجد أهله لم يبارحوا مضاربهم ووالدته داخل مسجد قد احترق نصفه تقرأ القرآن وزوجته وعائلته يلملمون ما تبقى من متاعهم وعندما شاهدت الجموع الأمير اجتمع الرجال حوله وشخصت أبصارهم إليه حائرين فما كان من الأمير إلا أن بادرهم بقوله: نحن جميعاً في هذا المكان مجاهدون نساء ورجالاً وأطفالاً ينبغي لنا ألا نجبن ولا نيأس بل نكون أشد إصراراً على تحمل الأذى والقدرة على التضحية لدفع هذا الأذى عن الوطن وتلقين العدو ضربات أكثر قوة وطرده خارج بلادنا، ثم انطلقت هذه الأبيات من فمه محتدمة كاللظى:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت

بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والجاه مرتجع

إذا النفوس سلمت من العطب

قال هذه الأبيات ويده ممسكة بلجام جواده تكاد تتجمد من البرد ثم أمر بتحرك لواء من الفرسان لمطاردة فلول المهاجمين، ولابد من الرد السريع، وانطلق هو على رأس قوة من الجيش نحو أسهل طريق للزمالة وأدرك أن العدو لابد سالكه في طريق عودته[1].

٦. الرد السريع على من هاجم المدينة المتنقلة:

رفع الأمير يده مشيراً إلى الجيش بالتحرك لإنقاذ الأسرى وإعادة ما نهب بعد أن أمر فرقة من الجيش بالانطلاق نحو التلال وقسم آخر من المشاة نحو الأحراش باتجاه منطقة

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٧.

طاكين، وسارت كل من هذه الفرق في دروب مختلفة علّ أحدها تصادف الدوق دومال ابن ملك فرنسا وتنقذ الأسرى، وما أن وصل الأمير إلى التلال حتى شاهد جيش الدوق يسير وهو مثقل بالغنائم، فأمر فرسانه بالهجوم وإذا بذلك الليل البهيم يتحول إلى حزم من نيران البنادق وكان صهيل الخيول يتعالى ممزوجاً بتكبيرات المجاهدين "الله أكبر" وصيحاتهم جعلت أوصال قوات العدو ترتعد خوفاً وتهتز رهبة وعلا غبار المعركة واشتد أزيز الرصاص وأصوات قنابل المدافع، والمجاهدون يقفزون من مكان إلى آخر يفتشون عن الأسرى الأبطال إلى أن وجدوهم مكبلين في العربات ففكوا وثاقهم وجمعوهم بالأمير الذي أصبح برنسه كالغربال من كثرة ما وقع فيه من رصاص وأكثر من ذلك ففي نهاية المعركة قتل حصانه فقفز منه على الأرض وإذا بضابط فرنسي يصيح وقع وعلى الفور التف حوله خمسة من جنود العدو بقيادة هذا الضابط برصاص زملائه وعندما شاهد الجنود الأربعة ملقى على الأرض أسرعوا باللحاق بالمجاهدين، وعندما حقق معهم ووجهت إليهم الأسئلة عن تصرفهم هذا، أجابوا: إنه الإعجاب الشديد بشجاعة هذا الفارس كنا مأخوذين ومبهورين بشخصية هذا البطل الأسطورة، ولم ندر بأنفسنا إلا ونحن نقف بجانبه[١].

حال الظلام بين الأمير وبين باقي قواته فظن بعضهم أنه قتل بعدما رأوا جواده المقتول والمهماز ملقى على الأرض وشاع الخبر كالصاعقة واهتزت له الروابي والجبال ووصل بسرعة البرق إلى الزمالة التي لم تكن قد لملمت جراحها من حملة الأمس وهلعت النفوس وغشي الأفئدة حزن عميق وفي هذه اللحظات المفجعة برز إلى الساحة من بين الخيام فارس ملثم طفر إلى جواد وأندفع يسابق الريح عبر الشواطئ والخلجان إلى أن التقى المقاتلين العائدين من جحيم المعركة وأناط اللثام عن وجهه وإذ به لالا خديجة شقيقة الأمير وصاحت بأعلى صوتها: "الله أكبر" أيها المجاهدون "الله أكبر" يا جنود الحق الله

[١] المصدر نفسه، ص: ١٤٧.

حي لا يموت، وأخذت تجول بجوادها وهي ممسكة بعنانه تزرع الحماسة والثقة بين المقاتلين، وعادوا جميعاً إلى الزمالة ولكن البشائر قد سبقتهم بنجاة الأمير وخليفته محمد بن علال وبقية الأسرى.

بعد هذه المعركة الدفاعية المشرفة عقد الأمير المجلس الإستشاري في المضرب المخصص للديوان واستعرض مع مستشاريه والقادة والأحداث التي مروا بها، ثم قرروا بالإجماع نقل هذه المدينة والإرتحال بها إلى مناطق الحساسنة في الجهة الغربية من البلاد، لم يكن نقلها بالأمر السهل، ولقد بلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف إنسان يذهب القسم الأكبر منهم للقتال والباقي يعيشون كخلية نحل الكل يعمل بنظام عجيب المرأة مثلاً تخرج صباحاً بعد صلاة الفجر إلى الغدرات تحمل الماء ثم تعود لتقوم بتنظيف الأولاد وإعدادهم وإرسالهم إلى المدارس، ثم تذهب إلى الأسواق لشراء حاجيات عائلتها، تحضر الطعام لأسرتها وتنتظر عودة زوجها إن كان عاملاً أو موظفاً، كانت حياتهم قاسية في الشتاء والصيف ولكن الإيمان بوحدة المصير جعلت سكان هذه المدينة من أكثر الشعب الجزائري سعادة وفي كل مرة كان يعود بها المجاهدون وفي مقدمتهم أمير البلاد رافعين رايات النصر، يخرج السكان رجالاً ونساء يزغردون ويكبرون فتختلط أصواتهم بألحان موسيقى القدوم.

وفي كل مرة كان الأمير يقف على الرغم من متاعب القتال والطريق لا يترجل قبل أن يكلم الجماهير التي تلتف حوله يذكرهم بالقيمة العظيمة العيش في هذه الخيام مرة يقول لهم: إن مدينتكم هذه خلفت على الروابي والهضاب حلة من البهاء، فأين وجدت عطرت الفضاء بنسائم الحرية وأين ما حلت تفتحت الأزهار وإن هذه الحماسة التي تستقبلوننا بها تتحول في كل مرة إلى نسائم من الحب والتقوى والشكر لله العلي القدير والأمل بالانتصار والعيش بكرامة بعد تطهير الوطن من الغزاة وتقويض صروح كبريائه.

كان كلام الأمير يستهوي قلوب سكان هذه المدينة ويشعل مشاعرهم الحمية في أعماقهم كان كلامه في كل مرة أناشيد وطنية وإيمانية تدخل القلوب فتؤنسها لأنها تخرج من قلب مؤمن[1].

٧. إعادة بناء المدينة المتنقلة:

أعيد بناء هذه المدينة في جنوب مناطق الحساسنة بسرعة قياسية وعلقت اللافتات على مداخل المضارب، كالعادة ترشد السكان إلى الجارات، وعليها نقشت الأسهم والأرقام لئلا يضيع أحد عن خيمته، فكان التنظيم والتقسيمات مذهلة في تكوين هذه المدينة، وأخذ الناس يتهامسون يقول أحدهم للآخر: لو كنا نعيش في إحدى المدن وحدث مثل هذا الهجوم علينا، ألا نكون الآن نحن وأطفالنا تحت أحجار مساكننا نموت ببطء ولا يدري بنا أحد؟ وقال آخر: زوجتي حامل ولا أدري بأساً من إنجابها فوق الهودج بحال اضطررنا للرحيل فور وصول أخبار تحذرنا من الأعداء في المرة الماضية لو رأينا الخديعة التي تعرضنا لها لرحلنا قبل وصول العدو ونجت مدينتنا المدهشة[2].

كان الطلاب من القرى المجاورة يشاهدون وهم يحملون أدوات الدراسة على أكتافهم يسارعون للالتحاق بمعاهد هذه المدينة المتنقلة لأن معاهدها كانت تدرس العلوم بجميع موادها.

واصل الأمير حملاته العسكرية منطلقاً من هذه المدينة، وذات يوم سمع أن القوات الفرنسية أخذت تقصف مدينة أغادير، وهددوا السلطان باحتلال مدنه وعلى أثر ذلك عقدت اتفاقية في مدينة طنجة قبل بها ووقع على محاربة المجاهدين بقيادة الأمير عبد القادر والقضاء على مقاومته لفرنسا واعتقاله وتقديمه للسلطات الفرنسية واعتبار المقاومة تمرداً، بعد توقيع السلطان على هذا الاتفاق أخذ يرسل رسائل إلى زعماء القبائل التي تقف مع المقاومة وتساعد الأمير وتقدم له العون.

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٤٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

٨. الأمير عبد القادر وسلطان المغرب:

كان تأثير رسائل سلطان المغرب ضعيفاً على النفوس في البداية واستمر الأمير عبد القادر في جهاده بمعاونة هذه القبائل إلى جانب إرسال المبعوثين الأكفياء لتوعية زعماء القبائل في الثغور والصحراء، وتولد لدى الأمير شعور بأن السلطان اتخذ قراره بعد تلك المعاهدة وأن المظاهرات والاحتجاجات التي قامت بها القبائل على الحدود جعلته يعيش في قلق وخوف وليس من قنابل بيجو، وإنما من شعبية عبد القادر التي وصلت إلى حد مبايعته أسوة بأشقائهم الجزائريين ولكن الأمير رفض وبشدة وأرسل السلطان رسائل يطمئنه بها أنه ليس له أطماع بعرشه ولا يهدف لأكثر من تطهير الجزائر من الفرنسيين.

وبعد نقل الزمالة إلى قرب الحدود المراكشية أشار على الأمير خلفاؤه أي وزراؤه بالقيام بعمل أكثر إقناعاً للسلطان من الرسائل.

وفي صباح أحد أيام الخريف عقد اجتماعاً لمجلس الشورى في أحد مضارب الديوان وبعد جلوس الجميع تكلم الأمير فقال: بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا يجوز لنا القيام بأي عمل إلا بعد ذكر اسمه تعالى والآن سأطلعكم على رسالة السلطان عبد الرحمن إلى أحد زعماء قبائل بني مسناسن وقعت بيد أحد أعواننا سلمها إليّ وهي من ستة رسائل أرسلت إلى القبائل.

إن السلطان يحرض القبائل على التمرد كما ترون ويتدخل في شؤون دولتنا وأكثر من ذلك إنه يطلب من هذه القبائل تقديم العون للفرنسيين الذين عقد معهم صلحاً دائماً يعدّه مشرفاً، ويعتبر عودتنا إلى الحرب بعد صلح تافنا عملاً جنونياً مخالفاً للشريعة الإسلامية. وتابع الأمير كلامه فقال: يبدو أن السلطان كان يريد منا اقتسام الوطن بيننا وبين العدو، أي تقسيم التراب الجزائري لذلك تراجع عن تأييدنا بعد عودتنا إلى الحرب إنه لا يريد إزعاج العدو ولا مقاومته وإنما القبول بوجوده والاعتراف به رسمياً والخضوع لمطالبه ووضع مصالحه في المقام الأول في سياستنا وجيشنا يجب أن تكون مهمته حماية

نظام يكفل للفرنسيين مصالحهم. وباختصار يريد السلطان منا أن نكون عملاء لا حكاماً أمراء، فوقف محمد عبد الرحمن رئيس قبيلة الأحلاف بعد انتهاء الأمير من كلامه واقترح إرسال وفد من ذوي المراكز الكبيرة في الدولة لمقابلة السلطان باسم الأمير ومحاولة إقناعه بنوايا أمير البلاد الطيبة نحوه، وبأن الأمير ليس له مطامع أكثر من تحرير البلاد وتم تشكيل الوفد في تلك الجلسة بعد أن تقدم خليفة الأمير ونائبه البوحميدي الولهاصي، وتقدم أيضاً محمد بن عبد الرحمن الخليفة الآخر للأمير، وسار الوفد في اليوم الثاني من شهر أيلول عام ١٨٤٧م وأخذت القافلة تبتعد رويداً رويداً والأمير ينظر إليها يا له من حدث موجع ولكن لابد منه إنه أخرسهم في الكنانة، ومضت القافلة تحت ظلال الشفق الممتد فوق الغابات حتى كثبان الصحراء والتفت الفارس يلقي آخر نظرة على الزمالة مودعاً وتوارت القافلة وراء أشجار الصنوبر والبلوط تحف بها قلوب المجاهدين وأيديهم مرفوعة بالدعاء إلى الله ترجو لهم التوفيق.

وقف الأمير عبد القادر وسط ذلك الجمع وارتجل هذه الأبيات فقال وهو في طريق عودته إلى داخل المضارب:

قلدت يوم البين جيد مودّعي

دررأ نظمت عقودها من أدمعي

وحدا بهم حادي المطايا فلم أجد

قلبي ولا جلدي ولا صبري معي

ودّعتهم ثم انثنيت بحسرة

تركت معالم معهدي كالبلقع

ورجعت لا أدري الطريق ولا تسل

رجعت عِداك المبغضون كمرجعي

يا نفس قد فارقت يوم فراقهم

طيب الحياة ففي البقا لا تطمعي[1]

وصل الوفد إلى فاس فاستقبل السلطان المجاهد البطل البوحميدي بكأس من السم أفقدته الحياة واستشهد هذا الفارس وهو يقوم بمهمة جليلة، وفي حصن تازة استشهد أيضاً باليوم نفسه خليفة الأمير على المدية محمود بن عيسى البركاني.

وصلت هذه المصائب للأمير عبد القادر فاستقبلها استقبال المؤمن بالقضاء والقدر، وكانت خيبته في سلطان المغرب كبيرة لقد رضخ لضغوط فرنسا ووقع معها معاهدة سلام يوم ١٠ سبتمبر ١٨٤٤م وكان من أهدافها وضع الأمير عبد القادر في وضعية الخارج عن القانون في كامل التراب المغربي والجزائري.

وقد استشاط الشعب المغربي غضباً وأراد مبايعة الأمير عبد القادر ولكنه رفض ذلك فقد كان الشعب المغربي يكن للأمير تعاطفاً معه ويعتبره بطلاً للجهاد كان لذلك الاتفاق أثر سيء على الشعب الجزائري والمغربي وكانت تلك المعاهدة بين سلطان المغرب وفرنسا بإشراف إنجليزي[2].

أ. معركة ايزلي "وعواقبها":

كانت معركة ايزلي الشهيرة التي سميت كذلك لأنها وقعت على ضفاف وادي ايزلي بالقرب من وجدة حيث كان ابن السلطان معسكراً هناك فقط بغية حماية حدوده وليس الهجوم.تعد هذه المعركة الحاسمة حسب بيجو من ضمن أحداث الحرب الأكثر إثارة للدهشة وقد ظهرت عنها العديد من التأويلات بحيث لم يصبح أمامنا إلا الافتراضات أولاً وقبل كل شيء فإنه من المستحيل أن يتم سحق الجيش المغربي الذي كان الفرنسيون يقدرونه ٣٠٠٠٠ رجل في بضع ساعات إلا إذا قبلنا بأن المهمة التي أسندت إلى المغاربة

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٥٣.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٧٣.

في حالة هجوم فرنسي هو الاكتفاء بطلقات بارود شرفية خاصة، وأن الاتفاق الذي عقب السلم الذي أرضى السلطان قد توصل إليه بدعم وضمان من إنجلترا.

أما الافتراض الثاني فهو أن عدد القوات المغربية قد بولغ فيه وحسب أحد المؤرخين "الملمين بالموضوع"، فإنه كان أقل حتى من جيش بيجو وكانت ستسحقه "القوة العددية" لجيش بيجو ألا أن هذا الإفتراض لا يفسر كيف يمكن لمعركة أن تنتهي في مثل ذلك الوقت القصير حتى وإن أخذنا بعين الاعتبار عدم كفاءة الأمير المغربي أمام خبرة الجنرال، فهذا الأخير كان قد أعلن من قبل أنه يملك جيشاً بينما "لا يملك محمد إلا حشداً من الغوغاء وأنه سيخترقه اختراق السكين للزبدة". والحقيقة أن الأمير الذي كان يراقب المعركة بصحبة ١٥٠٠ فارس على بعد بضعة أميال منها لم يكن يستطيع ـ حتى وإن رغب ـ أن يتدخل أمام كارثة لم تكن سريعة فقط، بل حاسمة كذلك، ولو أنه لاحظ روحاً قتالية من جانب جيش سلطان المغرب ومعركة حقيقية قد اندلعت لكان وزن بثقل عبقريته وبسالة رجاله الكفة ولتقبلهم اخوانهم المغاربة بالفرح والسرور، الشيء المؤكد الوحيد هو أن هذه المعركة مهما كانت طبيعتها كانت حاسمة بالنسبة لبيجو فقد كان يقول لجنوده: أن مستقبل الجزائر يتوقف على هذه المعركة فإذا خسرناها سوف نضطر للعودة من حيث أتينا. وقد كان يقول الحق لأن الاتفاق الذي كان السلطان قد قبله سيصبح غير ذي موضوع وهذا لن يكون إلا في صالح الأمير وكانت انجلترا ستعدل موقفها دون أن تمنع السلطان من مساعدة الأمير مع الاحتفاظ بعرشه وكانت ربما ستقنع حكومة باريس بضرورة الخروج من مأزقها في الجزائر، لقد كان للانتصار صدى كبير في باريس وتحصل بيجو إثره على لقب "دوق" كما سمي أول شارع كبير في الجزائر باسم هذه المعركة[١].

---

[١] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٧٤.

ب . استمرار الحرب:

على الرغم من عناده ووسائله البربرية فإن بيجو لم يتمكن من القضاء على الأمير حيث أنه كان في كل مرة يبشر بنهاية أمره، كان خصمه الذي لا يقهر يبرز من جديد بضربات موجهة ضد الجيش الفرنسي ويعيد إشعال نار الحرب التي لم يكن يريدها وإنما فرضت عليه فرضاً.

وفي الأيام الأخيرة كان من عادة بيجو أن يدلي لمحيطه ببيانات صاخبة حول نهاية عبد القادر فإنه في أوائل ١٨٤٤م عندما كان الأمير لاجئاً في المغرب لإعادة تنظيم قواته قام بيجو باقتراح حقيقي على الأمير بواسطة "ليون روش" رجل المخابرات الفرنسية وكان الاقتراح: بأنه نظراً لأن الحرب قد انتهت بالنسبة للأمير فإن بيجو سيسمح له ويساعده هو وحاشيته على الذهاب للعيش بمكة، وقد كان رد الأمير: إن ساعة جهاد الكفار يساوي أكثر من سبعين سنة في العيش بمكة[١].

إن وضعيته "الخارج عن القانون" التي جاءت بها معاهدة طنجة لم تكن بطبيعة الحال قابلة للمعارضة ولذلك فإنه انطلاقاً من التراب المغربي حيث كان مقره كان يفكر في القرون التي سيرجع فيها إلى الجزائر وأيضاً في الحالة اليائسة التي كان عليها هو ودائرته، وقد تمكن بن سالم بعد الكارثة التي ألحقها به بيجو في ١٧ ماي ١٨٤٤م وما تبعها من تدمير لخمسين قرية قبائلية في أسفل منطقة سباعو من الاتصال بالأمير بعد التعبير عن القلق الذي تولد عن غيابه، طلب ابن سالم من الأمير أن يظهر من جديد ليبعث الأمل في نفوس المسلمين الذين انتابهم اليأس.

ومن المؤكد أن هذا الحدث قد أثبت للأمير بأن النهاية لم تحن بعد وأن الوضعية وإن كانت خطيرة فإنها ليس ميؤوساً منها وأن وجوده مع رعاياه حتى أولئك الذين كانوا تحت نيران الاستعمار كان ضرورياً وسيمكنه من مواصلة الجهاد[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٧٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٧٤.

ومن الرسائل التي جاءت من أحمد بن سالم للأمير مكتوب فيها: لقد أشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف وأشاعوا أن والدتكم تصدر المكاتيب والتحارير اللازمة باسمكم الكريم وقد بلغني أن الفرنسيين عازمون على الزحف إلى بلادنا وليس عندي ثقة أكيدة بطاعة القبائل وانقيادهم إلى كلمتي فأنا أسألكم بالله تعالى أن تردوا إلي الجواب عن هذا المكتوب بخط يدكم الشريفة. فأجابه الأمير بخطه: إني اطلعت على مكتوبكم مخبراً بأن خبر موتي قد امتد إلى الشرق، فاعلم أن الموت لا مفر منه ولا محيد عنه إذ هو من قضاء الله الذي لا يرد والاقتدار ما أؤمل به مهاجمة أعداء ديننا، فكن في راحة ساكن البال صبوراً، ومتى استقر الأمر لنا هنا نتوجه إلى نواحيكم[1]. وبعد نقل الأمير الزمالة إلى المغرب الأقصى قرر الاستمرار في غزواته على القوات الفرنسية داخل الجزائر، وعمل بيجو على التصدي له وقال لهيئة أركانه: إن قلوب المغاربة تعلقت بعبد القادر بسبب اتباعه للشريعة الإسلامية بحيث صارت القوافل تسير في المناطق التي يتواجد بها بأمان عكس المناطق الأخرى، إنه يمثل خطراً على فرنسا وهو في المغرب الأقصى أيضاً. وأرسل إلى حكومته يخبرها بخطر الأمير بالمغرب ويطلب منها التدخل لدى السلطان لوضع حد لوجوده هناك[2].

وأمر بوجو الجنرال لاموريسيير والجنرال بيدو بالتوجة إلى الحدود المغربية، فنزلا في مقام السيدة مغنية شمال تلمسان وقاما بهدم مقام الولية مغنية التي يجلّها السكان، على إثر استفزاز الفرنسيين للحدود المغربية وسخط الشعب المغربي. من ذلك خشي السلطان ثورة الرعية عليه فبعث إلى عماله بوجدة ابن الكناوي طالباً منه الاتصال بالفرنسيين والطلب منهم الكف عن الاستفزاز.

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ٥٤١.

فاستهزأ الضباط الفرنسيون برسوله، فزحف الكناوي على رأس جيش على الفرنسيين الذين دخلوا التراب المغربي وانهزم الجيش المغربي وهي أول معركة بين المغاربة والفرنسيين[١]. وبعدها كانت معركة إيزلي التي انهزم فيها الجيش المغربي وهددت بريطانيا فرنسا بالحرب ودخل الطرفان في مفاوضات طلب فيها الفرنسيون من السلطان: اعتبار الأمير عبد القادر بالمغرب خارجاً عن القانون ومنع المواطنين المغاربة من التعامل معه، ودفع غرامة ١٢ مليون فرنك فرنسي وأبرمت اتفاقية طنجة في ١٠/٩/ ١٨٤٤م ومعاهدة لالة مغنية بين المغرب وفرنسا يوم ١٨/ ٣/ ١٨٤٥م وانتشر السخط بين الشعب المغربي على السلطان الذي انهزم جيشه في أول معركة مع الفرنسيين خلال ساعات وقبل الشروط المجحفة التي فرضها عليه الفرنسيون وارتفعت أصوات الكثير من القبائل تطالب بالثورة على السلطان، وإعطاء الطاعة للأمير عبد القادر الذي كاتبه بعض رؤسائها فرفض مسعاهم طالباً منهم الوفاء للسلطان راح الأمير يرسل الوحدات تغير على القوات الفرنسية بالجزائر وعلى القبائل المتعاملة معها ووصلت هذه إلى سيدي بلعباس وتيارات وتاكدامت فذعر بوجو وجنرلاته لهذا واتصلوا بالسلطان فهددوه ، أرسل هذا إلى الأمير يطلب منه مغادرة المغرب ولما وصل رسول السلطان أدرك أن الأمير لا يمثل خطراً على السلطان بل إنه يحث القبائل المغربية على ولائها للسلطان، وأن هدفه الجهاد داخل الجزائر[٢].

ج ـ مساندة أبطال المغرب للأمير عبد القادر:

ومن أبطال المقاومة الجزائرية أبو معزى وهو مراكشي من أولاد سيدي الطيب بنواحي وزان، دخل الجزائر حوالي سنة ١٨٣٥م وقام بنشر دعاية ضد الفرنسيين في مناطق وهران الجنوبية ثم انتقل إلى زواوة يحث أهلها على الجهاد فاستطاع أن يجمع حوله خلقاً كثيراً، وبما أنه كان مستقلاً في حركته عن الأمير عبد القادر فقد ظن الفرنسيون أولاً أنه يمكنهم

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤١.

[٢] المصدر نفسه.

الاعتماد عليه في إضعاف سلطة الأمير، ثم عادوا يرهبون منه، بعد أن نازلهم سنتين كبدهم فيها خسائر فادحة وتوج عمله بالانضمام إلى الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة له على جبال زواوة، فقاتل معه إلى أن اضطر الأمير سنة ١٨٤٥م إلى الالتجاء لمراكش فعاد أبو معزى إلى الجزائر واستمر في قتاله، ولما عاد الأمير في نفس السنة انضم إليه مرة أخرى ابو معزى والتفت من حولهما كافة قبائل وهران والجزائر وسجلوا النصر العظيم على الفرنسيين في معركة سيدي إبراهيم بغرب جامع الغزوات الأمر الذي اضطر من أجله "بيجو" لطلب جيش قوامه عشرة الآف جندي قسمها إلى ثمانية عشر جحفلاً طارد بها الأمير وخلفاءه فوقف أبو معزى وقفة عظيمة واستمر في القتال حتى تغلبت عليه هذه الجحافل، واضطر للاستسلام فاعتقل في حصن "هام" بشمال فرنسا في نفس الغرفة التي كان نابليون الثالث معتقلاً فيها قبل توليه الحكم وبعد ما وقع عليه العفو عنه انتقل لتركيا حيث رحب به العثمانيون وخصصوا له معاشاً.

وفي حرب القرم انضم للجيش العثماني وقاتل في صفوفه وسقط في القوقاز في أسر الروم، ثم توفي في مدينة باطوم، وقد ادعى من بعده ستة أفراد جزائريين أنهم هم أبو معزى وقد جرح هذا الأخير في إحدى المعارك وأسر، ثم أحيل إلى المحكمة العسكرية فكان موقفه رهيباً وجرى بينه وبين رئيس المحكمة الحوار الآتي:

ـ سأله الرئيس: من أنت؟ قال: أنا بو معزى.

ـ لماذا قاتلت فرنسا؟

ـ لكونها دولة باغية طاغية معتدية علينا.

ـ ألم تر أن العرب انضموا إلينا؟

ـ هؤلاء العرب قسمان: الأكثرية منهم أبرياء يخافون على حياتهم والأقلية سفلة خونة لا يبحثون إلا عن رضا الحاكم مهما كان، وعن توشيح صدورهم بشريط أحمر.

. ماذا تنتظر منا؟

. لا يهمني ما أنتظره منكم.

. وإذا أطلقنا سراحك ماذا تفعل؟

. أعود للجهاد في سبيل الله.

. وإذا قتلناك؟

. سأتقدم لله ناطقاً بالشهادتين.

. وإذا سجناك؟

. سأقضي أوقاتي عابداً طالباً من الله أن ينصر العدل على الظلم.

. لماذا تكرهنا؟

. لأنكم ظلّام طغاة.

وقد حكم عليه بالسجن ثم أطلق سراحه بعد ذلك[١].

٩ . الأمير عبد القادر ينطلق من المغرب وينجد خليفته ابن سالم في زواوة:

ثم انتقل الأمير في لمح البصر فغزا قبيلة صدامة في وادي العبد متجاوزاً بوجو ولاموريسيير اللذين لم يكونا بعيدين عنه، ثم قبيلة الأحرار وغنم منها وراح ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ويفرض الطاعة عليها أو تعود له طوعاً اقتناعاً منها بأنه عاد من غيبته قوياً، ولم يزل ينتقل إلى أن وصل إلى زواوة ودخل جبال جرجرة والتقى بخليفته السيد أحمد بن سالم وعلم بتعقب العدو له فقطع أربع رحلات في رحلة واحدة، فسمي بأبي ليلة لأنه لا ينام في مكان أكثر من ليلة. غزا بني هيدورة من القبائل الذين دانوا بالطاعة للفرنسيين وما إن حل ببلاد القبائل حتى اجتمعت له قبائل زواوة فاختار منهم ٥٠٠٠ فارس وغزا بهم متيجة من الشرق وراح يدمر مزارع الكولون ويحرق منشآتهم وهرب من نجا من الموت لائذاً بأسوار الجزائر، قام بكل ذلك بوجو يبحث عنه في عمالة وهران، ثم تحرك عائداً

---

[١] الحركات الإستقلالية في المغرب العربي علال الفاسي، ص: ٥ ، ٦.

نحو الغرب حتى نواحي المدينة ناشراً بين الناس أنه عاد للجهاد بقوة، ثم عاد لجرجرة ومنها توجه إلى الشمال ونزل بأرض فليسة قرب دلس، وراح يشن الغارات المتتابعة على سهل متيجة وقد مضى عليه أكثر من سنة بعيداً عن زوجته وأهله، فأنشد شعراً قال فيه:

بنيّ لئن دعاك الشوق يوماً
وحنّت للّقا منا القلوب
ورمت بأن تنال منيّ ووصلا
يصح بِعيِده القلب الكئيب
فإني منك أولى باشتياق
وناري في الفؤاد لها لهيب
وإن أخفي اشتياقي في فؤادي
فإن الشوق يكتمه الأريب[1]

وفي تلك الأيام العصيبة قال قصيدة أخرى ذكر فيها أهل الجهاد:

لنا في كل مكرمة مجال
ومن فوق السّماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول
وخُضنا أبحراً ولها زجال
لنا الفخر العميم بكل عصر
ومصر هل بهذا ما يقال؟
ورثنا سُؤدداً للعرب يبقى
وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٥.

ومنا فوق ذا طابت فعال

وكان لنا دوام الدهر ذكر

بذا نطق الكتاب ولا يزال

ومنّا لم يزل في كل عصر

رجال للرجال هم الرجال

لهم همم سمت فوق الثريا

حماة الذين دأبهم النضال

سلوا عنا فرنسا تخبركم

ويُصدق إن حكت منها المقال

فكم لي فيهم من يوم حرب

به افتخر الزمان ولا يزال[١]

وهكذا تمكن الأمير في سنة من قطع مئات الكيلومترات والاتصال بعشرات القبائل والدخول لبلاد زواوة وإعادة خليفته البطل ابن سالم إلى وضعه بعد أن ارتفعت معنويات القبائل، وجن جنون بوجو فهو يطلبه بالغرب فيظهر بالشرق مهاجماً متيجة بجيش قال فيه المؤرخ البريطاني شرشل: عجب الفرنسيون من شجاعة عبد القادر وسرعة اختفائه، فكأنه يطير في الهواء فشهد له في محافل باريس الجنرال يوسف بأنه أشجع ما عرفت الأمم من الرجال وبأن غرابة اختفائه السريع تحير العقول[٢].

ويقول النقيب كلير: إن الحملة التي قام بها هذا الأمير أثارت إعجاب كل العسكريين الذين ينحنون بالرغم عنهم أمام هذه العبقرية، إنه العدو اللامرئي والذي يوجد في نفس الوقت في كل مكان، فهو يخترق الصحارى ويتسلل عبر منحدرات جبل عمور، ويدخل سهول المغرب بعد أن يوجه قبائل الغرب نحو الحدود، ثم يظهر فجأة بالشرق بعد أن

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٦.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٤٦.

يقوم بالانتقام من القبائل المتعاونة معنا وبحركة ذاتية يمر بفرسانه الألف والخمسمائة بين طوابيرنا فيقطع عشرين رحلة في ليلة واحدة كيف يمكنك أن تواجه هذه الحركة العجيبة بقيادة طوابير عاجزة ومنهكة في المطاردة، ووحدات متعبة وبمعنويات متدينة بسبب نتائج سلبية؟! إننا نعتمد على الوقت أكثر من اعتمادنا على عبقرية الذين يقودوننا[1].

توجه الأمير غرباً محاذياً للصحراء والعدو يطارده والقبائل تتجنبه خوفاً من بطش وانتقام الفرنسيين وإفقارهم لها، وعندما نزل على أولاد السيد ابن الشيخ البكري في بلدتهم بالبيّض تلقوه بالتكريم والاحترام وقال له كبيرهم: إنا نسألك بالله تعالى ألا تعرضنا للحرب والبلاء مع عدو ديننا ودنيانا بإقامتك عندنا في بلادنا فإن الفرنسيين لا يخفى عنادهم وظلمهم، ولولا أنهم أشد الخلق عنواً وظلماً واعتداء ما تسلطوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا، وأين بلادهم؟ فهم في بر ونحن في بر آخر، ومع ذلك فهم اعتدوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا ورقابنا. فلما سمع الأمير عبد القادر قول هذا الشيخ رق لهم وأشفق عليهم وارتحل عنهم مغرباً إلى دائرته وكانت على نهر ملوية فيما وراء جبل بني زناسن[2]

١٠ . موت الأسرى وموقف الأمير من ذلك:

علم الأمير عبد القادر لدى وصوله بقتل الأسرى الفرنسيين الذين أسروا في موقعتي الغزوات وعين تموشنت وكان عددهم ١٧٧، فأسف لذلك ووبخ خليفته الذي نفذ القتل في غيابه ودون مشورته وكان الأمير مشهوداً له بالمعاملة الطيبة للأسرى وفق أحكام الدين الإسلامي وأمر بإطلاق عشرة ضباط فرنسيين أسرى وأرسل معهم رسالة إلى ملك فرنسا قال فيها: لقد شاع في غيابي أن الفرنسيين عازمون على تحرير أسراهم بالقوة من أيدي العرب، ثم فشا بين الناس أن سلطان مراكش عازم على إنقاذهم من يد خليفتنا رغماً عنه، فكان هذا من سوء سلوك نوابكم سبباً لما وقع بالأسرى من غير إذن منا ولا علم

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٤٧.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٧.

لنا، والآن وقد أطلقنا سراح عشرة ضباط مع الرئيس كورلي دي كوفري وهم يعلمون بما اجريناه. ثم سلمهم في أكتوبر سنة ١٨٤٦م[١]، بدون أي مقابل مادي أو مالي، إن الكثير من الضباط والجنود الذين كانوا أسرى عند الأمير عبد القادر قد شهدوا وكتبوا عن فترة أسرهم واحتوت على حقائق تاريخية دلت على حسن المعاملة ورقيها المستمدة من الشريعة الإسلامية التي أمرت بذلك.

كان في إحدى الأيام من الأسرى نساء، فأمرت والدة الأمير بأن تكون إقامتهن في خيم بجانب خيمتها وأن يحرسهن رجال من ذوي الشهامة والعفة وأمرت بالاعتناء بهن، وحتى لم تنساهن من قهوة الصباح[٢].

١١. سلطان المغرب يشن الحرب على الأمير عبد القادر:

لقد احتضن الشعب المغربي الأمير عبد القادر وخاصة قبيلة بني يزناسن وأهل وجدة والريف وغيرهم وقد استشهد الكثير منهم مع الأمير في جهاده ضد الغزاة الفرنسيين واختلط دم المغاربة مع الجزائريين وكتبوا ملحمة جديدة في تاريخ شعوب المغرب الحرة واستخدمت فرنسا كل قواها من القصف واستخدام الجيوش لمنع المغاربة من دعم الأمير عبد القادر والتحالف مع فرنسا ضد الأمير وبدأت المشاكل بين الأمير والسلطان عبد الرحمن الذي أرسل للأمير يأمره بمغادرة التراب المغربي ويذكر له: أنه لا سبيل إلى خلاصك إلا بأحد أمرين، إما أن تسلم نفسك إلينا، وإما أن تخرج من الحدود، فإن أبيت أن تجري أحداهما طوعاً فنحن نجريه كرهاً.. ثم أوعز إلى القبائل القريبة من الدائرة بالتضييق على قواته وأطرق الأمير ملياً مفكراً وكتب إلى السلطان ما ملخصه: أما بعد فإني كاتبتكم أولاً والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديها على من تبعني وسوء معاملتهم لهم لأنهم كلهم أولاد دين واحد، فلم يأتني جواب على ذلك ومع ذلك فأنا صابر ومتحمل كراهة سفك دماء المسلمين مدة ستة أشهر، طمعاً في رجوعكم عن

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٧.

[٢] الأمير حياته وفكره، ص: ١٥٨.

البغي والطغيان إلى العدل والإحسان، مع قدرتي عليهم في كل آن، فإن لم تردعهم الآن عن أفعالهم وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم، ألتزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرف أتباعي ولذا بادرت بإخباركم والسلام.

وكتب الأمير إلى علماء مصر يستفتيهم في الخلاف بينه وبين السلطان وأرسل لهم رسالة طويلة جاء فيها: ..ثم أمرني بترك الجهاد فأبيت لأنه ليس له علي ولاية ولا أنا من رعيته، ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعاً من يجد صبراً، وأسقط من المجاهدين ركناً، ثم أخذ يسعى في قبضتي فحفظني الله منه، ولو ظفر بي لقتلني أو لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيين، ثم أمر بعض القبائل من رعيته أن يقتلونا ويأخذوا أموالنا، فأبوا جزاهم الله خيراً. فأجاب العلامة الحجة الشيخ محمد عليش مفتي المالكية بالديار المصرية جاء فيها: نعم يحرم على السلطان المذكور أصلح الله أحواله، جميع ذلك الذي ذكرتم، حرمته معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من في قلبه ذرة من الإيمان وما كان يخطر ببالنا أن يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن وفقه الله تعالى مثل هذه الأمور مع مثلكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، خصوصاً وأنتم جسر بينه وبين عدوه[1].

وأشتد الخلاف بين الأمير والسلطان عبد الرحمن الذي أرسل له جيشاً كثيفاً بقيادة قائده الأحمر، وكان الأمير مخيماً بين أرض توزين ومطالسة من قبائل الريف، فاستعد للدفاع عن نفسه، ولما اقترب الأحمر وخيم على بعد مرحلة أرسل الأمير له رسالة قال له فيها: إنني لا أريد إلا المسالمة وإقامة المهاجرين تحت أنظار السلطان، ولا أتمنى الصدام معكم وأنا أحذرك من قتال المسلمين للمهاجرين. وعندما علم الأمير بأن الأحمر توجه لحربه قاد فرسانه الأشداء واعترضه في تافرسيت فاستولى بسهولة على معسكره، وثار بعض الجنود المغاربة سخطاً على حرب المهاجرين فقتلوا قائدهم الأحمر، ثم توجهوا بحريمه وأولاده إلى الأمير، فأرسلهم بحرس إلى السلطان في فاس، وسخط الشعب المغربي على سلطانه لشنه

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٩.

الحرب على مسلمين مجاهدين أرضاء لنصارى معتدين[1]، وجهز السلطان عبد الرحمن جيشاً من خمسين ألف جندي وأسند قيادته لابنه وولي عهده محمد وابنه الثاني أحمد فسار لمحاربة الأمير ونزل الجيش السلطاني على ثلاث مراحل من الدائرة في مكان اسمه سلوان، وقرر الأمير يوم ١٠/ ١٢/ ١٨٤٧م بدء الهجوم وأشار على مساعديه أن يستعملوا حيلة يباغتون بها عدوهم وينشرون في صفوفه الذعر قبل المعركة. فأمر بإحضار جملين وشد على كل منهما حزمتين من الحلفاء بعد أن طلاهما بالقطران والقار والزفت وأمر بأن يكون إيقاد النار في الحزمتين مقترناً بالهجوم على العدو. وفي ليلة الرابع عشر من الشهر المذكور سار الأمير بجيشه نحو سلوان ولما قرب منه رتب جيشه للهجوم دون أن يشعر الخصم وأمر بتقدم الجملين أمام الجيش ثم أضرمت النار في الحزمتين فنفر الجملان وهاجما خيام الجيش السلطاني وحمل جنود الأمير حملة رجل واحد وصحا جنود الجيش السلطاني على مشاعل تنتشر راكضة بين خيامهم فانتشر الفزع بينهم، وعندها انطلق رصاص جيش الأمير فهرب الأعداء تاركين خيامهم وأسلحتهم وتقدم المهاجمون حتى وصلوا إلى سرادق ابني السلطان فوجدوا حراسه قد أحاطوا بهم وراحوا يدافعون عن الأميرين، واستمرت المعركة طوال اليوم وتمكن فيها الأمير من هزم خصمه الظالم[2].

كان سلطان المغرب قد قرر التعاون مع فرنسا وبذل الجهد معها للقضاء على الأمير عبد القادر وراسل زعماء القبائل التي كانت مع الأمير ومن هذه الرسائل التي أرسلها إلى زعيم قبيلة أنكاد وقعت في يد الأمير جاء فيها: بلغنا أن الأمير عبد القادر ما زال مستمراً في إثارة الفتن وجلب الشر للمسلمين ونقض الصلح، الصلح الشرعي الذي عقده مع الفرنسيين وما يقوم به الآن هو عمل غير شرعي، ولا يقبله الدين، ومن يتبع هذا الرجل

---

[1] المصدر السابق.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٥٢.

فقد باع دينه وباء بالضلال وحاد عن شرع الله وقد أعذر من أنذر، في الثالث من رمضان سنة ١٢٦٣هـ من الوالي عبد الرحمن وختمها بتوقيعه[١].

استطاعت فرنسا أن تضغط على سلطان المغرب وتجنده لصالح مشروعها في الجزائر واستفادت من نفوذه للتأثير على القبائل الموالية لعبد القادر وفي نفس الوقت كان المارشال بيجو يطمع إلى المزيد من تأييد القبائل له واعتمد في سياسته مع السكان طريقة الترهيب والترغيب يحرق المزارع وحقول القمح والشعير ويحمل معه الهدايا إلى جانب الأسلحة المدمرة وتعرّض المارشال بيجو لهزائم متلاحقة وبسبب ذلك أعفي من منصبه وعين بدلاً منه ابن الملك الدوق دومال حاكماً عاماً حيث وصل الجزائر يوم ٤/ ٥/ ١٨٤٧م وثبت الجنرال لاموريسيير على وهران وعين الجنرال بيدو حاكماً على قسنطينة والجنرال كفينياك حاكماً على الجزائر[٢].

وبدا واضحاً في عام ١٨٤٧م أن الطوق الفولاذي بدأ يضيق حول المقاومة وأصبحت هجمات العدو أشدّ ضراوة وقوة بعد أن تمّ له تفتيت جبهة الأمير الداخلية وضمن طاعة أكثر القبائل له، ودُمّرت الزمالة ولم يبق من أقسامها سوى الدائرة وأحُرقت المحاصيل الزراعية لتجويع المجاهدين[٣].

سابعاً: الحصار الشديد واتفاقية مشروطة

اشتد العداء بين الأمير وسلطان المغرب، وبالغ السلطان في تضييق الخناق على الأمير، فسار مع من بقي معه من المجاهدين متجهاً نحو الصحراء وأمر بنقل الدائرة إلى مناطق عجرود، وتقدم بجنوده بمحاذاة النهر، ووضع الكمائن للعدو بين الأحراش، وخطط لها

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٦٧.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٩.

[٣] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٣٥.

قواعد تعود إليها بعد انتهاء مهماتها، وسار غازياً إلى الجهات الشرقية، غير عابئ بيجو ولاموريسيير[1].

كان السلطان عبد الرحمن مستمر في مراسلة القبائل التي بايعت الأمير عبد القادر ويستخدم علماء بلده في اتهامه بأنه زائغ عن الهدى: إن من يتبع هذا الرجل فقد باع دينه وباء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى وقد أعذر من أنذر، في الثالث من رمضان سنة ١٢٦٣هـ من الولي عبد الرحمن بن المولى هشام.

وهذه الرسائل وغيرها فعلت فعلها في نفوس هؤلاء الزعماء، ومن المعروف في ذلك الزمان والمؤكد أن قائد القبيلة أو زعيمها، إذا اقتنع بأمر ما سار على هديه جميع أفرادها من دون مناقشة وعلى القارئ أن يتخيل ما حدث سنة ١٨٤٧م، ١٨٤٨م وبات الأمير عبد القادر يقاتل على عدة جبهات وليس هذا فقط، بل كان يرى بأم عينيه فرسانه الأبطال يتساقطون برصاص إخوانهم العرب المسلمين وشاهد أشهر قائد لديه الشهير محمد بن يحيي يسقط صريعاً في إحدى تلك المعارك المؤسفة:

وظلم ذوي القربى أشدُ مضاضة

على المرءِ من وقع الحسام المهند[2]

١. القرار الخطير:

بالغ السلطان عبد الرحمن في عدائه للأمير إلى الحد الذي جعله يحرّض عليه زعيم الأحلاف في الريف الشيخ بوزيان وزعماء بني سناسن وأنكاد ولم يكتف بذلك بل أرسل ذات مرة جيشاً بقيادة الأحمر وآمره بالاستيلاء على مقر الأمير ـ كما مرّ معنا ـ وفي أواخر سنة ١٨٤٧م لم يعد الأمير يحارب جنرالات فرنسا وجنودها المدربين، بل شُيّد بينه وبينهم سدُّ من صدور المسلمين شيده السلطان عبد الرحمن وفرض على الأمير واقعاً مراً مرفوضاً من قبل المؤمنين وهو قتال الإخوة فرضت على الأمير معارك مؤسفة شغلته ومنعته عن

[1] المصدر نفسه، ص: ١٣٧.

[2] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٤٢.

الاستمرار في مقاومة المستعمرين هذا الهدف العظيم الذي حمل الأمير والمجاهدون معه السلاح من أجله سنة بعد سنة ثمانية عشر عاماً، كان فراش الأمير خلالها ظهر جواده وفي أواخر هذه السنة لم يرى الأمير أمامه جنود المستعمرين، بل رجالاً وجنوداً مسلمين يحاصرونه من كل جانب ويتأهبون للانقضاض عليه وعلى من تبقى معه من المجاهدين المؤمنين بعدالة قضيتهم وبالله والوطن وبسيرة أميرهم الصحيحة والشرعية[1].

وفي ليلة ماطرة شديدة الظلام نظر هؤلاء المجاهدون إلى وجه الأمير، وتحدث معهم فقال لهم: إن المعلومات التي لدي بأن الطريق الوحيد للوصول إلى الصحراء هو مضيق غربوس. قال الأمير: بإمكاننا فتح هذا المضيق ولكن بعد اشتباك أخطر من الذي جرى قبله، لأن البدء بالهجوم والقيام بالقتال "قتال الإخوة" وإسالة دماء من يقولون: ربنا الله، وسيدافعون عن أنفسهم حتى الموت، هذا أولاً، وثانياً علينا التحرك فوراً وحمل جرحانا كي لا يقعوا بيد من لا يرحم، لذلك لا أرى إلا التسليم بقضاء الله والرضا به، لقد اجتهدت نفسي عن الذب عن الدين والبلاد وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر والباد، وذلك من حين اهتز شبابي وافتر عني شباة الهندي نابي، وأقمت على ذلك ما ينوف على ثماني عشرة سنة، أقتحم المهالك وأملأ بالجيوش الجرّارة الفجاج والمسالك واستحقر العدو على كثرته واستهل استقصاءه وأتوغل ـ غير خائف ـ أوديته وشعابه وأرتب له في طريقه الرصائد وأنصب له فيها المكائد والمصائد، تارة أنقض عليه انقضاض الجارح وأخرى أنصب له فيها انصباب الطير إلى المسارح وكثيراً ما كنت أبيّته فأفنيه وأصبحه فأبرد غليلي منه وأشفيه ولازلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية وأشمر عن أقوى ساعد وبنان وأقضي حق الجهاد بالمهند والسنان إلى أن فقدت المعاضد والمساعد وفنى الطارق من أموالي والتالد ودبت إلى من بني ديني الأفاعي واشتملت عليّ منهم المساعي، والآن بلغ السيل الزبى والحزام الطيبين فسبحان من لا يكيد كائد، ولا يبيد ملكه وكل شيء بائد.

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٤٦.

ثم طرح الأمير فكرة وقف الحرب لأنه المطلوب من الأعداء شخصياً كحاكم لدولة وقائد للجيش النظامي وليس وقف المقاومة، لأنها بيد الشعب وليس بيده ولن تقف إلا بزوال الاحتلال والشعب الذي سيصحو يوماً عاجلاً أو آجلاً، ويكتشف أكاذيب المحتلين وغدرهم والذين استسلموا للأعداء وحاربوه بسلاح المحتلين سيدركون يوماً أي مصير قادهم إليه تحالفهم مع الأعداء ولمصلحة من كان تحالفهم.

أدرك الأمير ما كان يدور في خلد هؤلاء الأبطال من رجاله فقال مرتجلاً بعض الأبيات لتخفيف جمود تلك اللحظات:

إن يسلب القوم العدا

ملكي وتسلمني الجموع

فالقلب بين ضلوعه

لم تسلم القلب الضلوع

أجلي تأخر لم يكن

بهواه ذلّي والخضوع

ما سرت قط إلى قتال

وكان من أملي بالرجوع

شيم الألى أنا منهم

والأصل تتبعه الفروع[1]

ثم قال: نحن لا نخشى الموت، فالشهادة في سبيل الله جلّ ما نبغيه ونسعى إليه، واستشهد بقول الله تعالى :" وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ" (آل عمران، آية : ١٦٩). ثم استشهد بجملة لمفتي المالكية العلامة الحجة محمد علوية في الديار المصرية: ما من ميت يتمنى العودة إلى حياة الدنيا إلا الشهيد لما

[1] الأمير عبد القادر حياته وعصره، ص: ١٧٥.

يجده عند ربه من الخيرات مما لا يخطر على بال بشر: ثم استأنف: الشهادة في سبيل الله هي مطلبنا. ولكن إذا استطعنا الخروج مما نحن فيه الآن، والوصول إلى التخوم المجاورة ووادي عجرود حيث ترابط الجيوش الفرنسية ومهاجمتها، ثم الإنسحاب نحو مقرنا في الدائرة لكان خيراً عظيماً لنا ونصراً مؤزراً: وأجابه أحد المجاهدون: لكن كيف لنا الخروج وقوات السلطان تجوب الطرق، وتحاصر المسالك والمنعطفات بحثاً عنا، والعيون هنا من حولنا تراقب حركاتنا وسكناتنا، وقد بتنا وكأننا في معتقل كبير للأعداء؟

لم تدم هذه الأحاديث بينهم أكثر من دقائق وقف الطيب المختار وسأل الأمير: ماذا بعد وقف الحرب؟ أجاب الأمير: الهجرة من البلاد، لأنني شخصياً مستحيل علي العيش ولو للحظة واحدة تحت راية ليست راية بلادي الإسلامية، وليست راية دولتي. فوافق الجميع على قرار وقف الحرب[١]، حقناً للدماء الغالية التي ستُزهق من الطرفين المراكشي والجزائري بغير طائل.

٢. طرق باب الاستئمان الزمني لأجل الهجرة:

كانت الطريقة من الخروج من هذا المكان وتحقيق مقصد الهجرة عن طريق الاستئمان الزمني وهو طلب الأمان واعطاء الفرصة للخروج من أجل الهجرة في سبيل الله تعالى، فعندما تساءل الحاضرون في مجلس الأمير عبد القادر كيف الخروج إلى الهجرة والخروج من هذا المكان الذي نحاصر فيه، أجاب ابن علال وكان من الفقهاء: سنطرق باب الاستئمان الزمني. قال الأمير: نعم أيها الأخوة سنطرق هذا الباب، وهو باب معروف في الجهاد بالإسلام، والهجرة في ظروفنا هذه أعتقد أنها أصبحت حق علينا وإن لم نطرق بابها نكون آثمين بحق أنفسنا، قال تعالى:" وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً" (النساء، آية : ١٠٠).

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٦.

. وقال تعالى: " وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" (النحل، آية : ٤١).

وذكر أقوالاً كان قد كتبها لبعض خلفائه جواباً لاستفساراتهم حول الهجرة، وقد جاء في القرآن ذكر الهجرة مراراً وذم تاركها، والله جعل لها شروطاً، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تنقطع الهجرة حتى يغلق باب التوبة، ولا يغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغاربها**». أما باب الهجرة من مكة إلى المدينة فقد انقطعت بالفتح أي بفتح مكة ثم تابع الأمير كلامه فقال: سأرسل رسالة شفهية إلى الجنرال لاموريسيير ممثل الدولة التي تحتل بلادنا ليخبرها باسمي بأنني أريد طريقاً آمناً يقصد ترك البلاد والسفر إلى الإسكندرية أو عكا، فإن وافق فالخيرة فيما اختاره الله، وإن رفض نكون أمام الله لم نأل جهداً ونتحرك بما عندنا من قوة لفتح مضيق غربوس والإتجاه نحو الصحراء في حال انتصارنا، ولاشك أنها ستكون مغامرة ولكن لا خيار لنا، لأننا حيث ما توجهنا سوف نجد سداً من صدور إخوة لنا في الدين جندهم الأعداء ليتخذوا منهم حاجزاً ودروعاً لهم[١].

لم يطرق الأمير عبد القادر أبواب السلطان عبد الرحمن في أي تسوية معه للأسباب التالية:

. لأن السلطان مرتبط باتفاقية مع فرنسا بشأن الأمير ومقاومته.

. لأن قوات السلطان تحاربه لموجب الاتفاقية وهي إتفاقية طنجة عام ١٨٤٤م التي نصت على موافقة السلطان على مقاومة الأمير والقضاء على دولته والقبض عليه وتسليمه إلى القوات الفرنسية.

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٧.

. السلطان عبد الرحمن لا يمكنه عقد أي اجتماع مع الأمير إن كان استئماناً وطلباً للهجرة أو وقف الحرب مثلاً إلا بعد الرجوع إلى السلطات الفرنسية، لأنه كان مكبلاً بتلك الاتفاقية[1].

٣ . الرحيل:

سار مبعوث الأمير عبد القادر يحمل الرسالة الشفهية فصادف عدداً من الكمائن في طريقه أشهروا السلاح في وجهه وأرغموه على الترجل ومن هذه الكمائن قوة من المسلحين بقيادة بن خيوة من قبيلة الدوائر وبعد أن علم بمهمة المبعوث أرسل معه عدداً من جنوده رافقوه حتى معسكر لاموريسيير، فبلغ المبعوث الرسالة الشفهية إلى الجنرال الذي كان جالساً في خيمته وأمامه على الأرض عدد من الخرائط، فانتصب واقفاً وضرب كفاً بكف سروراً، وعلت وجهة علامات الفرح، فأخذ على الفور ورقة بيضاء من الطاولة ووضع عليها ختمه ووقعها بإمضائه ثم سلمها إلى الفارس قائلاً: فليضع الأمير طلباته ونحن على استعداد لتلبيتها، ثم أعطاه سيفه هدية للأمير دليلاً على قبولهم وقف الحرب، ثم أرسل كتاباً إلى الدوق دومال ولي العهد، ورسالة إلى الملك يقول له فيها إني في هذه اللحظات ممتط جوادي للذهاب للاجتماع بالأمير عبد القادر، ولا يوجد عندي لحظة من الوقت لأبعث لجلالتكم نسخة من هذا الكتاب الشفهي الذي وصلني منه أو نسخة من جوابي عليه ولكنني أستطيع القول: إنني اتفقت مع الأمير على حسب طلبه أن يذهب هو وعائلته إلى الإسكندرية أو بلاد الشام وإني قبلت بجميع طلباته ووقعت عليها وأنا ملزم بتنفيذها حرفياً أرجو أن توافقوا جلالتكم على ذلك. وقبل أن يصل الكتاب الرسمي من الملك ركب الدوق دومال ولي العهد بارجة إلى مرفأ جامع الغزوات، فأرسل إلى الجنرال يخبره بموافقته على طلبات الأمير كلها وأمره أن يعطي الأمير مزيداً من الثقة وأخذت الرسل تسعى بين الأمير والدوق دومال ثلاثة أيام بلياليها من دون توقف

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٧.

للتوقيع الرسمي على جمع الطلبات بشكل رسمي. وأول هذه الشروط تتعهد فيه فرنسا بعدم التعرض للسكان والمجاهدين منهم بالشر وبإعطائهم الأمان في أموالهم وأنفسهم ودينهم وعدم اعتراض أو منع من يريد السفر معه من العسكريين والأنصار والأهل وكان ثمة شرط واحد لنفسه، وهو الأهم الاستئمان الزمني ريثما يصل إلى البلد الذي حدده في الاتفاق وهو عكا أو الإسكندرية[1].

بعد عدة أيام من المفاوضات تم التوقيع من قبل الجميع على طلبات الأمير فسار بأهله "من تنخريت" متجهاً إلى مرفأ الغزوات وكان ينتظره الدوق دومال وليّ العهد والجنرال لامور سيير، وعدد من قادة جيش العدو وضباطه وهذا ما لم يتوقعه الأمير وفوجئ به، وفي أثناء سيره مرّ بمقام سيدي إبراهيم المكان الذي هزم فيه القوات الفرنسية عدداً من المرات وكان آخر انتصار له عليهم في هذا المكان منذ وقت قريب، فأمر بإيقاف الموكب وصلىّ ركعتين على أرواح الشهداء وكان يرافقه أهله وبعض أعوانه وعدد من أفراد حاشيته المقربين، وعندما وصل موكبه إلى المرفأ المذكور استقبله الدوق والجنرال بكل احترام استقبالاً رسمياً وترّجل الأمير عن حصانه الأدهم، وقدّمه هدية ثم قدم له الدوق أيضاً بندقيته وساعته هدية فقبلها وبعد فترة من الإستراحة سار الجميع[2] إلى المرسى وقد اصطف الناس يميناً وشمالاً وهم يبكون وكان الفرنسيون الحاضرون يعجبون كيف كان الناس بمن فيهم الجنود الجزائريون بالجيش الفرنسي يبكون ويقبلون برنوسه وهو مار إلى البارجة وركب الأمير يوم ٢٤/ ١٢/ ١٨٤٧م البارجة التي اتجهت به إلى ميناء طولون[3]، ولسان حال الشعب ينشد باكياً:

تبكي السماء بمُزنٍ رائح غادي

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٨.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٥٦.

[3] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٥٧.

على الأبطال من أبناء بلادي

إن يُغلبوا فبنوا العبّاس قد غُلبوا

وقد خلت قبل حمصٍ أرضُ بغداد

دنا الوقت لم تُخلف له عِدةٌ

وكلُّ شيءٍ بمقيات وميعاد

سارت سفينتهم والنوح يصحبها

كأنها إبل يحدو بها حادي

انتشر خبر رحيل الأميرفي أرجاء الوطن كالنار في الهشيم ووقع هذا الحدث المفاجئ، كالصاعقة على رؤوس السكان، فأخذت النساء بالبكاء والعويل وعمد الرجال إلى التجمعات الصامتة الحزينة والنفوس كالنار تحت الرماد، ولاحظ المحتلون تلك الظواهر ودبّ الرعب في قلوبهم، فطلب أحد الضباط من الجنرال لامور سيير منع هذه التظاهرات بالقوة فأجابه: دعهم يبكون فلقد ذهب عزّهم وعزّنا أيضاً، فلولا الحروب التي خضناها ضد هذا البطل لما رأيت هذه الأوسمة على صدري، ولما وصلت إلى هذه الرتبة العالية، جئت إلى هذه البلاد وأنا ضابط صغير فانظر إليّ الآن[1].

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٥٧.

٤. نقض فرنسا للعهد واعتقالها للأمير:

وفي الرابع والعشرين من كانون أول سنة ١٨٤٨م رست البارجة في مرفأ طولون في حالة انتظار لبعض الوقت حتى تصل توجيهات من الدول العثمانية، ولكن قبل أن تصل هذه التعليمات دخل على الأمير الكولونيل دوماس وأدّى له التحية العسكرية بكل احترام وتقدير، ثم أخبره أن المفاوضات لم تنته بعد، وأن عليه الانتظار بعض الوقت، فشعر أن هناك نية غدر مبيتة ولم تخنه فراسته وتأكد من الخديعة والغدر عندما ابحرت بهم البارجة، ودخل عليه دوماس وأخبره أنهم قاصدون فرنسا حسب أوامر الملك الذي يعتذر له عن عدم الوفاء بشرط "الهجرة" لأنه لاقى معارضة شديدة من مصادر عليا في فرنسا. وقال له أيضاً على لسان الملك: إن فرنسا مستعدة لأن تمنحكم أراض شاسعة وقصوراً تعيشون فيها مكرمين، ويستطيع أفراد حاشيتك امتلاك مزارع يعملون فيها طيلة حياتهم إلى جانبك. فرفض الأمير قائلاً: لو ملكتموني فرنسا كلها فلن أقبلها عن وطن عربي إسلامي أعيش فيه ولو وضعتم فرنسا كلها في برنسي هذا وفرشتموها بالديباج لنقضته إلى الأمواج التي تضرب جدران هذه البارجة الحربية[١].

وقبل وصول البارجة الحربية إلى ميناء طولون سأله دوماس إن كان يريد زيارة باريس فلقد سبق أن زارها إبراهيم باشا خديوي مصر وكان سعيداً برؤيتها، فأجابه الأمير: إن هذا المذكور زارها سائحاً للنزهة فقط ولكنني الآن لا أرى فرنسا إلا سجناً لي ولمن معي وقد أردت أن أكون ضيفاً على بارجتكم، فأصبحت أسيراً لديكم. وبعد ذلك نقل مع كل من معه إلى حصن طولون الشهير تحيط بهم حراسة شديدة مشددة[٢].

كان الهدف من سجن الأمير تحطيم رمزيته الكبيرة في نفوس الشعب الجزائري فرئيس الحكومة فيزو الذي عيّن الجنرال الأشد عناداً في حرب الأمير، كتب في مذكراته: أنه لا

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٥٨.

[٢] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٨٨.

يمكن تحطيم رجل عظيم على رأس أمته طالما أنه لم يقتل أو يؤسر[1]، وفي أواخر شهر نيسان ١٨٤٨م. تم عزل الأمير ذات ليلة عاصفة عن إخوته وعن عدد كبير من مرافقيه، ونقلوا إلى باخرة حملتهم إلى سجن باكريت ونقلوا الأمير إلى قلعة أمبواز من دون أن يكون في صحبته رجال يخشى منهم لأن حصن أمبواز يقع في مدينة "بو" التابعة لمقاطعة أورليان القريبة من الحدود الإسبانية، فكانت هذه السلطات تخشى من أن يخرج الأمير بالقوة بمساعدة مرافقيه الأشداء ويدخلوا الحدود الإسبانية، وبمرافقة حراسة مشددة نُقل الأمير إلى تلك المدينة وفي أثناء الطريق مروا بمدينة بوردو الساحلية، فاستقبله عند مدخلها الأسقف دوبيش بكل احترام وتقدير وكان هذا الأسقف معجباً بالأمير ومن المدافعين عنه، وكان من الذين زاروا الخليفة محمد بن علال في ولايته من أجل بعض الأسرى الفرنسيين فوجد لديه من الإكرام ما لا ينسى.

وأقام الأمير في فندق المدينة بعض الوقت للاستراحة، ثم تابعوا سيرهم إلى مدينة "تور" ومنها إلى "أمبوار" وعندما وصل القطار قال له الجنرال المرافق: أحمد ربك على وصولك بالسلامة إلى هذا المكان، إذ كنت طوال الطريق في أشد الحذر من أن يهاجمك أحد ويغتالك لأنه لا يوجد في فرنسا كلها أحد ليس له عندك ثأر، كان حصن أمبواز لأحد ملوك فرنسا وهو عبارة عن قلعة كبيرة عالية الأسوار تحيط به سهول واسعة ونهر تسير فيه المراكب أحياناً وقد أقام الأمير في هذه القلعة هو وإخوته الأعزاء لديه الذين كان يعز عليه أن يبقوا بعيدين عنه، وكان بعدهم يحزن والدته العظيمة التي كانت تلح عليه باستمرار لكي يسعى إلى ضم إخواته إليه في هذا الحصن الذي كان في نظرهم سجناً كبيراً، وقد أرسل الأمير عدة رسائل إلى الجنرال لامور سيير والدوق أورليون اللذين وقعا أمامه على شروط تسليم نفسه، طالباً الوفاء بالشروط وضمّ إخوته وضباطه إليه[2].

[1] المصدر نفسه.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٠.

استسلم الأمير عبد القادر لقدر الله وقضائه ولكنه ندم على الوثوق بالعهود التي أعطيت إليه من قبل القادة الفرنسيين وقال: لو كنت أعلم أن الحال يؤدي إلى ما إليه آل، لم أكن لأترك القتال حتى ينقضي منا الأجل[1].

وقام الأمير لامور سيير بمساعي كبيرة وكذلك الأسقف دوبيش والدوق دومال، للضغط على حكومتهم قائلين إن عبد القادر ليس بالرجل الذي يهرب من قضائه فهو مؤمن ذو همة وجلد وصبر، ولا يبالي بالشدائد، وهو ذو قوة وعزة نفس وصلابة في دينه وصدق اشتهر به، وهو شديد التمسك بمبادئه الوطنية وهو شخصية نادرة إذ وعد وفى وإذا تكلم صدق.

واستطاعوا التأثير في السلطات العليا فسمحت لمن يريد بزيارته كما أمرت بلمّ شمله مع أهله وقادة جيشه السابقين[2].

وعندما كتب بيجو بطلب من لويس فيليب إلى الأمير ليطلب منه أن يقبل أن يعيش في فرنسا في الإقامة التي يختارها صحبة مجموعة مدينة تليق بمقامه في انتظار الفترة المناسبة لنقله إلى المشرق كان رد الأمير هو التالي: أن فرنسا ملزمة إزائي وإزاء نفسها، إن وعدكم لن أسقطه عنكم، سأموت ووعدكم عندي حتى أفضحكم وحتى تعرف الشعوب والملوك قيمة الوعد الفرنسي وبعد سقوط ملكية جويلية فإن الحكومة المؤقتة كانت غير قادرة على الوفاء بوعد فرنسا مثلها مثل النظام السابق لها، وعندما سأل محافظ الحكومة المؤقتة الأمير عبد القادر عن الضمانات التي يمكن أن يقدمها إلى فرنسا ليؤكد لها أنه لن يظهر أبداً في الجزائر. كان رد الأمير هو التالي: ليس لي ضمانات أخرى أعطيها حول عزمي الثابت فيما يخص المستقبل سوى تلك التي سبق لي أن قدمتها[3].

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٧.

[2] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦١.

[3] الأمير عبد القادر وعبقريته البناء للأمة الجزائرية، ص: ١٨٩.

أ. شخصيات فرنسية وإنجليزية تدافع عن الأمير:

وللحقيقة التاريخية أنه تدخل لصالح الأمير عبد القادر ودافع عنه العديد من الشخصيات الفرنسية مثل الجنرال لامور سيير والأسقف الأول للجزائر أنطوان دوبيش ودوق دومال[١]، والشيء الأكثر إثارة للدهشة في هذه القضية أن كافنياك وهو أحد الجنرالات الذين قاتلوا الأمير قد أعلن بعد تشكيل حكومة الجمهورية الثانية: لا يمكن اعتبار عبد القادر سجيناً فقد كان طريق الجنوب مفتوحاً أمامه وقد فضل هو الرجوع إلى ما يسميه هو بصدق الوعد الفرنسي[٢].

وقد تأثر به الرأي العام الفرنسي والدولي وعبر عنه بصفة خاصة في بريطانيا من طرف اللورد "لندنديري" والشاعر "شاكري" وقد اهتز لهذا الموقف اللورد البريطاني لندندري فكتب رسالة شديدة اللهجة إلى لويس نابليون رئيس الجمهورية الفرنسية المنتخب وألح عليه بإطلاق سراح الأمير عبد القادر لينقذ شرف بلده وعدم نبذ عهودها، ووصل بالسيد لندندري الحد إلى التهديد بكشف المراسلات التي تثبت شروط المعاهدة بين الأمير عبد القادر وبين فرنسا التي أمضيت في ديسمبر من عام ١٨٤٧م[٣].

كما أن سيادة دييبش الذي أصبح مطران باريس قد خاطب من على أعلى منبر نوتردام حاكم بلاده قائلاً: إنكم ستقتلون هذا الرجل دون أي مراعاة لوعد فرنسا[٤].

لم يقبل الأمير عبد القادر على الرغم من العديد من الطلبات الجد مغرية بأن يبقى في فرنسا حيث وعدته الحكومات المتتالية بمعاملة ومعاش يليقان بمقامه القديم، وظنت فرنسا أن بقاء الأمير كرهينة سيقبل بعد الإرهاق أن يقيم في فرنسا وهو ما يعني في نظر زعمائها الانضمام إلى فرنسا.

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٩.

[٢] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٨٩.

[٣] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٩.

[٤] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٩٠.

ومن الواضح أن الأمير عبد القادر قد كوّن مشكلة نفسية وتأنيب ضمير وتشويه سمعة بالنسبة لفرنسا وكان الكل يشعر نحو الأمير بالإعجاب ولذلك حرصوا على أن يبقى في فرنسا لكي يحققوا من خلف بقائه أهداف منها:

ـ تحية وإكرام لفرنسا.

ـ وتنكر الأمير لماضيه[1].

إلا أن الحياة الحرة العزيزة الأبية وتعلقه بشعبه ووطنه جعله كل ذلك أن يبقى في أعين الجزائريين والعالم أجمع كرجل وهب نفسه للقيم والمبادئ الإنسانية الرفيعة ومن أهمها حريته وحرية شعبه التي لا مساومة عليها مع المحتلين، ولذلك أصبح من الرموز اللامعة للجزائر والعرب والمسلمين والأحرار من بني الإنسان.

ب ـ حياته في السجن:

استطاع لامور سيير والأسقف دوبيش التأثير على السلطات الفرنسية فسمحت للأمير عبد القادر لمن يريد بزيارته، وأخذت شخصيات كبيرة من جميع أقطار العالم تتوافد لزيارة الأمير والتعرف على شخصيته الفذة وتسلم رسائل من الشيخ شامل أحد زعماء الداغستانية في الولايات الإسلامية التي وقعت سيطرة تحت روسيا القيصرية، ومن الذين تحملوا مسؤولية الجهاد مدة طويلة منذ احتلال المناطق الإسلامية في بلاد القوقاز من سنة ١٨٣٤م إلى ١٨٥٩م وعمل على تثبيت الشريعة الإسلامية في قلوب أبناء تلك البلاد ونشر الوعي الإسلامي والتمسك بالقرآن والسنة وكان الأمير يستقبل الجميع بالبشر والترحيب وكان يقضي الساعات الطوال مع العلماء والشخصيات العالمية ويجيب عن أسئلتهم التي تتعلق بالدين الإسلامي وبالفقه والآيات القرآنية وتفسيرها، وكان صبوراً لا يظهر الضجر، وكان كل أسبوع يعقد ندوة علمية يجتمع فيها الرجال والنساء، فيقرأ

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٩٠.

ملخصاً عن كتاب "الصغرى" للإمام السنوسي في معنى الفقه وعلم الكلام، ورسالة محمد ابن أبي زيد الفيرواني في الفقه أيضاً على مذهب الإمام مالك وغيرها من الكتب المفيدة، وأخذ هو وإخوته ومصطفى ابن التهامي وابن علال يدرسون الصغار بعد أن نظموا لهم صفوفاً وكذلك للشباب كل حسب مقدرته وكان الأمير الذي زلزل بقوته أكبر دولة برية في العالم مدة ثمانية عشر عاماً متواصلة يقف أمام اللوح الخشبي مدرساً في سجنه لأطفال أهله ورعيته وثابر على تمسكه بالصبر وظل غير مبال بنوائب الدهر قائماً بواجباته الدينية بخشوع، قال شرشل: إن مطران "أمبواز" كان يحثُّ المصلين في أثناء قيامه بالوعظ يوم الأحد، فيقول لهم انظرو إلى الأمير عبد القادر الأسير في منفاه كيف يقوم هو وجماعته بكل واجبات دينهم من صلاة ليلاً نهاراً. ألا تسمعون الأذان بصوت قره محمد خمس مرات كل يوم من أعلى البرج في الحصن[1].

وهكذا ظل الأمير خمس سنوات في سجنه فقد خلالها عدداً من أبنائه وأهله ودفنهم في حديقة القلعة صابراً راضياً بقضاء الله وقدره، ولم يكن في سجنه أقل عظمة مما كان في أيام سلطاته ومقاومته الأعداء، وقد أجاب ذات ليلة أحد أبنائه عن حاله مرتجلاً هذه الأبيات:

تعوّدت مسَّ الضُّر حتى ألفنه

وأسلمني طولُ البلاء إلى الصبر[2]

٥. إطلاق سراح الأمير عبد القادر:

بعد أن تغير الحكم في فرنسا إثر الكثير من الاضطرابات الداخلية وعاد لويس فيليب إلى الحكم وأصبح إمبراطوراً باسم نابليون، كان أول عمل قام به هو أن أرسل كتاباً إلى الأمير

---

[1] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦٢.

[2] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦٢.

يقول له فيه ما معناه: إن سجنك يعذبني ويقض مضجعي وأشعر بالعار لعدم تنفيذه الاتفاق، وأخبره بأنه يريد زيارته في أول فرصة ممكنة.

وفي السادس والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨٥٢م توجه امبراطور فرنسا نابليون الثالث إلى مدينة "تور" يرافقه المارشال سنتارنو وزير الدفاع والجنرال روغو، وعدد من كبار الضباط والحرس الإمبراطوري واستقل هذا الموكب القطار إلى مدينة أمبواز.

بدأ نابليون الثالث جولته هذه بزيارة الأمير عبد القادر وما إن وصل إلى مدخل الحصن حتى وجد الأمير في استقباله فسار وإياه يداً بيد إلى أن وصلا مكان الاستراحة المعدّة مسبقاً، ثم أقبلت والدة الأمير المسنة منحنية على عصا تساعدها على نقل خطواتها نحو الإمبراطور الذي قال للأمير: أكرر أسفي على السنين التي قضيتموها مرغمين في سجنكم هذا، والآن يشرفني التعرف على عدو شريف وضيف كريم أقدر دفاعه عن وطنه ورفضه قتال أبناء دينه، ثم قدّم له سيفاً منقوشاً عليه اسم نابليون الثالث وتاريخ المقابلة مرفقاً بكتاب يقول فيه:

هذا إقرار بالوفاء بشروطكم ومساعدتكم من حكومتي على السفر ومن معك إلى تركيا حسب رغبة السلطان غازي خليفة المسلمين.

ودعاه لزيارة مدينة باريس بعد عشرة أيام حيث يكون قد نظم له احتفالاً كبيراً وعرضاً عسكرياً لجميع أسلحة الجيش التي حاربها بحد سيفه وسيوف المجاهدين مدة ثمانية عشر عاماً. وغادر نابليون الثالث الحصن الذي شهد انتهاء أسر الأمير ومرافقيه عام ١٢٦٩هـ وكان ذلك القصر التاريخي مقرّاً مفضلاً لكثير من ملوك فرنسا وأولهم لويس الحادي عشر وبعد قيام الثورة الفرنسية للقضاء على الملكية تحول إلى حصن وقلعة ثم إلى سجن للأمير عبد القادر[1].

٦. مغادرة فرنسا إلى الدولة العثمانية:

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٤.

سارت قافلة المهاجرين الأبطال في هدأة الليل من حصن أمبواز في طريقها إلى مرسيليا في الثامن والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٦٩هـ /١٨٥٣م وعند وصول القافلة إلى مشارف مدينة ليون شوهد مئات من الجند بلباسهم الرسمي يمثلون فرقاً من الجيش، وأطلقت إحدى وعشرين طلقة تحية للمغادرين، وحصل مثل ذلك الاحتفال الرسمي للقافلة في مرسيليا أيضاً، فأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة قبل صعودهم البارجة الحربية التي أبحرت بهم نحو جزيرة صقلية، وبعد فترة من الزمن لاحت الجزيرة عن بعد كزمردة خضراء لامعة تحت أشعة الشمس الصباحية الحانية وزرقة السماء الصافية وكان حاكم المدينة قد نظم استقبالاً حافلاً لائقاً وينطوي على كل احترام وتعظيم وبعد استراحة قصيرة تقدم من الأمير عارضاً القيام برحلة لمن يريد في أرجاء الجزيرة وكان عدد من العربات في انتظارهم وتجولوا في صقلية وشاهدوا الآثار الإسلامية التي تشهد على تاريخ هذه الجزيرة العربية الإسلامية وبين أمجاد هذا التاريخ الغابر وهدير الأمواج كانت تغلق نفوسهم الحزينة هذه الذكريات الموجعات، وما أشبه أيامهم الحاضرة بالأمس البعيد[١]، وصعد الأمير مع حاكم صقلية إلى جبل "أتنا" وعند مغادرته ترك رسالة شكر عبّر فيها عن مشاعره بالعبارات التالية:

شاهدنا في كل مكان آثار الشعوب التي سكنت هذه الجزيرة، هذه المشاهد دفعتنا إلى التفكير بالله وأنه في الحقيقة سيد الكون وأنه يعطي الأرض لمن يشاء إن جبل النار هو بلا شك أحد روائع العالم وعند تأمل السهول المزروعة والمأهولة من قيمة هذا الجبل نفكر بقول الحكيم العربي حول الجلاء عن صقلية من قبل العرب:

أن أفكر فيك يا سهول صقلية من ارتفاعات "أتانا" يؤدي إلى يأسي لو لم تكن دموعي مالحة لشكلت أنهاراً لهذه الجزيرة جزيرة المجد، علينا من سكن الفردوس لنتمكن من وصف روائع صقلية[٢].

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٠.

[٢] فارس الجزائر مصطفى طلاس، ص: ٢٩٤ ، ٢٩٥.

وقبل ركوب الأمير ومن معه أمواج البحر في الباخرة قدم سيدي الطيب بن المختار قصيدة إلى ابن عمه الأمير عبد القادر نقتطف منها هذه الأبيات:

هذي صقلية لاحت معالمها
تجر تيهاً فضول الربط من أمم

كانت منار هدى كانت محط ردى

كانت شموس الفضل والكرم
هذي منازلهم تبكي مآثرهم
بكاء طرف قريح بات لم ينم
هذي المساجد قد دكت قواعدها
هذي المآذن بالناقوس في سقم
هذه المحاريب قد عاد الصليب بها
هذي منابرها قفرى من الحكم
إذا رأت مسلماً قد زارها فرحت
واستبشرت ثم باست موضع القدم
انظر لأرجائها تلق العجائب بها
قد أعلنت بسرور غير مكتتم
كيف لا وحسام الدين حلّ بها
فخر الأكابر من عرب ومن عجم
عبد القادر عز الإمارة ورونقها

بحر السماحة كم أسدى من النّعم

تابعت الباخرة طريقها تمخر عباب البحر ورست في ميناء الأستانة "إسطنبول" يوم الجمعة في شهر كانون أول عام ١٨٥٣م، وكان أول عمل قام به الأمير هو زيادة ضريح أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وأبو أيوب الأنصاري كانت وفاته ببلاد الروم قريباً من سور القسطنطينية وفي حصارها في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ولما مرض قال لمن معه من المجاهدين: إذا متُّ فاحملوني، فإذا صادفتم العدو فارموني تحت أقدامكم، أما أني سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**»[١]، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا والله لئن نُبش لأضُرب بناقوس في بلاد العرب، وبعد مجيء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانه أبي أيوب الأنصاري عظيمة في الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينياً في مسجد أبي أيوب حيث يتقلدون سيفاً للرمز إلى السلطة التي أفضت إليهم وكان لأبي أيوب رضي الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولي الله الذي تهوى إليه القلوب المؤمنة وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أنه له مكانة مرموقة بين المجاهدين واعتبروا ضيافته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاده في سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره.

وقد ترك أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه في وصيته بأن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل في أرض العدو حياً وميتاً وكأنما لم يكفه ما حقّق في حياته

---

[١] سير أعلام النبلاء للذهبي (٢ / ٤١٢) إسناده قوي.

فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

وقد مدحه شعراء الأتراك في أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندي يشير إشارة لامحة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهداً ومجاهداً

ومكابداً بحروبه ما كابدا

حتى أتى بصلابة ومهابة

في آخر الغزوات هذا المشهدا

قد مات مبطوناً غريباً غازياً

فغدا شهيداً قبل أن يستشهدا[1]

وكان من الطبيعي أن يبدأ أول زياراته في إسطنبول من أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي كان ملهماً بسيرته لكثير من الأبطال والمجاهدين عبر العصور والدهور، وبعد زيارة الأمير عبد القادر ضريح أبي أيوب الأنصاري زار جامع أيا صوفيا، وبعد استراحة عدة أيام في سراي حكومية خصصت لهم قام بزيارة السلطان عبد المجيد خان الذي رحب به بحرارة بالغة وأثنى على جهاده العظيم ضد المستعمرين، وعرض عليه عدداً من المدن ليختار إحداها لإقامته الدائمة فاختار مدينة بورصة لما سمعه عن جمالها وجمال الطبيعة فيها، وعذوبة مياهها ومناخها اللطيف.

كان خليل باشا صهر السلطان ووالي بورصة في استقبال موكب الأمير ومن معه من المهاجرين، وعند مدخل المدينة ومعه أعيان البلد ورجالاتها المرموقون فقالوا جميعاً على مشارفها، وسار الموكب على طريق ترابي بين أشجار السنديان والبلوط وأشجار التوت، في اتجاه الأمكنة التي أعدت لهم بالأمر السلطاني في بورصة أجمل تلك المناطق؛ وبعد أن

[1] الدولة الأموية للصلابي (١ / ٣٥٢).

استقر بهم المقام انضم إليهم الحاج عبد القادر بوكيخية والعلامة الحاج محمد الخروبي القليعي، وكان كاتباً لدى الأمير وخليفة على أيالة صطيف. والعالم قدور بن رويلة وغيرهم وجميع هؤلاء كانوا أسرى أطلق سراحهم المستعمرون الفرنسيون بعد وصول الأمير إلى بورصة فوجدوا لديه الملاذ والحمى والصدر الرحب، ومن أجلهم اشترى الأمير مزرعة واسعة تسمى "جليك" في ضواحي المدينة وأمر ببناء دور لسكناهم وأشرف على بنائها الجميل مهندسون من دار الخلافة[1]، وكان الجميع يداومون على حسن مجالسة الأمير وكان يصلي لهم الصلوات الخمس في الجامع المعروف بجامع العرب. وقد شرح لهم في هذا الجامع كتب الكودي والسنوسية وصحيح البخاري والمذاهب الأربعة، وكان يكثر من الصدقات ويكرم المحتاجين فأخذ العلماء وأصحاب الحاجة يقصدونه من كافة بلاد العالم الإسلامي، نذكر منهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي العلامة الشهير الذي يشكو من محنة دهماء لم يجد لها حلاً وبينما كان في غمرة اليأس البؤس طاف به خاطر ألهمه صبراً وأحيا في نفسه أملاً.

ومحنته كانت: في غفلة من الزمن استولى أحد الأجانب المقيمين في دمشق وكان يدعى "يانكو" على دار تابعة لمدرسة الحديث في أشرفية صحنايا من ضواحي المدينة، وتطاول إلى الزاوية الغربية من المسجد وضمها إليه، ولم يكتف بذلك الاعتداء بل عمد إلى إنشاء معمل ومستودع للخمور فيها فثار المسلمون وعلى رأسهم العلامة الشيخ يوسف الذي قدم شكوى إلى الوالي العثماني، فأهملت الشكوى على الرغم من الملاحقة المضنية، فاضطر إلى السفر إلى دار الخلافة في إسطنبول مستغيثاً، لكنه لم يجد هنا أذناً صاغية وبعد أن بذل جهوداً مضنية والكثير من المال حصل "فرمان" من الباب العالي، ولكن في دمشق أهمل الوالي الأمر السلطاني وشعر هذا العالم الجليل بالإحباط والظلم فقرر الهجرة إلى المدينة المنورة، وفجأة لاحت له بارقة أمل: لماذا لا يقوم بمقابلة الأمير عبد القادر

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٢.

أولاً؟ وشد الرحال إلى بورصة، وكان سعيداً بالاجتماع بالأمير فشكا له أمر تلك الدار التي كانت مقصد رجال الدين والعلماء وأئمة المسلمين ومنهم الإمام النووي الذي سميت باسمه وحدثه عن تاريخ هذه البقعة المقدسة التي شرفتها قدم المرسلين صلى الله عليهم وسلم: فجاشت نفس الأمير بمشاعر النخوة والحمية وأرسل فوراً يطلب هذا الرومي ولما حضر فاوضه على بيع المكان المذكور بأكمله، ودفع له الثمن نقداً كما طلب، وانتهت المشكلة وجعل هذا العقار وقفاً شرعياً باسم العلامة يوسف بدر الدين ومن بعده لذريته بحجة شرعية بتاريخ الثاني من جمادى الأولى عام ١٢٧٢هـ، ثم أمر بترميم الدار والمسجد على نفقته وعندما فرغ من إصلاحهما كتب إلى الشيخ يوسف رسالة يرجوه فيها أن يأتي ليسكن هذه الدار فسكنها وتسلم المدرسة في أول يوم من شهر رجب ١٢٧٤هـ[١].

ثامناً: الأمير عبد القادر في دمشق

كثرت الزلازل في مدينة بورصة وضواحيها وشكلت أذى للسكان والمهاجرين، مما اضطر السلطان إلى السماح للأمير بالإقامة في دمشق الشام وصدرت الأوامر إلى محمود نديم باشا وإلى دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير وإعداد السكنى اللائقة به، وعند وصول الأمير إلى ميناء بيروت وجد ومن معه جموعاً من السكان اللبنانيين في استقبالهم والترحيب بهم وإكرامهم، وفي اليوم الثاني سار موكب العربات تجره الخيول المطهية نحو دمشق الفيحاء، وكان استقبالاً رسمياً دمشقياً أُعدّ على مشارف المدينة وسار الموكب تتقدمه فرق من الخيالة والمشاة بملابسهم الرسمية وأوسمتهم، ودخل موكب الأمير دمشق وأخذ الناس يهتفون بحياة الأمير وبحياة أصحابه الأبطال واختلطت هتافاتهم الحماسية بزغاريد النساء وكان الأطفال بملابس العيد يصفقون فرحين وكأن كل واحد منهم يستقبل أباه الذي عاد للتوّ من الأسر ليحمل مستقبل أيامه البريئة وأخذوا يهتفون لحامي العروبة

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٣.

والإسلام البطل الذي حارب أكبر إمبراطورية برية استعمارية. كان لهذا الاستقبال الكبير الأثر العميق في نفس الأمير الذي شعر بما يعانيه هذا الشعب وما ينتظره من مؤامرة تُدبّر له في ليل من جانب المستعمرين.

دخل الأمير عبد القادر دمشق عام ١٨٥٥م وبلغ احتفال السكان بقدومه حدّ الروعة، فقد خرج لاستقباله جميع السكان حتى النساء والأطفال إلى مشارف المدينة وقد لبسوا ملابس الأعياد[١].

١. العبادة والحلقات العلمية وكتبه وفكره:

كانت مدة إقامته في دمشق متفرغاً للصلاة والذكر والتأمل والعلم والتدريس في الجامع الأموي أو في دار الحديث النووي، وكان دؤوباً على عمل الخير والصلاح مواظباً على المطالعة والتأمل وزار بيت المقدس والجليل ووقف عند مزاراتها التاريخية، وبعد فترة سافر إلى حمص وتوقف عند ضريح الصحابي الجليل خالد بن الوليد ثم قدم حماة ومنها انتقل إلى دير سمعان لزيارة قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز وكان يلقي دروساً في القرآن والفقه والحديث فضلاً عن علوم شتى في الجامع الأموي والمدرسة الجقمقية ودار الحديث الأشرفية وفي داره، ومن الكتب والرسائل التي اعتمدها في غالب الأحيان الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والعقائد النسفية في التوحيد للعلامة نجم الدين عمر النسفي الحنفي، وموطأ الإمام مالك، وصحيح البخاري الذي كان يحفظه عن ظهر قلب وصحيح مسلم، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وألفية ابن مالك، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، واهتم بكتب التصوف فضلاً عن مدارسة كتابات عديدة لمشاهير المؤلفين في التاريخ القديم والحديث وفي الفلسفة واللغة

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٤ إلى ١٩٧.

والتاريخ والجغرافيا والطب، وتجمعت لديه مكتبة ضخمة وكانت داره لا تخلو يوم من الزوار من كل أنحاء البلاد العربية والإسلامية[1].

لقد بدأ الأمير كفاحه في خدمة العلوم الفقهية وخدمة الإنسانية، وكان يحب العلم والعلماء الذين ما ان استقر به المقام حتى احتضنهم وحسّن حياتهم وزاد إنتاجهم العلمي واستطاع أن يوجد مناخاً من الحرية، وحال دون عاديات السلطة على الشعب، وأقام الندوات العلمية والفقهية والدراسات الدينية في الجامع الأموي وساعد في رفع الظلم عن الكثير من المضطهدين، وخصص رواتب سخية في كل شهر للعلماء والصالحين والمحتاجين، وتفرغ للعبادة والتأليف وخدمة الناس وألف كتاب "المقرض الحاد" لما كان في سجنه وراجعه في دمشق ونظم ديواناً من شعره الرقيق سماه "نزهة الخاطر" ومجموعة من الكتب.

واهتمّ العلماء بهذه الكتب وتقريظها ومناقشتها من قبل رجال الفكر، وأدرجت جميعة العلماء في باريس اسمه من بين أسماء العلماء والعظماء في "ديوان الأمم".

وكانت أماكن ندوات ومحاضرات وحلقات الأمير عبد القادر تتغير من حين إلى آخر حسب الظروف المتاحة، فكانت أحياناً في مدرسة الأشرفية الشهيرة الآن بدار الحديث النووي، أو في المدرسة الجقمقية، وأحياناً في الجامع الأموي، لكن كان في أكثر الأحيان يدرس ويحاضر في منزله الذي غدا في دمشق مأوى لعباد الرحمن الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ولا يشغلهم شاغل عن نهل العلوم وذكر رب العالمين، وأصبح هو مركز اهتمام العلماء والمثقفين وقبلة الفقهاء وكل من يريد معرفة فتوى، أو رأي في قضية فقهية[2]، وفي السنين الأخيرة من حياته كان إذا حل شهر رمضان المبارك يذهب إلى

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٥.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٧.

مزرعته في أشرفية صحنايا من ضوضاء المدينة وزوارها ويمضي أواخر الشهر معتكفاً في غرفة صغيرة منعزلاً عن الناس لا يدخل عليه سوى الخادم الذي يقوم بخدمته، قائماً لليل ويرتل القرآن ويصلي، ولم يكن طعامه سوى الحليب والتمر والزبيب[1].

وانفتح الأمير على ثقافات بلاد الشام والمشرق المتنوعة التي كان ينظر لها مجموعة من المفكرين والمصلحين وجملة من المثقفين من خريجي مدارس الإرساليات المسيحية التعلمية، ومن ريادة المتعلمين من أمثال ناصيف اليازجي الذي توفي عام ١٨٧١م صاحب كتاب مجمع البحرين الذي حاكى فيه مقامات الحريري، وبطرس البستاني الذي توفي عام ١٨٨٣م الذي ارتبط اسمه بدائرة المعارف التي عمل على إخراجها وأتمها بعده أولاده، كما تأثر بحركة الطباعة ونشر الكتب وتأسيس الصحف ودورها في نشر الثقافة الحديثة والوعي السياسي والاجتماعي، وكان في طليعة النشريات التي أثرت الحياة الثقافية جريدة الأحوال التي صدرت بدمشق عام ١٨٥٥م وجريدة الأخبار الصادرة ببيروت عام ١٨٥٧م، كما تأثر الأمير في دمشق والشام بمحيطها وعمقها الطبيعي العربي، وتكامل إنتاجها الفكري بإنتاج المؤرخين والكتّاب خريجي بعثات محمد علي إلى أوروبا كالترجمات والمؤلفات العلمية والتاريخية مثل العلامة علي مبارك، والشيخ رفاعة الطهطاوي صاحب الكتاب المشهور تخليص الإبريز في تخليص باريز، وإبراهيم الدسوقي وعبد الله أبو السعود وصالح مجدي وغيرهم[2].

أ. مؤلفاته وكتبه:

بدأ الأمير الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه فضلاً عن نظم الأشعار والقصائد في مواضيع شتى منذ سن مبكرة حتى آخر أيامه، فقد شرح قبل أن يستلم الإمارة حاشية في

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٥.

[2] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٦.

علم الكلام كتبها جده الذي عاش في نهاية القرن السادس عشر عبد القادر بن أحمد المدعو بن خده، وبعدها بحسب الظروف والمواقف كانت له تآليف وكتب:

. رسالة بعنوان حسام الدين لقطع شبه المرتدين، كتبها في بداية عهده بالإمارة أي عام ١٨٣٣م وذلك بالرد القاطع من القرآن والسنة النبوية على بعض أشباه الشيوخ الذين استمالهم واستأجرهم الاحتلال ليروجوا بين الناس جواز النزول تحت حكم الفرنسيين وعدم جواز الانضمام إلى دولة الأمير المجاهدة.

. كتاب وشاح الكتائب وزي الجندي المحمدي الغالب. ألَّفه بعد معاهدة التافنة عام ١٨٣٧م وهو كتاب يشتمل على الأحكام والأزياء والقوانين الخاصة بالجيش المحمدي الفتي خطّه بيده المجاهد قدور بن رويلة تحت إشراف الأمير وأضاف إليه بعض الملاحظات.

. مجموعة من المراسلات الفقهية بينه وبين علماء عصره وأجوبة كثيرة عن أسئلة لحل مشكلها وفتح ما استغلق منها، وكذلك مجموعة من المراسلات بينه وبين بعض الشخصيات المدنية والعسكرية وأجوبة كثيرة عن أسئلتهم واهتماماتهم في ميادين شتى[١].

ب . كتاب المقراض الحاد:

كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد ألفه الأمير عبد القادر عندما كان سجيناً في قلعة أمبواز بفرنسا في أواخر عام ١٨٥٢م والسبب في ذلك أنه بلغ الأمير أن بعض الحكام والضباط والأمراء الأوروبيين انتقص من دين الإسلام واعتبر أن الخديعة والغدر من سمات الإسلام نفسه، فوضع الأمير ذلك الكتاب من حفظه دون مراجع مكتوبة للرد عليهم بالدليل الكافي والوافي من القرآن والسنة الصحيحة

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٣.

وبيّن لهم خطأ اعتقادهم ووضح في الكتاب مسائل وأحكام مهمة وظهرت فيه روح الدعوة وحرصه على هداية الناس.

لقد أكد العقلاء في هذا العالم أن الإسلام حمل إلى الإنسانية حضارة عادلة ورحيمة تكمن في سعادة هذا المخلوق في دار الدنيا والآخرة، وتقضي على الشرور في المجتمعات، وفي أعماق النفس البشرية، وقد شمل كتاب الأمير عبد القادر "المقراض الحاد" على المواضيع الرئيسة في الفقه الإسلامي والأخلاقيات الإسلامية والتربية من وفاء وإخاء ورحمة وعدل وبيّن مكانة الفرد في الإسلام في هذا الدستور الإلهي الذي جعله الله يشكل اللبنة الأساسية في كيان الأمة والمجتمع، هذا الفرد الذي جعله الله في المنهج الإسلامي مكلفاً ومميزاً، قال تعالى:" وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ" (الأنعام، آية : ١٦٥).

. وقال تعالى :" وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا" (الزخرف، آية : ٣٢).

ففي المجتمع الإسلامي لا يوجد صراع طبقات وإنما إخوة وتعاون وتكافل اجتماعي ومساواة وعدل ورحمة، فهذه الرسالة التي وجهها الأمير من سجنه عام ١٨٥٢م للقساوسة في فرنسا والمفكرين أراد تضمينها كل هذه الأسس في الدستور الإلهي القرآن. وأعتقد أنه نجح على جعلهم يقرؤونها ويترجمونها ولم يحتجوا على عنوانها الجرئ "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد" وقبولهم لها وترجمتها ووضع اسمه بين علماء العالم دليل على نجاحه فيما قدّم، ولابد لكل من قرأ هذه الرسالة "المقراض الحاد" من ملاحظة أن هدف الأمير لم يكن استعراضاً لمعلوماته وإنما الهدف كان الدعوة الإسلامية التي هي واجب على كل مسلم، وأيضاً تعريف هؤلاء المستعمرين لبلاده بدولته التي أرساها على هدي القرآن في الجزائر أراد أن يقول لهم في هذه الرسالة أن الشعب الجزائري يملك حضارة ربانية عريقة لا تقارن بحضارتهم الوضعية التي يريدون فرضها بالقوة

على شعبه بحجة إنقاذهم من التخلف والتوحش وقال لهم في مقدمة رسالته: إنني لا أصلح أن أكون تلميذاً للعلماء في بلادي كان هذا الكتاب موجه إلى جماعات لا تؤمن بالإسلام ولا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان لا بد من مخاطبتهم بأسلوب العقل والمنطق الإنساني للوصول إلى غايته وهي نشر الدعوة الإسلامية التي نزلت إلى الناس أجمعين، ولقد جسد هذه الدعوة بأعماله الملحمية قبلاً وفي سجنه أيضاً وكانت عنده سلوكاً، لقد كان كتابه في السجن يدل على مستودعاته الفكرية والمعرفية وعن كينونته ثم هدفه وكما قال الله تعالى :" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ" (إبراهيم، آية : ٢٤ ـ ٢٦). صدق الله العظيم.

والكلمة الطيبة هي التوحيد والإيمان بإله واحد لا شريك له، ولكي يصل إلى عقولهم تناول الأمير في المقدمات علوماً مختلفة، تكلم في الفصل الأول من رسالته " المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد" عن العلم والجهل، ثم عن فضل العلم والعلماء، ثم تكلم عن العقل ليخاطب عقولهم، وقيمة هذا العقل والحدود التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا العقل وتكلم عن الحواس والإدراك، ثم في الفصل الثاني تكلم عن العلوم الشرعية وحاجة الإنسان إلى الرسل والأنبياء الذين اختارهم الله من بين عباده لإرشاد هؤلاء العباد إلى الطريق السوي وسبيل الخير، وتكلم عن إثبات الألوهية والنبوة بأسلوب علمي مبسط وبالأدلة الصادقة على الطريق السليم لمعرفة الله ومعرفة الرسول إن كان صادقاً أو مدعياً، وفي نهاية الرسالة كتب في تاريخ الأمم والوفاء عند العرب. وبعلم الاجتماع وفضل التصنيف وتدوين المعارف وعن آيات الله في الأرض وفي السماء وأشار أيضاً إلى تحريم السحر في الإسلام١، وتحدث عن رسالة الأنبياء وعن

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٥٧.

رسالة النبي صلى الله عليه وعلاماتها وأدلتها، وتحدث عن القرآن الكريم فقال: إن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم، وحمله معارف العرب وعلومها وهي أربعة البلاغة والشعر، والخبر والكهانة، فأنزل الله عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة من الفصاحة والإيجاز والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم ومن الإخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار والمخبآت، فتوجد على ما كانت ويعترف المخبر عنها بصحبة ذلك وصدقه، وإن كان من الأعداء ومن الأخبار عن القرون السالفة وأبناء الأنبياء والأمم البائدة والحوادث الماضية ما يعجز عن تفرغ لهذا العلم عن بعضه إلى أن قال: .. ومعجزة القرآن باقية ثابتة إلى يوم القيامة بينة الحجة لكل أمة، لا تخفى وجوه ذلك على من نظر فيها وتأمل وسائر معجزات انقرضت بانقراضهم وعدمت.

ومعجزة القرآن لا تبيد ولا تنقطع ولا يقدر أحد على تغييرها وتبديلها ولو بلغ الغاية في العداوة والمعاندة والجهل[1]، وقال: وحاصل أن لنا على نبوة محمد عليه السلام دلالة أنه عليه الصلاة والسلام صادق وأمين وأظهر المعجزة وهو خاتم الأنبياء[2].

وقال: ونزلت الرسالات السماوية كما يشيد بنا الدار بالتدريج، فأصول النبوة كانت بآدم وأصل الرسالة بنوح ولم يزل ينمو حتى وصل إلى سيدنا موسى عليه السلام ثم إلى عيسى إلى أن كمل بناء الدار بالجمع بين العلم والعمل بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا كان سر ختم النبيين والزيادة على الكمال نقصان، وأكمل شكل الآلة الباطشة كف عليه خمس أصابع، فكم اذا الأصابع الأربع ناقص فذو الأصابع الستة ناقص، لأن السادسة زيادة عن الكفاية، فهي نقصان في الحقيقة وإن كانت زيادة في الصورة، ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد والتنزيه وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك ما لم يملكه أحد من الأمم السابقة[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١١٤

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٦.

[3] المصدر نفسه، ص: ١١٧.

كان الأمير عبد القادر ملتزماً في أفكاره واعتقاده بالكتاب والسنة وكان كثيراً ما يردد:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

فحيثما سار سر وإن وقف قف

ففكر الأمير ومعتقده واضح المعالم، صادق وصريح، نابع من جذور ثقافته وتربيته وتعليمه وإيمانه والتصوف الذي وصفوه به كان أعمالاً وصلاحاً وتقى وتمسكاً بالقرآن والسنة وزهداً في الحطام الزائل، وكان متمسكاً بالعبادات وأوامر الشرع إلى أن حان أجله وهذه حقيقة دراسة وافية وعميقة ومتجردة في حياة الأمير وتراثه.

ج. كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

هذا الكتاب من كتب الأمير عبد القادر قسمه إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وأدرج تحت كل عنوان مجموعة من العناوين التي تخدم الفكرة الرئيسة للموضوع في هذه المقدمة قدمت لمضمون الرسالة ليضع القارئ أمام الموضوع فيكون على بينة منه قبل الإقدام عليه، فقد أكد على أن مقياس التفاضل بين الناس يكمن أساساً في العقل والعلم، وهما الوسيلتان الوحيدتان لإدراك الحق، ولذلك وجب على العقل في ان ينظر في القول إلى قائله، فإن كان القول حقاً قبله سواء كان قائله معروفاً بالحق أو الباطل لأن الحكمة ضالة العاقل وأن معرفة الرجال تكون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال ولابد من نبذ التقليد وإطلاق حرية الفكر والعقل للتطور والتأمل للاعتبار لمعرفة الحق بالدليل، وفي ذلك يتمايز الناس مراتب، فمنهم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي قلد آباءه وأجداده في ما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده والأعمى لا يصلح أن يقود العميان ورغم ذلك فإن هدأ العقل لا يمكنه أبداً إدراك الأشياء على حقيقتها إذا حجب الله سبحانه وتعالى عنه أنوار الهداية والتوفيق فيغدو كالعين الباصرة لا يمكنها

إدراك الأشياء إلا عند طلوع النيران كالشمس ونحوها، فكذلك العقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطأ إلا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق والهداية من الله تعالى والعلم علمان علم محمود وآخر مذموم، فأما المحمود فهو العلم الذي ترتبط به مصالح الدين والدنيا كالطب والحساب، وكل علم لا يستغنى عنه في قوم أمر الدين والدنيا كأصول الصنائع والفلاحةوالحياكة والسياسة والحجامة، أما العلم المذموم فيؤدي حتماً إلى ضرر إما بصحابه أو بغيره كتعليم السحر والطلمسات فالعلم هو في حقيقة الأمر الغاية من خلق الإنسان نفسه فالعبادة الصحيحة لا تتأتى عن جهل ولذلك فإن شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم وبها كماله، والعلماء هم ورثة الأنبياء وقد حذرت من أشباه العلماء الذين يتعاطون العلم وهم ليسوا من أهل فيكون شرهم وبلاؤهم أكبر من نفعهم لأنهم يبتغون وراء ذلك عرضاً دنيوياً زائلاً ولو على حساب الدين والأخلاق، كالوعاظ الذين يصعدون المنبر إذا لم يكن وراء كلامهم علم نافع وليس مرادهم إلا اكتساب الدينار والدراهم لكن العقل وإن بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الأشياء ما بلغ فثم علوم لا يصل إليها ولا يهتدي إلى الاطلاع إليها إلا بتصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم، بمعنى أن علوم الأنبياء زائدة على علوم العقل، فوراء العقل طور آخر وأمور أخرى العقل معزول عنها ولا يصل إليها بنفسه بل بغيره ولذلك وجب الإيمان والتصديق بما جاء به هؤلاء الرسل من أحكام وشرائع وعلوم قد لا تدركها العقول والحواس عن طريق العلم العقلي، فالعلوم التي تحل في العقل قسمان، عقلية وشرعية، أما العقلية فنعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع، وأما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الأنبياء وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وفهم معانيها بعد السماع، وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض[1].

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٩.

وهذا لا يعني أن العلم العقلي يخالف أو يناقض العلم الشرعي، بل العكس لأن جميع أقوال الأنبياء لا تخالف العقول، ولكن فيها ما لا يهتدى العقل إليه أولاً، فإذا هدي إليه عرفه وأذعن له فكان لزاماً التدين والإيمان والإقرار بنبوة هؤلاء الرسل قولاً وعملاً وأما المكذب للأشياء بعقله عما جاء به الرسل والأنبياء من الأعمال والعبادات فيؤدي إلى الغرور الهادي صاحبه إلى الاستكبار والتعصب وهما سبيل الكفر والعناد وجملة القول أن الدين عند الله الإسلام، فالدين واحد باتفاق الأنبياء وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية، إذن فلا بد من التسامح والأخوة والتواضع ونبذ الكراهية بين جميع المنتسبين للأديان، ولابد للإنسان من الابتكار والاجتهاد وعدم الاقتصار لما خلّفه السابقون من التصانيف والتآليف والنظر إليه على أنه الكمال والمثال والنموذج لأن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، كما أن تصرفات العقول لا حد لها، ولا يستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين، فالعلم في بحر لجي مترامي الأطراف لا تدركه الأبصار ولا تحوطه العقول، يغرف منه المتقدم والمتأخر ولا ينفذ ولذلك فالخطأ أن يقف المرء عند حدود ما خلفه السلف والادعاء بأنه منتهى الغاية والكمال. فقول القائل ما ترك الأول للآخر شيئاً، خطأ القول الصحيح كم ترك الأول للآخر شيئاً. أما بالنسبة للتصنيف والتأليف والكتابة فنجاح الأمر يكمن في إتمام الغرض الذي وضع الكتاب من أجله من غير زيادة ولا نقص وعدم استخدام اللفظ الغريب لا في الرموز ولا في الألغاز وينبغي أن يكون التصنيف مسوقاً على حساب إدراك أهل الزمن وعلى قدر ما تصل إليه عقولهم فالعلم تراث إنساني حق للجميع كل فيه شركاء، فالمآثر العلمية والعقلية ثمر جهد إنساني عام جيل يمضي وآخر يأتي ليضع لبنة في بناء هذا الصرح المعرفي الواسع لتكتمل حلقته ودرته بهذه الأمة[1].

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٠.

د ـ كتاب «المواقف» بطلان نسبته للأمير:

ينسب للأمير عبد القادر بعد وفاته بثمانية وعشرين عاماً حيث طبع في مصر على نفقة السيدة نبيهة خانم زوجة محمود باشا الأرناؤوطي من دون أي دليل على أن للأمير صلة به، سوى الألف واللام التي وضعت على عنوانه "الأمير عبد القادر" فالكتابة كانت بقلم فراج بخيت السيد، والتاريخ كان ١٣٢٨هـ والأمير كانت وفاته ١٣٠٠هـ ولم يذكر السيد فراج أنه مثلاً نقل ما خطته يداه عن مخطوط للأمير، أو أنه كان يحضر ندواته الفقهية ونقل عنه هذا الموقف أو ذلك أو أنه استند إلى أوراق وصلته من ورثة مثلاً لا شيء من هذا البتة والأدلة كثيرة منها:

ـ الدليل التاريخي وهو الزمن الممتد بين وفاة الأمير عام ١٣٠٠هـ وطباعة الكتاب ١٣٢٨هـ وكتاب خطير من هذا النوع لابد لمؤلفه من طباعته في حياته والتأكد من عدم تحريفه بزيادة أو نقصان أو تشويه.

ـ الدليل المنطقي العقلاني العلمي، وهنا لابد لنا من الرجوع إلى علم القياس، فأمامنا كتاب "المقراض الحاد" الذي كتبه الأمير في أمبواز وقدمه إلى القساوسة، فهذا الكتاب أو الرسالة معروف تاريخ كتابتها ومكانها ومناسبتها، وعلى ذلك شهود من أهله وخاصته وبدأها بقوله: حينما طلب مني شرح معتقداتي الإسلامية أجبت بأنني لا أصلح تلميذاً لعلماء المسلمين، ولكن سأبذل جهدي وهذا يعني أن الأمير هو صاحب الرسالة ومؤلفها، أما في كتاب المواقف فأول صفحة تبدأ ـ قال سيدنا وملاذنا ..الخ أي يقال عنه، وهذه ملاحظة تستحق وقفة وتفكير وسؤال أيضاً لمن قال؟ ومتى؟ وأين؟ وهل هذه الأفكار التي كونت كتاب من ألف صفحة هل جمعت من أوراق تخص الأمير أم اختزلت أثناء ندواته الفقهية، وخضعت بعد سنوات من وفاته للتنقيح والتحرير بواسطة خطاطين مأجورين ومن فعل ذلك؟.

التساؤلات كثيرة والشكوك كبيرة والجواب العقلاني والعلمي يقول أن كل ما يناقض فكر الأمير في كتابه "المقراض الحاد" جاء في المواقف، فهو تشويش مدسوس، مثال على ذلك ما جاء في الأسطر الأولى من الموقف ١٨٠ لأنه يناقض ما كتبه الأمير في الباب الأول من "المقراض الحاد" بعنوان الطريق إلى معرفة الله ثم خلق الإنسان تناقض صارخ ومثال آخر ما جاء في صفحة ٤٦٤ من كتاب المواقف في تفسير أين المفر في سورة القيامة، يذكر في المواقف أن العارف يقول أين المفر، وهذا خطأ يستحيل أن يرتكبه عالم كالأمير عبد القادر حتى ولا إنسان عادي فالآية واضحة وضوح الشمس وتعني الكافر بيوم القيامة وليس العارف قطعاً، فالإنسان العارف لا يقول يومها أين المفر، وإنما الكافر بها والحديث جاء في السطر الأخير في الصفحة وهو المهم "زدني فيك حيرة" عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ربما هو من الأحاديث الموضوعة والله أعلم ولكن الأمير العالم والمتخصص بصحيح البخاري وقد ختمه وهو يحاصر عين ماضي عام ١٨٣٧م كان يدرسه في سجن أمبواز وأعطى فيه إجازات لعدد من أعيانها.

. الدليل الفكري المعروف عن البخاري شدة حرصه على سلامة الحديث وسنده وصحته، فكيف يخطئ الأمير وهو من كان يدرس صحيح البخاري إلى أن أقعده المرض وانتقل إلى دار الآخرة، وكان يعلم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**». فهل يوجد فقيه عالم لا يعلم معنى هذا التحذير؟ ومعروف هذا البيت التالي عن الأمير:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

فحيثما سار سر وإن وقف قف

وليس كل ما جاء في المواقف هو خارج عن فكر الأمير وعلى الأرجح والله أعلم، أن مجموعة من أوراق هذا المجاهد العالم كان قد كتبها للرد عليها في ندوته الفقهية أو

للاستئناس بها أثناء ذلك أو ربما كتبها غيره ووجد فيها مغالطات وأراد الرد عليها، كل هذه الأوراق جمعت بطريقة ما ووصلت إلى محمود باشا وكان يحمل معتقدات خاصة يريد نشرها، ووجد بشخصية الأمير ضالته وكذلك تلك الأوراق مرتعاً خصباً لذلك جاء في كتاب "المواقف" بهذا الشكل المشوش المتناقض الذي اختلط فيه الأبيض من الأسود.

. الدليل التوثيقي العلمي الذي قدمه خبراء الخطوط كالأستاذ هشام الغراوي الخبير الدولي المعتمد في القصر العدلي بدمشق، ثم اللواء عبد المنعم ياسين المعتمد في دوائر الأمن العام بدمشق، وأحمد الأنباري المعتمد من الجامعة السورية، وجميعهم أثبتوا أن جميع الرسائل التي قدمت في كتب كثيرة العدد على أنها بخط الأمير، منها إلى الجمعية الماسونية، ومنها إلى مسؤولين فرنسيين مزورة، وليست بخط الأمير ولا بأسلوبه المعروف[١].

. الدليل العائلي، وهو القرب من النبع فأول عمل يقوم به المحقق الناجح هو الاتصال بأقرب الناس من الهدف والشخصية التي هي مجال عمله إن كانت زوجة أو أبناء أو أحفاد أو جيران مثلاً أو أصدقاء ويأخذ بحذر من الأعداء، لكنه يضعهم في دائرة الشك والأحقاد والأغراض السياسية أو الذاتية، فرجل مخابرات معادي للأمير عبد القادر ولشعب الجزائر هل يمكن أن يأخذ منه المحقق معلومة صحيحة؟ أما الإنسان المؤمن الذي يخاف الله ويحذر الوقوع في آثام شهادة الزور التي هي من الكبائر في الشرع الإسلامي، حتى ولو كان ذو قربى، فمثل هذا الإنسان ممكن الوثوق بمعلوماته، لأنها صادرة عنه كأمانة وشهادة حق وعلم بقوله تعالى :" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"[٢].

---

[١] ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير بقلم الأميرة بديعة الحسني، ص: ٢٢٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٢٢١.

هـ. هل كتب الأمير مذكرات في السجن عام ١٨٥١م؟

وهذه قصة غريبة ملفقة لا أصل لها وأشد غرابة من صدقها، ففي عام ١٩٧٠م قدم الكاردينال هنري تيسيه أسقف الجزائر، وجاك شوفالييه الرجل السياسي الذي عاش ودفن في الجزائر قدم مخطوطاً للمكتبة الوطنية في الجزائر، زاعماً أن مالك قصر أمبواز الجديد وجد هذا المخطوط بين أخشاب قديمة في قبو القصر. فالخلطة العجيبة من المعلومات الصحيحة منها والكاذبة في هذا المخطوط والأسلوب العشوائي والركيك والكلمات العامية والسوقية في بعض النصوص لا يستحق عناء التمحيص في ما كتب، وبراءة الأمير مما نسب إليه ظلماً وبهتاناً وزوراً[١].

إن بعض الأوروبيين لم ينسوا في يوم من الأيام عداءهم للإسلام والعرب، لذلك عمد كتابهم إلى محاربة أعدائهم بشتى الطرق ومنها التشويه والتزييف عن طريق الفكر، ومنها تزوير وثائق وتقليد خطوط إلى نسج مذكرات وبرعوا بهذا الفن وجعلوا لأنفسهم أعواناً، حتى من أبناء أمتنا[٢].

و. كتاب حياة عبد القادر ردود على أباطيله:

للمؤلف شارلز هنري تشرشل صدر الكتاب عام ١٨٦٧م في لندن وكانت تشرشل كولونيل عمل على تشويه صورة الأمير بطريقة الغزو الثقافي ولم ينقل بأمانه الكثير مما قاله الأمير له وحاول تشويه الدولة العثمانية، والشعب الجزائري ونضاله وكفاحه ووضع السم في سيرة الأمير عبد القادر وتعمد أن يشوه تاريخه النضالي وكفاحه البطولي ورمزيته الفذة وعمل على إقامة مذبحة معنوية لتاريخ العرب والمسلمين الوطني والديني واللغوي والأدبي، وتعمد إزالة هيبة الأبطال الوطنيين والتشكيك في سلوكهم وأقوالهم والسلاح الثقافي أكثر فتكاً من المدفعية والصواريخ وحاول أن يجعل من الثائر المجاهد الأمير عبد القادر مواطن فرنسي معارض ومتمرد على قوانين دولته ونظامها ثم ألقى سلاحه واستسلم بعد الهزيمة،

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٣.

[٢] ردود وتعليقات على كتاب الأمير، ص: ٢٢٢.

ثم استغفر وندم وتاب، ووقف أمام الدوق دومال وقفة ذليلة يعتذر ويقدم الدليل على تمسكه بعزة وسمعة الوطن الكبير فرنسا، وكان الهدف من كل هذه الأفكار الماكرة والخداعة بعد أن تتقبلها وتؤمن بها الأجيال العربية والإسلامية والجزائرية، هو شل الذهنيات وكسر سلاح الجهاد والقضاء على كل محاولة للمقاومة فيها بعد أن تموت روح الثقافة الوطنية الأصيلة والسليمة وقد حاول الكولونيل تشرشل أن يرسخ في أذهان قراء كتابه وقومه هذه المغالطات ويضع السم في الدسم، لتصبح خيالاته التي ألفها من غير دليل هي المرجع والحقيقة التاريخية لدى الكثير من الذين كتبوا عن الأمير بعد ذلك[1].

استطاع أن يلتقي بالأمير عبد القادر ونزل ضيفاً عنده في دمشق وكان يجلس مع الأمير كل يوم ساعة من الزمن يسأله ويكتب ويستفسر ويمده الأمير بالوثائق والمستندات والاتفاقيات الأصلية، ولما نشر كتاب حياة الأمير مجد بطولة الأمير وشخصيته ومواقفه الإنسانية مع الأسرى خلال الحرب وعلى إيمان الأمير بالتقدم والحضارة الغربية وقدم أتباع الأمير كقبليين ومتخلفين وكتب عن ظروف الاعتقال والسجن الذي تعرض له الأمير، ولم يتوان في وصف الحكام والولاة العثمانيين في أسوأ صورهم لتأليب حكومته والعرب عليهم[2].

. وحاول صاحب كتاب حياة عبد القادر الكولونيل شارلز هنري تشرشل تشويه الشعب الجزائري من خلال حديثه عن فئة صغيرة من الجهلاء لا تخلو منهم أمة من الأمم حتى بلاده نفسها، يريد تشرشل من هذا الشعب إن قام بأي فعل جيد فهو يعود إلى روح الحضارة الأوروبية، وإن استيقظ من غفوته فيعود إلى نور الحضارة الغربية يريد من الأمير عبد القادر سلخ جلدته بإرادته واستبدال جلده بآخر أوروبي خالص من أي شائبة عربية إسلامية ويريد منه أيضاً السقوط مطأطئ الرأس في نهاية المطاف أمام عظمة حلفاء بلاده

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٦٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

الفرنسيين وأداء الدور الذي رسمه له من خلال هذه الرسائل المزعومة، والحوار الذي وضع فيه بين كل جملة دسيسة رماها هنا وفرية دسها هناك وبكل بساطة أراد أن يقول: استسلمت ورميت بنفسي بين أيديكم وليس أصحابي من رضي بذلك، وإنهم يؤاخذوني ولقد جعلتم مني رجلاً خداعاً ..الخ

ومن الصفحة ٢٤٤ إلى الصفحة ٢٤٦ حشد تشرشل ما بوسعه من الخيالات في أحلام اليقظة تخيل أن القوات الفرنسية كانت على بعد النظر من موقع الأمير وأن هذا المجاهد الأمير كان لديه ثلاث خيارات آخرها الإستسلام، جعل تشرشل الحقائق التاريخية تتناثر مع الهواء بعد أن عبث فيها وحولها إلى ركام، وهذه الصفحات من كتابه أصبحت نكبة ومأساة حقيقية لأنها تحولت إلى مصدر وثائقي مع الأيام، نراها تدرس في المناهج المدرسية في البلاد العربية والجزائر بصورة خاصة.

. مما تقدم نستطيع أن ندرك أن الضابط البريطاني التجأ إلى خياله لراحة أعصابه وهدوء نفسه أولاً، وثانياً لأهداف بعيدة المدى، فبدل اتفاقية الاستئمان الزمني والهجرة إلى إستسلام أي الخضوع بذل تخيل هذا المجاهد رجلاً بلا عقيدة أو بلا كرامة وتغافل وأدار وجهه عن الكلمة التي قالها الأمير في تلك اللحظة وجملة "المنية ولا الدنية".

أدار وجهه عنها كي لا يراها وأراد من عبد القادر القول بنفسه من خلال رسائل متعددة تخيلها، فهو لا يريد من هذه الاتفاقية إلا ما دار في مخيلته فأراد من عبد القادر لوم نفسه لأنه أخذ هذه التأشيرة ويسب نفسه بكلمات نابية ككلمة "خداع" و"استسلام" كما يريد أيضاً من خلال هذه الرسائل أن يجعل منه منافقاً مهزوز الشخصية لا يملك أي نوع من مشاعر الكرامة، تخيل موقفه استسلاماً يريح أعصابه ويقدم نشوة النصر لحلفاء بلاده[1].

---

[1] ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٩١.

. وفي الصفحات ٢٥٦ وقبلها من الفصل الواحد والعشرين، جعل هذا البطل يجيب الضابط الفرنسي الذي أخذ يواسيه عن جواب حكومته كما يقول بالحرف الواحد: هذا الجواب جعل عبد القادر يسقط إلى الحضيض من اليأس: أراد عبد القادر جواب الضابط الفرنسي، تلك الإجابات كما أسلفت ويجرد نفسه، وليس نفسه فقط من الإيمان، ويصف نفسه بالجهل وإنما يصف حالة النساء وأصحابه بالنحيب واليأس.

أراد أن ينسى هو أيضاً أنه كتب في مقدمته أن عبد القادر يسمى بالحافظ لحفظه القرآن في سن مبكرة، وأنه كان عالماً يدرس في معهد القيطنة في شبابه ولقد ذكر أيضاً في كتابه "حياة عبد القادر" نصف الحقيقة ومع ذلك بهرته وتجاهل ذكر الذين معه وأخوته الذين نشأوا في مزرعة القيطنة التي يملكها أجدادهم ونهلوا من العلوم في معهدها الذي كان من روافد مدارس وهران ومعاهدها وأن استاذهم الأول كان والدهم محيي الدين ثم الإمام محمد بن سعد، وعبد الله سقط والشيخ المجاوي وغيرهم من علماء مدارس وهران وأساتذتها، هذه المعاهد التي كان لها امتداد بجامعة القرويين بفاس وبمسجدها الذي كان منبع الحياة الثقافية والروحية في المغرب والذي كان يفيض بالحيوية والنشاط في ذلك الزمان ومازال، كما يؤكد العلماء والمؤرخون أن جامعة القرويين هي من أقدم جامعات العالم فقد أسست عام ٧٣٩م وكذلك الأزهر في القاهرة والزيتونة في تونس عام ٩٦٣م فالمساجد كانت تعتبر الصروح العلمية وليس فقط أماكن الصلاة وأدخل فيها نظام الجامعات قبل جامعات أوروبا كالسربون وكمبردج وأكسفورد، فإلى جانب إقامة الصلاة كانت تناقش في أروقتها جميع العلوم والسياسة والفقه والاقتصاد في الإسلام وأمور الحكم، وخرجت هذه المساجد علماء شاركوا في صنع الأحداث وأساتذة كبار، وكانت هذه الصروح العلمية والروحية على علاقات مع بعضها، فهؤلاء المجاهدون الذين وقفوا في وجه الاحتلال سبعة عشر عاماً وقفة الند للند كانوا خريجي هذه الصروح العلمية وكان منهم أدباء وشعراء وعلماء في اللغة والفقه والقانون والاقتصاد، يذكر المؤلف أن هؤلاء لم

يوقعوا على وثيقة القسم "المزعومة" لأنهم لا يعرفون الكتابة وأنّ المجاهد وحده من وقع على القسم الذي تخيله قسم يجمع الأنبياء وذكر أسماءهم جميعاً، ولكنه نسي أن هذا المجاهد عالم بالدين الإسلامي الذي لا يجوز فيه للمسلم القسم بغير الله عز وجل ثم جعل عبد القادر يصف الفرنسيين بالكرماء وغير ذلك من كلمات النفاق والاستعطاف والخضوع وإذلال النفس، وهو القائل في الأبيات الذي نظمها والقصائد التي دونت في ديوانه الشهير اقتطفت منها هذه الأبيات:

وابذل يوم الروع نفساً كريمة

على أنها في السلم أغلى من الغالي

إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمماً

أقول لها صبراً كصبري وإجمالي

فما همتي إلا مقارعة العدا

وهزمي طغاة شداداً بأبطالي

فالذي يصف نفسه بالنفس الكريمة، وأنها في السلم أغلى من كل غال وثمين هل يخفضها إلى هذه الدرجة من الهوان والنفاق؟

ولاشك أنه كان يعلم أن اي عدو بالدرجة التي يكره فيها عدوه بالدرجة نفسها يحترم فيه الشجاعة والحفاظ على الكرامة والبعد عن النفاق.

ومن المعروف أن الأمير لم يكن يعيش في أقبية التعذيب الرطبة، وإنما في قصر من قصور الملوك، قصر أمبواز، والأمير كان قائداً لشعب عظيم وقاد ملاحم بطولية في الدفاع عن الدين والوطن، حاول تشرشل أن يجعل من الأمير صورة المهزوم المستسلم الخاضع لعدوه الطالب لعطفه وإحسانه ونسي السيد تشرشل تاريخه قبل الإمارة وبعد الإمارة وحين غدر به ولم ينقل لقارئه الحقيقة من ثبات وصمود وجهاد فالأمير عبد القادر هو القائل:

لنا في كل مكرمة مجال

ومن فوق السماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هول

وخضنا أبحراً ولها زجال

فلا جزع ولا هلع مشين

ومنا الغدر أو كذب مُحال

ورثنا سؤدداً للعرب يبقى

وما تبقى السماء ولا الجبال

ومنا لم يزل في كل عصر

رجال للرجال هم الرجال

لهم همم سمت فوق الثريا

حماة الدين دأبّهم النضال

سلوا تخبركم عنا فرنسا

ويصدق إن حكت منها المقال

فكم لي فيهم من يوم حرب

به افتخر الزمان ولا يزال[1]

وهو القائل في وصف رجاله في إحدى قصائده:

الصادقون الصابرون لدى الوغى

الحاملون لكل ما لم يُحمل

إن غيرهم نال اللذائذ مسرفاً

هم يبتغون قراع كتب الجحفل

ما منهم إلا شجاع قارع

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٩٢ ـ ١٩٦.

أو بارع في كل فعل مجمل

كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا

من سابق لفضائل وتفضل

كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا

أقوى العداة بكثرة وتمول

كم صابروا كم كابروا كم غادروا

أعتى أعاديهم كعصف مؤكل

كم قاتلوا كم طاولوا كم ما حلوا

من جيش كغُر بافقام الجحفل

. هذا الرجل الذي يملك هذا التاريخ الحافل بالتمسك بالقيم الشرعية والأعمال البطولية، أيمكن أن يصل إلى الحضيض من اليأس لمجرد أنه تعرض للغدر والخداع من قبل أعداء خَبُرَ غدرهم لسنوات طويلة؟

هذا الرجل الذي سار على هدي القرآن طيلة حياته منذ أن تفتحت براعم طفولته الذي يعلم ثواب الصبر، ويعلم أن الإنسان مبتلى وأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بهذا النظام[١] .

كيف يمكن أن ينحدر إلى الحضيض من اليأس من كان على علم بمعاني هذه الآية الكريمة ويؤمن بها وتربى عليها، وهو الذي يختم كتاب الله باستمرار، ويمر عليه تأملاً وتدبراً وفهماً وحفظاً وعملاً، وكم من المرات والمرات مر بقول الله تعالى :" وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " (يوسف، آية : ٨٧).

[١] المصدر نفسه، ص: ١٩٧.

ـ وقول الله تعالى :" وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" (آل عمران، آية : ١٣٩ ـ ١٤٠).

ـ وقول الله تعالى : لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ" (الزمر، آية : ٥٣).

ـ وقول الله تعالى :" وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ" (الحجر، آية : ٥٦).

فهل يمكن أن يكون هذا المجاهد الكبير والأمير النبيل والعالم المؤمن عبد القادر جاهلاً بمعاني هذه الآيات وهو الذي ألف كتاباً في سجنه وجعل عنوانه "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالكفر والإلحاد" وأرسله إلى رجال الكنيسة؟ هل كان رجلاً يخشى أحداً سوى ربه؟ ويصفه تشرشل بالمتدين ألا يعلم أن صبر المؤمن انصياعاً لأمر الله وإيثاراً للآخرة على الدنيا الفانية، وأن كل ما في الدنيا من عذاب هو هين في سبيل مرضاة الله عز وجل؟

ألا يعلم أن الله سبحانه وتعالى شرع مبدأ الهجرة وجعل لها شروطاً وهي طريق من طرق العذاب والألم؟ وهل هناك عذاب أشد من الغربة؟ وهذه الاتفاقية الأخيرة في الواقع ليست هروباً من الأذى وطلباً للراحة في عكا أو الإسكندرية لأن الهجرة فرضها الله لحفظ كرامة المؤمن، وأمر مسلم به أن هذا العالم ومن معه من الفقهاء يعرفون أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام وجوب وجواز وحرمة، والحرمة تكون حينما يصبح المسلم يعيش في ظروف كالتي يعيشها هو وأصحابه من حصار شديد وتهديد في مثل هذه الظروف أوجبت الشريعة على المسلم الهجرة إن لم يفعل يعد عمله إهمالاً لواجب من الواجبات الشرعية الإسلامية[1].

وحاول تشرشل تشويه الدولة العثمانية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فوصف استقبال الأتراك للأمير عبد القادر بالمظاهر المتصنعة من الاحترام ووصفهم بأنهم على درجة كبيرة

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٩٧ ـ ٢٠٠.

من العنجهية وغرباء عن العواطف النبيلة وصب غضبه وحقده على العثمانيين بطريقة تدل على أنه جاسوس يخدم لصالح المخابرات البريطانية التي كانت من ضمن دول أوروبية أخرى تسعى للقضاء على الدولة العثمانية واستخدم الكلمات النابية في هجومه[1].

وأطلق لخياله العنان وعبقريته الأدبية وبكل ما يحمله قلبه من أحقاد على الدولة العثمانية وكراهية صارخة، ولم يترك المجال أمام القاري ليفهم رأيه من بين السطور وإنما من الأسطر نفسها.

لقد قاده خياله نحو الدرك الأسفل من تزييف الحقائق وشاهدنا مدى جرأته على ذلك بقوله: بالرغم من وجود عبد القادر بين يدي الترك فإنه لم يكن مضطراً أن يكون تابعاً لهم.

وسيأتي الحديث مفصلاً عن علاقة الأمير بالدولة العثمانية وسلاطينها لاحقاً بإذن الله تعالى ويكفينا هنا قول الأمير عبد القادر في بروسة وأهلها:

ألا فاقر الخليل خليل باشا
سلاماً طيباً عبقاً نفيساً
له قل يا شقيق الروح عني
على ما هجرت بلدنا بروسا
بكم كانت تفاخر كل مصر
وتطلع من شمائلكم شموساً
وكنت لنا بها غيثاً مريعاً
وكهفاً مانعاً ضراً وبؤساً

---

[1] المصدر، ص: ٢٠٥.

وكان لنا الزمان بكم ضحوكاً

فصار لنا بفقدكم عبوساً

بمن أعتاض عنك فدتك نفسي

وكنت بقربكم خرجاً

ولما وصل الأمير إلى بروسة ونظر إلى موقعها وأجوائها قال: لقد صدق من أخبرنا بأنها تشبه مدينة تلمسان ولولا تكرار الزلازل فيها ما أسرع الأمير بالانتقال منها. ولقد نظم الأبيات السابقة فور مغادرتها وهو دليل على سعادته في الإقامة فيها أي في الدار الضخمة التي أمر بها السلطان وهذا رد على مزاعم تشرشل[1] مشوه الحقائق ومزيف التاريخ وخائن الأمانة العلمية.

إن تشرشل في كتابه الذي فقد المصداقية العلمية والمرجعية الحقيقية للباحثين لم ينظر إلى الأمير عبد القادر من روّاد الظلم والطغيان والاعتداء على حقوق الآخرين، لأن ذلك يمس بسمعة المحتلين الأوروبيين الذين نشروا الفقر والبؤس في الجزائر[2].

لقد قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بترجمة كتاب حياة عبد القادر من الإنجليزية إلى العربية وهي ترجمة أولى إلى العربية لم يسبقه إليها أحد صدرت في عام ١٩٨٢م وهي على درجة عالية من الدقة بحيث يستطيع القارئ ملاحظة الحالة النفسية عند المؤلف أثناء سرده للأحداث في كتاب حياة عبد القادر، فإن القارئ أو الباحث سيجد شخصية المؤلف دون قناع وما تحمله في أعماقها من أحقاد موروثة على العرب والمسلمين، وهي سموم منغمة تدفقت بين السطور.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٠٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢١٦.

وقد قامت الأميرة بديعة الحسني الجزائري بمناقشة هذا الكتاب في كتابها القيم: ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر الجزائري.

فالحذر كل الحذر من هذا المرجع المسموم الذي كتبه أحد المستشرقين الذين انتموا إلى المدرسة الاستعمارية لخدمة بلادهم عن طريق الغزو الفكري كما ظهر للباحث المنصف.

د ـ كتابه تحفة الزائر:

كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير عبد القادر لمحمد باشا الابن الأكبر للأمير عبد القادر الجزائري. تناول المؤلف فيه تاريخ الجزائر الجغرافي والسياسي وتاريخ والده وجعله في جزأين، كتب في الأول تاريخ الجزائر ككل وتاريخ والده العسكري وملاحمه البطولية بالتفصيل، وأكثر المعلومات في هذا المجال أخذها من والده أثناء حياته حيث بدأ بتأليف الكتاب، وأخذ أيضاً معلومات من المجاهدين الذين رافقوا والده أثناء المعارك، وقادة الجيش ومن وزرائه أي من خلفائه في المدن الذين لحقوا به إلى دار الهجرة في دمشق ومن أعمامه الذين شاركوا شقيقهم في الجهاد وهم سعيد وأحمد ومصطفى وسُجنوا معه في أمبواز.

وفي الجزء الثاني تناول حياة والده في السجن وتفاصيل أخرى عن زيارة إمبراطور فرنسا له وإطلاق سراحه وذهابه إلى دار الخلافة واختيار مدينة بروسة ثم دمشق.

ولقد كتب الدكتور المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله في موسوعته الجديدة "تاريخ الجزائر الثقافي" أن الوالد هو من مكن ابنه من المعلومات والوثائق العسكرية والتاريخية والعائلية الهامة التي ساعدته على تأليف هذا المخطوط الذي انتهى منه بعد وفاة والده الأمير عبد القادر بسبع سنوات، ولكنه بعد انتهائه سرقت منه النسخة[١]، وهذه النسخة بعد أن سُرقت حُرفت وأنقذ منها الجزء الأول، فجمع المؤلف ما تبقى من المواد حسب قوله في مقدمة الكتاب ثم سلمها إلى ناشر في أحد دور النشر بالإسكندرية عام ١٨٩٨م تقريباً

[١] المصدر نفسه.

ولقد ذكر الدكتور أبو القاسم أنه عثر على نسخة من هذا الكتاب مهداة إلى السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٣٠٧هـ، وبمقارنتها بالنسخة المطبوعة عام ١٩٠٣م في القاهرة وجد فروق هامة في بعض التفاصيل بين النسختين.

على أي حال فكتاب "تحفة الزائر" قيم جداً ذكر تفاصيل هامة للمعارك والانتصارات الباهرة التي أحرزها جيش الأمير على القوات الغازية من هذه الملاحم معركة "المقطع" وسيدي إبراهيم وعشرات غيرها مما لم يذكرها أحد قبله بهذه الدقة، فكان هذا الكتاب المرجع الأول في اللغة العربية للباحثين[١].

قالت الأميرة بديعة الحسني الجزائري: واثناء دراستي لهذا الكتاب النادر "تحفة الزائر" طبعة الإسكندرية وجدت أن المؤلف أو الناشر والله أعلم قد استعان بمؤلفات أجنبية من أكثرها كتاب "حياة عبد القادر" لهنري تشرشل الضابط البريطاني بعد فقدانه لنسخته الأصلية، وبما أنه كان لا يتقن اللغات سوى العربية والتركية، سلّم ما تبقى من النسخة المسروقة إلى دور نشر قامت بعمليات التنقيح والتحرير والنقل، واكتشفتُ الكثير من المتناقضات والانسلاخ عن المضمون الذي أراد المؤلف قوله، فدور النشر في مصر في ذلك العصر كانت تمتاز بالجودة ولكنها لم تكن بعيدة عن الهيمنة البريطانية التي لم يكن غزوها لمصر عسكرياً فقط، وإنما كان فكرياً أيضاً وهدفها السياسي كان إخراج مصر من عالمها العربي والإسلامي وجعل الشعب المصري سداً بين مشرق العالم العربي وغربه، ومحاولة تجنيد الشباب في الجيش البريطاني لقتال إخوتهم في فلسطين، وفشل مشروعها هذا بعد أن ثارت الصحافة المصرية فانبرت "البلاغ" بالإعراب عن الغضب وكذلك الجمعيات والشعب المصري بأكمله، وأصدر علماء الدين فتوى في ذلك الحين بتكفير كل من ينضم إلى الجيش البريطاني لمحاربة إخوانه في فلسطين[٢].

---

[١] فكر الأمير عبد القادر صـ١١..

[٢] المصدر نفسه.

كما أن دور النشر لم تسلم أيضاً من الغزو الفكري ولو أن محمد باشا قرأ كتابه بتأن واطلع على المزاعم التي دُست في صفحتين من الجزء الأول لطالب بتقديم الناشر إلى القضاء، والله أعلم، ففي كل احتلال غاشم لابد من وقوع ضحايا وكتاب "تحفة الزائر" من الضحايا، ففي دار النشر ارتكبت الجرائم ضده من دون أن يجد من يدافع عنه أو يحميه من الدّس، لأن المؤلف محمد باشا كان في دمشق والظروف السياسية لم تكن تسمح له بالسفر، فأخذ الناشر المأجور المغرض المسؤول عن الترجمة والتحرير والتنقيح أخذ حريته بانتقاء مدروس من الكتب الأجنبية ما شاء له هواه وبصورة خاصة من كتاب هنري تشرشل[1] الذي تحدثت عنه سابقاً.

إن المدقق والباحث والمطلع على شخصية هذا المجاهد الكبير لا يستطيع التسليم بصحة كل ما كتب عنه في الجزء الثاني من كتاب "تحفة الزائر".

وفي الصفحة الأخيرة من الجزء الأول، إن لم نقل الإنكار الشديد لبعض الألفاظ وليس الوقائع فالأحداث كلها صحيحة لا ريب، ولكن الاستنكار للألفاظ والتحريف والتأويل الخاطىء من حذف وإضافات مغرضة منها مثلاً ما جاء في أسئلة الجنرال دوماس صفحة ١٧٨ من التحفة السؤال الثالث عشر، وجواب الأمير عليها في موضوع تعليم النساء، فإذا حذف كلمة لكن وحذف لا من الجملة "لكن شرع الإسلام لا ينهي عن تعليم النساء الكتابة" وهو أمر بغاية السهولة، فنجد أن المعنى كله قد تغير، فيصبح جواب الأمير بعد هذا الحذف "شرع الإسلام ينهي عن تعليم النساء الكتابة"، فالسائل ضابط فرنسي خاض معارك دامية ضد الأمير سنين طويلة في الجزائر وتعلم اللغة العربية ودرس التاريخ الإسلامي عن طريق مؤلفات المستشرقين وعدد كبير من أمثاله درسوا التاريخ

---

[1] فكر الأمير عبد القادر، ص: ١١.

الإسلامي وسير العظماء وساروا وراء أحقادهم واندفعوا وراء أوهامهم أرادوها حقائق في ديننا وتاريخ أمتنا وسير أبطالنا[١].

٢. تلاميذ الأمير عبد القادر:

تخرج على يدي الأمير عبد القادر كثير من الشباب تأثروا بسيرته الجهادية وبعلمه وأدبه ومنهجه وأصبحوا فيما بعد من العلماء واستمروا على ذلك النهج وطوروه واتسعوا به ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

أ ـ عبد الرزاق البيطار المولود عام ١٨٣٧م والذي بات من علماء الشام المشهورين حتى وفاته عام ١٩١٦م رحم الله الشيخ الداعية المجاهد عبد الرزاق السلفي العقيدة الذي لم تأخذه لومة لائم لحظة في إبانه الحق، ولم يصده عتب عاتب ولا قومة قائم، الصادع بالحق، المنكر على أصحاب الخرافات من المتصوفة ولقي في سبيل ذلك عنتاً كبيراً من الجاحدين ويكفيه فخراً هو كذلك أن تخرج على يديه علامة الشام وفقيهها السلفي الكبير جمال الدين القاسمي المولود عام ١٨٦٦م والمتوفى عام ١٩١٤م.

ب ـ الطاهر الجزائري ابن الشيخ صالح السمعوني الذي ولد عام ١٨٥٢م وتوفي عام ١٩٢٠م وأصبح بجلته من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره وانشأ مع الأمير دار الكتب الظاهرية، والمكتبة الخالدية في القدس وله عشرين مصنف وأصبح من أعضاء المجمع العلمي العربي.

جـ ـ الشيخ عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقي وهو من أقران العلماء، ولازم الأمير منذ قدم دمشق من مواليد ١٨٠٧م وتوفي ١٨٨١م كان عالماً فاضلاً من فقهاء الحنفية وله تآليف عديدة، وكان يكره البدع والأوهام والخرافات التي أدخلت على الدين ظلماً وعدواناً[٢].

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٣٠.

[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨١.

د . شهادة العلماء في الأمير وصلته بزعماء الإصلاح:

شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عليش وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عليش، والعلامة عبد الرزاق البيطار وحفيده الشيخ محمد بهجة البيطار والعلامة جمال الدين القاسمي، ومفتي الحنابلة الشيخ محمد جميل الشطي، وآخرون كثر شهدوا للأمير بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام وأشادوا بحرصه على إقامة أحكام الشريعة وحدودها وسعيه الحثيث لنشر علوم الدين، كما كان للأمير دور كبير في إحياء وتجديد فريضة الجهاد ورفع رايتها إلى جانب بعث علوم الحديث النبوي الشريف ونشرها والحث على العمل بها والسعي في القضاء على البدع ونبذ التقليد الأعمى الممقوت والدعوة إلى إستعمال العقل والنظر في فهم ونشر مختلف العلوم[1].

فالعقل مناط التكليف ومحور الثواب وأساس النقل، ولا تعارض بين العقل والنقل ولا يمكن للإنسان المخلوق في هذا الكون أن يدرك بعقله وبنظرياته وفلسفاته أسرار الحياة والكون ووجوده وخباياه وبداية خلقه والسبب من ذلك وفناه بالعقل وحده، فكل ما يتصل بمسائل الغيب والعقيدة في الله والملائكة والكتب السماوية والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر وغايات الحياة وأسرار الكون، ليس له مصدر إلا وحي الله المنزل[2]، والقرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، وأما عن علاقة الأمير بزعماء الإصلاح والتجديد، فقد كان مواكباً للتطورات التي حدثت في عهده وتواصل مع شخصيات إسلامية لها مكانتها في الجهاد والإصلاح أمثال الشيخ كامل الداغستاني، وخير الدين التونسي، والشيخ محمد عبده الذي يبدو أنه جالس الأمير عدة مرات عندما كان الشيخ منفياً في بيروت، ولاشك أن الشيخ محمد عبده تحدث مع الأمير عن التجديد والإصلاح، وعن جمال الدين الأفغاني وجمعية العروة الوثقى.

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٨٣.

وأما ميل الأمير للإصلاح الإسلامي فيظهر في الرسائل المتبادلة بينه وبين خير الدين باشا التونسي صاحب كتاب "أقوم المسالك" فقد أهدى خير الدين كتابه إلى الأمير عبد القادر، فقرأه وأعجب بمحتواه وآراء صاحبه، ثم وجه خطاب شكر واعجاب إلى خير الدين، والعبارات التي وردت في هذا الخطاب تصور رأي الأمير في مفهوم الإصلاح الذي دعا إليه خير الدين، فبعد أن عبر له عن شكره لدفاعه عن الشريعة الإسلامية وصلاحيتها للحكم لكل زمان ومكان قال: وقد اطلعنا على "أقوم المسالك" فرأينا فيه ما بهر العقول، وأدى الأفكار إلى الذهول من قضايا المعقول، فاتفقت القلوب على تفضيله واختلفت الألسنة في تمثيله، أما نحن فقد تركنا التشبيه وقلنا ما له في فنه مثيل ولا شبيه، كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الأسحار.. يزرى بتاج تراجم الأعيان وكأنه مرآة انعكست فيه رسوم أخبار الملوك وأفاضل الزمان، فاتخذته مرتع ناظري، ومنتعش خاطري ولا يخفى أن لكل عصر رجال يقومون بأعبائه ويهيمون في أودية أنبيائه.. فلله درك ودر ما به ألمعت وما قربت من فنون المعارف وبعدت، ثم إنك حميت ضمار الشرع المحمدي وعضدته، وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته. ورغم هذا السجع والعناية بالبديع فإن رأى الأمير يتلخص في الإعجاب بالكتاب للأسباب التالية:

. دفاع صاحبه عن صلاحية الشريعة الإسلامية للحكم في كل زمان ومكان.

. اهتمامه بقضايا المعقول والمنقول، وفنون المعارف العصرية والإشارة إلى أن لكل عصر رجالاً يقومون به بدور الدعاة إلى الله.

. كونه كتاباً نادراً في أخبار الملوك وأفاضل الزمان . مسلمين وأوروبيين . لذلك اتخذه الأمير منتعش خاطره وهو تعبير لماح وكاشف عما نحن بصدده[1].

---

[1] حياة الأمير عبد القادر تقديم أبو القاسم سعد الله، ص: ١٥.

٣. علاقة الأمير بكتب ابن عربي وأفكاره:

أراد بعض الناس الاستفادة من اسم الأمير عبد القادر ونسبوا إليه ما لم يعتقده من غلاة الصوفية، ومن أبرز هؤلاء البشر: الشيخ محمود الأرناؤوطي ومحمد الخاني وضموا إلى كلام الأمير ومراسلاته ووضعوا بعد وفاته بسنين عديدة في عام ١٩١١م وبدون وصية من الأمير وتكليف في كتاب "المواقف" والذي لا علاقة بالأمير به وأثبتنا بالحجج والأدلة العلمية بطلان نسبته إلى الأمير، ومما جاء فيه عن كتاب المواقف الموصوف بالثمين العظيم الجليل وأنه كتب بالنور على نحور الحور ونسبوا إليه من العقائد التي تثبت كتابه ورسائله ومواقفه أنه لا علاقة بالأمير عبد القادر بها لا من قريب ولا بعيد وهذا العمل ليس غريباً في تاريخ البشرية، فقد عظم المسيحيون سيدنا عيسى عليه السلام حتى ألهوه، وزاد ونسب بعض المسلمين الذين لا يخافون الله إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الآف الأحاديث الموضوعة، إما افتراء عليه أو محتجين بالدعوة والانتصار لدينه، أيعقل للباحث والمنصف والساعي للحقيقة المجردة أن يقول مسلم سني ملتزم مثل الأمير عبد القادر يدرس في مجالسه وفي داره وفي الجامع الأموي ودار الحديث النووي في المدرسة الجقمقية وفي ندواته العلمية يغترف من تفسير القرآن الكريم لابن كثير ويعطي الإجازات في صحيح البخاري ومسلم وموطأ مالك يقول أن البشر الذي خلق من ماء مهين قد يتأله وبإمكانية أن يصبح الإمام والله واحد؟ أيجمع الإنسان ويحل لكونه خليفة الله في الأرض؟ أو يفسر القرآن الكريم وأحاديث شريفة خلافاً لما ذكره السلف الصالح وأهل السنة والجماعة وضوابط وقواعد التفسير التي حددها علماء وفقهاء الشريعة؟ وقد رأينا اهتمامه بالعلماء ومراجعة كبارهم في المسائل والنوازل التي يمر بها في حياته باحثاً عن حكم الشريعة، فراسل علماء القرويين بالمغرب والأزهر بمصر.

إن الدراسات العلمية الدقيقة المتجردة في حياة الأمير والتي عشت معها بتمعن وأخذت مني الوقت الكثير وصاحبته خلال البحث في اسفاره وإقامته وفرحه وحزنه في المعارك وفي

حلقات العلم وفي أماكن العبادة ومع القرآن الكريم وفي ندواته العلمية الجزائرية والشامية والتركية ـ تدل على أنه أبعد الناس عن المعتقدات الفاسدة والمتصوف المنحرف وعندما سئل عن عقيدته في الكرامات والوسطاء أجاب: إن ثقتي في الله وحده[1].

إن اتهام الأمير بتأثره بالعقائد المنسوبة والمتهم بها ابن عربي من وحدة الوجود والاتحاد والحلول اتهامات باطلة، فوحدة الوجود تعني ـ بأوجز عبارة: إن الله تعالى والعالم شيء واحد فوجود المخلوق هو وجود الخالق[2]، ومعنى الحلول والاتحاد اصطلاحاً: الحلول والاتحاد عقيدتان نشأتا في بعض الأديان الوثنية والفلسفات القديمة، وظهرتا على وجه الخصوص بين النصارى الذين حرفوا دين الله وألهوا المسيح عليه السلام حيث ادّعوا حلول الله أو اتحاده به، كما ظهرتا في العالم الإسلامي عند بعض غلاة الطوائف وبخاصة بعض الفرق المظهرة للتشيع الزاعمة حلول الله تعالى أو اتحاده بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أو بعض ذريته[3]، فالحلول ـ عند من يعتقده ـ : هو نزول الذات الإلهية في الذات البشرية ودخوله فيها، فيكون المخلوق ظرفاً للخالق بزعمهم[4].

والإتحاد ـ عند من يعتقده ـ : هو اختلاط وامتزاج الخالق بالمخلوق فيكونا بعد الاتحاد ذاتاً واحدة[5].

وحقيقة قول هؤلاء: أن وجود الكائنات هو عين وجود الله ليس وجودها غيره وليس شيء سواه البتة[6].

فالخالق هو المخلوق والمعبود هو العابد والناكح هو المنكوح والله عندهم ـ عين الخنازير والكلاب والكفار تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً[7].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٦.

[2] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٨٠، ١١٢، ١٤٠، ١٤١).

[3] ابن عربي عقيدته ومواقف العلماء منه د. دغش العاجمي، ص: ٣١.

[4] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

[5] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

[6] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

[7] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

وخلاصة الفرق بين الحلول والإتحاد:

. أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد.

. أن الحلول يقبل الانفصال أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال١.

ومن أعظم العقائد المنسوبة لابن عربي قوله بوحدة الوجود، وهي أن الله تعالى والعالم شيء واحد وأن الله عين وجود الكائنات، فكل ما تراه فهو الله٢.

وهذه العقيدة فاسدة وباطلة ولا يمكن لشخص اعتنق عقائد القرآن الكريم وما ثبت عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أن يعتقد هذه الأباطيل:

. فقد دلت النصوص الشرعية الكثيرة على أن الله تعالى هو خالق الكائنات ومصورها وموجدها من العدم، قال تعالى :" اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" (الزمر، آية : ٦٢).

وقال تعالى :" الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ" (الأنعام ، آية : ١).

وغيرها كثير تثبت أن الله الخالق وثبت أن الوجود ليس واحداً، بل فيه خالق ومخلوق ورب ومربوب.

. ودلت النصوص الشرعية على أن الله عز وجل . هو المالك الملك الذي له الملك التام، قال تعالى :" تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (الملك، آية : ١).

وقال تعالى :" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ" (البقرة، آية : ١٠٧). فالله مالك المخلوقات.

. كما دلت الأدلة على أن الله هو المحيي والمميت يهب الحياة لمن يشاء ويسلبها عمن يشاء، قال تعالى :" وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ" (الحج، آية : ٦٦).

وثمة غير الله وهو المخلوق الذي يموت ويحيا.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٣٥.

[٢] المصدر نفسه ص٣٥..

. وأمر الله بعبادته وحده لا شريك له فقال :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ" (البقرة، آية : ٢١).

وأخبر سبحانه أنه ما خلقنا إلا لعبادته فقال :" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات، آية : ٥٦).

وما أرسل من رسول إلا لهذا الأمر، قال تعالى :" وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ" (النحل، آية : ٣٦).

فهذه النصوص وغيرها كثير . تدل على أن هناك عابداً ومعبوداً.

. نهى الله سبحانه وتعالى عن الشرك أشد النهي وحذر منه أشد التحذير، وأخبر أن صاحبه محرم على الجنة وأنه خالد مخلدّ في النار، وأنه لن يغفر لمن مات عليه، قال سبحانه :" إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا" (النساء، آية : ٤٨).

وقال تعالى :" إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ" (المائدة، آية : ٧٢).

فهذه النصوص تدل على أن هناك غيراً يجعله بعض الناس شريكاً لله تعالى ولو كان الوجود واحداً كما يقول أصحاب وحدة الوجود لكان الشرك الأكبر هو عين التوحيد الخالص ولكان الذين عبدوا الأصنام والأشجار والأحجار والملائكة ما عبدوا إلا الله لكون هذه المعبودات مظاهر لذلك الوجود الواحد كما نص عليه أصحاب وحدة الوجود[1].

وقد أخبر الله تعالى أن المشركين عبدوا غيره، قال تعالى :" قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الزمر، آية : ٦٤ ، ٦٥).

---

[1] المصدر السابق، ص: ٥٣ . ٥٦.

وأخبر بوجود المشركين فقال :" ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ" (الأنعام، آية : ٦٤).

وأمر نبيّه أن يتبرّأ من المشركين فقال :" قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ" (الأنعام، آية : ١٩).

وبذلك أمر أنبياءه فقال هود عليه السلام لما قال له قومه :" إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ" فقَالَ لهم عليه السلام "إِنِّي أُشْهِدُ اللهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ" (هود، آية : ٥٤).

ونزه الله ـ جل في علاه ـ نفسه عن الشرك وأهله فقال :" فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (الأعراف، آية : ١٩٠).

وقال :" وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة، آية : ٣١).

وكان الرسل ينهون عن عبادة مظاهر الوجود ويجعلون ما عبده المشركون غيراً لله، ويجعلون عابده مشركاً بالله جاعلاً له نداً، وكان يُبيّنون بطلان عبادة تلك المعبودات والآيات في ذلك كثيرة جداً.

والرسل هم أعلم الخلق بالله فلو كانت المعبودات هي الله لما نهوا عن عبادتها، فدل ذلك على أنها غير الله فثبت الغيرية وبطلت وحدة الوجود١.

ـ ونزّه الله نفسه عن مماثلة المخلوقات وعن كل عيب ونقص، فقال تعالى :" لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" (الشورى، آية : ١١).

وقال سبحانه :" لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ" (البقرة، آية : ٢٥٥).

وقال عز وجل :" لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى" (طه، آية : ٥٢).

وقال سبحانه وتعالى :" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" (الإخلاص، آية : ١ ـ ٤).

---

[1] ابن عربي عقيدته د. دغش العاجمي، ص: ٥٣ ـ ٥٧.

فدلت هذه النصوص ونحوها على أن الله لا يُماثل المخلوقات ولا يتصف بصفات النقائص، ونحن نشاهد الكائنات[1] متصفة بصفات النقائص كالنوم والنعاس والضلال والنسيان والموت والفقر ..الخ وثبت أن النقائص صفات لغيره فانتفت الوحدة وبطلت.

.كما دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أن الله موصوف بعلو الذات، قال تعالى :" يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ" (النحل، آية : ٥٠).

وقال سبحانه وتعالى :" أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ" (الملك، آية : ١٦).

وقال جلا وعلا :" تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ" (المعارج، آية : ٤).

وقال تعالى :" وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ" (الأنبياء، آية : ١٩).

فهذه النصوص تدل على أن هناك خلقاً وخالقاً، وأن الخالق تعالى على عرشه بائن من خلقه عالٍ عليهم فبطل بهذا كون الوجود واحداً لأنه لو كان كذلك لما وصف الله نفسه بالعلو.

. والقول بوحدة الوجود إنسلاخ من الشريعة لأن من البديهيات أن من يرى أن ذات الإله حلت فيه أو اتحد هو بها، وأن الخالق هو المخلوق من البديهيات أنه لا يرى نفسه موضعاً للتكاليف الشريعة، لأن التكليف ملازم للعبودية وأما وقد صار العبد رباً فلا تكليف مع الربوبية[2].

قال ابن تيمية: ولهذا يظهر فيهم من إهمال العبادات والأوراد والأذكار والدعوات ما لا يظهر في اليهود والنصارى ومن سلك منهم مسلك العبادات فإن لم يهده الله إلى حقيقة دين الإسلام وإلا صار في آخر أمره ملحد من الملاحدة من جنس ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما[3].

---

[1] درء التعارض (٦/ ٧٧).

[2] المصدر السابق، ص: ٦٣ ، ٦٤.

[3] المصدر نفسه.

وقال ـ رحمه الله ـ ولهذا يصلون إلى مقام لا يعتقدون فيه إيجاب الواجبات، وتحريم المحرمات وإنما يرون الإيجاب والتحريم للمحجوبين عندهم الذين لم يشهدوا أنه حقيقة الكون، فمن العابد؟ ومن المعبود؟ ومن الآمر؟ ومن المأمور[1].

ـ كما أنهم يتجرؤون على مقارفة النواهي الشرعية بما في ذلك الكفر بالله والسجود لغيره والاستهزاء بالشرع والطعن في الدين وغير ذلك.

وقال ابن تيمية في التلمساني : وهو كان أعرفهم بقولهم وأكملهم تحقيقاً له، ولهذا خرج إلى الإباحة والفجور وكان لا يُحرم الفواحش ولا المنكرات ولا الكفر والفسوق والعصيان[2].

إن الأمير عبد القادر الجزائري ليس من عقيدة وحدة الوجود في شيء بدليل سيرته وكتبه ومقالته وقد بينا بطلان ما نسب إليه من كتب في التصوف المنحرف "المواقف" وإنما أراد أصحاب هذه الاعتقادات الاستفادة من شهرته ومحبة الناس له.

كما أن الشعر المذكور في هذا الكتاب المزعوم إلا دليل إضافي على أن الكتاب ليس من تأليفه، فأبياته جلها مختلفة في وزنها تميزت باضطرابات عروضية تجاوزت في بعض الأحيان حتى ما أتاحه العرضيون الشعراء وعدوه شاذاً، فضلاً عن تهويمات وأذكار صوفية لا تدخل في الشعر كما أن أغلب الأبيات والقصائد الواردة هي قريبة من النظم أكثرها منها إلى الشعر في تفعيلاتها المعروفة عند الشعراء، فأكثر هذه النصوص لا يدخل في الشعر، فهو ليس إلا أذكاراً وتسبيحات ونجوى على مذهب القوم، أو إيماءات وتعابير متوسل بها في شطحة من شطحات الفرق الصوفية أسمع معي إلى بعض ما ورد في الكتاب المزعوم، وأحكم وزن بعقلك وإيمانك على هذه العبارات بميزات العقيدة والشرع:

أمطنا الحجاب فانمحى غيهب السوى

---

[1] مجموع الفتاوى (٢/ ٨٢).

[2] ابن عربي عقيدته، ص: ٦٦.

وزال أنا وأنت وهو فلا لبس

ولم يبق غيرنا وما كان غيرنا

أنا الساقي والمسقي والخمر والكاس

تجمعت الاضداد في وأنني

أنا الواحد الكثير والنوع والجنس

فلا تحتجب بما ترى متكثراً

فما هو إلا شخصنا النزه القدس

ومن الأبيات الباطلة التي نسبت إلى الأمير في كتاب المواقف:

أنا العابد المعبود من كل صورة

فكنت أنا رباً وكنت عبداً

فطوراً تراني مسلماً أي مسلم

زهوداً نسوكاً خاضعاً طالباً مدا

وطوراً تراني للكنائس مسرعاً

وفي وسطي الزنار احكمته شدا

أقول باسم قال الباحث والأب

وبالروح روح القدس قصدا ولا كيدا

وطوراً بمدارس اليهود مدرساً

اقرر توراه وأبدي لهم رشدا[1]

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٩.

لا حول ولا قوة إلا بالله، أليس قائل هذه الأبيات إلا أن يجدد ويصحح عقيدته، لقد تعمَّد بعض الناس تشويه حقيقة عقيدة وفكر الأمير عبد القادر، وفي أيامنا هذه نرى رأي العين كيف يعمد المفسدون إلى رجل من المشاهير الذين نعاصرهم ونشهد لهم بالخير فيشوهون صورته أمام الناس وينسبون إليه الأباطيل حتى يسقط من أعين الناس، ويعمدون إلى رجل وضيع خسيس فيرسمون له صورة زائفة ويزينونها للناس حتى يظنوا أنهم أنهم أمام رجل عظيم وصدق القائل:

نظرت بحال الحاضرين فرابني

فكيف بحال الغابرين أصدق[1]

لقد تعرض الأمير عبد القادر لحملات تشويه مركزة ومنظمة واختلقوا له الأكاذيب وزعموا أنه سلم نفسه لفرنسا واستسلم في نهاية المطاف وزوّروا عليه رسائل ومعاهدات سخيفة ومخزية وزعموا أنها بخطه، ثم اختلقوا قصة انتسابه للجمعية الماسونية وزوروا عليه رسالة بهذا الخصوص، وكل ذلك كي يسقط اعتباره عند الناس كرجل مخلص لأمته، ولم يكتفوا بذلك بل أسرعوا فور وفاته لتزوير كتاب عليه وهو كتاب المواقف في الوعظ والإرشاد وضمّنوه كلاماً يجعل الأمير يسقط عند الناس باعتباره الإسلامي والإيماني أيضاً، فلا يبقى شيء يصلح لاتخاذه قدوة ولكن الله أبى إلا أن يخرج الحق للناس.

إن الأمور التي تبين بطلان ما نسب للأمير من الأمور المنكرة كثيرة منها:

أ ـ تقرير الخبرة الفنية الذي كتبه الاستاذ الغراوي الخبير المحلّف بشؤون الوثائق لدى وزارة العدل السورية من ١٩٥٢ ـ ١٩٧٩م والذي أثبت فيه أن المخطوطات الخاصة بكتاب المواقف والتي كتب عليها إنها بخط الأمير هي ليست بخطه قطعاً وكذلك الوثائق

[1] الأمير عبد القادر فكره وحياته، ص: ٢٥٩.

العسكرية التي تروج لها بعض الكتب الفرنسية، هي أيضاً ليست بخط يده بل مزورة عليه والتزوير مفتضح لكل متأمل.

ب ـ إن الأمير عبد القادر لم يذكر أنه ألف كتاب المواقف ولا غيره ولم يشر إلى ذلك لا في أشعاره ولا في رسائله.

ت ـ إن الأمير عبد القادر كان قائداً عسكرياً وحاكماً وقاضياً وسياسياً وأمضى عمره على صهوات الخيل مجاهداً ثم المنفى ثم متنقلاً بين الإستانة وبورصة ودمشق ولم يكن عنده من الوقت ما يسمح لتأليف كتاب ضخم ككتاب المواقف الذي يقع في أكثر من خمسمائة وألف صفحة.

ن ـ لم يذكر أحد ممن كان يحضر مجالس الأمير عبد القادر الخاصة أو دروسه العامة في الجامع الأموي، أن للأمير كتاباً اسمه المواقف.

ج ـ إن المقربين من الأمير عبد القادر من علماء عائلته كابن أخيه السيد عبد الباقي الحسني وكان مفتي المالكية بدمشق وهو جد والد الدكتور خلدون بن مكي بن عبد المجيد بن عبد الباقي الحسني، وابن أخيه الثاني السيد محيي الدين الحسني وهو جد السيدة بديعة، وهما صهراه أيضاً وكانا ملازمين للأمير، ولم يسمعا أبداً الأمير يتحدث عن هذا الكتاب ولم يسمعا منه كلاماً يوافق الكلام الموجود في كتاب "المواقف" بل على العكس كان كلامه لآخر لحظة من حياته مخالفاً لما في المواقف من العقائد الباطلة، وليس في أسرة الأمير من يقول بتلك العقائد لا في أبنائه ولا في أحفاده، بل ورثوا عنه العلم الصحيح والعقائد الواضحة السليمة.

ح ـ إن الأمير عبد القادر ولآخر يوم من حياته كان يدرس في الجامع الأموي بدمشق صحيح البخاري، وموطأ مالك، ورسالة أبي زيد القيراواني ويشيد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة وكل هذه الكتب تخالف تماماً العقائد الموجودة في كتاب "المواقف"

فكيف يكون مدرس هذه الكتب وكاتب كتاب المواقف شخصاً واحداً؟ مع هذا التناقض الكبير بين الإيمان والكفر[1].

كان الأمير يشيد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة وهذه العقائد التي أشاد بها الأمير وصفها مؤلفها ابن أبي زيد القيرواني بأنها: جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح وما يتصل بالواجب من ذلك السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله وطريقته مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته[2].

وهذا النص الكامل لمقدمة أبي زيد القيرواني في العقيدة: باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة، ولا شريك، ليس لولايته ابتداء ولا لآخرته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المفكرون بآياته ولا يتفكرون في ما هية ذاته، ولا يحيطون بعلمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.

العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير وإنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو بكل مكان بعلمه، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقه إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٦٣.

[2] شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني للأمين الحاج، ص: ٩.

على العرش استوى وعلى الملك احتوى وله الأسماء الحسنى والصفات العلى.

لم يزل بجميع أسمائه وصفاته تعالى أن يكون صفاته مخلوقاته وأسماؤه محدثة.

كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله.

وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفذ.

والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، وكل ذلك قدّره الله ربنا ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه علم كل شيء قبل كونه فيجري على قدره لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به :" أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" (الملك، آية : ١٤).

يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله فكل ميسر تسييره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالق كل شيء هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم الباعث الرسل فيهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والنبوة بمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرع بدينه القويم وهدى به الصراط المستقيم، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون.

وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن الكبائر وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته :" إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء" (النساء، آية : ٤٨).

ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنتين :" فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ" (الزلزلة، آية : ٧).

ويخرج منها بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم من شفع له من أهل الكبائر من أمته، وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهي التي هبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق من سابق علمه.

وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته، وإن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً لعرض الأمم وحسابهم، وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد :" فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الأعراف، آية : ٨). ويؤتون صحائفهم في أعمالهم.

وأن الصراط حق يجوز بقدر أعمالهم فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليهم من نار جهنم وقوم أبقتهم فيها أعمالهم، والإيمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ترده أمته لا يظمأ من شرب منه ويزاد عنه من بدل وغير وأن الإيمان بحوض باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها فيكون بها النقص وبها الزيادة لا يكمل قول الإيمان إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة.

وإنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين.
وأن المؤمنين يفتنون من قبورهم ويُسألون :" يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ" (إبراهيم، آية : ٢٧).
وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله وآمنوا به ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم واتباع السلف الصالح واقتضاء آثارهم والاستغفار لهم وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليماً كثيراً[1].

هذه العقيدة السنية البهية كان الأمير عبد القادر يشيد بها ويحث عليها في حلقاته ودروسه وندواته وتدريبه في المسجد الأموي.

خ . لم يذكر أحد من العلماء المعصرين للأمير عبد القادر رحمه الله صحة نسبة كتاب المواقف إليه.

هـ . هناك من يقول إن الأمير قد أوصى أن يدفن بجوار قبر الشيخ ابن عربي، وهذا دليل على أنه كان يتبنى عقائده ومن ثم فهو مؤلف كتاب المواقف، وهذا غير صحيح لأن الأمير عبد القادر لم يوص قط بذلك، بل إنه اشترى أرضاً بطرف مقبرة الدحداح ليدفن فيها وأوقفها على ذريته ليدفنوا جميعهم وبجواره ولكن بعض مشايخ دمشق هم الذين أصرّوا على دفنه بجوار ابن عربي ظناً منهم أنهم يسدون إلى الأمير معروفاً وأما ذرية الأمير فما زالت تُدفن في مقبرة الأمير في الدحداح، إلى أن استولى عليها مكتب دفن الموتى والأوقاف.

د . كل من ذكر أن للأمير كتاباً اسمه المواقف مثل الشيخ محمد جميل الشطي في كتابه "أعيان دمشق" نقل ذلك من كتاب تحفة الزائر لمؤلفه محمد باشا الأبن الأكبر للأمير عبد القادر ونحن نعلم أن كتاب "تحفة الزائر" كتبه محمد باشا في حياة والده الأمير ثم حُرق

[1] شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني للأمين الحاج، ص: ١٦ ، ١٧ ، ١٨.

الكتاب كله بعد وفاة الأمير وضاع وحاول محمد باشا إعادة كتابته وأعانه بعضهم في ذلك فكان نتيجة ذلك ولرجوع الناشر إلى مصادر أجنبية غير دقيقة أن شمل كتاب "تحفة الزائر" الكثير من الأحداث المغلوطة ودخل فيه ما كان يزوره المزورون ويدسه المبطلون، فلا يمكن الاعتماد على ما فيه وخصوصاً نسبة كتاب "المواقف" للأمير عبد القادر بعد ذكر كل الأمور التي تنفي عن الأمير هذا الكتاب.

س ـ طبع كتاب المواقف بعد وفاة الأمير بثمان وعشرين سنة في القاهرة وكل المخطوطات الموجودة هناك وفي المكتبة الظاهرية بدمشق يقول ناسخها إنه نقلها عن المخطوطة الأصلية، ولم يكتب على أية مخطوطة اسم ناسخها بل يُذكر دائماً أن كاتبها مجهول أو لا يعرف والمخطوطة الأصلية ليست بخط الأمير بل مزورة عليه، فكيف نصدق المجهولين وكيف نقبل سنداً لكتاب معلول بعلل كثيرة الإنقطاع والجهالة والكذب والمخاطبة؟

وصدق القائل:

هل صح قول من الحاكي فنقبله

أم كل ذاك أباطيل وأسمار

أما العقول فآلت أنه كذب

والعقل غرس له بالصدق إثمار[1]

كان الأمير عبد القادر كعالم من علماء عصره أطلع على كتب ابن عربي ومنها الفتوحات المكية ووجد في إحدى نسخه تناقضات كثيرة، فظن أن شيئاً من التشويه والتحريف طال هذا الكتاب، فحاول التحقيق للوصول للحقيقة عن طريق النظر في

---

[1] المصدر السابق.

النسخ الأصلية، لا أن يعتمد أكاذيب وأفكار متناقضة لا مرجع لها ولا أصل وهذا ليس جديداً فقد برأ الشيخ سراج الدين البلقيني المتوفى عام ٨٠٥هـ بعد بحث مستفيض برأ الشيخ ابن عربي من القول بالحلول والاتحاد واعتبر العلامة جلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١هـ أن هناك دس مفضوح في آثار الشيخ ابن عربي كتب رسالة أهمها تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي، بيّن فيها على حد اجتهاده منهج الشيخ الذي لم يكن يحيد عن القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الأمير عبد القادر في دروسه يصحح وينفي عن الشيخ ابن عربي بالدليل والتحقيق، كتب نُسبت إليه وخارجة عن العقيدة الإسلامية مثل كتاب النعمانية والفصوص والفتاوى وكتاب الجفر، فبيّن أنها من أناس أعداء للحق وبالرغم من هذا الاهتمام والتحقيق بكتب ابن عربي وبيان المختلق والمنسوب إليه من خلال البحث العلمي، فإن اهتمامه بهذه الكتب ضئيلاً جداً أمام اهتمامه بعلوم القرآن والسنة النبوية ومنهج أهل السنة ولا يوجد دليل على أن الأمير عبد القادر عقيدته عقيدة ابن عربي وأنه يوافقه على كل الأفكار والتفاسير التي دونت في كتبه، كما أن الأمير لم يترك أية وصية لطبع كتب الشيخ ابن عربي والدليل على ذلك مادياً وليس عقيلاً فقط، فقد كتب وصية في حياته وأودعها المحكمة الشرعية بدمشق تحت رقم ٧٥٦ ورقمت الوثيقة بعد ذلك تحت رقم ٢٥٦ هذه الوصية فتحت بتاريخ الثاني عشر من شعبان ١٣٠٠هـ أي في شهر جوان ١٨٨٣م بعد وفاته بثلاثة أسابيع حسب الأصول المتعارف عليها، ولم يكن فيها أي ذكر لكتاب المواقف المزعوم، أو أي شيء مادي أو عملي يتعلق بتخصيص المال لطباعة كتاب أو غير ذلك، بل كان ما في الوصية هو تخصيص أموال معتبرة من إرثه للفقراء والمساكين ولنسائه ولأولاده[1].

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٩١.

إن ابن عربي شخصية جدلية بامتياز فكثير من العلماء ذكره بسوء واعتبروا الكتب المنسوبة إليه والتي تحتوي على عقيدة وحدة الوجود والعقائد الباطلة. هي كتبه وهناك من كان له أكثر من رأي في الموضع والعلماء الذين أنكروا على ابن عربي كلامه في " الفصوص" و"الفتوحات المكية" اعتبروها كتبه وقد ذكر منهم الدكتور دغش بن شبيب العجمي في كتابه "ابن عربي عقيدته وموقف علماء المسلمين منه من القرن السادس إلى القرن الثالث عشر" ذكر أكثر من مائتي عالم كلهم يثبت كلامه في الفصوص والفتوحات المكية لم يشيروا إلى أن شيئاً مما ذكروه مدسوس عليه لاسيما مع قرب عهد كثير منهم بابن عربي ومعاصرة بعضهم له، با إنهم أنكروا على من أنكر نسبة هذين الكتابين له أو زعم أنه قد دُس فيهما ما لم تخطه يمين مؤلفهما[1].

ويبدو أن العلامة البلقيني ٨٠٥هـ استقر في فتواه في ابن عربي: لا يجوز لأحد أن يعتقد في المذكور ولا يُثني عليه ولا يُحسن الظن به، لاستفاضة عقائده القبائح، وما ظهر عليه من الفضائح في "فصوصه" الزغل كم دسّ فيها من دغل وسم وزلل وفي "الفتوحات الهلكية" التي سماها "الفتوحات المكية" وفي غير مما اشتهر عنه من أردى المسالك، وقد أخبر عنه من يرجع إليه من العلماء الأعلام المشهورين بين الأنام بزندقته وسوء طريقته[2].

وهذا ابن تيمية يقول: وإنما كنت قديماً ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه لما رأيت في كتبه من الفوائد .. ولم نكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصودة ولم نطالع الفصوص ونحوه وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتبعه، ونكشف حقيقة الطريق فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا[3].

---

[1] ابن عربي عقيدته د. دغش العاجمي، ص: ٧٧٤.

[2] المصدر نفسه، ص: ٧٧٥.

[3] الفتاوى (٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).

وحاول بعض الناس أن يظهروا بمظهر العلماء المعتبرين وتصوفه صورة التصوف المبني على الزهد والإعراض عن الدنيا وأنه النموذج الذي يجب أن يحتذى وأكثر العلماء الذين أثنوا على ابن عربي لم يطّلعوا على كتبه، بل لم يروها سيما من كان معصراً له[1].

وهناك بعض العلماء من أثنى ابن عربي لم يطلع على كتبه ولم يعرف حقيقة مذهبه، ولكن بلغه ما يتناقله أصحابه من نسبته للزهد والورع والكرامات وغير ذلك، فأثنى عليه بناء على ذلك فمثل هذا يُعرف بحقيقة ابن عربي، ويوقف على كلامه من كتبه حتى يرجع عن ثنائه ومدحه[2].

وقال الحافظ تقي الدين الفاسي "ت: ٨٣٢هـ": وأما من أثنى عليه فلفضله وزهده وإيثاره في العبادة، وأشتهر ذلك عنه حتى عرفه جماعة من الصالحين عصراً بعد عصر، فأثنوا عليه بهذا الاعتبار، ولم يعرفوا ما في كلامه من المنكرات، لاستغالهم عنها بالعبادات، والنظر في غير ذلك من كتب القوم، لكونهم أقرب لفهمهم مع ما وفقهم الله تعالى من حسن الظن بآحاد المسلمين فكيف بابن عربي؟ وقد بان بما ذكرناه سبب ذمّ الناس لابن عربي ومدحه[3].

إن الأمير عبد القادر الجزائري لم يعتقد يوماً من الأيام لا بوحدة الوجود ولا الحلول ولا الاتحاد بل كانت عقيدته سنية صافية بهية ومال إلى القول بأن ما كتب في الكتب المنسوبة لابن عربي من عقائد فاسدة فهو من الأباطيل المنسوبة إليه، إن الأمير عبد القادر اشتهر بالتقوى والخوف من الله والإيمان به وباليوم الآخر وحفظ القرآن وهو في سن مبكرة من حياته، متزن صافي العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة مالكي المذهب متقيد بشرع الله في حياته الخاصة وأسرته ومجتمعه ودولته وما نسب إلى الأمير

---

[1] ابن عربي عقيدته ومواقف علماء المسلمين منه، ص: ٧٧٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ٧٨١.

[3] العقد الثمين (٢/ ١٩٧ ـ ١٩٨) باختصار.

من الرموز والحلول والاتحاد وغيرها من الرموز الصوفية ما هي إلا أباطيل واتهامات، وإتهامه بالحيرة وزعمهم أنه كان يكررها في كثير من كتبه.

ايا حيرتي وما الذي اضع

لقد ضقت ذرعاً فما ينفع

أكاد تراني منفطراً

جواهري مبثوثة أجمع

وما نسب إليه:

فحيرتي ما كنت كائنة

وحتى القيامة لا تقلع

فأشكو إلى حيرتي حيرتي

فليس إلى غيرها مفزع

إننا عندما نرجع إلى كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد نرى عقيدته الصافية وفكره الرشيد ومنهجه المستقيم ففي الفصل الخاص بإثبات الألوهية ذكر الحيرة بالحرف التالي: إن الفلاسفة جرهم الجدل العقلي إلى قصور وحيرة وهذا يناقض ما نسب إليه من فوضى فكرية ظلماً وعدونا، فالأمير عبد القادر نبراسه:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

حيثما سار سر وإن وقف قف

وقال من شعره العذب الجميل:

الحمد لله الذي قد خصني

بصفات كل الناس لا النسناس

الجود والعلم النفيس وإنني

لانا الصبور لدى اشتداد البأس

وتحدثي شكراً لنعمة خالقي

إذ كان في ضمني جميع الناس[1]

وهناك أمر مهم ويحدث كثير في ما يتعلق تشابه الأسماء فهناك غير الأمير عبد القادر من العلماء والأسماء المتطابقة مع اسمه وكتبوا كتباً وألفوا في مواضيع التصوف واختلط الحابل بالنابل على بعض الناس وألتبست الأسماء والمؤلفات على بعض الناس ومن هؤلاء العلماء عبد القادر بن محيي الدين الجيلاني المتوفى عام ٥٦١هـ وعبد القادر بن محيي الدين قضيب البان المتوفى عام ١٠٤٠هـ، وعبد القادر بن محيي الدين المتوفى عام ١١٥٠هـ، وعبد القادر بن محيي الدين الصديقي الأربلي القادري الذي عاصر الأمير وعاش بعده خمسة عشر سنة.

إن الأمير عبد القادر نسبت إليه أفكار ضالة وهدّامة بعد مماته وليس في حياته فأصحاب المناهج الضالة أردوه حلولياً اتحادياً مثلهم وأما الفرنسيون فأردوه صديقاً لهم يعترف بفضلهم عليه، ونسوا أنه جزء من شعب يعاني ويلات الاحتلال ووطن افتدته بروحي كما أمره خالقه وأرشدته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وهوية هذا الوطن ودينه وتاريخه وحضارته تعني له كل شيء في هذه الحياة[2].

إن الأبيات الشعرية التي وضعت في كتاب "المواقف" لا تمت إلى الأمير بصلة ليس لبعدها عن الجمال وإنما لركاكتها وفساد معتقدها وبعدها عن أسلوب الأمير في الشعر الذي اشتهر بعذوبته وسعة افقه الفني والتاريخي والديني والاجتماعي فأسلوبه من نوع السهل الممتنع.

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٩٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٩٤.

ولقد عالج الأمير في أشعاره وأبياته الحكيمة مختلف جوانب الحياة كما عاشها بحلوها ومرها ويظهر من خلال أشعاره تأثره العميق بكتاب الله عز وجل وظهرت في أشعاره فحولة الشعراء ورصانة الحكماء وما أحوجنا إلى أن نغرس في نفوس النشء الجديد من أبنائنا معاني العزة والشهامة والإباء والأصالة والشجاعة التي وردت في حكمه وأن نردد معاً قوله:

وما كل شهم يدّعي السبق صادق
إذا سيق للميدان بان له الخسر
وعند تجلي النقع يظهر من علا
على ظهر جردبل من تحته حمر
وما كل من يعلو الجواد بفارس
إذا ثار نقع الحرب والجوُّ مُغبرُّ
وما كل سيف ذا الفقار بحدّه
ولا كلُّ كرّار عليّا إذا كرّوا
وما كلُّ طير طار في الجو فاتكاً
وما كلُّ صيّاح إذا صرصر الصقر

ولا عجب في اعتزاز الأمير بتراثه العربي الإسلامي الأصيل، ولا عجب في اختياره التراكيب المنبثقة من بيئة أجداده العرب، مثل قوله "عند تجلي النقع" و "ظهر جردبل" واستشهاده بقادة المسلمين الذين ملأت أمجادهم الدنيا في قوله "ولا كلُّ كرّار عليّا"[1].

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٩.

٤. علاقة الأمير بالدولة العثمانية:

كان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطق شرعي، فهي كانت تمثل دولة الخلافة الإسلامية، والأمير لم يجعل دولته تابعة إدارياً لدولة الخلافة ولكنه كان تابعاً لها روحياً وكان أثناء حكمه يخاطب السلطان العثماني بكلمة "مولاي خادم حضرتكم ومقبل تراب أعتابكم".

وكان يكن الإحترام والتقدير للدولة العثمانية وسلاطينها ونظم الأمير قصيدة في مدح السلطان عبد المجيد فقال:

يا رب يا رب الأنام ومن
إليه مفزعنا سراً وإعلانا
يا رب أيد بروح القدس ملجأنا
عبد المجيد ولا تبقيه وحيرانا
ابن الخلائف وابن الأكرمين ومن
توارثوا الملك سلطاناً فسلطانا
أحي الجهاد لنا بعد ما درس
وضاعف المال أنواعاً وألوانا
فانصره نصرا عزيزاً لا نظير له
حتى يزيد العدا هماً وأحزانا
واحفظ علاه وأرسل يا كريم له
من الملائكة حفاظاً وأعوانا
واهدم وزلزل وفرق جمع شائنه
واجعل فؤادهم بالرعب ملآنا

وانصر وأيد مثبت جيش نصرته

أنصار دينك حقاً آل عثمانا

الباذلون بيوم الحرب أنفسهم

لله كم بذلوا أنفساً وأبدانا[1]

والضاربون ببيض الهند مرهفة

تخالها في ظلام الحرب نيرانا

والطاعنون بسمر البيد عالية

إذا العدو رآها شرعت بانا

والراكبون عناق الخيل ضامرة

تخالها في مجال الحرب عقبانا

والمصطلون بنار الحرب شاعلة

مطلوبهم منك يا ذا الفضل رضوانا[2]

ونظم قصيدة عام ١٨٥٣م والتي قال فيها فور وصوله إلى مدينة بروسة أقتطف منها:

الحمد لله تعظيماً وإجلالاً

ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا

وأشكر الله إذ لم ينصرم أجلي

حتى وصلت بأهل الدين إيصالا

وامتد عمري إلى أن نلت من سندي

خليفة الله افياء وأظلالا

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره بديعة الحسني، ص: ٨٨.

[2] المصدر نفسه، ص: ٨٨.

فالله أكرمني حقاً وأسعدني

وحط عني أوزاراً وأثقالا

هذه الأبيات دليل على ما كان يعانيه من ألم وسنيّ عمر في الأجواء الأجنبية واثقال من الحزن أجبر على حملها أثقلت كاهله فيشكر الله سبحانه وتعالى في هذه الأبيات بعدما غمرته شمس الحرية لتتوج صبره في وصوله إلى دار الخليفة الإسلامية.

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن

قد أكمل الله فيه الدين إكمالا

عبد المجيد حوى مجداً وعز على

وجل قدراً كما قد عم أنوالا

هذا مقام التهاني قد حللت به

فارتع ولا تخشى بعد اليوم أنكالا

يا رب فاشدد على الأعداء وطأته

واحم حماه وزده منك إجلالا

فرع الخلائف وابن الأكرمين ومن

شدوا عرى الدين أركانا وأطلال

كم أزمة فرجوا كم غمة كشفوا

كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالا[١]

إن كتاب "حياة عبد القادر" الذي كتبه شارلز هنري تشرشل شوه الدولة العثمانية من خلال خياله وأكاذيبه فالدولة العثمانية نظر إليها الأوروبيون المستعمرون في تلك الفترة كامتداد للفتوحات الإسلامية التي تناقض حضارتهم بما تمثله من قيم الفكر ومفاهيم اجتماعية واقتصادية ونظم إدارية وأساطيل بحرية كانت تنافسه أكبر أساطيلهم في البحار

---

[١] ردود وتعليقات على كتاب الأمير، ص: ١٥٤.

والتي كانت تشيد في كل بقعة من عالمهم مسجداً وتنقل إليهم الحضارة الإنسانية الإسلامية بجوانبها المتعددة، كان الأمير عبد القادر يكن لها الاحترام والتقدير لتمسكها بالمبادئ الإسلامية، ويعتبرها حصن الأمة المنيع الذي يحمي كيانها من أعدائها الطامعين بخيراتها ومقدساتها.

كان الأمير عبد القادر يحترم الخلافة من منطلق إسلامي ديني بحت وكذلك كان أبناؤه الذين كان يُعدون الإمبراطورية العثمانية، لذلك استمروا على علاقتهم الودية بالسلطان، ووصل أربعة من أبناء الأمير عبد القادر إلى لقب "باشا" وشغلوا مراكز مرموقة في عهده وكان الولاة يحترمون الأمير ويعترفون له بصلاحيات واسعة في إدارة بعض شؤون البلاد الشامية وخاصة ما يتعلق بالمهاجرين وكان يرى أن تصحيح الواقع والأخطاء في الحكم يتم بفضل رأي من هم أكثر حكمة بين العلماء والمفكرين المسلمين والأكثر قدرة على اقتراح الحلول المستنبطة من تجارب الماضي من جهة والمعتمدة على نظرة مستقبلية ثاقبة من جهة أخرى.

وكان يقول: الرجل العالم العارف يستطيع استشعار المستقبل من النظر والرجوع به إلى أحداث الماضي في ضوء التواتر، وحقيقة علم التواتر هي التفكير بمحسوس يمكن وقوعه من خلال هذا العلم والإنسان الذي أوتي العلم والمعرفة يستطيع أن يستشعر المستقبل بما يملكه من سعة الرؤية أمامه التي تمكنه إحساس وشعور وتنبؤ، وهو لدى بعض العلماء الفقهاء على جانب كبير من الدقة[١].

ولاحظ الأمير أن الضغوط تتزايد على الإمبراطورية العثمانية، وأن التغلغل الأجنبي عبر القناصل والعملاء التجاريين في البلاد الشامية خاصة أصبح مزعجاً لأصحاب الحرف والصناعات المحلية، وأن احتكارات المحلات التجارية من جانب الطوائف غير الإسلامية يزداد باستمرار بمساعدة الوكلاء التجاريين الغربيين وبنفوذهم، كما لاحظ أن البعثات

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٠.

الدبلوماسية تتدخل بشكل غير معلن في هذه المجالات، وأن نفوذها يتصاعد وأن السلع الأوروبية تغزو الأسواق وتنافس البضائع المحلية بتشجيع من بعض الولاة وبغض النظر من جانب بعضهم الآخر.

وكانت تلك الأمور تؤرق بال الأمير وهو يرى أن شبح الاستعمار ومآربه تقترب ليس فقط على المستوى الشعبي في هذه البلاد، بل إلى دار الخلافة في إسطنبول، وإلى مساجدها وإلى رسالة تلك المساجد وإلى مآذنها ونداءات "الله أكبر حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح" وأن الخطر الداهم يتهدد هذه الأماكن ومكانتها في بنية المجتمع الإسلامي، فكان الأمير في ندواته العلمية في الجامع الأموي وفي دار الحديث النووي وفي داره كان في كل هذه الأماكن يحث الجميع على الحذر من المؤامرات التي تحاك في الظلام، وكان يشير إلى النبع وهو الشريعة الإسلامية ويذكر قوله تعالى :" وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة، آية : ١٩٠).

وكان يبصر الوجهاء والأعيان بعواقب التفرقة بين أبناء الشعب الواحد، وبأخطار الصدام المسلح بين الطوائف وكان يدعوهم إلى عدم الوثوق بوعود الدول الأجنبية لأنه عهد لهذه الدول ولا ذمة ولا وفاء.

ونصح الجميع بالتمسك بالبعد الحضاري لهذه الأمة وبعدم التمادي في زرع الدمار والخراب والأحقاد وكل ما يدوي ويستفحل ويحترق ويصبح رماداً مما يجعل البلاد لقمة سائغة في فم الاستعمار وكان يتكلم وكأنه يقرأ هذا المخطط في كتاب أسود بين يديه، وينطوي هذا المخطط على ضرب الإمبراطورية الإسلامية العثمانية من الداخل وتفتيتها إلى دول تسهل الهيمنة عليها، ثم تحجيم الإمبراطورية العثمانية وبتر جذورها الإسلامية[١].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٠٣.

كان الأمير عبد القادر مهتماً بدعم الدولة العثمانية والتواصل مع خلفائها وسلاطينها، ففي شهر جوان من عام ١٨٦٥م عزم على السفر إلى الإستانة لزيارة الخليفة السلطان عبد العزيز خان، فاستقبلها وأكرمه وكبر به، فطلب منه أن يصفح ويسرح المنفن إلى جزيرتي قبرص ورودس اليونانية من الذين تورطوا في أحداث ١٨٦٠م بالشام، فلبى رجاؤه وصدر الأمر العالي بتسريحهم[١].

لقد كانت حياة الأمير عبد القادر مجموعة من المآثر الخالدة وأصبح بعد أن قضى على الفتنة الطائفية في سوريا محط أنظار العالم، وأمل دعاة استقلال العرب عن الدولة العثمانية التي تتالت هزائمها أمام روسيا، فاجتمعت الطليعة في بلاد الشام وبحثوا مصير سوريا وعقدوا المؤتمرات السرية في دمشق سنة ١٨٧٧م واقترحوا فصل البلاد عن الدولة العثمانية وتنصيب الأمير عبد القادر ملكاً عليها، لأنهم وجدوا فيه أملهم الوحيد لما يتمتع به من هيبة واحترام عند العثمانيين والعرب على حد سواء وبعد قضائه على الفتنة الطائفية نال تقدير جميع الدول الأجنبية واحترامها وهو الذي سبق له أن أنشأ دولة وقاد أمة وهو بالإضافة إلى ذلك العالم ذو المقام العالي والمجاهد ذو النسب الشريف.

وعندما عُرض على الأمير هذا الموضوع لم يتحمس له، ولم يرفضه ولكنه نصح أن يظل الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية قائماً وبدأت رسائل الزعماء اللبنانيين تتوارد على الأمير مبايعة ومنها رسالة من الزعيم اللبناني يوسف كرم الذي كان منفياً في إيطاليا، وأما المشروع الفرنسي الذي كان يرمي إلى إنشاء إمبراطورية عربية تمتد من شمالي بلاد الشام حتى قطاع عكا يرأسها الأمير عبد القادر، فقد رفضه الأمير بشدة في سنة ١٨٦٠م[٢].

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٨.

[٢] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٢٨.

رفض الأمير عبد القادر هذا المشروع لأنه مطلب فرنسي استعماري وبعد سبع سنوات عندما ظهر المشروع العربي القومي تردد أيضاً في قبوله، لأنه كان يحترم الخلافة الإسلامية من منطلق ديني وكان عدم تحمس الأمير لهذا الأمر ناشئاً عن احترامه لمبدأ الخلافة الإسلامية ثم جاء مؤتمر برلين وتولى عبد الحميد الخلافة وأصبح سلطاناً فتأخر والحل العربي[١].

٥. موقف الأمير من الفتنة الطائفية بدمشق:

أ. وضع الطوائف في بلاد الشام:

بلاد الشام تتميز بتنوع الطوائف واختلاف المذاهب وتباين العقائد، ففيها الأغلبية المسلمة السنية وفيها الشيعة والمسيحية التابعة لكنيسة روما من اليونان الأرثوذكس، والأرمن والجورجيين واليعقوبيين والبروتستانت ثم الأقلية اليهودية، وقد كان للموارنة الكاثوليك وضع خاص لارتباطهم بكنيسة روما مباشرة ولصلاتهم المتميزة مع دولة فرنسا، والعدد الأكبر من هذه الطوائف يتركز في جبل لبنان وفي فترة حكم محمد علي للشام في الأربعينات من القرن التاسع عشر، قام ابنه إبراهيم باشا باعتماد أسلوب إداري يقوم على مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات الأمر الذي أخل بالتوازن المتوارث، وأصر بالامتيازات والمكتسبات الاقتصادية والاجتماعية التي حققتها بعض الفئات على حساب الأخرى فكان ذلك تمهيداً لتعاون بعض الطوائف مع الدول الأوروبية مباشرة والتزود منها بالسلاح وبالمال دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية وسيادتها فسمح للإنجليز بالاتصال بطائفة الدروز، بينما ساندت فرنسا الطائفة المارونية وشجعتها على الوقوف ضد من يمس بمصالحها، مما هيأ الظروف للبداية حدوث الاضطرابات بعد ذلك بين طائفتي الدروز والموارنة منذ عام ١٨٤٥م، وبعد أن أصدر السلطان عبد المجيد عام

---

[١] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٢٩.

١٨٥٦م مراسيم عرفت بالخط الهمايوني الذي أقر نهائياً المساواة بين أفراد مختلف الملل والطوائف والأديان مع المحافظة على أحوالهم الشخصية أصبحت الأوضاع في مجمل بلاد الشام وخاصة مع حلول عام ١٨٥٧م تنذر بانفجار خطير، بدأت شرارته بعدما استولى فلاحون موارنة في شمال جبل لبنان على أراضي الاقطاعيين وامتنع موارنة الجنوب عن دفع الإيجارات إلى الملاك من الدروز واشتعلت الفتنة الطائفية في بلاد الشام في شهر جوان عام ١٨٦٠م واعتدى بعض الموارنة على الدروز فقام الدروز والغوغاء من الناس بإيعاز من بعض أشباه المشايخ وكبار القوم الذين يظنون أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة حجتهم في ذلك تجبر النصارى وتكبرهم وتجاوزهم حدهم وخروجهم عن العهود الذمية وتعلقهم بالدول الأجنبية، فراحوا يأخذون في كل حدب وصوب الثأر بالخرق والقتل والسلب ونهب الأهالي المسيحيين والراهبات والمبعوثين الفرنساويين في جبل لبنان وطرابلس وصيدا وزحلة ودير القمر واللاذقية وغيرها، وعاثوا في الأرض فساداً وفسقوا واعتدوا على البنين والبنات وخربوا القرى والمدن وسفكوا الدماء ونهبوا الأموال ومالوا عليهم كل الميل وبادرت لمساعدتهم والغنيمة معهم فرسان دروز الجبل الشرقي، تذبح النصارى ذبح الأغنام وتعتدي على الأموال والأولاد ودام هذا الأمر إلى غاية عيد الأضحى في شهر جويلية من عام ١٨٦٠م ولما هرب كثير من النصارى إلى دمشق، ظانين أن الحكومة سوف تحميهم من بطش الدروز، تغاضت الحكومة في بداية الأمر عن ذلك فزاد الدروز من طغيانهم وبطشهم والتخويف والتهديد والتنكيل بمن فر أو سكن في دمشق[١].

ب . لم يبق الأمير مكتوف الأيدي:

لاحظ الأمير أن الأمر قد خرج من أيدي الأعيان الوجهاء، وكان الأمير قد أعد للأمر عدته وتأهب لكل احتمال معاد، فجمع كل قادر على حمل السلاح من المهاجرين

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٩.

الجزائريين واشترى لهم السلاح وكان قد قام بتدريبهم على إخماد الحرائق، وعلى عمليات الإنقاذ الأولى، وعندما تناهى إلى مسامعه ذات صباح أن الجموع تتجه نحو حي القصاع استدعى فرسانه الأشداء وخرج هو وأبناؤه كلهم، وقام بنفسه حملة إخماد الفتنة الطائفية ووزع المهمات على رجاله، من شرفاء الناس وعلماء المسلمين وكبرائهم وغيرهم من أبناء دمشق المخلفين إلى حماية ما استطاع من المعتدى عليهم وإخماد الفتنة وفتح داره وبذل كامل همته بأمواله ورجاله وسلاحه، في خلاص من قدر عليه المهالك، ومرافقة من كان خارج الميدان إلى حصن الأمان في القلعة التي خصصها الوالي لحمايتهم، فكان الأمير وأتباعه من سكان الشام يطوفون على من كان في الميدان في سلامة وأمان ويذودون عليهم ليل نهار، يحرسون النصارى من الأشقياء والأشرار، وكان يواسيهم ويهنيهم بالسلامة ويطيب قلوبهم بالأمن والأمان[1].

وكان الأمير قد أصدر أوامره لحراسة أبنية السفارات الأجنبية في دمشق ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دور الأمير في حي العمارة "زقاق النقيب" وأشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ وإخماد الحرائق التي بدأت تشتعل في بعض المنازل في حي القصّاع وكان جنود الأمير يقتحمون النيران لإنقاذ السكان ونقل الأمهات والأطفال إلى الأديرة وكان الأمير يتجول بين الأحياء غير مبال برصاص القناصة والطلقات الطائشة وهو على ظهر حصانه يصدر الأوامر حتى بلغ عدد من نقلوا إلى دوره في حي العمارة خمسة عشر ألفا بين رجل وامرأة، وعندما غصّت الدار بهذا العدد الكبير من السكان نقل بعضهم إلى القلعة.

وفي اليوم الثالث من تلك الأحداث الفظيعة قامت الجموع بمهاجمة حي العمارة، فخرج إليهم الأمير وما أن وقعت عليه الأنظار حتى ألقى الله الرعب في قلوب الجموع المهاجمة فعادوا من حيث أتوا، وقبض فرسان الأمير على بعض منهم وكم كانت دهشة الأمير

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

كبيرة عندما اكتشف أن بينهم عدداً من المسيحيين اللبنانيين، فسأل شاباً كان يتقد حماسة هستيرية ما الذي جاء به إلى هذه المعركة المشينة؟ فأجاب بعد نقاش معه: وما السبيل إلى القضاء على هذه الدولة العثمانية سوى جعل الحكم غير مستقر في البلاد وزعزعة اركانه، إن فرنسا تزيد الأخذ بيدنا نحو حضارتها وما جنودها في ميناء بيروت سوى رسل لهذه الحضارة.

أمر الأمير عبد القادر بإخلاء سبيل هؤلاء وراعه أن يجد البلاد قد أصبحت في محنة حقيقية وكان عليه معالجة الأمر بما أوتي من شجاعة وحكمة وموهبة في القيادة والحوار مع أقطاب الحكومات الأوروبية[١].

جـ. وقوف الأمير ضد مخططات فرنسا في الشام:

احتجت الدول الأوروبية وهددت بالتدخل ففي ٢ أوت ١٨٦٠م اتفقت الدول الأوروبية على الوقوف بجانب النصارى وحمايتهم عن قرب وكانت ذريعة مباشرة لاحتلال الشام فتطوعت فرنسا لذلك لداعي قربها المذهبي من المسيحيين في لبنان ولكونها المشرفة على الكنائس في بيت المقدس وراحت بعد أسبوع ترسو بأسطولها الحربي في ميناء بيروت وتنزل قواتها وتهدد الدروز بتأديبهم وقصف دمشق وبذل الأمير كل ما في وسعه لتفادي الاحتلال[٢].

وبعد أن تأكد الأمير أن القوات الفرنسية وصلت إلى رياق في طريقها إلى دمشق، امتطى صهوة جواده خفية وأخذ يقطع الجبال والوديان لا يهاب وحشة الليل أو وعورة الطريق وعندما وصل إلى قرية "قب الياس" أرسل من يخبر الجنرال بوفور قائد الحملة الفرنسية بوجوب الاجتماع به، وعين المكان وكان مشهداً للقاء جزائري ـ فرنسي على مستوى سياسي وعسكري وطلب الأمير من الجنرال أن يخبر حكومته بأن دخول قواتها دمشق أو

[١] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٢٠٥.
[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٠.

قيامها بأي تحركات عدائية يلغي كل تعهد من قبل الأمير للإمبراطور لويس فيليب بعدم العودة إلى الجزائر، وأن الأمير سيكون أول المقاومين لأي حملة عسكرية تهاجم البلاد وكان على الجنرال أن يخبر حكومته التي أعادت حساباتها بعد هذا الإنذار، لأن إلغاء التعهد يعني احتمال عودة الأمير عبد القادر إلى الجزائر وعودة الحرب الضروس إليها[1].

هذه الفتنة التي كان المحتمل أن يذهب ضحيتها عشرات الآلآف من أبناء حيّ القصاع في دمشق في سبيل مخطط استعماري كان هدفه احتلال سوريا ولبنان بحجة الدفاع عن المسيحيين وإنقاذهم ولكن الأمير عبد القادر كان لهؤلاء المستعمرين بالمرصاد، فعمل على إخفاق ذلك المخطط وقضى على المؤامرة التي دُبرت بليل[2].

وأسرعت الدولة العثمانية فأرسلت فؤاد باشا وزير الخارجية إلى دمشق وفوضت إليه الأمر المطلق للقضاء على الفتنة فأجرى الأحكام العرفية وقبض على الألوف من أهلها غوغائها ومشايخها وكبرائها ورؤساء مجالسها وبعض باشاوات العسكر، فأمر برد المسلوبات وأخذ القصاص من المعتدين وأعدم وسجن ونفي من ثبت عليه الجرم، وقامت عليه البينة، وبعدها جرى الاتفاق مع فؤاد باشا على أن يعوض المسيحيون كل ما خسروه ومنح أهل الجبل حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية، يرأسها رجل نصراني لمدة ثلاث سنوات اقترحته الدولة العثمانية ووافقت عليه أوروبا، واستتبت الأوضاع وانسحبت فرنسا بقواتها في بداية صيف ١٨٦١م وكفى الله المؤمنين القتال[3].

وقد طلب فؤاد باشا وزير الخارجية من الأمير عبد القادر السماح له بتعيين كتيبة مسلحة من المهاجرين الجزائريين مهمتها الحفاظ على الأمن في دمشق وضواحيها، وعيّن قائداً لها

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٥.

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٧.

[33] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥١.

محمد بن فريحة أحد أبناء عمّ الأمير عبد القادر، وأجرى استعراضاً عسكرياً تقديراً للأمير على جهوده في وأد الفتنة، وتقدمت تلك الكتيبة الجزائرية بأسلحتها ذلك العرض[١].

س. الملوك والحكام يشكرون الأمير على فعله الجميل:

أرسل الخليفة العثماني الوسام المجيدي العالي الهمايوني من الرتبة الأولى إلى الأمير عبد القادر مع رسالة تقدير حملها إليه الصدر الأعظم علي باشا في السابع من صفر ١٢٧٧هـ الموافق لعام ١٨٦٠م[٢]، وكان مع فرمان الشكر والعرفان مكافأة مادية، ثم توالت رسائل الشكر وقصائد التهنئة من الأدباء والشعراء والعلماء والأعيان من المسلمين وغيرهم، منها رسالة من المجاهد الكبير قائد الجهاد في داغستان والشيشان الشيخ محمد شامل رحمه الله وأما النياشين والتشريفات والهدايا الأجنبية فكانت كالتالي:

. هدية من الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا الكبرى كانت بندقية مكتوباً على ظهر صندوقها عبارة: من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة بريطانية العظمة إلى صاحب السمو الأمير عبد القادر، تذكاراً للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة ١٨٦٠م، كانت الهدية مرفقة برسالة حررها قنصل دولة إنجلترا في دمشق المكلف من الحكومة الإنجليزية مؤرخة في أوت ١٨٦٠م.

. نيشان وسام الشرف من الرتبة الأولى من إمبراطور فرنسا نابليون الثالث، مرفق برسالة من وزير خارجية فرنسا عن الإمبراطور مؤرخة في ٣١ أوت ١٨٦٠م.

. النيشان الكبير رتبة أولى المدعو بنيشان المخلص من ملك اليونان أوتون الأول استلمه في شهر سبتمبر ١٨٦٠م.

. نيشان موريس والعاذر من قاربيالدي ملك إيطاليا الجديدة وهو أقدم نياشين الخيولية والفروسية استلمه في شهر سبتمبر عام ١٨٦٠م.

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٢٠٨.

. نيشان صليب النسر الأحمر من الطبقة الأولى من غيوم الأول ملك بروسيا، استلمه في ١٢ نوفمبر ١٨٦٠م.

. نيشان النسر الأبيض أعظم فرسان رتبة من طرف الملك الكسندر الثاني قيصر الروس استلمه في جانفي ١٨٦١م.

وقد وضع كل هذه الأوسمة على صدري وأخذت صوراً فوتوغرافية بها وهي الأوسمة التي قلدها الخليفة العثماني وضعها في أعلى الصدر وإلى أسفل منها بقية النياشين ولم تكن هذه الصور بالنياشين للتزين أو التفاخر والتكبر، بل كان الغرض منها أن تنشر في الصحف الأوروبية والعالم فيرى الناس صورة المسلم الحقيقي الداعية للسلم والأمان والذي يتعامل مع أصحابها المعاهدين من أهل الذمة وفقاً لأحكام شريعة الإسلام السمحة التي لا تسمح بالاعتداء عليهم وتقتيل العزل منهم، وتذكير وتحذير كل من سولت له نفسه العودة إلى مثل تلك المغامرات الخطيرة التي حدثت في بلاد الشام وهذه الأعمال من الأمير عبد القادر تدل على أن الإسلام بعيد كل البعد عن الحقد والتعصب وسفك الدماء للمسيحية من عاشوا في أوساط المسلمين مئات السنين بعقد الذمة ،ان حرب الأمير مع فرنسا كانت لكونهم غزاة معتدون لا لأنهم مسيحيون[١].

٦. علاقة المجاهد شامل الدغستاني بالأمير عبد القادر:

شاء المولى عز وجل أن يكون جهاد الإمام شامل ضد الروس في نفس الفترة التاريخية التي حمل فيها راية الجهاد الأمير عبد القادر وتشابهت أحوالهم، فالإمام شامل الدغستاني الملقب بأسد القوقاز وصقر الجبال، جاهد ضد جحافل الروس لمدة خمسة وعشرين سنة بعد أن نجح في توحيد القبائل، رغم تعدد مكوناتها الثقافية واللغوية، وعمل على تأسيس جيش حديث ووضع أسس إدارة منظمة حسب مبادئ الشريعة الإسلامية كما عرف بحنكته السياسية وفروسيته التي أبداها في الحرب واكتسب شرعية في ممارسة السلطة

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٢ . ١٥٣.

وقيادة المسلمين بوطنه وبين أهله عن طريق المبايعة، فجمع بين رضا الخاصة والعامة، مما سمح له بأن يلقب بأمير المؤمنين.

كان الأمير عبد القادر يسمع عن الإمام المجاهد شامل وعن جهاده وهو في الجزائر وتعرف عليه وحظى لدى الأمير عبد القادر بالتقدير والإحترام، ولم تشأ الأقدار أن يلتقوا جسدياً ولكنهما كانا متقاربين روحياً وفكرياً وثقافياً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»، كان الأمير عبد القادر يتبادل معه الرسائل طول مدة اعتقاله من عام ١٨٦٠م إلى ١٨٦٩م وكان يسعى بكل الوسائل وبكل ما لديه من معارف من أجل الحرص على مكانته وشرفه وإطلاق سراحه من الأسر، كانت للإمام شامل تربية دينية وورع وثقافة إسلامية متينة، درس العربية والفلسفة والفقه والأدب العربي وتعمق في التصوف السني وتشرب الثقافة الإسلامية وكان على معرفة واسعة بها، عاش حياة تميزت بالبساطة والتمسك بالعقيدة والتثبت بالوطن والوقوف بحزم وشجاعة أمام غزو أجنبي متفوق في المستوى الحضاري وفي العدد والعدة، ولد الإمام شامل علي ابن دنغو عام ١٧٩٦م في غامري بداغستان وتعلم في المساجد مبادئ العلوم الدينية واللغوية، وتفوق بشجاعته على أقرانه، وتمتع بقوة بدنية عظيمة وكان متعطشاً للمعرفة منذ صباه تأثر برفيقه ومعلمه الشيخ محمد الغمراوي المشهور بكنيته غازي مولا، داعية الإصلاح الديني، وصار من أتباعه ومريديه.

واستطاع توحيد المسلمين في داغستان والشيشان في الكفاح ضد الاحتلال الروسي الذي رسخ أقدامه في داغستان والشيشان مستغلاً الخصومات القبلية والتنابذ بين حكامها.

ففي عام ١٨٢٩م بدأ الإمام غازي ملا في تحريض شعوب الجبال للجهاد لوقف الزحف الروسي على أراضي المسلمين القوقاز، وأمام تماسك قوة المجاهدين، شن الروس هجوماً واسعاً وأحرقوا البيوت على ساكنيها كي يجبروا المجاهدين على الخروج والاستسلام وبعد مقتل غازي ملا عام ١٨٣٢م في معركة غمري المشهورة لم ينجو إلا القليل وكان منهم

الإمام شامل الذي تمكن من الفرار رغم غصابته البالغة واعتقد المجاهدون بمقتل الإمام شامل في المعركة، فاختير حمزة بيك قائداً بعد تزكيته من الشيوخ وبعد عامين في ترتيب الصفوف وتدعيم قوة الجيش لقي حمزة بك الهزيمة ثم اغتيل وهو يؤم المصلين في المسجد الجامع بمعقل الجهاد في خترخ بداغستان، فبويع شامل إماماً عام ١٨٣٤م وأعاد تنظيم جيشه بالطرق واستفاد من الأسرى الضباط والهاربين من الجيش الروسي في تطوير قدرته العسكرية على النمط الأوروبي الحديث، كما نظم العمل البريدي في دولته ونسق الانفاق على الجيش مع ريع الأراضي الزراعية التي ضمت إلى المساجد، كما نظم جمع الزكاة لتجهيز الجيش وبدأ في دعم ركائز نفوذه في القوقاز المعتمد على الشيشان وداغستان وحلفائهم، حتى امتدت منطقة نفوذه من بحر قزوين شرقا إلى البحر الأسود غرباً، كان الإمام شامل يسعى للمساواة بين القوميات المختلفة بغض النظر عن اللغة والعرق والطبقة واستمد التشريعات الشخصية والمدنية من الشريعة الإسلامية، وحاول أن يستفيد من القوى الدولية لمساعدته واستمر الجهاد باسلوب الكر والفر إلى أن نفذ شامل انسحاباً تكتيكياً إلى داخل جبال أفاريا وتوغل خلفها عبر الغابات الكثيفة وكان ينقض على العدو من جهات مختلفة واجه الإمام شامل جحافل الروس بالقوقاز وحقق انتصارات مدوية، ولقن الروس دروساً في فن الحرب، واستمات في الدفاع عن دينه ووطنه وخلال حرب القرم التي استمرت من عام ١٨٥٣م إلى ١٨٥٦م سعى إلى فتح خط اتصال بين كل من تركيا وإنجلترا وفرنسا لدعمه العسكري بعد أن تحالف معها في عدائها لروسيا، فمنحه السلطان العثماني رتب خانية قفقاسيا وأمده بالمساعدات العسكرية، ولما وضعت الحرب التركية الروسية أوزارها، بدأت القوات الروسية بتركيز ضرباتها العسكرية على الجبهة القوقازية فحرقت الغابات التي يحتمي بها المجاهدون، وألبت الأهالي عليهم، واستمالت عشرات القبائل التي أنهكتها الحرب والفقر والتشرد وتخلى عنه حكام المسلمين المجاورين له واشتد عليه الحصار واضمحلت قواته وقتلت إحدى أخواته وزوجته وابن

صغير له وبعد احتلال الروس للشيشان في عام ١٨٥٨م التجأ إلى قلعة فيدينو، ثم آوى إلى غونيت على وادي سالاك في أفريل ١٨٥٩م وفي معركة فاصلة انقض الروس على الثوار الأربعمائة الباقية معه، فحاصروهم من كل جانب فسقط جريحاً في ساحة المعركة، وبعد مقاومة مستميتة لأصحابه عرض عليه القائد العام للقوات الروسية وحاكم بلاد القوقاز الجنرال بريانتسكي الإنسحاب إلى الأراضي العثمانية وبعد أن توسط في المحادثات ضابط أرميني في جيش القيصر يسمى لازاريف طلب له الأمان من الروس في ٦ سبتمبر ١٨٥٩م فنال عهد أمان له ولأصحابه يضمن حريته وترك سبيله مع اتباعه الذهاب إلى الأراضي المقدسة بالحجاز، غير أن من أعطى له العهد وكلمة الشرف بإطلاق سراحه غدر به، فسلم أمره لمشيئة الله واستسلم للقدر بعد جهاد دام حوالي خمسة وعشرين سنة.

وفي العاصمة سان بطرسبيرغ استقبله القيصر الكسندر الثاني ثم نقل بعدها إلى كالوغا جنوب غرب موسكو سنة ١٨٦٩م ثم إلى مدينة كييف بأوكرانيا في سنوات الاعتقال الأخيرة، وبعد أن تدخلت في شأنه شخصيات لإطلاق سراحه أرغم العدو على الاعتراف بشهامته مواقفه البطولية، واستقبل من طرف قيصر روسيا ألكسندر الثاني مرة أخرى ورحب به في سان بطرسبيرغ واتجه إلى إسطنبول، ومنها ذهب إلى المدينة المنورة وتوفي بها في ٤ من فيفري ١٨٧١م وبذلك طويت صفحة ناصعة من صفحات التاريخ الإسلامي[1]، وخلال العهد الشيوعي في الإتحاد السوفيتي منذ أكتوبر ١٩٧١م حتى ١٩٩١م شنت حملة شرسة ضد جهاد الإمام شامل وخاصة منذ عهد ١٩٥٠م وصور لدى عامة الناس والجهال بأنه رجعي عميل للإمبريالية الأجنبية وجرت حملة ضخمة لتطهير كتب التاريخ السوفيتية من مسيرته وجهاده ونضاله وكفاحه غير أن الله يدافع عن الذين آمنوا حتى في مرقدهم فأنصفه العقلاء والعلماء والمؤرخون.

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٠ ـ ١٧١.

وأحسب أن مسار حياة الإمام شامل وحتى بعدما التحق بالرفيق الأعلى، في طبيعة جهاده وتخلي حكام المسلمين عنه، واستسلام القبائل المساندة له للعدو وطلبه للأمان، وغدر العدو وإخلافه للعهد والوعد واعتقاله بدون وجه حق وهجرته ووفاته في الغربة ومحاولة طمس ذاكرته الطيبة كل ذلك كان يشبه ويتطابق مع جهاد الأمير عبد القادر واعتقاله وغربته وتاريخه المجيد[1].

أ. رسالة من الإمام شامل إلى الأمير عبد القادر:

كان دفاع الأمير عبد القادر عن المسيحيين العزل بالشام محل تقدير واحترام عند عقلاء البشر من المسلمين وغيرهم ومن بين هؤلاء الإمام شامل الذي أرسل من منفاه بروسيا إلى الأمير عبد القادر رسالة جاء فيها:

إلى الذي اشتهر بين الجميع الكبار والصغار، الذي بصفاته المتعددة والرائعة يتميز عن باقي الرجال الذين أطفأ نار الخلاف قبل أن يستفحل أمرها، الذي اقتلع شجرة الشر والتي ثمارها ليست سوى وجه الشيطان المجد لله الذي منح خادمه القوة والإيمان أننا نتحدث عن الصديق الوفي الحقيقي عبد القادر العادل السلام عليك، ليحمل نخيل الاستحقاق والشرف على الدوام ثماره بشخصك لتعلم أن أذني قد صدقت بما هو مكروه على السمع وفظيع على الطبيعة الإنسانية وإني ألمح هنا إلى الأحداث التي جرت مؤخراً في دمشق بين المسلمين والمسيحيين حيث تصرف الأولون بأسلوب غير لائق باتباع الإسلام والذي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى كل أنواع التجاوزات أن غشاءه قد غطت روحي ووجهي الهادئ عادة وامتلأ بطلال من الحزن، كنت أصرخ لنفسي: الشر على الأرض وفي البحر بسبب شرور وحقد الإنسان.

لقد دهش من عموم الموظفين الذين أنغمسوا في مثل هذه التجاوزات الذين نسوا كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم في حق المعاهدين وحمايتهم ولكن عندما اطلعت على أنك

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٧٠ ـ ١٧١.

آويت المسيحيين تحت جناح الطيبة والمحبة وأنك تصديت للذين يتصرفون خلافاً لشريعة الإسلام وأنك ربحت سعف النصر في مسرح المجد "نجاح تستحقه عن جدارة" فإنني قدرتك كما الله تعالى العلي القدير سيباركك يوم لا ينفع مال ولا بنون والواقع أنك نفذت كلام الرسول الأكبر الذي أوفده الله تعالى كدليل على محبته لمخلوقاته المتواضعة وأقمت حاجزاً ضد أولئك الذين تخلوا عن مثاله الكبير ليحميك الله من الذين يخالفون شريعته في رغبتي بالتعبير لك عن الإعجاب الذي أكنّه لتصرفك أسارع بارسال هذه الرسالة كنقطة فائضة من ينبوع مشاعري الودودة[1].

ب . رد الأمير عبد القادر على رسالة الإمام شامل:

جاء فيها: .. هذه الكلمات من يد من هو بحاجة كبرى إلى رحماته الوافرة، عبد القادر بن محيي الدين الحسني موجهة إلى أخيه وصديقه في الله شامل الأمجد ليباركك الله أنت ونحن في بلادنا وفي خارجها، ليعم سلام وبركة الله علينا على الدوام.

لقد إستلمنا رسالتك المحترمة وكلماتك الطيبة التي أسعدت قلبنا إن ما سمعته بخصوصنا والذي منحك هذا القدر من الرضا حول دفاعنا عن المحتاجين، والحماية التي قدمناها لهم سواء لأشخاصهم أو لأملاكهم بقدر ما سمحت لنا به قدرتنا وامكانياتنا كل هذا كما تعلم جيداً ليس سوى طاعة لمبادئ إيماننا المقدس والمشاعر الإنسانية، إن الرذيلة مكروهة من قبل كافة الأديان والسماح لأنفسنا بالانقياد لها ليس سوى ابتلاع السم والاحتفاظ به في المعدة.

في حين أنه كما قال الشاعر: الرجل عند التجارب معصوب العينين بشكل يجعله يعتقد أن ما يراه هو الأنسب والواقع هو أن العكس هو الصحيح في الواقع أن علينا أن نكرر: إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

[1] فارس الجزائر الأمير عبد القادر ، مصطفى طلاس، ص: ٣٢١.

عندما نفكر إلى مدى قلة الرجال المؤمنين فعلاً وإلى أي مدى نادرون المدافعون وابطال الحقيقة عندما نرى أشخاصاً جهلة يعتقدون أن مبادئ الإسلام هي الشدة والصرامة والتجاوزات الوحشية آن الأوان لنكرر هذه الكلمات، الصبر جميل والله المستعان .. وقبل لنا أيضاً أنك طلبت زيادة الأماكن المقدسة، مكة والمدينة، ونأمل من الله أن يوفقك لتحقيق رغباتك.

الواقع أن إمبراطور روسيا هو أحد الملوك الأكثر احتراماً أنه أحد الذين يرغبون برؤية سيرة الأعمال المذكورة في الكتب، نأمل بالتالي بأن عظمته توافق على رغباتك دون عقبات. هكذا تصرف السلطان نابليون الثالث تجاهنا لقد اتخذ تدابير في صالحنا لا يمكن لعقل الإنسان تصورها ثم علينا أن نضع أملنا في الله وحده وهو وحده الذي يستحق احترامنا[1].

٧. الأمير عبد القادر والماسونية:

اتهم الأمير عبد القادر بأنه تعاطف مع الماسونيين ثم انتسب إلى محافلهم وقد روّج لهذه الدعاية الكولونيل وليام تشرشل صاحب كتاب "حياة عبد القادر" ولم ينقل بأمانه الكثير مما ذكر له الأمير عبد القادر من صفاء ووضوح تاريخه، ثم نقل عن وليام تشرشل هذه الفرية وأذاعها من العرب، جرجي زيدان ومن سار على نهجه الملتوي والخادع، وبجرة قلم أعلنت الحركة الماسونية بعد وفاة الأمير عبد القادر في ٢٦ ماي سنة ١٨٨٣م أنه انتسب إليهم واحتفوا به ونعتوه، ولكنهم لم يجدوا دليلاً واحداً يقدمونه لإثبات ما روجوا له ذلك، وزعموا أن هناك نصوصاً ماسونية موثقة تثبت انتماء الأمير للحركة الماسونية وأنه كلف من طرف الحكومة الفرنسية بمهمات إنقاذية للمسيحيين في الأحداث الدامية التي وقعت في دمشق في شهر جويلية من العام ١٨٦٠م، فقدر نابليون الثالث هذه المبادرة وقلد الأمير وسام الشرف الفرنسي وأرسل للأمير ما يسمى بالجوهرة أو الرمز المعدني عرفاناً للأمير بجهوده.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٣٢٤.

والحقيقة التاريخية تقول أن الأمير عبد القادر لم يكن يوماً ماسونياً ولا خادماً لفرنسا وقنصلها في دمشق والمبادرة التي قام بها الأمير كانت خالصة لوجه الله تعالى، ولم تكن لدنيا يصيبها أو وسام يبتغيه.

وأما بالنسبة للمحافل الماسونية مثل محفل هنري الرابع الذي أرسل إلى الأمير في ١٦ سبتمبر ١٨٦٠م كتابات شكر وتقدير وإعتراف للأمير في عدة رسائل أخرى بالحب للإنسانية جمعا والأخلاق الحميدة واقترح عليه أن يكون عضواً في الماسونية دون أن يكون عضواً مكرساً لأنه من الرجال العظماء فهذا ثابت تاريخياً ولا جدال فيه.

لكن من يستطيع أن يمنع أحداً من الكتابة للغير وأن يشكره ويقترح عليه أموراً قد يراها بصدق أو بنية مبيتة تناسب قدر من أقترحت عليه ويقدم له هدية، والأمير ليس له ذنب إذ حاولت المحافل الماسونية في كتاباتها ومحافلها أن تستفيد من اسمه وتكذب عليه محاولة من خلال هذا الإفك والكذب والزور البهتان أن ينشر أفكارها الهدامة في المجتمعات العربية والإسلامية بالمشرق[١].

لقد نسبوا إلى الأمير مقولة بأنه لم يلمس في المبادئ الماسونية ما يتعارض وشريعة القرآن الكريم والسنة والفقه الإسلامي وهذا من الافتراء والكذب المبين.

لقد حاولت الحركة الماسونية فعل كل ما في وسعها لتجعل الأمير عبد القادر أحد المنتسبين إليها ولكنها لم تفلح وكل ما ذكر في تاريخهم عن الأمير مثل الأسئلة عن واجبات الإنسان تجاه الله وتجاه الإنسانية أو الأسئلة حول خلود النفس والمساواة والإخاء والحرية أو حضوره في محفل الإهرام في الإسكندرية أثناء عودته من الحجاز في ١٨ جوان ١٨٦٤م، أو في محفل هنري الرابع للشرق الكبير الفرنسي في ٣٠ أوت ١٨٦٥م وقصة التكريس والامتياز والدرجات الماسونية الثلاثة وغيرها من أكاذيب، فلا أصل لها وهي من نسج خيالهم[٢].

---

[١] المصدر السابق.

[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٦.

قال تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" (الحجرات، آية : ٦).

لقد حاول تشرشل ومن سار على طريقته من أمثال جرجي زيدان وغيره ربط الأمير عبد القادر بالمحافل الماسونية ولكنهم عجزوا عن تقديم الدليل مما يبطل هذا الخبر المزعوم من أساسه.

. ألا يرى معي القارئ أن هدف هذه الكذبة هو أوسع مما يدركه الإنسان للوهلة الأولى ويعني الدعاية لهذه الجمعية في الجزائر بصورة خاصة وفي العالم الإسلامي؟ فهذا المجاهد هو رمز كفاح أمة وقدوة لعدد كبير من أبناء الشعب الجزائري والشعوب الحرة.

. هذه الكذبة أليست من فنون الدعاية البراقة التي تحتاجها الجمعية رأس الهرم فيها مجهول دوماً متعددة الشعارات والألوان في نظامها الداخلي الغموض والطاعة العمياء لرأس الهرم وربما رؤوس لا تشجع الالتزام بالدين، بل تعتبره عدوها الأزلي؟ وهذا المبدأ غير سري فيها، ففي عام ١٨٥٨م فتح في تونس محفل لأطفال قرطاجة برئاسة أنطونيو فينا، وعدد من المحافل جاءت من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ومحفل "المثابرة" برئاسة بامبيو، ولكن بعد استقلال تونس أمرت الدولة بإحراق وثائق المحافل وإغلاقها، وفي الجزائر كانت المحافل الماسونية سرية جداً ولم يعلن عنها، وعرفت من وثائقها أثناء الحرب العالمية الثانية حينما أمرت حكومة فيشي بحل الجمعيات السرية ومصادرة وثائقها فعرف أن محفل أطفال مارس سكيكدة فتح عام ١٨١٤م سرياً ومقره عام ١٩٢٦م في شارع يوغرطة برئاسة ألبيرت أوبارتين، وبولاية قسنطينة محفل "نجمة الساحل" عرف عام ١٩٠١م في بجاية ومحفل "أخوة كلاماً" في قالمة، الذي كان يحث في جميع محاضراته العلنية على الطاعة والعمل على تحقيق مجتمع إنساني متضامن حر بعيد عن الله وعن الدين، ثم محفل "سرتا" في قسنطينة ولا يعرف تاريخ لتأسيسه، وشعاره عين الإنسان تحتها مثلث وسطه نجمة خماسية ومطرقة، وفي هذه المدينة يوجد محفل "هبوبة" عرف عام ١٩٠٠م، ويذكر

الباحث الأستاذ يوسف مناصريه أن في الجزائر محافل أخرى منتشرة في الشرق الجزائري ومناطق القبائل في بيجاية وغيرها ومنها محفل "الوفاق الطائفي" بسطيف، ومحفل "جون جوريس" ومحفل "نوميديا" بسوق الأهراس، ويذكر الباحث أن غاية هذه المحافل هي الوحدة والهدف منها منع تعليم أبناء المسلمين اللغة العربية والقرآن في المدارس والكتاتيب بطرق سرية للغاية ولكن المعلن كان محاربة الأديان بشكل عام ويسحق هذه الأديان وإزالة رجالها من طريق الماسونية العالمية، وكان القصد من إشاعة أن الأمير عبد القادر كان من أعضائها هو انتشار هذه الفرية أو هذا الخبر الكاذب في الجزائر بعد ترجمة كتاب تشرشل إلى الفرنسية والدليل أنه في عام ١٩٠١م افتتح عدد من المحافل في الجزائر بشكل علني ولم يبق سريا منها مثلاً "محفل أطفال مارس بسكيكدة" تحت رئاسة "ألبير أوبارتين" وكما يذكر الباحث الجزائري يوسف مناصريه في مجلة الدراسات التاريخية في العدد السادس ١٩٩٢م في بحث له ودراسة عن المحافل الماسونية في كل من بجاية وكالمة وقسنطينة وعنابة وغيرها من المدن الجزائرية كما أسلفت.

. من المعروف عن هذه المحافل أنها لا تشجع على الالتزام بالأديان ولا تناصرها، وهذا الأمر لم تنتبه إليه حكومة فيشي في البداية ولكنه أدركته لاحقاً الحكومات التي جاءت بعدها لأنه يخدم الأهداف الاستعمارية في الجزائر بالقضاء على الدين الإسلامي بالدرجة الأولى والبعد عن لغة القرآن في نفس الدرجة وبالدرجة الثانية ساعد على انتشار أفكار ومبادئ، كحركة فكرية بديلاً عن الإسلام وحاولت أن تزرع في أذهان أبناء الوطن من أطفال وشباب ومثقفين "الإلحاد" وهي حركة فكرية لا تعترف بوجود الله الذي يعبده المسلمون.

. ألا يرى معي القاري الكريم أن هذا الأسلوب في الدعاية وجد نجاحاً إلى حد ما في الجزائر؟ فالمواطن العادي أو المثقف حينما سمع أن رمز كفاح بلاده انتسب إلى هذه الجمعية، من المسلم به أنه لم يجد غضاضة في انتسابه إليها، فلو أن هذه المحافل في الجزائر

لم تجد من ينتسب إليها، لأغلقت محافلها وعادت أدراجها، ولكنها وجدت على ما يبدو إقبالاً عليها وكيف لا تقتدي برمز كفاحها؟ ولكنها لو علمت هذه الجموع من أبناء الشعب أن هذا الخبر كاذب، وأنه من مزاعم مستشرق بريطاني، مزاعم تصب في مجرى تناقضاته بكتابة "حياة عبد القادر" لا نفضت عن هذه المحافل، كما حدث مع حفيد هذا المجاهد الأمير سعيد الذي أغرته شعارات هذه الجمعية في البداية وظن أن جده انتسب إليها فانتسب إليها ولكنه اكتشف بعد فترة أن جده لم يكن يوماً من أعضائها ولم ينتسب إليها، فنفي تلك التهمة في الصحف والمجلات وقام بنفي معلومة كاذبة ذكرت عن جده فنشر في صحف ذلك العصر نقداً لأعضاء هذه الجمعية في لجوئهم إلى الأكاذيب وذكرهم لأسماء شخصيات لم تنتسب إليها قط ومن هذه الصحف "الحقائق" عام ١٩٣٣م١.

. إن كل الرسائل التي جاءت من المحافل الماسونية من رسائل التقدير والإحترام بمناسبة إنقاذه خمسة عشر ألف مسيحي في دمشق والقضاء على الفتنة الطائفية تبين حقيقة واضحة هي عدم وجود أي نص أو إشارة في الرسائل المذكورة يُفهم منها أن المرسل إليه كان عضوا من أعضائها، فلا يوجد فيها ما يدل أو ما يُفهم منه أن المرسل إليه عضو من أعضائها أو أن له أية علاقة بها، أو أنه انتخب عضو شرف فيها كما جاء في رُقم الجمعيات الأخرى٢ فوافق على ذلك.

ففي عام ١٨٦٠م أرسلت الجمعية الفرنسية المعروفة باسم "جمعية عمل الخير وإعانة المصابين في البر والبحر" كتاباً بمناسبة دفاعه عن المسيحيين بالشام جاء فيها:

إن جمعية المصابين المؤلفة من أعيان الأمصار ووجوه المدن الشهيرة في فرنسا اتفقت كلمتها على أن يكون الأمير عبد القادر رئيس شرف لها اعترافاً بما أبداه من أعمال الخير الجسيمة في سوريا سنة ١٨٦٠م وبناء على ذلك بعثت إليه بهذه الرقيم في يونيو/ حزيران

---

١ ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير، ص: ٢٣٢.

٢ فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢٧٠.

١٨٦٢م وفعلت مثل ذلك الجمعية الأمريكية الشرقية فقرر مجلس إدارتها اعتبار الأمير عبد القادر عضو شرف فيها، وأرسلت إليه رقيماً في ١٨٦٠م وكذلك جمعية حماية المدن في فرنسا وفي تلك المناسبة ذاتها وصلت الأمير مئات من رسائل التقدير والأوسمة الرفيعة من حكام العالم وزعمائه ومفكريه ..الخ

. ومن المؤكد أن هذه الرسائل والرُقم والهدايا قد اطلع عليها أبناء الأمير العشرة وبناته الستة وأزواجهن وأولاد أخوته، وكان من بين هذه الأشياء كتب التقدير هذه المومي إليها من هذه المحافل التي انتهزت فيما بعد فرصة وجود الأمير في مصر في تشرين ثان من عام ١٨٦٩م عندما دعا إسماعيل باشا خديوي مصر الأمير عبد القادر لحضور حفل افتتاح قناة السويس، فتوجه الأمير إلى بيروت ومنها إلى الإسكندرية حيث اجتمع بأباطرة فرنسا والنمسا وألمانيا وملك إيطاليا، وعلى متن بارجة حربية وصلوا إلى ميناء بورسعيد لحضور ذلك الاحتفال التاريخي الكبير وفي تلك المناسبة زاره في مقرّ إقامته عدد كبير من الشخصيات العالمية وكبار رجال الفكر ومندوبو بعض الجمعيات الخيرية، كالجمعية الفرنسية وأوفدت إليه هيئة من أعضائها شرحت له مبادئ الماسونية وخدمتها للإنسانية[١]، ولكن الأمير أبداً لم يدخل فيها ولم يدعوا إليه وهو رجل العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدي الخلفاء الراشدين والحافظ للقرآن وصحيح البخاري والمعمق في كتب السلف وإنما كانت دعوته للإسلام كما بينا ذلك في كتابه المقراض الحاد، قال تعالى :" وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (فصلت، آية : ٣٣).

إن بعض المنتمين إلى هذه الجمعية اتخذوا بعد وفاته من تلك الزيارة ذريعة نسبوا للأمير دخوله في جمعيتهم من دون أن يتوفر لهم أي دليل.

---

[١] فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢١٧.

لقد قامت هذه الجمعية الغامضة إلى ذكر انتساب شخصيات تاريخية كبيرة إليها كدعاية ووسيلة لانتشارها، وكان ذلك يتم بعد وفاتهم، كما فعل المؤرخ البريطاني هنري شرشل فذكر في الفصل الأخير من كتابه خبراً وهمياً عن انخراط الأمير في هذه الجمعية، ومن المعروف أن شرشل كتب هذا الفصل "أي الرابع والعشرون" من كتابه المذكور بعد مغادرته دمشق التي كانت قبل حوادث ١٨٦٠م أي قبل الفتنة بعدة أشهر، وكتب الفصول الأخيرة من كتابه في إنجلترا ومنها الفصل الأخير "اي الفصل الرابع والعشرون" كما ذكرت، وقد اعترف شرشل بهذا في مقدمة كتابه المذكور حين قال إنه غادر دمشق في شهر شوال ١٢٧٦هـ / ربيع ١٨٦٠م وأن المعلومات عن الفترة الزمنية الممتدة بين ١٨٦٠م إلى ١٨٦٤م، أي الفترة التي كتب في أثنائها هذا الخبر قد أخذها عن شهود عيان من جماعة منتمية إلى هذه الجمعية وهذا يقلل من أهمية وصحة الفصل المذكور، فلم يذكر المؤلف أسماء شهود العيان أو أي دليل بهذا الخصوص وهذا أكبر برهان على كذب هذا الادعاء إذ لا يوجد أي مستند ولم يعثر على أي دليل مادي بين أوراق الأمير عبد القادر على صحة هذا الخبر ولو كان لدى الجمعية أي دليل لأظهرته للصحفي شرشل التابع للمخابرات البريطانية أو لمن يريد الكتابة في هذا الموضوع[1].

. إن الأمير عبد القادر رضي الله ربًّا وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً وعاش حياته منفذاً لأحكام الإسلام ولا يمكن للأمير أن ينخرط في جمعية غامضة من هذا النوع لكي يعمل الخير بواسطتها، يقول جرجي زيدان أن الأمير كان منتسباً إلى الجمعية الماسونية عام ١٨٦٤م.

إن هذه الأقوال كذب وإفتراء وإختلاق ما لها من دليل ولا برهان لم يستطع هو ومن سار في هذا النفق المظلم أن يأتي بدليل واحد على صحة أقوالهم[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٧١ ، ٢٧٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٧٣.

إن هذا المسلك الخبيث ضد الأمير عبد القادر محاولة فاشلة لتشويه جهاده وسيرته المجيدة فالمستهدف هو ما يمثله من قيم دينية ومثل وطنية وأخلاق ربانية ومبادئ إيمانية ومواقف إسلامية، فالأمير عبد القادر رمز للشعب الجزائري وللأمة الإسلامية والشعوب الحرة التي تسعى لنيل حقوقها وحريتها وكرامتها.

إن حياته صفحة بيضاء ناصعة ونقية طاهرة واتهاماتهم الباطلة تتساقط أمام الحقائق الراسخة وتتلاشى أمام الحجج الدامغة وتذهب جفاء لأنها زبد وسيرته العطرة تبقى نبراساً وقدوة وأسوة لأنها تنفع الناس، إن أعداء الأمة الإسلامية حرصوا على تشويه حتى سير الأنبياء والافتراء على تاريخهم وقد عانى من ذلك أيضاً صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أبي هريرة رضي الله عنه ولم يسلم أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم من الطعن والإفتراء والتشويه.

إن كل الذين إدّعوا انتساب الأمير عبد القادر إلى هذه الجمعية لم يقدموا أي دليل مادي أو مستند وثائقي يثبت صحة ادعائهم، ومنهم من يعتذر خشية الإطالة عن عدم تقديم الأدلة أو الوثائق ويكتفي بإبراز صورة الأمير عبد القادر المعروفة وهو يرتدي الأوسمة التي وصلته من ملوك ورؤساء العالم، وعلى صدره وشاح الفروسية الأحمر الذي أهداه إياه ملك إيطاليا فيكتور عما نوئيل مع الوسام الذي جاءه بمناسبة إنقاذ أرواح خمسة عشر ألف مسيحي في الفتنة المشهورة، وهذا من دون أي تعليق سوى عدم الرغبة في الإطالة والحقيقة أن هذه الحجة هي أيضاً باطلة لأنه لو توافرت الوثيقة مهما كانت لما أحجموا عن ذكرها والحقيقة أنه لا يوجد أي مستند سوى أقوال تدخل في باب "القيل والقال" نقلاً عن مصدر بريطاني بقصد الدعاية لهذه الجمعية وخدمة غايات استعمارية مكشوفة.

فكثير من المستشرقين كانوا يقدمون خدمات قيمة لبلادهم تشجعهم عليها حكوماتهم لأغراض استعمارية غير خافية ولكن مما يؤلم أن نرى أكاذيبهم وقد تناقلتها أقلام مؤلفين من أبناء أمتنا وكأنهم أفعى ظفرت بصيد ثمين.

لم يكلف أحد من المؤرخين الذين نسبوا للأمير انتسابه إلى هذه الجمعية نفسه عناء البحث والتمحيص، فذكروا ما ذكروه نقلاً لا تحقيقاً وبحثاً من دون أن يقدموا مستندات أو حقائق علمية ما جاؤوا به[1].

. ومن الأدلة الدامغة التي أوردها الدكتور فؤاد صالح السيد مقال للأمير سعيد حفيد الأمير، فيه نفي صريح وشديد وتبرئة للأمير عبد القادر مما نسب إليه في هذا الموضوع ومما جاء في نص الأمير سعيد في مجلة الحقائق في سنة ١٨٦٩م دُعي الأمير عبد القادر مع من دُعي من ملوك لحضور احتفالات فتح ترعة السويس وبينما الأمير عائداً لسوريا عن طريق الإسكندرية اغتنمت الجمعية الماسونية فرصة وجوده في ذلك القطر فأوفدت إليه هيئة من أعضائها تكلمت أمامه عن مبادئ الماسونية وخدمتها للإنسانية، فأثنى الأمير على ما ادّعته من خدمات للإنسانية فاتخذ بعض المنتمين لهذه الجمعية من هذه الزيارة إشاعة حسنة لدخول الأمير في جمعيتهم وبالتأكيد هذا الزعم باطل، ولا يليق بهذا الجمعية، فهو كذب وبهتان ومن المعلوم أن جمعية الماسون لها نظام كسائر الجمعيات في العالم ولا يدخل أحد بها إلا بطلب رسمي يسجل على أنه دخل بإرادته، فأين طلب الأمير الذي يجب أن يطبع على حجر كما جاء في نظامها المعروف؟

. وفي هذا العصر ألف أحد الكتاب الفرنسيين مع اثنين جزائريين كتاباً وضُع فيه ثلاث أو أربع رسائل رغم أنها من الأمير إلى الجمعية، قُلدّ فيها خط الأمير وزوّر توقيعه مع العلم أن تقليد خط الأمير عبد القادر من قبل الفرنسيين وغيرهم أصبح من استراتيجيتهم التي غايتها خدمة أهدافهم، ولقد فضح الدكتور صالح الخرفي عام ١٩٧١م في مجلة الثقافة

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٧٧ ، ٢٧٨.

الجزائرية في عددها الرابع هذه المؤامرة القديمة على فكر الأمير عبد القادر، وذكر الدكتور من أسماء من يرعوا في هذا الفن، فن تقليد خط الأمير منهم هنري بيريس و شيربونو، الذي كان في الجزائر الوصي على اللغة العربية وتقليد أنواع خطوطها قبل استقلال الجزائر[1].

إن اتهام الأمير عبد القادر بالانتساب إلى الماسونية تتهاوى أمام البحث العلمي ولا وجود لها في حقائق التاريخ وإنما تدخل ضمن الحرب الاستخباراتية في تشويه رموز النضال والكفاح والجهاد في هذه الأمة، ويأبى الله إلا أن تظهر الحقيقة بأنوارها لتزيل ظلام البهتان والأكاذيب الشيطانية.

٨. من شعر الأمير عبد القادر في زوجته:

أ. هذه الأبيات يخاطب فيها الأمير الشاعر زوجته ابنة عمه:

ألا قل للتي سلبت فؤادي
وأبقتني أهيم بكل واد
تركت الصبَّ مني ملتهباً خشاه
حليف شجيً يجوب بكل ناد
وما لي في اللذائذ من نصيب
تودّع منه مسلوب الرقاد
أقاسي الحب من قاسي الفؤاد
وأرعاه ولا يرعى ودادي
أريد حياتها وتريد قتلي
بهجر أو بصدّ أو بعاد

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٨٠.

وأبكيها فتضحك ملء فيها

وأسهر وهي في طيب الرقاد

وتعمى مقلتي إما تناءت

وعيناها تعمّى عن مرادي

وتهجرني بلا ذنب تراه

فظلمي قد رأت دون العباد

وأشكوها البعاد وليس تصغي

إلى الشكوى وتمكث في ازدياد

وأبذل مهجتي في لثم فيها

فتمنعني وأرجع منه صاد

وأغتفر العظيم لها وتحصي

عليّ الذنب في وقت العداد

وأخضع ذِلّة فتزيد تيهاً

وفي هجري أراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عزّ

وما أنفكّ في ذُليّ أنادي

فما في الذل للمحبوب عار

سبيل الحب ذُلّ للمراد

رضا المحبوب ليس له عديل

بغير الذل ليس بمستفاد

إلا من منصفي من ظبي قفر[1]

---

[1] ظبي قفر : غزل البرية.

لقد أضحت مراتعه فؤادي

ومن عجب تهاب الأسد بطشي

ويمنعني غزال عن مرادي

وماذا غير أن له جمالاً

تملّك مهجتي ملك السواد

وسلطان الجمال له اعتزاز

على ذي الخيل والرجل الجواد

وهذا الفعل مغتفر وزين

إذا يوماً أبيت على معاد

فإن رضيت عليّ أرت محيّاً

بشوشاً بالملاحة ظل باد

خليلي إن أتيت إلي يوماً

بشيراً بالوصال وبالوداد

فنفسي بالبشارة إن ترمها

فخذها بالطريف بالتلاد

إذا ما الناس ترغب في كنوز

فبنت العم مكتنزي وزادي[1]

وقال أيضاً في ابنة عمه زوجته هذه القصيدة:

إلام فؤادي بالحبيب هتور[2]؟

ونار الجوى بين الضلوع تثور

---

[1] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٣٠٤.

[2] هتور : مولع دنف

وحزني مع الساعات يربو مجدّداً
وليلي طويل والمنام نفور
وحتى متى أرعى النجوم مسامراً
لها ودموع العين ثمّ تفور؟
أبيت كأني بالسماك موكل
وعيني حيث الجديّ دار تدور[1]
أود بأن أرى ظبي الصحارى[2]
وأرقب طيفه والليل سار
وأطلب قربه فيزيد بعداً
قديماً من وصال في نفار
وهذا الظبي لا يرعى ذماماً
ولا يرضى مؤانسة لجار
يتيه بدلّه ويصول عمداً
غني بالجمال فلا يداري
أمازحه فلا يرضى مزاحاً
وأسأله المراء فلا يماري
ويعتبني[3] فيكسو القلب بسطاً
لأن العتب يطفي حرّ ناري
فإن هو لم يجد بالوصل أصلاً
ويدني الطيف من سكني وداري

---

[1] السماك : نجم معروف ، والجدي : برج من أبراج السماء.

[2] ظبي الصحارى : غزال الفلوات.

[3] ويعتبني : يقبل عتابي.

أقلّ للنفس ويك ألا فذوبي
ومولي فالقضاء عليك جاري
ويسلبني الحياة إذا تبدَّى
بوجه في الإضاءة كالنهار [1]

٩. أيامه الأخيرة ووفاته:

كانت أيامه الأخيرة يغلب عليها الهدوء والبساطة والنظام الدقيق وكان يستعد للقاء الله عز وجل وينتظر الأجل ومنذ حجه عام ١٨٦٢م وأصبحت حياته تميل إلى الزهد والعبادة والعلم والتعليم ومساعد الناس.

كان الأمير عبد القادر يستيقظ قبل الشروق بساعتين وينصرف إلى الصلاة وتلاوة القرآن والأذكار والتفكر في فقه القدوم على الله عز وجل ويبقى حتى شروق الشمس وبعد صلاة الشروق يعود إلى منزله ويتناول وجبة خفيفة ثم يعمل في مكتبه حتى الظهر وآذان الظهر يدفعه إلى المسجد من جديد حيث يكون تلاميذه قد تجمعوا بانتظار وصوله فيأخذ مقعداً ويفتح الكتاب الذي اختاره للمناقشة ويقرأ فيه بصوت عال تقاطعه باستمرار طلبات الإيضاح التي يقدم الأجوبة عليها فاتحاً الكنوز العديدة في الدراسات والأبحاث التي تجمعت لديه طيلة حياته المديدة.

وبعد صلاة العصر يعود عبد القادر إلى منزله حيث يمضي ساعة مع أولاده . مستوضحاً عن النتائج التي حصلوا عليها في دراستهم ثم يأكل وعند غروب الشمس يعود من جديد إلى المسجد حيث يدرس لمدة ساعة ونصف وتنتهي مهمته كمدرس لذلك اليوم ومازالت لديه بعض الساعات يقضيها في المكتبة ثم يذهب ليرتاح.

[1] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٣٠٥.

وكان الأمير عبد القادر دقيقاً أيضاً في إحسانه كل يوم جمعة كان بالإمكان رؤية الشارع المؤدي إلى منزله مليئاً بالفقراء المجتمعين كالعادة لتوزيع الخبز وكان الفقراء الذين يموتون مفلسين تماماً ليس في حيه فقط وإنما في دمشق كلها يدفنون على نفقته، ويكفي أن يسمع بمعاناة إنسان ليسعفه فوراً وكان يكرس بصورة مستمرة جزءاً من ماله للأعمال الخيرية.

استفاد من ذهابه الآخير للأراضي المقدسة وحج مرتين وبقي في مكة والمدينة تلك الفترة المتواصلة، استقبله شريف مكة وأمر بتخصيص غرفتين له في الحرم واستفاد من العلماء والعباد واجتهد في طلب العلم وفي العبادة، وبقي في مكة اثني عشر شهراً متتالية وصرف كامل وقته للدراسة والصلاة والتأمل والصيام وملاقاة العلماء والزهاد وطلاب الآخرة ثم بعد ذلك ذهب إلى المدينة بقي بها أربعة أشهر على مقربة من المسجد النبوي ثم عاد إلى مكة للحج من جديد وكانت تلك الرحلة زاداً روحياً لبقية حياته حافظ على ذلك حتى أيامه الأخيرة[1].

أ. مرض الأمير عبد القادر ووفاته:

مع تقدم سن الأمير واعتلال صحته خفّ نشاطه وجهده وعمّت الإشاعات عن حالته الصحية وذهبت بعض الصحف إلى حد إعلان وفاته عام ١٨٨٠م فرثاه الشاعر محمد إسحاق الأدهمي الطرابلسي، واطلع الأمير على ذلك وكتب يشكره وكذلك الجرائد على اهتمامها به وتقديرها له وكان ذلك مبعث للسرور للأمير في نفسه فقد علم بأنه بعد مماته سوف يكون له ذكر حسن " وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ".

وأثناء تلك الأيام زاره الأديب التونسي محمد السنوسي، فأكرمه وأحسن ضيافته وذكر الأديب التونسي جزءاً من سيرته ومرضه بعد ذلك في كتابه الرحلة الحجازية.

---

[1] فارس الجزائر الأمير عبد القادر، ص: ٣٢٧ . ٣٢٨.

وفي بداية شهر ماي ١٨٨٣م وكان معتكفاً بمصيف دمر في داره يتهجد ويتبتل لربه، اشتد عليه مرض المثانة وحصر البول، فزاده الضعف والهرم وفي منتصف ليلة السبت ٢٦ ماي ١٨٨٣م دعاه مولاه وقبضت روحه وحان أجله وغسله نزيله وضيفه الشيخ عبد الرحمن عليش الأزهري وفي الصباح نقل في عربة من قصره في دمر إلى داره بالشام وصلى عليه في المسجد الأموي في مشهد قلّ نظيره وخرج لتشيعه جمع كثير وجمع غفير مع الخضوع والتذلل وشيعته دمشق عاصمة الأمويين في موكب مهيب وبدموع وقصائد رثاء سطرت بمداد مضيء، ويكتب مقالات جاءت لتكون اعترافاً بمكانته النضالية والفقيهة والإنسانية وتكريماً لهذا البطل من الله عز وجل على لسان سكان هذا الكوكب[1].

قال تعالى :" وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" (النحل، آية : ٤١).

ودفن في الصالحية من دمشق أسفل جبل قاسيون بحي المهاجرين[2]

ب . رثاء في الأمير عبد القادر:

. ومن الشعراء الذين رثوه الشيخ العلامة الكبير طاهر الجزائري فقال في رثاه:

خطب تبدلت الدموع به دماً

وجرى كغيث هاطل مدرار

وغدت به الأكباد وهي كليمة

حرّاء حامية كجذوة نار

إلى أن قال:

وا حسرتا لليل من ذا بعده

يحييه بالطاعات والأذكار

ذهب الذي قد كان برّاً عابداً

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٨٠.

[2] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٢٤٥.

مستغفراً لله في الأسحار

لهفي على الفقراء من ذا بعده

ينجيهم من مخلب الإعسار

ويرد ناب البؤس عنهم نائياً

وينيل ما راموا من الأوطار

لهفي على الأيتام ماذا بعده

يلقون من ضنكٍ ومن إقتار

ذهب الذي قد كان خيرا أب لهم

يوليهم فيض الندى المدرار

لهفي على الأدباء من ذا بعده

يلقونه ببدائع الأشعار[1]

. ورثاه من أدباء عصره الأديب حسن بيهم من وجهاء مدينة بيروت، فقال في قصيدة من ستين بيتاً منها:

مصاب به العلياء تبكي أميرها

وكل أمر من ذا المصاب به شطر

به جاء ناعي البرق يرعد قلبنا

فأمطرت الآماق ما ضمه الصدر

أجل مات عبد القادر الحسني من

به سادت وافتخر الفخر

قضى العمر شغلاً لم يذق طعم راحة

وما شغله إلا الجهاد والذكر

---

[1] فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢٣٢.

يراقب وجه الله في كل حالة
وما للهوى نهي عليه ولا أمر
غدا في جوار الله أكرم نازل
وبين ملوك الأرض كان له الصدر
به ملتقى البحرين للعلم والندى
ففي صدره بحر وفي كفه بحر
وإن أعمل الصمصام أنشد وقعه
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
وإن شق قلب الحرب يوم كريهة
يرى الموت طوعاً أو يرافقه النصر
فقدناه والآمال ترجو بقاءه
وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر
وساعة ساروا يحملون سريره
قد عرفوا من هولها ما هو الحشر
ترى الناس غرقى في بحر دموعهم
على أنه هول به أقفر البر
لئن مت يا مولاي والموت سنة
ففضلك باق في الأنام له الذكر[١]

ج. نقل رفات الأمير إلى الجزائر عام ١٩٦٦م:

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

لم تنتهي ملاحم الكفاح وبطولات الجهاد ونضال الأبطال بالجزائر يستلهمون الصبر والعزيمة جيلاً بعد جيل من عقيدتهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم، وتاريخ آبائهم واجدادهم سيأتي تفصيل نضال الشعب الجزائري ضد الاحتلال من بعد الأمير عبد القادر في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

لقد استمر الشعب في الكفاح وقدم قوافل الشهداء فأصبحت ثورة تعرف بثورة مليون ونصف مليون شهيد واحتضن الشعب بجميع فئاته وأحزابه هذه الثورة وغذاها بالقوة والرجال إلى أن يئست فرنسا من النصر وكان الجنرال ديغول قد وصل إلى الحكم وأصبح رئيساً للجمهورية الفرنسية وقدّم عدة مشاريع لإنهاء الثورة لصالح فرنسا، فباءت جميعها بالإخفاق الذريع وأخيراً اضطُرّ إلى تقديم مشروع الاستفتاء فنالت الجزائر على إثره استقلالها التام وانتصر الحق وزهق الباطل " إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا".

وأخذت جحافل المستعمرين المنهزمين تغادر البلاد بعد مائة وثلاثين عاماً من الاحتلال، وخرج آخر جندي ومستوطن فرنسي، وعادت الجزائر حرة مستقلة بفضل الله سبحانه وتعالى، وبفضل تضامن أبنائها ووحدتهم الوطنية والدينية، ووقوفهم ضد المستعمرين كالبنيان المرصوم

ولم ينس أبطال الجزائر وثوارها وحكومتها، وزعمائها رفات الأمير عبد القادر فقد كانت سيرته الجهادية وأخلاقه الربانية ملهمة لهم وأصروا على نقل رفاته من دمشق إلى الجزائر وتواصلوا مع الدولة السورية وتم الاتفاق.

وفي احتفال شعبي ورسمي نُقل رفات الأمير عبد القادر وهو في الواقع ليس رفاتاً، بل تراث وتاريخ ونضال وكفاح وجهاد من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء بعد أن أصبحت دار سلام ليُوارى في التراب الذي روته دماء جروحه وتضحيات إخوانه وجنوده وابناء جيله في ملحمة نادرة في تاريخنا المعاصر.

سار الموكب المهيب في شوارع دمشق وراء النعش الملفوف بالعلم الجزائري على عربة مدفع تتقدمها فرقة موسيقى الجيش وفرق رمزية من الجيش السوري تمثل جميع أسلحته إلى المطار، وعندما هبطت الطائرة التي تُقله في مطار مدينة الجزائر كان الملايين من الشعب بانتظارها، وعند سُلّم الطائرة وقف رئيس الجمهورية وكافة الوزراء وأعضاء جبهة التحرير، وما إن أطل جثمان الأمير الملفوف بالعلم الجزائري حتى امتدت أيادي رئيس الجمهورية والوزراء لتحمله وفي تلك اللحظات علت أصوات عشرات الآلاف من الجزائريين "الله أكبر" تشق عنان السماء وكانت ترافق الهتافات زغاريد النساء كما كانت دموع الفرح تملأ ما في الجميع وتسيل مدراراً[١].

لقد قال الأمير عبد القادر لحظة الغدر به واعتقاله، إن الجزائر عربية وستبقى عربية حتى لو احتليتموها مائة سنة، ويقال: أن التاريخ لقاء بين إرادة وحدث أما الإرادة فكانت عبد القادر ومقاومته الشعبية، وأما الحدث فكان بعد قرن من ذلك وهو كفاح الشعب الجزائري الذي نجح في التحرر من الغزاة المستعمرين.

وقد نظم الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي قصيدة عصماء حيّا بها دمشق الفيحاء بقوله:

يا دمشقُ الفيحاء الف تحية
قد عرفناك في الندى أُموية
أي بُشرى حملتها لبلادي
برُفات الأمير أي هدية
وهو من قد سعى إليك اشتياقاً
يستحث الخطى ليلقى الحمية

---

[١] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٧٦.

إنما قد رعيت حق إخاء

عربي يا أختنا العربية

فاته أن يعود للدار حيّا

ويرى الدار في الكرامة حيّة

ثم قال مخاطباً الجيش الجزائري:

انزلوا في العيون أو في الحنايا

يا جنود الأمير هدي البقايا

أيُّ قبرٍ يضمها وهي أُفقٌ

من معالي وقمة من سجايا

من عُلاها استمد جيشُ بلادي

ذلك العزم يوم خاض المنايا

فدعوها منارة من سناها

يتلقى الهُدى جميع البرايا

هي ليست كما سمعتم رُفاتاً

بل تُراث مقدساً وعطايا

وقال مخاطباً روح الأمير:

أرجع الطرف غير هذي البطاح

لن ترى يا أمير غير النجاح

ذهب الغاصبون لا دو ميشيل

ولا دورليان ولا صليل السلاح

مات بيجو وألف بيجو وأوّدى

كل جيش رمته هُوجُ الرياح

غبت لكن بقيت في كل شخص

ماثلاً في القلوب والأرواح

لم تغب عن عيونهم في مكان

كلُّ شبر ظنوه "خنق النطاح"[1]

أنت في كل ثائر كنت تحيا

عبقريا محنّكاً في الكفاح[2]

ح . كلمة الرئيس عبد العزيز بو تفليقة التي ألقاها عام ١٩٩٩م بمناسبة إحياء الذكرى ١٦٧ لمبايعة الأمير عبد القادر هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين

السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته

لقد جئناك في الموعد وفي المكان وفي البقعة المباركة بالذات التي تمت فيها مبايعتك في ٢٧ من نوفمبر ١٨٣٢م. جئناك بمثل ذلك الحماس الصادق الجياش الذي كانت تطفح به قلوب أولئك الجزائريين والجزائريات الذين وضعوا ثقتهم وأموالهم في إمام الجهاد والمجاهدين عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى المختار الحسني فبايعوه بالإمارة ليقود جهادهم ضد العدو الغازي ومسيرتهم المظفرة نحو الغد الأفضل.

[1] خنق النطاح : معركة انتصر فيها الأمير على فرنسا.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٧٧.

وكيف لا يغمرني الفخر والاعتزاز وأنا أقف وقفتي هذه بهذا المكان وأمام الشجرة المباركة الثابتة في عهدنا هذا الذي استعاد فيه بلد الأمير عبد القادر كامل سيادته وحريته وكرامته بفضل وفاء الأجيال المتعاقبة المتواصلة التي تمسكها بالعهد المقدس الذي قطعه شعب برمته على نفسه وأودع مضمونه في أعماق ذاكرته الجماعية متواصيا جيلاً بعد جيل بالوفاء له والالتزام به ليتوارثه أبناؤه البررة اباً عن جد.

وكيف ولا ألبي وأنا مدعو إلى حضرة القائد الهمام الذي كان نبراس الأجيال المتوالية وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكيف لا ألبي الدعوة إلى حضرة من علمنا الرفض، رفض القيم والجور، من علمنا رفع ثوبنا عن كل لوم، من علمنا الذود عن الدين بذلك النضال المستميت، من علمنا ركوب كل هول من أجل المكارم والثبات عليها، من علمنا كيف نجعل الغدر منا محالاً وكيف ترقى بنا المكارم وتتنوع فينا الخصال، من علمنا كيف نكون نحن الرجال رجالاً للرجال كيف لا آتي إلى هذه الحضرة وأقف وقفة من سبقنا من الأجداد وقفة تجلي وإكبار وخشوع وأبايع رمز الأنفة والإباء، رمز المجد والشموخ وأبايع هنا كل عظيم حبلت به الجزائر لنجدتها وتحريرها وإعلاء شأنها، ابايع السيد المهاب الذي يبقى أبد الدهر مهاباً وإن رحل إلى جوار ربه منذ عقود عديدة مضت وأسكنه فسيح جناته.

فيا لها من وقفة لم تبق من حزن في قلب مضني ولا كذا لدى ضجر.

ايتها السيدات أيها السادة:

إن أول ما يترتب علينا في مثل هذه المناسبة الطيبة من واجبات هو أن نشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم علينا به من استعادة الاستقلال وسيادة كاملة على أرضنا محققاً لنا بذلك الغاية التي كرّس عبد القادر جهاده في سبيلها بعد أن غرس في قلوب أبناء وطنه الغيرة عليها يتوارثونها اباً عن جد ويحمل شعلتها عبر السنين أبطال وبطلات

من أمثال لا لا فاطمة نسومر والشيخ الحداد والمقراني والشيخ بو عمامة والشيخ بو زيان والأمير خالد وميعالي الحاج وغيرهم من رعيل أول نوفمبر المجيد.

ومن أخلص مظاهر شكرنا لله أيها الأخوة والأخوات أن نلتئم في مثل هذا الحفل المهيب ونحددها مبايعة صادقة صريحة لروح قائدنا الذي لم يطلب الإمارة بل فُرضت عليه فرضاً من أجل تثبيت هويتنا وتنظيم مواجهة الاجتياح العدواني الكاسح للبلاد المبيد للعباد وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره فقبلها مكرهاً وحمل أمانتها محتسباً لخالقه وناكراً للذات متفانياً مخلصاً وراح يستميت في الذود عن حق ربه ويواصل الجهاد بالسيف وبلسان الرشاد والسداد وبالعمل الدؤوب والمثابرة والإصرار رغم شح الوسائل وتفوق العدو عدة وعدداً وخذلان المناصر وفقدان المعين وتقاعس ملوك المسلمين وأمرائهم عن معونته ونصرته حتى باللسان، إنه جاهد وصمد في وجه الغزاة الدخلاء والخونة المارقين والقعدة من ضعفاء النفوس.

وكما بايع المسلمون جدك رسول الله محمد بن عبد الله تحت الشجرة، وقال تعالى في سورة الفتح :" لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا" صدق الله العظيم، كذلك بايعك الجزائريون، إذ كنت أحسننا وأفضلنا فرحم الله أولئك الذين بايعوك تحت هذه الشجرة على سنة أجدادنا الذين اقتدوا بالأسلاف الأوائل في مبايعتهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يوم بيعة الرضوان، فما أحوجنا إلى صدق المبايعة التي خص بها أجدادنا الأمير ثم انصرفوا إلى ساحة الوغى يخوضون المعركة تلو الأخرى في خضم وهج السنابك وطعن القنا وخفق البنود ورعد المدافع وقصف البارود لا تثنيهم لا مخاطر ولا صعاب ولا تغريهم محاسن عيش، ولا يحسبون للموت حساباً فكانوا قدوة حسنة لمن خلفهم من أبناء وأحفاد تسلموا منهم مشعل الجهاد فرفعوه عالياً وصانوا الأمانة من خلال معارك متواصلة على مدار القرن والنصف حتى أفضت إلى طرد العدو وإزالة دنسه عن أرضهم وكان سر

نصرهم المبين وحدة الصف ورباط الدين الواحد والانتماء المشترك إلى الوطن والقيم الفاضلة وصدق العزائم وبقيت هذه أعمالهم وأخلاقهم إلى أن أدوا للجزائر حريتها وللشعب عزته وكرامته ومكانته المرموقة بين الشعوب والأمم وكأن الله أبى إلا أن يمحوا عار الخامس من يوليو ١٨٣٠م المتمثل في الاجتياح الجائر الظالم للجزائر بنصر مبين باهر صريح تمّ في نفس اليوم ونفس الشهر من سنة ١٩٦٢م.

ثم تابع رئيس الجمهورية كلامه فقال:

أيتها السيدات أيها السادة:

تمر لشعوب العالم الحية الواعية في مسيرتها التاريخية بمحطات فتتوقف عندها للتأمل في خصلة أعمالها السالفة بمراجعة مضامينها على ضوء الأسباب والأجواء الخاصة التي ساهمت في أخذ كل قرار وإرساء كل اختيار فتكون مناسبة طيبة لمراجعة الذات وتغيير ما بالنفس والرجوع عن غواية أهوائها وتقييم أعمالها وذلك قصد مواصلة الطريق على أسس مجددة سليمة نحو غايات بينة الملامح مثمرة النتائج محمودة العواقب، فتعبئ لها الوسائل الكافية المناسبة وتُشحذ لكسب رهانها الهمم المخلصة الوفية.

إن المبايعة التي نحيي اليوم ذكراها المائة والسابعة والستين لتعد بحق من تلك المحطات المصيرية في تاريخ الجزائر المجيد وخصال شعبها الأصيل الأبي، إذ أقدم الجزائريون والجزائريات على تلك المبايعة دخلوا عهداً جديداً، عهداً متساوياً مع قيمهم السمحاء وتقاليدهم الخيّرة عهداً يتميز بالغيرة على سلامة تراب الوطن واستقلالية والتطلع إلى التطور السريع المبني على العلوم وضروب الفنيات الحديثة، عهداً يفتح المجال أمام المساهمة الكاملة الفعالة للمواطنين في اختيار قادتهم وأخذ القرار عند البت في قضاياهم المصيرية.

إنه ليس من باب المصادفة بعد بدء الغزو وتواصله وإن سقطت العاصمة واستسلم النظام العثماني القائم وأخذت جيوش العدو تكتسح مختلف المناطق تسفك الدماء تفتك

وتهتك الأعراض والممتلكات أن تتجه الأنظار إلى الشيخ محيي الدين لتوليه زمام الأمور وإدارتها على الأسس التي يرتضيها الجميع.

أما الشيخ محيي الدين فقد رفض تولي السلطة لثقل مسؤولياتها وكبر سنه ولم يتولها ابنه غير مخير إلا لخطورة الوضع وجسامة المشاريع الإصلاحية التي تقتضيها في جميع المجالات أية محاولة جادة لمواجهتها وإيجاد حلول لها إن حضورنا في الموعد والمكان قد تكون له أكثر من دلالة فنحن جئنا نجدد العهد ونستقي من معين الجهاد أزكى ما فيه من معاني حب الوطن المقرون بعبادة الله عز وجل هنيئاً لمن قاسموك على مر الأجيال جهادك بجهادهم، وكان سخاؤهم كبيراً وهم يجودون في سبيل الوطن بالنفس والنفيس والدماء الزكية الطاهرة هنيئاً لمن ولو بالاسوة الحسنة حاول الاقتداء بك وبصحابك في الرجولة والاستقامة والتعبير عن المواطنة حقوقاً وواجبات، هنيئاً لمن سخروا أقلامهم وبيانهم وبلاغاتهم فأضفوا المزيد من الأضواء على من خطوا بسيوفهم صفحات تاريخ البلاد المشرقة، ولكن هنيئاً كذلك لمن لم يتناسوا زعماءنا من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها فأعطوا كل ذي حق حقه بنعمةالقصد ونظرة الشاعر ودقة المؤرخ وبأمانة الشاهد النزيه لكل رجل قام هنا أو هناك على مر الزمان مع زرافة من الأحرار ليقولوا رفضهم الذي لا رجعة فيه للمحتل والمغتصب وكل من أراد أن يغير فينا ما هو منا بما هو ليس منا، ولتكن نصيحتي رنانة مسموعة اليوم عند المجتهدين من الطلبة وخاصة أولئك الذين تخصصوا في علم التاريخ وهم لا يزالون يكدحون في الجامعات، فلتصل فرحتي إليهم حتى يزيلوا كل ما كدسه الغزاة من غبار على تاريخنا وأمجادنا ورجالاتنا وماضينا المجيد. ولكم يعلم أهل الذكر قيمة ما تزرعه معرفة تاريخ البلاد من مفعول في همم الرجال ونفوس الشباب الطامحين من غيرة للذود على حاضرهم وتصور مشرق بالأمل لمستقبلهم مفعم بثقتهم بالماضي الثقة التي ترسخ هويتهم وأصالتهم وتضرب في الأعماق بأطناب جذورهم.

وكل من يساهم في دراسة هذه الصفحة المشرقة من تاريخ الجزائر وإضفاء المزيد من الأضواء على من خطوا بسيوفهم ونهجهم وأقلامهم وعلمهم حروف بيانها من أمثال الأمير وخلفائه المتوزعين على مختلف مناطق البلاد.

أيتها السيدات أيها السادة:

إن سر صمود الدولة الجزائرية الحديثة التي وضع أسسها الأمير لمواجهة الغزو الاستعماري العاتي طيلة المجابهة المسلحة التي دامت خمسة عشر سنة كاملة وبقاء مبادئها حية متقدة في وجدان أبنائها عبر مختلف انتفاضاتهم المتواصلة الحلقات إلى غاية إندلاع ثورة نوفمبر المظفرة يعود إلى مميزات المبادئ القائمة عليها هذه الدولة وطريقة توزيع السلطات ضمنها والشروط الواجب توفرها في المسؤولين على المستوى المركزي والمستوى المحلي، ومن أهم مميزات هذه الدولة دولة الأمير عبد القادر:

. أولاً: طابعها الأخلاقي الذي تتميز به قوانينها ويتحلى به الرجال الساهرون على تطبيقها وخلفاؤه.

. ثانياً: التوزيع المحكم للسلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية داخل هذه الدولة بما فيها الجيش وعلاقته الخاصة بالأمير الذي يرعاه بعنايته السامية ليكون الدرع الواقي للأمة.

. ثالثاً: التسامح الديني وتطبيق تعاليم الإسلام السمحاء على المواطنين من أهل من يهود ونصارى وحتى الأسرى من أفراد الجيش الغازي، فكان يرعاهم بعناية خاصة مطبقاً حقوق الإنسان التي شهد له بها العالم من ملوك وأمراء عهده في حادثة المسيحيين بسوريا الحبيبة.

. رابعاً: ومن عظمة هذه الدولة الحديثة التي أنشأها الأمير أنها قامت على المبادئ التي بدأ ظهورها عبر القارة الأوروبية وهي المبينة على القوميات والحدود الفاصلة والرامية إلى إقامة "الدولة الأمة" جامعاً بين الأصالة والعصرنة.

هذا، وكان الأمير في سعيه من أجل تحقيق المشاريع الضخمة يعتمد على التعبئة الشعبية وتضافر الجهود المخلصة عملاً بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي جعل من مجاهدة النفس والعمل الصالح الدؤوب الجهاد الأكبر الذي لا أمل في تحقيق النصر فيه إلا بوقوف أبناء الأمة الواحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

وإن لعلاقاته الخارجية وسمعته على الساحة الدولية إنجازات ومناقب يشهد له بها العدو قبل الصديق .

أيتها الأخوات أيها الأخوة:

كان تحرير الجزائر وبناء دولتها الحديثة صفحة من البطولات والتضحيات صور فيها شعبنا بروحه الأبية وبخاصة الشباب مثل الأمير عبد القادر ورفاقه، إصرارهم على عدم التنازل على أدنى ذرة من عزة الوطن وكرامته ورفع مكانته بين الأمم.

وكان شباب الأمس يرمي بنفسه ونفيسه في سبيل تحرير الوطن ناكراً ذاته، فعلى شباب اليوم والغد أن يرمي في سبيل بقاء الجزائر عزيزة كريمة بالتفاني والإبداع.

عزة الجزائر وهيبتها في عزة الجزائر بنفسه وشيمه لا بماله وإنما بأخلاقه وروحه الأبية الوطنية لا بحسب ثروته وعصبيته وإنما في التعاون على النهوض بالمواطنة لا في جمع المال، فثروة العقل والإرادة لا بالذهب والفضة وجمعها.

هذه هي ايتها الأخوات أيها الأخوة رسالة ذكرى المبايعة وعلينا أن نرتفع إلى مستواها، نقبل وننهض بهذه المسؤولية التي سبقنا إلى حملها أجيال وأجيال قبلنا، وننذر أنفسنا للقيام بها خير قيام، ثم يأتي من بعدنا فيواصل على الدرب، وحسبنا أن يقال عنا حينئذ أننا أدينا الأمانة وخدمنا جزائرنا وأضفنا لبنة إلى صرحها الركين.

إن الله تعالى عظم شأن المبايعة وحذر من نكثها بقوله خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم :" إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا" صدق الله العظيم.

فالشعب الجزائري لما هب لاستئناف النضال في أول نوفمبر ١٩٥٤م بايع الله وشهدائه وأسلافه الميامين على مواصلة التضحية من أجل كسب التحدي الكبير الذي يجب على كل أبنائها أن يهبوا لمواجهته ويعينوا كل طاقاتهم لتحقيقه بتحرير البلاد وبعث دولتنا الحديثة واسترجاع سيادتنا السلبية من ثمة علينا أن نسير على هدى من سبقنا ونستكمل المشوار معتمدين على الكفاءة العالية والأمانة التامة والولاء المطلق للشعب والأخذ باسباب التقنيات المتقدمة والوسائط والأساليب الحديثة في مختلف مجالات التسيير والتخطيط والتقييم والمتابعة، ذلكم هو ما عقدنا العزم على التعهد به يرضي الله والشعب الجزائري ومعه في المرحلة الجديدة التي دخلنا بعد ١٥ أفريل الفارط إنه بناء جزائر المستقبل والمجتمع الأفضل البناء الذي نأمل أن يكون ثلاثون مليوناً من البناة والمدربين والمقتدرين المؤهلين إخلاصاً وأمانة وكفاءة تترسخ فيه المنهجية الوطنية القائمة على توظيف نشر الحق والعدل والإخاء والمساواة أي كل شروط المواطنة الصالحة التي لا تُستوفى إلا بوجود الأسوة الحسنة وجوباً في قيادة البلاد من قاعدتها إلى قمتها وإلا تعذر تعميم العيش الكريم بين الجميع وبناء مجتمع الأمل والمحبة والخير قبل أن أودعك أيها الأمير أريد أن ألتمس منك عذراً إن كنا تطاولنا عليك أنا ورفاقي من ساروا إلى رحمة الله فاجتهدنا اجتهاداً مخلصاً وأرجعنا رفاتك إلى وطنك وأنت صاحب المواقف العظيمة وأننا هنا نعتقد أن الجزائر هي دمشق، ودمشق هي الجزائر ولربما كنت هناك في راحة أكثر مما لو كنت في أحضان شعبك وذويك.

إن إخوانك في الشام احتضنوك وبجلوك وكرموك وأنت الكريم وما كانوا يفعلون ذلك حباً فيك فقط ولكن كانوا ينطلقون من أنك من أبنائهم وأن شعب الجزائر شعبهم، كما كانوا آنذاك أنهم لا يزالون اليوم يفرحون لأفراحه ويترحون لأتراحه ويقاسمونه السراء والضراء، فأنعم به شعباً سورياً قوي الشكيمة في الوطنية يعرف قيمة الرجال الذين تساموا بأرواحهم وارتقوا إلى ما لا زلنا نتغنى به من مكارم الأخلاق على أبناء البشرية جمعاء، إننا قوم لا

نتنكر الجميل ونعتذر اليوم لمن اختطفناك منهم تحفظاً ولا يوحي من نية أنانية لقد أتينا بك إلى وطنك، وطنك الأول برضاهم. ارجعناك إلى ديارك حتى نقول لمن أبعوك عن مسقط الراس وبيتك من الشعر لمن قالوا بالأمس عدنا إليك يا صلاح الدين بنفس النخوة والاعتزاز والقوة. لقد عدنا بك يا عبد القادر والوطن العزيز يهتز خفاقاً للحدث العظيم من الشام إلى الجزائر وسيعود صلاح الدين إلى الجولان فيسترجع الجولان كل الجولان وجنوب لبنان، كل جنوب لبنان ويعطي للفلسطينيين حقهم المشروع في دولتهم المستقلة بعاصمتها القدس.

إنك اليوم يا عبد القادر كباقي الشهداء لا امتياز يحيط بك أو يفضلك عليهم إلا ما تركته من حسن الذكر وما تركت من جميل الخصال وكريم الأعمال ومن تراث ثقافي تغبط عليه في الجزائر وخارجها.

هل جئنا اليوم لنتذكر فقط أو جئنا لنتأمل فيما صنعت أنت والصديقين والشهداء الذين توافدوا من بعدك في كل شبر من الوطن، لنتأمل في المعنى العميق للرسالة التي أورثمتوها للأجيال، أو لا تسمحون أن أخبركم بأن الوطن كاد يضيع ولا زال البغاة من أعدائه في الداخل والخارج يريدونه في مهب الريح، ينتهكون الأعراض ولا يستحون، يقتلون الأطفال ويتبجحون يفسدون في الأرض فساداً، يخربون بيوتهم بأيديهم ويدخلوا السرور والبهجة في كل مشؤوم يتربص ببلادنا الشر ويبتغي لها الإنهيار.

ولكن ها هو الشعب قال قولته الفصل وقولة الشعب فصل وما هي بالهزل، إنه شعب جنح إلى السلم والسلام إلى المصالحة والوئام.

وكما جئنا نعاهدك اليوم على أن نبقى على الدرب سائرين لقد عاهد شعبنا نفسه وربه أن يبقى هو أيضاً على العهد يدفع أغلى ثمن من أجل السلام ووحدة الجزائر تراباً وشعباً والدفاع عن النظام الجمهوري والالتزام بهيبة الدولة واحترام صرامة القانون في عدالته.

قد يسمعني شباب لا يفهم لهجتي ولا يفقه كلامي لأنه استقى من وطنية تمخضت عن الاستعمار الاستيطاني والاحتلال وهو لا يعرف شيئاً عن تلك العهود، ينظر إلى واقع الدنيا وكأنه في شاشة التلفزيون ويريد أن يصل اليوم قبل الغد إلى مستوى الدول المتقدمة ولا يعرف إطلاقاً ما دفع في سبيل ذلك من ثمن وجهود وتضحيات شباب طموح منكوب بمآسيه من تزعزع الأمن والبطالة والحاجة إلى السكن والتطلع إلى المدرسة وانتظار المستشفى إلى غير ذلك من حاجيات لا تخفى علينا كما هي لا تخفى عن أبناء شعبنا الصالح منهم والطالح، شباب يرى من يتبجح تبجحاً مشيراً مستفزاً لحرمانه مما دفع به إلى فقدان الأمل والرؤى القائمة للمستقبل، لقد فسدت الأخلاق وعمّ فسادها أمن رجال ونساء لازالوا للعهود حافظين يغيرون على هذا الوطن الذي حباه الله بأهمية الموقع واعتدال المناخ وشساعة الأرض وتعدد الإمكانيات حتى أشارت إليه الأصابع بخير وكذلك بسوء.

أمن غيورين على بلادي ليتعاونوا اليوم على البر والتقوى ويتأكدوا نهائياً أن ليس لهم عن الجزائر وطناً بديلاً، وأنه لابد أن يتقاسموا العيش في أرجاء هذا الوطن الحبيب، وأن لكل شيء بداية وبداية الأمور اليوم عندنا هو استتباب الأمن والاستقرار ومن ثم نقسم بالله، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ما من شيء تعسر اليوم على البعض إلا تيسر غداً للجميع، وإن بلادي من عند الله مرموقة من أحبها أحبها بعشق المتيمين ومن كرهها لا يجد راحة في التآمر عليها وعلى مصيرها.

ومن هذا الباب أتوجه إلى أخواتي وإخواني أبناء شعب جزائرنا الغالية وأغتنم فرصة إحياء ذكرى مبايعة الأمير عبد القادر واستعين بالله وبكم وأدعوهم مرة أخرى إلى طريق الرشاد إلى سبيل العزة إلى نهج الكرامة ولن يكون ذلك إلا منا جميعاً نساءً ورجالاً شباباً وكهولاً مشمرين عن السواعد في بناء الوطن والتوكل على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه ونعم الوكيل.

وبارك الله في كل غيور لا زال يغار على عزة الجزائر وعلى كرامة شعبها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

س . إطلاق اسم الأمير عبد القادر على مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية وإشعاع الأمير في العالم:

إن شعبية الأمير في الغرب لم تكن نتيجة العمل الإنساني الذي قام به إزاء المسيحيين فقط، بل إن أحداث دمشق التي كان الأمير يطلبها لم تكن إلا لتزيد من تلك الشهرة التي كانت واسعة من قبل.

لقد أثار كفاحه البطولي ضد أكبر قوة في أوروبا إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء العالم الغربي كما كان له صدى كبير حتى في أمريكا.

وهكذا ففي سنة ١٨٤٦م اسست مدينة صغيرة بولاية إيوا "iowa" من طرف ثلاثة رواد أمريكيين يسمون جون تومسون وتيموثي ديفيس، وتشتر سايج، أطلق عليها اسم القادر على شرف الأمير وهكذا فإن سمعة الأمير قد تعدت بكثير مجال نشاطاته ولم يكن من وراء هذا العمل الذي يشرف عليه إلا الإعجاب بهذا الرجل العظيم وبعد أن إتفق الرجال على تسمية هذه المدينة التي كانوا ينوون تشييدها قال لهم تومسان: فلنتقابل غداً لوضع مخطط هذه المدينة، وهكذا فبعد ١٢٥ سنة سيعلم الناس بأن شيء يتعلق الأمر[2].

وبتعبير هذا فإن تومسون كان يعلم بأنه هو وأصحابه قد أحسنوا الإختيار ولم يخطئوا فيما يخص خلود شهرة هذا الرجل الذي شرفوه وتروي الصحيفة المحلية "سيدير رابيد قازيت" أن يوم ٥ نوفمبر ١٩٨٥م قد خصص "يوم عبد القادر" أي بعد مرور ١٣٩ سنة من وضع أولئك الرواد الأشاوش لمخطط مدينتهم.

إن الذين كانوا يتجاهلون الوزن الكبير لشخصية الأمير هم الوحيدون الذين اندهشوا لتعدي إشعاعه المحيطات في زمن كادت به الإتصالات أن تنعدم، في نفس الوقت كانت

[1] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٥٥ . ٢٦٦.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٢٧٩.

كل أوروبا تتابع بإعجاب ملحمة الأمير وقتاله البطولي وعبقريته التنظيمية وهذا من قبل حتى معاهدة التافنة التي أقرته كرئيس دولة كتتويج لنضاله الطويل.

وهكذا كتب المؤرخ الإنجليزي لورانس كايف: إن سمعة الأمير قد أصبحت أوروبية منذ ١٨٣٥م، وهذا الإعجاب بعبقرية الأمير الحربية ووطنيته الفياضة سرعان ما تحول إلى تعاطف عميق عندما بدأ نجمه يفل ثم انقلب بعد ذلك إلى سخط على تنكر الدولة العظيمة لوعدها وقد كتبت مجلة "التايمز" مقالاً في هذا الموضوع ١٠/ ١٠/ ١٨٥١م: إن لعبد القادر في سجنه بفرنسا، نفس الصدى العالمي الذي حققه في السابق عندما كان يقود فرسانه العرب.

كما أن كارل ماركس قد أجرى دراسة حول الأمير تكاد تكون مجهولة ويصفه فيها "قائد مغوار" والرأي العام الفرنسي بدوره قد حيّ وبعبارات كثيراً ما كانت طنانة، شجاعة الأمير في القتال وعزة النفس حين البلوى، وزيادة الوسام الرفيع للجوفة الشرفية فإن فرنسا قد منحته وساماً كتبت عليه العبارات التالية: أمير من شمال أفريقيا مدافع عن القومية العربية وحام المسيحيين المضطهدين[١].

إلا أن عمله البطولي خلال أحداث دمشق بالذات هو الذي زاد كثيراً من إشعاعه في الغرب، أما فيما يخص الحكومات فإنها جميعاً قد منحته أسمى أوسمة بلادها.

وعلى كل حال فإنه من المؤكد أن عمله البطولي والإنساني لصالح المسيحيين لم يرفع مكانته عند الغرب فحسب ولكن العالم العربي في مجمله قد قدر عمله سواءً من الناحية الإنسانية أو السياسية وفهم أن تقتيل الأبرياء لولا التدخل الشجاع للأمير، كان سيؤدي بفرنسا إلى وضع يدها على سوريا.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٨٠.

وقد رأينا أن أول من منح الأمير وساماً ووضع صورته بجانب صورة أجداده كان السلطان عبد المجيد نفسه وقد وصلت شهرة الأمير إلى حد أن الخديوي كان يغير منه ويخشى منه على عرشه.

ولنذكر في الأخير هذه الملاحظة التي أبداها الملك فيصل ملك العراق سنة ١٩٢٠م لكاتب فرنسي يدعى "ب. ديسنايور سانتران" "يعد الحاج عبد القادر واحداً من أكبر رجالات الإسلام وأكثرهم مدعاة للإحترام وأجدرهم بتقدير الإسلام وإجلاله"[١].

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٨٢.

تاسعا: ثورات الشعب الجزائري بعد الأمير عبد القادر

١. ثورة الزعاطشة:

بعد سنتين من توقف ثورة الأمير عبد القادر اندلعت ثورة الزعاطشة وهي واحة بمنطقة الزاب الظهراوي ٣٥ كيلو جنوب غربي بسكرة قادها بوزيان شيخ الطريقة الدرقاوية بالزيبان الذي عمل في دولة الأمير كشيخ على سكان الزاب الظهراوي، بدأت الثورة بتذمر القرويين من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنسيون على كل نخلة وأيدهم الشيخ بوزيان وتوجه الجيش الفرنسي فاعتقله فهب الناس وافتكوه من معتقله بالقوة وانفجرت عند ذاك الثورة واستمرت المعارك بين فرنسا والثوار وحشدت فرنسا قوات هائلة في ١٢/ ١١/ ١٨٤٩م وبدأت معركة سيدي مرازي وراحت القوات تقذف جدران القرية بالمدفعية لفتح ثغرات في سورها تمكنهم من الدخول ومهاجمة منزل الشيخ بوزيان ومساعديه مثل بو عزوز والحاج موسى والشريف بو عمار واستمر هذا القصف حتى منتصف نهار ٢٦/ ١١ حيث اقتحمت الجيوش الفرنسية القرية داراً داراً وزقاقاً زقاقاً في حرب شوارع شبيهة بحرب شوارع قسنطينة لدى سقوطها سنة ١٨٣٧م ودافع الشيخ بوزيان وابنه ورفيقه الحاج موسى بشجاعة وسقطوا شهداء برصاص العدو وقذائف مدافعه وجز الفرنسيون رؤوسهم وعلقوها على أبواب مدينة بسكرة عدة أيام تكبد الفرنسيون ١٥٠٠ بين قتيل وجريح.

قامت قوات الجنرال هيبربيون بارتكاب فظائع مرعبة فدمرت المدينة وقطعت عشرة الآف نخلة هي كل ما يملك سكانها، ودمرت كل منازلها وشنقت ١٥٠٠ مواطن أمام الملأ ووسط خرائب البيوت وأرغموا من بقي من السكان على الهجرة إلى جهات أخرى حددوها ليعملوا بالسخرة في حظائر العمل التابعة للكولون.

فقد روى المؤرخ بوديكور: هنا جندي قطع ثدي امرأة راحت تتوسل إليه بأن ينهي حياتها وهناك جندي آخر حمل طفلاً صغيراً من رجليه وحطم رأسه على جدار فخرج

رأسه من جمجمته، هنا وهناك كانت مناظر مخزية يحجل أي شريف من سردها، لقد تركت هذه الثورة دوياً كبيراً في الداخل، فالأعمال البربرية هذه لم تكن ضرورية وهي من شأنها أن تثير الذعر بين الناس ولكنها تغرس الكراهية في نفوسهم ضد المستعمرين وتلد ثورات أخرى. قال بيليبسييه دو ريينو: إنني لا أخشى أن أقول إن مجد المهزومين يُشحب لون وجه المنتصرين[1].

٢. ثورة بو بغلة ولالة فاطمة نسومر:

قرر الفرنسيون إخضاع منطقة القبايل والشمال القسنطيني فقد بقيت منطقة الجبال غير خاضعة للاحتلال وهي الممتدة من متيجة غرباً وحتى وادي الصفصاف، ومن البحر شمالاً وحتى السهول المرتفعة لمجانة وسطيف جنوباً في يوم ٩/ ٥/ ١٨٥١م توجه الجنرال سانتارنو من ميلة على رأس جيش قوامه ٨٧٠٠ جندي فوصل جيجل يوم ١٦ وتقدم حتى الوادي الكبير واصطدم بمقاومة كبيرة لكنه تمكن من التقدم نحو القل، وأخضعت القبائل بين القل وجيجل "مايو . يوليو" ثم سلك طريق بجاية سطيف ودمر وأحرق قرى أربعين قبيلة وكتب لزوجته يفتخر بأنه أحرق بنفسه ١٠٠ منزل مغطاة بالقرميد وقطع أكثر من ألف شجرة زيتون، وتصور أنه أخضع المنطقة نهائياً لكنه ما أن عادت قبائل نواحي القل وجيجل للثورة قرر الجنرال هوتبول إخضاع القبائل الكبرى والقبائل الصغرى وبدأ بالكبرى حيث دشرات زواوة ووادي سباو.

وظهر الثائر الشريف محمد بن عبد الله المشهور ببو بغلة سنة ١٨٥١م ودعا الناس إلى الجهاد واستجاب المواطنين له في تلك المناطق وكانت لالا فاطمة نسومر إلى جانب بو بغلة واجه الثوار جيشاً بقيادة الجنرالين راندون وماكماهون وخاضوا معه معركة ضخمة في هضبة تيميزغيدة.

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٥ . ٥٦٦.

وفشل العقيد دوريل في محاصرته وفي أفريل نيسان سار جيش كبير على رأس جنرالات هما كامو وبوسكيه غربي واد ساحل وعاقبا القرى التي استقبلت الشريف كتبت صحيفة "مونيتور": كل قرى أورلزقان نهبت وأحرقت وتركت شوارعها مزروعة بجثث الناس والمواشي.

كان بو بغلة مدعوماً بزواوة: قبائل المعاكطة والقتشولة وبني عيسى والفيليسة، طارده الجنرال جوني نحو الشرق في اتجاه وادي سباو، فأحرق ثلاثين قرية وتوجه العقيد بورياكي نحو قرى بني كوفي فدمرها وهاجم قبائل فليسة نوفمبر ١٨٥١م. واستمر الشريف بو بغلة في كر وفر مع جيوش العدو. يبرر الجنرال روندون التدمير فيقول: لابد أن نترك على الأرض آثاراً لانتصارنا بواسطة تدمير جزء من ثروة الذين هزمناهم[١].

٣. ثورة الشريف محمد بن عبد الله بو رقلة:

ظهرت ثورة الشريف محمد بن عبد الله بالأغواط وامتدت حتى ورقلة وتقرت ووادي سوف في أوائل ١٨٥١م وقد سبق للشريف محمد أن اختلف مع الأمير عبد القادر وهاجر للمشرق حيث قضى هناك ثلاث سنوات ثم عاد للجزائر مؤمنا بضرورة استئناف مهمة الأمير عبد القادر وقيادة الجهاد لتحرير الجزائر من الغزاة، دخل طرابلس ومنها إلى غدامس ثم تقرت وقصد زاوية الرويسان قرب ورقلة ونادى بالثورة واستجابت له الجماهير واتخذ الاغواط قاعدة له ثم راح يشن هجماته على مراكز الفرنسيين بالتل.

قاد الجنرال روندون جيشاً وتوجه إلى الأغواط وانسحب الشريف وانتقم الفرنسيون من النساء والأطفال وفعلوا ما فعلوه في واحة الزعاطشة فأحرقوا المنازل ودمروا كل شيء.

وقد روى العقيد تروملي: كانت مذبحة مرعبة اختلطت فيها جثث النساء والأطفال بجثث الحيوانات وأحرقت الجثث ورميت في الآبار ويعتبر الذي قمنا به عاراً ما يعده عار،

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٧.

لقد اشتكى بعض المطعونين بالسيوف بأن هذه لم تكن حادة فتقتل على الفور بل تركتهم يتعذبون.

ويروي الكاتب الورسام فرومنتان أوجين: لقد روى لي ملازم شارك في مجزرة الأغواط ما حدث لامرأتين شابتين شاهدهما بعد أن اغتصبهما الجنود وقتلوهما بالحربة كانتا جثتين لا تحملان حليا: لا أقراط بالآذان، ولا خلاخيل بالأرجل ولا مشابك كانتا عاديتين تقريباً واستمرت الطيور الجارحة تحلق فوق المدينة مدة شهر كامل أما الحمام فقد هاجر منها[١].

واستمرت المعارك سجالاً بين الشريف وبين العدو كان يجمع الأنصار فيهاجم مراكز العدو، وكلما اشتد عليه ضغط العدو انسحب إلى الصحراء واستمر يقاتل إلى أن اشتد الضغط عليه فاختفى، سجنه سنة ١٨٦١م الباشاغا بو بكر بن حمزة ولد سيدي الشيخ وسلمه للفرنسيين الذين سجنوه، لكنه تمكن من الفرار من السجن ليظهر مرة أخرى كثائر بعد اندلاع ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة ١٨٦٤م فانضم لها وجاهد مع قادتها إلى أن اختلف معهم فانسحب إلى تونس[٢].

٤. ثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة:

ظهر الثائر الشريف محمد بن عبد الله مرة أخرى في ثورة الصبايحية في ناحية سوق أهراس.

والصبايحية وحدات من الجزائريين في الجيش الفرنسي التي انضمت مع الثوار وشارك الشريف محمد مع رفاقه القدامى فاتصل بابن ناصر بن شهرة في تقرت ومحمد بن التومي المعروف بابن شوشه في ورقلة وربط صلاته بأولاد خليفة الثائرين بناحية تبسة وبمحيي الدين ابن الأمير عبد القادر الذي قدم خفية إلى طرابلس عبر نقطة ونفزاوة ليتزعم الثورة في الحدود الشرقية.

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٩.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٩.

كانت ثورة الصبايحية سببها قيام الجنود الجزائريين بالتمرد في شرق البلاد في أواخر سبتمبر عام ١٨٧٠م وذلك عندما حاولت فرنسا أن تنقلهم إلى أوروبا لمحاربة الألمان في بروسيا وقد قامت السلطات الفرنسية بإصدار أحكام الإعدام ضد البعض من الجنود ونفذتها بالساحة العامة بمدينة سوق أهراس وصادرت أملاك وأراضي سبعة دواوير وأخذت عشرات المواطنين كرهائن[١].

واشترك الشريف محمد مع ثواره قبيلة النمامشة يوم ١٠/ ٩/ ١٨٧١م في مهاجمة واحة ليانه بالزاب الشرقي، وقاد معارك ضد فرنسا وقويت حركته وعندما اندلعت ثورة محمد المقراني سنة ١٨٧١م كان يمثل جناحها الشرقي واستمر داعماً لها إلى أن فشلت فغادر معسكره يوم ١٢/ ١٠/ ١٨٧١م إلى مدينة الكاف التونسية فاعتقله باي تونس وسجنه وتوفي هذا الثائر الكبير الشريف محمد عبد الله بالجنوب التونسي سنة ١٨٩٥م ودفن بقرية دوز التونسية[٢].

في ١٨٧٥م احتل الجنرال راندون قمم تيروردة وبنت آيت يحيى والأربعاء ناث إيراثن وأمر ببناء قلاع بها بهدف عزل القبائل بينها وبين بعضها وهي قبائل : آيت يحيى وآيت إيراثن، بنى مقلات وبني يني، بعد أن اكتشفوا أن قوة الثورة تكمن في ارتباط القبائل بعضها ببعض، لقد احتل الفرنسيون المناطق الوعرة بحرب شرسة سقط فيها المئات من الجنود الفرنسيين واستمر السكان يقاومون الغزو بالقنص من وراء الصخور.

وبعد معاناة كبيرة من هذه الحرب غير المتكافئة وغير الشريفة المؤسسة على الإفقار والتدمير اضطرت كثير من القبائل إلى طلب الأمان.

٥. أسر لالة فاطمة نسومر وكفاح النساء:

استطاع المحتلون أسر المجاهدة الكبيرة لالة فاطمة نسومر يوم ١١/ ٧/ ١٨٥٧م وبأسرها انتهت المقاومة وهي ابنة محمد بن عيسى مقدم زاوية الشيخ أحمد أمزيان على الطريقة

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٦.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٠.

الرحمانية في ايتسوارع دوار يللتن في بلدية عين الحمام ولدت في هذه القرية سنة ١٨٣٠م أخذت عن أخيها الطاهر الساكن في قرية نسومر التي نسبت إليها ولما قامت ثورة بو بغلة سنة ١٨٥١م تطوعت لالة فاطمة لخوض الحرب مع المجاهدين وسرعان ما انتشر اسمها كبطلة شجاعة فقرر الجيش الفرنسي توجيه حملة للقضاء عليها وعلى بو بغلة لتأثيرها هي على الخصوص في المجاهدين، لكن لالا فاطمة تمكنت من اعتراض طريق الجيش الفرنسي في الأربعاء بمهاجمتها لمراكزه وإلحاق خسائر كبيرة به.

فقرر الحاكم العام توجيه حملة كبرى للقضاء عليها وعلى بو بغلة بقيادة الجنرال روندون والمارشال ماكماهون والجنرال جوزيف في جيش ضخم ودارت معركة بين الطرفين يوم ١٠/ ٧/ ١٨٥٧م في أعراش إيتسوراع ويللتن ولما اشتدت المعركة خشيت لالة فاطمة على النساء والأطفال والأموال، فأخذتهم إلى قرية الخميس قرب ربوة تمزغيدة مما أوقعها في الأسر هي ومن معها من الأطفال والنساء اللاتي كان عددهن ٢٠٠ أمرأة. لقد أدت لالة فاطمة دوراً عظيماً في الثورة الكبيرة التي استمرت من سنة ١٨٥١م وحتى ١٨٥٧ وتوفيت في سبتمبر سنة ١٨٦٣م ببني سليمان حيث دفنت.

لقد لعبت المرأة الريفية دوراً مباشراً في الصمود يروي الضباط الفرنسيون أنه: كنا نسأل القبائل لماذا أنتم مصرون على الدفاع عن القرى ضد جيش يقوده جو؟ فيجيبوننا: كنا مستعدين للاستسلام أمام هذه القوات الضخمة، لكن نساءنا كنّ يرفضن ذلك ويهددن بأنهن سيهجرننا إلى الأبد إذا لم نستمر في الدفاع[1].

٦. ثورة الصادق بلحاج:

أخضع الفرنسيون بلاد القبائل لكن الثورات استمرت في سائر أنحاء عمالة قسنطينة وذلك في السنتين التاليتين ١٨٥٨م ـ ١٨٦٠م وبخاصة منطقة الجنوب، فبعد إخضاع منطقة القبائل قرر الفرنسيون إخضاع بقية العمالة وتوجهوا بجيوشهم للجنوب وتصدى

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٧٢.

لهم عدد كبير من رؤساء القبائل أهمهم الصادق بلحاج الذي ينتمي إلى أولاد سيدي منصور شيخ أولاد أيوب في جبل أحمر خدو بسفوح الأوراس الذي سبق له أن شارك في ثورة سكان الزعاطشة سنة ١٨٤٩م إلى جانب الشيخ عبد الحفيظ مقدم الطريقة الرحمانية بخنقة سيدي ناجي مساندة للشيخ بوزيان وسكان الواحة.

استمرت ثورة الصادق بلحاج تعدّ الناس في السر حتى نوفمبر ١٨٥٨م حيث أدركت القيادة الفرنسية خطورتها فقررت ضربها قبل استفحالها واستطاعت فرنسا إخماد الثورة بواسطة قوات من المرتزقة الجزائريين العارفين بوديان ومسالك المنطقة بقيادة القايد موهوب بن شنوف وتمكنت من اعتراض الثوار في واد العرب يوم ٢٠/ ١/ ١٨٥٩م فاعتقلت قائد الثوار وأكثر من ثمانين من رفاقه وعلى إثر اخماد الثورة قام الفرنسيون كعادتهم بحرق القرى وقتل النساء والأطفال.

كانت لثورة الصادق بلحاج في بسكرة والخنقة والأوراس تأثيرها الكبير على قبائل المنطقة فبعد أشهر في مارس آذار سنة ١٨٦٠م ظهرت بالحفنة ثورة بوخنتاش[١].

٧. ثورة محمد بوخنتاش الباركتي:

هو من أولاد رحاب داعياً الناس للثورة فتجمع الناس حوله وساعد الثائر في تجميع الناس أحمد باي المنصوري والعربي قايد أولاد سحنون وانضم إليهم أولاد زميرة وأولاد منصور وامتدت الثورة لتشمل المنطقة الجبلية الممتدة من سطيف والحفنة. تمكن القادة من جمع ٨٠٠ مقاتل وتمركزوا بهم في واد ذراع البيضاء وقام الخائن بيبي من أولاد عمر بإبلا غ الفرنسيين في باتنة بمواقع قوات بوخنتاش ورفاقه.

تحركت عدة جيوش فرنسية فتوجه الكولونيل بان إلى بريكة وتوجه الجنرال نيس دوماريست من سطيف على رأس قوات أخرى عسكر بها في شجرة أوادا والتحم الفريقان في معركة كبيرة صباح يوم ٢٥/ ٣/ ١٨٦٠م في خنق أم الحمام، وسقط من

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٣.

الطرفين العديد من القتلى والجرحى لكن الفرنسيين تمكنوا من تخريب معسكر بوختناش وتقتيل أهالي سكان أولاد عمر وأنصارهم وأرغموهم على تسليم بوختناش في نفس اليوم ومساعده أحمد باي المنصوري إلى الجنرال نيم دوماريست، أما العربي فاستشهد في المعركة.

وتصدى الشعب الجزائري لاستغلال الفرنسيين لغابات الفلين فثارت في سنة ١٨٥٨م قبائل ميلة وأضرمت النار في عشرات الآلآف من هكتارات فلين حتى تحرم شركة فرنسية قررت استغلالها، ثارت قبائل زواغة بالوادي الكبير وامتدت ثورتها إلى شرقي جيجل، وأرسل جيش فرنسي كبير دخل في معارك مع الثوار الذين لم يصمدوا أمام قوته وذلك سنة ١٨٦٠م[1].

٨. ثورة أولاد سيدي الشيخ:

إنتشرت ثورة أولاد سيدي الشيخ وامتدت لتشمل سائر الصحراء وتتوغل أحياناً إلى مناطق في الشمال والشرق والغرب لقد كانت فعلاً ملحمة ثورية امتدت من ١٨٦٤م وحتى ١٨٨٤م ولدى اندلاعها صرح المارشال ماكماهون: ليكن في عملهم أنه بمجرد إشارة من الإمبراطور ستجند فرنسا ٨٠٠,٠٠٠ جندي وقد قاد هذه الثورة سلسلة من القادة: سي لاله، وابن أخيه سليمان بن حمزة بن سيدي الشيخ، وأخوة أحمد ومحمد، وابن أخيهم الأعلى، وبوعمامة. ويتصل نسب أولاد سيدي الشيخ بالخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه. كان لهم شأن دائماً.

وتعتبر قرية الأبيض سيدي الشيخ مركزهم الرئيسي ومقر زاوية زعيمهم الأول عبد القادر بن محمد الملقب بسيدي الشيخ والمتوفى في بداية القرن السابع عشر الميلادي.

وفي الوقت الذي عمت فيه الثورة منطقة جنوب وهران على يد أولاد سيدي الشيخ قامت ثورة في فليتة بجبال الونشريس وحوض الشلف بقيادة الشيخ الأزرق بن الحاج

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٧٤.

المنتسب إلى الطريقة القادرية وانضم للثورة ٦٤ دوارا وفي يوم ٢٤/ ٤/ ١٨٦٤م خاض هذا الثائر معركة في خنقة العازر ضد جيش بقيادة الجنرال مارتينو، كما خاض معارك في زمورة بالشلف، ورجع لفليتة فربط الصلة مع ثوار أولاد سيدي الشيخ، وصارت مدينة غيلزان تحت رحمة الثوار، واضطر الفرنسيون إلى إخلاء سائر قرى الأوروبيين بين غيلزان وواد رهيو وفر الأوروبيين ولجأوا إلى مستغانم وتمكن الشيخ الأزرق من تدمير معسكر الرحوية يوم ٢٠/ ٥/ ١٨٦٤م وواصل هذا البطل جهاده إلى أن استشهد في معركة ظهرة عبد الله يوم ٨/ ٦/ ١٨٦٤م قادها من الطرف الفرنسي الجنرال روز الذي كلف بملاحقته في فليتة[١].

٩. ثورة بوشوشة: محمد بن تومي بوشوشة:

كان هذا القائد العملاق من الرجال الجزائريين الذين تعاونوا مع ثوار أولاد سيدي الشيخ، ومن المؤسسين لحركة التوارق بالصحراء الذين قرروا حمل السلاح ضد الاستعمار الفرنسي وفي شهر أفريل من عام ١٨٧٠م هاجم مدينة القليعة واستولى في ٥ ماي ١٨٧٠م على مدينة متليلي بعد حصار دم عدة ايام، وابتدأ من هذا التاريخ أصبح بوشوشة هو قائد المقاومة الجزائرية في الجبهة الجنوبية بصحراء الجزائر، وفي أواخر سنة ١٨٧٠م انتقل من مركزه بعين صالح إلى واحة الرويسان قرب ورقلة ثم اتجه إلى وادي سوف وفي ٥ مارس ١٨٧١م هاجم حامية ورقلة فهزمها واستولى عليها بمساعدة أنصاره الكثيرين الموجودين داخلها، وعين ابن ناصر بن شهرة خليفة عليها لكي تكون قاعدة للثورة وفي ١٣ ماي من نفس السنة قام بمهاجمة توقرت وانتصر على القوات الفرنسية المرابطة بها، إلا أن القوات الفرنسية تمكنت يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٧١م من شن هجوم كبير على مدينة توقرت، ثم احتلت من جديد مدينة ورقلة يوم ٢ جانقي ١٨٧٢م وذلك بعد معركة عسكرية بقيادة الجنرال "وولاكروا" ضد حاكمها بوشوشة.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٥٧٧.

واستأنف هذا الأخير حرب العصابات ضد القوات الفرنسية في المنيعة وحارب إلى أن وقع في الأسر في معارك ١٨٧٤م فاقتيد إلى ورقلة عاصمته الأولى في بداية ثورته، ثم نقل إلى سجن قسنطينة حيث قدم إلى المحاكمة فصدر الحكم عليه بالإعدام الذي نفذ فيه بتاريخ ٢٩ جوان ١٨٧٥م بمعسكر الزيتون بقسنطينة[١].

١٠. ثورات المقراني والشيخ الحداد وبومزراق:

عندما تدهورت الأوضاع بشرق الجزائر طلب الشيخ محمد المقراني من السلطات الفرنسية أن تقبل استقالته من منصبه بصفته باشاغا لأنه لا يرغب في أن يعمل مع السلطات الفرنسية، لكن السلطات الفرنسية رفضت طلب استقالته يوم ٩ مارس ١٨٧١م قام بمحاصرة مدينة بوعريج إلا أن القوات الفرنسية تمكنت من فك الحصار على المدينة يوم ٢٦/ ٣/ ١٨٧١م. وفي يوم ٨ افريل ١٨٧١م إنضم إلى المقراني الشيخ الحداد، ودارت معركة كبيرة بين القوات الفرنسية وقوات الثوار يوم ١٢ أفريل ١٨٧١م قرب جبل تفارطست وفي معركة أخرى يوم ٥ ماي ١٨٧١م واجهت قوات الشيخ المقراني قوات الكولونيل "تروملي" الذي كان يحكم سور الغزلان، وعندما خف الاقتتال اغتنم المقراني الفرصة لأداء صلاة الظهر مع رفاقه، وبينما كان يؤدي فريضة الصلاة فاجأه جنود الزواف الذين كانوا يراقبون الثوار من بعيد فأصابوه في جبهته وسقط شهيداً مع ثلاثة من رفقائه وقد تم نقل جثمانه إلى قلعة بني عباس ودفن في مسقط رأسه، أما الشيخ الحداد الذي انضم إلى الشيخ المقراني يوم ٨ أفريل ١٨٧١م والذي استقر أجداده في قرية صدوق منذ القرن الخامس عشر الميلادي، فقد استطاع أن يشكل جيشاً جزائرياً يتكون من ١٢٠,٠٠٠ مجاهد، بينما جيش المقراني لم يكن يتجاوز ٢٥,٠٠٠ مجاهد وخاض معارك طاحنة ضد الجيش الفرنسي بحيث أحدث هلعاً كبيراً من الأوساط العسكرية.

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٦.

لكن الشيخ الحداد الذي تمكن أنصاره من التطوع للجهاد في مناطق كبيرة من البلاد لم يتمكن من جمع السلاح الضروري لخوض معارك حاسمة ضد قوات الاحتلال وبذلك فشلت خطة الحداد لإيقاف الزحف الفرنسي في جبال القبائل وتمكن الجنرال لالمان الفرنسي يوم ٢٤ جوان ١٨٧١م من تشتيت العائلات وحرق المنازل وإجهاض حركة المقاومة الجزائرية، كما تمكن نفس الجنرال من اعتقال أبناء الشيخ محمد أمزيان الحداد، ثم اعتقال الشيخ الحداد نفسه بعد عشرة أيام وأرسلته القوات الفرنسية إلى بجاية حيث وضع في قلعة "بارال" وكان لاستسلام الحداد أثره الكبير على معنويات القائد أحمد بومزراق شقيق الباشاغا محمد المقراني، الذي ثار على الفرنسيين بناحية سور الغزلان وقد حاول بومزراق أن يخلق الانسجام بينه وبين قادة الأخوة الدحمانيين لكنه لم يوفق. وفي يوم ٨ أكتوبر ١٨٧١م خاض بومزراق معركة فاصلة ضد قوات الجنرال الفرنسي "سوسي" بجوار قلعة بني حماد بناحية بجاية، انتهت بتغلب الفرنسيين على قواته، وبعد ذلك إتجه إلى ورقلة والتقى بالقائد بوشوشة وابن شهرة والزبير ولد سيدي الشيخ.

وعندما أدرك أنه غير قادر على مواجهة القوات الفرنسية بقواته المتواضعة حاول أن يجد مكاناً آمناً يلتجئ إليه في الصحراء تاه هناك، واكتشفته دورية فرنسية يوم ٢٠ جانفي ١٨٧١م أمام بركة ماء قرب واحة الرويسات في حالة إغماء فحملته القوات الفرنسية إلى معسكر الجنرال "دولاكروا" بالرويسات، فتم التعرف عليه وإسعافه ثم أرسل إلى السجن في كاليدونيا الجديدة حيث بقي هناك قرابة ٣٠ سنة إلى أن وافته المنية هناك[١].

وانتشر الكولون المسلحون يقتلون الأهالي العزل بلا تمييز أمام أعين جنرالات الجيش الفرنسي وكتب المؤرخ الفرنسي ألفريد رامبوا " عشرين سنة فيما بعد" فقال: لقد ارتكبت فظائع من الجيش النظامي ومن غير النظاميين يوم ٢٢ أفريل أعدم تسعة من الأهالي في العلمة على أساس شهادة كولون واحد، وفي الغد أوقفت قوة عسكرية القايد لكحل

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٨.

وأهله وهم يقدمون للطابور العسكري البغال المسخرة فقام الجنود بقتلهم بالضرب بأعقاب البنادق وفي ٢٣ مايو قرب مسلوك هاجم خيالة الجيش الفرنسي أسرا من أولاد قاسم كانت تحصد الشعير فقطعوا رؤوسهم رجالا وأطفالا ونساء وعددهم ستون.

ويصرح الأميرال جيدون: عندما يثور الأهالي معنى هذا أنهم أغنياء وإفقارهم هو الوسيلة الوحيدة لنشر الأمن[١].

وطبق قول الأميرال فصادر أراضي سائر القبائل الثائرة والمقدرة ٥٧٤٠٠٠ هكتار وبقدرها أوغستين برنار بمليونين وستمائة ألف هكتار ومُلّكت للكولون.

وصرح النقيب فيلو أمام لجنة التحقيق: إن قانون العنف سينزل ثقيلاً على رؤوسنا، فلابد أن نطبق أحد الأمرين: إما أن نبيد العرب، أو نكون عادلين معهم. إذا قررنا تركهم يعيشون فلا ينبغي علينا أن نجردهم مما يملكون، وإذا قررنا تجريدهم من سائر أراضيهم فأنا أرى من العبث تركهم أحياء يعيشون إلى جواز أراضيهم التي انتزعناها منهم.

وفرضت غرامات كبيرة على المواطنين الذين شاركوا في الثورة، وصودرت منهم الأراضي ما يعادل نصف مليون هكتار، ومئات الآلآف من المواشي بحيث الذي صُدر من هذه المواشي لفرنسا بلغ مليون ونصف مليون رأس من البقر وقام بمهمة الشراء والتقدير والمرابون اليهود وقام الكولون بقتل المئات من المواطنين ويعجب الدكتور فيتال: من أن الكثير من الأسرى القبائل الذين حكم عليهم بالإعدام استقبلوا الحكم بفرح وبهجة وانطلق المدحون في شوارع وقرى ومدن الجزائر وبخاصة في بلاد القبائل، يغنون الأحزان والآلام التي تجمعت عن سياسة القهر والقمع التي مارستها القوة الاستعمارية بعد فشل ثورة المقراني والشيخ الحداد[٢].

وبالرغم من ضعف التخطيط والإعداد لثورة المقراني إلا أنها كانت الحدث الكبير الثاني بعد ثورة الأمير عبد القادر فبسبب المشاركة الوطنية الواسعة فيها والخسائر الضخمة التي

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٩٥.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٩٦ ـ ٥٩٧.

لحقت بالشعب في الأرواح والممتلكات تركت آثاراً عميقة في النفس الجزائرية، توارثتها الأجيال لتظهر مستقبلاً في الأحداث.

وأنتهت ثورة المقراني واستمر الشعب في ثوراته[1].

١١. ثورة واحة العمري:

جاءت هذه الثورة ضد العائلات الموالية لفرنسا في جنوب البلاد، وقد قاد الثورة ضد فرنسا والموالين لها السيد يحيى بن محمد "من أولاد بوزيد" ضد بولخراص بن قانة الذي كان متسلطاً على السكان ويعاملهم بخشونة كبيرة وفرنسا تدعمه، وفي صباح يوم ١١ أفريل ١٨٧١م نشبت معركة حامية الوطيس بين قوات يحيى بن محمد وجيشه المتكون من ٢,٠٠٠ مقاتل وبين فرقة كبيرة من القوات الفرنسية بقيادة الجنرال "كارتيري" وبالرغم من وفاة الزعيم يحيى بن محمد وإصابة داعيته أحمد بن عايش بجروح في اليوم الأول من المعركة، فإن الثوار قد واصلوا الكفاح حتى النهاية وفي يوم ٢٢ أفريل ١٨٧١م وصلت نجدات فرنسية من قسنطينة ونجدات أخرى من بوسعادة يوم ٢٤ أفريل ١٨٧١م من تلك السنة والتحق الجنرال روكبرون بزميله كارتيري المتواجد في منطقة القتال بواحة العمري، وآنذاك قامت القوات الفرنسية بشن هجوم على الثوار يوم ٢٧، ٢٨ أفريل ١٨٧١م وأضطر الثوار الذين بقوا على قيد الحياة أن يستسلموا للقوات الفرنسية ومباشرة بعد الانتصار على الثوار، قام الجنرال كارتيري بإعطاء أوامر بتخريب الواحة كلها على غرار ما فعله هيربيون بواحة الزعاطشة عام ١٨٤٩م[2].

١٢. انتفاضة الأوراس:

وهي في الحقيقة مشابهة لانتفاضة واحة العمري حيث كان سبب الانتفاضة هو محاربة الموالين لفرنسا وقد ابتدأت الانتفاضة يوم ٣٠ ماي ١٨٧٩م وذلك حين قام أنصار محمد أمزيان عبد الرحمن "المسمى محمد بن عبد الله" باغتيال قايد بني سليمان ثم قائد

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٦٠٠.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٩.

أولاد داود وذلك لأنهما كانا يقودان مجموعة من عملاء فرنسا للقضاء على الثوار المناهضين للاحتلال الفرنسي في الأوراس وتدخلت القوات الفرنسية لضرب الثائرين وإلقاء القبض على عدد كبير منهم، ونظراً لعدم تكافؤ القوة، إنسحب الثوار وتوجهوا إلى الصحراء ومن هناك دخلوا جنوب تونس، لكن الباي التونسي ألقى عليهم القبض وسلمهم إلى السلطان الفرنسية التي أنشأت مجلساً عسكرياً وحكمت على ١٤ من قادة ثورة الأوراس بالإعدام و٢٦ بالأشغال الشاقة ١٦ بالبراءة. إلا أن رئيس الجمهورية الفرنسية تدخل يوم ٩ نوفمبر ١٨٨٠م وخفف الأحكام الخاصة بالإعدام إلى الأشغال الشاقة وكعادتها قامت فرنسا بمصادرة أراضي هذه القبائل المتمردة عليها بالأوراس والتي تقدر بـ ٢,٧٧٧ هكتار من أخصب الأراضي[١].

١٣. ثورة أبو عمامة:

تعتبر هذه الثورة أطول ثورة في تاريخ مقاومة الاحتلال فقد دامت ٢٣ سنة على فترات متقطعة وتعتبر هذه الثورة امتداداً لثورات أولاد سيدي الشيخ التي بدأت سنة ١٨٦٤م واستمرت متقطعة تلتهب وتخبو. وينتمي الشيخ أبو عمامة بن العربي بن التاج الذي ولد في الفقيق على الحدود المغربية إلى عائلة عريقة وذات سمعة شعبية وهي أولاد سيدي الشيخ التي حاربت فرنسا لمدة من الزمن وقد اشتهر الشيخ بو عمامة بقدراته على مواجهة الفرنسيين وفشل فرنسا في إلقاء القبض عليه، كما هو معروف[٢].

وكان بوعمامة يمتاز بسرعة تنقل قواته التي كانت مصدر قصص شعبية نسبت هذه السرعة إلى كرامات الشيخ التي كانت تجعل قوات العدو لا تراه وهذه القصص زادت من رصيده في الوعي الشعبي بحيث راح الناس ينضمون لثورته ويعتبرون ذلك تقرباً إلى الله، والسبب الحقيقي راجع إلى معرفته الجيدة بالصحراء وبالمنافذ التي توصله إلى التل بعيداً

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

عن أعين العدو، وقد اعتمد على أدلاء مهرة عارفين بالمناطق جغرافياً وسكانياً، يقومون بدور مزدوج كشف الطرق وكشف مواقع طوابير العدو من أجل تجنبها كما قسم جيشه إلى كتائب وجعل كل واحدة منها تسلك طريقاً مخفياً وجوده، لأن العدو كان يبحث عنه هو.

حيرت المسيرة الكبرى نحو التل الضباط الفرنسيين فقد تمكن في ثلاثة وعشرين يوماً من قطع سبعمائة وثلاثين كيلو متر، وفي الطريق كان الثوار يستولون على حبوب ومواشي العشائر المتعاونة مع العدو. كما قاموا بقطع أعمدة التلغراف بين فرندة والبيض، وهاجموا مستودعات ومراكز للشركة الفرنسية للحلفاء وقتل الكثير من موظفيها وعمالها الذين كانوا إسباناً[1].

وامتدت ثورة بوعمامة إلى ناحية وهران في شمال البلاد، لكن نجاحه الكبير كان في الصحراء حيث أسر الجزائريون في عهده بعثة عسكرية فرنسية كانت متواجدة في الهوقاز بقصد اكتشاف مجاهل الصحراء،

وقتلوا قائد البعثة الكولونيل "فلاتين". وفي معركة أخرى استطاع بوعمامة أن يأسر ثلاثمائة فرنسي[2].

وفي الأخير استطاع الفرنسيون أن يحاصروا بوعمامة في الصحراء بحيث لا تتسرب أخبار مقاومته إلى شمال البلاد. كما تغلبوا عليه بسبب تفوقهم في السلاح "وخاصة المدفعية"، وكذلك ازدياد النفوذ الفرنسي في المغرب وصعوبة تنقله بين البلدين، وقد توفي بوعمامة بصفة طبيعية يوم ٧ أكتوبر ١٩٠٨م في دائرة وجدة بالمغرب الأقصى الشقيق هذه.

باختصار، بعض الثورات والانتفاضات التي وقعت بالجزائر خلال القرن التاسع عشر، والتي تثبت لنا أن الجزائريين قد تصدوا لقوات الاحتلال الأجنبي وحاولوا باستمرار أن

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٠٥.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٥١.

يناضلوا من أجل استرداد السيادة للدولة الجزائرية وإجبار العدو على مغادرة الجزائر وتركها لأهلها الأصليين، لكن قوة العدو وتفوقه في السلاح وحيله المعروفة بانتهاج سياسة "فرق تسد" واستيلائه على ثورات الجزائريين، ساهمت في أضعاف المقاومة الجزائرية وتحقيق حدتها.

وكما سنرى لاحقاً فإن قوات الاحتلال الفرنسي والمستوطنون الأوروبيون قد قاموا بحركة قمع وتعذيب الجزائريين وحرمانهم من الحقوق السياسية إلى درجو أن الجزائريين تحولوا إلى سجناء وعبيد في وطنهم الأصلي[١].

ويبدو أن الشيخ بوعمامة اصطدم بمعارضة كثير من الزوايا المنافسة لزاويته بسبب سياسة المستعمر في إدراك خطورة الزوايا التي كانت الركيزة الأساسية لثورات الأمير عبد القادر، وسيدى السعدي، والمقراني وغيرها، فركز الفرنسيون بعد ثورة المقراني على التغلغل في الزوايا وشراء ذمم بعض قادتها، ويؤكد ذلك تلك الرسالة التي وقعها محمد بن القاسم الحملاوي رئيس إخوان الطريقة الرحمانية بوسط البلاد، والتي يدعو فيها الشعب والقبائل إلى عدم أتباع بوعمامة، والتي قامت السلطات الاستعمارية بنشرها وتعميمها في سائر أنحاء البلاد في نهاية ١٨٨١م. لقد استمرت سياسة المستعمر وسط الطرق الصوفية نشطة طوال القرن التاسع عشر، والثلث الأول من القرن العشرين وهذا هو الذي يفسر اهتمام حركة عبد الحميد بن باديس الإصلاحية على مناهضة المنحرفين في الطرق والزوايا، التي كانت تقود مشعل الثورات الشعبية بين ١٨٣٠ و ١٨٨٠م والتي تمكن المستعمر من التسرب إليها بعد هذا التاريخ والتأثير على هذا المنبع وإضعافه الذي كان وقوداً وداعماً للثورات الشعبية ضد الغزاة[٢]، ولم تنقطع الثورات بعد ثورة الشيخ بوعمامة واستمرت ومن هذه الثورات:

- ثورة سكان عين التركي ومليانة بزعامة الشيخ يعقوب ١٩٠١م.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٥١.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٠٧.

- مجازر عين بسام ١٩٠٦م.
- ثورة سكان بني شقران في جبال معسكر ١٩١٤م.
- ثورة سكان الأوراس والهضاب العليا الشرقية ١٩١٦ ، ١٩١٧.
- ثورة سكان التوارق بأزجر والأهفار ١٩١٦ - ١٩٢١م.
- مجازر مدينة قسنطينة في أوت ١٩٣٤م.
- مجازر ٨ ماي ١٩٤٥م بسطيف وقالمة وخراطة وعموشه وغيرها ١٩٤٥م.
- مجازر دوار السطح بتبسة ١٩٤٧م.
- مجازر برج منابل وسيدي علي بوناب بجرجرة ١٩٤٨م.
- تمرد جنود فرقة الرماة الجزائريين بالحراش ١٩٤١م.
- مجازر قرى جبال الأوراس ١٩٥١م - ١٩٥٣م.
- ثورة نوفمبر الكبرى ١٩٥٤م - ١٩٦٢م.

وكانت هذه كخاتمة لها ونهاية وقدم الشعب خلالها حوالي مليون ونصف مليون شهيد[١].

عاشراً: الحكم العسكري الفرنسي بالجزائر

في ٢٢ ديسمبر ١٨٣٣م تشكلت لجنة ثانية موسعة تتألف من ١٩ شخصية وعسكرية ومدنية برئاسة الذوق ديكازيس الذي كان عضو بمجلس الشيوخ الفرنسي وبعد عقد ٥٦ جلسة أكد أعضاء اللجنة الثانية اقتراحات اللجنة الأولى ونصحوا الحكومة الفرنسية ببسط السيادة الفرنسية على القطر الجزائري بأكمله والعمل على استغلال الأرض والسيطرة على جميع ثروات البلاد، وباختصار، فإن اللجنة لم تكن محايدة ولكنها كانت وسيلة لتنفيذ برنامج الحكومة في الجزائر، وكما قال حمدان خوخية: فقد أجمع أعضاء اللجنة على مواصلة الاحتلال وعدم التخلي على الفريسة، لأن الجزائر تقدم لفرنسا

[١] المصادر، مجلة فصلية تعني بشئون المقاومة الشعبية، ص: ٣٧.

منافع كثيرة في الميادن الاقتصادية والسياسية والحربية، فهي سوق لترويج بضائعها ومنفى للمشوشين من أبنائها ومركز استراتيجي تستعمله في حروبها وفي نشر سلطانها على البحر الأبيض المتوسط.

واشتمل التقرير الذي قدمته اللجنة الثانية للحكومة الفرنسية بتاريخ ١٠ مارس ١٨٣٤م اشتمل على اقتراحات ذات أبعاد خطيرة تتمثل في:

١ ـ خلق منصب الحاكم العام بإدخال عناصر جزائرية إلى المجلس البلدي.

٢ ـ إنشاء مجالس بلدية في كل من الجزائر وهران، وعنابة.

٣ ـ إنشاء ميزانية خاصة بالجزائر.

٤ ـ تخفيض عدد أفراد الجيش إلى ٢١,٠٠٠ جندي ونستخلص من ما تقدم أن الجزائر أصبحت تحكم بطريقه عسكرية خاضعة لوزارة الحربية الفرنسية أي أنها لا تنطبق عليها القوانين الفرنسية بصفة طبيعية لأن عندها نظام عسكري خاص بالجزائر.

كما أن السياسة الرسمية لفرنسا أصبحت على أساس وجود حاكم عام ينفذ السياسة العسكرية لوزارة الحرب الفرنسية، وحسب النصوص القانونية التي وردت في الأمر الرئاسي الصادر بتاريخ ٢٢ جويلية ١٨٣٤م، فإن الحاكم العام يعين من طرف مجلس الوزارة بناء على اقتراح من وزير الحربية الفرنسي، وفي البداية أعطيت له كل الصلاحيات بحيث يقوم بإعداد الميزانية التي تدخل في إطار ميزانية وزارة الحرب على تقدم البرلمان الفرنسي، كما أنه يشرف على قضايا جمع الضرائب وفرضها ومعاقبة من لا يدفعها، كما يختص بقضايا العدالة وإشرافه على أعمال رجال القضاء وبصفته الحاكم العام فإنه المسئول الأول عن قضايا الأمن والشرطة وكل المسائل العسكرية، وانطلاقاً من هذا التنظيم الجديد المتمثل في خضوع الجزائر لوزارة الحرب الفرنسية حتى سنه ١٨٧٠م ووجود حاكم عام يشرف على تنفيذ أوامر وزارة الحرب في باريس، فإن الحكومة الفرنسية قد تركت الجزائر لوزارة الحرب لكي توجهها حسبما تقتضي مصلحة القادة العسكريين ومصلحة المغامرين الأجانب

الذين جاؤوا من جميع أنحاء أوروبا للاستيلاء على خيرات الجزائر وتسخير أبناء هذا البلد لخدمة الغزاة بأنجس الأثمان.

وتحقيقاً لهذه الأهداف، تقرر أن يستعين الحاكم العام بستة شخصيات عسكرية ومدنية لإقامة إدارة قوية قادرة على التحكم في مجرى الأمور بالجزائر وإخضاع الجزائريين بالقوة

إلى رغبات الأوروبيين في هذا الإطار العام قام الحاكم العام بتعيين:

١ ـ قائد للجيش لكي يساعده في الميدان العسكري.

٢ ـ قائد للبحرية مسؤول عن القوات الفرنسية في قطاعه.

٣ ـ مسؤول عن القضايا المالية والإدارية في الميدان العسكري وفي الحقيقة أن الحاكم العام لم يكن هو المسؤول المباشر عن هؤلاء المسئولين من الناحية العملية، لأن وزارة الحرب الفرنسية هي التي كانت تأمرهم بما ينبغي عمله في كل خطة، لكن الحاكم العام كان يشرف بطريقة مباشرة وبتنسيق مع وزارة الحرب وعلى المساعدين الثلاثة المدنيين وهم:

١ ـ المسؤول الإداري المدني: هو الشخص القوي في الجزائر بعد الحاكم العام. إن سلطاته تعادل سلطاته تعادل سلطة عامل العمالة في فرنسا، حيث كانت تسميته في هذا المنصب تأتي من طرف الملك بناء على اقتراح من وزير الحرب في فرنسا ويعتبر هو المحرك الرئيسي للإدارة الاستعمارية لأنه يشرف على توجيه كبار الموظفين الذين يخضعون لتعليماته وأحكامه.

٢ ـ النائب العام: ويمكن وصفه هنا بالشخصية القوية التي تسيطر على القضاء والقضاة.

٣ ـ المدير المالي: الذي كان يعتبر بمثابة وزير المالية في الإدارة الاستعمارية إذ أنه كان يشرف على إعداد الميزانية وجمع الضرائب ويتمتع بحق الأمر بالصرف في الجزائر، وأما الهيئة الثالثة التي كانت تقوم عليها الإدارة الاستعمارية بالإضافة إلى الحاكم العام وكبار الموظفين المساعدين له، فكانت تتمثل في مجلس الإدارة الذين يمكن اعتباره هو السلطة

العليا لاتخاذ القرارات الجماعية وفي إمكان الحاكم العام توسيعه وتعيين أعضاء آخرين فيه ويختص هذا المجلس بدراسة قضايا الميزانية في الجزائر، والجباية المالية في الميدان الجمركي، والأمن والعبادات، ومجلس الإدارة هو الذي كان يحدد سياسة فرنسا في الجزائر، وطبعاً فإن وزارة الحربية الفرنسية هي التي ترجع إليها الكلمة الأخيرة في كل مسألة يناقشها مجلس الإدارة ويعرضها عليها للموافقة وإبداء الرأي قبل تنفيذها.

وتقرر في الأمر الرئاسي الصادر في ١٥ أفريل ١٨٤٥م تقسيم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات هي: الجزائر، ووهران وقسنطينة، وبهذا الأسلوب تقلصت سلطات الحاكم العام وأصبحت حكومة باريس تسيطر على مجرى الأمور بحيث أن رئيس الدولة الفرنسي هو الذي يصدر المراسيم المتعلقه بالجزائر، ووزير الحرب الفرنسي هو الذي يصدر التعليمات والقرارات الخاصة بالجزائر، وتمشياً مع هذا التنظيم الجديد، تم تعيين مدير إداري ومدير للشؤون الداخلية، والأشغال العمومية ومدير للمالية والتجارة، ووكيل للجمهورية، ومدير للشؤون العربية، والجميع يعملون تحت إشراف مدير الشؤون المدنية، لكن التغيير الجذري في وضعية الجزائر حدث في عام ١٨٤٨م حيث وقعت الثورة وشارك المعمرون الفرنسيون فيها بوفد وطالبوا بإدماج الجزائر في فرنسا بصفة رسمية وإعطائهم ٤ مقاعد في البرلمان الجديد وبالفعل فقد تمكنوا من القيام بضغوط على الحكومة الجديدة وتعيين ٤ نواب لكي يمثلوهم في البرلمان الفرنسي، وقد تحصلوا على هذا المكسب السياسي بمقتضى الدستور الجديد الصادر بتاريخ ٤ نوفمبر ١٨٤٨م والذي نصت المادة ١٠٩ منه على اعتبار الجزائر أرضا فرنسية[١].

وفي الحقيقة أن استراتيجية الجيش الفرنسي في الجزائر كانت تقوم منذ البداية على تحطيم النظام وقوانين العمل الجزائرية في كل منطقة يتم احتلالها وذلك بقصد تكسير العلاقات العائلية وإقامة نظام جديد يحل محل النظام المألوف عند الجزائريين.

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٢٦.

وتحت غطاء المحافظة على الأمن وتوسيع نفوذ الدولة الفرنسية وتوسيع الأراضي الفائضة عن احتياجات كل عرش قامت السلطات العسكرية بالاستيلاء على أراضي الأعراش لأن وجود الأراضي في حوزة جماعات جزائرية يمنع أو يحول دون توسع الاستيطان الأوروبي بالجزائر، كما أن فلسفة فرنسا في الجزائر، كانت تقوم على أساس أن التحكم في الجزائريين وإخضاعهم لنفوذها يتوقف على تحويلهم من مالكين إلى أجراء يعملون لتنمية ثروات المعمرين الأوروبيين[١].

الحادي عشر: لويس نابليون الثالث

إن انتخاب لويس نابليون بونابرت الثالث كرئيس للدولة من طرف الجمعية الوطنية الفرنسية في شهر ديسمبر من عام ١٨٤٨م غير مجرى الأمور بعض الشيء لأن الجمهوريين اليساريين كانوا يظنون أنه سيخدمهم ويعمل على تحقيق مطالبهم فأيدوه، ورجال الكنيسة والمحافظون اعتقدوا أنه ليس مثل عمه نابليون بونابرت الأول الذي كان يتميز بالثورية واستعمال القوة العسكرية فوضعوا ثقتهم فيه غير أن لويس نابليون فاجأ الجميع بانتهاجه سياسة خاصة به وحسب مزاجه حيث استعان بالفلاحين ورجال الأعمال وجندهم للعمل من أجل المحافظة على الاستقرار والأمن، وتخلص من خصومه، وعمل على كسب ولاء الجيش والشرطة وكبار المسؤولين في الدولة. وفي شهر ديسمبر من عام ١٨٥٢م ألغى النظام الجمهوري وأنشأ الأمبراطورية الثانية التي تربع على عرشها لغاية انهزام جيشه في معركة سيدان واعتقاله من طرف بروسيا سنة ١٨٧٠م[٢].

حاول أن يتقرب للشعب الجزائري، فأخرج الأمير عبد القادر من السجن وقال للجنرال روندون الذي عينه وزيراً للدفاع لابد أن تطبق عدالة تامة بين الفرنسيين والأهالي إن هذا

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٦.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٢٦.

فقط هو العدل والشرف والحقيقة.. إنه لا نفع من أخذ جزء من أراضي الأهالي لزيادة حصة الاستيطان، ينبغي إقناع العرب بأننا لم نأت للجزائر لاضطهادهم وتجريدهم من ممتلكاتهم، لكن لكي ننقل لهم محاسن المدنية لنترك الأهالي تربية الخيول والمواشي والفلاحة الطبيعية للأرض ولنترك لنشاط وذكاء الأوروبيين استغلال الغابات والمناجم وتجفيف المستنقعات والري، وإدخال زراعات راقية، وكل ما يتعلق بتطوير الاستعمار[١].

وأصدر الامبراطور نابليون الثالث سنة ١٨٦٥م مرسومه الشهير "سيناتوس كونسيت" الذي أعلن فيه مساواة الجزائريين للفرنسيين في الحقوق والواجبات مع السماح لهم بالرجوع في أحوالهم الشخصية إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وقد زار الإمبراطور بلاد الجزائر من ٣ / ٥ إلى ٧ / ٦ / ١٨٦٥م وخطب قائلا: هذا البلد مملكة عربية ومستعمرة أوروبية، ومعسكر فرنسي ولابد من التعامل مع الجزائريين على هذه الأسس الثلاثة. وسخط الكولون على عبارة "مملكة عربية" ورفضوها علناً، وانتقلت المعارضة إلى فرنسا حيث أصدر البرلمان قراراً يتراجع به عن هذه العبارة ويقر: بأن الأهل فرنسي مع استمراره في أن يسير بالقانون الإسلامي، ويمكن إذا رغب أن يكتسب صفة المواطنة الفرنسية كاملة[٢].

وقد استهل خطابه بقوله: إنني أُعدُّ نفسي إمبراطور العرب كما أني امبراطور الفرنسيين وكلهم في نظري متساوون[٣]، ورفض الجزائريون التجنس الفرنسي بحيث لم يطلبه سوى ١٩٤ بين قانون ١٨٦٥م وقانون ١٨٧٠م[٤].

كانت سياسة نابليون ترمي إلى مدى بعيد فإن المستعمرين الفرنسيين الذين كانوا قد رحلوا إلى الجزائر ثاروا على هذه التسوية المزعومة وقاموا بكل ما لهم من جهد سياسة

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٩.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

[٣] الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص: ٨٦٧.

[٤] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

نابليون، مبرهنين بذلك على ما استمروا عليه من تقديم مصلحتهم الخاصة والمستعجلة على مصلحة فرنسا نفسها.

ومن الذين وقفوا ضد الإمبراطور في سياسته الجزائرية الكاردينال لافيجري الذي صرح قائلاً: لابد من إنقاذ هذا الشعب، ينبغي علينا الكف عن تركه وسط قرآنه بواسطة خلق مملكة عربية مزعومة لابد أن تعطيه فرنسا الإنجيل وذلك بدمجه في حياتنا، أو طرده في الصحراء بعيداً عن العالم المتمدن[١].

وعندما تكلم الكاردينال عن البربر قال: لابد من العمل على مناهضة البربر للعرب. وراحت الإدارة تحقق ذلك فعلاً، وشعر رؤساء العشائر القبائلية بذلك فسخطوا على المستعمر، لدرجة أن العقيد والمؤرخ هانوتو كتب يقول: وهذا التوجه: أي العمل على مناهضة البربر والعرب هو الذي ولد ثورة القبائل.

واستغل الكاردينال المجاعة التي عصفت بالشعب سنتي ١٨٦٧ و ١٨٦٨م وجمع في هذه السنة ١٧٥٣ يتيماً بين ثماني وعشر سنوات، ولم يحتج الكاردينال باسم المسيحية التي تسببت في موت مئات الآلاف من الفلاحين بالمجاعة بسبب إفراغها لمطاميرهم من الحبوب بنهبها أو تخريبها بحيث عندما جاء الجفاف بالمجاعة لم يجد الفلاحون في مخزونهم ما يواجهون به الجفاف، والفلاحون عادة يحتفظون في مطاميرهم بما يكفيهم لسنة إضافية على الأقل. راح الكاردينال يعمل على تمسيح هؤلاء اليتامى ويغرس في نفوسهم الكراهية ضد العرب والمسلمين، كان يطلق أمامهم شتائمه ضد العرب والمسلمين فيقول: لقد جمع الإسلام كل المساوئ: الطلاق، الكسل، تعدد الزوجات، السرقة، الشيوعية الزراعية، التعصب، أكل لحم البشر.

طلبت منه السلطات بضغط من الإمبراطور إعادة هؤلاء الأطفال إلى ذويهم فرفض، بل وراح على تمسيح قرى بالشلف مستغلاً المجاعة قائلا للفلاحين: إذا أردتم أن تبقى أرضكم

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

فتمسّحوا تصيروا فرنسيين. وحسم الإمبراطور الموقف فقال للكاردينال: اكتف بالحفاظ على المسيحية بين مائتي ألف كاثوليكي يعيشون بالجزائر ودع المسلمين يعيشون وشأنهم[١].

وفي الأيام الأخيرة من حكم لويس نابليون، بدأ المعمرون الأوروبيون يفرضون أنفسهم على الساحة الجزائرية ويؤثرون في مجرى الأمور، وخاصة أن سياسة نابليون الداخلية كانت مهزوزة والباريسيون يعارضون مشاريعه الارتجالية، وقد شعر الإمبراطور بضعفه أمام المستوطنين الأوروبيون بالجزائر وحاول إرضاءهم عن طريق إصدار مرسوم يوم ٣١ ماي ١٨٧٠م، بحيث يتحرر رؤساء العمالات الثلاثة في الجزائر من القيود المفروضة عليهم من طرف السلطات العسكرية، وحسب هذا المرسوم فإن رؤساء العمالات صاروا يتمتعون بالإستقلال التام في العمل، والعسكريون لا يسيطرون على المناطق المدنية، وينحصر نفوذهم في المناطق العسكرية وفي يوم ١١ جوان ١٨٧٠م أصدر الإمبراطور مرسوماً آخر يسمح للمستوطنين الفرنسيين بإجراء الانتخابات في المناطق المدينة واختيار الأعضاء الذين يمثلوهم في المجالس العامة، وقد أثارت هذه التنازلات للمعمرين غضب الجيش والحاكم العام مكماهون الذي استقال من منصبه احتجاجاً على سياسة الخضوع للضغوط المتوالية على الإمبراطور لنقل السلطة في الجزائر إلى يد المستوطنين، لكن انهيار الإمبراطورية ووقوع الإمبراطور نفسه أسيراً في يد الألمان كان بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية حول كيفية تسيير الجزائر[٢].

إن سياسة نابليون الثالث في الجزائر كانت مائعة ولم تحقق أية نتيجة بالنسبة للجزائريين سواء بالنسبة لحصولهم على حقوقهم السياسية والمتمثلة في حرية التعبير أو بالنسبة للمساواة مع الفرنسيين المقيمين بالجزائر، وعليه فإن سياسة إدماج الجزائر في فرنسا والمساواة بين الفرنسيين والجزائريين في الحقوق والواجبات لم تتجسم في أرض الواقع وكل

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨١.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٧ ، ١٣٨.

ما عمله في حقيقة الأمر هو تمكين قادة الجيش من التصدي لمقاومة الجزائريين في بلاد القبائل وفي الجنوب وتدعيمهم من أجل الانتصار على رجال المقاومة الجزائرية وبذلك حقق رغبة الفئة العسكرية وبالنسبة للمعمرين، فقد ساعدهم على تحطيم مؤسسات الدولة الجزائرية واستبدال تلك المؤسسات بهياكل إدارية جديدة فرنسية سواء في ميدان التسيير الإداري أو القضائي أو المالي[١].

١ . معركة سيدان وأسر الإمبراطور:

انهارت الإمبراطورية الفرنسية بوقوع الإمبراطور نابليون الثالث أسيراً في يد الألمان وكان ذلك بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية حول كيفية تسيير الجزائر، فالعسكريون الذين انهزموا في معركة "سيدان" فقدوا مصداقيتهم الاجتماعية في الجزائر وفي فرنسا ذاتها، والمجموعة العسكرية المتواجدة بالجزائر لم تعد تتلقى التعليمات من القيادة المركزية، وبذلك تركوا المبادرة للمدنيين لكي يفعلوا ما يشاءوا بالجزائر، وبمجرد تعيين أدولف كريميو كمسئول عن الداخلية في حكومة الدفاع الوطني قام هذا الأخير بإصدار جملة من القرارات في شكل مراسيم لإنهاء الحكم العسكري في الجزائر وإعطاء السلطات المطلقة للمعمرين وبناء على هذه المراسيم الصادرة بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م تقرر:

أ . أن يتم إلغاء منصب الحاكم العام في الجزائر "التابع لوزارة الحرب" ويعوض بحاكم عام مدني، يوضع تحت تصرفه ٣ رؤساء عمالات أو رؤساء مقاطعات إدارية.

ب . أن تنحصر سلطات القائد العسكري في المناطق التي تخضع للجيش فقط ولا يحق له أن يتدخل في الشؤون المدنية.

ج . أن يقوم الحاكم العام الذي يتم تعيينه من طرف مجلس الوزراء "وليس وزارة الحرب" بتطبيق سياسة الحكومة في الجزائر.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٢٩.

ح ـ أن يقوم رؤساء العمالات بإنشاء مجالس عامة منتخبة من طرف الفرنسيين فقط، وفي كل مجلس عام يحق لوزارة الداخلية أن تقوم بتعيين ٦ مسلمين.

ثم جاء المرسوم الثاني والذي سمح لليهود أن يأخذوا الجنسية الفرنسية ويشاركوا في الحكم مع الأوروبيين الغزاة وبذلك تبقى الفئة الوحيدة المحرومة من المشاركة السياسية هي أبناء البلد الأصليين الذين حرموا من حق التصويت في الإنتخابات وحق التعبير عن أفكارهم وآرائهم السياسية[١].

وفي يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠م جاء مرسوم آخر لإلغاء المناطق العسكرية وتحويل تلك المناطق تدريجيا إلى يد السلطة المدنية وهذا معناه بسط نفوذ المعمرين على جميع المناطق التي كانت تخضع سابقاً إلى سلطة العسكريين[٢].

٢ ـ إلغاء المكاتب العربية:

وفي إطار هذه القرارات والمراسيم المؤيدة للمعمرين الفرنسيين قررت حكومة الجمهوريين إلغاء المكاتب العربية وحولت تلك المكاتب إلى مكاتب لشؤون الأهالي أو أبناء البلد، والمكاتب العربية تمّ تأسيسها من قبل الجيش الفرنسي للتواصل مع الأعيان والقبائل وكانت في بدايتها مسئولة عن تسهيل عملية الاتصال برؤساء العشائر والتفاوض معهم وإقناعهم بقبول مبدأ التعاون مع فرنسا مقابل التزام هذه الأخيرة باحترام أساليب عملهم والعادات والتقاليد الموجودة عندهم وتوفير الأمن والطمأنينة في مناطق نفوذهم وحماية مصالحهم، ونظراً لازدياد دور هؤلاء العملاء في مساعدة الجيش الفرنسي على احتلال بقية المناطق في البلاد، فقد قرّر الجنرال بيجو في ١٨٤٤م أن يؤسس بصفة رسمية المكاتب العربية ويضع لها الهياكل الإدارية بحيث تصير هذه المكاتب العربية هي الوسيلة الأساسية التي سيستعملها الجيش الفرنسي لإخضاع الجزائريين والقضاء على ما بقي من مؤسسات الدولة الجزائرية، وحسب التنظيم الجديد للمكاتب العربية التابعة للجيش

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٣٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٣٩.

الفرنسي، فإن إداراة الشؤون العربية على مستوى القيادة العسكرية قد قامت بتأسيس إدارات فرعية لها على مستوى المقاطعات الثلاثة الموجودة بالجزائر وفي كل مقاطعة توجد وحدات للمكاتب العربية من الدرجة الأولى، ووحدات ثانوية من الدرجة الثانية، وباختصار فإن المكاتب العربية تحولت إلى إدارات محلية للتحكم في السكان الجزائريين وفي عام ١٨٦٥م بلغ عدد المكاتب العربية في عمالة قسنطينة ١٥ مكتباً، وفي عمالة الجزائر ١٤ مكتباً، و١٢ مكتباً في عمالة وهران.

وتتشكل المكاتب العربية في كل مقاطعة أو عمالة جزائرية من:

- مدير.
- ضابط مسؤول عن الصحة.
- ضابط مسؤول عن دفع المكافآت المالية.
- مترجمان.
- ضابط صف.
- خوجة "كاتب عربي".
- وكيل الضياف.
- حاجبان "الشاوش".

وبمضي الوقت ازداد نفوذ المكاتب العربية وأصبح دور المسؤولين في هذه المكاتب هو تعيين وخلع المسؤولين المحليين وجمع الضرائب واستصدار قرارات في المسائل الشرعية أو القضائية.

لكن في واقع الأمر تعتبر المهمة الرئيسية لرؤساء المكاتب العربية بصفتهم ينتمون إلى السلطة العسكرية هي جمع المعلومات التي تخدم الجيش وتساعده على تقوية نفوذه، وتتمثل هذه المعلومات على إحصاء الأراضي والتعرف على مجاري المياه، وأخذ فكرة عن

التنظيم السياسي الموجود في أوساط العشائر وتحديد نوعية المداخيل المالية حتى يتمكن الضباط من الحصول على أموال كبيرة عند جمع الضرائب[1].

وبما أن المكاتب العربية كانت تابعة للجيش وتعمل لتدعيم نفوذه، فقد شن المعمرون الأوروبيون حملة شعواء ضد هذه المكاتب واتهموها بأنها مكلفة لهم مالياً إذ أنهم يتحملون التكاليف الباهظة والأموال الكثيرة التي يقوم بتنفيذها رؤساء المكاتب العربية، وبمجرد سقوط الإمبراطورية وانهزام نابليون الثالث واعتقاله من طرف الألمان، تمّ حل المكاتب العربية بقرراين صادرين بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٠ نوفمبر ١٨٧٠م وتحويل المناطق التابعة للمكاتب العربية إلى مناطق مدينة تابعة للنظام المدني الذي يوجد بين يدي المعمرين في المقاطعات أو العمالات الثلاثة[2].

٣ . الحكم المدني في العصر الجمهوري:

تقرر منح التمثيل النيابي لكل ولاية جزائرية في البرلمان الفرنسي، ثم السماح للمعمرين الأوروبيين سنة ١٨٧٥م أن يكون لكل ولاية ممثل لهم في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي مجال القضاء أصبحت المحاكم تتشكل من الفرنسيين فقط وتصدر الأحكام التي تراها أنها تخدم قضايا المعمرين فقط.

وبعد تحقيق هذه الانتصارات السياسية، حول قادة الجالية الأوروبية أنظارهم إلى مسألة تعمير الجزائر بعناصر أوروبية قادرة على إستغلال الأراضي والإستفادة من الطاقة البشرية المتوفرة بأبخس الأثمان وقد وضع الأوروبيون خطة لجلب ١,٦٠٠,٠٠٠ مهاجر جديد وهذا بقصد الاستيلاء على نصف أراضي العرب سواء بإبعادهم أو عزلهم أو مصادرتها، ثم الاعتماد على الدولة لتمويل مشاريع الإسكان والإقامة. والشيء الذي جعل المعمرين مقتنعين بنجاح خطة مشاركة الدولة في مساعدتهم للتغلب على الصعاب التي تعترض سبيلهم هو تفاقم عدد اللاجئين الفرنسيين القادمين من مقاطعة "الزاس ـ لورين" التي

[1] المصدر نفسه، ص: ١٣١.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٢.

أصبحت تابعة لألمانيا بعد هزيمة فرنسا سنه ١٨٧٠م فالحكومة كانت مجبورة على إيجاد العمل لأولئك الفرنسيين الفارين من المنطقة المحتلة، والمكان الوحيد الذي يسعهم هو الجزائر التي في إمكانها أن تستوعبهم وتجنب الحكومة الفرنسية قضية مزاحمة سكان فرنسا من طرف اللاجئين الجدد.

ونستخلص من ما تقدم: أن النظام العسكري بعيوبه ومساوئه التي لا تعد ولا تحصى، يعتبر أهون من الحكم المدني في العصر الجمهوري، فبالرغم من تعنت القادة العسكريين واستيلائهم على الأراضي الخصبة لكي يصبحوا هم أسياد البلاد في القطر الجزائري ويقيموا المخططات الواسعة التي مكنت الدخلاء على البلاد من توطيد قدمهم وقهر أبناء شمال أفريقيا، فإن القادة الجمهوريين هم الذين ساعدوا الأوروبيين على فرض إرادتهم على الملاك الجزائريين وتحويلهم إلى مجرد عاملين بالإجرة أو أجبروهم على الهجرة إلى أماكن أخرى للبحث عن العيش. كما أن القادة الجمهوريين هم الذين جاءوا بالبرامج المسطرة لتوسيع نطاق "التعمير الرسمي" وتقديم المساعدات الحكومية الضخمة لإنشاء المشاريع التجارية والعمرانية الخاصة بتسهيل إقامة الجاليات الأجنبية في الجزائر. وأكثر من هذا، عمد قادة الجمهورية الثالثة إلى اتباع سياسة إخضاع تونس والمغرب ووضعها تحت الحماية الفرنسية وبفضلهم أيضا، منحت الجالية اليهودية بالجزائر حق الحصول على الجنسية الفرنسية دون أن يتخلى هؤلاء اليهود عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية وبهذه القرارات استطاع المهاجرون الفرنسيون والأجانب أن يستولوا على مساحات كبيرة من أراضي الجزائر ويضمنون لأنفسهم مستقبلا في شمال أفريقيا.

وبعبارة أخرى، فإن سياسة الجمهوريين في مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر، كانت ترمي إلى رفع معنويات المستوطنين الأجانب بالجزائر عن طريق تقديم معونات مالية وعقارية إليهم حتى يتمكنوا من توطيد إقدامهم بالجزائر وتحقيقاً لهذا الهدف، تعهدت الدولة الفرنسية بتخصيص إعانات مالية لبناء المدن والمدارس والعمارات في

الأماكن التي يقطنها الفرنسيون وتوفير القروض لرجال الأعمال الذين يرغبون في القيام بمشاريع تجارية، كما قدمت الحكومة تسهيلات بشأن الهجرة إلى الجزائر ووضعت تحت تصرف المهاجرين الجدد الأراضي الشاسعة لاستغلالها دون مقابل وتجسدت هذه السياسة في القانون يوم ٢١ جوان ١٨٧١م والذي وافق فيه مجلس النواب الفرنسي على منح ١٠٠,٠٠٠ هكتار للاجئين الفرنسيين من ألزاس ـ لورين. كما اقترحت لجنة برلمانية مصادرة ٣٤٠,٠٠٠ هكتار من أراضي الجزائريين وذلك لتسكين الوافدين الجدد على الجزائر، ولم يكتف البرلمان بهذا، بل استغل ثورة الجزائريين على فرنسا سنه ١٨٧١م وأعطى موافقته على فرض "ضريبة الحرب الإجبارية" كعقاب على حمل الأسلحة ضد فرنسا.

وبعد عامين من تدفق المهاجرين الفرنسيين والأجانب على الجزائر إتجهت نية قادة الجمهورية إلى توسيع رقعة المعمرين على حساب ملاك الأراضي الجماعية حيث تقرر أن لا يسمح لأهل البلد الأصليين بأي شبر من الأراضي يفوق ما يستطيعون خدمته من الأرض، كما نص قانون ٢٦ جويلية ١٨٧٣م الذي أقره مجلس النواب الفرنسي على اعتبار كل الأملاك العقارية خاضعة للقانون الفرنسي. وهذا يعني أن أراضي الوراثة ينبغي أن تقسم وأنه لم يعد من حق المسلمين المحافظة على الأملاك الجماعية التي هي عادة مرعية في الشريعة الإسلامية، وزيادة على ذلك فإنه نتج عن هذا القانون نوع من المضاربة والتسابق إلى التخلص من الأراضي، الشيء الذي أدى إلى قيام نزاعات وحزازات محلية بين المواطنين الجزائريين، ثم أن الفرنسيين أنفسهم استغلوا هذه النقطة بالذات وحرضوا الملاك الصغار والورثة على المطالبة بحقوقهم للتغلب على خصومهم في حالة ما إذا آلت قضاياهم إلى المحاكم لتبت في الأمر، ومما لا شك فيه ولا جدال هو أن عدداً لا يستهان به من سكان البلد الأصليين قد خسروا أراضيهم في النهاية وذلك نظراً لقلة إلمامهم

بالإجراءات القانونية الدقيقة التي ينبغي إتباعها لإثبات حقوق الملكية وربح المعركة ضد المهاجرين الأجانب[1].

٤ . سياسة المستوطنين بعد سنة ١٨٧٠م:

بمجرد الإطاحة بحكومة نابليون الثالث يوم ٢ سبتمبر ١٨٧٠م وإلقاء القبض عليه وسجنه في ألمانيا لغاية ١٨٧١م ثم نفيه إلى بريطانيا حيث مات ١٨٧٣م جاءت حكومته الدفاع الوطني لتتخذ إجراءات خطيرة لصالح المستوطنين الأوروبيين في الجزائر وتحقق جميع مطالبهم ومالت الكفة لصالح المستوطنين الأوروبيين الذين استولوا على السلطة في الجزائر وأصبحوا هم يسيرون البلاد ويحكمونها بأسلوبهم الخاص لغاية أول نوفمبر ١٨٥٤م.

وباختصار فإن المستوطنين الأوروبيين بالجزائر قد قاموا بإعداد برنامج سياسي مكثف لتدعيم نفوذهم في الجزائر وإقامة نظام سياسي يخدمهم للأبد[2].

وتتمثل السياسة الجديدة في دمج الجزائر بفرنسا وذلك عن طريق إصدار ٣٦ مرسوماً تتعلق بالجزائر وبانتقال السلطة من يد العسكريين إلى يد المستوطنين الأوروبيين ومن أهم هذه المراسيم نخص بالذكر:

- المرسوم الصادر يوم ٤ أكتوبر ١٨٧٠م والمتعلق بمنح ٦ مقاعد في البرلمان الفرنسي بدلاً من ٤ فقط عام ١٨٤٨م، وبالتالي تقوية التمثيل السياسي للأوروبيين في فرنسا.
- المرسوم الصادر يوم ٨ أكتوبر ١٨٧٠م والذي انشئ بموجبه منصب الحاكم العام المدني الذي يحكم في ٣ ولايات بالجزائر ويتراسل مع وزراء فرنسا "وليس وزراء الحرب" كما كان الحال سابقاً.

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٥٢.

. المرسوم الصادر بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٨٧٠م الذي يسمح للمعمرين الأوروبيين أن يعينوا الولاة في المناطق التي تخضع للحكم العسكري، أي يتحكم المدنيون في المسئولين العسكريين.

. المرسوم الصادر يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠م الذي سمح للمستوطنين الأوروبيين أن يوسعوا نفوذهم إلى المناطق التي يسكنها المسلمون الجزائريون والتي تديرها شخصيات جزائرية معينة من طرف فرنسا وكذلك إلغاء المكاتب العربية في المناطق الخاضعة للحكم المدني.

. المرسوم الصادر بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م والمعروف بـ"مرسوم كريميو" وهو الذي سمح فيه لليهود أن يحصلوا على الجنسية الفرنسية والتمتع بجميع الامتيازات التي يخولها القانون للرعاية الفرنسيين دون أن يتخلى هؤلاء عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية.

هذه المراسيم قد جاءت لتحقيق رغبات المستوطنين الأوروبيين المتمثلة في تقوية عدد السكان الأوروبيين واليهود حتى تنجح سياسة الإدماج بسرعة وفعالية والقضاء على المكاتب العربية التي تقوم عادة بالجوسسة لحساب القيادة العسكرية بالجزائر[١].

وبعد تحقيق هذه الانتصارات السياسية، حول قادة الجالية الأوروبية أنظارهم إلى مسألة تعمير الجزائر بعناصر أوروبية قادرة على استغلال الأراضي والاستفادة من الطاقات البشرية المتوفرة بأرخص الأثمان وحسب بعض الإحصائيات الواردة في المصادر الفرنسية، فإن المستوطنين الفرنسيين والأجانب كانوا يطمحون إلى جلب حوالي ٢ إلى ٦ أو ٧ ملاين، إلا أن الرقم الحقيقي الذي كانوا يعملون على تحقيقه هو ١,٦٠٠,٠٠٠ مهاجر جديد، وسعياً وراء تحقيق هذا الهدف رسموا خطة محكمة تتلخص فيما يلي:

. أخذ نصف أراضي العرب سواء بإبعادهم وعزلهم أو مصادرتها ثم الاعتماد على الدولة لتمويل مشاريع الإسكان والإقامة والشيء الذي جعل المستوطنين مقتنعين بنجاح خطة مشاركة الدولة في مساعدتهم للتغلب على الصعاب التي تعترض سبيلهم هو تزايد عدد

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٥٧.

اللاجئين الفرنسيين القادمين من مقاطعة "الألزاس . لورين" التي أصبحت تابعة لألمانيا بعد هزيمة فرنسا في سنة ١٨٧٠م.

فالحكومة مجبرة، في هذه الحالة، على ايجاد العمل لأولئك الفرنسيين الفارين من المنطقة المحتلة، والمكان الوحيد الذي يسعهم هو الجزائر التي في إمكانها أن تستوعبهم وتجنب الحكومة الفرنسية قضية مزاحمة سكان فرنسا من طرف اللاجئين الجدد[1].

. منح الجنسية الفرنسية لجميع الأوروبيين وتوسيع القاعدة بحيث تعطي الجنسية الفرنسية بصفة أوتماتيكية لجميع أبناء الأوروبيين المولودين بالجزائر.

وفي هذا الإطار أعلن "ميزفيل" أول رئيس لمحكمة الجزائر بأنه يتعين على جميع السكان أن يذوبوا في الحضارة الفرنسية وأن يدركوا أن قدوم شعب من الشمال جاء ليستقر، وأكد أن الشكل الذي يواجه سياسة الإدماج هو وجود مجتمعات مختلفات في كل شيء: في العقيدة، في الفكر، في العادات وفي التقاليد، ولذلك لا يمكن دمجهما إلا بإبتلاع شعب لشعب.

. في برنامج المستوطنين الأوروبيين بعد سنة ١٨٧٠م سياستهم هي القمع ومصادرة أراضي الجزائريين وخاصة بعد الثورات العارمة من سنتي ١٨٧٠م، ١٨٧١م ويظهر هذا الاتجاه بوضوح في تعليق لأول رئيس للجمهورية الثالثة الذي قال: بأنه: يمكن للعرب أن يقوموا بثورات لكن سيتم إحتواءهم أو إتبلاعهم.

ففي سنة ١٨٧١م قام المستوطنون الفرنسيون بالاستيلاء على ٥,٠٠٠,٠٠٠ هكتار حيث قامت الدولة بمصادرتها على أساس أنها أملاك عامة. كما قام الحاكم العام "قيدون" بفرض غرامات مالية على ٢٩٨ بلدية قام ساكنوها بثورات ضد فرنسا، قدرت بـ ٣٦,٢٨٢,٢٩٨ فرنك دفعها المسلمون كتعويض عن الحرب.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٥٩.

وللحصول على الأراضي التي يحتاجها المستوطنون الأوروبيون، قامت الولاية العامة بمصادرة أراضي ٣١٣ بلدية قدرت مساحتها بـ ٢,٦٣٩,٦٠٠ هكتار. أما الأراضي التي لا يحتاجها المستوطنون، فقد تقرر السماح ببيعها إلى المسلمين الجزائريين بسعر ٥٠ فرنك للهكتار إذا كانت الأرض مثمرة و١٠ فرنكات إذا كانت غير مثمرة.

وكان المقصود من هذه السياسة هو تفقير الناس وتجويعهم عن طريق إجبارهم على بيع ما عندهم من بقر وغنم وأراضٍ لدفع الديون المفروضة عليهم[١].

بعد أن فشلت فرنسا في حربها أمام الألمان، حولت هزيمتها بدافع مراكب النقص إزاء الألمان إلى مركب العظمة أمام الشعب الجزائري المجاهد في سبيل حريته وكرامته وحقه في الحياة الكريمه.

فراحت تفرض عليه الغرامات العسكرية والمساهمة بطريقة غير مباشرة في دفع التعويضات العسكرية التي فرضتها ألمانيا على فرنسا، فكلما ازداد شعور فرنسا بالضعف في أوروبا ازداد بطشها بالجزائريين.

مع اختفاء عبارات، الشرف العسكري، والمملكة العربية التي تعود الشعب الفرنسي سماعها من نابليون الثالث.

شجعت حكومة الجمهورية الثالثة الفرنسية حركة الاستيطان ونهب الأرض من الفلاحين الجزائريين، لقد عكست فرنسا تلك المهانة التي فرضتها عليها معاهدة فرانكفوت على بطشها في الجزائر من باب التعويض في علم النفس، فاقتطعت مئات الآلاف من الهكتارات المسروقة وملكتها لسكان الألزاس واللورين ومنحتهم الأرض لقاء إيجار رمزي يبلغ فرنكاً واحد سنوياً للهكتار، على أن تصير ملكاً لهم بعد تسع سنوات من الاستقلال[٢].

وتتلخص سياسة المستوطنين الفرنسيين في عهد الجمهورية الثالثة فيما يلي:

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٦٠.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ١٦٢.

. حصول المستوطنين الأوروبيين على حقوقهم السياسية أي إقامة مؤسسات مدنية تخدم مصالح هذه الفئة الأوروبية المقيمة في أرض الجزائر.

. التمثيل التام في البرلمان الفرنسي، وفي المجتمعات والبلديات المحلية.

. ربط الإدارة في الجزائر بالوزارات المركزية في فرنسا.

. نقل السلطة من يد العسكريين إلى يد المدنيين الأوروبيين في إطار الحكم المدني.

. بيع أراضي الأعراش للمعمرين أو المستوطنين الأوروبيين والتخلص من الدواوير الجزائرية التي تعاونت مع السلطات العسكرية وكانت تحد من نفوذ سلطات الحكم المدني.

. جعل أراضي الجزائريين ملكية فردية وجاهزة لبيع وبذلك يتمكن المستوطنون الأوروبيون من التوسع في كل مكان في الجزائر.

. إقامة تجمعات سكنية في مناطق محدده للعرب وباختصار الإدماج والحقوق السياسية لجميع الأوروبيون، أما الجزائريون فهم لا يريدون أي شيء ولا يحتاجون أي شيء.

فالمستوطنون بعبارة أخرى يريدون الأدماج وضم الجزائر إلى فرنسا لكن بشروط تتمثل فيما يلي:

. الامتناع عن دفع الضرائب.

. عدم أداء الخدمة العسكرية في الجيش.

. عدم دفع أية تكاليف مالية.

. إعتبار ٣٥,٠٠٠ مواطن أوروبي عدد كافي للحصول على نائب يمثلهم في البرلمان الفرنسي.

ولكي تكتمل سياسة الإدماج في فرنسا، فقد دعا لافيجري إلى انتهاج سياسة قوية للتبشير بحيث تجعل من الجزائريين مجموعة الكاثوليكيين المتحضرين، مثلما كانوا أجدادهم من قبل على حد قوله.

وبناء على ما تقدم فقد قرر تقديم مساعدات مالية سخية لكل مشروع يهدف إلى دمج السكان المسلمين في فرنسا[1].

لقد عمل المستوطنون الأوروبيون منذ سنة ١٨٧١م على الإنفراد بالسلطة في الجزائر وحرمان المسلمين من أي تمثيل سياسي أو الحصول على الجنسية الفرنسية وتركزت خطتهم على:

- التخلص من رؤساء القبائل أو الشخصيات الجزائرية التي تعاونت مع المكاتب العربية.
- إنهاء العمل بالشريعة الإسلامية وتطبيق القوانين الفرنسية.
- إلغاء المكاتب العربية في جميع أنحاء الجزائر.
- تحويل المناطق العسكرية إلى الحكم المدني[2].

٥ . قانون الأنديجينا:

وابتداء من عام ١٨٨١م جاء الأوروبيون بقانون جديد يسمى "قانون الأنديجينا" وهو عبارة عن مجموعة من النصوص وضعت بقصد مسح الهوية الجزائرية واستعباد الشعب من خلال الطاعة العمياء للأوروبيين، وقد بقي ساري المفعول حتى سنة ١٩٤٤م، ومن خلال هذا القانون حدد المستوطنون إجراءات معاقبة المسلمين وإجبارهم على دفع الضرائب بدون نقاش، ومنعهم من حمل السلاح، وعدم الذهاب إلى الحج بدون رخصة مسبقة، وإظهار الطاعة التامة لسلطة الأوروبيين.

وقد بدأ يستفعل خطر القضاء على الشخصية الوطنية للمسلم الجزائري يوم قرر المستوطنون الأوروبيون تعيين مسؤولين إداريين لتنفيذ العقوبات الواردة في قانون الإنديجينا وذلك بأساليبهم الخاصة.

وقد نجح هذا القانون في قمع الجزائريين وكان القائمون على تنفيذ هذا القانون من المستوطنين وحسب النصوص القانونية فإنهم لا يخضعون لسلطة الوالي أو رئيس أية بلدية

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٦٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٦٩.

أو القضاة. وهم في الحقيقة عبارد عن ضباط بدون مراقبة ينفذون الأحكام ويفرضون الغرامات على المسلمين، وفي بعض الأحيان يتحولون إلى قضاة ورجال أمن ينفذون أحكامهم وقراراتهم بأنفسهم على السكان المسلمين وبصريح العبارة، فإنهم أداة لقمع المسلمين لأنه لا توجد سلطة أخرى تلغي قرارات هؤلاء الإداريين الذين تحولوا إلى وكلاء للمحاكم القمعية ابتداء من سنة ١٩٠٢م، وعندهم سلطات مطلقة لتأديب وفرض العقوبات، فالمسلم الذي ينتقل بدون رخصة يدفع غرامة، وإذا لم يستطع دفعها يذهب إلى السجن. وهؤلاء الإداريون مثل رؤساء البلديات يعملون ليلاً ونهاراً لإستغلال المسلمين، والحصول على أموال منهم ونهب ثرواتهم بأية صفة كانت[١].

٦ ـ استغلال الفرنسيين لإمكانات الجزائر:

في عهد الجمهورية الثالثة أدخل الكولون زراعة الكروم التي بنيت عليها صناعة النبيز في بلد مسلم لا يتعاطى الكحول، لتحل محل زراعة الحبوب والبقول، وكان الكولون يصرون على أن يكون لمستعمرة الجزائر وضع خاص له نوع من التميز عن فرنسا، حتى تطلق أيديهم يعيشون فيها مثل ما يريدون وفي سنه ١٩٥٥م تحقق لهم ذلك، فقد عين جونار في منصب الحاكم العام الذي كان يطالب بتحقيق هذه الفكرة منذ ١٨٩٢م، استطاع أن يصدر ميزانية خاصة للمستعمرة وأن يبرز كياناً خاصاً لها جعله يمتص الأزمة التي اندلعت بين الكولون الزراعيين واليهود التجار وصدر قانون ١٩ / ١٢ / ١٩٥٥م الذي يعترف بنوع من التميز لشخصية الجزائر، كمستعمرة طبعاً وليست ككيان مستقل وقد تركت النفقات العسكرية خارج إطار ميزانية الجزائر.

في أوائل القرن العشرين زاد استغلال الفرنسيين لإمكانيات الجزائر الاقتصادية والبشرية، فزادت مساحة المزارع، الكولونيالية وزاد استغلال المعادن والغابات والصيد البحري ووصل في سنة ١٩١١م عدد من المستوطنين إلى ٧٥١,٠٠٠. وفي سنة ١٩٠٨م كانت فرنسا

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٧٣.

قد بدأت تعد مشروعاً للتجنيد الإجباري يطبق على الجزائريين، واضطر العديد من الأسر الجزائرية إلى الهجرة لأقطار المشرق العربي وبخاصة سوريا وفلسطين هروباً بأبنائهم حتى لا يجندوا بالجيش الفرنسي الذي رأوا فيه خطراً على دينهم، وصدرت مراسيم الخدمة الإجبارية العسكرية على الجزائريين في ٣١ / ١ و ٣/ ٢/ ١٩١٢م ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى وجند الجزائريون في الجيش الفرنسي وكانت مرحلة جديدة ظهرت بعدها مباشرة تنظيمات الحركة الوطنية الجزائرية[١]، يأتي الحديث عنها في الجزء الثاني من حديثنا عن كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٧ . الأقلية الأوروبية في الجزائر:

إن الأقلية الأوروبية في الجزائر مارست ضغوطاً على جميع الحكومات الفرنسية منذ ١٨٣٠م إلى ١٩٥٥م بحيث نجحت الخطة المرسومة والتي اشتملت على ثلاث مراحل متتالية:

المرحلة الأولى: تتمثل في إدماج الجزائر في فرنسا من الناحية القانونية، أي اتخاذ الإجراءات القانونية التي تسمح بإبتلاع الجزائر وجعلها جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وفي هذا المجال، نشير إلى بعض القوانين التي تم سنها بقصد ضم الجزائر إلى فرنسا وهي:

- مرسوم ٢٢ جوان ١٨٣٤م الذي نص على إعتبار الجزائر جزء من الممتلكات الفرنسية.
- مرسوم ٤ مارس ١٨٤٨م الذي نص على أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا.
- قانون ٤ جويلية ١٨٦٥م الذي نص على إعتبار المسلمين الجزائريين رعايا فرنسيين.
- مرسوم ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م الذي أصبحت الجزائر بموجبه تشكل ٣ مقاطعات فرنسية والقوانين الفرنسية تطبق على الجزائريين المسلمين.
- مرسوم ٢٩ مارس ١٨٧١م الذي نص على تعيين حاكم عام مدني في الجزائر خاضع لسلطة وزير الداخلية الفرنسي.

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٢٠.

- قانون ٢٣ مارس ١٨٨٢م الخاص بإنشاء دفاتر الحالة المدنية للمسلمين الجزائريين.
- قانون ١٩ ديسمبر ١٩٥٥م الذي يسمح للجالية الأوروبية في الجزائر أن تنشئ المجلس المالي، ثم المجلس الجزائري فيما بعد، وذلك لكي تحكم قبضتها على الجزائر وتمنع السكان المسلمين من الحصول على حقوقهم السياسية والاقتصادية وحقهم في الحصول على تمثيل نيابي عادل سواء في المجالس البلدية أو المجلس الجزائري.

وأما المرحلة الثانية: أو الخطوة المكملة للإندماج من الناحية القانونية فتتمثل في الاستيلاء على الأراضي الخصبة وإعطاء الجنسية لجميع المهاجرين والمقيمين الأجانب في الجزائر والحصول على دعم مالي من الدولة لبناء المدن الصغيرة في جميع أنحاء الجزائر.

لم يكن للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر أموال، عندما قدموا إليها لأنهم جاءوا أساساً إلى الجزائر بحثاً عن العمل والعيش فيها، ونظراً لفقرهم وعدم توفر أموال لديهم، قامت الدولة الفرنسية بتخصيص أموال طائلة لإستثمارها في بناء المدارس والطرقات وشراء الأجهزة والمعدات الزراعية وإعطائهم أراضي بدون مقابل لاستغلالها والتمتع بخيراتها على حساب المواطن الجزائري الذي لا يجد من يمد له يد المساعدة. وبهذا الأسلوب الخبيث، ساهمت الدولة الفرنسية في تحطيم عنصر بشري "جزائري" وإثراء عنصر أوروبي دخيل على البلاد، وذلك عندما قامت بتسخير مواردها وموارد السكان المحليين لدعم الأوروبيين وتمكينهم من إخضاع أبناء البلد لنفوذهم السياسي وقوتهم المالية[١].

وعندما اكتملت المرحلة الأولى "مرحلة الإدماج" والمرحلة الثانية "مرحلة جلب المهاجرين" وذلك في بداية القرن العشرين، جاءت المرحلة الثالثة، كتتويج للمرحلتين السابقتين وهي إعطاء الجالية الأوروبية حكم ذاتي يسمح لها بإستعمال الغش والمناورات والدسائس لفرض نفوذها على الجزائريين والتحكم فيهم إلى الأبد لقد كانوا يظنون أن قوانين الإدماج وتحالف الأوروبيين واليهود ووجود هيآت تشريعية ومجالس بلدية شكلية يتحكمون فيها

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٢٠٠.

عن طريق الغش في الإنتخابات وإنتقاء العملاء لملء المقاعد المخصصة للجزائريين المسلمين سوف تمكنهم من سد جميع الأبواب الحديدية في وجوه الجزائريين المقهورين في أرض آبائهم، وأجدادهم[1]، لكن الله أراد شيئاً آخر متمثلا في إعداد جيل جديد ليقوم فيما بعد بتوفيق الله ومنه بإحراز نصر عظيم على الغزاة الغاصبين.

الثاني عشر: التبشير بالنصرانية في الجزائر

عملت أجهزة الاستعمار على تنصير الجزائريين.

. وتأسيس كنيسة جزائرية. كان أنطوان دوبوش أول أسقف فرنسي تولى الأسقفية بالجزائر سنه ١٨٣٨م وعمل من أجل استعادة الكنيسة الأفريقية والمسيحية كما كانت قبل الإسلام مثلما يزعم وهو الذي حول جامع كتشاوة إلى كتدرائية الجزائر وأعطاها اسم كنيسة سان فيليب، وعندما مات سنة ١٨٦٤م دفن بها وهو الذي أعاد بقايا القديس اوغستين إلى عنابة سنة ١٨٤٢م في احتفالات كبيرة حضرها أساقفة فرنسا وهو الذي حول عدة مساجد إلى كنائس مثل جامع علي بتشين بالعاصمة، وجامع سوق الغزل بقسنطينة وجامع بني عامر بوهران، وهو الذي بنى كنائس في كل المدن التي دخلها الجيش الفرنسي وهو الذي عمل على منح مساجد وزوايا لجمعيات مسيحية كالجزويت، وأقام هو في قصر الأميرة عزيزة بقسنطينة وهو من قصور باي قسنطينة. واستدان دوبوش أموالاً كثيرة أنفقها على مشاريعة التنصيرية، وعجز عن سداد الديوان فتابعه الدائنون فهرب إلى إيطاليا وتولى أسقفية.

. الجزائر بعده لوي بافيه سنة ١٨٤٨م واستمر حتى ١٨٦٦م وهو الذي اعترف بعدم نجاح عملية تنصير الجزائريين بالمدن، كما اعترف بفشل الجزيويت في تنصير القبائل وهو الذي بنى كنيسة السيدة الأفريقية بمكان عال يشرف على البحر بالعاصمة والتي بدئ في

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٢٠٠.

بنائها سنه ١٨٥٨م ودفن عند وفاته سنه ١٨٦٦م في كنيسة السيدة الأفريقية وروي أنه مات حزيناً لأنه لم يحقق طموحه في تنصير الجزائريين[١].

١ . لافيجري ذروة التبشير في الجزائر:

خلف لوي بافيه على رأس الأسقفية لافيجري الذي سيطر على عملية التبشير من ١٨٦٧م وحتى سنة ١٨٩٢م ضمن خطة شاملة استهدفت إدماج الجزائريين في الشخصية الفرنسية عن طريق التنصير والفرنسة وقد سبق للافيجري أن عمل في سوريا وتعلم العربية وحضر أحداث ١٨٦٠م بدمشق التي تدخل الأمير عبد القادر بها وأنقذ مسيحيي دمشق من الإبادة، وصل لافيجري الجزائر سنه المجاعة وبعد مرسوم ١٨٦٣م الذي جرد الجزائريين من أراضيهم وأفقر الناس بمن فيهم الوجهاء[٢].

أ . الظروف العامة لمجاعة عامي "١٨٦٧م . ١٨٦٨م":

اشتد البلاء على الجزائريين وزادت النكبات من سنة ١٨٦٦م حتى ١٨٦٨م بنكبات عديدة اختباراً وامتحاناً من الله عز وجل للشعب وكانت أقسى ما تكون على السكان الجزائريين ولاسيما الفلاحين وعامة الناس منهم، وتمثلت هذه الابتلات والاختبارات الربانية في الزلازل التي ضربت مدينة البليدة وضواحيها والذي تسبب في ضحايا كثيرين وفي هجوم الجراد والجفاف ووباء الكوليرا والتيفوس، وقد تظافرت هذه النكبات كلها فأدت إلى ظهور أزمة اقتصادية وسياسية، نتجت عنها مجاعة عامة بالجزائر سنة ١٨٦٧م واستمرت إلى اواخر ١٨٦٨م. هجم الجراد على الجزائر في افريل ١٨٦٦م، فعم السهل المتيجي وكل المناطق المجاورة له وامتد إلى مدينة المدية وأتلف كل المحاصيل الزراعية، بحيث أصبحت حقول القمح والشعير . وهي أمل السكان ومصدر رزقهم وغذائهم الأساسي، خالية تماماً من الغلة، ولم تكد تنتهي كارثة الجراد حتى شمل الجزائر جفاف عام، وقد كان الأوروبيون أقل الذين تعرضوا لنتائج هذا القحط لأنهم كانوا يملكون أحسن الأراضي

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٣٧.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٦٣٧.

وأكثرها ماء بخلاف الفلاحين الجزائريين الذين كانت السلطة الاستعمارية قد استولت على أراضيهم ووزعتها على المعمرين حينما اتبعت في العهد الإمبراطوري سياسة التهجير والاستيطان للعنصر الأوروبي.

وتبعت هذا الجفاف أمطاراً غزيرة جداً وثلوج قوية أتلفت المحاصيل الزراعية الضعيفة وقتلت المواشي والأغنام فأضاعت بذلك بعض القبائل أغنامها، وثلث ثيرانها بسبب الجفاف، فتشرد المنكوبون، وانتهجوا طرق التسول وخاصة بمنطقة الجنوب والهضاب العليا وتوزعوا في البلاد لطلب العمل أو العشب لما تبقى لهم من الأغنام[١].

وقد اضطرتهم هذه الظروف القاسية على بيع خيولهم بأبخس الأثمان وحلي النساء للحصول على الحبوب والبذور بعد أن استهلكوا كل مخزون مطاميرهم واستنفذوا ما عندهم من المواد الغذائية، فالأرض لم تعد قادرة على الإنبات وارتفعت أسعار الحبوب.

لقد تظافرت هذه العوامل الطبيعية، فكانت أحد الأسباب الهامة في ظهور بلية كبرى كمنت في المجاعة العامة التي هلك بسببها الكثيرون ثم حدث وباء الكوليرا والتيفوس الذي زاد الطين بلة، فانتشر الجياع في البلاد وكثر، وأصبحوا يقتاتون بالجذور والأعشاب والكلاب، بل أن البعض منهم نبشوا القبور وأكلوا جثث الموتى، وذكر البعض بأنهم أكلوا حتى الأحياء من البشر، وبلغ الأمر ببعضهم أن أصبحوا يتنازعون على المزابل والفضلات بالمدن. ويذكر الأب برزي الذي كان قسيساً على مدينة الشبلي بمتيجة" إن الجياع كانوا يفدون إلى المراكز الأوروبية بالمدن منهوكي القوى عراة، وقد غابت عنهم الصورة البشرية، إذ أصبحوا هياكل عظمية.

وامتلأت الشوارع بالمتسولين، وتضاعفت الاعتداءات لا من أجل الحصول على القوت، وإنما من أجل أن يقبض على المعتدي ويزج به في السجن ليضمن قوته بصفة مستمرة ومنظمة. وبطبيعة الحال كان المعمرون يحرسون ضيعاتهم، يدعون انهم كانوا مهددين

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية خديجة بقطاش، ص: ١٠٢.

مستعملين في ذلك بنادقهم الخاصة، ومما زاد الأمر خطورة انتشار وباء الكوليرا بشكل واسع وسط الجزائريين، أما الأوربيون فقد نجوا منه لتوفر الوقاية الصحية لديهم[1].

ب . عدد الضحايا:

ويضيف الأب برزي قائلاً: إنه ليصعب علينا التعرف على العدد الحقيقي للضحايا وهو يقدره بحوالي ٢٥٠ ألف ضحية، وحسب تقدير الجنرال آلار في التقرير الذي قدمه إلى أعضاء المجلس التشريعي في مارس ١٨٦٨م فإن عدد الضحايا بلغ سنة ١٨٦٧م ٨٩,٥٧٧ ضحية، ٨٦,٧٩١ من الجزائريين، ويبدو من هذا محاولة إخفاء للحقيقة المرة بالجزائر، أما جريدة المرشد الجزائري فتذكر بأن العدد بلغ ١٢٨,٨١٢ ضحية في الأشهر الأربعة الأولى عام ١٨٦٨م.

ج. موقف فرنسا من المجاعة:

أمام هذه المصيبة أشعر إسماعيل عربان نابليون الثالث بخطورة الوضع فرأى الإمبراطور أن يكاتب الجنرال ماكمهون الحاكم العام آنذاك بالجزائر ويبدو أن هذا المسؤول العسكري لم يطع الإمبراطور على حقيقة المجاعة، ومما قاله نابليون الثالث: لا ترغب فرنسا في أن يقال عنها يوماً ما أنها تركت الخاضعين لحكمها يموتون جوعاً.

يبدو أن مكماهون عمل على فتح ورشات عمل في الجهات الخاضعة للنظام المدني وملاجئ كانت عبارة عن محتشدات عسكرية جمع فيها هؤلاء المنكوبين لا من أجل إسعافهم وإنما لتوفير الأمن للأوروبيين، كما أنه وزع صدقات على الجائعين، غير أن التقارير الشهرية لعام ١٨٦٨م تذكر حقائق مفجعة بسبب المجاعة وتصفها بالمصيبة الكبرى.

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٠٣.

خصصت الحكومة مبلغاً قدره ٤٠٠ ألف فرنك في جانفي ١٨٦٨م مبلغاً قيمته مليونين من الفرنكات في مارس من نفس السنة، لكن هذه المبالغ لم تكن لتكفي لإيصال الحبوب في وقتها المناسب كما كانت هذه المساعدة ارتجالية وغير منظمة[١].

شكلت هذه المأساة أزمة سياسية حادة في الجزائر، عاشها المستوطنون بمختلف فئاتهم، حيث فتحت باباً لأعداء النظام العسكري، وكانت هذه الأزمة ونتائجها محور مقالاتهم بمختلف الجرائد وآتتهم المعارضون لهذا النظام العسكري وردّوا سبب هذه المصيبة إليه، وإذا كان دعاة النظام المدني قد أرجعوا سبب الكارثة إلى النظام العسكري، والبعض الآخر، إلى الكوارث الطبيعية كهجوم الجراد والجفاف فإن الأعيان الجزائريين ردوها إلى سوء تصرف السلطة الفرنسية مع أبناء الوطن الذين أخذت أراضيهم غصباً.

وأما الكردينال لافيجري، فقد ردّ السبب إلى الاقطاع "الأهلي" ويبدو أن هذا غير صحيح لأن الديون التي ترتبت على الملاك الكبار من الجزائريين إثر انقاذهم للجياع كانت كبيرة بحيث أفرغوا مطاميرهم وخسروا ثرواتهم، ومن بين هؤلاء الباشاغا المقراني الذي لعب دوراً عملياً في إغاثة المنكوبين، فبدعوة من الجنرال مكماهون الحاكم العام، تسلف المقراني من السيد مسرين اليهودي وكان يملك سهماً في بنك الجزائر . مبلغ ثلاثمائة وخمسين ألف فرنك في شكل وصولات إلى حساب البنك الجزائري، ولم يلبث المبلغ أن ارتفع مع الأرباح إلى نصف مليون فرنك واقترض من السيد عبّادي اليهودي أبو قاية بسطيف، فارتفعت ديونه إلى مليون فرنك خصها لإنقاذ الجياع من الموت وإعانة الفلاحين على حرث أراضيهم واضطر في الأخير إلى أن يبيع بعض أملاكه لتسديد بعض الديون فيما بعد[٢].

٢ . فلسفة التبشير لدى لافيجري:

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

يعتبر الكاردينال لافيجري أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير، وطبعتها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين وهو يمثل خلال سنوات ١٨٦٨م - ١٨٩٢م قمة التبشير في الجزائر والمغرب العربي وفي قارة أفريقية ويعود ذلك إلى ما يلي:

- النشاط الفعّال الذي أبداه في نشر المسيحية.
- روح التعصب الديني عنده وإرادة التعريض بالإسلام ورجاله.
- مواقفه التبشيرية التنصيرية التي استهدفت خدمة المصالح الفرنسية بالجزائر وأفريقية بوجه عام ومكانته المرموقة لدى سلطات الفاتيكان.
- التأييد الذي حصل عليه من بعض المسؤولين الكبار في الجزائر ومن حكومة باريس.

ولم يخف لافيجري نواياه التبشيرية من الوهلة الأولى من التعيين، ويظهر ذلك في مكاتبته لوزير الشؤون الدينية بعد قرار التعيين إذ يقول:... إني الوحيد الذي أبديت اهتماماً بنشر المسيحية وسط العرب، وقد كانت ولازالت لي علاقة طيبة مع مسيحي المشرق العربي وهؤلاء يجب استدعاؤهم إلى الجزائر.

وقبول لافيجري لمنصب أسقفية الجزائر كان أولاً وقبل كل شيء يرمي إلى أبعاد دينية وسياسية في نفس الوقت:

- من أجل خدمة الكنيسة المسيحية الناشئة في الجزائر.
- من أجل تعزيز المكاسب الفرنسية الاستعمارية بالجزائر، واعتبر بلاد الجزائر بوابة تنطلق منها عملية الاستعمار في أفريقية والتبشير فيها، وقد عبرت عن ذلك رسالته الموجهة إلى رهبان الجزائريون ٥ ماي ١٨٦٧م وقال: سآتيكم إخواني في ساعة مشهودة في تاريخ أفريقية المسيحية، أن الكنيسة وفرنسا متحدتان على أحياء الماضي[١].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٧.

والتبشير الذي يريده لافيجري هو ذلك الذي يعمل على تحقيق الادماج عن طريق التنصير وليس الادماج الذي يتم عن طريق القوانين أو القوة، لأن هذه القوة في نظره، لن تؤدّي إلى نجاح فرنسا في الجزائر حتى ولو بقيت فيها عشرة قرون.

وأحسّ بالخجل أمام الأمة الفرنسية التي عاشت مدة أربعين سنة أمام شعب مسلم خاضع لها، دون أن تعمل على تنصيره.

وتعجب من موقف السلطة من التبشير فهي عوض أن تعمل على إدماج الأهالي ـ أي الجزائريين ـ في المجتمع الأوروبي والحضارة المسيحية تركتهم يتخبطون في بربريتهم وقرآنهم.

وقد كان القرآن والإسلام في نظره أشد عدو للمسيحية وإن واجبه يفرض عليه محاربتهما، فالقرآن بالنسبة له شريعة الكذب واللا أخلاق، كبرت كلمة تخرج من فيه.

وعمل على محاربة الإسلام بنشر التنصير بين المسلمين وذلك بوسيلتين:

ـ الأعمال الخيرية التبشيرية.

ـ إنشاء المدارس الفرنسية في كل مكان وهذه هي الإدارة الضرورية لتحقيق الادماج.

لقد كانت كارثة ١٨٦٧م ـ ١٨٦٨م فرصة مناسبة اغتنمها الكاردينال لافيجري ليفتح باب التبشير على مصراعيه، وقاعدة المبشرين أنهم ينتهزون هذه الفرصة، فاستغل وضع الكثير من المرضى والجياع، أنقذهم من الهلاك باسم الصليب، وفرنسا فجمع حوله ما يقرب من ألف وثمانمائة طفل بين مشرد ومريض تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ووزعهم على مختلف المراكز والملاجئ التي أنشأها في بوزريعة وبولوغين "سان أوجين سابقاً" وبين عكنون والأبيار والقبة، وسلم بعضهم أيضاً إلى سيوعي بوفاريك والأخوات والراهبات بمصطفى، قصد معالجتهم وتنصيرهم[١].

ولما كانت هذه العملية التنصيرية تحتاج إلى أموال وتأييد سافر الكاردينال لافيجري إلى باريس ليطلب الصدقات لهؤلاء الأطفال وليلفت نظر أصدقائه بجامعة السربون، ونظر

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٨.

وزارة الشؤون الدينية إلى نكبة الجزائر وقبل العودة إلى الجزائر. في أول جانفي ١٨٦٨م. وجه نداء إلى كل الصحف الكاثوليكية يصف فيه المجاعة ويطلب مساعدة المسيحيين الطيبين لفائدة الملاجيء، فلبى هؤلاء النداء وتكونت لجان بالمدن الفرنسية الكبرى لجمع التبرعات، استمرت مساعي لافيجري الخيرية ليدفعه حماسه الديني، وفي ٢٠ فيفري من نفس السنة بعث رسالة إلى كل رجال الدين بفرنسا يطلب منهم قراءة ما جاء في النداء المذكور في مختلف المراكز الدينية والكنائس، لتعريف الفرنسيين بالمأساة رغبة في الحصول على المساعدات وقد تم ذلك بحصول لافيجري على تبرعات مالية مبلغها ثمانمائة ألف فرنك لصالح الملاجيء، وفي ١٥ مارس من نفس السنة أسقافة بلجيكا وإسبانيا وانجلتر يطلب منهم المعونة، وكان البابا بيوس التاسع من الذين لبّوا النداء بإرسال مساعدة مالية قدرها ٥ الآف فرنك وتلقى لافيرجي مبلغ ستين ألف فرنك من كاردينال مدينة رووان بفرنسا لفائدة المستعمرة، ومن الامبراطور نابليون وزوجته اعانة شخصية مبلغها ثلاثة عشر ألف فرنك ودعمت هذه التبرعات الكاثوليكية إعانات بروتستانتية بالرغم من اختلافهما في المذهب إلا أنهما يتفقان في الهدف وهو التنصير، وقال رئيس المذهب البروتستانتي بالجزائر: يمكن للكنيسة المسيحية أن تترك أثراً طيباً في نفوس الأهالي بفضل خدماتها الخيرية[١].

ووجد نداء لافيجري في الجزائر صدى من بعض العسكريين الذين ناصروا التبشير فقد بعث له الجنرال ومبفن بثلاثين خيمة وجنوداً لتنصبها بالملاجيء وشكره على الأعمال التي يقوم بها لصالح الأيتام والمعمرين، واعتبرها أجمل وأجل مشاريع هذا القرن، ورأى بأن هذا العمل الخيري يجب أن يجد تأييداً ليس من الشعب. الفرنسي طبعاً. فحسب وإنما من الدولة أيضاً.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

وكسب لافيرجي ودّ المعمرين الذين ساندهم في مصالحهم الاستعمارية وحصل على تبرعات مالية منهم، وقد استدعت هذه التبرعات التي تأتي من كل حدب وصوب التنظيم، ولهذا الغرض تكونت لجنة خاصة تشرف على إدارة التبرعات وكانت التبرعات تنشر أسبوعياً في مجلة "صدى سيدتنا الأفريقية" وهي مجلة أسسها لافيرجي وأشرف على تحريرها وهي ذات أغراض دينية تبشيرية هدفها اطلاع الرأي العام في الجزائر، وكانت هذه المجلة من الوسائل الإعلامية التي استطاع لافيرجي أن يفرض وجوده وأن يجلب إليه أنصار عديدتين[1].

جند لافيجري فرقاً دينية من الرهبان والراهبات لمعالجة الأطفال المصابين بوباء الكوليرا والتيفوس والجدري، وقد بلغ التفاني من أجل هذه المهمة، أن هلك الكثير من رجال الدين بسبب انتشار العدوى وبالرغم من الجهود التي بذلوها لإنقاذ حياة الأطفال من الموت، فإن الكثير منهم قد هلك وعددهم حوالي ٦٠٠ طفل، واغتنم لافيرجي هذه الحالة فعمَّد الكثير منهم ساعة الاحتضار.

وقد أثار هذا العمل خوف الكثير من أسر الأطفال، فطالبت باسترجاع أبنائها إليها وفرَّ من تمكن من المراهقين عندما أدركوا هذه الحقيقة، ولم يبق بالملاجئ سوى ٣٧٨ طفلاً ٣٤٢ بنتاً أراد لافيرجي أن يحتفظ بهم بدعوى أنه المنقذ لحياتهم من الهلاك ليجعل منهم رجالاً مسيحيين أن أمكن ذلك وليكونوا نواة التبشير الجماعي والعائلة العربية المسيحية بالجزائر والكتابات العديدة التي ظهرت أثناء هذه المجاعة ما بعدها وتصميم هذا الرجل على إبقاء هؤلاء الأطفال لديه يعكس الروح الصليبية والهدف الديني والاستعمار الذي كان يسعى إليه وفي يوم ٦ أفريل ١٨٦٨م أعلن عن تبنيَّه للأطفال الأيتام وتمّ الإعلان عن طريق نشر رسالة مطولة بمختلف جرائد الجزائر، لخص فيها ظروف المأساة وأفصح عن رغبته في تطوير هذه العملية الكبرى ـ عملية التبشير ـ للوصول إلى إدماج الجزائريين

[1] المصدر نفسه، ص: ١١٠.

السريع في المجتمع الفرنسي، وقرر إبقاء الشبان الذكور بين عكنون لتكوينهم في ميدان الفلاحة، وتسليم البنات للراهبات لتكوينهم في الأعمال المنزلية والحقل، وكانت نية لافيرجي في هذا القرار إيجاد نواة خصبة من العرب المسيحيين الذين سيعملون من أجل الاستعمار الفرنسي، وجسد هذه النية حينما قال: سيكون في ظرف سنوات قليلة مشتلة خصبة من العمال النافعين الذين يساندون علمنا، ولنقلها صراحة من العرب المسيحيين[1].

واصطدم لافيرجي بصمود الجزائريين وتمسكهم بالإسلام وعقيدتهم المعبرة عن وجودهم وكيانهم، ورأي لافيرجي في تمسك الجزائريين بالإسلام تعصباً أعمى فأخذ يسيء إليهم بقوله: إن الانعدام الكلي لمعنى الأخلاق هو السبب في شقاء هذا العرق.

وقال: يجب إنقاذ هذا الشعب وينبغي الأعراض عن هفوات الماضي ولا يمكن أن يبقى محصوراً في قرآنه، ويتعين على فرنسا أما أن تقدم له. بل إني أخطأت التعبير. يتعين عليها أن تفسح لنا المجال لتقدم له الإنجيل وإما عليها أن تطرد هذا الشعب إلى الصحاري بيعداً عن العالم المتمدن. ويبدو من هذا القول لافيرجي أنه أراد تطبيق سياسة أمريكا في القضاء على الهنود الحمر، وأبعادهم من مراكز التمدن، لأنهم رفضوا الاستجابه لدعوة التنصير والتمسك بالقرآن المجيد، والإسلام العظيم.

وكان هذا المنشور محل نقد المعارضين للتبشير ومرد ذلك:

- ليس احتراماً للإسلام والمسلمين، بل تخوفهم من عودة رجال الدين إلى المجال السياسي، وهو الذي عانوا منه مدة طويلة في فرنسا.

- خشيتهم من نتائج التبشير، وعواقبه على المستعمرة، وكان لافيجري محل انتقاد وتولد ردة فعل من الشعب الجزائري، وحاول ماكمهون التخفيف من ردة الفعل وأثار الجنرال ماكمهون في رسالة موجهة إلى وزير الحربية بتاريخ ٢ جوان ١٨٦٨م إلى آخر حديث

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١١١.

جرى بين السيد ابن علي الشريف مع نائبه الحاكم العام "ديريو" قال فيه: لقد قرأت رسالة لافيجري المؤرخة يوم ٦ أفريل والتي أعلن فيها عن عزمه على استبدال القرآن بالإنجيل لاعادة الحياة إلى هذا الشعب، لقد أثرت هذه الرسالة في المسلمين، وإني كرجل ديني وكل مسلمي جيلي الذين يفكرون مثلي، إننا نفضل موت جميع أولادنا من أن نراهم منصرين، فليس هناك مساومة في هذا الأمر، لقد وعدتمونا بعدم المساس بديننا، فإذا أخلفتم هذا الوعد وخالفتم قسمكم فإننا بالمقابل غير ملزمين بوعدنا تجاهكم[١].

٣ . الخلاف بين لافيجري وبين الجنرال ماكمهون:

أدرك ماكمهون العواقب التي يترتب عليه قرار لافيجري بتبنيه الأطفال الأيتام، وطالب الجنرال بإرجاع هؤلاء اليتامى إلى ذويهم، وهدّد بغلق الملاجئ في حالة رفضه تطبيق أوامره، لكن لافيجري صممّ على إبقاء الأطفال بالملاجيء، مدعياً بأنه أصبح أباً لهم، وأنه يملكهم لأنه أحياهم بعد أن أوشكوا على الموت، وقد أدى هذا الموقف إلى ظهور مشادة كلامية بينه وبين الجنرال ماكمهون، وقد تدخلت الحكومة بباريس لحل هذا النزاع، وظل الصراع بين الرجلين محور مقالات متعددة بمختلف الجرائد بالجزائر وباريس وتجاوز الإطار الجزائري ليتحول إلى مشكل إسلامي، إذ أن صحيفة "الجوائب" التي يشترك فيها عدد من الأعيان، ومن أهل قسنطينة بوجه خاص، نشرت العديد من المقالات حول الموضوع، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على روح التضامن بين المسلمين في المشرق والمغرب رغم الضعف السياسي الذي كان يعيشه الحكام.

واشتد الخلاف بين الجنرال ماكمهون والكاردينال لافيجري، واحتج الجنرال على الكاردينال باسم الحكومة أمام حملته الشديدة ضد النظام العسكري، فكتب إليه يذكر له أنه إذا كانت أعماله الخيرية قد تركت في نفوس الفرنسيين المتعاطفين معه انطباعات حسنة، فإنها من ناحية أخرى قد وجدت نفوراً بين الأهالي الذين لم يريدوها على

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٣.

حساب ديانتهم ولأنها استغلال لظروفهم القاسية خدمة للتبشير وذكره أيضا بالعواقب التي تنجم عن طرد المسلمين إلى الصحارى، في وقت تريد فرنسا أن تجلبهم إليها وتعمل على تطبيق ما جاءت به أفكار نابليون الثالث عام ١٨٦٥م، غير أن الكاردينال لافيجري وضع خطته الجديدة في الإدماج وبين للجنرال بأن للتبشير فائدتين هما:

أ . أن تنصيره للأطفال ولكل المسلمين سيعمل على تثبيت الوجود الفرنسي في الجزائر، لأن التبشير يخلق قوة سياسية جديدة تتمثل في الأهالي الأوربيين الذين سيعملون على إخماد الثورات.

ب . أن المسلمين الذين أخذوا عن الأوربيين عيوباً كبيرة سيتعلمون المبادئ الحسنة من المسيحية عن طريق التنصير، ففي نظره أن لا أخلاق ولا مبادئ للمسلمين.

وطالما أن لافيجري رأى في الجزائريين صورة همجية فإنه وعلى خلفية النظرية الاستعمارية التي تذرع بها سابقوه فالاحتلال جاء لتمدين الجزائريين وإخراجهم من التخلف.

ووقف المستوطنون في جبهة لافيجري في موقفه من الأطفال ومن التبشير مكونين واياه قوة متحدة ووقفوا معارضين لتدريس القرآن في الزوايا، واتهم الصحفي كليمان ديفرنوا الذي دافع عن حق المسلمين في تعلم القرآن بالتعصب والتحريض على الثورة.

ولم يكتف المعمرون بهذا فلاموا الإمبراطور نابليون الثالث: حينما أراد نشر اللغة العربية وأبدى اهتماما بالأعياد الدينية، وشجعوا الكاردينال لافيجري على الاحتفاظ بالأطفال اليتامى، مؤكدين على أن الاندماج الذي لا يصلح مع كبار السن المتعصبين سوف ينجح مع الأطفال الصغار.

أحس لافيجري بالقوة بفضل التفاف المعمرين حوله فزاد موقفه تصلباً وأمام هذا قرر الجنرال ماكمهون مكاتبة وزير الحربية الماريشال نييل يوم ٢٣ أفريل ١٨٦٨م ليضع حداً للصراع ووصف له تخوف السكان المسلمين في الجزائر والعالم الإسلامي.

ولكن وزير الحربية كان مسانداً ومؤيداً للتبشير ولذلك لم يستجب لمقترحات ماكمهون.

ويبدو أن الكادرينال استخف قول ماكمهون من تخوف السكان وثورتهم ضد التبشير، فكتب إلى الإمبراطور يقول: لم يعد للعرب قوة ولا إمكانيات للقيام بالثورة. وادعى بأن الادارة العسكرية تتهرب من مسؤولية المجاعة والأمراض، ولذلك استندت إلى تخوف السكان منه[1].

وإذا رجعنا إلى موقف الإمبراطور نابليون الثالث من التبشير وجدنا بأنه أبدى تمسكه بمبدأ حرية العقيده الدينية، وتحت تأثير ماكمهون بعث نابليون خطاباً شديد اللهجة إلى الكاردينال لافيجري يذكره فيه، بان المسئولية الملقاة عليه، هي تهذيب أخلاق المائتي ألف معمر الموجودين في الجزائر، ويأمره بترك شأن العرب للحاكم العام الذي يتولى تأديبهم وتنظيمهم.

وإذا كان موقف الامبراطور موقفاً غير مشجع للتبشير فإن هناك من شجعه من كبار مسئولي الدولة، ففي الجزائر أعلن الجنرال ومفين عن تأييده للكاردينال للمرة الثانية حينما شجعه قائلا: يجب عليكم أن تبذلوا كل مجهوداتكم للحفاظ على الملاجئ وتحسينها، وتركها مفتوحة لكل اليتامى وهذه وسيلة عملية تمكن العرب من اعتناق ديننا، وفي باريس تلقى لافيجري مساندة وزير الشؤون الدينية باروش الذي وقف إلى جانبه، وكذلك وزير الدولة السيد رووي الذي ناصر التنصير في الجزائر، وهذا يدل على أن الكاردينال لم يكن وحده في هذه المهمة، بل كان إلى جانبه جمهور من المعمرين بالجزائر ومن مسئولين كبار بباريس[2].

٤ . لقاء لافيجري مع الإمبراطور:

لكي يدافع الكاردينال لافيجري عن أعماله التبشيرية أمام الامبراطور سافر يوم ٩ ماي ١٨٦٨م إلى باريس وأثناء وجوده بهذه المدينة. قامت معظم صحف الجزائر الموالية للاستعمار والمعمرين بنشر مقالات تأييداً له، واستطاعت هذه الحملة الصحفية أن تعجز

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١١٦.

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٧ ، ١١٨.

الجنرال ماكمهون وتسكت الصحافة الرسمية بباريس وشجعته كذلك رسائل المعمرين من الجزائر وقد جاء في إحداها: لقد قمتم بالدفاع عن الاستعمار في الجزائر ضد المكاتب العربية.. إن القضية التي تدافعون عنها هي الحق والعدل والتقدم. وفي رسالة أخرى: إننا نعتمد عليكم في الدفاع عن أمانينا أمام الإمبراطور.

ويبدو أن هذا الدعم الإعلامي جعله يشعر بالفخر والعجب والإصرار على المعنى في مشروعه الظلامي، تمكن الكاردينال من مقابلة الإمبراطور الذي استقبله ببرودة ورد على كل الاتهامات التي وجهت إليه من ماكمهون، وقال أنه لا يعمل إلا بتوجيه الخطاب الإمبراطوري بالجزائر عام ١٨٦٠م وتطبيق ما جاء فيه: نشر التعليم وسط العرب، مع احترام ديانتهم وتحسين مستوى معيشتهم.

ولكي يضع الإمبراطور حداً للصراع القائم بين ماكمهون ولافيجري اقترح على هذا الأخير تعيينه على أسقفية مدينة ليون بفرنسا، لكن الكاردينال رفض ذلك قائلا: إن قبولي لهذا المنصب الجديد يعني الهروب من معركة بدأت القيام بها وهذا يعتبر مساً لشرفي. ثم صمّم العودة إلى منصبه في الجزائر مهما كانت الظروف واعداً الامبراطور الكاردينال بالسماح له بممارسة الأعمال الخيرية وسط مسلمي الجزائر.

وحتى يطمئن بال الكاردينال، نشر الماريشال نييل وزير الحربية تصريحاً مطولاً بالجريدة الرسمية يوم ٢٨ ماي ١٨٦٨م ومما جاء فيه هذه العبارات المؤيدة للتبشير في الجزائر: تيقنوا سيدي الكاردينال، بأن الحكومة لم تفكر أبد في حصر حقوقكم كأسقف، بل هي تترك لكم الحرية لتوسيع وتحسين ملاجئكم حيث تريدون تقديم الإعانات المسيحية للأرامل والعجزة والأطفال المشردين[١].

وتدعيماً للتبشير وصفت جريدة لورور "الفجر" هذا الفوز بانه فجر جديد على الجزائر. أما جريدة "الديب" المعروفة بمقالاتها التبشيرية فقالت: استطاعت أن تكفكف دموعها

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٩ ، ١٢٠.

الغذيرة بعد أن أسالتها مدة طويلة من أجل لافيجري، عاد الكاردينال لافيجري إلى الجزائر يوم ٧ سبتمبر ١٨٦٨م بعد أن حصل على حرية التبشير من الإمبراطور نابليون الثالث وضمان الحفاظ على الملاجيء، وبمقتضى ذلك تصرف في اليتامى كما يشاء[١].

إن الحرية التي حصل عليها لافيجري بعد قرار وزير الحربية والتسامح الذي أظهره الإمبراطور نابليون تجاه أعماله الخيرية جعلته يتحرر من القيود التي فرضت عليه وعلى من سبقوه في هذا الميدان، وسمحت له تنفيذه مخططاته التبشيرية، غير أنه بالسلطة العسكرية في الجزائر فبدأها بتعميد ستة شبان ـ نجوا من كارثة المجاعة ـ في كنيسة السيدة الأفريقية على مرأى ومسمع الجميع، وبعد مدة وبإيعاز من الفاتيكان تم تعميد طفلين يتيمين جزائريين آخرين في مدينة روما، ويظهر من وراء هذه العملية أمران هما:

أ ـ التعاون الوثيق بين الفاتيكان والكاردينال لافيجري والمعروف أن البابوية بروما وعلى رأسها البابا بيوس التاسع بارك العمل الخيري التبشيري في الجزائر وساند لافيجري مساندة قوية ورأي فيها أحياء للحروب الصليبية التي كانت هجمة قوية على الإسلام والمسلمين.

ب ـ تنوير الرأي العام العالمي المسيحي في أوروبا وغيرها بأن التبشير في الجزائر يخدم الكاثوليكية والمصالح الأوروبية عموماً، وعليه يجب تدعيمه مادياً ومعنوياً، وهكذا يكون النشاط التبشيري قد توسع واتخذ ابعاداً أخرى، ولكي يستمر لافيجري، ويتمكن من كسب نجاح أوسع وأكبر لابد له من مبشرين كثيرين يحققون هذا الهدف، لذلك أنشأ فيفري من عام ١٨٦٩م فرقة دينية جديدة هي فرقة الآباء البيض[٢].

دون أن يجد معارضة رسمية لذلك، وهذه الفرقة الجديدة هي التي ستأخذ على عاتقها مهمة التبشير في الجزائر أولاً ثم تونس والمغرب ثانياً وفي أفريقيا أخيراً.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٢١.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٢٣.

ويبدو أن فكرة تنصير أفريقيا تعود إلى الأيام الأولى من مجئ لافيجري إلى الجزائر، ألم يعلن عنها حينما خاطب رجال الدين قائلاً:

يجب أن نجعل من الأرض الجزائرية، مهداً للأمة الفرنسية المسيحية، وينبغي أن ننشر حولنا الاضواء الحقيقية للحضارة المستوحاة من الانجيل، وأن نحملها إلى الصحراء وإلى العالم الأفريقي الذي يعيش حياة بربرية، ونعمل على ربط وسط أفريقية بشمالها.

ويريد لافيجري بهذا التصريح بسط النفوذ الكاثوليكي الفرنسي في أفريقية قبل أن تشرع في ذلك عسكرياً وسياسياً. مثلما فعلت كذلك بالهند الصينية سابقاً. ولن يتم لها ذلك إلا بواسطة تحبيب فرنسا باسم السيد المسيح، فالمبشر كان يسبق الجيش في كل مكان ليمهد الأرض اللازمة للنفوذ السياسي والعسكري، ولم يقتصر هذا على فرنسا بل استعملها للدول الأوربية حيث تبارت في استخدام المبشرين لتأييد النفوذ الأجنبي، وكانت النتيجة أن التبشير الممزوج بالسياسة، بل السياسة المغلقة بالتبشير وهو الاستعمار وما نجحت فرنسا في الدخول إلى أجزاء من أفريقية إلا بفضل الآباء البيض الذين مهدوا لها طرق الاحتلال[1].

٥ . تأسيس فرقة الآباء البيض والأخوات البيض:

تأسست هذه الفرقة الدينية في الجزائر بعد نكبة المجاعة، وكان ذلك على يد الكاردينال لافيجري سنة ١٨٦٩م وأطلق عليها هذا الاسم إلى اللباس الأبيض الذي يلبسه مبشروها ومبشراتها ليشابه اللباس العربي الجزائري.

ولم ينس لافيجري مقام المرأة في الأسرة فوجه اهتمامه إلى التأثير عليها، فالمرأة في نظره مدار الحياة الاجتماعية، والوصول إليها وصول إلى الأسرة كلها، واستخدام المرأة هو لتحقيق الأهداف النبيلة ولهذا أنشأ في نفس السنة أي في سبتمبر ١٨٦٩م فرقة الأخوات البيض وحملها مسئولية التبشير في الوسط النسائي.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٢٤.

فالمرأة المسلمة الجزائرية التي كانت تمثل حصناً منيعاً ضد كل ما هو دخيل بحكم الدين والتربية والعادات والتقاليد سمح لأخوات البيض التغلغل في صفوفها ـ أي المرأة ـ إليهن في المستوصف، والمستشفى، والزيارات المنزلية التوجيهية والتعليم وهو ما لا يمكن للمبشر الرجل القيام به.

إن فرقة الآباء والأخوات البيض تأسست بالجزائر تحت ظروف المجاعة خصيصاً لتنصير مسلمي الجزائر، وقد اختلفت عن الفرق الدينية في أشياء كثيرة لاسيما في وسائل التبشير وطرقه إلا أن القاسم المشترك بينها هو نشر رسالة الإنجيل خارج العالم المسيحي.

أدرك لافيجري أن اللباس الديني المسيحي سيخلق هوة بين المبشرين والجزائريين، لذلك أشار على أعضاء الفرقة الجديدة أن يتقربوا من "الأهالي" باتخاذ عاداتهم وطرق معيشتهم ولباسهم ولغتهم، فاختار لهم اللون الأبيض ويتكون من طويلة مصنوعة من الصوف أو القطن ويوضع فوقها برنوس أبيض اللون، ومن شاشية حمراء توضع فوق الرأس انسجاماً مع الزي التقليدي الجزائري وتحاط الرقبة بسبحة وردية اللون يتدلى من طرفها صليب أبيض أو أسود، وكثيراً ما كان الأب يترك لحيته طويلة، وهذه الطريقة في اللباس جعلت هذه الفرقة تحتك بالسكان إحتكاكاً شديداً وتتعرف على طرق حياتهم، وقد وضع لإفيجري برنامجاً صارماً لتكوين مبشريه يخضع أثناءها المبشر إلى تنظيم محكم يسمح له بأداء مهمته التنفيذية ويدوم تكوينه خمس سنوات تمر بمراحل هي:

ـ المرحلة الأولى ويقضيها المبشر في المدرسة الابتدائية الدينية بالحراش

ـ المرحلة الثانية في كلية اللاهوت في تيبار بتونس وقرطاج

وأثناءها يأخذ علم اللاهوت واللغات ـ العربية والأمازيغية – ودروساً في الطب التطبيقي يستفيد منه في الأعمال الخيرية، فإذا كانت الجزائر حقلاً للتجارب التبشيرية التنصيرية فقد جعل لا فيجري من تونس معهداً للتكوين الثقافي والديني للآباء.

وقد صور لافيجري عظم المسئولية التبشيرية الملقاة على عاتق هؤلاء قائلاً: إن رجال الدين هم الذين قاموا بإصلاح الأراضي في فرنسا وتعميرها، وتحضير وتمدين سكانها بعد أن إكتسحت هجومات البربار الأراضي الأوروبية، وهذا مايجب عمله في أفريقية بعد زحف الإسلام عليها[1].

وتتم هذه التوصية عن روح التعصب الديني لهذا الرجل فما أبعد حضارة المسلمين المزدهرة في هذا الجزء من أفريقية عن جهل وتأخر أوروبا المعروفين عنها في العصور الوسطى.

وقد وضع لافيجري قواعد ومنهجية عمل لهذه الفرقة، أصبحت تعتمد عليها فيما بعد:

. الإيمان بالعمل التبشيري والتفاني والتضحية من أجله.

. التحلي بالصبر لأن العمل شاق وطويل.

. العمل بحذر لأنه ضروري لبلوغ الهدف.

. إستخدام الخدمات الخيرية لأنها الوسيلة الأساسية لنجاح التبشير.

. أن يكون شعار الفرقة هو المحبة والتكتل لأن في ذلك قوة تعمل على الوصول إلى الأهداف التبشرية فبهذه القواعد إنطلقت فرقة الآباء والأخوات البيض في العمل التبشيري، ويمكن أن نعتبر تأسيسها انطلاقة كبيرة في الميدان التبشيري وذروة كبرى بلغها في الجزائر، بل وفي أفريقية، وبفضل هذه الفرقة تمكن لافيجري رغم الظروف والصعوبات أن يركز نفوذه وذلك بتأسيس عدة مراكز تبشيرية في كل أنحاء البلاد وخارجها، كان أهمها تلك المراكز التي أسسها في منطقة القبائل الكبرى والصحراء[2].

٦ . التنصير في منطقة القبائل:

عملت فرنسا على تزوير تاريخ الجزائر وقامت بدعم الدراسات التي تخدم مخططات المستعمرين ومنها ما تناول تاريخ أفريقيا وعملوا على قلب الحقائق وصوروا الفتوحات الإسلامية على أنها فرضت على البربر الأمازيغ الإسلام بالإكراه والسيف وقطعت صلة

[1] المصدر نفسه، ص: ١٢٦.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٢٧.

البلاد مع الحضارة الغربية والكنيسة، وقد حاولت هذه الدراسات ربط ماضي شمال أفريقية المسيحي بالحضارة الغربية التي عادت بالوجود الفرنسي بالجزائر، وكان القصد منها إظهار إمتداد المدينة اللاتينية بالمغرب العربي الإسلامي، مؤكدة بأن هذه البلاد طبعت منذ العهد الروماني بالطابع المسيحي، ومن هذا المنطق اهتم الفرنسيون بالكتابة التاريخية بتوجه يخدم نفوذهم ويؤكد شرعية احتلال البلاد وادعوا حتمية إرجاع الجزائريين إلى حظيرة الدين المسيحي بإعتباره دين الأغلبية منهم في الجزائر.

ولهذا الغرض تعددت هذه الكتابات بعد الاحتلال وساهم فيها العسكريون ورجال الدين، والرحالة، وبعض الكتاب وكلهم أشادوا بالغزو، خصوصاً أنصار الكنيسة الذين كان شعارهم ـ أفريقية اللاتينية والجزائر الفرنسية المسيحية، كما كثرت الحفريات للبحث عن الآثار المسيحية إنطلاقاً من الخرافة أو كتب الرحالة إحياء للكنيسة الرومانية القديمة، ومثلها اهتم الفرنسيون بالتاريخ والآثار إحياء للمدينة والكنيسة، فإنهم فعلوا كذلك حينما تناولوا سكان الجزائر إنتوغرافيا، فما أن إستقر المحتل في البلاد حتى بدأت الإدارة الفرنسية وما حولها من كتاب تحاول وبجميع الوسائل أن تتعرف على فئات الأهالي وأن تعلم ما هي المقاييس والحاجيات والخصوصيات لدى كل واحدة منها أولاً، وتطبيق سياسة فرق تسد ثانياً، وهكذا شهدت الجزائر عشرات من ضباط الشؤون الأهلية، والرحالة والمبشرين الذين إختصوا في دراسة عادات وتقاليد وأنماط المعيشة عند السكان ونظمهم الإجتماعية والاقتصادية ولغاتهم ولهجاتهم بمختلف مناطقهم وكأنهم فسيفساء من الشعوب والقبائل.

وسعى هؤلاء أيضاً إلى تقسيم عام للسكان إلى بربر أو سكان القدامى وعرب وهم الذين وصفتهم كتابات أولئك الباحثين بأنهم بخلاء غزاة هدموا معالم الرومان وعطلوا الحضارة أربعة عشر قرناً، وعلى ضوء ذلك ظهرت دراسات جغرافية إجتماعية وسياسية، الهدف منها بث الروح الإقليمية وزرع الشقاق بين السكان وإستثمار كل هذه المجهودات من أجل تزوير التاريخ ومحو الكيان الجزائري للوصول إلى السيطرة الكاملة على البلاد، وكان

العسكريون أبرز من كتب عن بلاد القبائل، وهم على التوالي: الجنرال دوماس، اوكبتان، كاريت، فابار، دوفو، الطبيب العسكري لوكلير، وهذه المرحلة فقد كتب هؤلاء بالتفصيل عن هذه المنطقة من حيث العادات والتقاليد، والتاريخ، وغيرها، وأغلب هؤلاء كانوا أعضاء في لجنة الإكتشاف العلمي للجزائر التي تأسست عام ١٨٣٧م وكتاباتهم تخلو من الروح العلمية والموضوعية، نذكر على سبيل المثال بعض ما كتب هؤلاء حول بلاد القبائل.

منهم الأب دوقا من رجال الدين اليسوعيين الذين عكفوا على دراسة منطقة القبائل من الجزائر، وقد روج في دراسته هذه بأن الديانة المسيحية ستعمل على فرنسة القبائل وذلك عن طريق الوعظ والإرشاد الديني المسيحي إلا أنه حذر المبشرين قائلاً: بأن العمل المباشر مع هؤلاء السكان هو بمثابة نداء في الصحاري، ولذا فإن لغة العمل الخيري هي الأحسن، ويوصي كذلك بأنه يجب إخفاء الحقيقة وراء هذا العمل، وعند الوصول إلى الهدف يمكن التبشير بالعقيدة المسيحية[١].

إلا أن تمسك مناطق القبائل والشعب الجزائري بالإسلام وتعاليم القرآن أربك مخططاتهم وجعلها غثاء لا أثر لها في حياة الناس، وإن الإنسان يرى العجب العجاب من محبة الأمازيغ وأهالي القبائل للإسلام والحضارة الإسلامية، وصدق الزعيم عبد الحميد بن بادبس الضهاجي الأمازيغي:

شعب الجزائر مسلم

وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله

أو قد مات فقد كذب

أورام إدماجاً له

---

[١] الحركة التبشرية الفرنسية، ص: ١٣٩ ، ١٤٥.

رام المحال من الطلب

يا نشئ أنت رجاؤنا

وبك الصباح قد إقترب

خذ الحياة سلاحها

وخض الخطوب ولا تهب

فإذا هلكت فصيحتي

تحيا الجزائر والعرب[1].

حاول دعاة التنصير أن يعملوا على تنصير أبناء القبائل ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، ومن أشهر هؤلاء الأب اليسوعي جان بتيست كروزا الذي دخل بلاد القبائل كمرشد ديني ومبشر بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٨٦٣م، وأبدى كروزا من الحماس الديني ما جعله يطوف بالقرى الواحدة بعد الأخرى، فزار حوالي سبعين قرية للتعرف على المجتمع القبائلي وسكانه عله يكسب رضاهم، وأخذ يجلبهم إليه بتوزيع الملابس والسكر والقهوة ويقدم لهم الإرشادات الدينية. وأضاف إلى هذه الأعمال الخيرية فتح مدرسة كانت بمثابة ملجأ للأيتام جمع فيه حوالي عشرين طفلاً.

وبعد أن مهد كروزا لمخططه التبشيري بالأعمال الخيرية أخذ يحدث السكان عن الديانة المسيحية ومزاياها ويبدو أن هؤلاء أرادوا استغلال إندفاعه، فراحوا يستمعون إليه بكل اهتمام، ولذا ركز جهوده على قرية بني فراح لإعتقاده أنه نجح في جلب سكانها، فجاء إليها ذات يوم ليلقي دروسه الدينية وأراد سكانها أن يجعلوا حداً لذلك فوضعوا أوساخاً على المقعد الحجري الذي كان يجلس عليه دائماً وغطوا ذلك بأوراق الأشجار، فجلس الأب ولما نهض وجد ثيابه ملطخة بالأوساخ.

---

[1] ابن باديس فارس الإصلاح، د. محمد بهي الدين، ص: ٣٤.

الأمر الذي آثار ضحك وسخرية الحاضرين، ويفهم من غضب الكولونيل مارتان لهذه الحادثة العطف الذي كان يكنه للأب كروزا بحيث قرر معاقبة (المجرمين) لكن الأب عارضه ظاناً بأن هذا العمل كان من بعض المغامرين، ويظهر أن هذه الحادثة لم تفشل الأب كروزا، لذا آل على نفسه مواصلة مهامه الخيرية التبشيرية، لكن أمين قرية بني فراح لونيس نايت علي عمر تحداه ورد على إدعاءاته، فجمع سكان القرية بمحضر الكولونيل مارتان وكل الأعيان وخاطب هذا العسكري وكل الحاضرين قائلاً:هل ترغبون في إعتناق الديانة المسيحية؟ وهل تسمحون لهذا الأب البقاء بينكم؟ فسكت الحاضرون وبكت عيونهم كثيراً حتى أن أحداً منهم لم يستطع الإجابة وبعدئذ أجابوا الكولونييل بكلمة واحدة قاطعة: أننا لن نترك أو نتخلى عن ديننا وأن أجبرتنا السلطة على ذلك فإننا نطلب منها أن ترشدنا إلى طريق يسمح لنا بمغادرة البلاد، وإذا لم نجد لذلك سبيلاً فإننا نفضل الموت بدلاً من إعتناق المسيحية، أما بشأن أن يقيم بيننا راهب فالله يحفظنا من قبول ذلك. اللهم إلا إذا أجبرتنا الحكومة عليه، وفي هذه الحالة لن نقيم معه أبداً[1].

وأيام هذا الموقف إضطر الأب كروزا إلى الإنسحاب إلى قرية بني يني البعيدة ليستأنف العمل بها، إلا أن سكان هذه القرية أعلنوا رفضهم لأعمال كروزا، وقد حذر شيخ هذه القرية الضابط العسكري من العواقب وقال: إن البلاد لن تعرف هدوءاً إذا جاءها رجال الدين[2].

كان أهالي الجزائر يرفضون دعوة المنصرين لهم وتصدوا بكل حزم وعزم للإنتهاكات المتعددة التي وقعت على الإسلام من قبل الكاردينال وأعوانه.

ومهما يكن من أمر فإن التبشير في بلاد القبائل لم يجد الأرض التي كان المبشرون يعملون بها، وإذا كان هناك من أقدم على إعتناق المسيحية من بعض العناصر والأفراد، فإن ذلك يعود بسبب عامل الفقر والحرمان والجهل والمغامرة والطمع في المادة وهي الأوضاع التي

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٥.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٥٢.

إستغلها المبشرون في تحقيق مسعاهم ويعود هذا الفشل إلى أسباب الآتية:

ـ موقف السكان المعارض لكل محاولة عامة لتمسكهم بالدين الإسلامي.

ـ الصراع الذي حدث بين لافيجري وماكمهون وكان له إنعكاسه على النشاط التبشيري ببلاد القبائل لإنشغال لافيجري به.

ـ تركيز جهود المبشرين على إنقاذ أطفال المجاعة واهتمامهم بإنشاء القرى العربية ـ المسيحية ـ بسهل العطاف[١].

ـ تعلق الجزائريين باشيوخ والعلماء وزعماء الطرق

ـ إنتشار الثقافة الإسلامية وبُعدها الحضاري، وعقيدة الإسلام في كل المدن والقرى وبين القبائل رجالاً ونساءً شيوخاً وأطفالاً، بحيث شكل سياجاً متيناً مع صفاء الفطرة، ورجاحة العقول وطهارة النفس، وقبل كل شيء توفيق رباني من الله عز وجل لهذا الشعب العزيز الحبيب. قال تعالى:" يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ يُضِلّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء" (إبراهيم ، آية : ٢٧).

٧ ـ التنصير من أسباب ثورة المقراني:

لقد رأى الجزائريون تساهل وسكوت بعض العسكريين والسلطة بباريس على تصرفات المبشرين في التنصير استفزازاً لمشاعرهم فكانت هذه الاستفزازات من الأسباب الرئيسية لثورة المقراني في بلاد القبائل والجزائر عامة.

إن ثورة المقراني انطلقت سنة ١٨٧١م من منطقه هي أبعد ما تكون عن الكوارث الطبيعية لعام ١٨٦٨م لدليل على رد فعل سكانها لم يكن بسبب اقتصادي وإنما بسبب الغزو والظلم والجور والاعتداء على المقدسات، ففي رسالة الباشاغا إلى الشيخ ابن كابة وكبراء قرية بوجليل ببني عباس قال بعد التحية: وبعد أن تتوكلوا على الله ورسوله، تقدموا

---

[١] المصدر السابق.

إلى الجهاد لنصرة دينهم عزماً. فلا غرابة أن تكون سياسة التنصير عاملاً في دفع الجزائريين إلى الثورة.

وبالنسبة للكردينال لافيجري رأى أن أسباب الثورة تعود إلى السياسة الفرنسية بالجزائر، التي وضعت القرآن الكريم في مرتبة أعلى من الإنجيل، وإلى مواقف الذين أسسوا مدارس إسلامية بأموال فرنسية ومنعوا رجال الدين من نشر الإنجيل، فزادوا بذلك من تعصب السكان إلى أن انفجر فأحرق القرى وقتل السكان.

وتشير تصريحات لافيجري أثناء هذه الثورة وما بعدها إلى مساندته المطلقة للعسكريين الذين أخمدوا هذه الثورة، وإلى دور المبشرين الذين لعبوا دوراً في هزيمة المقاومين ومن أبرز هؤلاء قسيس مدينة باليسترو "الأخضرية حالياً" الذي مات شهيداً من أجل فرنسا، وقد أقام لافيجري قداساً عظيماً في كاتدرائية مدينة الجزائر "كتشاوة حالياً"[١].

وما يفند إدعاء - ما يعرف بالقبائل المسيحية - ودهشة هذا الرجل هو تعجبه قائلا: إن الذين ثاروا ضدنا، ليسوا عرباً وإنما هم سكان قبائل جرجرة وغيرها ذوي الجذور المسيحية، ثم يناشد السلطة بوضع حد لتعصبهم الديني والقضاء على الإخوان والمرابطين الذين استقروا بهذه المنطقة.

لقد عملت ثورة المقراني وغيرها على التأثير على أعمال لافيجري الهشة وإفلاسها، الأمر الذي دعاه إلى طلب الصدقات من المسيحيين المحسنين في كل من أمريكا وبلجيكا وفرنسا، وبتبرعات هؤلاء استطاع لافيجري أن يستعيد قوته لاستئناف الأعمال التبشيرية.

٨ - الأميرال دوفيدون داعم للتبشير:

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٤.

ولقد وقف الأميرال دوفيدون منذ تعيينه على رأس الإدارة المدنية بالجزائر يدافع عن المسيحية وعن الكاردينال لافيجري ولذا تطورت الحركة التبشيرية في عهده لأنه ساندها مساندة مطلقة وحينما حل بالجزائر (مارس ١٨٧١م) كانت المجالس البلدية التي تزعمت الحركة اللادينية العدو المشترك له ولمناصرة لافيجري فشن عليها الأميرال حملة ضدها، ووصف قرارها ورأى في إغلاق المدارس الدينية عملاً خطيراً إجراميا ضد الدين، فكاتبها باسم وزير التربية يحثها على إعادة فتح الأبواب باعتبارها قوة يسند إليها المعمرون لضرب الديانة المحمدية لقد عمل دوفيدون منذ توليه على الربط بين دور الكنيسة ودور الاستعمار، بل جعل الكنيسة رائدة في هذا المجال، ولهذا أطلق عليه لقب: الأميرال كاردينال . ويكفي أنه قال: قضيت حياتي وأنا أساند الحركات التبشيرية في كل جهات العالم، فكيف تسمح لي نفسي في أن أقف ضدها في أرض فرنسية هي الجزائر، وقد آمن واقتنع كما اقتنع لافيجري أن استمالة المسلمين والتأثير فيهم يجب أن يتم بالأعمال الخيرية وليس عن طريق الخطب، ورأى أيضا أن الوقت قد حان لجلب شتات هذا الشعب المغلوب إلى الحضارة المسيحية[١].

وأعلن أيضا وقوفه إلى جانب المبشرين حين خاطبهم قائلاً: هناك من يعرقلكم، أما أنا فأساندكم لتقريب الأهالي نحوكم عن طريق التعليم والأعمال الخيرية، أنكم تقومون بما تقوم به فرنسا، إنه ليس لدى فرنسا من الرجال ما يكفي لتعمير الجزائر، لذلك يجب الاستعاضة عنهم بفرنسة السليونين من البربر، تقدموا بحذر وستجدون العون عندي استمر اهتمام لافيجري بشكل واسع بسكان بلاد القبائل في عهد النظام المدني بالرغم من فشل المساعي التنصيرية بها، واستطاع أن يؤثر في الأميرال دوفيدون ويقنعه بأن أصل هؤلاء السكان مسيحي وأن الدم الذي يجري في عروقهم هو نفس دم الفرنسيين، ولا يرون أفضل من الرجوع إلى ديانتهم القديمة.

[١] المصدر نفسه، ص: ١٥٦.

ولكي يمكن لفرنسا أن تستعمر الجزائر استعماراً حقيقياً وناجياً ناشده بفرنسة المليونين من البربر.

ويظهر أن الأميرال الذي كان مقتنعاً بسياسة الاندماج آمن بأفكار ونظرية لافيجري ورآها ملائمة للظروف التي كانت تمر بها الحركة الاستعمارية آنذاك في الجزائر، ويتضح ذلك من قوله: إن الهدف الذي يرمي إليه المبشرون هو نفس الهدف الذي أريد أن أصل إليه، إنه إدماج سكان بلاد القبائل في المجتمع الفرنسي[1].

٩ . دوافع اهتمام لافيجري بمنطقة القبائل:

ومما زاد في اهتمام لافيجري بمنطقه القبائل هي الدوافع الآتية:

. تشجيع الجنرال دوغيدون المطلق للتبشير في كل انحاء الجزائر وتعاطف الجنرال شاتري "الذي أتى من بعده" مع المبشرين.

. تأسيس فرقة الآباء البيض للتبشير في الجزائر وأفريقية.

. وقوف باب روما إلى جانبه "أي لافيجري" ولاسيما عند إعلان ولاء الكنيسة الفرنسية للجمهورية بعد سقوط الملكية في فرنسا.

. تردي الأوضاع الاقتصادية في هذه المنطقة بعد ثورة عام ١٨٧١م الذي أودى إلى تفقير السكان وهو ما استغله لافيجري باسم الأعمال الخيرية.

ويعتقد لافيجري أن الوصول إلى هذا الهدف التنصيري يجب أن يتم في إطار (لبنان أفريقي) وهو لبنان الذي تخلت عنه أوروبا فاندثرت معالم المسيحية بسوريا ولبنان الذين اعتكفوا بالجبال فارين من الفتح الإسلامي ورأى أنه بواسطة الآباء البيض سيعيد "ماروني" بلاد القبائل إلى ديانتهم الأصلية.

أن الحركة التبشيرية التي عرفت عراقيل في عهد النظام السابق ستعرف في النظام المدني . انطلاقة كبرى في بلاد القبائل، والمدن الصحراوية كميزاب، والأغواط ورقلة وبسكرة

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٦.

والبيض وغيرها، وقد اختارها المبشرون مستندين في ذلك إلى عامل الأصل واللغة "أي الأصل البربري الأمازيغي واللهجات"، وستكون هذه المدن بمثابة بوابة للتبشير في أفريقية الاستوائية، وحتى لا تجد هذه الجهود التبشيرية نفوراً من السكان خصص لافيجري إمكانيات ووسائل، وذلك يوضع برنامج يسير عليه المبشرون في عملهم ويمكن حصره فيما يلي:

أ . ينصب اهتمام البرنامج الخاص، لا إلى تنصير الفرد لأن ذلك لا ينجح وإنما التنصير الجماعي، ولذلك ركزوا على بلاد القبائل ذات الكثافة السكانية المرتفعة مما يسمح لهم بتنصير القرية بأكملها وللوصول إلى ذلك لابد من القضاء على روح التعصب الديني[١].

ب . إن المسيحي في نظر السكان، إنسان كافر ولذا أوصى لافيجري مبشريه بأن يتظاهروا بمظهر التدين حتى يكتسوا الاحترام.

ج . التمسك بالصبر والتسامح، وتقبل الشتم والسب.

ح . استمالة السكان بواسطة الأعمال الخيرية: التطبيب، التعليم والتنقل إلى القرى البعيدة لمعالجة المرضى، وتوزيع بعض الحاجيات على الفقراء والمحتاجين.

س . التواضع والتغلغل وسط السكان، واستعمال لغتهم ولباسهم وأنماط معيشتهم.

ش . عدم التعرض إلى الدين المسيحي، لأن ذلك ينفر السكان فيفشل المساعي التبشيرية وهكذا جهز لافيجري لهذه الأعمال وسخر لها الوسائل البشرية والمادية، وما إلى ذلك من طرق تبشيرية هادفة.

وقد لخص أحدهم طريقة التعامل مع السكان بقوله: إذا أردنا أن يخضع الناس للإنجيل، فيجب أن نخضع لهم ونظهر إزاءهم بصفة المغلوب وفي نهاية المطاف نتمكن من أن نخضعهم إلينا[٢].

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٥٨.

انطلق لافيجري في حملته التبشيرية وهو يعتمد أساساً على التشكيك في إسلام هذه المنطقة وضربها في العمق، وفي نظري أن هذا أخطر سلاح استعمله المبشرون للوصول إلى الهدف ولا يمكن النجاح إلا بمحو الإسلام بهذه المنطقة بل وفي كل المناطق الأخرى.

وبعد سنة من هذه الزيارة أي في ١٨٧٣م أسس لافيجري مراكز تعليمية تبشيرية بهذه المنطقة مدعومه بسخاء وروح صليبية.

ويبدو أن الخطر الذي هدد الديانة الإسلامية في التجربة الأولى جعل السكان يشكون في أمر المبشرين، ولا أدل على ذلك ما أظهرته جماعة أو تجماعات قرية توريرت عبد الله من خوف على مصير أبنائها وما أبدته قرية آيت برحال من إستمرار الأعمال الخيرية، ولم يرض سكان مدينة ميشلي بوجود الدين بينهم إلا بعد تدخل قائد القطاع العسكري الذي وعدهم بعدم مس الشؤون الدينية، ويمكن القول بأن أعمال المبشرين في البداية، إقتصرت على الأعمال الخيرية، كالتطبيب والتعليم بإسم الديانة المسيحية، ونظراً للدور الذي تلعبه المدرسة في مجال التبشير، فإن لافيجري أوصى مبشرية (الآباء البيض) بتركيز الجهود عليها بإعتبارها تملك الطفل وتتحكم في مستقبله، وإنطلاقاً من هذه الوصية أسس المبشرون مدارس بكل مراكزهم ولما كانت الأعمال الطبية أهم ما يفتقده السكان، حاول هؤلاء إستعمال هذه الوسيلة لتحقيق المطامع التبشيرية.

ويظهر أيضا أن العمليات التنصيرية الأولى بالمنطقة نفذها المبشرون مع اليتامى والمعوقين والمرضى والأطفال غير الشرعيين وبعض المغامرين بحثاً عن المادة، ولعل أسوأ ما إستغله هؤلاء هم العجزة من الشيوخ الذين لا سند لهم، أو الذين تخلت عنهم أسرهم، وهم يعانون الفقر، والحرمان والوحدة القاتلة.

وإلا كيف نفسر تعميد شيخ أعمى في آخر حياته إذ يبلغ ٩٠ سنة وعجوز ذات ٨٠ سنة والأخرى ذات ٧٥ سنة.

أو ليس هذا إستغلال مباشر للوضع المأساواي وعمل خيري مقنع بإسم الدين[1]؟

لم يستطع الكاردينال لافيجري أن يكسب منطقه القبائل دينياً وبشكل جماعي وبالصورة التي كان يتوقعها من قبل، وبالرغم من الصبر والتفاني في العمل، فإن المحاولات التبشيرية لم تكن لها نتائج أكثر من التي تحصلوا عليها في المناطق الأخرى، وما تمكن منه هؤلاء هو جلب عدد من المغامرين، الذين أقبلوا على التنصير ففقدوا مكانتهم بين عائلاتم والمجتمع وهددوا بالموت، أو بعض الذين أرادوا تحقيق بعض الأغراض المعيشية، فتعرضوا فيما بعد إلى النبذ والإحتقار، وإضطر عدد منهم إلى الهجرة خارج القرية بل وإلى خارج الجزائر.

ويذكر شارفوريات الذي زار بلاد القبائل بعد ستة عشر عاماً من وجود الآباء البيض بها ما يلي: يستحيل التنصير الفردي وما يمكن الإعتماد عليه هو التنصير الجماعي، والسبب في ذلك هو الروابط التي تشد الفرد بمتجمعه وقريته والتي تجعله مبعداً عنها أن هو إرتد عن دينه، وبعترف الآب شاتلان بصعوبة التنصير في هذه المنطقة حيث قال: إذا كان سكان بلاد القبائل قد أبدوا إقبالاً على كل الحضارات، فإنهم ومن ناحية أخرى لم يكونوا ليغيروا عقيدتهم إلا بمشقة كبيرة.

وكتب الأب شارميتان مسئول الآباء البيض في هذه المنطقة عام ١٨٩٢م ليقول: إن القبائل بعيدون كل البعد عن مملكة السماء أي المسيحية، وهم ليسوا مستعدين للتنصير ولا يمكن التأثير فيهم ... أن القبائلي مسلم مثل العربي لا يتقبل الإنجييل بسهولة مثلما يتقبله الوثني، ويفهم من ذلك تمسك هذا الأمازيغي القبائلي بالإسلام، وكتب بعضهم قائلا: أنه وبعد خمسين سنة من إستقرار الآباء البيض بهذه المنطقة أي حوالي ١٩٢٠م تقريباً فإن النتيجة جاءت مخيبة للآمال وليس كما كان متوقعاً ثم يكشف وضعاً آخر

[1] المصدر نفسه، ص: ١٦١.

قائلا: إن الذين أقبلوا على التنصير كانوا يبحثون في ذلك عن الإمتيازات والمصالح المادية التي أصبحت عبئاً ثقيلا عن الإرسالية التبشيرية[١].

ونستنتج من كل ذلك، فإن تمسك السكان الكبير بالإسلام وحضارته والمعارضة التي أظهروها ضد كل محاولة تبشيرية بالمنطقة كما أسلفنا أفشلت مساعيها ورغم الجهود التي بذلت وبشتى الوسائل والاهتمام الخاص الذي أفرد لسكان هذه المنطقة، فإن كل ذلك باء بالفشل بما في ذلك الجهود التبشيرية التي كان لها نفس المصير في مناطق أخرى من الجزائر.

وهو الأمر الذي جعل المبشرين يركزون جهودهم على تعلم اللغة الفرنسية وحضارتها متخذين من ذلك وسيلة أخرى من الوسائل التي تحقق الإدماج في هذه الناحية والنواحي الأخرى[٢].

لقد قاوم الجزائريون نشاط هذه البعثات المسيحية بالصحراء وإغتالوا الكثير من رؤسائها الذين أرسلهم لافيجري مثل: (بولمبيه، ومينوري، وبوشار) الذين قتلوا في حاسي عين إيفل كما قتل القسيسان: ريشارد وكيرمابون في الصحراء الشرقية.

وعمل القس شارل دي فوكو بالصحراء وأدى دوراً كبيراً من أجل تثبيت الإستعمار الفرنسي، ونسق مع المرشال ليوتي الذي إحتل المغرب وقام بدراسة القبائل الصحراوية، وركز على الطوارق، فدرس لهجتهم البربرية، وكتب قاموساً لها، وذهب إلى المغرب في مهمة كيهودي سنة ١٨٨٣م، وتنقل بين الأغواط وغرداية، وميزاب ورقله والمنيعة وتقرت، وقام برحلة في المشرق في مهمة وعاد للجزائر وساعد الجيش الفرنسي على إختراق الصحراء والتوجه نحو أفريقيا السوداء وإستقر في منطقة الطوارق بعد أن أتقن لهجتهم،

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

وفي سنة ١٩١٦م ثم إغتياله من طرف رجال الطرق الصوفية الغيورين على دينهم ووطنهم وإتهمت فرنسا السنوسية بقتله[١].

وبرغم الجهود التي قامت بها المنظمات التبشيرية في الجزائر، فقد فشل التنصير وخاب أمل الفرنسيين وبرهن الجزائريون على تمسكهم بدينهم بالرغم من المغريات، وأدركوا أن مهمة الآباء البيض لم تكن دينية صرفة وأنما كانت في خدمة الإستعمار ونشر التفرنس الذي يخدم الإدماج، ولقد نبه الجزائريون المتعاونون مع الفرنسيين إلى خطورة عملية التنصير، فقال لهم الباشاغا ابن علي الشريف سنة ١٨٦٨م.

إن سكان زواوة يفضلون الموت لأطفالهم على أن يروهم يتخلون عن دينهم ويصيروا نصارى.

وكان نشاط عملية التنصير بمنطقة القبائل هي التي سهلت مهمة ثورة المقراني والشيخ حداد، لقد هرب الكثير من الأيتام الذين مسحهم لافيجري بعد أن كبروا وعرفوا حقيقة قصتهم هربوا إلى ذيوهم، لقد عملت الكنيسة على العودة بالبربر (القبائل) إلى المسيحية وتمزيق الشعب، فقد ألف سنة ١٨٩٤م أحد عناصرها كتاباً عنوانه (الأجناس والأديان في الجزائر) وأهداه إلى الأسقف لافوما، دعا فيه إلى الحكم بالعرف الزواوي القبائلي البدائي على حساب الشريعة الإسلامية، وهو ما حاوله المستعمر بالمغرب فيما بعد سنة ١٩٣٠م بالظهير البربري، كما دعا ماثيوا إلى نشر القبايلية على حساب اللغة العربية وتدريس القبائل تاريخ جنسهم الذي ربطته الإدارة الإستعمارية بالمسيحية قبل الإسلام، وربطهم بفرنسا والعمل على نشر الفرقة بين البربر وبين الفاتحين المسلمين.

لكن الكثير من الأعيان من أبناء القبائل الشامخة بدينها وحضارتها رفضوا هذه التفرقة فواجهوا تحكيم العرف القبايلي، فقد طالب أحمد بن سليمان: بإستعمال القضاة

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٣٩.

المسلمين في منطقة القبائل أسوة بكل أنحاء الجزائر لأن الإسلام واحد في البلاد الجزائرية كلها[1].

لقد بينت الدراسة التاريخية العلاقة المتينة بين الإستعمار وحركة التبشير، وإليك أهم النتائج.

. أن للتبشير علاقة بالإستعمار، فأغلب المبشرين يربطون الاستعمار بالتبشير، وهدف الاحتلال في نظرهم هو التقدم الروحي والأخلاقي للمستعمرين (بفتح الميم) .

. أن المبشرين لعبوا دوراً هاماً في الحركة الإستيطانية بإستحواذهم على أراضي فلاحية معتبرة سخروها للفلاحة وزراعة الكروم لإستخراج النبيذ الذي بقي آفة زراعية بعد الإستقلال.

. أن التبشير لعب دوراً هاما أيضاً في توطيد النفوذ الفرنسي بالجزائر والهيمنة الثقافية .

. أن موقف السلطة الفرنسية من التبشير كان متضارباً بحيث كانت تعارض التبشير علانية خشية ثورة الجزائريين وتشجعه سرياً لتدعيم نفوذها في الجزائر، ويتضح ذلك من خلال مواقف ممثليها بالجزائر.

. أن المبشرين بالجزائر كانوا يهدفون إلى خلق النعرة القبلية بين المواطنين، وإتباع سياسة فرق تسد لتدعيم النفوذ الفرنسي، ولكنهم فشلوا في هذه المهمة.

. أن الحرية التبشيرية التي كانت تفتقر إلى حرية واسعة في عهد النظام العسكري، عرفت انطلاقة واسعة وتحررت من بعض القيود المفروضة عليها، وذلك في عهد النظام المدني ولاسيما بعد تأسيس فرقة الآباء البيض .

. أن الحركة التبشيرية عامة قد فشلت أمام صمود الجزائريين لتمسكهم الشديد بالديانة والحضارية الإسلامية.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٦٤٩.

. أن النشاط التبشيري بالجزائر، فتح الباب على مصراعيه في كل القارة الأفريقية وهو الذي مهد للاحتلال الفرنسي لعدد من الدول والمناطق بها.

. أن من إعتنق المسيحية من أفراد وهم أقلية عاشوا معزولين منبوذين ومجتمعهم، وحتى من المعمرين الفرنسيين[1].

١٠ . المستشرقون والإستعمار:

ومن العناصر التي إستعان بها الإستعمار الفرنسي المستشرقون، من أمثال: شيريون، وهادمان، وفيرو، ودي رينو، وديفوكس، ودي سلان، بين ١٨٣٠ و١٨٧٠، وبعد هذا التاريخ ظهرت مجموعة من المستشرقين ضمتهم كمدرسين بمدرسة الآداب بالجزائر العاصمة مثل: إيميل ماسكري، ورنيه باسيه، وإيدمون فانيان، وهوداس، وبرز جزائريون، كمعاونين لهم ثقافياً من أمثال: إبن سديره، وإبن الونيس، وإبن شنب وبوليفة، ومحمد تهليل، وإبن علي فخار، وقد سيطر هؤلاء المستشرقون على المدارس الإسلامية وصارت تحت سيطرتهم وأفكارهم وثقافتهم منذ ١٨٨٠م واستخدمت للنفوذ الفرنسي في الجزائر والمغرب العربي وأفريقية، وكان من أكثر الشخصيات المؤثرة في الإستشراق بالجزائر وفرنسا رونيه باسيه، الذي وصل الجزائر سنة ١٨٨٠ كأستاذ للآداب في مدرسة الآداب بالجزائر، واستطاع تكوين حلقات دراسة جادة في البربرية والأدب العربي، وبل وبعض اللهجات الأفريقية كالهوسة، وتمكن من الدخول في المكتبات العامة والخاصة بالمغرب العربي، وتسجيل مخطوطاتها في فهارس وساعدته الإدارة الفرنسية على ذلك فذللت أمامه كل الصعاب والمشاق والمتاعب، وختم عمله العلمي الكبير هذا بعقد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر سنة ١٩٠٥م، وساعدت على نجاح هذا المؤتمر شخصية رونيه باسيه وعلمه وتلاميذه، ويعتبر رونيه باسيه من أكثر المستشرقين تعمقاً في الدراسات البربرية والسامية بصورة عامة، تخرج على يديه عدة تلاميذ من أمثال: ألفريدبيل وديستان

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٦٣.

الذي جلس على كرسي البربرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٩١٣ وإندريه باسيه وهنري باسيه مؤلف كتاب (اللغة البربرية) سنة ١٩٢٩م وهما من عائلته.

ومن الجزائريين من تتلمذوا عليه: محمد بن أبي شنب، وسعيد بولفيه وقد إستعمل رونيه باسيه أبن شنب في تحرير دراسات عن الأوضاع الإجتماعية والثقافية للمسلمين وفي ترجمة الكثير من الشعر الملحون وبرامج التعليم عند المسلمين، كما قام بتحقيق التراث الجزائري والإسلامي مع ترجمته أو ترجمة خلاصة منه الفرنسية، كما قام بدراسات عن اللغة العربية ودارجيتها الجزائرية، وكانت كل هذه المواضيع تصب في تمكين الإداراة الإستعمارية من فهم المجتمعات التي تحكمها، لا في الجزائر فقط وإنما في أقطار المغرب العربي وأفريقية السوداء، وهذا لايقلل من جهود إبن شنب في خدمة الثقافة العربية بالجزائر بطرق منهجية حديثة مكنه منها أستاذه رونيه باسيه، ووجه باسيه بوليفة لدراسة التراث البربري وعلى الخصوص التراث الزواوي (القبايلي).

ومن غير شك فإن رونيه باسيه إستفاد من هذين العالمين الجزائريين فيما كتبه عن السامية والبربرية وتتلمذوا عليه في إكتسابهم للمنهج العلمي الحديث، كما إستفاد رونيه باسيه من علماء جزائريين آخرين.

لقد إستفادت الإدارة الإستعمارية الفرنسية من جهود المستشرقين ووظفتها في خدمة الإستعمار وتفريق صفوف الجزائريين على أسس من الدراسات والبحوث.

ومن المستشرقين الذين عملوا بفعالية في الصحراء غوستاف مونتيلانسكي الذي ولد في معسكر سنة ١٨٥٤م، وصار من المترجمين العسكريين وتنقل في سائر أنحاء الجزائر وتونس وإختلط برجال القوافل التجارية العابرة للصحراء والواصلة لأفريقية السوداء، وإنتهى به المطاف إلى أن يعين مديراً لمدرسة قسنطينة الإسلامية الفرنسية الكتانية، وكان لهذا المستشرق اتصالات واسعة بعلماء الصحراء وبشيوخ الطرقية، وقام برحلة من غدامس تعقباً لنشاط السنوسية، وسجل كل ذلك في تقارير كان يزود بها حكومته ونشر

مقالات ومخطوطات في المذهب الأباضي، وكما يقول أبو القاسم سعد الله، فإن جهود هؤلاء المستشرقين لم تكن عميقة محضة، فقد كانوا جنوداً في الميدان وليسوا علماء باحثين عن الحقيقة المجردة، كان مثلهم في دعم الإستعمار مثل لافيجري وجنوده من الآباء البيض، ومثل المارشال ليوتي وجنوده من المحاربين، لقد كان يكمل بعضهم بعضاً ويعملون لنفس الغاية وهي مساعدة الإدارة على بسط نفوذها على منطقة العربي وما يتصل به من أفريقية والعالم الإسلامي.

ووسط هذه الحركة الإستعمارية الثقافية وأمام إضطرار فرنسا لتوثيق كل ما يتعلق بالجزائر وتاريخها أسس ضباط المكاتب العربية بالجيش مكتبة هائلة عن الجزائر وتاريخها في مختلف مراحله، وتأسست جمعيات ثقافية أولاها لجنة إكتشاف الجزائر سنة ١٨٣٩م، وأسس الحاكم العام كامبون لجنة ترجمة الكتب العربية سنة ١٨٩٤م، وأسست جمعية آثار قسنطينة سنة ١٨٥٢م، والجمعية التاريخية في العاصمة سنة ١٨٥٦م، وهذه الجمعية هي التي أنشأت (المجلة الأفريقية) الذائعة الصيت، و(جمعية جغرافية وهران) سنة ١٨٧٨م و(جمعية هيبون) بعنابة، وجمعيات أخرى صغيرة في تبسة وتلمسان وسطيف وتأسست في سنة ١٨٩٦م (الجمعية الجغرافية) بالعاصمة، التي قامت ببعثات استكشاف بالمغرب العربي كله والصحراء وجنوب الصحراء، وأشرف عليها ضباط ومدنيون علماء يساعدهم جزائريون. وقد ركزت هذه الجمعيات في عملها على المرحلة الرومانية لأن الفرنسيين يعتبرون أنفسهم ورثة العهد الروماني ويعملون على إعادة الجزائر إليه. وبخاصة إلى المسيحية فيه، وكانت كل هذه الجمعيات والمجلات تعمل تحت العقل المركزي المسير لها وهي المدارس العليا التي صارت سنة ١٩٥٩م جامعة الجزائر.

وقبل هذا التاريخ كان الطالب بهذه المدارس يجري امتحانات الأجازة "الليسانس" في باريس.

واهتمت هذه الحركة الثقافية بالمكتبات فأسس مكتبة عامة هامة بالعاصمة في آخر القرن التاسع عشر ضمت الآلاف من الكتب والمخطوطات التي جمعت من الزوايا والمساجد ووضع لها فانيان فهرساً لمخطوطاتها سنة ١٨٩٣م.

كما تأسست مكتبات تابعة للمكتبة العامة بالولايات وبعض البلديات ومكتبات عسكرية ومكتبات بعض المدارس، وأسس "المتحف الوطني" الذي صار له بنايته المستقلة سنة ١٨٩٧م بعد أن كان موجوداً في مبنى واحد مع المكتبة العامة[١].

الثالث عشر: السيطرة على القضاء والإمامة

١ . القضاء:

عمل الفرنسيون على إفراغ القضاء الإسلامي من صلاحياته، فقد كان قبل الاحتلال مستقلاً بشكل معقول، وكان الداي والباي يعين قضاة المدن، وتعين القبائل قضاة الريف، وكان مجلس أعلى للقضاء يستعرض القضايا الصعبة في صورة استئناف. وأحكامه نافذة، والحكم يكون بالتغريم أو الضرب، أو القتل ولا يكون بالسجن إلا في الحالات القليلة، وقد تطور القضاء في دولة الأمير عبد القادر الذي أولاه رعايته الخاصة. لقد عين الأمير قاضياً لكل خوجة يعاونه أربعة علماء متفقهين في الدين، وكان لا يصدر الحكم بالموت إلا بحضور الخليفة شخصياً "أي نائب الأمير في الولاية"، وهذا عناية بالروح البشرية.

في ١٨٤١م بدأت المحاولات لدمج القضاء الفرنسي كقاضي الصلح والمحاكم الابتدائية والمحاكم الاستثنائية والمحاكم العسكرية، ونزعت الجنايات من القضاء الإسلامي، وصارت من صلاحيات المحاكم الفرنسية، بل وصارت المحاكم الفرنسية الاستثنائية تملك حق النظر في الأحكام المدنية المتعلقة بالأحوال الشخصية.

---

[١] الجزائر في التاريخ صـ٦٥٥.

وحتى القانون الفرنسي لا يطبق بكامله على الجزائريين الذين تحكمهم قوانين استثنائية. فالجنرال بوجو يقول لوزير الحربية: إن حرب الجزائر تستلزم نوعاً من القضاء يختلف عن المعمول به في أوروبا.

ويعترف لوي ماسينيون فيقول: إن الواقع الذي يطبق في الجزائر هو أولاً اعتداء على الشريعة الإسلامية. وثانياً إجراءات تعسفية غير خاضعة حتى للقانون الفرنسي[١].

وقال الحاكم العام "دوفيدون" يوم ٢٢ مارس ١٨٧٤م: إن العدالة تدخل في إطار السيادة وعلى القاضي المسلم الانحناء أمام القاضي الفرنسي وعلى كل واحد أن يفهم أننا الغالبون[٢].

واستمر الفرنسيون في تفريع القضاء الإسلامي من صلاحياته، وما أن حل آخر القرن التاسع عشر حتى لم تبق له سوى عملية تسجيل الزواج والطلاق، وهوت قيمة القاضي الإسلامي[٣].

وفي عام ١٩٠٦م منع القضاة والموثقين من كتابة العقود باللغة العربية وأجبرتهم على كتابتها باللغة الفرنسية، لكن رجال القبائل الكبرى، رفضوا كتابة أي قضية باللغة الفرنسية وأصروا على الكتابة باللغة العربية، وهذا ما دفع بأحد الأوربيين المختصين في القانون إلى القول في عام ١٩١٣م بأن الجزائر، ككل يغلب عليها الطابع الإسلامي والبربر ولا تربطهم أية صلة بفرنسا، وهم مثل العرب في هذا الشأن[٤].

لقد استخدم الفرنسيون سلاح العدالة لقمع الجزائريين المسلمين وذلك عن طريق تطبيق القوانين الفرنسية عليهم وتشكيل مجالس القضاء من الفرنسيين فقط، وإعطاء الشرعية القانونية للقضايا المسجلة عند الأوربيين الذين يتحكمون في ملفات العدالة وكسب

---

[١] الجزائر في التاريخ صـ٦٢٩.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر صـ١٧٥.

[٣] الجزائر في التاريخ صـ٦٣١.

[٤] الجزائر في التاريخ صـ٦٢٩.

أموال كبيرة من الجزائريين وإلغاء العمل بالقانون الجزائري والشريعة الإسلامية معناه حرمان آلاف الجزائريين من كسب العيش[1]، والحياة بأمان في ظل شريعة الإسلام العادلة.

وأدرك الجزائريون أن ضرب قضائهم الهدف منه ضرب الهوية الإسلامية الوطنية الجزائرية، فراحوا يناضلون من أجل مقاومة سائر الإجراءات التي تمس هويتهم، كالتجنس بالجنسية الفرنسية، وقانون الأدنجينا، والتفرس، والمطالبة بتعليم العربية والمساواة، وكان من القضاة الذين نشطوا في هذا الميدان حميدو بن باديس، ومحمد بن رحال[2].

٢ . الإمامة:

وفي خط موازٍ للسيطرة على الخطاب الديني وتدمير الهوية الإسلامية أوجدت السلطات الإستعمارية طبقة من رجال الدين الرسميين الموظفين تدفع لهم مرتباتهم بعد أن كانوا يتقاضونها من الأوقاف التي صادرت أملاكها السلطات، وقد خضع هؤلاء خضوعاً مطلقاً للإدارة ففرضت عليهم منذ بداية الاحتلال أن يدعوا على منابر المساجد دعوات عامة مع التوقف عن الدعاء لخليفة المسلمين، بل فرضت عليهم بعد الانتهاء من الصلاة وقراءة الفاتحة، أن يشمل دعاء الإمام في الأعياد ما يلي:

بالتأييد والتمكين لحكومة فرنسا، ومن لم يفعل يعتبر معادياً لفرنسا. يقول حمدان خوجة في كتابه المرآة: واختفت منذ ١٨٣٣م جرأة العلماء، لأنهم إن قالوا أو سكتوا عن خوف حكم عليهم بالنفي أو الحبس. واختفت من المساجد الرسمية حلقات الدروس لتكوين العلماء، بل اختفت دروس الوعظ الفاعلة التي تردد آيات وأحاديث فيها الجهاد ومحاربة الكفر، واستبدلت بدروس استبعد منها ما يفسر على أنه تعريض بالاستعمار، بل حتى هذه الدروس المراقبة كانت تحتاج إلى رخصة، يعين أئمة المساجد بالمدن مدير الشؤون الأهلية بالإدارة الاستعمارية، وبالريف تعينهم المكاتب العربية بالجيش، كان عدد المساجد

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر صـ١٧٥.

[2] الجزائر في التاريخ صـ٦٣١.

سنة ١٨٣٠م (١٤٩٤) مسجداً، ويبدو الإجحاف واضحاً ضد المسلمين في توزيع ميزانية الأديان على الديانات الثلاث، كانت المخصصات لسنة ١٨٨٧م كما يلي:

. الإسلام : ٢١٦٣٤٠ فرنك.

. المسيحية : ٩٨٦٤٠٠ فرنك.

. اليهودية : ٢٦٦٠٠ فرنك.

علماً بأن عدد المسلمين ثلاثة ملايين نسمة، وعدد المسيحيين ٣٥٠٠٠٠ نسمة، وعدد اليهود ٣٦٠٠٠ نسمة، كانت مداخيل أملاك الأوقاف تغطي نفقات المساجد والمدارس والتعليم بصورة عامة، صادرها المستعمر وصار ينفق من هذه المداخيل على الأديان الثلاثة، ووفق ما أورده ديبوت سنة ١٨٩٧م فقد قدر المدخول السنوي لأوقاف إقليم مدينة الجزائر وحده ما يقارب خمسة ملايين فرنك، ألغى الفرنسيون منصب شيخ الإسلام، وأبقوا على مناصب المفتون، بل ذهبوا بعيداً فحولوا الكثير من الأئمة والمفتون إلى مخبرين في أجهزة المخابرات، فأوغستين بيرك يقول: تحول بعض المفتين إلى جواسيس للإدارة الفرنسية. ويقول لوي ماسينيون: لقد استعمرت الحكومة الفرنسية العقيدة الإسلامية بالجزائر منذ ١٨٣٠م. كانوا يختارون المفتين والأئمة في معظم الحالات من أشباه الأميين.

وهذا الوضع للمساجد جعل الناس ينفرون من أئمتها الموظفين ويلجأون إلى المرابطين ومقاديهم، ولم يعدم بعض الأئمة النزهاء الشجعان، فالمفتي مصطفى الكبابطي وقف سنة ١٨٤٣م في وجه الجنرال بوجو، ووقف القاضي عبد العزيز سنة ١٨٣٤م في وجه فوارول. لكن كانوا أقلية[١].

٣ . محاربة التعليم الإسلامي:

[١] الجزائر في التاريخ ص٦٢٨.

ومن العناصر التي حاربها الفرنسيون التعليم العربي، فقد وجدوا تعليماً منتشراً عبر مدارس في المدن والأرياف، بحيث كانت نسبة الأمية متدنية جداً، وكان هذا التعليم يمول من الأوقاف، ويشهد الفرنسيون بأنه كان يملك ميزانية وافرة ومدارس كثيرة، ومعلمين أصحاب قدرة متميزة، وبرامج تعليمية، ونظاماً للشهادات. وبالرغم أنه لم يكن متقدماً، لكن الجزائريين يرون أنه يغطي حاجة مجتمعهم مع استعدادهم لتطويره. وكان بعض المفكرين الفرنسيين يؤيدون ذلك، فالبارون بيشون يرى: أن أنجع الوسائل هي إدماج الجزائريين في مصالحهم الخاصة، وتطوير التعليم عندهم باللغة العربية، وطالبت عدة تقارير فرنسية كتقرير بيدو سنة ١٨٤٧ وتقرير بارو سنة ١٨٤٩م وتقرير سنة ١٨٥١م الذي طالب: بضرورة الشروع في تكوين جيل جديد من الجزائريين في مدارس فرنسية لم يحضروا الغزو والمقاومة وإنما نشأ في عهد الاحتلال وفتح عينيه على الجزائر الفرنسية.

وبدأوا في فتح مدارس ابتدائية ومتوسطة تستوعب أبناء الجزائريين الموظفين والمستخدمين في الإدارة الفرنسية وسموها بالمدارس الأهلية.

وأما الأطفال الفرنسيون فلهم مدارسهم الخاصة المنتظمة التي فتحت منذ السنة الثالثة للاحتلال، وتأسست أول ثانوية وهي ليسيه بوجو سنة ١٨٦٢م الذي صار يحمل اسم ثانوية الأمير عبد القادر بالعاصمة بعد الاستقلال، ثم تتابع فتح ثانويات أخرى، وفي سنة ١٨٧٩م تأسست أربع مدارس عليا هي: الآداب، والحقوق، والعلوم والطب.

هذه الأخيرة سبق وأن نشأت متعثرة في ثكنة سنة ١٨٥٧م، وكانت هذه المدارس نواة للجامعة الجزائرية التي أسست في خدمة الاستعمار سنة ١٩٠٩م، فالآداب تحولت إلى وكر للاستشراق، والحقوق بؤرة لسيطرة القانون الفرنسي على الشريعة الإسلامية.

وكان التلميذ الفرنسي بهذه المدارس يجري امتحاناته النهائية في فرنسا.

كانت مدرسة الآداب تدرس الفصحى والدارجة، ويتولى التدريس بها المستشرقون الذين تولوا إدارة المدارس الثلاثة العربية ـ الفرنسية، كانت تركز على الدارجة حتى تعلم للإداريين الفرنسيين العاملين بالجزائر.

أما التعليم الابتدائي المخصص للجزائريين فقد بدأ بنوعين: عربي وفرنسي، العربي كان عبارة عن كتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، وكان الفرنسيون يمنعون تعليم أية مادة أخرى غير حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وفي سن الثالث عشر يغادر الكتَّاب دون مهنة أو مؤهل، وفي بداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر قررت إجبارية التعليم بفرنسا، ولم تشمل هذه الإجبارية إلا منطقة زواوة تحت إشراف الآباء البيض ولواء عملية التنصير، وفي العقد التاسع قرر الفرنسيون إنشاء بعض المدارس الأهلية التي تختلف عن المدارس المخصصة للفرنسيين، ويعلم الجزائريون فيها ليعملوا في مزارع وورشات الكولون، ولم يحظ الجزائريون بتعليم معقول مع الفرنسيين إلا في القرن العشرين بين الحربين العالميتين.

وأما التعليم المتوسط فقد خصصت له ثلاث مدارس بالعاصمة وقسنطينة وتلمسان مهمتهما إعداد موظفين في القضاء الإسلامي، وكان يديرها جزائريون متمكنون من العربية، وقد تدعمت في عهد نابليون الثالث الذي نشَّط القضاء الإسلامي ولكنها انكمشت بعد ١٨٧١م عندما أعلن الكولون الحرب على كل ما هو عربي إسلامي، وسيطر عليها المستشرقون، ومنذ ١٨٧٧م خرجت من إطارها كمدارس عربية أهلية وأدمجت في التعليم الفرنسي تحت اسم "المدارس الفرنكو الإسلامية".

وفي سنة ١٨٩٢م زادوا من فرنستها، وشدد المستشرقون سيطرتهم على إدارتها[١].

وبالإضافة إلى هذين النوعين من التعليم وجد نوع ثالث وهو التعليم المزدوج فأنشيء المعهد الكوليج العربي الفرنسي سنة ١٨٥٧م بالعاصمة بإدارة نيقولا بيرون وهو مستشرق سان سيمون، عمل في مصر في تدريس الطب، وكتب في تاريخ العرب والإسلام وأتقن

---

[١] الجزائر في التاريخ ص٦٣٤.

العربية، كانت مهمة المعهد تكوين نخبة جزائرية مثقفة باللغتين العربية والفرنسية في إطار الاندماج الثقافي وتلاميذ المعهد من العائلات المتعاونة مع الفرنسيين.

وفي عام ١٨٦٧م فتح معهد على غراره بقسنطينة، وبعد ذهاب نابليون الثالث وفي عام ١٨٧١م ألغى المعهدان وتقلص حتى عدد المدارس الابتدائية المخصصة للأهالي، واستمر وضع التجهيل للأهالي حتى سنة ١٨٩٢م حيث أعدت لجنة جول فيري البرلمانية تقريرها المشهور، فأعيدت الحياة للتعليم الابتدائي الأهلي الذي انطلق مع مطلع القرن العشرين انطلاقة متواضعة في حدود ضيقة جغرافياً وبشرياً طبعاً[1].

كان المستوطنون الفرنسيون يريدون أن لا يتعلم الشباب الجزائري خوفاً من أن يطالب بحقوقه السياسية والمساواة مع الفرنسيين، ولهذا نجح المستوطنون في إقامة مدارس لأبنائهم وأكاديميات لمواصلة التعليم العالي لكنهم أغلقوا الباب في وجوه أبناء الجزائر.

ومع تمكن المستوطنين من الجزائر بدأ عدد التلاميذ الجزائريين في الإنخفاض منذ عام ١٨٧٢م، حيث صار العدد ٨٥ تلميذاً فقط في مدرسة الجزائر بالعاصمة، وذلك بسبب محاربة المستوطنين لهذه المدارس العربية الفرنسية، وفي عام ١٨٨٢م لم يكن عدد التلاميذ الجزائريين في جميع مراحل التعليم أكثر من ٣١٧٢ تلميذ مسلم، وفي عام ١٩٠٢م كانت النسبة لا تتجاوز ٤,٢٦% من أبناء الجزائريين المسلمين الذين أتيحت لهم فرص التعليم، ويلاحظ هنا منذ أن استولى المستوطنون على السلطة في نهاية ١٨٧٠م تراجع عدد الأساتذة الذين تم توظيفهم لتعليم أبناء الجزائريين، فقد انخفض العدد من ٢١٦ معلم في سنة١٨٧٧م إلى ١٩٨ سنة ١٨٨٢م.

وفي عام ١٨٨٦م إنخفض عدد المدرسين إلى ١١٥ ثم تقلص إلى ٨١ معلماً في سنة ١٨٨٩م ووصل إلى ٦٩ معلماً فقط سنة ١٨٩٣م.

٤ ـ التعليم الحافظ للشخصية الوطنية:

---

[1] الجزائر في التاريخ ص٦٣٤.

فقد بقي محصوراً في الزوايا الصوفية التي تخرج منها العديد من قادة الثورات، وكان يقوم على تعليم العلوم الدينية واللغة العربية والتاريخ الإسلامي والتوحيد والمنطق والتصوف، وتسببت الثورات في هدم الفرنسيين للعديد من الزوايا وتهجير معلميها وطلابها، ومع توقف الثورات عادت الحياة للزوايا وبخاصة بعد عملية التدجين الفرنسية، واستأنفت رسالتها التعليمية، وكان خريجو الزوايا هم الذين يتولون القضاء حتى سنة ١٨٨٠م، وبعد هذا التاريخ صار مقتصراً على خريجي المدارس الثلاث التي أنشأها الفرنسيون. وصدر قرار بعدم قيام الزوايا بالتدريس إلا برخصة لا تعطى لها إلا بصعوبة وشروط، ومع كل هذه الصعوبات استمرت الزوايا تؤدي رسالتها التعليمية معتمدة على أوقافها الخاصة أو مواردها من زيارات الأخوان والأنصار والزكاة، وكانت زوايا الريف تعمل مثل زوايا: طولقة والهامل، وقصر البخاري، وأولاد الأكراد.

في آخر القرن التاسع عشر رخصت الإدارة لبعض المدرسين بإعطاء الدروس في الفقه، والتوحيد والنحو بمساجد معينة، مع منع المدارس من الاستشهاد بالآيات والأحاديث التي تشير للجهاد ولمقاتلة الكفار، وتحول الكثير من المساجد إلى مدارس ابتدائية تعد التلاميذ للدخول للمدارس الثلاث التي لا تملك مدارس ابتدائية تزودها بالتلاميذ واستطاع بعض المعلمين بطرق إيحائية بث أفكار وطنية بعيد عن أعين وآذان السلطات وكان من بين هؤلاء الشيخ حمدان الونيسي قبل هجرته إلى المشرق[1].

٥- محاربة فرنسا للسنوسية:

بقيت الحركة السنوسية إلى حد ما متماسكة في الجزائر بسبب وجود قياداتها الفاعلة خارج الجزائر، كانت لها علاقة بثورات مثل ثورة شريف ورقلة وثورة بوعمامة وعمل الشيخ السنوسي على إيجاد فروع للطريقة في بسكرة وبوسعادة والأغواط، واضطهد الفرنسيون اتباعها مثل محمد شبيرة فنفوه من بوسعادة إلى تونس وصادروا أملاكه. كما أسست الطريقة فرعاً لها بمستغانم التي ولد بها الشيخ السنوسي وأمام متابعة الفرنسيين

[1] المصدر نفسه، ص: ٦٢٦.

هاجر الشيخ السنوسي إلى ليبيا فاستقر بها سنة ١٨٤٣م فلحق به العديد من الجزائريين وكونوا لهم مركزاً قوياً في الجنوب بليبيا وتمكنت أسرة تكوك من الحفاظ على السنوسية بالجزائر منذ ١٨٥٩م وشاركت في عدة ثورات كثورة فليتة وثورة أولاد سيدي الشيخ ومؤسس زاوية طكوك هو الشارف ولد الجيلاني عبد الله بن طكوك المعاصر للشيخ السنوسي، سجنه الفرنسيون عدة سنوات ثم أطلقوا سراحه، وفي أثناء ثورة أولاد سيدي الشيخ اعتقل بمستغانم مرة أخرى سنة ١٨٧٦م، وتوفي الشيخ الشارف سنة ١٨٩٠م واستمر الفرنسيون يلاحقون سنوسية تكوك ويضطهدون مقدميها بسبب توجيهها من الزاوية الأم بجغبوب التي ساهمت في تأسيس الجامعة الإسلامية، ووجهت زاويتها بالجزائر على مناهضة الاستعمار، وساهمت في إنماء وعي وطني بين الجزائريين في العقدين الأخيرين للقرن التاسع عشر[١].

إن الإمام محمد بن علي السنوسي لم ينس القضية الجزائرية وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وعندما قدم محيي الدين الجزائري برفقة ولده واشراف قومه إلى مكة التقى بهم ابن السنوسي وأكرمهم غاية الإكرام بمكة وبعد أن أرادوا السفر ودعهم وقال لهم: إن الدين الإسلامي يحتم على كل مسلم أن يدافع عنه بقدر استطاعته ويحرم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدي والمنتهك لحرمات الدين والإسلام والمعطل لأحكام الله وإني أستوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيراً فإنه ممن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع رايات الجهاد. فكان هذا سبباً من الأسباب في إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه[٢]، وقد بينا جهاد الأمير عبد القادر في الصفحات السابقة.

لقد اعتبر الفرنسيون الحركة السنوسية عقبة كأداء في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية ولهذا نجد الكاتب الفرنسي دو فريه في غير اعتدال يصاب بحمى الهذيان فيقول: إن

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٨٢٦.

[٢] الحركة السنوسية للصلابي، ص: ٣٨.

السنوسية خطر عام على أوروبا، وخطر على الدولة العثمانية وخطر على شمال أفريقيا وخطر على مصر[١].

وأما السياسي الفرنسي المعروف هانوتو فيقول: لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست ببعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي مذهباً خطيراً له اتباع وأنصار معدودون ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس آمون إلى أن قال: ومن مذهب الشيخ السنوسي وأتباعه التشديد في القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمناً طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية غير أن هذا لم يمنع السنوسيين من مد حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في أفريقيا الجنوبية ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الأفريقية فإنه يوجد بالأستانة نفسها والشام وبلاد اليمن وكذلك مراكش عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أن تعرقلنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها[٢].

وقد وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد[٣].

واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التي أقضت مضاجعها ولم تكتم فرنسا رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته[٤].

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في أفريقيا وإستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية[٥].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

[٢] الحركة السنوسية للصلابي، ص: ١١٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

[٥] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

لقد شعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسي منذ فترة طويلة وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيج الجزائريين والمغاربة عموماً، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها وآذانها على طول الحدود مع تونس خوفاً من دخول ابن السنوسي إليها من ليبيا، وندب ابن السنوسي محمد بن صادق وحمّله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائري وعاد إلى طرابلس وتبنى ابن السنوسي دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلا وقد أوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال محمد بن الشفيع وعمر الفضيل المعروف بأبي حواء والشيخ أبو خريص الكزة.

وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دو فربيه الفرنسي ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة ١٨٤٨م ـ ١٨٦١م، وعصيان محمد بن تكوك في الظهرا عام ١٨٨١م.

وقد بيّن المؤرخ الليبي عبد القادر بن علي الذي رافق أحمد الشريف السنوسي عقوداً من الزمن أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا في الجهاد الجزائري حتى أن بعضهم أكل ثمرات غرس نواها وطلع وكبر وأثمر وأكل من ثمارها وهو في ميدان الجهاد[١].

وقد ذكر المؤرخ أحمد الدجاني خطاباً أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس التركي "غدامس في ليبيا" وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر وأن عدداً من اتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها ومنهم مرسل الخطاب وتاريخ الخطاب سنة ١٢٦٨هـ وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ ومن بين ما جاء فيه :" .. وأما أنا عبد الله حيث قدمت بلاد وارقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من

---

[١] الحركة السنوسية، ص: ٤١.

حكم الضعيف في القوي وصار القوي من عبده مخذولاً مذموماً، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي رحمه الله ونفعنا وإياكم به آمين.

وصار عربان وارقلة وقصورها وقبائل الثعامبة وقصور تغورن وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة.. وبعث لنا الرومي دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل.. تلافينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً وأعلننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأحبية والحمد لله على ذلك.

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض اتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر اتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢م[١].

لقد استمرت قيادة الحركة السنوسية على مر مراحل أجيالها الثلاثة في دعم الشعب الجزائري وواصل الملك ادريس السنوسي جهود آبائه وأجداده في الدعم المادي والمعنوي لثورة الجزائر التي اندلعت في ١/ ١١/ ١٩٥٤م، وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في المجلد الثاني من موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٦- يقظة أبناء الجزائر:

كان الشعب الجزائري عصي على مناهج المستعمرين واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابة الهوية الإسلامية ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، لقد كتب أحد المسلمين الجزائريين

---

[١] الحركة السنوسية للصلابي، ص: ٤١ ، ٤٢.

رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم، وهو يعبر عن الشعور الحقيقي لأغلبية الجزائريين حيث قال: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

وفي الحقيقة أن الجنرال شانزي الذي تم تعيينه حاكماً على الجزائر سنة ١٨٧٣م قد حذر السكان الأوروبيين من غضب وثورة أبناء البلد الأصليين إذ طلب منهم أن لا يتوسعوا في احتلال أراضي الجزائريين وقرر أن يعمل على إحتفاظ كل فرد بحقه في الملكية حتى لا يتذمر الناس ويثوروا ويخلقوا الفوضى، لكن الفرنسيين والأوروبيين المقيمين في الجزائر تمكنوا سنة ١٨٨٧م من الحصول على قانون يسمح لهم بتقسيم أراضي الأعراش وبيعها لهم بعد لتحقيق جزئي تقوم به السلطات المحلية.

وفي بداية القرن العشرين تغير أسلوب النضال حيث بدأ رجال النخبة في الجزائر يتحركون ويتحالفون ضد إدارة الاحتلال ودسائسها في بلدهم وذلك على المستوى الوطني ويرجع الفضل في هذا إلى التنظيم السياسي إلى رجال النخبة الذين تعلموا في المدارس الفرنسية وأصبحوا يحسون ويشعرون بإنعدام المساواة بين الجزائريين والأوروبيين وعدم وجود أي تمثيل سياسي لأبناء البلد الأصليين في المجالس المحلية المنتخبة، ولهذا فإن المناضلين بدأوا في مطلع القرن العشرين ينتهجون سياسة جديدة ترتكز ليس على مقاومة الغزاة الأجانب بالسلاح فقط ولكن ترتكز أيضاً على الإتصال والقيام بضغوطات متوالية على حكومة باريس لإنصاف الجزائريين وتمكينهم من الحصول على مقاعد في البرلمان الفرنسي والسماح لهم بالمشاركة في الإنتخابات المحلية والإعتراف بالشخصية الوطنية.
ومنذ ١٨٩٢م بدأت حركة الشباب الجزائري تقوم بالإتصالات مع المسؤولين الفرنسيين وتنقل إليهم هموم المواطن الجزائري وإشغالاته وتقترح عليهم ما ينبغي عمله لانصافه.

وفي واقع الأمر كان يمكن أن يقال بأن قادة حركة الشبان الجزائريين كانوا يقومون بنشاط هائل في الميدان الثقافي وفي المدن الكبرى بالذات لأنهم كانوا يجيدون اللغة الفرنسية

ويختلطون بالمفكرين الفرنسيين ويدافعون عن مبادئ تتمثل في التقدم والرقي وحصول الجزائريين على حقوقهم السياسية والاقتصادية.

وفي عام ١٩٠٤م انشأوا جريدة المشعل وحاولوا من خلالها نشر أفكارهم وإظهار التعلق بالشخصية الجزائرية وذلك مثل حرصهم على التمسك بالقيم الإسلامية والتقاليد الجزائرية ولكن مواقفهم السياسية ومعارضتهم العلنية للسياسة الفرنسية ظهرت بوضوح في عام ١٩٠٨م حين صدر مرسوم بتاريخ ١٧ جويلية ١٩٠٨م ينص على إحصاء الشبان الجزائريين الذين بلغوا سن الثامنة عشر وذلك بقصد تجنيدهم في الجيش الفرنسي وقد أثار هذا القرار غيظ وتذمر الجزائريين المسلمين الذين دأبت السلطات الفرنسية على إحتقارهم وتجريدهم من حقوقهم السياسية بدعوى أنهم مسلمون ولا يتخلون عن دينهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ثم تأتي نفس السلطات وتفرض عليهم في نفس الوقت أن ينخرطوا في جيش هذه الدولة التي تضطهدهم في بلدهم ويدافعوا عن علمها.

وفي شهر أكتوبر من عام ١٩٠٨م قدمت حركة الشبان الجزائريين إحتجاجاً على الحكومة الفرنسية على قرارها المتعلق بتجنيد الشباب الجزائري ودعت إلى إلغائه وعدم قبوله إلا إذا حصل الجزائريون على حقوق أساسية تتمثل في تعديل قانون الإنديجينا وإلغاء بعض بنوده وتخفيض العقوبات الواردة فيه ورفع نسبة التمثيل في الانتخابات المحلية والمساواة بين المسلمين والأوروبيين.

ورفض الشعب الجزائري التجنيد الإجباري وهاجر بعضهم إلى خارج البلاد وأفتى العلماء بعدم جواز الدخول في جيش المحتل والدفاع عن علمهم لأن ذلك يعني تسخير الإسلام لخدمة الدولة المسيحية.

وبعثت حركة الشبان الجزائريين بوفد إلى باريس يوم ١٨ جوان ١٩١٢م وذلك لمقابلة رئيس الحكومة الفرنسية على اتخاذ إجراءات سياسية لصالح السكان المسلمين وطالب وفد الشبان الجزائريين بمنح الجزائريين حقوقاً أساسية مثل:

. إلغاء قانون الإنديجينا.

. المساواة في دفع الضرائب.

. المساواة في التمثيل السياسي بالمجالس المحلية والبرلمان الفرنسي.

وحاولت حركة الشبان الجزائريين الإنفتاح على عامة الشعب وطبقاتهم الفقيرة من الفلاحين وغير المتعلمين فحرصت القيادية في حركة الشبان الجزائريين على مطالبة فرنسا بتعليم اللغة العربية في المدارس بالإضافة إلى الفرنسية، وإحترام الأعياد والشعائر الإسلامية، كما أعلنوا عن تأييدهم للعثمانيين "بصفتهم مسلمين" في حربهم ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا وضد الأوروبيين الذين تآمروا على تركيا في البلقان وهزموها وقد نتج عن تأييدهم لتركيا الإسلامية ودفاعهم عن القيم الإسلامية في الجزائر تأييد شعبي لهذا الموقف سواء في داخل الجزائر أو خارجها حيث هب المسلمون في انحاء العالم الإسلامي للدفاع عن الإسلام والمسلمين وطالبوا بأن يتصدى المسلمون للغربيين الذين يتعاونون فيما بينهم للقضاء على الإسلام من خلال قضائهم على تركيا.

واستغل أعضاء حركة الشبان الجزائريين التأييد الشعبي لتدعيم مكانتهم في داخل الجزائر وخارجها، فقاموا بحملة قوية في جريدة "الحق" ضد الإدارة الفرنسية في الجزائر وطالبوا في مقالاتهم بإنشاء بنك إسلامي وإعطاء قروض للفلاحين والتجار، وإعطاء ضمانات للفلاحين بأن لا يغادروا أراضيهم وإنشاء مراكز لتدريب وتكوين الجزائريين في المهن الصناعية والاهتمام بالتعليم الذي ينبغي توفيره لأبناء المسلمين.

ولم يتوقفوا عن المطالبة بإلغاء قانون الإنديجينا وإعطاء حق التصويت في الإنتخابات لجميع الجزائريين ومنح المسلمين مقاعد في البرلمان الفرنسي لتمثيلهم والدفاع عن مصالحهم فيه[1].

وبالرغم من تعاطف الناس مع حركة الشبان الجزائريين، فإنها لم تعمل على تحريك الشارع الجزائري ولم تكن حركة جماهيرية قادرة على محاربة قوات الاحتلال وإنما كانت عبارة عن حركة تقوم بحملة سياسية تستهدف الضغط على الإدارة الفرنسية لكي تقبل بمبدأ السماح للجزائريين أن يأخذوا مناصب سياسية عليا ويشاركوا في تسيير البلاد، كما يبدوا أن خطتهم كانت ترمي إلى خلق تأييد لهم على مستوى النخبة وكسب إحترام المثقفين الفرنسيين.

وفي عام ١٩١٣م تمكن قادة حركة الشبان الجزائريين من التفاهم والتحالف مع شخصية جزائرية مرموقة على الساحة السياسية الفرنسية والمتمثلة في شخصية الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الذي كان بذوره يلقي محاضرات في باريس ويطالب بإدخال إصلاحات سياسية على نظام الحكم في الجزائر.

وسار الأمير خالد على نفس المنهج الذي كانت تتبعه حركة الشبان الجزائريين، فطالب بالتعليم للمسلمين وتمثيلهم في المجالس المحلية وفي البرلمان الفرنسي وإلغاء القوانين الاستثنائية التي كانت تطبق على المسلمين فقط، وطالب كذلك بحماية العمال الجزائريين في فرنسا، إلا أن إنضمام الأمير خالد إلى حركة الشبان قد أثار ضحية كبيرة في أوسط رجال الإدارة الفرنسية بالجزائر حيث كانوا يعتبرونه العدو رقم واحد بالنسبة إليهم لأن الشعارات السياسية التي كان يستعملها الأمير خالد تعتبر بالنسبة إليهم بمثابة تحريض للسكان الجزائريين على الثورة ضد الأوروبيين في الجزائر وتم محاربة جهود حركة الشبان الجزائريين من قبل المستوطنين وقال رئيس بلدية الجزائر ينبغي منع الجزائريين من الحصول

---

[1] التاريخ السياسي، ص: ٢٠٦.

على أي تمثيل سياسي لأن قبولهم في أية هيئة إنتخابية يعني خلق وتدعيم حركة وطنية من الشبان ضد الاحتلال الفرنسي[1].

٧ـ الهجرة إلى الخارج بسبب الإضطهاد:

ضيق الفرنسيون في الجزائر على المواطنين المسلمين الخناق إلى درجة وجد المسلم نفسه دائماً مضطراً إلى الإختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى أو يعيش في زنزانة مغلقة مادام يطالب بحقوقه وكرامته.

وتوالت على الجزائريين المحن والمصائب بالمجاعة والضرائب وسلب الحقوق ودوس المقدسات وواجهوا ضغوطاً جهنمية من طرف الحكام الفرنسيين المحليين ونوابهم الذين يخضعون لسلطانهم مباشرة حيث كانوا يتفنون في تعذيب المسلمين عن طريق قانون الإندنجينا أو قانون الأهالي، مثلما يسميه بعض الكتاب على المسلمين وازداد نفوذ الحكام المحليون بعد سنة ١٩٠٢م حيث صاروا هم وكلاء المحاكم القمعية، ولا يحكم فيهم نواب الوالي وبالتالي لا يوجد من يراقبهم أو يتحكم فيهم، فقد كانت عندهم الصلاحيات المطلقة لإذلال الجزائريين وخاصة بعد أن أصبحوا هم القضاة وضباط ينفذون القرارات ورجال أمن يفرضون الضرائب، لقد اضطهدوا السكان المسلمين وطبقوا الإجراءات التعسفية على السكان حتى يخضعوا ويرضخوا لإدارة الاحتلال وابتز الحكام المحليون عامة الشعب وجمعوا أموالاً طائلة من الغرامات على الجزائريين وأصبحوا أثرياء على حساب الضعفاء المقهورين[2].

ونتيجة لهذا الظلم وهذه التجاوزات الخطيرة، تأزم الوضع في سنة ١٩١٢م وخاصة بعد أن قررت فرنسا في مرسوم صدر يوم ٣١ جانفي ١٩١٢م وفي مرسوم ثاني صدر يوم ٣ فيفري أن تجند الشبان الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٩، ٢٠ سنة وذلك للدفاع

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٠٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢١٥.

عن فرنسا بدون أن تمنحهم هذه الأخيرة الحقوق السياسية التي تصحب عادة أداء الواجب العسكري فصدرت إحتجاجات من حركة الشبان الجزائريين الذين اندهشوا من إقدام فرنسا على فرض الخدمة العسكرية بدون إعطاء الحقوق السياسية، كما إجتاحت الجزائر كلها موجة من الاستياء والغضب إلى درجة أن الآف الناس بدأوا يحاولن الهروب إلى خارج الجزائر ويهاجرون إلى أي بلد إسلامي يوفر لهم الحماية من ظلم الفرنسيين المتسلطين عليهم وحسب بعض المؤرخين الفرنسيين فإن أسباب الهجرة إلى الخارج والهروب من جحيم الإستعمار في الجزائر ترجع إلى ما يلي:

. فرض الخدمة العسكرية على الشبان الجزائريين بدون الحصول على حقوق سياسية.

. إستيلاء فرنسا بصفة نهائية على الأموال والأراضي التابعة للحبس.

. خلق عقبات في وجه الجمعيات الثقافية التي أنشئت للمحافظة على الثقافة الإسلامية العربية بالجزائر خاصة وأنه لم يعد للمدارس الحرة مصدر مالي لتسييرها.

. احلال قضاة السلام الفرنسيين محل القضاة المسلمين الذين يتبعون الشريعة الإسلامية.

. إحياء أبناء البلد الأصليين على تسجيل أ راضيهم وإلقاء القبض على الأفراد الذين أحتجوا على هذا الإجراء.

. مضايقة الأشخاص الذين يطلبون التصريح لهم من طرف المسؤولين الفرنسيين بالتنقل من مكان إلى آخر.

. إقامة محاكم استثنائية لفرض عقوبات صارمة.

. تصاعد نسبة الضرائب.

. بروز أزمات اقتصادية وتدهور حالة الأسواق.

. إنخفاض مستوى الصناعات اليدوية بسبب مزاحمة الأوروبيين.

. تعيين اليهود في أماكن حساسة ليقوموا بدور الشرطي السري.

. القضاء على نشاط المنظمات الثقافية التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري.

وعند استفساره من طرف النواب الفرنسيين في الجمعية الوطنية الفرنسية عن أسباب هجرة أبناء البلد الأصليين إلى الخارج أجاب الحاكم العام للجزائر ليتو، أن هذه الهجرة الجماعية جاءت نتيجة لتحريضات من الخارج والتعصب الإسلامي والأزمة الاقتصادية التي تواجهها الجزائر.

وجاءت شهادة الحاكم العام بمثابة أدلة قاطعة على تحيزه إلى جانب الجالية الأوروبية بالجزائر وعدم استعداده لكي يقوم بدور الوسيط بين السكان المسلمين والسكان الفرنسيين مثلما كان ينادي ويصرح وزير المستعمرات الفرنسية آنذاك السيد أدولف ميسيمي وخاصة في سنة ١٩١٥م ومن هنا بدأ رواد الحركة الوطنية الجزائرية يبحثون عن مخرج آخر للأزمة الجزائرية وتنظيم أنفسهم لإبلاغ مطالبهم إلى المسؤولين في باريس لأن مطاردة المستوطنين الفرنسيين للجزائريين في بلادهم وغلق الباب في وجوههم لتوضيح قضيتهم إلى قادة الشعب الفرنسي سيقود في النهاية إلى فرض الأمر الواقع وتقوية النفوذ الاستعماري في البلاد، وبالفعل فقد أخذ قادة حركة الشبان الجزائريين زمام المبادرة يوم ٢٠ جوال ١٩١٢م وتقابلوا مع رئيس الحكومة الفرنسية حيث عرضوا عليه مشروعاً يقضي بقبولهم مبدأ الخدمة العسكرية وفي مقابل ذلك تعترف فرنسا بحقوق الجزائريين وتمثيلهم في البرلمان الفرنسي وكان هذا الاتصال المباشر بين الشبان الجزائريين ورئيس وزراء فرنسا بمثابة تحدي للجالية الأوروبية التي جندت جميع النواب جميع النواب الفرنسيين المناصرين لها لإحباط هذه المساعي الجزائرية وفي اللحظات الحرجة لمناقشة الإصلاحات السياسية بالجزائر عام ١٩١٤م أثبت الأوروبيين سيطرتهم التامة على أعضاء البرلمان الفرنسي حيث حضر ٨ نواب فقط وقاطع جلسة مناقشة الإصلاحات في الجزائر الباقي من جملة ٥٩٧ نائب في البرلمان الفرنسي آنذاك وبهذا الانتصار أثبت قادة الجالية الفرنسية في الجزائر أنهم في مأمن من إمكانية حصول أية مساومة بين الجزائريين وفرنسا

مادامت أصواتهم في البرلمان الفرنسي ضرورية لكل حكومة وأجهزة أعلامهم نشيطة وفي مقدورها حجب الحقيقة عن الرأي العام الفرنسي[١].

ولقد تمكنت فرنسا من اجتياز محنة الحرب العاليمة الأولى بعد أن جندت ٨٢,٧٥١ جزائري في إطار الخدمة العسكرية وإنخراط ٨٧,٥١٩ جزائري آخر من الجيش بصفة دائمة، كما جلبت ٧٨,٠٠٠ عامل جزائري إلى العمل في المصانع الفرنسية وذلك لتعويض العمال الفرنسيين الذين إلتحقوا بالجيش وحسب الإحصائيات الرسمية الفرنسية فقد خسرت الجزائر في هذه الحرب ما لا يقل عن ٢٥,٧١١ قتيل "من المسلمين" و ٧٢,٠٣٥ جريح أي ١٤,٥% من القوات الجزائرية التي جندت للدفاع عن فرنسا وهذه النسبة قريبة جداً من نسبة الفرنسيين الذين ماتوا في الحرب العالمية والتي هي ١٦,٥%[٢].

ومع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث وبدأت الحركات السياسية والمنظمات الشبابية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي الإصلاحي بقيادة العلماء وعلى رأسهم الزعيم الوطني الشيخ عبد الحميد بن باديس تشق طريقها في وسط الظلام الدامس والظلم المخيم على الشعب الجزائري لتمهيد الطريق لوعي شعبي، ونضال مرير وكفاح شاق وجهاد اسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال توجت بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية قضت على الوجود العسكري والسياسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري وهذا ما سنعرف تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثاني من كتابي:

كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس

[١] المصدر نفسه، ص: ٢١٢.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٢١٥.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الخلاصة

١. بعد سقوط دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ /١٢٦٩م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام ٨٩٦هـ ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين.

٢. وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله.

٣. تعددت أسباب سقوط الموحدين منها ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين وثورات الأعراب المتتالية من قبائل بني سليم وبني هلال واندلاع ثورات الأندلس، والنزاع والخلاف بين الموحدين، والإنهيار العسكري الذي حدث بعد معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون، والترف الانغماس في الشهوات وضعف السلطة المركزية التي بسببها تقلصت أراضي الدولة في أفريقيا والمغرب والأندلس وفتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين.

٤. هدفت محاكم التفتيش إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية وبأشد وسائل العنف ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين تحول دون النزعة التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع.

٥. هاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع في تعذيب المسلمين.

٦. كان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه آية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفض أوامرهم بكل وسيلة وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأبرياء.

٧. من أهم أسباب سقوط غرناطة، تفتيت كيان الشمال الأفريقي، سعي ممالك إسبانيا نحو الاتحاد، الإنغماس في الشهوات الاختلاف والتفرق بين المسلمين، موالاة النصارى والثقة بهم، التخاذل عن نصرة من يحتاج النصرة، غذر النصارى ونقضهم للعهود، إلغاء الخلافة الأموية بالأندلس وبداية عهد الطوائف عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء، سوء سياسة الولاة وإرهاق الناس بالجبايات، الثورات الداخلية في الأندلس.

٨. حكم بنو مرين المغرب الأقصى بعد الموحدين ثم حكم الوطاسيون ثم جاء من بعدهم السعديون، وأما الجزائر فقد حكم بنو عبد الواد ثم العثمانيون ثم الاحتلال الفرنسي، أما تونس وليبيا فقد استولى عليها الحفصيون ثم العثمانيون.

٩. احتلت إسبانيا أماكن متعددة من سواحل الشمال الأفريقي مثل المرسا الكبير ووهران وبجاية ومستغانم.

١٠. هناك عدة أسباب أدت إلى شن تلك الحملات العنيفة والبغيضة لاحتلال سواحل الجزائر منها الدينية والأمنية والاقتصادية والسياسية وترتب على هذا الاحتلال نتائج اقتصادية وسياسية وأمنية.

١١. كان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين من الأندلس نزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الأفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي وكان من بين النازحين أعداد وفيرة من البحارة واستطاعوا تشكيل قوة لمحاربة الإسبان والبرتغال في البحر المتوسط.

١٢. ظلت حركات الجهاد الإسلامي ضد الإسبان والبرتغاليين غير منظمة حتى ظهور الأخوان خير الدين وعروج بربروسة واستطاعا تجميع القوات الإسلامية في الجزائر

وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد الأعداء عن التوسع في موانئ ومدن الشمال الأفريقي.

١٣. اعتمدت هذه القوى الإسلامية الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر في البحر بسبب عدم قدرتها على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الإسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا وقد حقق المجاهدون نجاحاً أثار قلق القوى المعادية ثم رأوا بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين فسد البرتغال والأسبان وحلفاؤهم.

١٤. وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة وكذلك شككوا في أصل قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج وكانت حملة إعلامية ضدهما معتمدة على الكذب والبهتان.

١٥. يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين وكان والدهما يعقوب بن يوسف من المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزر الأرخبيل وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها من تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين.

١٦. دخل خير الدين بربروسة بعد تحصين مدينة الجزائر تحت ولاء الدولة العثمانية وطالب أعيانها وشيوخها مساعدته على ذلك، لأن السلطان العثماني هو الوحيد القادر على مساعدتهم بالمال والرجال وجميع ما يحتاجونه من عتاد، ولا يكون ذلك إلا بالدعاء له في الخطبة وضرب السكة بإسمه وأشار عليهم أن يكتبوا للسلطان بذلك، فاستحسن أعيان الجزائر ذلك وكتبوا رسالة بإسمهم إلى السلطان وقبل ذلك.

١٧. بدأت الدولة العثمانية في دعم ولاية الجزائر بالسلاح والعتاد والرجال وتم تعيين خير الدين من قبل السلطان برتبة بيلرباي على الجزائر.

١٨. في الحقيقة كان إعلان خير الدين ومعه أهالي الجزائر تبعيتهم الطوعية للدولة العثمانية مبعث سرور كبير للسلطان سليم الذي كان يطمح أن يمد نفوذ الدولة العثمانية إلى المحيط الأطلسي.

١٩. دخلت الجزائر رسمياً تحت الدولة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩م ودعى للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة بإسمه وأصبح أقليم الجزائر أول الأقاليم من الشمال الأفريقي يدخل تحت حكم الخلافة العثمانية.

٢٠. توالت انتصارات الدولة العثمانية في شمال أفريقيا بعد ١٥٤١م فقد تم القضاء على دولة بني زيان سنة ١٥٥٥م وضمت تلمسان إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي وأجبر الإسبان على الإنسحاب من طرابلس الغرب سنة ١٥٥٢م وميناء تونس سنة ١٥٥٣م وأخرجوا من تونس نهائياً سنة ١٥٦٩م فزادت هيبة العثمانيين في نفوس الأوروبيين وباتوا يعتقدون أن الجزائر مدينة لا تقهر.

٢١. وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمن الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن.

٢٢. تميزت الفترة التي حكم فيها خير الدين الجزائر بتحرير كافة المناطق التي كانت خاضعة للاحتلال الإسباني فلم تبق في أيديهم سوى بجاية ووهران، حيث تم في عهد خير الدين تحرير تنس وشرشال وجيجيل والجزائر ودلس ومستغانم وهنين وقلعة سيدي راشد.. وغيرها، كما تصدى للحملات الإسبانية الرامية إلى إعادة احتلال مدينة الجزائر وشرشال، وغيرها من المدن التي طردوا منها حتى يئسوا من العودة إلى الجزائر.

٢٣. بروز الدور الفعال للأسطول العثماني الذي تولى خير الدين قيادته، حيث تمكن من نقل المعركة مع أوروبا من البر إلى البحر، ونشر الرعب في سائر الدول المطلة على ساحل البحر المتوسط اعتباراً من معركة بروزة سنة ١٥٣٨م وأما في غرب البحر المتوسط فقد

كان البحارة العثمانيون يضربون السواحل الإيطالية والإسبانية بشكل مستمر، ويعترضون السفن الأوروبية في عرض البحر، حتى صار الإمبراطور شارلكان نفسه يجد صعوبة كبيرة في سفره إلى إيطاليا عبر البحر بسبب خطر البحارة العثمانيين الذين كانوا ينطلقون من الجزائر.

٢٤. صنع خير الدين من الجزائر دولة متميزة عن جارتيها وأقامها على نفس الرقعة الجغرافية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية اليوم تقريباً ولذلك فإن اعتبار خير الدين المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية الحديثة، لا يمكن وصفه بالأمر المجانب للصواب، لأن وقائع تاريخ الجزائر الحديث شاهدة على ذلك.

٢٥. يعود الفضل إلى خير الدين في صنع الكيان السياسي للجزائر كدولة، فإليه يعود الفضل أيضاً في الدور السياسي والعسكري المتميز الذي لعبته الجزائر منذ إلحاقها بالدولة العثمانية، إذ تحولت إلى جبهة متقدمة في الصراع مع أوروبا المسيحية ممثلة في إمبراطورية شارلكان وحلفائه.

٢٦. يعود الفضل إلى خير الدين في صنع الكيان السياسي للجزائر كدولة فإليه يعود الفضل أيضاً في الدور السياسي والعسكري المتميز الذي لعبته الجزائر منذ إلحاقها بالدولة العثمانية، إذ تحولت إلى جبهة متقدمة في الصراع مع أوروبا المسيحية ممثلة في امبراطورية شارلكان وحلفائه.

٢٧. نظم خير الدين ٣٦ حملة بحرية نقل خلالها ٧٠,٠٠٠ أندلسي إلى الجزائر وبذلك ساهم في إنقاذ عشرات الآلآف من مسلمي الأندلس ونقلهم إلى الجزائر ومنحهم من إقطاعات كبيرة مكنتهم من أن يجعلوا من بعضها مدنا شكلوا أغلبية سكانها مثل البليدة وتنس وشرشال، بينما شكلوا في مدن أخرى جالية فعالة مثل: الجزائر وبجاية والمدية وغيرها.

٢٨. عندما تولى صالح رايس مقاليد ولاية الجزائر بأمر من السلطان العثماني، عمل في سياسته الداخلية على أمرين:

. تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر.

. إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للأندلس.

أما سياسته الحربية الخارجية، فقد كانت ترمي إلى ثلاثة أهداف:

. إبعاد الإسبان نهائياً عن أراضي الجزائر.

. وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التي تقوم بها الدولة السعدية.

. إعلان نفير الجهاد العام والسير براً وبحراً على رأس الجيوش الإسلامية إلى بلاد الأندلس.

٢٩. بعد عودة فاس للسعديين ظهر محمد الشيخ كخصم عنيد للعثمانيين ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في شمال أفريقيا والأكثر من ذلك أنه أعلن إثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، كان هذا التنافس السعدي العثماني على شمال أفريقيا لصالح الإسبان والبرتغال ولا عجب إذ رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين.

٣٠. لقد حالت عدة أسباب دون ضم المغرب الأقصى للدولة العثمانية منها:

. ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ونعني به المنصور السعدي.

. وفاة قلج في ١٥٨٧م ومن بعده أدخل الشمال الأفريقي في نظام الولايات.

. كان النصر الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سبباً في تقدير السلطات العثمانية للسعديين واحترامهم.

٣١. بوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظام البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السلطة والنفوذ، واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

٣٢.كانت الدولة العثمانية في جهودنا البحرية في البحر المتوسط أكثر توفيقاً من البحر الأحمر والمحيطات لعدة أسباب منها:

. قرب الشمال الأفريقي من كل من إسطنبول ومصر يجعل الإمدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لا تصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.

. كانت للعثمانيين قواعد قوية في شمال أفريقيا تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية في محاربة النصارى وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.

. لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة في شمال أفريقيا بل كانت الهيمنة للمذهب السني الذي استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها.

٣٣. اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤هـ - ١٥٦٦م وكانت مقدمات ضعف الدولة العثمانية قد اتضحت في عهد السلطان سليمان.

٣٤. كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدّم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م وذلك بواسطة سفيره بإسطنبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها، وأن فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به ومع ذلك أوغلت فرنسا طموحها وألحت على طلبها، وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة حتى تحصلت على امتيازات خاصة في السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائري وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية.

٣٥. تدخل محمد علي ملك مصر وعرض مشروعه لاحتلال المغرب العربي، ليبيا وتونس والجزائر وضمها لمصر وإسقاط الداي عدو فرنسا، مقابل دعم فرنسا له على أن يضمن لها الحصول على امتيازات اقتصادية وعسكرية بالجزائر وقد عبر عن استعداده للتوجه إلى المغرب العربي على رأس جيش قوامه ٦٢ ألف جندي ولكن بريطانيا عارضت تدخله وتوسعه غرباً وهددت فرنسا رسمياً بأنها قررت استعمال القوة ضد مشروع محمد علي.

٣٦. كانت فرنسا مدفوعة في غزوها للجزائر بأسباب عدة ولكنها ادعت أمام الرأي العام أن هدفها القيام بحملة تأديبية ضد الجزائر وفي الحقيقة إن فرنسا كانت تخطط لاحتلال الجزائر والاستيلاء عليها منذ ١٧٩٢م، أي سنة إبعاد اسبانيا وتصفية قاعدتها العسكرية في المرسى الكبير بوهران، وأما أهم الأسباب في الاحتلال فهي: سياسية، وعسكرية، واقتصادية، ودينية.

٣٧. تأكد نزول الجيش الفرنسي بسيدي فرج يوم ١٤ جوان ١٨٣٠م وعندما أحس الداي حسين أن المدينة صارت في حكم الساقطة، قرر الاتصال بالفرنسيين وأرسل أمناء سره لمفاوضتهم.

٣٨. وقع الداي حسين حاكم الجزائر في اخطاء من أبرزها: إعدامه لقائد جيشه، ثقته في وزير المالية وكانت في غير محلها، عدم وجود انضباط من بعض رجال الأمن، عدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين.. الخ

٣٩. تأكدت جشاعة الفرنسيين وتهافتهم على الثروة وخيرات الجزائر يوم هرع رجال الجيش الفرنسي إلى دخائر قصر الداي والاستيلاء عليها ثم تهريبها إلى فرنسا واختلس ضباط الحملة الفرنسية لأنفسهم ما قيمة ٥٠ مليون فرنك فرنسي وأكتفوا بتسليم ما يعادل ذلك للحكومة الفرنسية.

٤٠. قرر قادة الجيش الفرنسي إنتهاج سياسة احتلال الجزائر وتجريد الجزائريين من أراضيهم والسيطرة على ثروات البلاد وممتلكات المواطنين وأموالهم وتسخير الجزائريين كخدم وعبيد للمحتلين، وكانت الفوضى غامرة والدمار شامل وممارسة العنف على أشده.

٤١. صادر المحتلون الفرنسيون الأوقاف العامة بمدينة الجزائر وعدد غير قليل من المدن الأخرى التي تم السيطرة عليها، لقد نظر الفرنسيون إلى الأملاك الدينية بمنظار فرنسي استعماري همجي بربري حرصوا على كسب ثروات طائلة في أسرع وقت ممكن ولو على حساب الإنسانية، وتم تحويل بعض المساجد إلى كنائس وقد رسمت السلطات الفرنسية خطة ممنهجة للقضاء على الديانة الإسلامية.

٤٢. كان الكثير من الدول لا ينظر لاحتلال فرنسا لمدينة الجزائر على أنه مؤقت، فعندما أعلنت فرنسا سنة ١٩٣٢م أنها ستستمر في احتلال الجزائر طلبت منها بريطانيا تفسيرات رسمية عن ذلك فبينت فرنسا بأنها غير ملزمة بأي تعهد دولي إزاء الجزائر وأنها تفعل ما تريد.

٤٣. إنطلقت المقاومة الجزائرية واتبعت فرنسا وكان من أشهر الثورات، ثورة سيدي السعدي وابن أبي مرزاق وابن زعموم.

٤٤. وأما الخسائر التي تكبدتها الخزينة الفرنسية من جراء مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال، ارتفعت أصوات فرنسية ضد الاستعمار وهاجم عدد من النواب في جلسة مناقشة الميزانية والمصروفات الاستثنائية للاحتلال وطالبوا من الحكومة الإسراع في تحرير فرنسا من عبء الجزائر.

٤٥. استمرت المقاومة وبقي الاحتلال محصوراً في مدن الجزائر ووهران وعنابة وحاول الفرنسيون تعيين شيوخ قبائل على الأقاليم الداخلية يحكمون حكماً محلياً مع تسليمهم بالسيادة الفرنسية، فلم يجدوا من يتعاون معهم وبقيت المقاومة مشتتة محلية إلى أن ظهر الأمير عبد القادر، فحول هذه المقاومة من محلية إلى وطنية.

٤٦. بدأ هذه الملحمة العظيمة والد الأمير عبد القادر الشريف الهاشمي محي الدين، وكان يتمتع بمكانة ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل، حتى إن الولاة العثمانيين كانوا يحسبون له حساباً، ويحترمون نفوذه بين القبائل ويخشونه.

٤٧. تولى الإمارة وقيادة الجهاد بعد المبايعة الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسني الهاشمي صباح الإثنين يوم الثالث من شهر رجب ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م.

٤٨. جاء الأمير عبد القادر بتجربة جديدة على العصر الذي عاش فيه وليست جديدة في التاريخ عندما رشحه والده للولاية عام ١٨٣٢م، كان أمامه نماذج من حكام المسلمين، سلطان المغرب، وسلطان آل عثمان، وشاه إيران، وملك أفغانستان، ثم ولاة من أمثال باي تونس وباشا مصر، وإمام اليمن وكان يمكنه أن يقلد هؤلاء أو حتى يقلد الداي حسين المخلوع، ولكن الأمير رفض أن يكون نموذجه أحد هؤلاء جميعاً وإنما اختار نموذجاً جديداً يؤصل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في عهده الذهبي.

٤٩. ما إن تمت للأمير البيعة حتى قصد منزله وقال لأم أولاده: إن أردت أن تبقي معي من دون التفات إلى طلب حق، فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأنني قد تحملت ما يشغلني عنك وبطبيعة الحال عبرت له زوجته عن استمرارها في العيش معه وأن تتقاسم معه أعباء المسؤولية.

٥٠. بعد هذه البيعة الشعبية حمل الأمير عبد القادر مسؤولية الحكم وامتد سلطانه إثر معارك دامية حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري، وبعد أن استقام له الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة النواة وتشكيل الكوادر الحكومية فعين الأكفاء من الرجال واعتمد الفقه الإسلامي أي التشريعات المنبثقة من القرآن الكريم والسنة نظاماً لحكمه وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

٥١. بعد معارك طاحنة خاضها الأمير ضد الجيوش النظامية الفرنسية أدرك ضرورة خلق جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، فاتجه إلى إنشاء جيش حديث واهتم بتدريبه الفنون العسكرية وزوده بالأسلحة المتقدمة.

٥٢. عمل الأمير على بناء مؤسسات الدولة، من حكومة مركزية وتقسيم البلاد إلى ثمان ولايات، ووضع معايير لتعيين موظفي الدولة ومناصبهم واهتم بالسلطة القضائية، وأقام مجلس شورى، وأنشأ نظاماً اقتصادياً ومالياً عاماً، ودعم حركة التجارة، ونشط الدبلوماسية، وأسس جهاز مخابرات واهتم بنشر الثقافة والحضارة الإسلامية، واستطاع الاستفادة من خام الحديد والنحاس وعمل على تشجيع الصناعة، وأنشأ المشافي.

٥٣. كان أول عمل قام به الأمير حملات إخضاع القبائل التي رفضت البيعة، فخرج مباشرة بعد البيعة وقام بحملة واسعة بين القبائل العربية والبربرية، فأخضع القبائل التي لم تعترف بالبيعة وفرض عليها أن تعترف بقرار الجماعة.

٥٤. وبعد عودته من أرزيو قرر تأديب القبائل تنشر الفوضى بين المواطنين وكانت تقوم بالسلب والنهب وكانت قبيلة فليتة تشتمل على بطون وعشائر وكان من عادتها السلب والنهب وقطع الطرق والتعرض للسابلة وبقي هذا شأنها منذ عهود موغلة في القدم، فكم روّعت من قبائل مجاورة لها وبسطت أموالها وعندما بويع الأمير طلب الشعب منه وضع حد لعدوان هذه القبيلة فاستجاب له وتوجه بالجيش وحط بالطحاء في منطقة تعرف باسم "بهيرة" ومنها أرسل إلى قبيلة فليتة وما جاورها من القبائل.

٥٥. توالت الضربات المتتالية الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، فاستنكر عدد من البرلمانيين الفرنسيين الاحتلال المنظم للجزائر بسبب الثمن المالي والبشري الباهظ الذي دفعه الشعب الفرنسي واضطر الفرنسيون للمعاهدة مع الأمير عبد القادر.

٥٦. نقضت فرنسا عهدها وأعلن الأمير الحرب من جديد، وتوالت المعارك وانهزم الفرنسيون في الكثير منها.

٥٧. استطاع ليون روش عميل المخابرات الفرنسية أن يخترق دولة عبد القادر وأن يصل إلى مكان مقرباً من الأمير ويصبح مترجمه الخاص ولعب دوراً خطيراً تحت قناع الإسلام ويعتبر حلقة من حلقات الاستعمار في اختراقها للجزائر.

٥٨. جعل ليوث روش من تفانيه في تعلم اللغة العربية والدخول في الإسلام مطية للجوسة التي كلف بها من قبل المخابرات الفرنسية وأوكلت إليه أمر مراقبة الأمير عبد القادر ورسمت له الخطط المناسبة.

٥٩. استغل الأمير توجه كلوزيل إلى قسنطينة فأصدر أمره إلى خليفته مصطفى التهامي والبوحميدي بالتوجه على رأس جيش إلى وهران وحاربة القبيلتين اللتين تحالفتا مع الفرنسيين وهما قبيلة الغرابة وقبيلة بني عامر والعشائر المتحالفة معهما، فاكتسح الجيش جنودهما واستولى على مواشيهما وألحق بها هزيمة قاسية وأمر الأمير خليفته محمد بن علال أن يتوجه إلى الجزائر، فانطلق بجيشه إلى متيجة ونواحي الجزائر يدمر مزارع الكولون ويستولي على مواشيهم ويأسر بعضهم ووصلت قواته إلى أبواب العاصمة التي هرب الفرنسيون وراء أسوارها وأغلقوا أبوابها وعاد إلى حاضرة ولايته.

٦٠. تفاوض الأمير عبد القادر مع الجنرال بوحو وأرسل مبعوثاً من طرفه هو السيد حمادة السقال رئيس حضرة تلمسان وبعد أخذ ورد حررت معاهدة تافنة يوم ٢٠/ ٥/ ١٨٣٧م.

٦١. قام الأمير عبد القادر بمحاربة من شقوا عصا الطاعة مثل محمد عبد الله البغدادي، وتصدى للتمرد الذي قاده محمد التيجاني.

٦٢. كان الأمير يعمل على إحاطة دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو، وأراد أن يحيط علماء

المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة في نوازل متعددة منها التعامل مع حركات التمرد.

٦٣. اهتم الأمير ببناء مصانع عديدة أنشئت في المدن التي كانت تحت سيطرة الأمير وأن مطاحن البارود وإذابة الحديد أخذه بالعمل وهي تنتج قناطير من البارود يومياً.

٦٤. أصاب بيجو غضب شديد عندما علم بانتصار الأمير على التيجني وهزيمة بني عراش أيضاً وإخضاعه لمعظم القبائل وتوسعه في بناء الحصون والمصانع وتطوير الجيش النظامي وأنه في طريقه لإنشاء إبراطورية جزائرية يصعب التفاهم معها، فكيف بالسيطرة عليها وأصبح خطره أكبر على مدينة الجزائر.

٦٥. خرق الجنرال بيجو الهدنة واندلعت الحرب من جديد مع تعزيزات وامدادات ضخمة من فرنسا لصالح المحتلين.

٦٦. بينما أمير البلاد كان يرسل رسائل الاحتجاج إلى ملك فرنسا والمارشالات في مدينة الجزائر بنفس الوقت وجه نداء إلى شعبه والأوامر إلى خلفائه في المدن يأمرهم بالاستعداد للحرب وبزيارات للمستشفيات، وتفقد أنظمتها وتلبية حاجتها من أطباء وممرضين وأدوية ويكتب رسائل إلى زعماء القبائل الموالية له ويطلب منهم الاستعداد للجهاد في سبيل الله.

٦٧. في السادس من شهر كانون الأول سنة ١٨٣٩م عقد الأمير اجتماع دعا إليه أعضاء مجلس الشورى وزعماء القبائل والخلفاء وقادة الجيش والعلماء واتخذوا بالإجماع قرار استئناف القتال وصدرت الأوامر إلى القيادة العسكرية بالزحف إلى معسكر العدو وحصونه.

٦٨. طبّق بوجو خطة تدمير الريف وحرقه، وكل ما فيه من حقول وحبوب في مواسم النضج، وقام بقطع الأشجار والثمار ومعاقبة كل قبيلة مقاومة وذلك بتجريدها من

أرضها وتمليكها للكولون وطردها للصحراء وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، بحيث يقدر عدد الذين قتلوا من الجزائريين نصف تعداد السكان.

٦٩. كانت قوة الأمير عبد القادر تكمن في استحالة العثور عليه، إنها في المكان الرحب الواسع في حزرة شمس أفريقيا المحرقة في مكان ندرة المياه وإنها في حياة الترحال التي خطّها كأسلوب لمحاربة فرنسا.

٧٠. أصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر وبدأ ميزان القوى لصالح فرنسا على حساب الأمير.

٧١. ارتكب جيش الاحتلال أكثر الفظائع وحشية ضد المدنيين والتي سماها المؤرخون بالرازيا من محو للقرى وإبادة جماعية وهتك للأعراض..الخ

٧٢. كان موقف الدولة العربية مما يجري في الجزائر سيئاً بل أخذ البعض يساعد العدو، بل يقاتل إلى جانبه بكل ما يملك من قوة.

٧٣. أقام الأمير عبد القادر مدينة الخيام المتنقلة ليجنب المدن الرئيسة من تدميرها بواسطة القنابل والمدفعية الفرنسية، وتعرضت هذه المدينة للاعتداء بيد القوات الفرنسية ورد الأمير مسرعاً على من هاجم المدينة المتنقلة وأعاد بناءها من جديد.

٧٤. دخل سلطان المغرب في معاهدة مع فرنسا وأصبح يحرض القبائل على التمرد ويتدخل في شؤون دولة الأمير ويطلب من هذه القبائل تقديم العون للفرنسيين، لقد رضخ سلطان المغرب لضغوط فرنسا ووقع معها معاهدة سلام يوم ١٠ سبتمبر ١٨٤٤م وكان من أهدافها وضع الأمير عبد القادر في وضعية الخارج عن القانون في كامل التراب المغربي والجزائري.

٧٥. على الرغم من عناده ووسائله البربرية، فإن بيجو لم يتمكن من القضاء على الأمير حيث أنه كان في كل مرة يبشر بنهاية أمره، وكان خصمه الذي لا يقهر يبرز من جديد

بضربات موجهة ضد الجيش الفرنسي ويعيد اشعال نار الحرب التي لم يكن يريدها وإنما فرضت عليه فرضاً.

٧٦. نقل الأمير المدينة المتنقلة إلى المغرب الأقصى، وقرر الاستمرار في غزواته على القوات الفرنسية داخل الجزائر.

٧٧. انتقل الأمير في لمح البصر فغزا قبيلة صدامة في وادي العبد متجاوزاً بوجو ولاموريسيير اللذين لم يكونا بعيدين عنه، ثم قبيلة الأحرار وغنم منها وراح ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ويفرض الطاعة عليها، أو تعود له طوعاً.

٧٨. لقد احتضن الشعب المغربي الأمير عبد القادر وخاصة قبيلة بني بزناسن وأهل وجدة والريف وغيرهم ولقد استشهد الكثير منهم مع الأمير في جهاده ضد الغزاة الفرنسيين واختلط دم المغاربة مع الجزائريين وكتبوا ملحمة جديدة في تاريخ شعوب المغرب.

٧٩. استطاعت فرنسا أن تضغط على سلطان المغرب وتجنده لصالح مشروعها في الجزائر والاستفادة من نفوذه للتأثير على القبائل الموالية لعبد القادر في نفس الوقت كان المارشال بيجو يطمع إلى المزيد من تأييد القبائل له واعتمد في سياسته مع السكان طريقة الترهيب والترغيب.

٨٠. بدأ واضحاً في عام ١٨٤٧م أن الطوق الفولاذي بدأ يضيق حول المقاومة وأصبحت هجمات العدو أشد ضراوة وقوة، بعد أن تم له تفتيت جبهة الأمير الداخلية وضمن طاعة أكثر القبائل، ودُمرت الزمالة ولم يبق من أقسامها إلا الدائرة وأحرقت المحاصيل الزراعية لتجويع المجاهدين.

٨١. كان السلطان عبد الرحمن حاكم المغرب مستمر في مراسلة القبائل التي بايعت الأمير عبد القادر ويستخدم علماء بلده في اتهامه بأنه زائغ عن الهدى، وقد جاء في إحدى الرسائل: إن من يتبع هذا الرجل فقد باع دينه وباء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى.

٨٢. بالغ السلطان عبد الرحمن في عدائه للأمير إلى الحد الذي جعله يحرض عليه زعيم الأحلاف في الريف الشيخ بوزيان وزعماء بني سناسن وغيرهم ولم يكتف بذلك، بل أرسل ذات مرة جيشاً بقيادة الأحمر وأمره بالاستيلاء على مقر الأمير.

٨٣. وفي أواخر سنة ١٨٤٧م لم يعد الأمير يحارب جنرالات فرنسا وجنودها المدربين بل شُيِّد بينه وبينهم سد من صدور المسلمين، شيّده السلطان عبد الرحمن وفرض على الأمير واقعاً مراً مرفوضاً من قبل المؤمنين وهو قتال الأخوة.

٨٤. رأى الأمير حان وقت وقف الحرب، كحاكم لدولة وقائد للجيش النظامي وليس وقف المقاومة لأنها بيد الشعب، وليست بيده، ولن تقف إلا بزوال الاحتلال.

٨٥. كان رأي الأمير طلب الأمان ليسمح له الهجرة إلى ديار المسلمين الدولة العثمانية في استنبول أو بلاد الشام وليس الاستسلام والطريق إلى ذلك المفاوضات.

٨٦. بدأت المفاوضات ووافقت فرنسا على شروط الأمير في طلب الأمان والسماح له بالهجرة، وعدم الغدر بجنود الأمير.

٨٧. انتشر خبر رحيل الأمير في أرجاء الوطن كالنار في الهشيم، ووقع هذا الحدث المفاجيء كالصاعقة على رؤوس السكان فأخذت النساء البكاء والعويل وعمد الرجال إلى التجمعات الصامتة الحزينة، والنفوس كالنار تحت الرماد.

٨٨. نقضت فرنسا عهدها واعتقلت الأمير وأودعته السجون وعرضت عليه القصور والأراضي الشاسعة فرفض وقال: لو ملكتموني فرنسا كلها فلن أقبلها عن وطن عربي إسلامي أعيش فيه، ولو وضعتم فرنسا كلها في برنسي هذا وفرشتموها بالديباج لنقعته إلى الأمواج التي تضرب جدران هذه البارجة الحربية.

٨٩. كان الهدف من سجن الأمير تحطيم رمزيته الكبيرة في نفوس الشعب الجزائري، فرئيس الحكومة فيزو الذي عيّن الجنرال الأشد عناداً في حرب الأمير فقد كتب في مذكراته: أنه لا يمكن تحطيم رجل عظيم على رأس أمته طالما أنه لم يقتل أو يؤسر.

٩٠. بعد ما تولى الأمبراطور الثالث الحكم في فرنسا عمل على إخراج الأمير من سجنه وكان ذلك عام ١٨٥٢م وزارة في المعتقل قبل إطلاق سراحه.

٩١. غادر الأمير عبد القادر فرنسا متوجهاً إلى الاستانة ووصل إسطنبول ورست الباخرة هناك أول عام ١٨٥٣م وكان أول عمل قام به الأمير زيارة ضريح أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وبعد ذلك زار جامع أيا صوفيا وبعد استراحة عدة أيام في سراي حكومية خصصت له ولمن معه قام بزيارة السلطان عبد المجيد خان الذي رحب به بحرارة بالغة وأثنى على جهاده العظيم ضد المستعمرين وعرض عليه عدة مدن ليختار أحداها، فأختار مدينة بورصة لما سمعه عن جمالها، وجمال الطبيعة فيها وعذوبة مياهها ومناخها اللطيف.

٩٢. كثرت الزلازل في مدينة بورصة وضواحيها وشكلت أذى للسكان والمهاجرين، مما اضطر السلطان إلى السماح للأمير بالإقامة في دمشق الشام وصدرت الأوامر إلى محمود نديم باشا وإلى دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير وإعداد السكن اللائق به.

٩٣. كانت مدة إقامته في دمشق متفرغاً للصلاة والذكر والتأمل والعلم والتدريس في الجامع الأموي أو في دار الحديث النووي وكان دؤوباً على عمل الخير والصلاح مواظباً على المطالعة والتأمل وزار بيت المقدس والجليل ووقف عند مزاراتها التاريخية، وبعد فترة سافر إلى حمص وتوقف عند ضريح الصحابي الجليل خالد بن الوليد ثم قدم حماة ومنها انتقل إلى دير سمعان لزيارة قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز.

٩٤. بدأ الأمير الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه فضلاً عن نظم الأشعار والقصائد في مواضيع شتى منذ سن مبكرة حتى آخر أيامه.

٩٥. من أشهر كتبه المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد، وكتاب ذكرى العاقل وتنبيه الفاضل.

٩٦. نسب إليه كتاب المواقف بعد وفاته بثمانية وعشرين سنة ولكنه باطل من حيث الحقيقة وأمام الدليل العقلي والحجة التوثيقية العلمية ووضعت فيه أفكار وعقائد هو منها براء، كما أنه نسب إليه كتاب مذكرات في السجن عام ١٨٥١م وهو كذلك باطل من حيث الإثبات والحجة في النسبة إليه.

٩٧. تخرج على يدي الأمير عبد القادر كثير مما تأثر الشباب بسيرته الجهادية والعلمية وبأدبه ومنهجه وأصبحوا فيما بعد من العلماء واستمروا على ذلك النهج ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر عبد الرزاق البيطار، الطاهر الجزائري، عبد الغني بن طالب.

٩٨. شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عليش وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عليش والعلامة عبد الرزاق البيطار وحفيده الشيخ محمد البيطار وآخرون كثر بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام.

٩٩. أراد بعض الناس الاستفادة من اسم الأمير ونسبوا إليه ما لم يعتقده من غلاة الصوفية وبدون وصية من الأمير وتكليف في كتاب "المواقف" والذي لا علاقة بالأمير به وأثبتنا بالحجج والأدلة العلمية بطلان نسبته إلى الأمير.

١٠٠. كان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطق شرعي، فهي كانت تمثل دولة الخلافة الإسلامية والأمير لم يجعل دولته تابعة إدارياً لدولة الخلافة ولكنه كان تابعاً لها روحياً وكان أثناء حكمه يخاطب السلطان العثماني بكلمة "مولاي خادم حضرتكم ومقبل تراب أعتابكم".

١٠١. كان للأمير موقفاً عظيماً للدفاع عن نصارى أهل الشام لما تعرضوا للأعتداء، فدافع عنهم بشهامة ورجولة ومنع المعتدين بالقوة وساهم في دفع أي مبرر لدخول جيوش الدول الأوروبية لحماية النصارى.

١٠٢. اتهم الأمير عبد القادر بأنه تعاطف مع الماسونية ثم انتسب إلى محافلهم وقد روّج لهذه الدعاية الكولونيل وليام تشرشل صاحب كتاب "حياة الأمير" ولم ينقل بأمانة الكثير

مما ذكر له الأمير عبد القادر من صفاء ووضوح تاريخه، ثم نقل وليام تشرشل هذه الفرية وأذاعها من العرب، جرجي زيدان ومن سار على نهجه الملتوي والخادع.

١٠٣. لقد حاولت الحركة الماسونية فعل كل ما في وسعها لتجعل الأمير عبد القادر أحد المنتسبين إليها ولكنها لم تفلح وكل ما ذكر في تاريخهم عن الأمير أكاذيب لا أصل لها ومن نسج خيالهم.

١٠٤. كانت أيامه الأخيرة يغلب عليها الهدوء والبساطة والنظام الدقيق وكان يستعد للقاء الله عز وجل وينتظر الأجل ومنذ حجه عام ١٨٦٢م أصبحت حياته تميل إلى الزهد والعبادة والعلم والتعليم ومساعدة الناس ومع تقدم سن الأمير واعتلال صحته خف نشاطه وجهده وعمت الإشاعات عن حالته الصحية وانتقل إلى رحمة الله يوم ٢٦ ماي ١٨٨٣م.

١٠٥. وبعد تحرر الجزائر لم ينس أبطال الجزائر وثوارها وحكومتها وزعمائها رفات الأمير عبد القادر، فقد كانت سيرته الجهادية وأخلاقه الربانية ملهمة لهم وأصروا على نقل رفاته من دمشق إلى الجزائر وتواصلوا مع الثورة السورية وتم الاتفاق.

١٠٦. في احتفال شعبي ورسمي نُقل رفات الأمير عبد القادر وهو في الواقع ليس رفاتاً، بل تراث وتاريخ ونضال وكفاح وجهاد من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء، بعد أن أصبحت دار سلام ليُوارى في التراب الذي روّته دماء جروحه وتضحيات اخوانه وجنوده وأبناء جيله في ملحمة نادرة في تاريخنا المعاصر.

١٠٧. إن شعبية الأمير في الغرب لم تكن نتيجة العمل الإنساني الذي قام به إزاء المسيحيين فقط، بل إن أحداث دمشق التي كان الأمير يطلبها، لم تكن إلا لتزيد من تلك الشهرة التي كانت واسعة من قبل، لقد أثار كفاحه البطولي ضد أكبر قوة في أوروبا إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء الغربي، كان له صدى كبير حتى في أمريكا، فقد أسست

مدينة صغيرة بولاية ايوا من طرف ثلاثة رواد أمريكيين في عام ١٨٤٦م أطلق عليها اسم القادر على شرف الأمير.

١٠٨. لم تتوقف الثورات بعد مغادرة الأمير للبلاد وكان من أشهر هذه الثورات ثورة الزعاطشة وبوبغلة والشريف محمد بن عبد الله بوزقلة، وثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة والصادق بلحاج، ومحمد بوخنتاش الباركتي، وأولاد سيدي الشيخ وثورة بوشوشة، محمد بن تومي بوشوشة وثورات المقراني والشيخ الحداد وبومرزاق، وثورة واحة العمري وانتفاضة الأوراس وثورة أبوعمامة.

١٠٩. سيطر الحكم العسكري على الجزائر فترة طويلة من الزمن وبعد وقوع الإمبراطور نابليون الثالث في الأسر لدى الألمان مالت الكفة لصالح المستوطنين الفرنسيين على حساب العسكر وبدأت المراسيم التي تعزز سلطة المعمرين في ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م.

١١٠. تقرر منح التمثيل النيابي لكل ولاية جزائرية في البرلمان الفرنسي، ثم السماح للمعمرين الفرنسيين سنة ١٨٧٥م أن يكون لكل ولاية ممثل لهم في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي مجال القضاء وأصبحت المحاكم تتشكل من الفرنسيين فقط وتصدر الأحكام التي تراها أنها تخدم قضايا المعمرين فقط.

١١١. ابتداء من عام ١٨٨١م جاء المستوطنون الفرنسيون بقانون جديد يسمى "قانون الأندوجينا" وهو عبارة عن مجموعة من النصوص وضعت بقصد مسخ الهوية الجزائرية واستعباد الشعب من خلال الطاعة العمياء للفرنسيين وقد بقي ساري المفعول حتى سنة ١٩٤٤م.

١١٢. عملت أجهزة الاستعمار على تنصير الجزائريين وتأسيس كنيسة جزائرية، كان أنطوان دوبوش أول أسقف فرنسي تولى الأسقفية بالجزائر سنة ١٨٣٨م وعمل من أجل استعادة الكنيسة الأفريقية والمسيحية كما كانت قبل الإسلام مثلما يزعم وهو الذي حول جامع كتشاوة إلى كتدرائية الجزائر وأعطاها اسم كنيسة سان فيليب.

١١٣. يعتبر الكاردينال لافيجري أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير وطبعها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين وهو يمثل خلال سنوات ١٨٦٨م - ١٨٩٢م قمة التبشير في الجزائر والمغرب العربي وفي قارة أفريقيا.

١١٤. إن تمسك مناطق القبائل والشعب الجزائري بالإسلام وتعاليم القرآن أربك مخططات الكاردينال لافيجري وجعلها غثاء لا أثر لها في حياة الناس وإن الإنسان ليرى عمق محبة الأمازيغ والجزائريين للإسلام من خلال صمودهم وثباتهم العظيم وصدق الزعيم عبد الحميد بن باديس الصهاجي الأمازيغي عندما قال:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عني أصله
أوقال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له
رام المحال من الطلب

١١٥. ومن العناصر التي استعان بها الاستعمار الفرنسي المستشرقون من أمثال: شيريون، وهادمان، وفيرو، ودي رينو، ودبنوكس، ودي سلان.

١١٦. عمل الاحتلال الفرنسي على إفراغ القضاء الإسلامي من صلاحياته، فقد كان قبل الاحتلال مستقلاً بشكل معقول وقد تطور القضاء في دولة الأمير عبد القادر الذي أولاه رعايته الخاصة واستمر الفرنسيون في تفريغ القضاء الإسلامي من صلاحياته وما أن حل آخر القرن التاسع عشر حتى لم تبق له سوى عملية تسجيل الزواج والطلاق وهوت قيمة القاضي الإسلامي.

١١٧. حارب الاحتلال الفرنسي التعليم الإسلامي الذي كان منتشراً في المدن والأرياف والمساجد والذي كان يمول من الأوقاف التي تم مصادرتها.

١١٨. بقيت الحركة السنوسية إلى حد ما متماسكة في الجزائر بسبب وجود قيادتها الفاعلة خارج الجزائر، وكانت داعمة للثورات بالجزائر.

١١٩. إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر اتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢م.

١٢٠. لقد استمرت قيادة الحركة السنوسية على مر مراحل أجيالها الثلاثة في دعم الشعب الجزائري وواصل الملك ادريس السنوسي جهود آبائه وأجداده في الدعم المادي والمعنوي لثورة الجزائر التي اندلعت في ١/ ١١/ ١٩٥٤م وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في المجلد الثاني من موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

١٢١. كان الشعب الجزائري عصي على مناهج المستعمرين واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابة الهوية الإسلامية ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً. لقد كتب أحد المسلمين الجزائريين رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم وهو يعبر عن الشعور الحقيقي لأغلبية الجزائريين حيث قال: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

١٢٢. في بداية القرن العشرين تغير أسلوب النضال حيث بدأ رجال النخبة في الجزائر يتحركون ويتحالفون ضد إدارة الاحتلال ودسائسها في بلدهم وذلك على المستوى الوطني وطالبوا بإلغاء قانون الإندويجينا والمساواة في دفع الضرائب، والمساواة في التمثيل السياسي بالمجالس المحلية والبرلمان الفرنسي.

١٢٣. ضيق الاحتلال الفرنسي في الجزائر الخناق إلى درجة وجد المسلم نفسه دائماً مضطراً إلى الاختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى أو يعيش في زنزانة معلقة مادام يطالب بحقوقه وكرامته.

١٢٤. مع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث وبدأت الحركات السياسية والمنظمات السياسية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي الإصلاحي بقيادة العلماء وعلى رأسهم الزعيم الوطني الشيخ عبد الحميد بن باديس تشق طريقها في وسط الظلام الدامس والظلم الواقع على الشعب الجزائري لتمهيد الطريق لوعي جماهيري ونضال مرير وكفاح شاق وجهاد اسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال وتوجت تلك الجهود والأعمال بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية قضت على الوجود العسكري والسياسي الفرنسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري وهذا ما سوف نعرض تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثاني من كتابي "كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي".

١٢٥. إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات بطولية مشرقة من تاريخ الشعب الجزائري الحبيب العزيز لتكون نموذجاً للنضال والكفاح والجهاد تستمد منه الشعوب التي تسعى لنيل حريتها الدروس والعبر.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذه الدراسة وأن يبارك فيها وأن يجعلها من الأعمال الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأن ينفع بها شعوباً وأمماً تتعرض حقوقها للإنتهاكات وتسعى لنيل حريتها وكرامتها وإنسانيتها من وحوش البشر إن ربي على كل شيء قدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب

كتب صدرت للمؤلف:

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القرآن الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
١٦. خلافة عبدالله بن الزبير.
١٧. عصر الدولة الزنكية.
١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣. الشيخ عمر المختار.

٢٤. عبد الملك بن مروان بنوه.

٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧. وسطية القرآن في العقائد.

٢٨. فتنة مقتل عثمان.

٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠. دولة المرابطين.

٣١. دولة الموحدين.

٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣. الدولة الفاطمية.

٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦. إستراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩. المشروع المغولي عوامل الإنتشار وتداعيات الإنكسار.

٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١ . الشورى في الإسلام.
٤٢ . الإيمان بالله جل جلاله.
٤٣ . الإيمان باليوم الآخر.
٤٤ . الإيمان بالقدر.
٤٥ . الإيمان بالرسل والرسالات.
٤٦ . الإيمان بالملائكة.
٤٧ . الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.
٤٨ . السلطان محمد الفاتح.
٤٩ . المعجزة الخالدة.
٥٠ . الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها.
٥١ . البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
٥٢ . التداول على السلطة التنفيذية.
٥٣ . الشورى فريضة إسلامية.
٥٤ . الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير، وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.
٥٥ . العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
٥٦ . المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.
٥٧ . العدل في التصور الإسلامي.
٥٨ . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.
٥٩ . الأمير عبد القادر الجزائري.